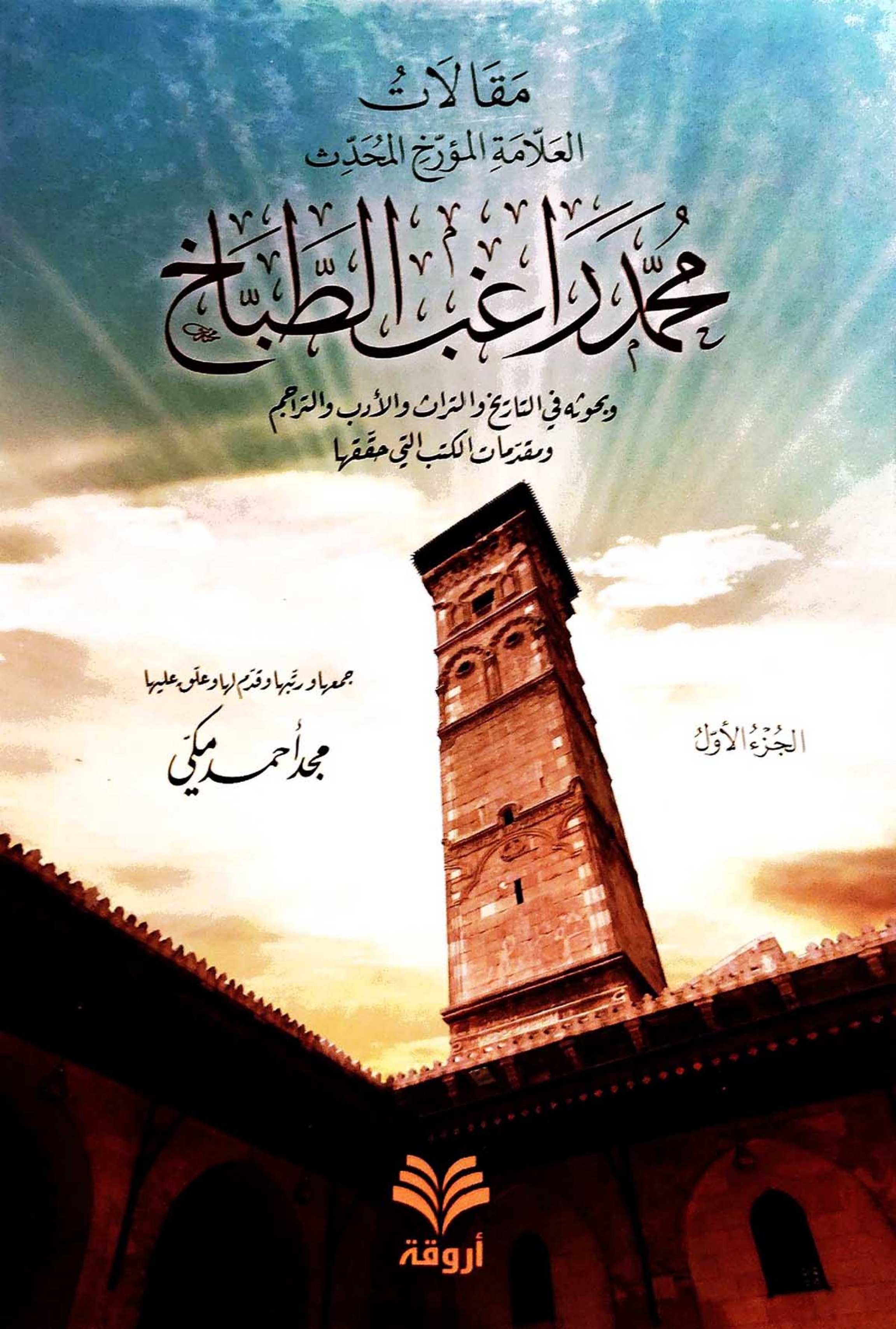

مقالات
العلّامة المؤرّخ المحدِّث
محمد راغب الطباخ
وبحوثه في التاريخ والتراث والأدب والتراجم
ومقدمات الكتب التي حققها
جمعها ورتبها وقدم لها وعلق عليها
مجد أحمد مكي
الجزء الأول
أروقة

□ مقالات العلامة المؤرخ المحدث محمد راغب الطباخ
جمعها ورتبها : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٢٣٢٠١٦ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٤٥١/ ١/ ٢٠١١)

الغلاف: صورة جميلة للجامع الكبير بمدينة حلب، فرّج الله عنه وعن أهلها

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

مَقالاتُ

العلّامةِ المؤرّخ المُحدّث



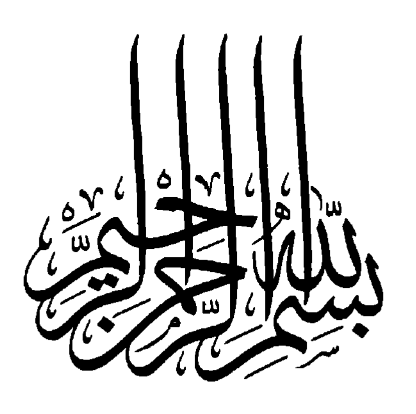
وبحوثه في التاريخ والتراث والأدب والتراجم
ومقدّمات الكتب التي حقّقها

جمعها ورتّبها وقدّم لها وعلّق عليها

مجد أحمد مكّي

الجُزءُ الأوّلُ




بسم الله الرحمن الرحيم

مقالات
العلّامة المؤرِّخ المحدِّث
محمد راغب الطباخ

المجلد الأول

المجلد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعتني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيِّد المرسلين، وآله الأكرمين، ورضي الله تعالى عن صحابته الغرِّ الميامين، وبعد:

فهذا مجموع نادر يضمُّ الكثير من مقالات شيخ شيوخنا العلامة محمد راغب الطباخ الحلبي رحمه الله تعالى، وتحقيقاته.

والشيخ محمد راغب يُعدُّ من أجدادي في السلسة العلميَّة التي تربطني به، فهو شيخ أكبر شيوخي الحلبيين وأكثرهم، وابن مدينتي ومؤرِّخها الكبير.

فالعلّامة المؤرّخ المحدّث الطباخ شيخٌ لأكبر شيخين من شيوخي، وهما: مصطفى الزرقا، وعبد الفتاح أبو غدة رحمهما الله تعالى.

ويعدُّه العلّامة الكبير الشيخ مصطفى الزرقا من أهم شيوخه الذين تركوا أثراً كبيراً في منهجه العلمي[1].

---

(١) وقد أثنى العلامة الطباخ على تلميذه مصطفى الزرقا في أكثر من موضع في كتبه، و أشاد بمساعدته له في مقابلة كتاب «اللوامع الضيائية» للكواكبي، كما ذكره في رسالة «الروضيَّات» للصنوبري، وشكره على مساعدته له في الحصول على بعض المراجع، فقال بعد إيراده عِدَّة أبيات للصنوبري: «هذا من مجموعة خطية عند الأديب أحمد عبيد الكتبي بدمشق، أحضره إلينا الشاب الفاضل الشيخ مصطفى الزرقا». وقال أيضاً: «من قطعة منه [أي: مناهج العبر للوطواط] عند صديقنا الفاضل الأديب السيد أحمد عبيد الكتبي بدمشق، وهي غير موجودة=

وقد ذكر ذلك في أكثر من مناسبة، منها قوله: «وكان ـ أي شيخه الطباخ ـ ذا ولع كبير بكتب الحديث ومخطوطاته، وله تتبُّع في مخطوطات التاريخ والسيرة النبوية، يحرص على أن يستخرج لنا العظات من حوادث السيرة، فيقف بنا على مواطن العبرة فيها مما يسمَّى اليوم بفقه السيرة، وكذلك يعمل في درس الحديث الشريف، إذ كان ينبِّهنا إلى العميق من علومه وكنوزه.. هذا إلى تنوُّر في الفكر، وانفتاح على حاجات الزمن، كشأن شيخنا الحنيفي، رحمهما الله جميعاً، ومن هنا كان له أثر في توجيهي إلى حرية الفكر والبحث، وإلى ربط العلم بالحياة.. فلهذين الأستاذين ـ أي: الشيخ محمد الحنيفي وراغب الطباخ ـ أكبر الأثر في تثبيت خُطاي في الطريق العلميِّ الصحيح»[١].

أما شيخنا العلامة العُمْدة المحقِّق المحدِّث عبد الفتاح أبو غدة فهو وارث علم شيخه، ومُتمِّم مسيرته، في العناية بعلم الحديث وإحياء كتبه في حلب الشهباء[٢].

= في نسخة المارونية، ولعلها فيما هو مخروم منها، وقد نقلها لنا الشاب الفاضل الشيخ مصطفى الزرقا الحلبي، أثناء وجوده في دمشق في معهد الحقوق».

(١) «علماء ومفكرون» ٢: ٣٢٦، للأستاذ محمد المجذوب.

(٢) وقد أثنى الشيخ الطباخ على تلميذه النجيب الشيخ عبد الفتاح في عدة مواطن من كتابه «الثقافة الإسلامية» وأشاد بتعاونه معه، فقال عند كلامه على كتاب «تأويلات القرآن» للكاشاني ص١٣٦: «في مكتبة الأحمدية كتاب كُتب عليه: تأويلات الكاشاني........ وبعد تحقيقي أنا والشاب النجيب عبد الفتاح غدة، تبيَّن من آخر خطبته أن اسمه: «عرائس البيان في حقائق القرآن»، وبعد مراجعة «الكشف» تبيَّن أنه للشيخ أبي محمد روزبهان بن أبي نصر البقلي الشيرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ.... وقد حررنا هذا التحقيق على ظاهر النسخة....». وقال أيضاً عند حديثه عن رسالة ابن حزم في أسماء المكثرين من الصحابة ص٢١٠: «هذه الرسالة استنسختها بخطي من مجموع في المكتبة الأحمدية بحلب.... وقد ساقها الحافظ ابن الجوزي في كتابه: «تلقيح فهوم الأثر» ص١٨٤ قال في أولها: هذه تسمية من ذكره الشيخ الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بقيّ بن مخلد الأندلسي في مسنده من الصحابة. وبين النسختين اختلاف، عُني بتصحيحهما والتعليق عليهما تلميذنا الشاب النجيب الشيخ عبد الفتاح الغدة، واستنسخ =

وتربطني بالشيخ محمد راغب ـ رحمه الله ـ روابط أخرى كثيرة، فهو ـ أيضاً ـ شيخ لعدد كبير من شيوخي، منهم: الشيخ عبد الله علوان رحمه الله تعالى، والذي كان يذكر لنا أثر شيخه الطباخ في تشجيعه وإخوانه على العلم والدعوة والخطابة، وحضوره مجالسهم العلميَّة، وسماعه خطبهم المنبريَّة.

ومن شيوخي أيضاً من تلاميذ العلامة الطباخ: الشيخ أحمد كعكة الحمصي، والشيخ أحمد قلاش، والشيخ محمد زين العابدين جذبة، والشيخ طاهر خير الله، والشيخ إبراهيم السلقيني، والأستاذ أحمد حسن كرزون رحمهم الله تعالى.

ومن المعاصرين الأحياء: الدكتور الشيخ محمد فوزي فيض الله، والدكتور الشيخ محمود أحمد ميرة، والدكتور الشيخ عدنان كامل سرميني، والأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني، والأستاذ الداعية محمد فاروق البطل حفظهم الله تعالى.

وقد رأيتُ من الوفاء لهذا العالم الجليل، وتلاميذه من شيوخي الراحلين والأحياء: أن أجمع ما تفرَّق من آثاره المطبوعة في عددٍ من المجلات.

وقد شرعتُ في ذلك منذ زمن طويل، وأعلنتُ عند خدمتي لفتاوى شيخنا الزرقا، عن هذا العمل، وقلت في ترجمته عند ذكري لأبرز العلماء الذين لهم أثرٌ في تكوينه العلمي، ومنهم الشيخ الطباخ ص٢٩: «وقد قمتُ بجمع ما للعلامة الشيخ محمد راغب الطباخ

= لنا وله نسخة بخطه، جزاه الله خيراً». وقال عند حديثه عن عقيدة الطحاوي وشروحها ص٢٨٩: «وأطلعني أخيراً الشاب النجيب عبد الفتاح غدّة على شرحٍ ابتاعه من شروح عقيدة الطحاوي، وهو في ٧٦ ورقة صغيرة، ذكر في مقدمته أنه ألفه باسم الأمير سيف الدين شيخو الناصري المتوفى سنة ٧٥٨هـ». وبين الشيخ راغب وتلميذه النجيب عبد الفتاح مراسلات علمية، وهي محفوظة عند ابنه الأستاذ يحيى، وقدمها لبعض الناشرين. وإصدارها يظهر الصلة العلمية المتينة بينهما رحمهما الله تعالى.

من آثار علمية، ومقالات تاريخية ممَّا نُشر في بعض المجلات، مع ترجمة مُوسَّعة تُعَـرِّف بفضله ومكانته وأثره العلمي الكبير، يسَّر الله طباعتها».

وكانت تلك الكلمة، وذلك الوعد منذ سنة ١٤١٩هـ أي: منذ خمسة عشر عاماً، وقد تأخَّر إنجاز ذلك العمل، وصُرِفْتُ عنه بصوارف متعدِّدة، وأعمال علميَّة كثيرة، ثم نهضت منذ أشهر لمراجعته وتقديمه للطباعة، مع أعمال علميَّة أخرى أعانَ الله على إتمامها ويسَّـر صدورها على الوجه المرضيِّ عنده سبحانه.

وكانت قد أُقيمت ندوةٌ علمية تكريميَّة عن الشيخ محمد راغب الطباخ محدِّث حلب ومؤرّخها في المكتبة الوقفية بحلب، بتاريخ ٢٦-٢٧ شعبان ١٤٣١هـ، الموافق ٦-٧ آب ٢٠١٠م، شارك فيها عدد من العلماء والأدباء.

وكنت أودُّ أن تكون لي مشاركة فيها، ولكنَّ إقْصائي التَّعَنُّتي عن بلدي، ومسقط رأسي ومرتع طفولتي ومدارج شبابي، حلب الشهباء، وهجرتي منها منذ أكثر من ثلاثين عاماً، حال دون هذه المشاركة، ودون الوقوف على بعض آثار الشيخ الخطيَّة المحفوظة في مكتبته لدى ورثته.

وقد اطَّلعت على أبحاث هذه الندوة، فلم أجد من اعتنى بذكر آثار الشيخ المتناثرة في المجلات، أو قام بجمعها، أو أشار إلى مواضعها، أو تحدَّث عن موضوعاتها، فرأيت من الوفاء لهذا الشيخ الجليل أن أُسارع إلى إصدار ما تجمَّع لديَّ من مقالات، لأنَّ رغبة الكمال ـ كما يقول شيخنا عبد الفتاح أبو غدَّة رحمه الله تعالى ـ يحولُ دون إنجاز كثير من جليل الأعمال، كما يميت التراخي والتَّسويف كثيراً من فريد التأليف.

وقد بلغ عدد المقالات التي جمعتُها أكثر من ستين مقالاً وبحثاً منها ما هو في صفحة أو صفحتين، ومنها رسائل وبحوث تزيدُ على ستين صفحة.

وقد استحسنتُ أن أضمَّ إلى هذه المقالات بعض مقدِّمات كتبه النادرة التي حققها ونشرها في مطبعته العلميَّة حسب تسلسل صدورها، مثل: كتاب «الطب النبوي»، و«معالم السنن»، و«الإفصاح عن معاني الصحاح»، و«العقود الدريَّة في الدواوين الحلبية».

وكنت قدّمت لهذا العمل بترجمة واسعة للمؤلف رحمه الله تعالى، وهي سيرة ذاتية كتبها بقلمه، في أربعة مواطن، فاعتمدت أوسعها، وعلَّقت عليها تعليقات واسعة نافعة، ثم رأيت إفرادها في كتاب خاص، أضمُّ إليه بعض إجازاته العلميَّة.

ورتَّبت المقالات والبحوث والمقدمات حسب الموضوعات، ثم أوردتها في كل فصل حسب التسلسل التاريخي.

وَقَسَّمتُ المقالات إلى سبعة فصول:

الفصل الأول: بحوث ومقالات إسلامية.

والفصل الثاني: مقالات وتحقيقات تاريخية.

والفصل الثالث: في التراجم.

والفصل الرابع: في المخطوطات والمطبوعات (تعريف ونقد).

والفصل الخامس: في الأدبيات واللغويات.

والفصل السادس: في مقدِّمات الكتب التي حقّقها وطبعها في مطبعته العلمية.

والفصل السابع: في الرسائل المحققة التي نشرها في بعض المجلات.

وقد عرَّفت بهذه الفصول وما أدرجت فيها من مقالات الشيخ وبحوثه بعد هذه المقدمة؛ لتكون مدخلاً لتلك المقالات.

وقد اجتهدت في جمع ما تفرَّق من مقالاته وبحوثه المطبوعة، وترتيبها وتصحيحها والتعليق عليها.

وأقول بعد انتهائي من هذا العمل كما قال العلامة الطباخ بعدما ذكر ما بذله من جهد في جمع ديوان الشاعر حسين بن أحمد الجزري الحلبي (ت ١٠٣٢هـ) في مقدمة «العقود الدرية في الدواوين الحلبية»: «وكنتُ كلَّما كرَّرت ما وقفتُ عليه من شعره في تراجمه، يزداد حلاوةً لديّ، فأزداد به شَغَفاً، وله تعشُّقاً، وتناديني النَّفس: إنَّ مثل هذا الشعر لا ينبغي أن يبقى في بطون الدفاتر مُبدَّداً، وفي الزوايا مُهملاً.

ولما عاودتْ ذلك النداء المرّة بعد المرّة، وجدتُ أن لا محيص من تلبية ندائها، وتحقيق أمنيتها، فعزمتُ على جمع متفرِّق شعره، والتنقيب عنه في بطون المجاميع والأوراق المبعثرة، ولا رَيْبَ أنَّ صدق العزيمة يذلِّل المصاعب، ويسهِّل الوصول إلى أسمى المطالب».

وأقول: إنَّ مثل هذه المقالات والتحقيقات لا ينبغي أن تبقى في بطون المجلات مُبدَّدة، وفي الزوايا مُهملة.

وأرجو الله تعالى أن أكون بصدق العزيمة قد ذللت المصاعب، ووصلت إلى أسمى المطالب.

وأسأله عزَّ وجل أن يتقبَّل مني هذا العمل، ويحقِّق لي الأمل، وأن يعجِّل بالفرج عن بلاد الشام عامَّة، وعن بلدتنا حلب الجريحة المنكوبة، وأن يرحم شهداءها الأبرار، ويفرج عن المعتقلين المظلومين من سجون الفجار، وأن يردَّ علماءها

الشرفاء، ليحملوا لواء العلم والتربية والدعوة بإخلاص وصدق، إنه سبحانه وليّ ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه:
مجد بن أحمد مكي الحلبي

الدوحة ٢٩/ ١١/ ١٤٣٣
الموافق ١٥/ ١٠/ ٢٠١٢

* * *

التعريف
بهذه المقالات والبحوث

ذكر العلامة الطباخ في ترجمته الذاتية الموسعة التي كتبها سنة **١٣٥٨** أسماء المجلات التي نشر فيها مقالاته، فقال: «في سنة **١٣١٩**، أخذت في قراءة الجرائد، وأخصُّ بالذكر منها: جريدة «ثمرات الفنون» التي كانت تصدر في بيروت، وفي سنة **١٣٢٣**، صرتُ أكاتبها وأنشر فيها بعض المقالات[١].

وبعد إعلان الدستور العثماني؛ استعاض مُحرِّرها المرحوم الشيخ أحمد حسن طباره عنها بجريدة «الاتحاد العثماني»، فبقيت أكاتبها[٢] إلى أن قُبِض على الشيخ أحمد المومأ إليه، وأُخِذ مع من أُخذ إلى (عاليه) في لبنان، وهناك شُنِقَ مع من شُنِق، وذلك مُسطَّر في الكتب معلوم في القضيَّة السوريَّة.

وكاتبتُ كثيراً جريدة «الحقيقة» التي تصدر في بيروت، وجريدة «البلاغ»، و«المفيد» البيروتيتَيْن أيضاً[٣].

وكتبتُ عدَّة مقالات في جريدة «صَدَى الشهباء» التي كانت تصدر في حلب[٤].

---

(١) وقد وقفت على ثلاث مقالات، سيأتي التعريف بها.

(٢) كتب الأستاذ نميم قاسمو، أمين سر جمعية العاديات، ومدير تحرير مجلتها الفصلية، كلمة ضافية عن الشيخ الطباخ والصحافة، وأولى اهتمامه بصحيفة «الاتحاد» العثمانية، وذكر أهم المواد الصحفية التي نشرها فيها.

(٣) لم أقف على هاتين الجريدتين.

(٤) لم أقف على هذه الجريدة أيضًا.

وقال أيضاً: «وفي سنة ١٣٤١هـ وسنة ١٩٢٣م في آذار منها؛ عُيِّنتُ عضواً للمجمع العلمي العربي في دمشق مع الأعضاء المعيَّنين له من الشهباء، ولي في مجلّته التي يُصدِرها المجمع رسائل كثيرة، يرجع معظمها لتحقيق مسائل تاريخية، ووصف كثير من الكتب المخطوطة الهامة، وقد صدر منها إلى سنة ١٣٥٦ و١٩٣٧ خمسة عشر مجلداً، وآخر مقالة لي فيها؛ مقالة: «دُور الكتب في حلب قديماً وحديثاً»[١]، نُشِرت في الجزء الثامن من المجلد الخامس عشر، وهي محاضرة ألقَيتُها في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية».

وقال أيضًا في ترجمته الذاتية المتقدمة: «وفي أواخر سنة١٣٥٧، وضعت مقالة لتلقى محاضرةً عنوانها: «السياسة في القرآن» مفسِّراً فيها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ [البقرة: ٢٤٦] مُبيِّناً فيها أن القرآن العظيم مشتمل على آيات كثيرة تتعلق بالسياسة لمن تتبَّع ذلك وتدبَّره، وقد ألقيتها في نادي دار الأرقم، ونُشرت في مجلة «الفتح» المصريَّة[٢].

ولي مقالات كثيرة نشرت في مجلة «الحقائق» الدّمشقية[٣]، ومجلة «المكتبة» المصريَّة[٤]، ومجلة «الزهراء» المصريَّة[٥]، ومجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيَّة[٦]، وممَّا

---

(١) سيأتي وصف هذه المقالة ص٣٧-٣٩.

(٢) سيأتي التعريف بها ص٣١-٣٣.

(٣) وقفت على مقالة واحدة عنوانها: «الرق في الإسلام ومقاصد الأجانب في إلغائه»، وسيأتي التعريف بها أيضًا ص٢٩.

(٤) مجلة المكتبة، مجلة أدبية تبحث عن المؤلفات وقيمتها العلمية، لمديرها عبد العزيز الحلبي، صدر عددها الأول في شوال ١٣٤٢. وقد وقفت على أربع مقالات فيها سيأتي التعريف بها.

(٥) له فيها عدَّة مقالات منها: «أربع تواريخ مخطوطة للبلاد اليمانيَّة»، و«منبر المسجد الأقصى في القدس الشريف»، و«صناعة الزجاج في الحضارة العربيَّة»، سيأتي التعريف بها أيضاً.

(٦) وقفت على مقالات كثيرة، منها: «يقظة الغرب ورقدة الشرق»، و«الكمال ابن العديم وتاريخه بغية الطلب»، و«المدارس في الإسلام»، و«قاعة دور الحفاظ»، و«تحقيقات هامة واكتشاف خطير عن قبر أبي العلاء المعري»، وسيأتي التعريف بها جميعاً.

نشرته في هذه المجلة في عدد ٣٦: تحقيقات هامة عن قبر أبي العلاء المعري، ومجلة «الاعتصام» الحلبية[١].

ومن جملة ما نشرتُه في هذه المجلة: ما جمعتُه من شعر عمر بن حبيب الحلبي الأديب المشهور من أعيان القرن الثامن.

ورسالة: «الكنز المظهر في استخراج المضمر» للعلامة رضي الدين محمد بن يوسف الحنبلي الحلبي المؤرِّخ المتوفى سنة ٩٧١.

ومقالة عن رحلتي لطرابلس الشام في صفر من سنة ١٣٥٢، واجتماعي فيها بالعلامة الشريف الشيخ محمد عبد الحي الكتاني الفاسي.

ومحاضرة عن رحلتي لمسكنة (بالس) والرصافة والرقة مع أعضاء لجنة العاديات، نُشرت في مجلة «العاديات».

وقال في ترجمته الذاتيّة التي كتبها للصنيع سنة ١٣٦٦هـ: «ثم صرتُ بعد سنة ١٣٣٨ أي: بعد الحرب العالمية الأولى، أراسل المجلات، وإلى الآن وأنا أكتب مقالات وتحقيقات تاريخيَّة، وأصِفُ الكتب المخطوطة التي في مكاتب حلب في مجلة «المجمع العلمي العربي» التي تصدر في دمشق، وأحياناً في غيرها. ولو جُمع ما كتبتُه في الجرائد والمجلات لجاء في مجلدات».

وأحسب أنني وقفت على كثير مما نشره في المجلات، وحاولت الاستقصاء، فلم أستطع، ولم أقف على مقالاته في الجرائد التي أشار إليها، وهي: جريدة «الاتحاد العثماني»، وجريدة «الحقيقة»، وجريدة «البلاغ»، و«المفيد» التي كانت تصدر في بيروت.

وكذلك جريدة «صَدَى الشهباء» التي كانت تصدر في حلب.

---

(١) سيذكر هنا ما نشره في المجلة، وقد وقفتُ عليها جميعها.

ولعلَّ الله يقيِّض لهذه الجرائد باحثًا دؤوبًا، يجمع مقالاته فيها، ويصدرها، لاستكمال ما بدأت به من جمع آثار الطباخ رحمه الله تعالى.

وأقدم المقالات التي وقفت عليها كانت في جريدة: «ثمرات الفنون» البيروتية سنة: (١٣٢٤هـ= ١٩٠٧م)، ثم مجلة «المقتبس» الدمشقية سنة: (١٣٢٨هـ= ١٩١٠م). ولم يشر في ترجمته الذاتية إلى كتابته فيها.

وآخر مقالة نشرت له في مجلة «مجمع اللغة العربية»، سنة: (١٣٧١هـ= ١٩٥٢م). بعد وفاة الطباخ بعام.

وكنت متردِّداً في ترتيب المقالات: هل أرتبها حسب تسلسلها التاريخي أو حسب موضوعاتها؟

فمراعاة تاريخ النشر، تجعل القارئ يتنقل في موضوعات متنوعة، وهو أبعد عن الملل، ويطلع القارئ على تطوّر قدرات الشيخ البحثية، ومعرفة تاريخه وسيرته الذاتية، وتاريخ البلد، وعلاقته بالمجتمع، ومعرفة اهتماماته الأخيرة.

وقد رأيت أن أجمع بين الحسنيين، فأنشر المقالات حسب ترتيب الموضوعات في تسلسلها الزمني في كل فصل من فصول الكتاب.

والمطالع لمقالات الشيخ رحمه الله، يجد اهتمامه الكبير بمدينة حلب الشهباء، في حديثه عن مياهها، وتواريخها، ومخطوطاتها، ومدارسها، ومساجدها، ومكتباتها، وأعلامها، وشعرائها، وصناعاتها. وسبل رقيها العلمي والعمراني والحضاري.

أقول: كيف لو عاش الشيخ رحمه الله تعالى إلى يومنا هذا، ورأى ما يقع الآن في هذه المدينة التليدة من قتل للأطفال والنساء وتدمير وتهجير، ورمي لبراميل الحقد

والإجرام فوق رؤوس ساكنيها، وهدم للمساجد والمدارس، وإحراق للمكتبات والأسواق، وتهجير لخيرة أبنائها على يد من يدعون الانتساب للعروبة والوطن والإسلام، بإشراف واحتلال أعداء شعوبيين طائفيين، لا صلة لهم جميعاً بالإنسانية فضلاً عن أن يكون لهم صلة بالوطن أو العروبة أو الدين. ولكن التاريخ سيسجل هذه الأحداث، وستتعافى منها الشهباء، وتبقى حصناً علميًّا، ومَعْلَمًا حضاريًّا مهما تآمر عليها الحاقدون وكاد لها الكائدون.

وأعرض الآن تاريخ نشر المقالات ومقدِّمات الكتب التي حققها والرسائل التي نشرها في المجلات حسب تسلسلها الزمني، ومكان نشرها:

١ ـ المياه في حلب: جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية، العدد (١٦٠٩) من السنة ٣٣: (١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م).

٢ ـ نعي محمد علي باشا أمير لواء الرديف: جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية، العدد (١٦٠٩) من السنة ٣٣: (١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م).

٣ ـ أيُّ العلوم أفضل: جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية، العدد (١٦٧٠-١٦٧٢) من السنة ٣٥: (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م).

٤ ـ الصُّوَر السَّمائيَّة: مجلة «المقتبس» الدمشقية، الجزء العاشر من المجلد الخامس: (١٣٢٨هـ = ١٩١٠م).

٥ ـ بدائع الصنائع والمرأة المسلمة في العصور المتقدمة: مجلة «المقتبس»، الجزء الثامن من المجلد السادس: (١٣٢٩هـ = ١٩١١م).

٦ ـ الرق في الإسلام ومقاصد الأجانب في إلغائه: مجلة «الحقائق» الدمشقيَّة، الجزء العاشر من المجلد الثاني: (١٣٣٠).

٧ ـ المدرسة المستنصرية: مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق، الجزء الأول من المجلد الرابع، جمادى الأولى: (١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م).

٨ ـ المدهش، لابن الجوزي وياقوت و«الإنصاف والتَّحرّي»: مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق، الجزء الأول من المجلد الرابع، جمادى الأولى: (١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م).

٩ ـ قواعد الكتابة العربية: مجلة «المكتبة» المصرية، الجزء الأول من السنة الأولى: (شوال ١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م).

١٠ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: مجلة «المكتبة» المصرية، الجزء السادس من السنة الأولى: (جمادى الأولى ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م).

١١ ـ الجزء الثاني من إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: مجلة «المكتبة» المصرية، الجزء السابع من السنة الأولى: (شعبان ١٣٤٣هـ = ١٩٢٥م).

١٢ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: مجلة «المكتبة» المصرية، الجزء التاسع من السنة الأولى: (صفر ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥).

١٣ ـ بيان السنة والجماعة، للطحاوي. طبعت هذه الرسالة على نسختين خطيتين في المطبعة العلمية بحلب سنة: (١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م) وكتب كلمة مختصرة في التعريف بمؤلفها، بينما الآثار التي نشرها قبل هذه الرسالة لم يكتب لها مقدمة ولا تعريفاً بمؤلفيها.

١٤ ـ ترجمة الشيخ محمد كامل الهبراوي (ت ١٣٤٦): كتبت الترجمة بعد وفاته، ثم نشرت في كتابه: «الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبيَّة»، الطبعة الأولى: (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م).

١٥ ـ مقدمة الطب النبوي، لابن القيم. طبع في المطبعة العلمية سنة: (١٣٤٦هـ= ١٩٢٧م).

١٦ ـ صناعة الزجاج في الحضارة العربية: مجلة «الزهراء» المصرية: رمضان ـ شوال: (١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م).

١٧ ـ مقدمة الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الأخبار، للحازمي. طبعه وصَحَّحه محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بحلب، سنة: (١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م).

١٨ ـ أربع تواريخ مخطوطة للبلاد اليمانيَّة: مجلة «الزهراء» المصريَّة: (ذو القعدة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م).

١٩ ـ مقدمة السِّمط الثمين في مناقب أمَّهات المؤمنين، للمحب الطبري. الطبعة الأولى: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م)، في المطبعة العلمية بحلب.

٢٠ ـ نفائس التكيَّة الإخلاصيَّة بحلب: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء السادس من المجلد الثامن: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م).

* رسالتان لغويتان:

٢١ ـ قصيدة في المقصور والممْدود، للإمام اللغوي أبي بكر بن دُرَيد.

٢٢ ـ قصيدة جامعة لما يُكتَب بالواو والياء؛ للشَّوَّاء الحلبي. مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء السابع، من المجلد الثامن: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م).

٢٣ ـ مقدمة كتاب الفراسة، لفيلمون الحكيم، ويليه: جُمَل أحكام الفِراسة. الطبعة الأولى في المطبعة العلمية سنة: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م).

٢٤ ـ مقدمة رسالة السفينة النُّوحية في علم النفس والروح، للخُويي. الطبعة

الأولى في المطبعة العلمية بحلب سنة: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م).

٢٥ ـ مقدمة العقود الدريّة في الدواوين الحلبية، للجزري والنحاس ومصطفى البابي الحلبي. الطبعة الأولى في المطبعة العلمية بحلب سنة: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م)

٢٦ ـ بقايا خط البغدادي وكتبه الأخرى: مجلة «الزهراء» المصرية، الجزء الخامس من المجلد الخامس: (ذو القعدة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م).

٢٧ ـ ترجمة السيد محمد مسعود الكواكبي: مجلة «الاعتصام» الحلبية، الجزء السابع: (رجب ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

٢٨ ـ يقظة الغرب ورقدة الشرق: مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، العدد الأول من السنة الأولى: (صفر ١٣٤٨هـ = تموز ١٩٢٩م).

٢٩ ـ حول تسمية كتاب «النجوم الشارقات»: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء السادس من المجلد التاسع: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

٣٠ ـ كتاب «مناقب بغداد» لابن الجوزي: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء السابع من المجلد التاسع: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

٣١ ـ حول الجزءين الرابع والسابع من «إرشاد الأريب» لياقوت الحموي: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء الثامن من المجلد التاسع: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

٣٢ ـ البدريات، لبدر الدين حسن بن عمر الحلبي. مجلة «الاعتصام» الحلبية، الأعداد: الرابع والخامس والسادس، ربيع الآخر وجمادى الأولى والآخرة من السنة الأولى: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

٣٣ ـ مقدمة دمية القصر وعصرة أهل العصر، للباخَرزي. الطبعة الأولى سنة:

(١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م) في المطبعة العلمية بحلب.

٣٤ـ تصحيح قصة «لقاء أسامة بن منقذ بأبي العلاء بالمعري»: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء العاشر من المجلد العاشر: (١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م).

٣٥ ـ رسالة الكنز المظهر في استخراج المضمر، لابن الحنبلي الحنفي. مجلة «الاعتصام» الحلبية، السنة الثانية، العدد الرابع والخامس: (شوال وذو القعدة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م).

٣٦ ـ مقدمة علوم الحديث، لابن الصلاح. ومعه: التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، للعراقي. الطبعة الأولى سنة: (١٣٥٠هـ = ١٩٣١).

٣٧ـ مقدمة ثلاث رسائل حديثيَّة، لسِبْط ابن العجمي. طبعت هذه الرسائل في المطبعة العلمية بحلب، سنة (١٣٥٠هـ = ١٩٣١م)

٣٨ـ منبر المسجد الأقصى في القدس الشريف: مجلة «الاعتصام» الحلبية، العدد العاشر من السنة الثانية: (١٣٥٠)، ومجلة «العاديات» الحلبية، العددان الثالث والرابع من السنة الأولى: (ربيع الأول والثاني ١٣٥٠هـ = تموز وآب ١٩٣١م).

٣٩ـ حول مقالة الشاعر الصنوبري: مجلة «مجمع اللغة العربية»، بدمشق، الجزء ١، و٢، من المجلد ١٢، (١٣٥٠هـ ـ كانون الثاني، شباط ١٩٣٢م).

٤٠ـ الروضيَّات، للصنوبري. نشره في مطبعته العلمية بحلب سنة: (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م). وهذه الرسالة خارجة عن شرطي في الكتاب بجمع المقالات والرسائل المنشورة في المجلات، ولكن حرصت على ضمِّها إلى هذا المجموع لندرتها، وقدم طباعتها، وارتباطها بما عُني به الطباخ من قبلها بنشر البدريات، لبدر الدين حسن بن عمر الحلبي، وعنايته بالدواوين الحلبية لثلاثة من شعراء حلب.

٤١ ـ الأنوار الجليَّة في الأثبات الحلبيَّة. الطبعة الأولى في المطبعة العلمية بحلب، سنة: (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م).

٤٢ ـ «مخطوطات المدرسة العثمانية بحلب»: مجلة «المجمع العلمي»، الجزءان السابع والثامن من المجلد الثاني عشر: (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م)

٤٣ ـ مقدِّمة «معالم السّنن»، للخطابي. الطبعة الأولى سنة: (١٣٥٢هـ = ١٩٣٢م)، في المطبعة العلمية بحلب.

٤٤ ـ الشريف محمد عبد الحي الكتاني يزور سوريا: مجلة «الاعتصام» الحلبيَّة، العدد الأول من السنة الثالثة: (ربيع الأول ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م).

٤٥ ـ تحقيقات هامة واكتشاف خطير عن قبر أبي العلاء المعري: مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، العدد ٣٦، من السنة السادسة: (١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م).

٤٦ ـ دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان السابع والثامن، من المجلد السادس عشر: (١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م).

٤٧ ـ الرَّصافة والرَّقة: مجلة «العاديات» الحلبية، العدد الأول من السنة الخامسة: (١٣٥٦هـ ـ كانون الثاني وآذار ١٩٣٨).

٤٨ ـ خطر انقراض العلم الإسلامي في الديار الشامية: مجلة «الفتح»، العدد (٦١٨) من السنة الثالثة عشرة: (١٣ رجب ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م).

٤٩ ـ الكمال ابن العديم وتاريخه: «بغية الطلب»: مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيَّة: الأعداد (٥٨-٦٠) من السنة ١١: ذي الحجة ١٣٥٨، والأعداد (٦١-٦٤) من السنة ١٢: محرم ١٣٥٩، والأعداد (٦٥-٦٨) من السنة (١٢: ١٣٥٩)، والأعداد

(٦٩-٧١) من السنة ١٢: ١٣٥٩. والأعداد (٧٢-٧٤) من السنة ١٢: جمادى الآخرة ١٣٥٩، والأعداد (٧٥-٧٨) من السنة ١٢: رجب وشعبان ١٣٥٩، والأعداد (٧٩-٨٢) من السنة ١٢: رمضان وشوال١٣٥٩، والأعداد (٨٣-٨٦) من السنة ١٢: ذي القعدة وذي الحجة ١٣٥٩، والأعداد (٨٧-٩٠).

٥٠ ـ السياسة في القرآن: مجلة «الفتح» المصرية العدد ٧٥٣ من السنة ١٦: ٢٧: (ربيع الأول ١٣٦٠هـ = ١٩٤١).

٥١ ـ قاعة دار الحفاظ: مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية: الأعداد (١٠٣-١٠٦)، سنة: (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م).

٥٢ ـ «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، لابن خطيب الناصريَّة: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان الرابع والخامس من المجلد السادس عشر: (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م).

٥٣ ـ إنباء الغَمْر بأبناء العمر: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان الرابع والخامس من المجلد السادس عشر: (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م).

٥٤ ـ افتراء ابن بطوطة على ابن تيمية: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان الثالث والرابع، من المجلد السابع عشر (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م).

٥٥ ـ حول كتاب: «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيَّان التوحيدي. مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان السابع والثامن، من المجلد السابع عشر: (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م).

٥٦ ـ حول تاريخ الحافظ ابن كثير. مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان السابع والثامن، من المجلد الثامن عشر: (١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م).

٥٧ـ كلمة تعريفية موجزة عن الشيخ مصطفى الزرقا. كتبها في المحرم (١٣٦٢هـ)، الموافق ٧ كانون الثاني (١٩٤٣م).

٥٨ ـ ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ الذاتيَّة: كتبها للمجمع العلمي العربي في ٨ من ذي الحجة من سنة (١٣٦٢هـ)، الموافق ٥ كانون الأول من سنة (١٩٤٣م).

٥٩ ـ ترجمة كاتب جلبي: مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان ٣ و٤ من المجلد التّاسع عشر: (١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م).

٦٠ ـ حول مقالة الحسبة، لكوركيس عوَّاد. مجلة «مجمع اللغة العربية» في دمشق، في الجزئين ٩، و١٠، من المجلد ١٨: (رجب وشعبان ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م)

٦١ ـ حول موضوع «القرآن: بحث علمي تاريخي أدبي». مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء الخامس والسادس من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٦٢ ـ حول كتاب: «لوامع أنوار القلوب»: مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزءان ٥ و٦ من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م)

٦٣ ـ ترجمة مفقودة (ابن عادل الحنبلي): مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق، المجلد العشرون: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٦٤ ـ حول قبر معاوية: مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزءان ٥ و٦ من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٦٥ ـ التَّصحيف والتَّحريف: مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزءان التّاسع والعاشر من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٦٦ ـ بقية ما ترك الأجداد (حول ترجمة ابن حبان البستي): مجلة «مجمع اللغة

العربية»، الجزءان ١، و٢ من المجلد الحادي والعشرين: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م).

٦٧ ـ رأس يحيى ورأس زكريا عليهما السلام: مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء الثالث والرابع من المجلد الحادي والعشرين: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م).

٦٨ ـ ديوان الغزي، لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان. مجلة «المجمع العلمي»، الجزءان ٣ و ٤، من المجلد الحادي والعشرين: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م).

٦٩ ـ المدارس في الإسلام: مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، السنة الثامنة عشرة: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م).

٧٠ ـ الإفصاح عن معاني الصحاح، للوزير ابن هبيرة. الطبعة الثانية، سنة: (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م) في المكتبة الحلبية، لصاحبها محمد صبحي اللبابيدي. ولم أقف على تاريخ الطبعة الأولى.

٧١ ـ فرنسا والشرق العربي: مجلة «الجامعة الإسلامية»، الأعداد (٢٥٣-٢٥٦) السنة التاسعة عشر (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).

٧٢ ـ حول كتاب: «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» استدراك على ترجمة الأمير شكيب أرسلان. مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزءان ٥، و٦ من المجلد الثاني والعشرين: (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).

٧٣ ـ الالتجاء إلى الله في كشف الكرب: مجلة «التمدن الإسلامي» الدمشقية، العددان ٣ و٤ من السنة الرابعة عشرة: (جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ = نيسان ١٩٤٨م).

٧٤ ـ «بغية الطلب في تاريخ حلب»: مجلة «المجمع» في الجزء الثاني من المجلد الثالث والعشرين: (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م). وهذه المقالة مأخوذة من مقالاته المتقدمة

عن ابن العديم، وفيها فائدة تتعلق بترجمة أبي اليُمن الكندي، فاستغنيت عن إعادة نشرها، وضممت الفائدة في موضعها من دراسته الواسعة المنشورة في مجلة «الجامعة الإسلامية».

٧٥ ـ كتب ضبط الأسماء والألقاب (حول ما كتبه الأستاذ حمد الجاسر على مقدمة المنجد على كتاب: طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب). مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء الثّاني من المجلد السّابع والعشرين: (١٣٧١هـ = ١٩٥٢م). ونشرت هذه المقالة بعد وفاة الطباخ بعام.

وبعد عرض المقالات حسب تسلسلها التاريخي، ليطلع القارئ على السابق واللاحق، أعرضها كما رتبتها في الكتاب مقسمة على سبعة فصول حسب التسلسل الزمني في كل فصل مع التعريف الموجز بها:

الفصل الأول

بحوث ومقالات إسلامية

وقد اشتمل على ستّ مقالات، رتبتها في هذا الفصل وسائر الفصول الأخرى ـ كما تقدم ـ حسب تاريخ نشرها:

١ ـ أيُّ العلوم أفضل؟

ذكر فيها ما ادَّعاه أهل كلِّ علم من أنَّ علمهم هو أولى العلوم وأفضلها، وما أيّدوا به دعواهم من دلائل وشواهد، وبيَّن أن كلَّ مَن عانى علماً قد رسخ في مخيِّلته أنَّ أشرف العلوم العلم الذي يعانيه، وأن ليس ثمة علم يقاربه أو يُدانيه، ولم يقتصرْ على الفرح بما لديه، بل تراه يُقَبِّحُ في عين الآخرين ما أكبُّوا عليه، غيرَ ناظرٍ نظرَ بصيرٍ، أو ناقدٍ نقدَ خَبيرٍ إلى حقائق باقي العلوم، وما لها من الثمرات والمنافع للعموم،

ثم قال: «وقد أحببْتُ أن أنظمَ في عقود هذه السّطور دُررَ ما قاله أساطين العلماء، وفطاحل النبلاء والحكماء في بيان ما هو الحق الذي هو أحق أن يُتَّبع، لموافقة المنقول والمعقول»، ونقل نقولاً عن الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين»، وعن الرَّاغبِ الأصفهاني في كتابه: «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، وعن ابن مسكويه في كتاب «تهذيب الأخلاق»، وعن الإمام الغزالي في كتابه «فاتحة العلوم»، ثم خلص إلى أن العلوم كلها شريفة، وجميعها مطالب منيفة، وأنَّ كل علم لا غنى للخلق عنه يجب أن يكون لدينا أناس عارفون به، عالمون بحقيقته، وأنه من الواجب علينا أنَّا متى رأينا شخصًا يعاني علمًا أن ندقِّق النظر في غايات ذلك العلم وثمراته، فمتى ألفينا فيه ما يعود على الهيئة الاجتماعية بالنفع ـ دينيًا كان أو دنيوياً ـ أن لا نُوجِّه إليه سهام الملام، بل ينبغي علينا إن أمكننا أن نمدَّ له يد المساعدة والإحسان إعانة له على ما هو بصدده، وقيامًا بواجب قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: ٢]. وإن لم يمكن فنحرِّضه على الثبات والاجتهاد. ودعا إلى افتتاح المكاتب الابتدائيَّة والعالية، والمدارس الدينيَّة.

وهذه المقالة تُعَدُّ من أقدم المقالات، وهي منشورة في جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية بتاريخ (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م).

٢ ـ الرّقّ في الإسلام ومقاصد الأجانب في إلغائه:

ردَّ في هـذه المقالة على رسالة الأستـاذ الشيخ أحمد أفنـدي المحمصاني (ت ١٣٥٣هـ)، التي استدل فيها بحديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يجعله وارثًا، وما زال يوصيني بالنساء حتى ظننت أنهُ سَيُحرِّم طلاقهنَّ، وما زال جبريل يوصيني بالمملوكين حتى ظننت أنه يجعل لهم وقتًا يعتقون فيه»[1]، استدلَّ فيه الأستاذ المحمصاني على إلغاء الرقّ بالجملة الثالثة من الحديث الشريف، مع أنه ليس في

(١) ينظر تخريجه في المقالة المذكورة أعلاه. وهو حديث لا يثبت.

منطوق هذه الجملة ولا في مفهومها ما يدلُّ على ذلك، ولو كان المقصود بها إلغاء الرق كما ظنَّ للزمه أيضاً أن يقول بتوريث الجار من جاره، وتحريم طلاق النساء أيضاً. وبيَّن الشيخ راغب الطباخ أنَّ غاية ما يُؤْخذ من هذا الحديث الشريف هو حثُّ الأمة على مُداراة الجار ودفع الأذيَّة عنه والإحسان إليه، والحضّ على معاشرة النساء بالمعروف، ولزوم الرفق بالمماليك ومعاملتهم بالحُسْنى، وأوضح الطباخ مقصد الغربيين في إلغاء الرق لاقتسام الممالك الإسلامية والقضاء على سلطة ملوكها وأمرائها، وتمزيق شمل العالم الإسلامي وتبديد جامعته، وانتهى إلى القول: إنَّ إلغاء الرقّ من أعظم الأمور التي أخلَّت بنظام هيئتنا الاجتماعية، وعوَّجت مستقيم أخلاقنا، وأماطت عن الكثيرين لثام الحياء والشرف. وختم مقالته بقوله: «هذا وأيُّ حاجة تدعونا إلى مجاراة الأوربيين والذهاب إلى القول بإلغاء الرقّ وتكلُّف الاستدلال على ذلك بالأحاديث النبويَّة، وأيُّ داعٍ يلجئنا إلى تأويل الأحاديث بما يوافق مَشَارب الأجانب وأهواءهم.

فحكم الرقّ باقٍ ثابتُ الأركان لا ينسخه تطاولُ الأزمان، وليس في وسعنا أن نذهب إلى إلغاء هذا الحكم بعد أن علمنا علمَ اليقين ما فيه من الفوائد التي تعود بالمنافع الجُلَّى على العالم الإسلامي».

وقد نُشـرت في مجلة «الحقائق» الدمشقيَّة في الجزء العاشر من المجلد الثاني، سنة (١٣٣٠هـ).

٣ـ يقظة الغرب ورقدة الشـرق:

أثنى فيها على مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، وشكر مؤسسها الشيخ علي الكحّال (ت١٣٨٧هـ)، وأورد كتاباً تلقَّـاه من المستشرق سـالم الكْرِنْكُوي (ت١٣٧٢هـ)، وذكر في مقالته عناية هذا المستشرق بعلم الحديث واشتغاله فيه، وسعيه في نشر آثار سلفنا الصالح، ورحلته من الغرب إلى الشرق في سبيل إحياء الآثار.

وبيّن أهمية الاشتغال بعلم الحديث، ودعا أبناء الأمة الإسلامية أن يستيقظوا ويزيحوا عنهم رداء الخمول والكسل، وأن يقدِّروا العلوم والفنون التي عكف عليها آباؤهم وألَّفوا فيها الملايين من الأسفار وأفادوا فيها الأمم جميعًا، وقال مخاطبًا ابن الشرق: «إن كنت حقًا تريد الخير لبلادك وأمتك فعليك أن تحافظ على علوم آبائك وأجدادك، وتسعى في إحيائها ونشرها ففي بقائها بقاؤك وفي الإعراض عنها القضاء الأبديّ عليك».

وقد نُشرت هذه المقالة في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيَّة في العدد الأول من السنة الأولى (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

٤ ـ السياسة في القرآن:

وهي محاضرة ألقاها الشيخ الطباخ في دار الأرقم بمدينة حلب، بيّن فيها أنَّ كثيراً من النّاس ـ ممَّن لم يقرؤوا القرآن الكريم أو لم يتدبَّروا آياته ـ يظنون أن كتاب الله تعالى خالٍ من الآيات السياسية، ومن الأمور التي إذا رُوعيت تكون سبباً لحياة أمة بعد موتها، ولعزَّتها بعد هوانها، ولكثرتها بعد قلَّتها، ولغناها بعد فقرها، ولاستعادة ما كان لها من مجد، وما سلف من حوْل وطَوْل، في حين أن كتاب الله تعالى فيه تبيان كل شيء: فيه كل ما يعود على المجتمع البشري بالسعادة في معاشه ومعاده، في دنياه وآخرته.

ثم وقف وقفات تأمليَّة للآيات الواردة في قصة طالوت في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١]. وقد قسم محاضرته في شرح هذه الآيات الستّ إلى ستة أبحاث، مقتبساً ذلك من التفاسير، ومن الكتب التاريخية التي ذكرت هذه القصة، جامعاً بين ما تفرَّق فيها وما انطوت عليه، وقد غلب على هذه المحاضرة الجانب التاريخي، وأكثر من النقل عن كتب التاريخ، كالمسعودي وأبي الفداء وابن كثير، ووقف وقفات تحليلية رائعة عند قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ

عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧] وربط فيها الآيات بالواقع، ثم عاد للتفصيل في جوانب تاريخية عن التابوت، وماذا فيه؟ وعن حقيقة قبة الزمان، وعن السكينة، وعن آل هارون، وكيف عاد إليهم التابوت؟ ثم بيَّن الحكمة في هذا الابتلاء، وكيف قتل داود جالوت؟ ثم انتهى إلى القول: «إنَّ هذه الآيات القرآنيَّة مشتملة على أهم قواعد السياسة ونُظُمها، وأنَّ الأمة إذا عضَّها الدهر بنابه، وأناخ عليها بكَلْكَله، وأمضَّها بالكوارث والمصائب، فالطريق لخلاصها ورفع الإصْر عنها، وحلِّ نِيرِ الاستعباد من رقابها أن تخلص النيَّة، وتوحِّد الكلمة، وتدَّرع بالصبر، وتتحلَّى بحِلية العلم، وتُوسِّد أمورها إلى ذوي الكفاءة والمعرفة، وأن تبذل نفسها ولا تشح بمالها.

فإذا تسنَّى لها ذلك؛ نَجَتْ من اللجَّة التي كانت فيها، وخرجت إلى ساحة السلامة، ووقعت في ميادين العز والسيادة، وأصبحت قوية الشكيمة، شديدة الساعد، عزيزة الجانب، نافذة الكلمة، ولو كانت قليلة العدد ضعيفة العُدد.

وإنَّ الأمة التي لا تتسلَّح بسلاح العلم والصبر، ولا تجمع كلمتها، ولا تتحلى بمكارم الأخلاق، ولا تبذل النفس والنفيس في سبيل عزِّها، والذود عن حوض كرامتها ومجدها تظل مُسْتَعْبَدة مستعمَرة لا حوْل لها ولا طَوْل، وإن كان عددها يبلغ الملايين، فلا قلة مع اتحاد، ولا كثرة مع اختلاف.

أفادتنا هذه الآيات أنَّ رجلين عظيمين من بني إسرائيل، انتشلا تلك الأمة من وهدة الذل التي كانت فيها، ورفعاها إلى بحبوحة العز، وأحياها بعد الموت، فصدق عليهما قول من قال: الأمة تحيا برجل وتموت برجل.

ولهذَين العظيمَين نظراء كثيرون في تاريخ البشر، والأمة العربية، بل الأمة الإسلامية لا تعدم رجالاً من هذا النوع، وعلى تلك الشاكلة، ينهضون بنية خالصة،

وعزم ثابت فيستخلصون هذه الأمة من بوائق الاستعمار، ويعيدون لها مكانتها الأولى.

في هذه الآيات الستّ نموذجٌ من السياسة في كتاب الله تعالى، وإذا استقْصيت ما بين دفتيه، وأمعنت النظر، وتدبَّرت ما هنالك تجد من هذا النوع آيات كثيرة بل سوراً بتمامها لو استُخْلصت على حدة، وتُتبِّعت المقاصد فيها، وبُيِّنت الغايات منها لجاء ذلك في عدة أسفار، تعطيك كل آية منها ـ أو بعض آيات ـ نوعاً خاصاً، وأسلوباً آخر تتكشَّف به دقائق الأمور وحقائق الأشياء».

وهذه المحاضرة منشورة في جريدة «الفتح» المصرية في ثلاث حلقات متوالية، في الأعداد (٧٥٣-٧٥٤-٧٥٥) من السنة ١٦ عام ١٣٦٠هـ.

٥ ـ حول موضوع القرآن: بحث علمي تاريخي أدبي:

تعقَّب في مقالته الموجزة صديقه فيليب دي طرازي (ت: ١٣٧٦هـ) الذي ذكر في مقالة له حول كتابة القرآن وجمعه ومصاحفه، نشرت في مجلة «المجمع العلمي العربي»: «لما بُويع عثمان بن عفّان رضي الله عنه، بلغه أنّ المسلمين اختلفوا في قراءة القرآن قدر اختلافهم في لهجاتهم فلم يرَ إلّا أن يجمع آياته ويَضْبطها بلغة قريش التي أنزل بها القرآن، ثم كتب أربع نسخ منه، بعث إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية بنسخة...» بيَّن فيه أنَّ الجمع الثالث الذي كان في زمن عثمان رضي الله عنه هو ترتيب السور، وبعد ترتيبها كتب عدَّة مصاحف وأرسلها إلى الآفاق، وأن قوله: كتب منه أربع نسخ، مخالف للحقيقة، فالمصاحف التي كُتبت وأُرسلت إلى الآفاق هي سبعة.

نُشر هذا المقال في مجلة «المجمع العلمي العربي» (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٦ ـ الالتجاء إلى الله في كشف الكرب:

في هذه المقالة شرح العلامة الطباخ الجمل الأربع المشتملة على هذه الأشياء

الثمانية: **الهم، الحزن، العجز، الكسل، الجبن، البخل، غلبة الدَّيْن، قهر الرجال** في حديث: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، وأعوذُ بك من العَجْز والكسل، وأعوذُ بك من الجُبْن والبخل، وأعوذ بك من غَلَبَة الدَّيْن وقهر الرجال**»، ونقل نقولاً نادرة وأشعارًا رائقة عن كتب اللغة والأدب والتاريخ والحديث، مثل: «الفروق اللغوية» للعسكري، و«مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني، و«تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه، و«غرر الخصائص الواضحة» للوطواط، ومقالة الشّيخ محمد عبده رحمه الله تعالى عن (الجُبن) من «تاريخه» لتلميذه رشيد رضا، و«السبيل الأقوم في شرح الحزب الأعظم» للشيخ صادق عاصم الحلبي المتوفى سنة ١٣٤٣هـ.

وقد نُشِرت في مجلة «التمدُّن الإسلامي» الدمشقية: (١٣٦٧هـ = ١٩٤٨م). وهذه المقالة النافعة هي الوحيدة التي نشرت للعلامة الطباخ في هذه المجلة مما وقفت عليه.

الفصل الثاني
مقالات وتحقيقات تاريخيَّة

أوردت في هذا الفصل عدداً من بحوث العلامة الطباخ ومقالاته وتحقيقاته التاريخيَّة، وبلغت خمسة عشر مقالة، وهي:

١ ـ المياه في حلب:

تكلم في هذه المقالة التاريخية النادرة عن أهمية الماء للبلاد والعباد، وأوضح كيف نمت مدينة بيروت بعد جلب الماء إليها، بينما أبطأت حلب في التقدم العمراني والحضاري بسبب شحِّ الماء.

وتكلم على نهر قويق وانقطاعه في الصيف، ومقاساة أهل حلب من ذلك.

ونقل كلام المؤرخين على هذا النهر، وأشار إلى وصف الشعراء له، وتكلم على نهر الساجور الذي كان متصلًا بقويق.

وبيَّن أن وجود البثرة المعروفة في وجوه أبناء الشهباء المسماة بحبة السَّنَة إنما هي بسبب الشرب من نهر قويق.

ودعا إلى جلب الماء إلى الشهباء من نهر الفرات القريب منها، وما سيحقق ذلك من فوائد ومنافع.

وتعدُّ هذه المقالة التاريخية الأدبية من بواكير المقالات التي تعرِّف بنظرات الطباخ الإصلاحية الحضارية، وعنايته بحلب وأهلها، وسبيل رقيها العمراني والحضاري.

نشرت هذه المقالة في جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية، في العدد ١٦٠٩ من السنة ٣٣ (١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م).

٢ ـ المدرسة المستنصرية:

ذكر في هذه المقالة تعقيباً على محاضرة الأستاذ محمد كرد علي التي ألقاها في قاعة المدرسة الفاروقية بعنوان: «آثار الفيحاء والشهباء»، والتي ذكر فيها اسم المستنصرية، فأحب أن يعرف القراء بتفاصيل ما عيَّنه الخليفة المستنصر العباسي لهذه المدرسة من العلماء والتلامذة وما كان يجري عليهم من النفقات، ونقل من تاريخ الصفدي هذه التفاصيل الدقيقة في شروط الواقف، التي ذكرها في حوادث سنة ٦٣١، وقد اعتمد الصفدي في تفاصيل هذه الشروط على تاريخ ابن الساعي.

وختم مقالته بقوله: «ولا أدري الآن ما بقي من آثار هذا المعهد العلمي العظيم. وحبّذا لو أسهب المقال عنه الواقفون على تاريخ بغداد قديماً وحديثاً».

نشرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق: جمادى الأولى، ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م.

٣ـ صناعة الزجاج في الحضارة:

مقالة عقب فيها عما كتبه الأستاذ عبد الله مخلص حول هذا الموضوع، بيَّن فيها عناية حلب بصناعة الزجاج، وأورد ما عقده في تاريخه «إعلام النبلاء» عن صنعة الزجاج بحلب، واشتهارها به في الآفاق، ذكر فيها مَنْ نوَّه بالزجاج الحلبي، ومنهم ابن حجَّة الحموي في «ثمرات الأوراق»، والشيخ سعدي الشيرازي في كتابه «البستان»، وابن كثير في «البداية والنهاية»، ثم ذكر معدن ذلك الزجاج الذي يصنع منه، ونشرت تلك المقالة في مجلة «الزهراء» سنة ١٣٤٦هـ.

٤ ـ تصحيح قصة في عدم صحَّة لقاء أسامة بن منقذ بأبي العلاء المعري:

وقد ادّعى ذلك الشيخ كامل الغزي، وتعقبه الطباخ بالنقل عن ابن العديم في كتابه «الإنصاف والتّحَرِّي في دفع الظلم والتَّجَرِّي عن أبي العلاء المعري»، وأنَّ لقاء المعري كان بمقلد بن نصر بن منقذ، في كفر طاب، وليس أسامة بن منقذ، ونشر هذا التصحيح والتعقيب في مجلة «المجمع العلمي» سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م.

٥ ـ منبر المسجد الأقصى في القدس الشريف:

بيَّن في هذه المقالة شهرة حلب بصنعة النجارة، وتفوُّقها فيها. ومن آثار ذلك: منبر المسجد الأقصى في القدس الشريف، الذي صنع في حلب، وحمل إلى القدس، وذكر السبب الذي دعا إلى صنع هذا المنبر، في حلب، وحمله إلى المسجد الأقصى، ونقل كلام المؤرخين، ونقل وصف الرحالة ابن جبير للمنبر الذي كان بجامع حلب؛ الذي هو على مثال المنبر الموجود في القدس، وماذا فعل الزمان بذلك المنبر العظيم، ووصف

المنبر الذي حمل إلى القدس، وما كُتب على أطرافه الأربعة، ولم يُتَحْ للطباخ الرّحلة إلى بيت المقدس ورؤية ذلك المنبر، وكان يتمنى ذلك، وقد طلب من المستشرق النمساوي (ماير) أن يرسل له صورة عن المنبر، ونشرت صورته مع تلك المقالة النادرة في مجلتي «الاعتصام» و«العاديات» الحلبيتَيْن؛ سنة ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م.

٦ ـ تحقيقات هامَّة واكتشاف خطير عن قبر أبي العلاء المعري:

وصف الطباخ في هذا المقال رحلته إلى المعرَّة وزيارته للمسجد الذي دُفن فيه المعري في حجرة شرقيِّه، وقراءته للَّوحة التي بقيت على القبر، وفيها وفاته ٥٨٠، والمعري توفي ٤٤٩!! ووقوفه عند لوحة أخرى فيها اسم أبي العلاء بالخط الكوفي، ورفعت اللوحة السابقة، ووضعت اللوحة المحرَّر عليها: هذا قبر أبي العلاء.

وتبيَّن له ـ بعد البحث والتنقيب ـ أنَّ صاحب اللوحة السابقة هو أبو اليسر شاكر بن عبد الله المعري، المتوفَّى سنة ٥٨١، وهو من أولاد أخي أبي العلاء، وكلمة (إحدى) من سنة وفاته ٥٨١ محيت من اللوحة.

ثم حقَّق في قبر أحد التَّنوخيين من أسرة أبي العلاء، مما يدلُّ على تحقيق نادر وعناية بالغة في التاريخ. وقد نُشرت هذه التحقيقات المهمَّة في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيَّة، سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م.

٧ ـ دُور الكتب في حلب قديماً وحديثاً:

وهي محاضرة ألقاها الشيخ راغب الطباخ في حفل افتتاح دار الكتب الوطنية، وذكر فيها دُور الكتب في حلب، فتكلَّم على ظهور حركة العلم والأدب، ولا سيما في عهد سيف الدولة بن حمدان.

وقد وقف فيها مكتبة فيها عشرة آلاف مجلدة، وتكلم على خزانة الكتب في

الشَّرَفيَّة، التي نُهبت زمن أبي العلاء المعري، وتحدَّث عما حصل لهذه المكتبة بعد ذلك.

وعن تأسيس القاضي الأكرم جمال الدِّين يوسف بن إبراهيم دار كتب، وما لهذا القاضي من حكايات غريبة في غرامه بالكتب.

واستطرد للحديث عن تَتَبُّع هذا القاضي لكتاب «الأنساب» للسمعاني، فتحدَّث الطباخ عن أهمية كتاب «الأنساب»، ونسخته الخطية، وعن الطبعة الأوروبية.

ثم تابع حديثه عن مكتبات حلب، فذكر مكتبة العلامة شرف الدين العجمي، باني المدرسة الشَّرَفيَّة، ومكتبة جامع منكلي بغا (جامع الرومي)، ودار الحديث التي بناها أحمد مطاف باشا، ثم تحدَّث عمَّا أنشئ من دُور الكتب بعد الألف، فذكر مكتبة الشيخ القاري، في تكية الشيخ أبي بكر في أوائل القرن الحادي عشر.

ثم تكلم على خمس مكتبات أُسِّست في أواسط القرن الثاني عشر، وهي: المكتبة الأحمديَّة التي أسَّسها أحمد أفندي طه زاده، ومكتبة عثمان باشا الدوركي باني المدرسة العثمانيَّة، ومكتبة أحمد الكواكبي، ومكتبة محمد البخشي في التكيَّة الإخلاصيَّة، والمكتبة المارونيَّة.

ثم ذكر ما أنشئ من مكتبات في القرن الثالث عشر، في المدرسة البهائية (الصلاحيَّة)، والمنصوريَّة، ومكتبة إسماعيل باشا، واقف المدرسة الإسماعيليَّة، ومصير هذه الكتب والمكتبات.

ثم تحدَّث على مكتبتين مهمَّتين أُسِّستا في هذا القرن، وهما: مكتبة محمود أفندي الجزار، ومكتبة الحاج عبد القادر الجابري، وقد نُقلتا مع البقية الباقية من المكتبات إلى المدرسة الشَّرَفية.

ثم تكلم على تأسيس المكتبة الوطنيَّة في عهد محافـظ حلب الأمير مصطفى الشهابي.

ودعا إلى تصوير ما تسرَّب من المخطوطات إلى مكاتب الغرب، ولا سيما تاريخ ابن العديم «بغية الطلب في تاريخ حلب»، وإبرازه لعالم المطبوعات. وقد نشرت هذه المحاضرة القيِّمة في مجلة «المجمع العلمي العربي» سنة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م.

٨ ـ الرَّصافة والرَّقة:

أصل هذه المقالة محاضرة ألقاها الطباخ في جمعية العاديات، عرّف فيها برصافة هشام بن عبد الملك، وبيَّن أنها كانت موجودة قبل الإسلام. ونقل عن ياقوت كلامه عنها في «معجم البلدان»، وابن الشحنة في «الدر المنتخب»، وذكر خراب الرصافة، ثم أفاض في الحديث عن رحلته إلى الرصافة التي تبعد عن حلب ٢٠٠ كيلو مترًا وطوافه بسورها العظيم وبابها الكبير وصهريجها الواسع. ثم اتجاهه مع صحبه إلى الرقة، ومشاهدة بقية آثار الدولة العباسية والأيوبية. وذكر ما عاناه من مشقة في الوصول إلى البلدة، ودعا إلى إصلاح الطريق وتعبيده، وتحدث عن شرب أهل الرقة من ماء الفرات، ومشقة نقله، ودعا إلى مدِّ أقنية الفرات إلى البلدة وتوزيعه على المساكن.

وذكر استقبال أهل الرقة لهم وحفاوتهم بهم، ثم زيارتهم للرقة القديمة، وما رأوا فيها مما ابقته الأيام من أبواب، ومنها: باب حلب وباب بغداد، وما تبقى من مسجدها العظيم، وبقايا جدار قصر الرشيد.

وقد نشرت هذه المقالة في مجلة «العاديات» الحلبية، في العدد الأول من السنة الخامسة: (كانون الثاني وآذار ١٩٣٨) الموافق ١٣٥٦هـ.

٩ ـ قاعة دار الحُفَّاظ:

تكلَّم في هذه المقالة على دار القرآن العشائريَّة، التي بناها علي بن محمد بن أبي العشائر، وذكر وقفيتها، وسكان الدار ومُدرِّسِيها، وعن سعيه في إحياء هذا الأثر وإعادته إلى ما بُنِي لأجله، حيث نقل إليها دار الحفاظ سنة ١٣٦٠هـ.

وتكلم على دار الحفاظ، وأستاذهم الشيخ نجيب الآلا (خياطة)، وبيَّن المدة المحدَّدة لتلقِّي القراءات، وحفظ القرآن عن ظهر قلب.

وقد نشرت هذه المقالة النادرة في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية سنة ١٣٦٠.

١٠ ـ افتراء ابن بطوطة على ابن تيمية:

نقد في هذه المقالة ما ذكره ابن بطوطة بأنه سمع ابن تيميَّة يقول: إنَّ الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر.

وقد بيَّن أن هذه القصة من وضع ابن بطوطة وافترائه، لأنه دخل دمشق في رمضان سنة ٧٢٦هـ ونزل بالمدرسة الشرابشية، وابن تيمية كان مسجونًا في شعبان من نفس السنة، وظلَّ معتقلاً إلى أن تُوفِّي في ٢٢ ذي القعدة، سنة ٧٢٨هـ، فكيف يسمعه وهو مسجون؟

ثم نقل الطباخ ما ذكره ابن حجر في ترجمة ابن بطوطة، وما رُمي به من مبالغة وكذب.

وساق الطباخ قصيدة لابن تيميَّة تُعْرِب عن عقيدته. وقد علقت على هذه المقالة مما كتبه مجيزنا المؤرخ عبد الهادي التازي الذي رجَّح لقاء ابن بطوطة بابن تيمية لدخوله دمشق مرتين، كان في إحداهما خارج السجن.

ونُشرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي» سنة ١٣٦١هـ = ١٩٤٢م.

١١و١٢ ـ حول قبر معاوية:

ذكر في هاتين المقالتين الصغيرتين عدّة نصوصٍ تؤيّد ما حقَّقه الأديب الأستاذ عز الدِّين التنوخي أن قبر معاوية في تربة الباب الصغير، مما نقله عن «طبقات الشافعية»، و«شذرات الذهب»، و«رحلة ابن بطوطة»، و«الضوء اللامع».

ثم نقل عن ابن الجوزي أنَّ أحمد بن طُولون بنى على قبر معاوية أربعة أروقة، وأمر أن يُسرج هناك. وقد نشرت هاتان المقالتان أيضًا في مجلة «المجمع العلمي العربي» في المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

١٣ ـ رأس يحيى وزكريا عليهما السلام:

حقق الطباخ أنَّ الضريح الموجود في جامع حلب الكبير هو قطعة من رأس يحيى، أو رأس أبيه زكريا، ونقل عن «الدّرّ المُنتَخَب» أنَّ الرأس نُقِل من بعلبك إلى حمص ثم حلب في سنة ٤٣٥هـ، ودفن في جرن من الرخام في مقام إبراهيم في قلعة حلب، وقد جدَّد الملك العادل نور الدين عمارته.

وتكلَّم على سبب نقل هذا الصندوق إلى الجامع الأعظم بحلب سنة ٦٥٩، بعد تسلُّم التتر قلعة حلب وهدمها وهدم الجامع، فنُقِلَ من القلعةِ إلى المسجد الجامع، ودُفِن شرقي المنبر.

ثم نقل ما يفيد أن رأس يحيى كان بحمص، ونقل عن ابن الوردي محاولة ناظر الوقف في حلب ابن الدقاق الدمشقي (ت ٧٢٨) فتح التابوت، ورؤية بعض الجمجمة، وابتلاءه بالصَّرَع.

ثم نقل عن تاريخه «إعلام النبلاء» ما يتَّصل بتوسيع تلك الخزانة إلى حجرة كبيرة وضريح عظيم في سنة ١١٣٠هـ.

ونقل عن تاريخ صديقه الشيخ كامل الغزي «نهر الذهب» وصف الحضرة النبوية في العصر الحاضر.

ثم نقل ما قاله المؤرِّخون عن مقتل يحيى عليه السلام وأين كان قبره وقبر أبيه عليه السلام، وأبان عن التعارض الموجود بين مؤرِّخي حلب الأقدمين القائلين: إن الموجود بحلب هو رأس يحيى، وبين المؤرخين القائلين: إنه رأس زكريا، وأنه لا سبيل للوقوف على الحقيقة إلا الكشف عن الصندوق وقراءة ما كُتِبَ عليه بدقَّة. وقد نشرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي» في المجلد الحادي والعشرين: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م).

١٤ ـ المدارس في الإسلام:

تحدَّث فيها العلامة الطباخ عن أوّل بلدة بُنيت فيها المدارس، في نيسابور، وهي المدرسة البيهقيَّة بعد الأربع مئة، ثم تكلَّم عن المدرسة النظاميَّة ببغداد سنة ٤٥٩هـ، ومَنْ تولّى التدريس فيها، والمدرسة المستنصِرِيَّة، وذكر ما بقي من كُتُبٍ في مكتبتها العظيمة، وهو جزء من تفسير الماوردي، كتب سنة ٦٥٢هـ، لم يستطع معرفة المكان الذي وقف فيه، وبينت أنه وقف على المدرسة (البشيرية) التي أنشأتها باب بشير حظيَّة الخليفة المستعصم بالله، كما هو واضح من نص الوقفية، وكانت امرأة فاضلة محسنة، لها خيرات ومبرات. وهذه المدرسة مشهورة معروفة كما أفاد بذلك الأخ المحقق الشيخ عبد الحكيم الأنيس.

ثم انتقل الطباخ للحديث عن دُور العلم في مصر أيام الفاطميين، وبيَّن أن عمارة دُور العلم في مصر متقاربة مع تواريخ عمارة المدارس في نيسابور.

ثم ذكر المدرسة المستنْصِرِيَّة، وهي أول مدرسة أُحدِثَت بمصر في عهد صلاح الدِّين، والمدرسة القمحيَّة، والسُّيوفِيَّة.

ثم تكلَّم على المدارس في دمشق، وذكر بعض المدارس التي بناها الملك العادل نور الدين الشهيد، وزوجته خاتون، وذكر مَن أَلَّف في مدارسها ومساجدها وزواياها.

ثم انتقل للحديث عن المدارس في حلب، فذكر أوَّل مدرسة بُنيت فيها، وهي المدرسة الزجاجِيَّة سنة ٥١٦، وأفاض الحديث عن بانيها، وتاريخِ بنائِها ومكانِها، ثم تكلم على تتابع بناء المدارس في حلب في عهد نور الدين الشهيد، فذكر من آثاره: المدرسة الحَلَوِيَّة، والعَصرونيَّة، والنَّفريَّة، والصاحبيَّة، والشُّعيبيَّة.

ثم تحدَّث عن نوَّاب نور الدِّين الذين اقْتَفَوْا أثره في بناء المدارس في حلب: ومنهم مَجْد الدين أبو بكر ابن الداية، وعز الدين المقدّم، ومحمد بن عبد الملك، والأمير جمال الدين شاذبخت.

ثم سَرَدَ أسماء المدارس الموجودة العامرة وغير العامرة في حلب، ومكانها، ولم يذكر ما دُثر منها، فبلغ عددها ٤٤ مدرسة دينية. وقد نشرت هذه الدراسة في عدة مقالات في مجلة «الجامعة الإسلامية»، في السنة الثامنة عشرة: ١٣٦٥-١٩٤٦.

١٥ ـ فرنسا والشرق العربي:

هذه المقالة كتبها الطباخ بمناسبة ذكرى عيد الجلاء، بيَّن فيها أطماع الغرب في الشرق وأنه ليس شيئاً مُسْتحدثاً، وخصوصاً دولة فرنسا التي غزت الشرق العربي عدَّة مرَّات، وعادت مدحورةً خاسرة.

وقال: «نذكر هنا حملتين لها على مصر، كان نصيبها فيهما الفشل والخيبة؛ لسوء إدارتها، وضعف سياستها، واستنزافها الأموال بأيِّ طريقة كانت، والثالثة حملتها على سوريا، وخروجها منها».

الحملة الأولى:

وتكلم على الحملة الأولى في سنة (٦٤٧هـ) ونقل عن أبي الفداء وصف الحملة التي سار فيها (ريد إفرانس)، وكان جمع نحو خمسين ألف مقاتل، ووصل إلى دمياط، وكان قد شحنها الملك الصالح بآلات عظيمة، وردَّ المسلمون الفرنج على أعقابهم، واستمرَّت بهم الهزيمة، وقُيِّد (ريد إفرانس)، وجُعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان.

واقتصر الطباخ على هذه الحملة، ولم أقف في المجلة على بقية الحملات التي شنتها فرنسا على مصر والشام.

نشرت في مجلة «الجامعة الإسلامية»، الأعداد (٢٥٣-٢٥٦) في السنة التاسعة عشر: (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).

الفصل الثالث
في التراجم

وقد اشتمل على اثني عشر مقالًا:

١ ـ نعيُ محمد علي باشا:

وصفه بقوله: «فقدنا رجلاً عظيماً وطَوْداً باسلاً كريماً، ألا وهو أمير لواء الرديف، ورئيس قلم أخذ العسكر»، وذكر أنه: «كان مُحبّاً للمذاكرات العالية في الأحاديث النَّبويَّة، والعلوم العربية مع تضلُّع في الفنون الرياضيَّة، والتاريخية والقوانين النظامية». وقد أوضحت في التعليق عددًا من الاصطلاحات والكلمات التركية التي ذكرها الطباخ في هذه المقالة النادرة.

نُشِرت هذه الكلمة الرثائية في جريدة «ثمرات الفنون» البيروتيَّة من السنة ٣٣: (١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م).

٢ ـ «بدائع الصنائع» والمرأة المسلمة في العصور المتقدّمة:

ترجم فيها للكاساني ولأستاذه: علاء الدين السمرقندي، ولابنة أستاذه وزوجة الكاساني فاطمة الفاضلة، وأنها أنموذج ممَّا كانت عليه الأمة الإسلامية من العناية بتربية النساء، وذكر مكانة كتابه «بدائع الصنائع»، وثناء العلماء عليه، وختم مقالته بقوله: «وحَسْبُنا هذا دليلاً على ما وصلت إليه المرأة المسلمة من الرُّقيِّ في تلك العصور، وقايِس ـ أخي القارئ ـ بين أمثال هذه الفاضلة وبين المرأة المسلمة في عصرنا هذا، وقل لي ـ رعاك الله ـ : هل يوجد اليوم في مشارق الأرض ومغاربها امرأة مسلمة حازت من العلياء هذه الدرجة؟ وقل لهؤلاء العلماء القائلين بتحريم تعليم المرأة الكتابة: أكان صاحب «التحفة» السمرقندي ـ الذي هذَّب ابنته فاطمة وعلَّمها ما علَّمها ـ جاهلاً بالحكم الذي يعلمه هؤلاء؟

فهل لنا أن نأخذ من ترجمة هذه الفاضلة درس عِظَة يُوقِظنا من سُباتنا، ويبعثنا من أجداث خُمولنا، ويُرشدنا إلى النُّهوض إلى تعليم بناتنا واجباتهم الدينية، وحوائجهم الدنيويَّة؛ لنحيا في الدّنيا حياة طيّبة، ونعيش في الآخرة عيشة راضية».

نُشِرت هذه المقالة في مجلة «المقتبس» الدمشقية، سنة (١٣٢٩هـ = ١٩١١م).

٣ ـ ترجمة الشيخ محمد كامل الهبراوي (ت ١٣٤٦):

هذه الترجمة أوردها الطباخ في ثبته «الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبيَّة»، عند سرده لشيوخه الذين أجازوه، ولم تنشر في «إعلام النبلاء» لأنه توقف عند سنة ١٣٤٥، فاستحسنتُ نقلها إلى قسم التراجم في هذه المقالات. وقد ذكر فيها نسب

شيخه الهبراوي، وولادته ونشأته وشيوخه، واشتغاله بالتجارة مع شريك له في صنعة الأغَبَاني، وتردده إلى البلاد الحجازية، واستحضاره مع شريكه لمكَّة مطحنةً حديديَّةً من البلاد الغربية، وخلافه مع شريف مكة، وذكر مؤلفاته وختم الترجمة بقوله: «وبالجملة فقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ حسنةً من حَسَنات الشهباء، وعَلَماً من أعلامها، ولم يخلفه بعده وبعد شيخنا الشيخ أحمد المكتبي (ت ١٣٤٢هـ) في فقه السادة الشافعية مثله، وذلك مع رقّة معاشرة ودماثة أخلاق، وحُسْنِ سَمْت ووقارٍ، وأناةٍ ورويَّة ودراية، وذلك ظاهرٌ فيه متى وقع بَصَرُك عليه».

٤ ـ ترجمة السيد محمد مسعود الكواكبي (ت ١٣٤٨هـ):

ترجم في هذه المقالة ترجمة وافية لصديقه العلامة مسعود الكواكبي، قال في مقدِّمتها: «وإني لمحبَّتي له ومعرفتي بفضله الغزير ومعاشرتي له مُدَّة طويلة، أحببتُ أن أُترجم هذا الراحل الكريم، وأذكر ما لديَّ من أشعاره وآثاره، وقد كان أتحفني بذلك كلِّه حالَ حياته بطلبٍ مني، فكان بذلك المنعمَ المتفضِّلَ وهو عندي بخطه، وأحببتُ بل اقترح عليَّ غير واحد من مُحِبِّيه وعارفي فضله أن أنشر ذلك في صفحات «الاعتصام» تخليداً لذكره في بطون الكتب على ممرِّ الأجيال وكرِّ العصور».

و ذكر في ترجمته نسبه وولادته ونشأته وما تولاه من المناصب، وانتخابه لمجلس النوَّاب العثماني، وتعيينه لنقابة أشراف حلب، ومديرًا للأوقاف بحلب، وانتخابه في عضويَّة المجمع العلميِّ في دمشق، كما تكلم على خطبه المنبريَّة التي تتميز بموضوعات اجتماعيّة لها مناسبة بما عليه الناس من عادات سيِّئة.

وأورد كثيرًا من شعره المنتثر مما أتحفه به حفظًا لآثاره، وتخليدًا لها على ممرِّ الأجيال، وختم بالحديث عن مرضه ووفاته، و صفته وأخلاقه.

نشرت هذه الترجمة النادرة في مجلة «الاعتصام» الحلبية، سنة (١٣٤٨هـ = ١٩٢٨م).

٥ ـ حول مقالة الشاعر الصنوبري:

تعقَّب فيها صديقه العلامة المؤرِّخ الشيخ كامل الغزّي الذي ذكر في مقالة له في المجلد الحادي عشر ص٤٨٤ من مجلة «المجمع»: أنَّه تبع في اسمه واسم أبيه ونسبه الأكثريَّة، وأنَّه أحمد بن محمد الصيني الصنوبري الحلبي، وأنَّ كلمة الضبِّي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر محرَّفة عن الصيني. وأنَّ تاريخ وفاة الصَّنوبري لا يخلو من إبهام، فهو يحتاج إلى تدقيق عميق، وأنه كان في سنة ٣٤٦ حياً يُرزق. فبيَّن الطباخ في تعقبه أنه عُني منذ مدَّة بجمع أخبار الصنوبري وشعره، ورجّح أنَّ اسم جدِّه هو الحسن لا الحسين، واسم أبي جده مرار لا مروان، وأما قول الأستاذ الغزي: إنَّ كلمة الضبِّي الواردة فيما تَرجم له ابن عساكر مُحرَّفة عن الصيني، وجزمه بأنَّه الصّيني فهو بعيد عن الصواب، وخطأ محض، والصَّواب أنَّه الضبِّي نسبة لبني ضبّة قبيلة من قبائل العرب، وحقَّق بأن وفاة الصنوبري في سنة ٣٣٤هـ.

٦ ـ الشريف الكتاني يزور سوريا:

تحدَّث الشيخ الطباخ في هذه المقالة عن سعيه للقاء بالسيد محمد عبد الحي الكتاني عند عودته من الحجاز، ورحلته إلى طرابلس الشام واجتماعه به في صفر ١٣٥٢، وذكر ما دار في هذا الاجتماع من فوائد علميَّة نادرة.

نُشـرت هذه المقالة في مجلة «الاعتصام» الحلبية، سنة (١٣٥٢هـ).

٧ ـ خطر انقراض العِلْم الإسلامي في الديار الشامية:

وهي كلمة في رثاء العلامة الشيخ أحمد بن محمد الزرقا، وعطاء الله الكسم، وأبي المواهب الباشا، رُفِعت باسم جمعية البر والأخلاق الإسلامية، التي كان يرأسها

الشيخ محمد راغب، وباسم رابطة مأذوني المدارس العلمية التي كان يرأسها أحمد جميل أبو صالح، ودار الأرقم من شباب محمد التي كان نائب رئيسها القاضي عبد الوهاب التونجي. ونُشـرت في مجلة «الفتح» المصريَّة، سنة (١٣٥٧هـ).

٨ ـ نبذة في التعريف بتلميذه الشيخ مصطفى الزرقا:

وهي رسالة نادرة، وجدتها في أوراق شيخنا العلّامة مصطفى الزرقا، وهي في أصلها رسالة مرسلة من الشيخ الطباخ إلى الأستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي، يرشِّح فيها تلميذه النابغة الزرقا لعضوية المجمع العلمي، وكتب فيها نبذة في التعريف بتلميذه الزرقا وخصائصه، وقال فيها عن الزرقا: «إنه اليوم ـ أي: سنة ١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م ـ مفخرة من مفاخر الشهباء، وجوهرة نيِّرة من جواهرها، وأرجو تقرير نظمه في عقْد أعضاء المجمع الموقّر، ليزيد ذلك العقد درَّة إلى درره الكريمة».

٩ ـ ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ الذاتيَّة:

هذه الترجمة كتبها العلامة الطباخ بطلب من الأستاذ محمد كردعلي، رئيس المجمع العلمي، وهي مقتضبة من ترجمة واسعة وضعتها لنفسه تبلغ ٤٠ صحيفة، وهذه الترجمة الواسعة حققتها وعلقت عليها تعليقات ضافية، وألحقت بها فصلاً في وفاته ومراثيه والكلمات التي قيلت فيه، كما ألحقت فصلاً آخر في شيوخه بالإجازة، وسيصدر هذا الكتاب قريبًا بعون الله تعالى.

واخترت هذه الترجمة لأنها لم يسبق لها النشر، وبيَّن في ترجمته الداعي إلى كتابتها، وذكر فيها ولادته ونشأته، ومراحل تحصيله العلمي وشيوخه، ووظائفه في غرفة تجارة حلب، ومجلس الأوقاف، وتعيينه مدرساً في الكلية الفاروقية، وتدريسه في المدرسة الخسروية، وتعيينه عضواً في المجمع العلمي، وعضوا في دار الأيتام، وتأسيسه المطبعة العلمية، وذكر بعض ما نشره فيها من آثاره العلمية، وما استنسخه بيده من الكتب، وحضوره مؤتمر العلماء بدمشق.

وقد كتب هذه الترجمة في ٨ من ذي الحجة من سنة (١٣٦٢)، الموافق ٥ كانون الأول من سنة (١٩٤٣).

١٠ ـ ترجمة كاتب جلبي:

نقل ترجمته[١] التي كتبها عن نفسه في آخر القسم الأول من كتابه «سلّم الوصول إلى طبقات الفحول» و بالنصّ العربي، وذكر مؤلفاته وأشاد بكتاب: «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»، وقال: «ولا يخفى على أحد أنّ من أهمّ العلوم: علم أحوال الكتب، فإنّه أول مرحلة من مراحل البحث والتّنقيب، ومَنْ لا يعلم ما أُلّف من الكتب في أيِّ موضوع كان، يطول عليه أمد بحثه دون أن يحصل منه على طائل. وعلم موضوعات العلوم من أنفع الوسائل وأجداها لأنّ من يعرف الموضوع إجمالاً تحصل منه البصيرة». وأقترح «تسهيلاً للمطالعين والباحثين أنّ يرتَّب هذا الكتاب ـ بعد أن يتمّ طبعه مع ذيوله التي تقدّم ذكرها ـ على شكل آخر اختصارًا للوقت وللمراجعة، بأن يذكر العلم، وموضوعه، وأبحاثه، وتطوراته، كالأصل، ثم تذكر كتب هذا العلم مرتَّبة على الحروف وهكذا.

وبذلك يختصر وقت طويل، ويعلم مقدار ما أُلّف في هذا الفنّ وتطوّراته في كل عصر. وما أعظم هذه الفوائد».

١١ ـ ترجمة مفقودة (ابن عادل الحنبلي):

هذه المقالة هي محاولة للتعرف على العلامة عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، مؤلف التفسير الكبير العظيم المسمَّى: (اللباب في علم الكتاب)، تكلم فيها الطباخ عن أجزاء هذا الكتاب في المكتبة الأحمدية بحلب، وبحثه عن ترجمته في

---

(١) لا أعلم إن كان هو الناقل، وأين رأى الطباخ «سلم الوصول» المخطوط في إصطنبول؟ ثم إنه قال في أول المقالة: قال الناشر. ولا أدري من يقصد؟

عدد من كتب الحنابلة، مثل «الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد» للعليمي، و«المنهج الأحمد» له أيضًا، و«مختصر طبقات الحنابلة» للكمال الغزي، و«السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة»، لابن حميد. ولم يذكر في تلك الكتب تاريخ مولده ووفاته، وتحدَّث أيضًا عن سعي تلميذه الشاب النجيب ـ كما وصفه ـ شيخنا العلامة عبد الفتاح أبو غدة في الوقوف على ترجمته، وسؤال شيخيه الكوثري وأحمد شاكر عنه وعدم اهتدائهما إلى تحديد تاريخ وفاته.

ورجح الطباخ أن وفاته بعد الثمانين وثمان مئة.

وقد علقت على هذه المقالة تعليقات ضافيات، ونقلت ما انتهى إليه الطباخ في كتابه «الثقافة الإسلامية» أن وفاته في أواخر القرن الثامن لا في أواخر القرن التاسع، وقد استفدت من دراسة كتبها الأخ الشيخ مرهف السقا، حدَّد فيها مولده ووفاته، من خلال شيوخه وتلاميذه، وانتهى فيها إلى أنه ولد في أواخر القرن السابع، وتوفي في أول الربع الأخير من القرن الثامن، وأنه من أعيان القرن الثامن يقينًا، أي أنه عاش بين عامي ٦٧٥هـ و٧٧٥هـ تقريباً، وغير ذلك من الفوائد التي يجدها القارئ منثورة في حواشي هذه الترجمة.

نشرت هذه المقالة في مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق، المجلد العشرون: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

١٢ ـ بقيّة ما ترك الأجداد: حول ترجمة ابن حِبَّان.

تعَّقب فيها الأستاذ محمد كرد علي، الذي زعم أن الإمام ابن حبان لم يترجم له المحدِّثون ولا الفقهاء ولا المتكلمون ولا الأدباء ولا اللغويون ولا الأطباء ولا المنجّمون، لو لا ما ترجم له ياقوت في مادة «بُست» من «معجم البلدان»، لما عرفنا عنه شيئاً يذكر، فتعقبه بمن ترجم له من المحدِّثين قبل ياقوت. وخصَّ بالذكر: الخطيب

البغدادي في كتابه «الكفاية»، واستطرد للحديث عن أهمية هذا الكتاب، وكتابه الآخر: «الجامع لآداب الراوي والسامع»، ووصف نسخته الخطية.

ونُشرت هذه المقالة في مجلة «مجمع اللغة العربية» سنة **١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م**.

الفصل الرابع
في المخطوطات والمطبوعات
تعريفٌ ونقدٌ

في هذا الفصل أربع وعشرون مقالة، عرّف فيها العلامة الطباخ بكثير من المخطوطات والكتب، وتعقب بعض الطبعات، وقد نُشر أكثر هذه المقالات في مجلة «المجمع العلمي العربي»، وهذا تعريف موجز بها:

١ ـ الصور السَّمائيَّة:

تعقَّب فيه الأستاذ أحمد بك زكي، الذي قال: إنَّ كتاب: «الصور السمائيَّة» لابن سهل الصوفي، ليس لأصله العربي وجودٌ، واستدرك عليه الطباخ بوجود نسخة من الكتاب في المكتبة الأحمدية، وأورد مقدمته، وفيها سببُ تأليفه، وعدد الصور السمائية الثمانية والأربعين.

وأشار إلى عدد من صفحات الكتاب، وتاريخ نسخه. وهذه المقالة النادرةُ نُشـرت في مجلة «المقتبس» الدمشقية: (١٣٢٨هـ = ١٩١٠م).

٢ ـ قواعد الكتابة العربية: للأستاذ خير الدين الأسدي، وطبع في المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤١:

عرَّف الأستاذ الطباخ بكلمة موجزة عن الكتاب وذكر أن المؤلف تكلم بإسهاب

عن الكتابة الإملائية، وتراكيب الحروف، وأكثر من الأمثلة عقب كل قاعدة بما يجعل المطلع على الكتاب يأمن العثار في الإملاء، وتناول مباحث يرجع البحث فيها إلى النحو لكنه وفَّاها حقها.

نشرت هذه الكلمة التعريفية في مجلة «المكتبة» المصرية، في الجزء الأول من السنة الأولى: (شوال ١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م).

٣ ـ «المدهش» لابن الجوزي، وياقوت و«الإنصاف والتَّحرّي»:

أشار إلى وجود نسختين نفيستين في حلب من كتاب «المدهش»، ويتلو هذه الفائدة نقده للأستاذ الأديب عيسى إسكندر المعلوف فيما كتبه على كتاب «الإنصاف والتّحرِّي»: ومن أغرب ما رأيت أنّ ياقوتًا في «معجم الأدباء» لم يذكر هذا الكتاب بين مؤلفات ابن العديم... إلخ. فنبه بأنه لا محلّ للاستغراب لأنّ ياقوتًا توفي سنة ٦٢٦، وابن العديم توفي سنة ٦٦٠، فتكون وفاته بعد وفاة ياقوت بأربع وثلاثين سنة، فلا مانع من أن يكون هذا الكتاب مما ألّفه ابن العديم بعد وفاة ياقوت.

وقد نشرت المقالة في مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق: (١٣٤٢هـ).

٤ ـ «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»:

في هذه المقالة تعريف بهذا الكتاب الموسوعي، وبيان منهج المؤلف فيه، وأن الكتاب قسم إلى قسمين: القسم الأول: فيمن ملك حلب منذ الفتح إلى هذه الأيام، والقسم الثاني: في ذكر الفضلاء والعلماء والشعراء والوجهاء التي تضمُّهم هذه البلدة المباركة، ثم نقل كلام الطباخ عن طريقته في القسم الثاني من الكتاب وشرطه فيه، وعن مزايا تاريخه، وما تكبده من مشاق في تأليفه.

نشرت هذه المقالة في مجلة «المكتبة» المصرية، في الجزء السادس من السنة الأولى: (جمادى الأولى ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م).

٥ ـ الجزء الثاني من «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»:

في هذه المقالة تعريف بما احتوى عليه هذا الجزء من التاريخ، وقد ابتدأ بذكر ولاية نور الدين الشهيد محمود بن زنكي على حلب، وذلك في سنة **٥٤١** هجرية، وذكر السبب في ولايته على حلب، ثم ساق الحديث بكل ما فعل نور الدين من مواقعه المشهورة مع الإفرنج لما حاولوا مرارًا أن يحتلوا حلب، ويدافعهم وينتصر عليهم المرات العديدة، وكذلك انتشاب الحرب بينه وبين ملك أنطاكية وانتصاره عليه والبلاد التي احتلها نور الدين في زمن ولايته وما كان منه للمصريين إلى أن انتهت مدة ولايته وتولى مَنْ بعده، وساق حديثه كما ساق حديث نور الدين الشهيد، وهكذا كل من تولى حلب وسيرهم وأخبارهم إلى أن انتهى الجزء بذكر مجيء (قرا يوسف التركماني إلى حلب) وذلك سنة ٨٢١، وساق في آخر الجزء تعريف المكاييل والأثمان التي كان يُتعامل بها من سنة **٥٦٩** في مصر وفي الديار الشامية، واستمرت على ذلك إلى انتهاء القرن التاسع.

نشر هذا التعريف في مجلة «المكتبة» المصرية، في الجزء السابع من السنة الأولى: (شعبان **١٣٤٣**هـ = **١٩٢٥**م).

٦ ـ «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»:

في هذه المقالة بيان ما تميز به هذا الكتاب، وأنه، وإن كان اسمه، والغرض الأساسي من تأليفه، يدلان على أنه خاص بتاريخ حلب وحدها، إلا أنه يتناول الكلام عن كثير من الأقطار والبلدان الشرقية، ويسهب في سرْد الحوادث التي وقعت فيها، سواء كانت حوادث وقعت بين شرقيين وشرقيين، أو بين شرقيين وغربيين.

وأنه اشتمل على كثير من المستندات الرسميَّة، والمراسلات التي كانت تتبادل بين ملوك العصور الماضية، حيث يستطيع المرء بقراءة هذه المسْتندات والمراسلات

أن يستشفَّ الروح التي كانت سائدة في تلك الأزمان بين قوَّاد الأمم، ومدبِّري شؤون العالم. ونقل في المقالة وصية من السلطان صلاح الدين لابنه الملك الظاهر بعد عوْدِهِ من بعض الحروب، ورسالة من الملك هولاكو ملك التتر إلى الملك الناصر صاحب حلب.

نشرت هذه المقالة في مجلة «المكتبة» المصرية، في الجزء التاسع من السنة الأولى: (صفر ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥).

٧ـ أربع تواريخ مخطوطة لليمن:

أشاد في هذه المقالة بكتاب «فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن» للشيخ عبد الواسع الواسعي، وعرَّف بمباحثه، وانتقد خطَّته في الاختصار قبل المئة الثانية عشرة، والحاجة إلى جمع المشتَّت في بطون التواريخ العامَّة، ونقل عن العلَّامة أحمد تيمور باشا أهم تواريخ اليمن وأندرها، وذكر التواريخ التي عَثَر عليها في مدينة حلب، وهي:

الأول: «قرَّة العيون في أخبار اليمن الميْمون»، للعلامة ابن الديبع الشيباني، وذكر أبوابه الثلاثة وفصوله، وتاريخ نسخه.

الثاني: «نشر المحاسن اليمانية في خصائص اليمن ونسب القحطانية»، لابن الديبع أيضاً، وساق خطبته وأبوابه السبعة وخاتمته. ونقل فصلاً من الباب الأول في خصائص اليمن.

الثالث: «روح الروح فيما كان باليمن من الفتن والفتوح»، لعلي بن لطف الله المطهر، ويُعَدُّ هذا الكتاب ذيلاً على «قرة العيون».

الرابع: «اللطائف السنيَّة في أخبار المملكة اليمانية» للكبسي، محمد بن إسماعيل،

وقد وصف هذا الكتاب الذي تنتهي الحوادث فيه إلى سنة ١٢٩٤، ودَعَا الشيخ في آخر هذه المقالة الماتعة إلى طباعة هذه التواريخ الثلاثة: «قرة العيون»، و«روح الروح»، و«اللطائف السنية»، ليتمَّ بها وبتاريخها الذي طبعه الشيخ عبد الواسع اليماني حلقات حوادث تلك البلاد. بالإضافة إلى كتاب «نشر المحاسن اليمانية». وقد نشـرت هذه المقالة في مجلة «الزهراء» المصـريّة، سنة (١٣٤٦هـ).

٨ ـ نفائس التكيَّة الإخلاصيَّة بحلب:

مقالة نفيسة عرَّف فيها بالكتب النادرة في مكتبة التكية الإخلاصيَّة الكائنة في محلة البياضة بحلب، وبلغ عدد الكتب التي ذكرها ٤٣ كتاباً منوعًا في علم التفسير، والحديث ورجاله، والأصول والكلام، والفقه، والنحو، والأدب، والتصوف والتاريخ، ونُشرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق سنة (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م).

٩ ـ بقايا خط عبد القادر البغدادي ورسالة أخرى من مؤلفاته:

أرشد فيها إلى مجموع مهم في مكتبة المدرسة الأحمديّة بحلب برقم ٨٨٤ وجميعه بخطِّ العلامة البغدادي، وذكر ما تضمَّنه هذا المجموع من الكتب والرسائل، وختم المجموع برسالة للبغدادي، في توجيه قراءة ابن محيصن في الإستبرق وتحقيق كونها مُعرَّبة.

نشرت هذه المقالة في مجلة «الزهراء»: (ذو القعدة ١٣٤٧).

١٠ ـ حول تسمية كتاب «النجوم الشَّارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج إليها في علم الميقات»:

تعقَّب فيه صديقه العلامة مسعود الكواكبي في تسمية الكتاب. وأشار إلى الاختلاف في اسمه وإلى نسخته الخطيَّة.

نشرت المقالة في مجلة «المجمع العلمي العربي»: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

١١ ـ كتاب «مناقب بغداد» هو لابن الجوزي، المتوفَّى سنة ٥٩٧:

رجَّح في هذه المقالة أن كتاب «مناقب بغداد» المطبوع سنة ١٣٤٢ بعناية بهجة الأثري هو لابن الجوزي، وليس لحفيده المسمَّى باسمه، المقتول سنة (٦٥٤). واعتمد في ترجيحه على ذكره في مؤلفات ابن الجوزي في كتاب «الدُّرُّ المنضَّد»، واستطرد بهذه المناسبة للحديث عن كتاب «الدُّرّ المنضَّد» الذي اختصر «المنهج الأحمد». ودعا إلى الرجوع إلى «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب للتأكُّد من صحَّة نسبة هذا الكتاب.

وقد علَّقت على هذه المقالة، وصحَّحت نسبة الكتاب إلى كمال الدين عبد الرزاق ابن تاج الدين أحمد بن محمد، المعروف بابن الفُوطي، المولود سنة ٦٤٢ والمتوفَّى سنة ٧٣٣، وقد عزا الكتاب إليه تلميذه الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» ١٢: ١١٠٢، وقد نقل في كتابه: «مناقب بغداد» عن كتاب ابن الجوزي المفقود، وذكر بعض الأحداث التي وقعت ببغداد في القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد طُبِعَ الكتاب مؤخَّراً بتحقيق الدكتور محمد عبد الله القَدَحَات، وصدر عن دار الفاروق بعمان سنة ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٨م، ورجَّح المحقِّق أنَّ الكتاب المطبوع باسم «مناقب بغداد» ليس لابن الجوزي الجد، ولا لأحد أحفاده، وساق أدلة تدلُّ على ذلك من الكتاب نفسه، وجَزَم بأنَّ الكتاب هو من تأليف ابن الفوطي، وقد اعتمد المحقِّق في إخراج الكتاب على أصل مخطوط في دار الكتب المصرية ضمن مجموعة أحمد تيمور.

١٢ ـ حول الجزء الرابع والسابع من «إرشاد الأريب»:

يتساءل الطباخ في هذه المقالة عن ترجمة ابن هبيرة المفقودة في «معاجم الأدباء» التي أحال إليها ابن رجب في «ذيل الطبقات»، ورجَّح العلامة الطباخ أن الجزأين الرابع والسابع مُلفَّقان، ودعا ناشر الكتاب (مرجليوت) إلى إزالة هذا الارتباك ومواصلة

البحث عن الجزء الخامس، وقد نُشرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي» سنة (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

١٣ ـ نفائس الكتب المخطوطة في حلب، أو مخطوطات المدرسة العثمانية:

تكلَّم فيها على مكتبات حلب الشهباء، وما بَقِيَ منها، والسَّرقات التي وقعت في المكتبة الأحمديَّة.

وأورد بعض ما انتخبه من نفائس كتب التفسير والحديث منها. وقد نُشرت هذه المقالة الماتعة النافعة في مجلة «الاعتصام» الحلبية، ومجلة «المجمع العلمي العربي» أيضًا في سنة (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م).

١٤ ـ الكمال ابن العديم وتاريخه «بغية الطلب»:

هذه الرسالة من أوسع الرسائل التي نشرها العلامة الطباخ، وقد تابع فيها البحث عن ترجمة ابن العديم التي أودعها في تاريخه «إعلام النبلاء» وعن نُسخ تاريخه «بغية الطلب»، فقيَّد ما اجتمع لديه، ونظمها في عِقْد، فتحدَّث عن أسرته، وسبب تسمية هذا البيت ببيت العديم، وعناية هذا البيت بحفظ القرآن العظيم، وهجرة جدِّهم الأعلى من البصرة إلى حلب، وتوطّنهم فيها، ونشأته، وتحصيله للعلم، وعناية أبيه به في هذا السبيل، وأول ما وُلي من التدريس، وأوّل مؤلفاته، وحُسْن خطِّه واشتهاره في الآفاق، وآثار خطه الجميل؛ وبعض بقايا خطه من كتابه «التذكرة» الذي صوَّره له من مصر العلامة أحمد زكي باشا، وأورد رسالته إلى أحمد زكي باشا يستوضحه عما في تلك الصحيفة من كلمات تعسَّر عليه قراءتها، ثم عرض نماذج من أبحاث هذه «التذكرة»، ثم تكلم على سبب إهمال ابن خلكان ترجمة ابن العديم.

ثم ذكر ما وقف عليه من ترجمته في مختلف التواريخ، إذْ في كلِّ ترجمة ما ليس في

الأخرى، فسَاقَ ترجمة ابن شاكر الكتبي، ورسالة ابن معصوم في «سلافة العصر»، والشهاب الخفاجي في «طراز المجالس».

ثم ذكر تَوَجُّه ابن العديم إلى بغداد ومصر، ونَقَل ما ذكره أبو الفداء في «تاريخه»، وابن خطيب الناصريَّة في «الدر المنتخب»، ومحمد العُرْضي في كتابه «النموذج»، وتكلَّم على المدرسة العديميَّة بحلب.

ثم انتقل للكلام على تاريخه: «بغية الطلب»، والموجود من هذا التاريخ في مكاتب العالم، وهو الغاية القصوى من تأليف هذه الرسالة، فذكر النسخة الموجودة في الأستانة، وباريس، والموصل، والمتحف البريطاني بلندن، وفي الأستانة أيضاً، ومصر، ويطرسبرج.

وقال في خاتمة دراسته المفصَّلة لابن العديم: «هذا ما أمكن الوقوف عليه من أجزاء هذا التاريخ العظيم، ومَنْ وَقَف على شيء منه في مكتبة من المكاتب، فإنا نرجو أن يُتْحِفَنَا به، لنُلحقه بهذا الكتاب مع ذكر مَن أتحفنا بذلك، ولعل بذلك يمكن جمع نسختين تامتين، فيؤدي ذلك إلى الاهتمام بنشره متقناً صحيحاً؛ لتَعُمَّ الفائدة منه لأهل هذه البلاد وغيرها». وقد نُشرت هذه الدراسة المفصَّلة في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيَّة ما بين سنتي ١٣٥٨-١٣٦٠.

١٥ ـ «الدّرّ المنتخب في تاريخ حلب»، لابن خطيب الناصريَّة:

عرف بهذا السِّفر النفيس، وبيَّن أنه ذيل على تاريخ ابن العديم «بغية الطلب» الذي ينتهي سنة ٦٥٨ في السنة التي استولى فيها هولاكو على حلب وخربها، فذيَّل ابن الخطيب من سنة ٦٥٨ إلى سنة وفاته ٨٤٣، وصدَّره بخمسة فصول: في حلب وأسمائها، وحدودها وأعمالها، وعِظَمِ فَضْلِها وخصائصها، وفتحها، ونهرها، وقناتها

ومساجدها، ثم ذكر مَن نزل بها أو اجتازها من الرواة والعلماء والفضلاء، وأهل الشعر والإنشاء، ويُعَدُّ الكتاب تاريخاً عاماً للبلاد السورية، ففيه تراجم أعيان هذه البلاد كلها، ما بين سنتي ٦٥٨-٨٤٣ ما لا يوجد في غيره، والتراجم الموجودة فيه أوسع ممَّا في «الدرر الكامنة» و«الضوء اللامع».

وأورد الطباخ ما وقف عليه من نُسخ هذا التاريخ، وهي سبع نسخ في مكاتب العالم، وناقش المستشرق بروكلمان في دعوى وقوفه على ٢٢ نسخة من هذا التاريخ.

وقد نُشرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي العربي» (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م).

١٦ ـ «إنباء الغمر بأبناء العمر»، لابن حجر:

تحدَّث في هذه المقالة عن هذا الكتاب وطريقته فيه، وذكر أنه من نفائس مخطوطات المدرسة العثمانية بحلب، وأشار إلى المخطوطات الأخرى، ودعا إلى طباعتها. وقد نُشِرت هذه المقالة الماتعة في مجلة «المجمع العلمي» سنة (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م).

١٧ ـ حول كتاب «الإمتاع والمؤانسة»:

نُشر كتاب «الإمتاع والمؤانسة» اعتماداً على نسخة واحدة، فنبَّه العلامة الطباخ إلى وجود ثلاث نسخ منه، وبيَّن اهتمام العلامة أحمد زكي باشا بهذا الكتاب، وحرصه على نُسَخِه المطبوعة، وأورد رسالته إليه في سؤاله عن الكتاب، واستشكاله تاريخ النسخ، باسم السلطان سليمان بن غازي الأيوبي سنة ٨١٥، وأجاب عن استشكاله بأنَّ غازي والد سليمان هو من ملوك حصن كيفا المتوفَّى ٨٢٧، وهو غير غازي ملك حلب الذي توفي سنة ٦١٣، وظنّهما العلَّامةُ أحمد زكي باشا شخصاً واحداً.

ونُشرت هذه الرسالة النادرة والمقالة الماتعة في مجلة «المجمع العلمي العربي» (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م).

١٨ ـ حول «تاريخ الحافظ ابن كثير»:

تكلَّم الشيخ راغب على السَّنَة التي انتهى فيها ابن كثير من ذكر الوفيات والحوادث، وهي سنة: ٧٣٨ كما في النسخة المخطوطة في المدرسة الأحمدية، أما المطبوع فتمتد الحوادث فيه إلى سنة ٧٦٨، وهذه السَّنة من ٧٣٨ إلى ٧٦٨ ليست للحافظ ابن كثير، وحقَّق أنَّ هذا الذيل من سنة ٧٣٩هـ إلى آخر الكتاب، بعضه لأحمد بن حجّي المتوفى سنة (٨١٦هـ)، وبعضُه لابن قاضي شهبة، المتوفَّى سنة (٧٩٠هـ).

ونشر هذا المقال في مجلة «المجمع العلمي» (١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م).

١٩ ـ حول مقالة الحسبة للفاضل كوركيس عوَّاد:

أشار إلى وجود خمس مخطوطات من كتاب «نصاب الاحتساب» لعمر بن محمد ابن عوض السنامي، وذكر أنه لم يقف على ترجمته، وذكرت في التعليق ترجمته.

نشرت هذه المقالة في مجلة «مجمع اللغة العربية» في دمشق: (١٣٦٣هـ).

٢٠ ـ حول كتاب «لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحب والمحبوب» لأبي المعالي عزيز بن عبد الملك شيذلة:

تعقَّب فيه الشيخ محسن الأمين بوجود نسخة نفيسة منه في مكتبة الأوقاف بحلب، محرَّرة سنة ٥٦٥.

نشرت المقالة في مجلة «المجمع العلمي»: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٢١ ـ التصحيف والتحريف:

تعقَّب في هذه المقالة الأستاذ محمد كرد علي، وبيَّن عناية المحدِّثين بهذا الفن، وذكر رسالة «إصلاح غلط المحدِّثين» للخطابي، وتكلَّم على التصحيف وأنواعه، وكتبه، وأورد نماذج من كتاب عبد الغني بن سعيد الأزدي في «مشتبه الأسماء والنسبة»، ثم أشار إلى

أماكن وجود مخطوطات «الإكمال» لابن ماكولا، و«تبصير المنتبه» لابن حجر.

ونُشـرت هذه المقالة في مجلة «المجمع العلمي» سنة (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

٢٢ ـ حول كتاب: «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي»:

بيَّن ما للأمير شكيب أرسلان من أعمال جليلة، لا سيما فيما كتبه عن جهاد أهل طرابلس الغرب، ثم بيَّن أنَّ الكتاب الذي نشـره باسم «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» ولم يقف على اسم مؤلفه، أنه لأحمد بن محمد الموصلي الدمشقي المتوفى سنة ٨٧٠. وأرسل للأمير شكيب رسالة يُعلمه بعثوره على مؤلِّف الكتاب، وأرسل له ترجمته، وجاءه الجواب منه، ونشـر رسالته إليه يشكره على هديته وهدايته إلى معرفة اسم المؤلف.

نشـرت المقالة في مجلة «المجمع العلمي»: (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).

٢٣ ـ كُتب ضبط الأسماء والألقاب:

انتقد في هذه المقالة الأستاذَ حَمَد الجاسر في تعقُّبه للأستاذ صلاح الدِّين المنجد لكتاب «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب»، حيث ذكر الجاسر كتاب «مشتبه النسبة» لعبد الغني بن سعيد الأزدي (ت ٤٠٩) في جملة كتب الأنساب، فخطَّأه في ذلك، وعرَّف علم الأنساب، وصحَّحَ أن هذا الكتاب لا يمتّ إلى كتب الأنساب بصلة، لأنه كتاب لغة يقصد منه ضبط ألقاب المحدِّثين وكناهم، وهو نوعٌ من أنواع مصطلح الحديث، ثم نقل عن الحافظ ابن حجر ما ذكره في «شرح النخبة» عن معنى المؤتلف والمختلف، والمصنَّفات في هذا الفن. وذكر بعد ذلك نماذج من «المؤتلف والمختلف» و«مشتبه النسبة» للحافظ عبد الغني بن سعيد.

ونُشر هذا المقال في مجلة «المجمع العلمي» في سنة (١٣٧١هـ = ١٩٥٢م) بعد وفاة الأستاذ الطباخ رحمه الله تعالى.

٢٤ ـ «غاية الاختصار في أخبار البيوتات العَلَوِيَّة المحفوظة من الغبار» ليس لتاج الدين محمد بن حمزة ابن زهرة الحُسَيني نقيب حلب.

وهي رسالة أرسلها إلى يوسف سركيس، نفى فيها نسبة الكتاب إلى ابن زهرة، وبين أنه من وضع أبي الهدى الصيادي، وقد أورد سركيس هذه الرسالة في خاتمة كتابه: «معجم المطبوعات العربية والمعربة»

الفصل الخامس

في الأدبيات واللغويات

وهذا الفصل من أوسع الفصول، إذ كان العلامة الطباخ شديد الكَلَف باللغة والشعر والأدب، وقد اشتمل هذا الفصل على رسالتين ومقال:

١ ـ «البدريَّات»

أما هذه الرسالة فهي ما جمعه العلامة الطباخ من شعر العالم الأديب المحدِّث المؤرِّخ الفقيه بدر الدّين الحلبي، حسن بن عمرو بن الحسن بن حبيب، المولود سنة (٧١٠)، المتوفى سنة (٧٧٩) عن ٦٩عاماً رحمه الله تعالى، وقد ترجم له ترجمة ضافية، وأورد نقولاً نادرة من ثناء أئمة الأدب في عصره على شعره ونثره، مثل: الصفي الحلبي، وزين الدين ابن الوردي، وسَرَد مؤلفاته، وأشار إلى المطبوع والمخطوط ومواضع تلك المخطوطات.

ثم أورد ما أمكنه جمعه من شعره المتفرِّق في كتب الأدب، وذكر غَزَلياته، وَوَصْفه، وما قاله في عمائم الأشراف، ومدائحه، وحكميَّاته، وذكر نماذج من نثره.

وقد نُشرت هذه الرسالة النادرة في مجلة «الاعتصام» الحلبيَّة في الأعداد ٤ –٥ – ٦ من السنة الأولى سنة: (١٣٤٨هـ)، أي منذ خمس وثمانين سنة، وقد اجتهدتُ في تصحيحها وتقديمها في هذا المجموع.

٢ ـ «الروضيّات»

أما هذه الرسالة فهي ما جمعه الشيخ الطباخ من شعر الشاعر أبي بكر الصنوبري الحلبي، أحد شعراء سيف الدولة ابن حمدان، المتوفَّى سنة (٣٣٤هـ)، وطبعت سنة (١٣٥١هـ = ١٩٣٢م) في ٧٩صفحة، وقدَّم لها بترجمة وافية للصنوبري، تحدَّث فيها عن نفسيَّتِه، ومنزلته الشعريَّة بين أئمة الشعر والأدب، ثم أورد أول شعر قاله، وروضيَّاته، ووصفه لميادين حلب، ومدحه مدينة حلب، ووصفه للبلاد والقرى، ورياضها ومنزلتها، ووصفه نهر حلب، وغزليّاته، وشكواه من الزمن، وشعره في الشَّيْب والشباب، ومُطْرباته، وما أخذ الشعراء من شعره، واستشهاد علماء البلاغة بشعره، ومدائحه، ومراثيه، وخَتَم الطباخ هذه الرسالة في المطارحات بين الشاعرين كُشاجم والصنوبري في العتاب، وقد أدرجت هذه الرسالة في جملة رسائله ومقالاته لِنُدرتها اليوم، وقلّة اطلاع كثير من المشتغلين بالأدب عليها، وإحياءً لأثر هذا الشاعر الحلبي الفحل، وجامع هذه «الروضيات» التي مضى على طباعتها أكثر من ثمانين سنة.

قال الأستاذ الدكتور أحمد فوزي الهيب في بحثه الذي قدَّمه في ندوة المكتبة الوقفية بحلب بعنوان: «العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ الحلبي رائد صانعي الدواوين الشعرية في العصر الحديث»:

«كان الشيخ محمد راغب الطباخ من أوائل الذين تنبَّهوا إلى أن ثمَّة شعرًا غزيرًا مهمًا، قد ضاع، لشاعر متميّز في عصر سيف الدولة الحمداني، وهو ـ مع عصر الأيوبيين ـ أهم العصور الأدبية التي شهدتها مدينته حلب الشهباء التي أحبَّها وأحبته حبًّا جمًّا، وهذا الشاعر هو الصنوبري، أبو بكر، أحمد بن محمد بن الحسن بن مِرار الضبي الحلبي، المتوفى عام (٣٣٤هـ = ٩٤٦م)».

ويحدِّثنا الشيخ محمد راغب الطباخ عن هذا الأمر بعفوية وتواضع وصدق، فيقول: ازدهرت الآداب والعلوم في بلاط سيف الدولة الحمداني، وذلك لعنايته بالعلم وأهله والأدب وذويه وازدحام أقدام العلماء والأدباء في حضرته ومباراتهم بعضهم لبعض حبًّا منهم بالتفوق ونوال الشهرة الواسعة وبُعد الصيت، وقد كان من أفراد ذلك العقد البديع وأفذاذ ذاك العصر الزاهر: أبو بكر، أحمد بن محمد بن الحسن المعروف بالصنوبري الحلبي، أحد شعراء سيف الدولة وندمائه والمقدَّمين عنده والمقرَّبين لديه ومن خُزّان كتبه، وكان أحد من تجمَّل به عصرُه، وسار في البلاد شعره، وتناقله أهل العلم والأدب في كتبهم، وحفظوه في صدورهم، واستشهدوا بالكثير منه.

ثم يتابع العلّامة الطباخ قائلًا: وكان ممَّن تصدَّى لجمع شعره الإمام الصُّولي، فجاء في مئتي ورقة، كما ذكر ابن النديم في كتابه «الفهرست»، ولكنه ضاع ولم يصل إلينا.

ولم يقرِّر الشيخ الطباخ هذه النتيجة بسهولة وعجلة، وإنما قالها بعد بحث وتنقيب في مكتبات سورية ومصر، وبعد سؤال بعض فضلاء عصره من عرب ومستشرقين، ولم يكن ذلك سهلًا في أيامه آنذاك.

وبعدما يئس من الوصول إلى الديوان، قام بجمع شعره متّبعًا خطوات الأجداد في ذلك، وكانت بداية هذا المشروع في أثناء تأليفه لكتابه الكبير «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، إذ رأى له ترجمة طويلة في: «تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي، و«معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«الدر المنتخب في تاريخ حلب» المنسوب لابن الشحنة وغيره من المصادر.

فتجمّع لديه عدد وافر من أشعار الصنوبري أكبر من أن تتحمّله ترجمته في كتاب «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، لذلك قرّر أن يتصفَّح ما لديه وما يمكنه

الوصول إليه من الكتب والمخطوطات ليكمل جَمْعَ ما يستطيع جمعه من أشعاره؛ ليجعله في ديوان واحد، وقد زاد عدد المصادر التي رجع إليها وأفاد منها على خمسين كتابًا مطبوعًا ومخطوطًا، وهو عدد كبير جدًّا في ذلك العصر يدل على همَّة قعساء لا تعرف الكلل ولا الملل.

وبعد جهود مضنية، وخاصة في زمانه الذي كان يفتقر إلى ما عرفه عصرنا من وسائل حديثة تسهِّل على الباحث الكثير من الصعوبات التي كانت مستعصية آنذاك، استطاع أن يجمع من بديع نظم الصنوبري ولطيف أخباره ومُلَحِه، جملةً وافية تعرب عن فضله الجمّ وأدبه الغزير وشاعريّته، وأنه كان عَلَمًا من أعلام حلب وقطبًا من أقطاب أدبائها، الأمر الذي جعله يوجب على نفسه أن يرفع عنه غبار النسيان في زوايا الإهمال، وأن يعيده إلى الصدارة حيث ينبغي أن يكون، ليطّلع عليه أهل القرن العشرين ومن بعدهم، وليواصلوا البحث عن ديوانه وعن أشعاره، وقد وصل ما جمعه من الأبيات إلى ست مئة بيت.

قدّم العلّامة الطباخ لكتابه بمقدمة مستفيضة قيّمة تحدَّث فيها، فضلًا عن قصته مع شعر الصنوبري، عن اسم الشاعر وسبب تسميته بالصنوبري، وهو: أن جدّه الحسن ابن مرار كان صاحب بيت الحكمة زمن خلافة المأمون، فجرت له بين يدي المأمون مناظرة، فاستحسن كلامه وحدَّة مزاجه، فقال له: إنك لصنوبري الشكل، يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج[1] كما تحدث العلّامة الطباخ عن حياة الصنوبري وتجواله في البلاد ونفسه التي كانت تحب الجمال وتألف الرياض وتميل إلى الغناء والدعابة ومعاشرة أهل الأدب ممَّا أكسبه ظَرفًا في شمائله، وخفة في روحه، وصفاءً في ذهنه، ورقّة في طبعه، ودقّة في خياله، ولقد شحَذَ ذلك قريحته فاستخرج دقائق المعاني والتشبيهات البديعة،

(١) الروضيات ١٢، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٤٩.

وسَهُلَتْ له حزونها، فأتى بالسهل الممتنع في وصفه للرياض والحياض والأنهار والأزهار، ووافانا بجملة مستكثرة في هذا الباب لا تجدها في شعر غيره، وصار هو المشار إليه في هذا النوع وهو الإمام فيه[١].

كما تحدَّث العلّامة الطباخ أيضًا عن منزلة الصنوبري بين أئمة الشعر والأدب مستعينًا بالمصادر الكثيرة التي تعامل معها ونقل منها بصبر ودقة وموضوعية.

كما تحدث العلّامة الطباخ أيضًا عن سبب تفوّقه في وصف الرياض، لتوافقه مع طبعه، كما تفوّق أبو نواس في وصف الخمر، والمتنبِّي في الأمثال وذمِّ الزمان وأهله، وأبو تمّام في التَّصنيع[٢] لتوافق كل منهم مع ما أجاده. وهذه ملاحظة دقيقة تدل على مدى فهمه.

وبعد تلك المقدمة المهمة انتقل العلّامة الطباخ إلى ذكر أشعار الصنوبري، فبدأها بذكر أول شعر قاله، وهو[٣]:

ما حلَّ بي منكَ وقتَ مُنْصَرفي ... ما كنتُ إلا فريسةَ التَّلفِ
كم قال لي الشَّوقُ: قفْ لِتَلْثِمَهُ ... فقالَ خوفُ الرقيبِ: لا تقفِ
فكان قلبي في زِيِّ مُنعطِفٍ ... وكان جسمي في زيِّ مُنصرِفِ

وبعد ذلك رتّب العلّامة الطباخ بقية أشعاره ترتيبًا موضوعيًّا، فانتقل إلى وصفه للرياض وما فيها من النبات والورود والسحاب والمطر وغير ذلك، ثم وصف ميادين حلب وما قيل في حلب من مدح، ثم وصف البلاد والقرى والمتنزهات مثل بطياس والصالحية قرب الرقّة ودير مُرّان وباب جيرون وداريّا ودير العذارى في

---

(١) الروضيات ١١، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٤٨.
(٢) المصدر نفسه ١٣، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٥٢.
(٣) المصدر نفسه ١٨، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٥٤.

العراق وغيرها، ثم وصف نهر قويق، ثم انتقل إلى غزلياته، وإلى شكواه من الزمن ووصف الحسود والشيب والشباب، ثم انتقل إلى المطربات، أي: إلى الأبيات التي يطرب الإنسان لسماعها.

كما ذكر العلامةُ الطباخ وصفَ الصنوبري للعقل والذباب والهرّ والشراب والشروق والخريف والعوجان، وهو ما يفيض عن قُوَيق خارج باب أنطاكية والدولاب والسواد والثنايا والخدّ والسفرجل وبردى ودمشق ونهري الهنيّ والمريّ قرب الرقة والرافقة.

وحرصًا من العلّامة الطباخ على تبيان فضل شعر الصنوبري فقد ذكر بين قصائده ومقطوعاته التي جمعها له، موضوعين:

• أخذ بعض الشعراء لبعض معانيه مثل السريّ الرفّاء وابن الوردي[1].

• استشهاد علماء البلاغة بشعره[2].

ثم ختم العلّامة الطباخ هذه «الروضيات» باستدراكين، هما:

• تتمَّةٌ لمبحث استشهاد علماء البلاغة بشعر الصنوبري الذي كان قد ذكره من قبل، وعلّق على ذلك، ببساطة وعفوية، بقوله: سهونا عن وضعها في محلها.

• ذِكْرُهُ لصديقه كامل الغزي الذي كان قد تصدّى لجمع شعر الصنوبري، ولكنه لمّا علم بشروع العلّامة الطباخ بطباعته، أرسل إليه ما كان قد جمعه من أشعاره، فقابله العلّامة الطباخ مع ما لديه فوجد مقطوعتين ليستا عنده فأضافهما شاكرًا منوِّهًا بذلك أمانة وعرفانًا.

---

(١) الروضيات ٥٤-٥٥، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٩٣-٩٤.

(٢) المصدر نفسه ٥٥ وما بعدها، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٩٤-١٠٠.

وهكذا انتهى مجموع شعر الصنوبري، وجاء الكتاب في اثنتين وسبعين صفحة من الحجم العادي، جمع فيه ست مئة بيت، وطبع في المطبعة العلمية في حلب، التي كان يملكها العلّامة الطباخ، وعلى نفقته سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م».

ثم قال الدكتور الهيب: «ولا شكّ في أن لصنيع العلّامة الطباخ سماتٍ كثيرةً، أهمها:

• سمّى العلّامة الطباخ مجموعه بـ«الروضيات» وأتبعها بقوله: «وهي ما جمعه محمد راغب الطباخ»، وكان ذلك تميزًا علميًّا دقيقًا منه بين صنيعه هذا من جهة وتحقيق ديوان كامل مخطوط لشاعر من الشعراء من جهة أخرى. وتصرُّفه هذا يتَّسم بالدقة العلمية والموضوعية إذ ثمة فروق عدة بين مصطلح (الديوان) ومصطلح شعر أو مجموع أو غيره.

• سار العلّامة الطباخ على خُطى جامعي الدواوين في القرون الهجرية الأولى وهداهم بعامة، إذ عدَّ المصادر رواة صامتين أخذ منها أشعار الصنوبري، وهذا ما فعله كثير من جامعي الدواوين في العصر العباسي.

• لم يكن العلّامة الطباخ ناقلًا فقط، وإنما كان ذا شخصية إيجابية واعية خبيرة تُعمل العقل فيما تنقل، ونجد ذلك في أماكن عدة منها: تقديره لعدد أبيات ديوان الصنوبري الذي كان ضائعًا آنذاك بأربعة آلاف أو خمسة آلاف بيت.

• ذَكَرَ المصادر التي اعتمد عليها وأخذ منها ما أخذه من شعر، مع رقم الجزء والصفحة إن كانت مطبوعة، وحدّد موضع الإفادة إن كانت مخطوطة، وذكر اسم العالم الذي أفاده إن كان رجلًا مثل الشيخ كامل الغزّي والمستشرق الألماني كرانكوي.

• ذكر مكان المخطوطة التي أفاد منها ووصفها.

• اعترف بفضل من قدّم له يد المساعدة، كَثُرت أو قلَّت، وشكره.

• وضع حواشي مناسبة، وهي، بموجزها ومطوَّلها، مفيدة تدلُّ على علم جمّ ودراية واسعة.

• رتّب الأشعار حسب الموضوعات، ولكنه لم يكن دقيقًا في ذلك، ولم يَسِرْ حسب خطة معتمدة. ولا يضير الرائد ذلك.

• ربط بين شعر الصنوبري وصاحبه ونفسه وزمانه ومكانه وبيئته ومعاصريه، وبين دور سيف الدولة في موضوعات شعره: الروضيات وغيرها من الأغراض، وهو أنه لم يكن يستجيد شعر المدح فقط، وإنما كان يستجيد الشعر الجيد أيًّا كان موضوعه».

وذكر الدكتور الهيب ما اتّسم به العلامة الطباخ من دقة علمية لافتة للنظر، وتبدو في:

ـ تنبيهه إلى أن كتاب «نهاية الأرب» وكتاب «المسالك والممالك» الذي اعتمد عليهما لم يكونا قد طُبعا كاملين آنذاك.

ـ وفي تنبيهه على التصحيف والتحريف، وعلى الفروق بين النسخ.

ـ وفي ذكر موضع البيت أول مرة عندما يرد ثانية.

ـ واستدراكه على ابن النديم في تصحيح اسم الصنوبري، إذ ورد عنده (محمد) فصوّبه إلى (أحمد).

ـ وترجيحه بين الروايات.

• كان ذا شخصية حاضرة على الرغم من اعتماده على أقوال الأوائل، وذا شخصية متواضعة محبّة للخير، تريد أن تمدّ يد العون للقارئ[1]، إذ ذكر أماكن وجود المخطوطات وأوصافها ليفيد منها من يريد.

• كما اعترف بكل تواضع أن عمله هذا لا يمكن أن يأتي تامًّا، شأنُه في ذلك شأن كل عمل رائد، لا يكمل إلا بعد كرِّ السنين وتعاقب الأجيال، ثم دعا العلماء أن يقتفوا أثره ويزيدوا على ما جمعه ويبحثوا عن شعر الصنوبري في غير الأماكن التي بحث فيها. إنها الدقة والموضوعية والإيثار والرغبة في إثارة الهمم وروح العالم المتجرد للعلم الذي جمع بين العلم الموسوعي والخلق الحسن وحب الخير».

قال الدكتور الهيب في آخر بحثه عن «الروضيات»: «لقد أثمرت دعوته هذه، بعدما مهّد الطريق لمن جاء بعده، فسار على خطاه عدد من الباحثين، منهم إحسان عباس الذي اهتدى إلى جزء من «ديوان الصنوبري» في كلكتا، فحقَّقه وأضاف إليه الأشعار التي جمعها من المصادر، ثم لطفي الصقَّال ودريَّة الخطيب اللذان جمعا بعض أشعاره أيضًا، ثم ضياء الدين الحيدري، ثم نوري حمود القيسي وهلال ناجي، وربما كان هناك غيرهم. كلهم حاول أن يكمل صنيعه مستجيبًا لدعوته الكريمة.

كما مهَّد أيضًا صنيع العلّامة الطباخ هذا لقيام بعض الباحثين بدراسات قيّمة حول الصنوبري، لعل أهمها كتاب «الصنوبري شاعر الطبيعة، شاعر حلب» لعبد الرحمن عطبة.

وفضلًا عمّا تقدَّم سار على خطى العلّامة الطباخ كثيرون تصدَّوا لجمع شعر كثير من الشعراء الذين ضاعت دواوينهم، منهم على سبيل المثال لا الحصر: الدكتور فخر

---

(١) الروضيات ٩، وفي «مقالات الطباخ» ٢: ٤٦، حاشية ١.

الدين قباوة في مستدركه على ديوان الأخطل التغلبي، والدكتور عبد الكريم الأشتر في شعر دعبل بن علي الخزاعي، والدكتور وليد قصاب في ديوان محمود الوراق، والدكتور أحمد فوزي الهيب في جمعه لشعر ابن جابر الأندلسي، ثم للمستدرك على ديوان ابن الوردي.

وهذا كله يعود الفضل فيه إلى العلّامة الطباخ، لأنه كان الرائد والملهم هؤلاء جميعًا محققين ودارسين، بعدما أحيا بصنيعه في «الروضيات» سُنّة كانت ميتة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولا شك في أنه قد سعد بذلك بعد موته كما كان سيسعد بذلك لو كان في حياته. رحمه الله تعالى رحمة واسعة». اهـ.

٣ـ ديوان الشاعر الغزي

تحدَّث الطباخ في هذه المقالة عن ديوان الشاعر الغزي، إبراهيم بن عثمان الغزي المولود سنة ٤٤١، والمتوفَّى سنة ٥٢٤ عن ثلاثة وثمانين عاماً، ترجم فيها لهذا الشاعر المُجيد، وأورد ثناء الأدباء عليه وعلى شعره، وتكلَّم على ديوانه المخطوط الذي وقف عليه في مكتبة الشيخ محمد محاسن الأزهري في اللاذقية، وذكر اشتغالَه بهذا الديوان وحفاوته بهذا الشاعر، إذ قام بترتيب ديوانه على الحروف الأبجديَّة، ليتسنّى له مقابلة ما يجد من شعره في كتب الأدب.

وقد ذكر من تَنبَّه لشعر هذا الشاعر الفحل في القرون الأخيرة، وهما:

الشاعر الكبير محمود سامي البارودي حيث ذكر له (١٠١٥) بيتاً في «مختاراته».

والثاني: الشيخ بهجة الأثري البغدادي الذي كتب عنه مقالة ضافية في مجلة «الزهراء» المصريَّة، وتكلم على نسخة الديوان الخطية.

وحقَّق الطباخ ما وَرَد من عدد أبيات شعره، وأنها أزيَد من خمسة آلاف بيت،

وكان الشيخ عازماً على جمع شعره ومقابلته بديوانه الذي استنسخه وصحَّحَه، واستدرك ما فاته، وترقَّب الحصول على نسخة دار الكتب المصرية لإعادة النظر فيما صحَّحه، ليكون الديوان صالحاً للنشر، وليُستفاد من غرره ودرره.

وقد نشر الطباخ هذه المقالة النادرة في مجلة «المجمع العلمي العربي» في الجزءين ٣-٤ من المجلد الحادي عشر: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م). وقد عُنيت بهذه المقالة، وذكرت في خاتمتها من اعتنى بهذا الديوان، وقابله على عشر نسخ خطية، ولكن لم يُشر إلى جهود الشيخ محمد راغب في خدمته، لأنه لم يقف على هذه المقالة النادرة[1].

الفصل السادس

مقدِّمات الكتب التي حقّقها وطبعها في مطبعته العلمية

أوردتُ في هذا الفصل مقدِّمات الكتب التي حقَّقها وقدَّم لها أوكتب كلمة عن مؤلفها أو النسخ التي اعتمدها، ونشرها في مطبعته العلمية بحلب، وبلغت ٢٤ كتاباً، وكثيرٌ من هذه المطبوعات أصبحت نادرة، لا يسمع بها الكثير من طلبة العلم، وقد أوردتُ تلك المقدِّمات حسب تسلسل تاريخ نشر تلك الكتب، وهي:

١ ـ بيان السنة والجماعة، وهي عقائد أحمد بن جعفر الطحاوي الحنفي المتوفى سنة ٣٢١:

لم يقدِّم الطباخ لهذه الرسالة، واقتصر في آخر الكتاب على ترجمة الإمام الطحاوي

(١) كنت أدرجت في هذا الفصل مقالة: «الكلمات غير القاموسية» المنشورة في مجلة «المجمع»، والمنسوبة إلى العلامة الطباخ، ثم نبَّهني الأخ الكريم الدكتور عبد الحكيم الأنيس إلى أن هذه المقالة لا تصح نسبتها للطباخ، وإنما هي للعلامة المؤرخ الأديب الشيخ كامل الغزي، وقد تمَّ التنبيه على خطأ نسبة المقالة إلى الشيخ راغب، وأنها للشيخ كامل الغزي في مجلة «المجمع» في المجلد ٨ ص ٥٦٤.

نقلًا من «الفوائد البهية في تراجم الحنفية» للكنوي، وقد أوردت ترجمته الموجزة للطحاوي، وعلقت عليها بعض التعليقات المفيدة.

كتب الطباخ على غلاف النسخة: طبعت على نسختين خطيتين قديمتين، وطبع في المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٤هـ.

٢ ـ الطب النبوي، للحافظ ابن قيم الجوزية، المتوفَّى سنة ٧٥١:

عثر الطباخ أثناء بحثه عن البقية الباقية من المخطوطات النفيسة في مكاتب حلب الشهباء، في مكتبة المدرسة الحلَويَّة على كتاب «الطب النبوي»، يرجع عهد كتابته إلى القرن الثامن أو التاسع، فقابله على «زاد المعاد في هدي خير العباد»، وأطْلع على الكتاب قبل طبعه بعض أرباب الفن، وأرسله إلى الطبيب الشاعر السيد علي الناصر، فأجابه أن الكتاب جليل جديرٌ بالطبع لتعم الاستفادة منه.

وقال الطباخ في آخر الكتاب: «تمَّ بتوفيقه تعالى طبع هذا السفر الجليل، وهو كتاب «الطب النبوي» في مطبعتي العلمية في مدينة حلب، في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ألف وثلاث مئة وستة وأربعين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية.

ولم آل جهداً في تصحيحه على النسختين المطبوعة والخطية، وهما لم تَخْلُوَا من الغلط والتحريف، فما كان غلطاً في هذه صحح على تلك مع مراجعة كتب اللغة والحديث، فجاءت هذه النسخة أصح من النسختين بحيث تكاد تكون خالية من الغلط، إلا الخطأ المطبعيّ، وهو قليل جداً، ومُدْرَك لمن رزق حظاً من الفهم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب». انتهى.

وقد طبع في المطبعة العلمية سنة (١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م) في ٢٧٩.

٣ـ الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار، للحافظ الحازمي، المتوفى سنة ٥٨٤:

ذكر في مقدمة الكتاب أنه اعتمد في نشره على طبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، وأعاد مقابلته على نسخة عثر عليها سنة ١٣٤٥، في مكتبة المدرسة العثمانية في مدينة حلب، بينما كان ينقِّب عن البقية الباقية من نفائس المخطوطات فيها، وهي محرَّرة سنة ٦٣٢، بخط محمد بن أحمد بن أبي بكر بن خليل البكري المزدقاني بمدينة السلام في بغداد في ١٧٧ ورقة، وهي ـ كما قال ـ حسنة الخطّ، مضبوطة بالشَّكْل. وذكر سماعات الكتاب، ثم أورد ما ذكره أئمة هذا العلم في علم ناسخ الحديث ومنسوخه ومقدار عناية السَّلف الصالح بمعرفته، وذكر بعد ذلك ترجمة الإمام الحازمي، مؤلِّف هذا الكتاب الجليل. وقال في خاتمة مقدِّمته: «ويَظهر أن المطبوع من هذا الكتاب قد نَفَدَ منذ مدَّة، وأصبح نادرَ الوجود، وقد طلبتُه من مصر من مكاتب متعدِّدة؛ فبعد الجهد استحصل لي على نسخة، فدعاني ذلك أن استنسخْتُ هذا الكتاب عن النسخة الموجودة في مكتبة المدرسة العثمانية، وبعد أن قابلته على الأصل عَزَمتُ على طبعه وتصحيحه على هاتين النّسختين، متوكِّلاً على الله، مستمداً منه التوفيق والتيسير».

وقال العلامة الطباخ في آخر النسخة المطبوعة في مطبعته العلمية بحلب سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م: «تمَّ بتوفيقه تعالى طبع كتاب «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار»، للإمام الحافظ أبي بكر محمد بن موسى الحازمي الهمداني، في مطبعتي العلميَّة في مدينة حلب، في العشرين من شهر رجب، سنة ألف وثلاث مئة وستة وأربعين من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل السلام وأتم التحية.

ولم آلُ جهداً في تصحيحه على النّسختين المطبوعة والخطيّة، مع الإشارة في الذَّيل إلى الاختلاف بينهما فيما ترجَّح لديَّ صحَّته، وهما لم تخلوا من الغلط، فراجعتُ لذلك كتب الحديث وأسماء الرجال، فبرزت هذه الطبعة متحلِّية بمحاسن الطبع، رافلةً

بربرود الصحة، بحيث تكاد تكون خاليةً من الغلط، إلا الخطأ المطبعي، وهو قليل جداً، ومُدْرَكٌ لمن رُزِقَ حظاً من الفَهم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب».

٤ ـ السِّمْط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، للحافظ الطبري، المتوفى سنة ٦٩٤:

ترجم لمؤلفه المحب الطبري ترجمة مختصرة مستفادة من «طبقات الشافعية» للسبكي، وبيَّن أنه لم يذكر كتابه «السِّمط الثمين» في ترجمته، وذكره صاحب «كشف الظنون».

وقد ظفر الطباخ بنسخته الخطيّة في مكتبة التكية المولوية في حلب، كتبت سنة ١٠٠٢.

وقال في آخر النسخة المطبوعة سنة ١٣٤٧ في مطبعته العلمية: «تمَّ بعونه تعالى طبع هذا الكتاب في ثامن شهر صفر ١٤٣٧هـ، وإني لم آل جهداً في تصحيحه والرجوع إلى الأصول، وآمل أن تكون أغلاطه قليلة جداً، وإذا علمت أن ليس لدي سوى نسخة واحدة، تعلم أني قد بذلت في ذلك أقصى الجهد والإمكان، وما توفيقي إلا بالله».

٥ ـ كتاب الفِراسة، لفيلمون الحكيم.

ويليه:

٦ ـ جمل أحكام الفراسة لأبي بكر الرازي الطبيب، المتوفى سنة ٣١١:

بيَّن في مقدمة الكتابين عناية السلف بالعلوم المختلفة، ومن جملة العلوم التي كان أجدادُنا يُعنَون بها: (علم الفراسة). وذكر عدداً من المؤلفات فيه.

وقد ظفر الطباخ بكتابَي «الفِراسة»، لفيلمون الحكيم، و«جمل أحكام» الفراسة لأبي بكر الرازي الطبيب في المكتبة الأحمدية بحلب، ووصف النسختين، وترجم

لأفليمون نقلاً عن كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للوزير جمال الدّين القِفْطِي، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة. ولم يترجم لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣١١، واكتفى بقوله: «إن له في هذَين الكتابَين ـ أي: كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة ـ وفي تاريخ ابن خلّكان ترجمة حافلة طويلة».

٧ ـ السفينة النُّوحيَّة في علم النفس والروح، لأحمد بن خليل الخُويي، المتوفى سنة ٦٨٧.

عثر الطباخ على هذا الكتاب في مكتبة المدرسة الأحمديَّة في مدينة حلب، واستنسخه بيده، وسارع إلى طبعه إخراجاً له من زوايا الإهمال، وتعميماً للانتفاع به.

وبيَّن في المقدمة أهمية البحث في علم الروح والنفس وأحوالها، ووصف النسخة الخطية، وترجم للمؤلف نقلاً من «طبقات الشافعية» للسبكي، وأشار إلى أن المترجَم الخويي ذكر في كتابه «السفينة النُّوحيَّة» نبذةً صالحة من ترجمة نفسه، وحالته في مبدئه ونشأته، و رحلته إلى الإمام فخر الدّين الرّازي وأَخْذه عنه.

طبع العلامة الطباخ هذه الرسالة في مطبعته العلمية بحلب سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م.

*** «العقود الدرّيَّة في الدواوين الحلبيَّة»:**

٨ ـ ديوان الشاعر الأديب، حسين بن أحمد الجزري (ت ١٠٣٢).

٩ ـ ديوان الشّاعر فتح الله بن النّحاس الحلبي (ت ١٠٥٢).

١٠ ـ ديوان الشاعر مصطفى البابي (ت ١٠٩١).

استعرض العلامة الطباخ في مقدمة الكتاب أسماء أشهر الشعراء الحلبيين من

القرن الرابع إلى القرن الحادي عشر، ثم قال: «وفي القرن الحادي عشر، أنبتت الشهباء عدَّةً من الشعراء المبرزين، عطَّروا أرجاءها بأريج نظمهم، وكانوا دُرَّة في تاج عصرهم، منهم: الشاعر الأديب، **حسين بن أحمد الجزري** (ت ١٠٣٢)، والشّاعر **فتح الله بن النّحاس** (ت ١٠٥٢)، والشاعر **مصطفى البابي** (ت ١٠٩١)». ثم ترجم لهؤلاء الثلاثة؛ لتعلَم مكانتهم في هذه الصناعة، وما كان لهم من رفيع المنزلة، وجليل الاعتبار بين أدباء عصرهم، وفضلاء جيلهم.

وأسهَب القول في ترجمة الأول منهم **حسين بن أحمد الجزري** (ت ١٠٣٢)؛ لأن نشر ديوانه ـ حيث لم ينشر مِن قبل ـ هو المقصود الأول من نشر هذه الدّواوين التي سمَّاها: **«العقود الدّريّة في الدواوين الحلبية»**، واعتمد في ترجمة الجزري على المحبّي في «خلاصة الأثر»، وذكر الخلاف في وفاته، واعتمد أيضاً في ترجمته على الشهاب الخفاجي في «ريحانته»، وعلى السيد علي صدر الدّين في كتابه الموسوم بـ«سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر»، وعلى كتاب «تراجم الأدباء» من مخطوطات مكتبة محمود أفندي الجزار، ومن ترجمة الأديب الكبير الشيخ محمد العُرْضي في كتابه المخطوط؛ الذي ترجم به فضلاء عصره على نسق «الرّيحانة» و«السلافة»، ورجّح وفاته سنة ١٠٣٢، ثم ذكر الأسباب التي دعته لجمع ديوان حسين بن أحمد الجزري وترتيبه، والجهود الكبيرة التي بذلها في جمع متفرِّق شعره، والتنقيب عنها في بطون المجاميع والأوراق المبعثرة، وقد رتَّب هذا الدِّيوان، وما تجمَّع لديه من شعره على الحروف الهجائية.

وردَّ في آخر الترجمة على الأديب جرجي زيدان الذي زعم في كتابه «آداب اللغة العربية» (ج ٣ ص٢٧٦): أنَّ ديوانه في مكتبة برلين (ألمانيا) هو مرتَّب على المواضيع، وقد وقف العلامة الطباخ على أوراق الديوان المذكور، ولما قرأ هذه القصائد، تبيَّن له أنَّها ليست من شعر الجزري؛ لعدَّة أمور أفاض بذكرها.

ثم تكلم على ذكر بني سيفا أمراء طرابلس الشام الذين أكثر الجزري من مديح واسطة عقدهم الأمير محمد بن علي بن سيفا، ونقل ترجمته من «الخلاصة» للمحبِّي، ثم أورد نبذة من شعر أمراء بني سيفا.

وبعد هذه الترجمة المستوفاة للشاعر الجزري، أورد ترجمة الشاعر الأديب فتح الله ابن النّحاس المتوفّى سنة ١٠٥٢ الذي ترجمَه المحبّي في «خلاصة الأثر»، وابن معصوم في «سلافة العصر»، وقد أدرج الترجمتين في تاريخه. واعتمد في نشر ديوانه على الطبعة المصرية المطبوعة سنة ١٢٩٠ في ٦٨ صحيفة، وهي نادرة الوجود، وفيها أغلاط كثيرة، فقابل معظم الدّيوان على قصائده المنثورة في تراجمه وفي المجاميع، لذلك كان جديراً بأن يُعاد نشرُه وتعمّ فائدته. ثم عثر بعد ذلك على نسخة في مكتبة المدرسة الأحمدية محرَّرة سنة (١٠٩١)، ولم تكن موضوعة في مكانها، وصحَّح عليها أيضاً، ووجد فيها زيادة ٢٩ بيتاً، أثبتها في آخر ديوانه.

ثم أورد ترجمة مصطفى بن عبد الملك البابي نقلاً عن «الخلاصة» للمحبِّي، وذكر أن ديوانه طبع في بيروت سنة ١٨٧٢م الموافقة لسنة ١٢٨٠هـ. و قد عثر على ثلاث نسخ خطية منه في حلب، منها نسخة في مكتبة صديقه الوجيه السيد أسعد العينتابي، فوجد فيه لدى مقابلته عليه أغلاطاً كثيرة، فأعاد طبعه ليبرز في حُلَّة قشيبة، وحِلْية نَـيِّرة.

وقال في ختام مقدمته النفيسة: «وقد أصبحت هذه الدواوين الثلاثة ـ بتوفيقهِ تعالى لنا لجمعِ الأول منها وترتيبه، وتصحيح الثاني والثالث ـ عَذْبَةَ المورد، سَهْلَةَ المُجْتَبى. وقد زدنا بإبرازها لعالم المطبوعات عَدَد ما طبع من الآثار الحلبيَّة، وبالله المستعان». وقد طبعت هذه «العقود الدرية في الدواوين الحلبية» في المطبعة العلمية بحلب سنة (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م)».

١١ ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر (في أدباء القرن الخامس)، للأديب أبي الحسن الباخرزي، المتوفَّى سنة٤٦٧ .

ويليه:

١٢ ـ قطعة من ديوانه:

ظفر العلامة الطباخ بنُسخة من هذا الكتاب في مكتبة المدرسة الأحمديَّة بحلب، وهي ـ كما وصفها ـ جميلة الخطّ، ومقابلة على الأصل المنقول منه، وعلى هامشها بعض تعليقات بخطّ بعض الفضلاء، كما ظفر بنسخةٍ مِن «الدُّمية» في المكتبة المارونية في حلب، ثم بنسخة ثالثة من الموصل. وترجم للمؤلف الباخرزي اعتمادًا على «وفيات الأعيان» كما تصفَّح بعض الكتب الأدبيَّة فجمع جملةً من شعره.

وختم العلامة الطباخ تحقيقه الكتاب بقوله: «نجز بتوفيقه تعالى طبع كتاب «دمية القصر وعصرة أهل العصر» للباخرزي، إمام الأدب في عصره، وبزغت شمسه في الآفاق بعد أن كانت متحجّبة في زوايا الخزائن عدة قرون، ولم آل جهدًا في تصحيحه على ثلاث نسخ خطية غير أني لا أدّعي أني أخرجته للناس خاليًا من الغلط، بل إن في القلب شيئًا من بعض الكلمات خصوصًا تلك التي في الأبيات الفارسية، ويعذرنا من رأى الأصول التي لدينا ويتحقَّق أن ليس في الإمكان أبدع مما كان. وعسى أن يتدارك ذلك النزر من الغلطات أهل الأدب والفضل خصوصًا من كان لديه نسخة خطية، ويتحفنا بها خدمة للعلم أو يتحف بها، فيما بعد، من ينهض بطبع هذا الكتاب مرة ثانية». غير أن الشيخ ـ رحمه الله ـ لم يتيسّر له إتمام النقص الموجود في النسخة الأحمدية، كما أنه لم يشرح شيئاً، وإذا مرّ شرح لفظ ما فإنما هو منقول عن هوامش المخطوطة غالباً.

وقد نشر الأستاذ الطباخ ملتقطات من «ديوانه» في آخر كتاب «الدمية» بتحقيقه.

وصدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣٠ م في المطبعة العلمية بحلب.

١٣ ـ كتاب فَضْل الخيل، للحافظ عبد المؤمن الدمياطي، المتوفى سنة ٧٠٥.

ويليه:

١٤ ـ رَشَحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد، للشيخ محمد البخشي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٨:

بيَّن في مقدمة الكتاب عناية العرب في الجاهلية بكثير من العلوم، ومنها: أدواء الخيل ودواؤها، ولشدَّة عنايتهم بالخيل أكثروا في شعرهم الكثير من ذِكْرِها، ووصفِها أدقّ وصف، بحيث لم يَلحقهم في ذلك لاحق، ولم يُجارِهم في هذا الميدان أُمّةٌ من الأمم.

وبعد أن جاء الإسلام ودانوا به، ازدادوا معرفة بالخيل وأنواعها، وكيفيَّة تربيتها وترويضها، وتعويدها على الكرِّ والفرّ، دعتهم لذلك ضرورة التوسُّع في الفتوحات في الشرق والغرب، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، (وبما ورد في ذلك من الأحاديث الكثيرة الحاثّة على العناية بها).

لذلك نهض علماء الإسلام في قديم الزمن وحديثه، وألَّفوا مُؤلَّفات كثيرة في فضل الخيل، وأوصافها، ومحاسنها، وعيوبها، وأسمائها، وأعضائها، وما يَعترِيها من الأدواء، وما تُطبَّب به إلى غير ذلك.

ثم ذكر أسماء المؤلفات فيها.

وقد عثر الطباخ في حلب على نُسختين من هذا الكتاب؛ إحداهما: في مكتبة المدرسة العثمانيّة، والنسخة الثانية: في مكتبة المدرسة الأحمديَّة، ونشر صورة من السماع في النسختين. وذكر أبواب الكتاب الثمانية.

ثم ذكر أنه عثر على كتاب العلّامة الشيخ محمد بن محمد بن محمد البخشي الحلبيّ

المتوفّى سنة ١٠٩٨، في مكتبة المدرسة الأحمدية، والنّسخة جميلة الخطّ، ومضبوطة، غير أنَّه لم يُثبت عليها اسم الكتاب، ولم يذكر المؤلّف في خطبته اسم كتابه، وقد اهتدَى لاسمه، وهو «رشحات المِدَاد فيما يتعلَّق بالصَّافنات الجياد»، وبيَّن أنه اشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبواب أيضاً. ثم أورد ترجمة مؤلّفيهما: **الإمام الحافظ عبد المؤمن الدمياطي**، اعتمادًا على «طبقات الشّافعية» للسبكي والإسنوي، و«فوات الوفيات» لابن شاكر. ثم ترجم **للعلامة الشيخ محمد البخشي الحلبي** من «خلاصة الأثر» للمحبّي، وعنه نقل ترجمته أيضًا في تاريخه «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء». وقد صدر هذا الكتاب في مطبعته العلمية بحلب، سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م.

١٥ ـ علوم الحديث المعروف بمقدِّمة ابن الصلاح، المتوفَّى سنة ٦٤٣.

وفي ذيله شرحه:

١٦ ـ «التقييد والإيضاح»، للحافظ العراقي، المتوفّى سنة ٨٠٦.

ذكر العلامة الطباخ أهمية مقدمة ابن الصلاح، وأنه مِن أحسن مَن ألَّف في علم مصطلح الحديث، وأورد عددًا ممن شرحه واختصره ونظمه، وانتقد طبعة الفاضلَين أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي الحلبيين «لمقدِّمة ابن الصلاح» المطبوعة في مصر سنة ١٣٢٦.

ثم ذكر أنه درَّس هذا الكتاب في المدرسة الخسروية في مدينة حلب، في سني ١٣٤٧ و١٣٤٨ و١٣٤٩، وأسعده الحظّ بالعثور على نُسخةٍ من شرحه «**التقييد والإيضاح**» في مكتبة التكية الإخلاصية بحلب، بخط الحافظ الكبير الشيخ أحمد ابن حجر العسقلاني، حرَّرها سنة ٨٠٦هـ. ونشر صورة آخر صفحة من نسخة الحافظ ابن حجر بخطه. ثم أتحفه شيخه بالإجازة، الشيخ عبد الحي الكتاني الفاسي بنسخة نفيسة، لا تقلّ نفاسة عن النّسخة التي هي بخطّ الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، وهي بخط

العلامة نور الدين التلواني (ت٨٤٤)، وعليها خطّ العراقي في عدة مواطن، فقابل نسخته المنقولة عن خطّ الحافظ ابن حجر على هذه النّسخة من أوّلها إلى آخرها، وحرَّر الكلمات التي تعسَّر عليه قراءتها.

ثم وقف على ثلاث نسخ خطية من مقدمة ابن الصلاح في مكتبة المدرسة الأحمدية بمدينة حلب، ووصفها وصفًا دقيقًا، وصوَّر السماعات، ثم ساق سنده وروايته لهذا الشرح «**التقييد والإيضاح**» للحافظ الزين العراقي وجميع ما له من المؤلّفات عن الشيخ كامل الموقت الحلبي بأسانيده. وساق روايته لمقدّمة ابن الصلاح أيضاً عن شيخه الشيخ كامل الهبراوي (ت ١٣٤٦).

وأثبت صورة عن سماع الحافظ أحمد ابن حجر لمقدّمة ابن الصلاح في آخر النسخة المحرّرة بخطّه من «**التقييد والإيضاح**».

وعلق على الكتاب تعليقات مفيدة، التقطها من «التدريب شرح التقريب» للحافظ الجلال السيوطي، ومن كتاب «معرفة علوم الحديث» للحافظ الحاكم النيسابوري في المواطن التي أهمل الحافظ العراقي الكتابة عنها في شرحه «التقييد والإيضاح»، وهي تسعة عشر نوعاً، وقد سمَّى تعليقاته: «**المصباح على مقدمة ابن الصلاح**»[١].

ثم أورد ترجمة الإمام أبي عمرو ابن الصلاح من «وفيات الأعيان»، و«طبقات الشافعية» للسبكي، و«طبقات الحفَّاظ» للذهبي.

ثم ترجم للحافظ العراقي المتوفى سنة٨٠٦ ترجمة ملخَّصة من «لحظ الألحاظ ذيل طبقات الحفاظ» لابن فهد المكي. وقد طبع الكتاب سنة (١٣٥٠هـ).

---

(١) ينظر بحث الأخ الدكتور محمود مصري الذي ألقاه في ندوة الطباخ بعنوان: «تعليقات الشيخ الطباخ على علوم الحديث لابن الصلاح (المصباح على مقدمة ابن الصلاح)».

١٧-١٩ ـ ثلاث رسائل حديثيَّة، للحافظ إبراهيم بن محمد المعروف بالبرهان الحلبي، المتوفّى سنة ٨٤١.

الأولى: تذكرة الطالب المعلَّم بمن يقال إنه مخضرم.

الثانية: التبيين لأسماء المدلسين.

الثالثة: الاغتباط بمن رُميَ بالاختلاط.

عثر العلامة الطباخ في الكتب الموقوفة في التكيّة الإخلاصيّة في حلب على مجموع مهم، مُعظَمُه بخطّ العلامة عمر بن محمد النَّصيبي الحلبي، وفيه ثلاثة وثلاثون كتاباً ورسالة؛ جُلّها يتعلّق بعلم الحديث، ومنها ثلاثة كتب في أنواع علوم الحديث الثلاثة: معرفة الـمُخَضْرمين، والمدلِّسين، ومَن اختلط في آخر عمره لحافظ الشهباء برهان الدِّين أبي الوفاء إبراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمي، المتوفّى سنة [٨٤١]

فاستنسخ هذه الكتب، ثم قابلها على أصولها، وعلَّق عليها بعضَ تعليقات مفيدة. وكتب إلى بعض فضلاء دمشق ـ ممَّن لهم العناية بعلم الحديث ـ في شأن هذه الكتب الثَّلاثة؛ فقابلها له على مجموعة في المكتبة الظاهرية، بخط المحدِّث ابن زُرَيق، تلميذ المصنِّف. ولم يترجم للمؤلف وأحال إلى ترجمته له في تاريخه الكبير لمدينة حلب: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء».

طبعت هذه الرسائل في المطبعة العلمية بحلب، سنة (١٣٥٠هـ = ١٩٣١م) في ٨٠ صفحة.

٢٠-٢٢ ـ الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبيَّة:

اختصر فيه ثلاثة أثبات حلبية، وهي:

١ ـ «كفاية الرّاوي والسامع، وهداية الرّائي والسامع» للشيخ يوسف الحسيني الحنفي الدمشقيّ ثم الحلبيّ (ت١١٥٣).

٢ ـ **«إنالة الطالبين لعوالي المحدِّثين»** للشيخ عبد الكريم بن أحمد الشراباتي الحلبي (ت ١١٧٨).

٣ ـ **«منار الإسعاد في طرق الإسناد»** للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الحنبلي الحلبي (ت ١١٩٢).

اختصرها في نحو ٣٠٠ صحيفة، وهي تبلغ ٩٠٠ صحيفة، اقتصر فيها على المسلسلات، وأسانيد الكتب الحديثيَّة، وغيرها من الكتب العلميَّة، وحذف منها ما فيها من الفوائد والأحزاب، وغير ذلك ممَّا لا علاقة له بالرّواية، ثم ذيَّلها بإجازاتِ مشايخه، وبعض إجازات مشايخ مشايخه، لِتُعْرف سلسلتهم.

تكلم في المقدمة على طلبه للعلم وعنايته بعلوم الحديث، وبيَّن فضل علم الحديث ومزاياه، وتدريسه لهذا العلم والسِّيرة النّبويّة، والخلفاء الراشدين في المدرسة الخسرويَّة.

وذكر أنه كان أثناء التّحصيل وبعده، يستجيزُ العلماء والفضلاء من الشَّهباء والبلدان، وقد حصل على إجازات مُتعدِّدة، فأحبَّ أنْ يثبِتَ إجازات مشايخه له مع بعض إجازات مشايخهم لهم في مجموعٍ واحدٍ، حفظاً لها، وذلك لِـمَا حَوَتْهُ من الأسانيد العالية وليُتْحِفَ بها من يتوسَّم فيه الخير والأهليَّة، بقدر الإمكان من إخوانه وأهل عصره، خصوصاً الطلاب الّذين قرؤوا عليه في المدرسة الخسروية.

ثم ذكر أوّل مَن أجازه من العلماء، وساق روايته لهذه الأثبات، وقال في ختام تلك المقدمة: «ومنها ومن تلك الأثبات تَعلَمُ عناية علماء الشهباء فيما مضى من العصور بعلم الحديث، واشتغالهم فيه؛ لجلالة قدرِه وعظيمِ فوائده، ولعلَّ ذلك يكون باعثاً للهمم القاصرة من رَقْدَتِها، فتأخذ في العكوف عليه لتَجْنيَ ثمراته العظيمة في الدّنيا والآخرة».

وقد طبع الكتاب في المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٥١هـ = **١٩٣٢**م.

٢٣ ـ «معالم السنن»، للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، المتوفى سنة ٣٨٨.

تكلم العلامة الطباخ في مقدمة الكتاب الطويلة على سنن أبي داود، وذكر كلام العلماء فيها، ومكانتها بين كتب السنة، وعدة أحاديثها، ثم تكلم على شرحها معالم السنن وما قيل فيه، وما عثر عليه من هذا الشرح، وخلص إلى أنَّ ما عثر عليه من هذا الشرح ثلاث نُسَخ: نسختان كاملتان في الأحمدية بحلب، الأولى منهما في مجلدين، والثالثة: النصف الأول منها أُرسِل إلينا من فاس، والنصف الثاني: استنسخه من المكتبة السلطانية بمصر. **وقال:** ولا أعلم نسخةً رابعة لهذا الشرح في مكتبة من المكاتب؛ على تَتَبُّعي وبحثي الكثير، فهو إذاً من المخطوطات النَّادرة الوجود.

ثم ترجم للإمام أبي داود، ثم للخطّابي شارح «السنن»، ثم ذكر رواة أبي داود عنه، ثم أورد سنده إلى أبي داود في كتابه «السنن» من عشرة طرق، ثم روايته لمعالم السنن وسائر مصنفات الخطابيّ.

صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م، في المطبعة العلمية بحلب.

٢٤ ـ «الإفصاح عن معاني الصحاح»، للوزير عَوْن الدين يحيى بن محمد بن هُبيرة الحنبلي، وزير المستنجد بالله العباسي، المتوفى سنة ٥٦٠:

عثر العلامة الطباخ على مخطوطة هذا الكتاب عند صديقه الشيخ بهاء الدِّين التِّرمانيني، وبعد أن أَجَال النظر في عدة من أبوابه؛ وجده كتاباً حافلاً، أجادَ مؤلِّفُه تأليفَه، وأحسنَ ترتيبَه، جمع فيه أهمَّ ما اتُّفِق عليه، وما اختُلِف فيه من الفروع بين المذاهب الأربعة. وهذه النسخة سقيمة الخط، جمعت إلى ذلك أغلاطاً جمَّة، وتحريفاً كثيراً، فلم يستطع إبرازها لعالم الوجود، ثم يسر الله له الحصول على خمس نسخ أخرى، فيها تقديم وتأخير، وزيادة ونقص، وعانى في التصحيح والمقابلة حتى استخلص منها

هذا المطبوع. وذكر بعد ذلك ما علمه ووقف عليه مِن نُسَخِ «الإفصاح»، ثم ذكر من ترجم للمؤلف، وأورد ترجمته المطولة التي اعتمد فيها على ترجمة الحافظ ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» لسعتها واستيعابها لأخباره وفوائده العلمية. وقد قابلت هذه الترجمة بالطبعة التي حققها الدكتور عبد الرحمن العثيمين لـ«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب، فوجدت الترجمة التي نشرها الشيخ أدق وأصح، وأشرت إلى عدد من الفروق في حاشية الترجمة.

وقد دعا الطباخ في مقدمة هذا الكتاب إلى تشكيل لجنة علمية لكتابة كتاب واسع في الفقه، والاستفادة من المدارس الفقهية الأربعة، وقال بعد حديثه عن مجلة الأحكام العدليَّة: «فلم تزل الحاجة ماسَّة إلى وضع كتاب واسع في الفقه، شامل لجميع أبوابه، وانتشرت من أوائل هذا القرن فكرة التوسُّع في الأخذ من المذاهب الأربعة، وعدم الاقتصار على مذهب واحد، وأن يُبنى ذلك الكتاب على الأقوى من الأدلة، وعلى ما فيه المصلحة العامة للنَّاس.

وأنا على هذا الرأي، على أن يُؤلَّف لهذه الغاية لَجنةٌ من الاختصاصيين في العلوم الفقهية؛ من أهل هذه المذاهب، يقومون بهذا العمل، وحِلية هؤلاء الإخلاص، وشعارهم التقوى، وهم بعيدون عن هوى يُتَّبع، وشهوات نفسية يُسعى وراء الوصول إليها، ومقاصد يبتغى الحصول عليها.

فإذا حصل هذا كذلك؛ تظلُّ الأُمَّة الإسلامية متمسِّكة بشريعتها، ويعود ذلك بالفوائد الجُلَّى عليها، ويكون لها من أعظم الوسائل لجمع كلمتها المتفرِّقة، ولَـمّ شعثها، واستعادة مجدها، وما كان لها من حول وقوة.

وممَّا لا شك فيه عند كل عاقل مُنْصِفٍ أنَّ الأخذ من المذاهب الأربعة - بل ومن غيرها من الأقوال التي ذكرها الفقهاء والمُحدِّثون في كتبهم لغير أهل هذه المذاهب

المشهورة؛ كمذهب الأوزاعي، والسُّفيانَين، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وغيرِهم - هو أوْلى من الأخذ بهذه القوانين الوضعية التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي حذَّرنا الله تعالى في كتابه المبين من الحُكم بها، ونَعَتَ فاعلي ذلك بأشد النُّعوت، على أن يكون ذلك على مقتضى الخطَّة التي رسمناها، والطريقة التي بيَّنَّاها.

وكتاب «الإفصاح» هذا تجد فيه تلك الجمعية مَورِداً صافياً، ومَعيناً غزيراً، تستقي منه عذباً زُلالاً، ويكون لها على مقاصدها خير مُعين، فرأيت أنَّ نشرَ هذا السِّفر الجليل؛ من الأمور المتحتِّمة، إلا أن تلك النسخة سقيمة الخط، جمعت إلى ذلك أغلاطاً جمَّة، وتحريفاً كثيراً، فلم يكن في الإمكان حينئذ تحقيق تلك الأمنية، وإبرازها لعالم الوجود، والأمور مرهونة بأوقاتها».

صدرت الطبعة الثانية للكتاب سنة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م في المكتبة الحلبية، لصاحبها محمد صبحي اللبابيدي، وأعادت تصويره قريبًا دار النوادر بدمشق.

الفصل السابع

الرسائل المحققة المنشورة في المجلات

١ و٢ - «قصيدة في المقصور والمْدود»، للإمام اللغوي أبي بكر بن دُرَيد.

قصيدة جامعة لما يُكتَب بالواو والياء؛ للشَّوَّاء الحلبي المتوفّى سنة ٦٣٥هـ.

وهما قصيدتان مهمّتان في اللّغة، يَجدُر - كما قال الطباخ - بكلِّ عالم وأديب أن يطَّلع عليهما؛ لما فيهما من الفوائد اللغوية التي لا يتأتّى الوقوف عليها إلا بعد عناء كثير، وتتبّع طويل. وقف عليهما في المدرسة المنصوريَّة بحلب، ونشرهما في مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء السابع، من المجلد الثامن: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م).

٣ـ «رسالة الكنز المظهر في استخراج المضمر».

لابن الحنبلي الحنفي ت٩٧١، صاحب «در الحَبَب في تاريخ حلب»، نشرها في مجلة «الاعتصام» الحلبية، السنة الثانية، العدد الرابع والخامس: (شوال وذو القعدة ١٣٤٩هـ)، وقد جاء في مقدمة المجلة لهذه الرسالة: للبحَّاثة العلامة الشيخ راغب الطباخ ـ مؤرِّخ الديار الحلبية ـ نفسية غريبة في حب التطلع إلى مجد الآباء، ونبش دفائن آثارهم، والبحث عن مؤلفاتهم الخطيرة، ونفائسهم القيِّمة، فهو في السفر وفي الحضر لا يفتأ عن متابعة ما تصبو إليه نفسه من ذلك.

ولقد أهدى اليوم قراء «الاعتصام» هذه الرسالة الغريبة في بابها، ننشرها تباعاً في المجلة، تفكهة مثمرة للقرّاء، وتدليلاً على ما كان عليه الأسلاف من اعتناء بسائر أنواع العلوم والفنون، وحسن الاضطلاع بمختلف أنواعها، رغم ما بينها من تباين أحيانًا، وهذه الرسالة الرياضية لمؤلف اشتهر بالتاريخ والعلوم الاجتماعية؛ لم يمنعه هذا من التضلع بأعباء العلوم الرياضية، بل بالاعتناء بهذا الفن الغريب منها، فشكرًا للأستاذ البحَّاثة على ما يُتحف به العلم والأدب في كل آنٍ وآخَر.

وقال مؤلفها محمد التادفي الحنفي الشهير بابن الحنبلي في مقدمة الكتاب: «هذا كتاب شريف، ومجموع ظريف؛ جمعتُ فيه من كتب الحساب ـ وفوائد أماثل الحُسَّاب في استخراج المضمر ـ ما هو بالقبول أجدر، مع نكات لمع أنوارها شمسية، وزيادات نزهة مقاماتها إنسية، برسم أخٍ لي في الله، وصديق لي بين عَبيدِ الله، تحتَّم عَلَيَّ إتحافه بمثله، وتعيَّن عندي إهداء الشيء إلى أهله، ورتبتُه على ثلاثة فصول، تشتمل على قواعد وأصول:

الأول: في استخراج العدد المضمر.

الثاني: في استخراج الخاتم المضمر.

الثالث: في استخراج الاسم المضمر.

وأرجو من كل حاسب، ممَّن هو للثناء كاسب؛ إصلاح ما فسد، وسدّ باب الحسد. وبالله التوفيق، في سلوك هذا الطريق». ولم يعلق عليها الشيخ الطباخ ولم يترجم لمؤلفها، وأشار إلى النسخة التي اعتمد عليها في نشر هذه المخطوطة بقوله: «قال في النسخة المنقول عنها: وافق تتميم تعليقه من نسخة مؤلفه ابتداء نهار الخميس المبارك ثاني عشر شهر صفر الخير سنة ٩٦٠.

كتبه محمد راغب الطباخ الحلبي في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٦هـ.

٤ ـ رسالة في علم النفس، للفخر الرازي ت ٦٠٦.

قال الفخر الرازي في مقدمتها: «وبعدُ: فهذه رسالة حرَّرتُها في علم النّفس، وجعلتُها ثلاثة فصول:

(الفصل الأول): في إثبات أن جوهر النَّفس مخالِفٌ لجوهر البدن.

(الفصل الثّاني): في بقاء النَّفس بعد فناء البدن.

(الفصل الثّالث): في مراتب النّفوس في السّعادة والشّقاوة بعد المفارقة عن البدن. وألحقت بها خاتمة أذكرُ فيها العوالم الثلاثة؛ التي هي: عالم العقل، وعالم النَّفْس، وعالم الجسم».

ونشرت هذه الرسالة في مجلة «الاعتصام» الحلبية في العدد العاشر من السنة الثانية: (١٣٥٠) ص ٤٤١ ـ ٤٥١، ولم يشر إلى النسخة الخطية التي اعتمد عليها.

وفي هذه الرسالة كلام يتصل بصحة نسبتها إلى الفخر، وفيها أخطاء عقدية كثيرة لم يشر الشيخ إليها، ولم يعلق عليها. وقد ذكرت بعض نسخها الخطية، وضرورة معرفة كاتبها ومدى صحة نسبتها إلى الفخر الرازي، وعلقت عليها تعليقات كاشفة

لأخطائها مما نبَّه إليه الشيخان الكريمان: عبد الكريم تتان الحموي، والدكتور حمزة البكري وفقهما الله.

وبعد، فهذه كلمات مختصرات تُعرِّف بهذه المقالات والمقدِّمات والرسائل التي طبعها ضمن المجلات، وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في تقريبها للقارئ؛ لتكون عونًا له على معرفة مجملها قبل الخوض في تفاصيلها.

وأسجِّل في ختام هذه المقدمة شكري لكلٍّ من شجعني وأعانني ونصحني وأفادني، وأخصُّ بالذكر الأخ الكريم العالم المحقق الدكتور عبد الحكيم الأنيس الحلبي الذي قرأ هذه المقالات، وأجرى عليها قلم التصحيح والتنبيه، فله مني خالص الشكر، وصادق الدعاء. وأسأله سبحانه أن يوفقني لإتمام مقالات الطباخ وآثاره، واستدراك ما فاتني منها. وأن يتقبل مني هذا العمل بقبول حسن، وأن يغفر لي ولوالديّ ولمشايخي، ولمن له حقٌّ عليّ.

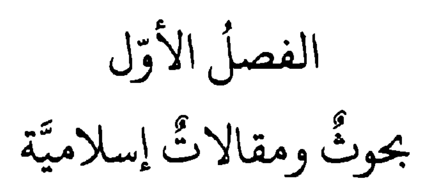
وإني أستغفر الله من الخطأ والزلل، وأسأله سبحانه التوفيق إلى سداد القول، وخير العمل.

وكتبه



الخميس في ٢٦ من رمضان ١٤٣٥

الموافق ٢٤ / ٧/ ٢٠١٤



الفصلُ الأوّل
بحوثٌ ومقالاتٌ إسلاميَّة

١ ـ أيُّ العلوم أفضل؟

٢ ـ الرق في الإسلام ومقاصد الأجانب في إلغائه.

٣ ـ يقظة الغرب ورقدة الشرق.

٤ ـ السياسة في القرآن.

٥ ـ حول موضوع «القرآن: بحث علمي تاريخي أدبي».

٦ ـ الالتجاء إلى الله في كشف الكرب.



أيُّ العلوم أفضل؟[١]

لا يخفى على العموم أنَّ العلم للنوع الإنساني أفضل مُقْتنى، وأعظم ما به يُعتنى، وأجلُّ ما تتوجَّه إليه النفس، إلى أن تصير رهينة الرَّمس، لأن بذلك تتجلى لها شموس الحقائق، وتشرف منها على باقي الخلائق، ولكن اختلفت الآراء في جواب: أيِّ علم أفضل؟ لتتوجَّه الأنظار إليه، وتعكف النفوس الشريفة عليه، ويكون التَّحلِّي به أجمل، فادَّعى أهل كلِّ علم أنَّ علمهم هو أولى العلوم وأعلاها وأفضلها وأسماها، وأنَّ عليه مدار السعادة، وبه نوال المجد والسيادة، وأيَّدوا دعواهم بالدلائل والشواهد، وعدَّدوا ما له من جليل الثمرة للهيئة الاجتماعية، وعظيم الفوائد، فقال من يعاني الطب مثلاً: إنَّ علم الطب؛ وما يتعلق به من علم الكيمياء وغيره مما يوقف به على حقائق الأشياء وخواصِّها ومنافعها؛ أفضل العلوم وأرقاها، وبه يرقى المرءُ في مراقي السعادة إلى منتهاها؛ لأنَّه به حفظ الأبدان، ولولاه لكاد أن يتلاشى نوعُ الإنسان، ودخل في خبر كان....

وهكذا تجد كلَّ مَن عانى علماً قد رسخ في مخيِّلته أنَّ أشرف العلوم العلم الذي يعانيه، وأن ليس ثمة علم يقاربه أو يُدانيه، ولم يقتصرْ على الفرح بما لديه، بل تراه يُقَبِّحُ في عين الآخرين ما أكبُّوا عليه، غيرَ ناظرٍ نظرَ بصيرٍ، أو ناقدٍ نقدَ خَبيرٍ إلى حقائق باقي العلوم، وما لها من الثمرات والمنافع للعموم، ولَعَمْري إنَّه لو أقصى النظر لاقتصر، إذ ينكشف له بذلك حقيقة الخبر.

---

(١) مجلة «ثمرات الفنون» البيروتية، الأعداد ١٦٧٠-١٦٧٢ من السنة الخامسة والثلاثين: (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م).

وقد أحببْتُ أن أنظمَ في عقود هذه السّطور دُرَرَ ما قاله أساطين العلماء، وفطاحل النبلاء والحكماء في بيان ما هو الحق الذي هو أحق أن يُتَّبع، لموافقة المنقول والمعقول، ولي الرجاء بأن يتلقَّاه المنصفون بالقبول، فأقول:

قال القاضي أبو الحسن الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين»: واعلم أنَّ العلوم كلها شريفة، ولكلِّ علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها محال.

قيل لبعض الحكماء: مَن يَعرف كلَّ العلوم؟ فقال: كلُّ الناس.

ثم قال: وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجب صرفُ الاهتمام إلى معرفة أهمِّها، والعناية بأولاها وأفضلها.

وأولى العلوم وأفضلها: علم الدِّين؛ لأنَّ الناس بمعرفته يرشدون، وبجهله يضلون، إذ لا يصحُّ أداءُ عبادةٍ جَهِلَ فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط إجزائها.

وقال في باب أدب الدنيا: «والدِّين المتَّبَع يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب عن إرادتها، حتى يصير قاهراً للسرَائر، زاجراً للضمائر، رقيباً على النفوس في خلواتها، نصوحاً لها في مُلِمَّاتها، وهذه الأمور لا يُوصَل بغير الدِّين إليها، ولا يصلحُ الناسُ إلَّا عليها، فكأنَّ الدِّينَ أقوى قاعدة في صلاحِ الدنيا واستقامتها، وأجدى الأمور نفعاً في انتظامها وسلامتها، ولذلك لم يُخْلِ اللهُ تعالى خلقَه ـ مذ فطرهم عقلاء ـ من تكليف شرعي، واعتقاد ديني، ينقادون لحكمه، فلا تختلف بهم الآراء، ويستسلمون لأمره، فلا تتصرَّف بهم الأهواء». اهـ.

وقال الرَّاغبُ الأصفهاني في كتابه: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» في الباب التاسع عشر: فضيلة العلم تُعرف بشيئين: أحدهما: بشرف ثمرته، والآخر: بوثاقة دلالته، وذلك كشرف علمِ الدين على علم الطب؛ فإنَّ ثمرةَ علم الدِّين: الوصول

إلى الحياة الأبديَّة، وثمرة علم الطب: الوصول إلى الحياة الدنيويَّة، وعلم الدين أصوله مأخوذة عن الوحي، والطب أكثرُ أصوله من التجارب...، إلى آخر ما قاله.

وقال ابن مسكويه في كتاب «تهذيب الأخلاق»: قال مُتأخِّرو الفلاسفة: إنَّ عبادة الله عزَّ وجل على ثلاثة أنواع:

أحدها: فيما يجب له على الأبدان، كالصلاة والصيام والسعي إلى المواقف الشريفة لمناجاة الله عزَّ وجل.

والثاني: فيما يجب له على النفوس، كالاعتقادات الصحيحة، وكالعلم بتوحيد الله عزَّ اسمُه، وما يستحقُّه من الثناء والتَّمجيد، وكالفكر فيما أفاضه على العالم من جوده وحكمته، ثم الاتِّساع في هذه المعارف.

والثالث: فيما يجب له عند مُشاركات الناس في المدن، وهي في المعاملات والمزارعات والمناكح، وفي تأدية الأمانات، مع نصيحة البعض للبعض بضروبٍ من المعاونات.

قالوا: فهذه هي العبادات، وهي الطرق المؤدية إلى الله عزَّ وجل، وهذه الأنواع وإن كانت معدودة ومحصورة فإنَّها مُنقسمة إلى أنواع كثيرة، وأقسام غير مُحصاة، وللإنسان مقاماتٌ ومَنَازل عند الله عزَّ وجل:

فالمقامُ الأول: للموقنين، وهو رتبة الحكماء وأجلَّة العلماء.

والمقام الثاني: مقام المحسنين، وهو رتبة الذين يعملون بما يعلمون.

والمقام الثالث: مقام الأبرار، وهو رتبة المصلحين، وهؤلاء هم خلفاء الله بالحقيقة في إصلاح العباد والبلاد.

والمقام الرابع: مقام الفائزين، وهو رتبة المخلصين في المحبة، وليس بعدها منزلة ولا مقام لمخلوق.

ويسعد الإنسان بهذه المنازل إذا حصلت له أربع خلال:

أولها: الحرص والنشاط، والثاني: العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية، والثالث: الحياء من الجهل، ونقصان القريحة اللذين يحدثان بالإهمال، والرابع: لزوم هذه الفضائل، والترقي فيها دائماً بحسب الاستطاعة، فهذه أسباب الاتصال إلى الله تعالى.

وأما أسباب الانقطاع عنه جلَّ جلاله:

فأولها: السقوط الذي يستحقُّ به الإعراض، وتتبعه الاستهانة.

والثاني: السقوط الذي يستحق به الحجاب، ويتبعه الاستخفاف.

والثالث: السقوط الذي يستحق به الطرد، ويتبعه المقت.

والرابع: السقوط الذي يستحق به الخسارة، ويتبعه البغض.

وإنما يَشْقى العبدُ إذا حصل على أربع خلال:

أولها: الكسل والبطالة، ويتبعها ضياع الزمان وفناء العمر بغير فائدة إنسانيَّة.

والثاني: الغباوة والجهل المتولِّدان عن ترك النظر، ورياضة النفس بالتعاليم التي أحصيناها في كتاب: «مراتب السعادات».

والثالث: الوقاحة التي يُنتجها إهمالُ النفس إذا تتبَّعت الشهوات، وترك زمامها لركوب الخطايا والسيئات.

والرابع: الانهماك الذي يحدث من الاستمرار في القبائح، وترك الإنابة.

وهذه الأنواع الأربعة مسمَّاة في الشريعة بأربعة أسماء: فالأول: هو الزيغ، والثاني: هو الرين، والثالث: هو الغشاوة، والرابع: هو الختم.

وهذه الأشياء التي عددناها الآن لا خلافَ بين الحكماء فيها وبين أصحاب الشرائع، وإنما تختلف بالعبارات والإشارات إليها بحسب اللغات. اهـ باختصار.

وقال حُجَّة الإسلام الإمام الغزالي قُدِّسَ سِرُّه في كتابه «فاتحة العلوم»[1]: كل علم لا غنى للخلقِ عنه كعلم الطب الذي يحتاج إليه لعلاج المرضى، وعلم الحساب الذي يحتاج إليه في قسمة المواريث والوصايا، وعلم المساحة التي يحتاج إليها في قسمة الأراضي، بل يتعدَّى هذا إلى الصناعات كالحياكة والزراعة. اهـ.

ولا يخفى أنَّ فرض الكفاية ما وجب على البعض إقامته، فيسقط بذلك الطلب عن الباقين، وإلا يكونوا جميعاً آثمين.

فقد ظهر ممَّا قدَّمناه ظهور الشمس في رابعة النهار ما هو أولى العلوم في الاعتبار، وأن العلوم كلها شريفة، وجميعها مطالب منيفة، وأنَّ كل علم لا غنى للخلق عنه يجب أن يكون لدينا أناس عارفون به، عالمون بحقيقته.

إذا علمنا هذا؛ فمن الواجب علينا أنَّا متى رأينا شخصاً يعاني علماً أن ندقِّق النظر في غايات ذلك العلم وثمراته، فمتى ألفينا فيه ما يعود على الهيئة الاجتماعية بالنفع ـ دينياً كان أو دنيوياً ـ أن لا نُوجِّه إليه سهام الملام، فإن ذلك ليس من أوصاف أولي الألباب الراغبين في سلوك سبل الصواب، بل ينبغي علينا إن أمكننا أن نمدَّ له يد المساعدة والإحسان إعانة له على ما هو بصدده، وقياماً بواجب قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ﴾.

---

(١) «فاتحة العلوم»، ص ٣٨-٣٩. الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية ١٣٢٢ بعناية أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي وأخيه.

وإن لم يمكن فنحرِّضه على الثبات والاجتهاد اللذين هما مفتاح النجاح ومرقاة الفلاح، عسى أن يكون ذلك عوناً له على الاتِّصاف بكمال الاستعداد، فليسعد النُّطق إن لم يسعد الحال.

قال حُجَّة الإسلام في كتابه المتقدِّم: اعلم أنَّ المتكفِّل ببعض العلوم لا ينبغي أن يقبِّح في عين المتعلم ما عداه، فالعالم بالفقه يزجر عن علم الحديث، ويقول: محض النقل والتقليد، وكالمتكلم يزجر عن الفقه، ويقول: ذلك ظن وتخمين لا برهان فيه، بل ينبغي أن يُوسِّع على المتعلمين طرق العلوم، لكن يُنبِّههم على الأهم فالأهم والأشرف فالأشرف، وعلى رعاية التدريج والترتيب. اهـ.

وقال الراغب الأصفهاني في الباب العشرين من كتابه المذكور: حق الإنسان أن لا يترك شيئاً من العلوم أمكنه النظر فيه، واتَّسع العمر له، إلا ويَخْبُرُ بشمِّه عَرْفَهُ ويذوقه طِيبَه، ثم إنْ ساعده القدر على التَّغذِّي به والتَّزوّد منه فبها ونِعْمت، وإلا لم يبصر ـ لجهله بمحله ولغباوته عن منفعته ـ إلا معادياً له بطبعه.

فَمَن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يجِدْ مرّاً به الماءَ الزلالا

فمَن جهل شيئاً عاداه، والنّاس أعداء ما جهلوا.

وقد حكي عن بعض الفضلاء: أنه رئي بعدما طعن به السن وهو يتعلم أشكال الهندسة، فقيل له في ذلك، فقال: وجدته علماً نافعاً، فكرهت أن أكون لجهلي به معادياً له.

ولا ينبغي للعاقل أن يستهين بشيء من العلوم، بل يجعل لكلٍّ حظَّه الذي يستحقه، ومنزله الذي يستوجبه، ويشكر مَنْ هداه لفهمه، وصار سبباً لعلمه، فقد حكي عن بعض الحكماء أنه قال: يجب أن نشكر آباءنا الذين ولَّدوا لنا الشكوك؛ إذ كانوا سبباً لما حرَّك خواطرنا لطلب العلم، فضلاً عن شكر من أفادنا طرفاً من العلم،

ولولا مكان فكر مَن تقدَّمنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فهم مصالح دنياهم، فضلاً عن مصالح أُخراهم، فمن تأمَّل حكمة الله تعالى في أقل آية يستعملها الناس، كالمقراض حيث جمع بين سكينين مركَّباً على وجه يتوافى حدَّاهما على نمط واحد للقرض أكثَرَ من تعظيم الله وشكره. اهـ.

وقال في الباب الحادي والعشرين: العلم طريقٌ لله تعالى ذو منازل، وقد وكَّل الله بكلِّ منزل فيها حفَظَة كحَفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو، فمن منازله: معرفة اللغة التي عليها بني الشرع، ثم حفظ كلام رب العزَّة، ثم سماع الحديث، ثم الفقه، ثم علم الأخلاق والورع، ثم علم المعاملات، وما بين ذلك من الوسائط من معرفة أصول البراهين والأدلة.

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [المجادلة: ١١] وكل واحد من هذه الحَفَظَة إذا عرف مقدار نفسه ومنزلته، ووفَّى حقَّ ما هو بصدده فهو في جهاد؛ يستوجب من الله أن يحفظ مكانه ثواباً على قدر علمه، لكن قلَّ ما ينفك كل منزل منها من شرير في ذاته، وشره في مكسبه، وطالب لرياسته، وجاهل معجب بنفسه، يصير لأجل تنفيق سلعته صارفاً عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم وعائباً له، فلهذا ترى كثيراً ممن حصل في منزلة من منازل العلوم دون الغاية؛ عائباً لما فوقه وصارفاً عنه مَنْ رامه، فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل، وإلا نفَّر الناس عنه بوجه آخر. اهـ.

ثمَّ ذكر ما ورد في حقِّ هذا الشرير من آيات التقريع، وما يستحقُّه في الآخرة من أنواع العذاب والعقاب.

فتلخَّص ممَّا قدَّمناه عن هؤلاء السادات: أنَّ من تكفَّل ببعض العلوم لا ينبغي له أن يقبِّح في عين المتعلم ما عداه، وأن من اتَّصف بذلك يكون معدوداً في صفِّ

الشريرين والأغبياء الجاهلين، وأنه ينبغي أن تتوجَّه العنايات إلى كافة العلوم، وأن يكون الترقِّي في معارجها جنباً إلى جنب.

ونحن نبيِّن لك السرَّ في ذلك بما سيأتي:

قال ابن مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق»: إن الإنسان من بين جميع الحيوان لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، ولا بدَّ له من معاونة قوم كثيري العدد حتى يتمِّم به حياته طيبة، ويجري أمره على السَّداد، ولهذا قال الحكماء: إن الإنسان مدنيٌّ بالطبع، أي هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير لتتمَّ له السعادة الإنسانيَّة، فكلٌّ بالطبع أو بالضرورة يحتاج إلى غيره، فهو لذلك مضْطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ومحبَّتهم المحبَّة الصادقة؛ لأنهم يكمِّلون ذاته، ويُتمِّمون إنسانيَّته. اهـ.

أي: فإذا كان الإنسان لا يكتفي بنفسه في تكميل ذاته، واحتياجُه إلى غيره أمرٌ طبيعي لا ينفكُّ عنه، فكيف يليق به أن يُقبِّح في عين غيره ما يعانيه من العلوم؟! (ولو من الصناعات والحرف)، مع أنه لا تكمل ذاته إلا بما عند غيره، ولا تتمُّ له السعادة إلا بإعانتهم له بما عندهم من العلوم، فإن كل من اتَّصف بعلم فهو لا يستغني عن المتَّصف بعلم آخر، بل لا بد من الاحتياج إليه ولو في بعض الأزمان، فالعالم بالعلوم الدينيَّة محتاج إلى العالم بالعلوم الطبية لحفظ صحَّته وإزالة سقمه، ليتسنَّى له الإفادة والاستفادة، فإنَّ من كان سقيم الجسم لا يتمكَّن من أن يفيد أو يستفيد، والعالم بالعلوم الطبيَّة محتاج إلى العالم بالعلوم الدينيَّة ليرشده إلى الطريق المستقيم والمنهاج القويم، ليتوصَّل بسلوكه في ذلك إلى السعادة الحقيقية، ألا وهي السعادة الأبديَّة، بل مَن أمعن النظر يجد أنَّ احتياج هذا إلى ذاك أعظم، وتعلقه به أشد؛ لأنَّه يبيِّن له كيف يكون سيره مطابقاً لما جاء به الشرع الشريف من الأحكام التي تتكرَّر عليه على الدوام بتكرُّر الليالي

والأيام، ليكون سيرُه مع الله والأنام على أجلِّ انتظام، وبذلك يكتسب حبَّ الأنام ورضاء الملك العلام، وهو أيضاً طبيب روحه وقائده إلى ما فيه النعيم الأبدي والبقاء السرمدي.

وحيث قد ثبت احتياج أرباب العلوم إلى بعضها البعض، ومن المعلوم أنَّ كل عالم في فنٍّ هو أدرى بمنافعه ومضارِّه وثمراته، فاللائق بالعالِم الديني ـ مثلاً ـ أن يُسَلِّمَ للعالم الطبي أمرَ تطبيب جسمه، ليتولى انتشاله من ضحضاح السقم إلى فسيح رياض الصحَّة، وهو إن تولى ذلك بنفسه فقد عرَّضها للتلف، وألقاها في وادي التَّهلكة، ولا يعدُّ بذلك من ذوي الإصابة، ويخرج من صفِّ أهل الحزم والدراية.

وكذا اللائق بالعالم الطبي أن يلقي مقاليدَ نفسه النفيسة إلى العالم الديني؛ ليتولى أمرَ تطبيبها وإرشادها إلى ما فيه صلاح الدين والدنيا، وإلى التخلُّق بالأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة والاعتقادات الحقَّة لترقى بذلك مع الراقين إلى معارجِ السعادة الحقيقية، ألا وهي التنعُّم في بحبوحة النعيم الأبدي، والبقاء السرمدي.

وحيث قد ثبتَ الافتقارُ إلى كافَّة العلوم ضرورةَ أنَّ الشخصَ الواحد لا يمكنه أن يحيط بها علماً، فينبغي لطلاب العلوم على اختلاف أنواعها ـ أعني: دينيَّة كانت أو دنيويَّة، من كل ما فيه نفع وصلاح للدين والدنيا ـ أن يأتمروا بما أمر به حُجَّة الإسلام الغزالي، ويتَّصفوا به باطناً وظاهراً، فإنَّ بقاءَ كلٍّ على مُدَّعاه ـ الذي نشأ من عدم النظر إلى حقائق العلوم وفوائدها، وعدم إحكام روابط المحبَّة والألفة والتعاون على ما فيه الخير والسعادة لهم ولوطنهم ـ لَمن أعظم الأسباب المقصية عن إدراك الغاية من العلوم التي يعانونها، وإذا لم يتأهَّل كلُّ فريقٍ لنوال الدرجة القصوى ممَّا هو في صدره، فلا تشرق عليه شموس منافعه حقَّ الإشراق، فلا يُرجى أن ينفعَ نفسَه أو غيرَه.

وإذا نُبذت تلك العادة، وأقبل أهلُ كلِّ علمٍ بكليَّتهم على الاستفادة والإفادة، تأهَّل الجميع لنوال السعادة، وحينئذٍ يتَّسع نطاقُ الحضارة والعمران، وينالون بتعاونهم على البرِّ والتقوى رضاءَ الرحمن.

أما إذا توجَّهت الأنظارُ إلى بعضِ العلوم، وألقي باقيها في زوايا الإهمال، فعلى قدر الإهمال يكون الانحطاطُ عن ذروة الكمال.

مثاله: لو أردنا تشييد دار بديعة الصنع، حاوية لكافة المحاسن، وافية بجميع المآرب، فإنا نحتاج أن يكون لدينا أمهر المهندسين، وأتقن البنَّائين والنجَّارين والحدادين، وأحسن الآلات والأدوات، فإذا تمَّ ذلك فقد نلنا المقصود، وإن تمَّ البعض دون البعض فالبتة، تعابُ الدارُ بما لم يتم.

قال ابن مسكويه في كتابه المتقدم: ادَّعى قومٌ أنَّ نظام أمر الموجودات، وصلاح أحوالها مُعلَّقٌ بالمحبة، ولو كان المتعاملون أحباء لتناصفوا، ولم يقع بينهم خلاف، وذلك أنَّ الصديق يحبُّ صديقه، ويريد له ما يريد لنفسه، ولا تتم الثقة والتعاضد والتآزر إلا بين المتحابِّين.

وإذا تعاضدوا وجمعتهم المحبَّة وصلوا إلى جميع المحبوبات، ولم تتعذَّر عليهم المطالب، وحينئذ ينشئون الآراء الصائبة، وتتعاون العقول على استخراج الغوامض من الأشياء، ويتفقون على نيل الخيرات كلها بالتعاضد.

وهؤلاء القوم ـ أي: الحكماء ـ إنما نظروا إلى فضيلة التأحُّد التي تحصل بين الكثرة، ولعمري إنَّها أشرف غايات أهل المدينة، وذلك أنَّهم إذا تحابوا تواصلوا، وأراد كلُّ واحدٍ منهم لصاحبه مثل ما يريده لنفسه، فتصير القوى الكثيرة واحدة، ولم يتعذَّر على أحدٍ منهم رأيٌ صحيح، ولا عملٌ صواب، ويكون مثلهم في جميع ما يحاولونه مثل

من يريد تحريكَ ثقل عظيم بنفسه، فلا يطيق ذلك، وإذا حصلت المودَّات بينهم نالوا جميع الخيرات، وعمرت البلدان، وتمَّت لهم الآراء الصحيحة التي يُرجى الاتفاق من العقول السليمة عليها، والاعتقادات القوية التي لا تحصل إلا بالديانات التي يقصد بها وجه الله عزَّ وجلَّ. اهـ.

وانظر إلى القرون الوسطى إلى القرن الثامن، حينما أكبَّ الناس على العلوم كافتها، وسهلت سبل الوصول إلى جملتها، ومُهِّدت طرق تعلمها وتعليمها، كيف نبغ فيها رجال نالوا الدرجةَ القُصْوى منها، فانتفعوا ونفعوا بها أنفسهم ووطنهم ودولتهم وأُمَّتهم، وأشرقت شموس معارفهم على غيرهم من الأمم، فأصبحوا بأنوار علومهم يستضيئون، وبظلِّ معارفهم يستظلون، ومن هنا تعلم سر توجُّه عناية جلالة خليفتنا الأعظم[1]، أيَّده الله وأيَّد دولته إلى افتتاح المكاتب الابتدائيَّة والعالية، والمدارس الدينيَّة، وإرادته السَّنيَّة تتابع بذلك ليتهافت الناس على تحصيل كافَّة العلوم على اختلاف أنواعها، دينيَّة كانت أو دنيويَّة، لعلمِهِ ـ حفظ الله تعالى مهجته ـ أنَّ بذلك تَرَقِّي رعيته، وتشييدَ بنيان دولته.

هذا وإنا نطلب ـ بلسان الشريعة الغرَّاء، وبمقتضى إرادات حضرة مولانا أمير المؤمنين ـ من إخواننا البيروتيين، كما طلب محرِّر «الثمرات»[2] الغرَّاء أن يبادروا إلى

---

(١) هو السلطان عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد الأول، السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، وآخر من امتلك سلطة فعلية منهم، ولد في ١٢٥٨هـ = ١٨٤٢م، وتولى الحكم عام ١٨٧٦م، وخلع بعد سلطنة طويلة عام ١٩٠٩ وأقام تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في ١٣٣٦هـ = ١٩١٨م رحمه الله تعالى.

(٢) هو الشيخ أحمد بن حسن طبارة (١٢٨٨-١٣٣٤هـ = ١٨٧١-١٩١٦م) صحفي، من أهل بيروت، شهيد. تعلم في المدرسة السلطانية، وعمل في تحرير جريدة «ثمرات الفنون» ١٧ عاماً. ثم أنشأ جريدة «الاتحاد العثماني» يومية على أثر إعلان الدستور (سنة ١٩٠٨م) =

إنشاء مدرسة دينية، من أرباب الخيرات والحمية في تلك البلدة الزاهرة، لا زالت بظلِّ خليفتنا الأعظم عامرة، لينفر إليها طائفة تتلقَّى فيها العلوم الشرعية، اقتداء بغيرها من البلاد الإسلامية، وبذلك ترقى أقصى درجات الكمال، وتستجلب رضاءَ الله ذي الجلال.

محمد راغب الطباخ

* * *

= وأغلقتها الحكومة، فأصدر جريدة «الإصلاح» وناصر الحركة الإصلاحية التي قامت في بيروت، متصلة بالدعوة إلى طلب (اللامركزية) وانتخب للذهاب إلى باريس مع مَنْ ذهب لحضور المؤتمر العربي السوري فيها سنة ١٩١٢م فكان أحد أعضائه البارزين. واعتقله الترك في أثناء الحرب العامة الأولى فحوكم في (عاليه) وقتل شنقاً في بيروت مع من شنق من دعاة القومية العربية. كما في «الأعلام» للزِّركلي.

الرقّ في الإسلام
ومقاصد الأجانب في إلغائه(١)

جاء في رسالة الأستاذ الشيخ أحمد أفندي المحمصاني(٢) التي نشرها على صفحات «الحقيقة» بمناسبة المولد النبوي الشريف ما نصّه:

«إنَّ من أهمّ الأعمال التي ظهرت على يد المدنيَّة الأوربية: تحرير الأرقاء وإلغاء الرقّ، وإنما تمَّ لها هذا بفضل الإسلام ومساعدته على ذلك، بل الإسلام هو الذي فتح الباب للأمم الأوربية فتحرَّرت الأرقاء، وفكَّت رقابهم بالعتق، والتدبير، والكتابة، وناهيك بالحديث الشريف المصرِّح بذلك، وقد أورده الإمام الحافظ ابن حجر في

---

(١) مجلة «الحقائق» الدمشقية، الجزء العاشر من المجلد الثاني: (١٣٣٠).

(٢) هو الشيخ أحمد بن عمر المحمصاني البيروتي الأزهري، ولد في بيروت سنة (١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م) تقريباً في بيت علم ودين، ولازم الشيخ محمد عبده لما قدم من مصر إلى بيروت في المكتب السلطاني والجامع العمري. التحق بالجامع الأزهر سنة ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م، وتعرَّف سنة ١٣١٩هـ على العلامة محمد محمود بن أحمد التركزي الشنقيطي المتوفى سنة (١٣٢٣هـ = ١٩٠٤م) وعيِّن أمينًا للمكتبة الأزهرية، ولما عاد إلى بيروت سنة ١٣٣٢هـ عُيِّن في مكتب الحقوق العثماني، وتولى شرح مجلة الأحكام العدلية، وكان يتمتَّع بموهبة خطابية، وكان يخطب الجمعة في الجامع العمري الكبير. وعندما أُسِّست الكلية الشرعية في بيروت سنة (١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م) عُيِّن الشيخ أستاذًا لمادة التفسير. من أشهر تحقيقاته: شرح المعلقات السبع للزوزني المتوفى سنة ٤٨٦هـ، والإنصاف في التنبيه على أسباب الخلاف للبطليوسي المتوفى سنة ٥٢١هـ، وفصيح ثعلب. توفي في بيروت سنة ١٣٧١هـ الموافق ٣٠ تموز ١٩٥٠م رحمه الله تعالى.

«منبهاته السبعيات»[(١)] فيما رواه عن سيدنا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يجعله وارثاً، وما زال يوصيني بالنساء حتى ظننت أنهُ سَيُحرِّم طلاقهنَّ، وما زال يوصيني بالمملوكين حتى ظننت أنه يجعل لهم وقتاً يعتقون فيه»[(٢)]، فانظر أيها العاقل كيف تحقَّق ما ظنَّه الرسول ﷺ واتَّفقت الدول على تحرير الأرقّاء... إلخ.

ولما كان الاستدلال بهذا الحديث على إلغاء الأوربيين للرق واقعاً في غير محله وبعيداً عن مهيع الصواب، أتيتُ بهذه السطور مبيِّناً بطلان هذا الاستدلال وموضِّحاً

---

(١) لا تصحُّ نسبة هذا الكتاب إلى الحافظ ابن حجر. وقد طبع باسم «الاستعداد ليوم الميعاد»، وقد نبَّه على بطلان نسبة هذا الكتاب لابن حجر البحَّاثة الشهيد الشيخ عبد الرحمن الفاخوري الحلبي رحمه الله تعالى في مقال نشره في مجلة «الجامعة السلفية» (العدد ٣ من المجلد العاشر: ١٣٩٨هـ) بعنوان: أما لهذي الأيدي من يقطعها؟ بيَّن فيه بيانًا شافيًا بطلان نسبة الكتاب إلى ابن حجر. ومؤلف الكتاب هو إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الشافعي الصوفي (ت٧٢٢) قال عنه الذهبي: «كان حاطب ليل، جمع أحاديث ثنائيات وثلاثيات ورباعيات من الأباطيل المكذوبة».

(٢) الحديث ذكره أبو الليث السمرقندي في «تفسيره» (١: ٣٢٨)، والقرطبي في «تفسيره» (٥: ١٩١-١٩٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وروى الخطيب البغدادي في «تالي تلخيص المتشابه» ١: ٢١٥ في ترجمة عبد الله بن مليل حدث عن صاحب له لم يسمِّه، عن عباد بن عباد المهلبي، أخبرنا أبو الحسن البزار، حدثنا الحسن بن محمد بن عثمان الفسوي، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عباد بن عباد، حدثنا عبد الله بن مليل، قال حدثنا صاحب لنا ثقة، عن سعيد بن جبير قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال رسول لله يوصيني بالمملوكين حتى ظننت أنه سيجعل لهم حداً إذا بلغوه أعتقوا». وروى ابن أبي الدنيا في «العيال» (٤٨٣) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهنَّ». وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة» (٥٠٧٧): رواه أحمد بن منيع بسند ضعيف لجهالة بعض رواته. أما حديث «ما زال جبريل يوصيني بالجار....» فهو حديث رواه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر.

السبب الحقيقي الذي حمل الأوربيين على إلغاء الرقّ وتحريره.

استدلَّ الأستاذ على إلغاء الرقّ بالجملة الثالثة من الحديث الشريف(١)، مع أنه ليس في منطوق هذه الجملة ولا في مفهومها ما يدلُّ على ذلك، ولو كان المقصود بها إلغاء الرق كما ظنَّ للزمه أيضاً أن يقول بتوريث الجار من جاره، وتحريم طلاق النساء أيضاً، لأنَّ هاتين المسألتين من جملة ما أوصى به جبريل كما رأيت في الحديث، وهذا لم يقل به أحد من أئمة المسلمين، لا سلفاً ولا خلفاً، وإذا قلنا بعدم هذا اللزوم لزم الترجيح بلا مُرجِّح، وهذا باطل، والذي يتبادر أنَّ المراد بالوقت في الحديث إنما هو وقت مُعيَّن كأن تكون مدة الاسترقاق عشر سنين مثلاً، فإذا انقضت يكون مُحَرَّراً كالمكاتب إذا دفع آخر نجم عليه فإنه بذلك يتمُّ له التحرير، ولو كان مقصود الشارع تعالى إلغاء الرقّ في زمن من الأزمان لنبَّه عليه وصرَّح به، ولا يترك ذلك مُبْهماً غامضاً فقد أتانا بها بيضاءَ نقيَّةً، وأكمل لنا الدين المبين، وحاشى النبي الكريم ﷺ أن يسكت عن التَّصريح بأمر عظيم هو من الأهمية في الدرجة القصوى.

وكيف يتأتّى إلغاء حكم الرقّ في زمنٍ ما وكثير من الأحكام الشرعيَّة متوقِّفة عليه ومُعلَّقة به ككفارة الأيمان وكفارة القتل خطأ.

وغاية ما يُؤْخذ من هذا الحديث الشريف هو حثُّ الأمة على مُداراة الجار ودفع الأذيَّة عنه والإحسان إليه، والحضّ على معاشرة النساء بالمعروف، ولزوم الرفق بالمماليك ومعاملتهم بالحُسْنى كما جاء في أحاديث كثيرة.

والأجانب لم يَسْعَوا في تحقيق أمنيتهم في إلغاء الرقّ رحمةً بالإنسانية وخدمةً لها كما يدَّعون. لا. لا، فما ذلك إلا ألفاظ يتشدَّقون بها توصُّلاً لمآربهم، وزخارف من

---

(١) وهي جملة لا تصح كما تقدم في تخريج الحديث.

الأقوال يرُومُون بها قضاء لباناتهم، فقد علَّمتنا الحوادث وفي جملتها الحرب الحاضرة أنهم يُضمِرون غير ما يُظْهِرون ويُبْطنون غير ما يُعلنون، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ ...﴾.

عوَّل الغربيون على اقتسام الممالك الإسلامية والقضاء على سلطة ملوكها وأمرائها، وتمزيق شمل العالم الإسلامي وتبديد جامعته، والحيلولة دون انتشار الدين الإسلامي ونفوذ نوره فاتَّخذوا توصُّلاً لأمانيهم أسباباً جديدة وطُرقاً كثيرةً من جملتها: السعي في إلغاء الرقّ وتحرير الأرقّاء، وذلك لأنهم وجدوا بالعيان أنَّ هؤلاء الأرقّاء وهم يقدّرون بمئة ألف سنوياً بعد الإتيان بهم إلى الديار الإسلامية، يدخلون في الدين الإسلامي ويتخلَّقون بأخلاق المسلمين، ثم لا يمضي عليهم مدة وجيزة إلا ويكون معظمهم قد أُعتقوا ووقفوا في صفوف الأحرار وتناكحوا وأخذوا في التناسل فينمو بذلك عدد المسلمين ويكثر سوادهم ويقوى بهم ساعدهم ويشتدّ عَضُدهم، وربما عادت فئة إلى قومهم وأخذوا في إنذارهم ودعوتهم إلى الدخول في دين الله، وهذا بلا ريب ممَّا كان يسيء الأجانب ولا يروق في أعينهم ويتميَّزون غيظاً منه.

إنَّ إلغاء الرقّ من أعظم الأمور التي أخلَّت بنظام هيئتنا الاجتماعية، وعوَّجت مستقيم أخلاقنا، وأماطت عن الكثيرين لثام الحياء والشرف.

كان الفتى منا إذا كان غير قادر على الاقتران بالحرائر لقلّة ماله أو لسبب آخر فإنه يتَّخذ له سُريَّة يتمتَّع بها ويُحصِّن بها نفسه، ويمنعها عن التَّطلُّع إلى ما لا يرضاه ذوو المروءة ولا يمشي إلى هذه القاذورات التي قَضَت على حياة الأمة وحيائها.

ولو كان باب الرقّ مفتوحاً لندر مَنْ يرمي بنفسه في هذه المهاوي السحيقة، التسرّي كان أعظم مساعد على تكثير العالم الإسلامي وتنميته.

وذكر المؤرّخون أنه أُحصي نَسْل بني العباس في زمن المأمون فبلغ نحو ثلاثين

ألفاً، ولو كان هذا من الاقتران بالحرائر فقط لما بلغ في هذه المدة التي هي نحو مئتي عام نصف عُشْر هذا المقدار.

هذا، وأيُّ حاجة تدعونا إلى مجاراة الأوربيين والذهاب إلى القول بإلغاء الرقّ وتكلُّف الاستدلال على ذلك بالأحاديث النبوية، وأيُّ داعٍ يلجئنا إلى تأويل الأحاديث بما يوافق مَشَارب الأجانب وأهواءهم.

فحكم الرقّ باقٍ ثابتُ الأركان لا ينسخه تطاولُ الأزمان، وليس في وسعنا أن نذهب إلى إلغاء هذا الحكم بعد أن علمنا علمَ اليقين ما فيه من الفوائد التي تعود بالمنافع الجُلَّى على العالم الإسلامي.

حلب

محمد راغب الطباخ

❋ ❋ ❋

يقظة الغرب ورقدة الشرق
أو عناية الغرب بالعلوم الإسلامية[١]

صاحب مجلة «الجامعة الإسلامية» سلَّمه الله[٢]:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فإنَّ سعيك في إصدار مجلةٍ دعوتها «الجامعة الإسلامية»[٣] تقصد بها خدمةَ بلادك وهذه الأمة، دلَّنا على عُلوِّ همَّتك، وإنَّ لك

---

(١) مجلة «الجامعة الإسلامية»، العدد الأول من السنة الأولى (صفر ١٣٤٨ = تموز ١٩٢٩). وقد جاء في مقدمة المقالة: «الأستاذ الجليل الشيخ محمد راغب الطباخ، أستاذ الحديث والتاريخ في المدارس العلمية، وآداب اللغة العربية في الكلية الفاروقية الغني عن التعريف بما له من الأيادي البيضاء (كذا والصواب: البيض) على النهضة العلمية وإحياء الآثار القيمة، تفضَّل علينا ـ مع كثرة أشغاله ـ بهذا المقال الممتع. بحث فيه عن فضل علم الحديث وعناية الغربيين فيه وإهمالنا له مع شدَّة حاجتنا إليه وإنا له من الشاكرين». المحرر.

(٢) صاحب المجلة هو الشيخ محمد علي بن مصطفى الكحَّال الحلبي، ولد في حلب سنة ١٣٢٧هـ= ١٩٠٩م، ونشأ فيها، ودرس في المدرسة الخسروية، وأصدر مجلته «الجامعة الإسلامية» في سنة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م، واستمر صدورها خمساً وثلاثين عاماً حتى صدور العدد (٥٧٧) في شوال ١٣٨٢ آذار ١٩٦٣. وعمل مشرفاً على المكتبة الوقفية بحلب بعد وفاة الشيخ راغب الطباخ سنة ١٩٥١م، واستمر في عمله حتى وافاه الأجل يوم الجمعة في ٢٦ من المحرم ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م عن تسعة وخمسين عاماً، ودفن في مقبرة هنانو، ولما تمَّ إلغاؤها، نُقِل رفاته إلى مقبرة الصالحين. وتنظر ترجمته في موقع رابطة العلماء السوريين بإشرافي.

(٣) ينظر بحث: «مجلة الجامعة الإسلامية دراسة وصفية تحليلية»، وهو بحث تمهيدي لمرحلة الماجيستير في الدراسات الإسلامية في كلية الإمام الأوزاعي ببيروت، قدَّمه الأستاذ أحمد محمد الخطيب سنة ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م، في ٤٢ صفحة.

بين جنبيك نفساً طمَّاحةً للعُلى راغبةً في جمع كلمة تلك الأمة التي تبدَّد شملها بعد ذلك الاجتماع، وانتثر عِقْدها بعد الانتظام، وروحاً طيبة تدعوك أن تضمَّ صوتك إلى صوت الناهضين في هذا العصر لاستعادة ما كان لهذه الأمة من حَوْل وطَوْل بحَوْل الله وقوته.

فشكراً لك على عملك الحسن وحيَّهلا بك أيها الشاب الناهض الذي تشبَّعت روحه بوجوب النداء في هذه الأمة إلى أن تستيقظ بعد تلك الغفلة، وتخلع عنها رداء الخمول، وتقوم بالواجب عليها في دينها ودنياها.

فأسأل الله أن يُسَدِّد أعمالك، ويُوفِّقك لما أخذت به على عاتقك من ذلك العمل الهام، ويوفِّقك لصدق القول وأحسن العمل.

ولا ريب أنك ما دمت قاصداً خدمة وطنك ودينك، وساعياً وراء تلك الغاية النبيلة، وهي جمع كلمة الأمة، وقد اتَّخذت الحزم رداءً والإخلاص رائداً فإنَّ عملك سيكون بالنجاحِ مكلَّلاً، وبالتَّوفيق مقروناً، والله من وراء القصد.

أحببتُ أن أكتب لك سطوراً تنشرها على صفحات مجلتك، فبعد أن افتكرت ماذا أكتب ذكرت أنَّ لديَّ كتاباً تلقَّيته حديثاً من المستشرق (سالم الكْرِنْكُوي)(١) المقيم في بكهام (إنجلترا)، وفيه من العبارات ما يقتضي أن يقف عليها أبناء هذه البلاد ومفكِّروها ليعلموا (يقظة الغرب وغفلة الشرق)، وبعبارة أخرى: ليروا عناية الغربيين

---

(١) كرنْكو (١٢٨٩-١٣٧٢هـ = ١٨٧٢-١٩٥٣) فريتس كرنكو: مستشرق ألماني من أعضاء المجمع العلمي العربي، كان يسمِّي نفسه بالعربية «سالم كرنكو» ومعنى «فريتس» بالألمانية: سالم، ولد في قرية شونبرج بشمالي ألمانيا، وتعلم الإنجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية ثم الفارسية والعربية والتركية والعبرية والآرامية، اتصل بدائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، تولى تحقيق بعض المخطوطات، وانتدبته جامعة عليكرة للتدريس فيها، فأمضى نحو سنتين وعاد إلى لندن فاستقرَّ في «كمبردج» إلى أن توفي، له ترجمة بقلمه في مجلة «المجمع العلمي العربي»، في الجزء الأول من السنة التاسعة (١٩٢٩). وتنظر ترجمته أيضاً في (الموسوعة العربية).

بعلومنا الإسلامية كافة وإهمالنا وإعراضنا عن دراستها اعتقاداً منا بقلّة جَدْواها، وأنها لا تمطر علينا درهماً ولا ديناراً، ولا تجعل لنا جنَّات تجري من تحتها الأنهار.

قبل أن أذكر شيئاً من عبارة الكتاب أودُّ أن أُبيِّن سبب وروده إليَّ، وذاك أني كنت نَشرتُ على صفحات مجلة «المجمع العلمي العربي»[1] ما في مكتبة التكيَّة الإخلاصية في حلب من نوادر المخطوطات، وقلت: إنَّ من جملة النفائس كتاب «**معرفة علوم الحديث**» للحاكم أبي عبد الله النيسابوري، وهو كتابٌ جليلٌ في أصول علم الحديث المُسمَّى بالمصطلح.

فبعد مدَّة جاء كتاب من ذلك المستشرق للمجمع يذكر أنه عثر في متحف لندن على الكتاب الذي ذكره فلان على صفحات مجلتكم، وأنه عازمٌ على مقابلته على ثلاث نسخ أخرى في الأستانة وطبعه في حيدر آبار الدكن (الهند).

فالمجمع كتب لي تلك العبارة لأطَّلع عليها، فرأيت عندئذ أن أكتب رسالة ضافية تتعلَّق بتاريخ ذلك العلم وأول من ألّف فيه، ومَن أجاد فيه التّأليف من القرن الرابع إلى القرن العاشر، وأرسلتها له فوقعت لديه موقع الاستحسان، وتلقَّيت منه ذلك الكتاب، وقد قال في مطلعه:

«وَصَلت رسالتكم في علوم الحديث في طيِّ كتابٍ من المجمع العلمي، ولا أدري كيف أشكركم كل الشكر على همَّتكم العالية ومساعدتكم في معرفة تاريخ مصنفات هذا العلم الجليل. وقد كنت طالعت منذ سنين كتب الحديث، ولما وجدت في المتحف البريطاني نسخة قديمة من كتاب الحاكم النيسابوري كان رأيي أنه لائق بالنشر لقدم عهد المؤلف»، ثم قال: «ولما كنت مشغولاً بتهذيب عدة كتب كبار مثل «كتاب معاني

---

(١) في الجزء السادس من المجلد الثامن: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م)، وستأتي ص٤١٥ - ٤٢٠.

الشعر» لابن قتيبة، و«حلية الأولياء» لأبي نُعيم، سألت السيد مُعظَّم حسين، وهو شاب هندي من طلاب العلم أن ينسخ النسخة اللندنية، وقد فرغ من هذا العمل، فنظرت في نسخته وصحَّحت الأوهام، وهو يعزم الآن زيارة مكاتب القسطنطينية لمقابلته على ثلاث نسخ موجودة هناك، وبعد ذلك يريد السفر إلى عاصمتكم ليرى النسخة الحلبية إن شاء الله»[1]. انتهى.

هنا أمور هامة تستوقف النظر ويأخذك بها العَجَب، وفيها أعظم عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد:

الأول: عناية هذا المستشرق بعلم الحديث واشتغاله فيه منذ سنين.

الثاني: السَّعي بنشر آثار سلفنا الصالح.

الثالث: وعدم المبالاة بما هنالك من المشاقّ وعدم الاكتراث ببُعد الشقَّة، إذا كان من ورائها الحياة العلمية، وكأنه يقول: «وجلائل الأخطار في الأخطار».

يالله!! الغربيون يعكفون على دراسة علم الحديث، ونحن عنه معرضون، وجليل فوائده مهملون بحيث لم يَبْقَ في هذه الديار مَنْ يشار إليه في هذا الفن بالبنان بعد أن كانوا يُعدُّون بالعشرات.

أرني أيها القارئ الكريم المشتغلين بعلم الحديث في هذه البلاد المقتبسين

---

(١) قال السيد معظم حسين في تقديم كتاب «معرفة علوم الحديث» ص (كو ـ كز): «حينما زرت مدينة حلب الشهباء، تشرَّفت بلقاء الشيخ الأستاذ محمد راغب الطباخ الحلبي الذي تقدَّم ذكره، وهو مدرِّس علم الحديث والمصطلح والتاريخ في المدرسة الخسرويَّة في حلب، ومؤلف التاريخ الكبير «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» فجاد عليّ الشيخ بالكرم والعناية، وأنا شاكر له، معترف بإحسانه العزيز، إذ هو أفادني ببعض كلامه المفيد في هذا الموضوع، وأرشدني إلى التكية الإخلاصية عند السادة الرفاعية، حيث وجدت نسخة من كتاب الحاكم».

لفوائده؟؟ أين أولئك الحفَّاظ؟! أين أولئك الرواة؟!

كأنْ لم يكُنْ بين الحُجون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكةَ سامرُ

نعم قد استغنينا عن علم الحديث ذلك العلم الجليل بالاشتغال بلهو الحديث، وما هنالك من الكذب المفترى والأباطيل.

أتظنُّ أن ذلك المستشرق قد عكف على دراسة علم الحديث سُدى أو صرف وقته الثمين بدون جدوى؟! كلا ثم كلا إنك لا تقول هذا وهو أعقل من ذلك.

كيف لا يدرسُ علماً يعلِّمك كيف انبثق فجر الإسلام، وسَطَع منه ذلك النور الباهر الذي عمَّ الآفاق وسار في المشارق والمغارب؟.

كيف لا يدرسُ علماً يوقفك على ذلك الانقلاب الهائل الذي قام به السيد الأعظم محمد فنقل الأمة العربية مما كانت عليه من الهمجية والحمية الجاهلية إلى المدنية الفاضلة والأخلاق السامية؟

كيف لا يدرسُ علماً يُبيِّن لك كيف تنقذ الأمم من الضلالة إلى الهداية، ومن الغيِّ إلى الرشد، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن؟

كيف لا يدرسُ علماً يُعرفك كيف تجمع بين الأمم المتفرقة، والأهواء المختلفة، والآراء المتشعِّبة، فتوحِّد كلمتها بعد الشَّتات وتلمُّ شعثها بعد التفرُّق فتصبح كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً.

كيف لا يدرسُ هذا المستشرق علماً بُنيت أركانه على التوحيد ودعائمه على الإلفة والمحبة ورحمة الصغير وتوقير الكبير، حتى أدى ذلك إلى اتحاد تلك القلوب، وصارت على قلب رجل واحد، فخرج أولئك القوم من جزيرة العرب وقلوبهم بالإيمان مفعمة، وصدورهم بالمحبة والإلفة ممتلئة، يؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، فدوَّخوا

بهاتين الصفتين الأمم وثلُّوا العروش العظيمة، وكان لهم السلطان في كل مكان.

كيف لا يدرسُ علماً منه ومن كتاب الله المبين اسْتُنْبطت أصول وفروع، ومن تلك الأصول فروع للحوادث الكونيَّة وَسِعَت حاجات الناس وأرْبَتْ عليها لا يحصيها العَدّ ولا يحصرها التأليف في أمور العبادات والمعاملات والمناكحات والعقوبات إلى غير ذلك، فكان للعالم من ذلك ذخيرة لا تَنْفَد ومَعيناً لا ينضب مهما كَرَّت العصور وكان الليل والنهار. فليس من حادثة إلا وقد بيَّن المستنبطون الحكم فيها على شكل ينبئك بِبُعْد النَّظر وسَعَة المدارك.

كيف لا يدرس علماً يُرشدك إلى الأخلاق الفاضلة والآداب العالية، وحُسْن المعاشرة للناس كافَّة على اختلاف طبقاتهم وأديانهم ونزعاتهم. والكلام هنا مُتَّسع المجال ويطول جداً لو أطلقنا العَنان وحَسْبُك ما ذكرناه.

ولا ريب أن المستشرق (كرانكو) عرف هذا فلذلك أكبَّ على دراسة هذا العلم الشريف الذي اعتنت فيه الأمة الإسلامية في عصورها الأولى مزيدَ الاعتناء، وشدَّت إليه الرحال، وحفظت لنا هذه الشريعة السمحاء، فكانت بيضاء نقية، فجنت ثمرات ذلك، وعادت عليها بجليِّ الفوائد.

لم تقف أعمال هذا المستشرق وأمثاله من الغربيين عند هذا الحد، بل جاوزتها إلى إحياء آثار أسلافنا بعد أن استحصلوا عليها بما عزَّ وهان، وجعلوها في خزائن منظمة تكفل بقاءها وصيانتها من أن تمد لها الأيدي، ثم سعوا في طبعها ونشرها لينكبُّوا على دراستها وتعمَّ استفادتهم منها، ولم يبالوا بالمصاعب التي يجدونها أمامهم، واستهانوا كل عقبة تعترضهم.

إيه يا ابن الشرق!! هل آن لك أن تستيقظ بعد تلك الغفلة، وتزيح عنك رداء

الخمول والكسل، وتستعيد ما كان عليه آباؤك من الجد والنشاط وحب السعي في كل ما فيه خيرك ونجاحك في دينك ودنياك.

إيه يا ابن الشرق!! هل آن لك أن تقدِّر العلوم والفنون التي عكف عليها آباؤك وألَّفوا فيها الملايين من الأسفار وأفادوا فيها الأمم جمعاً، فاعترفت لهم بالفضل وحسن الجميل.

هل من الحكمة والصواب أن تزهَدَ فيها وتكون في معزل عنها والغربي عاكف عليها يَجْني ثمرتها، ويَرِدُ بشَغَف مناهلها، وأنت في غفلة عنها بل تعد المشتغل بها مشتغلاً بما لا فائدة فيه.

إن كنت حقاً تريد الخير لبلادك وأمتك فعليك أن تحافظ على علوم آبائك وأجدادك، وتسعى في إحيائها ونشرها ففي بقائها بقاؤك، وفي الإعراض عنها القضاء الأبدي عليك.

على أني لا أُزهِّدك في علوم الغربيين فإنَّ فيها ما يفيد هذه البلاد، ويدعو إلى استثمار خيراتها وبقاء ثروتها، ويجعلنا نستغني بعض الاستغناء عن بضائع الغرب ومصنوعاته خصوصاً إذا أقبلنا على مصنوعات بلادنا وإن كانت أقل جودة من تلك فذلك من أعظم الأسباب لحياة هذه البلاد وسعادتها.

فقد أصبح من القضايا المسلَّمة: أن الاستقلال السياسي لا يحصل إلا إذا بُنيَ على دعائم الاستقلال الاقتصادي، لكنا نستغرب قولك: أن لا مُعَوَّل إلا عليه ولا حياة لنا إلا به.

وننكر عليك ما تأتينا به مما يخالف معتقداتنا، وما سنَّته الشريعة لنا.

وننكر عليك أيضاً انغماسك في حمأة شهواتك وملاذِّك مما دلّنا على أنك ذهبت لبلاد الغرب لاكتساب الرذيلة لا للتَّحلِّي بالفضيلة، ولم تقف عند هذا الحد، بل صرتَ معولاً ثقيلاً تهدم به البقية الباقية من أخلاق الشَّرق وعاداته ومعتقداته، ونالت بلادك منك ما لا تناله من الغرباء.

فاتَّقِ الله إن كنت حقاً تريد الخير لأمتك، أو كان في قلبك مثقال ذرَّة من الحبِّ لوطنك. فالبلاد في حاجة إلى مَنْ يجمع شمْلَها ويُوحِّد كلمتَها، وذلك لا يمكن إلا في رجل احترم آباءَه وأجدادَه، وقدَّر علومنا وآدابنا، واحترم لغتنا ولم يألُ جهداً في إحياء ذلك. فمن مِثْلِهِ يُرجى الخير لهذه الأمّة، وعلى يده يكون لها الفلاح.

محمد راغب الطباخ

* * *

السّياسة في القرآن[1]

محاضرة للمؤرّخ الفاضل الأستاذ الشّيخ راغب الطّباخ

في دار الأرقم بمدينة حلب

(١)

كثير من النّاس ـ ممَّن لم يقرؤوا القرآن الكريم أو لم يتدبَّروا آياته ـ يظنون أن كتاب الله تعالى خالٍ من الآيات السياسية، ومن الأمور التي إذا رُوعيت تكون سبباً لحياة أمة بعد موتها، ولعزَّتها بعد هوانها، ولكثرتها بعد قلَّتها، ولغناها بعد فقرها، ولاستعادة ما كان لها من مجد، وما سلف من حوْل وطَوْل؛ في حين أن كتاب الله تعالى فيه تبيان كل شيء: فيه كل ما يعود على المجتمع البشري بالسعادة في معاشه ومعاده، في دنياه وآخرته.

وإذا تأمَّلت فيه ـ وكنت ممن ألقى السمع وهو شهيد ـ تتجلى لك آيات كثيرة تجد فيها السياسة بادية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، وتعتقد اعتقاداً جازماً أننا إذا سرنا على مقتضى ما جاء فيها وراعينا أحكامها استرجعنا ما فقدناه من عز، وعادت لنا تلك المكانة التي كانت لنا بين الأمم، وكنا معشر الأمة العربية ـ بل وجميع الأمة الإسلامية ـ نحن القابضين على زمام العالم، ومقدَّرات الأمم في مشارق الأرض ومغاربها.

---

(١) مجلة «الفتح» المصرية العدد (٧٥٣) من السنة ١٦: ٢٧ ربيع الأول (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م)، ص٨، ٩، ١٠، ١١.

من هذه الآيات قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

وهُنَّ ستُّ آيات، وقد قسمنا محاضرتنا هذه إلى ستة أبحاث، مقتبسين ذلك من التفاسير، ومن الكتب التاريخية؛ التي ذكرت هذه القصة، جامعين بين ما تفرَّق فيها وما انطوت عليه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا خطاب الله لنبيِّه ﷺ، قصد به التقرير والتعجيب، ولفْت النظر لإخبار من مضى من الأمم وأحوالهم، وخطابٌ لِمَنْ لم ير ولم يسمع؛ ليكون له بذلك عظة وعبرة.

و(الملأ): الأشراف من الناس، وهو اسم الجماعة؛ كالقوم، والرهط، والجيش، وجمعه: أملاء. قال الشاعر:

وقال لها الأمـلاءُ من كلّ معشرٍ   وخيرُ أقاويلِ الرجال سـديدُها

وأصلها من (المِلء)، وهم الذين يملؤون العيون هيبةً وروَاء. وقيل: هم الذين يملؤون المكان إذا حضروا، وقال الزجَّاج: الملأ: الرّؤساء، سُمُّوا بذلك لأنهم يملؤون القلوب بما يحتاج إليه.

كان من أمر بني إسرائيل ـ زمن موسى ﷺ ـ ما كان من إخراجهم من مصر، وإغراق أعدائهم ـ فرعون وقومه ـ وبقائهم في التِّيه أربعين سنة إلى أن مات موسى عليه السلام.

ولما مات قام بتدبير بني إسرائيل خليفته يوشع بن نون، فارتحل بهم من التِّيه بعد ثلاثة أيام، وسار نحو الأرض المقدسة، فأتى أريحا فامتلكها، ثم سار إلى نابلس فاستولى عليها، وهكذا إلى أن مَلَكَ الشام، ويقال: إنه ظهر على أحد وثلاثين أميراً من أمرائه، وفرق عمله فيه.

فعلى هذا يكون يوشع هو المؤسس لدولة بني إسرائيل، وهو الذي رفع مستوى هذه الأمة.

واستمرَّ يوشع عليه السلام يدير أمر بني إسرائيل نحو ثمان وعشرين سنة، ثم توفي ودفن في (كفر حارس) ولم أجد لهذه القرية ذكراً في «معجم البلدان»[١] وله من العمر مئة وعشر سنين.

قال أبو الفداء: ورأيت في تاريخ ابن سعيد المغربي[٢]: أن يوشع مدفون في المعرة، فلا أعلم هل نُقِلَ ذلك، أم أثبته على ما هو مشهور الآن.

والذي في كتب العهد القديم في (سفر يشوع) في (الإصحاح الرابع والعشرين): أن يشوع مات ابن مئة وعشر سنين، ودفن في تُخم ملكه في تِمنة سارح التي في جبل إفرايم شمالي جبل جاعش، وهذه القرية ـ على ما ظهر لي من تتبُّع سفر يشوع ـ هي في بلاد فلسطين، والله أعلم.

ولما مات يوشع تولَّى الجهاد يهوذا وأخوه شمعون، وهما القائلان لبني إسرائيل

---

(١) الفتح ـ كفر حارس مذكور في التوراة (٢: ٩ من سفر القضاة) بلفظ تمنة حارس، وفي مكان آخر منها (يشوع ١٩: ٥٠ و٢٤: ٣٠) بلفظ: تمنة سارح كما سيذكره حضرة الأستاذ الفاضل صاحب المحاضرة. وهي مدينة كانت على جبل إفرايم الذي يسمى جبل السامرة شمالي جبل جاعش. أما ياقوت فنقل قولاً بأن قبر يوشع في قرية صَرَفة من نواحي مؤاب قرب البلقاء. وقولاً آخر بأنه في بلدة عَوَرْتا قرب نابلس، وقولاً ثالثاً بأنه في جانب صور المعرَّة واستنكره وقال: الصحيح أنه بأرض نابلس.

(٢) عرف به المؤلف في كتابه «ذو القرنين» فقال: «ابن سعيد اسمه: علي بن موسى، وله كتابان في التاريخ، وهما جملة مصادر أبي الفداء، ذكرهما في خطبة «تاريخه»، أحدهما: «لذة الأحلام في تاريخ أمم الأعجام» في مجلدين، والثاني: «المغرب في أخبار أهل المغرب» في نحو خمسة عشر مجلداً». انتهى.

حين نكلوا عن الجهاد: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وكان يساعد في تدبير أمور بني إسرائيل فينحاس بن العزير، وكان كالأب يحكم بينهم.

وكان الأمر في بني إسرائيل ضعيفاً، ودام أمرهم على ذلك سبع عشرة سنة، ثم طَغَوْا وعصوا الله، وأشركوا، فسلَّط الله عليهم كوشان رشعتايم مَلِكَ آرام النهرين، فاستولى على بني إسرائيل واستعبدهم ثماني سنين، وكان لكالب بن حصرون أخٌ من أمه يقالُ له: عِثْنيئيل بن قناز من سبط يهوذا، فأزال ما كان على بني إسرائيل لكوشان رشعتايم من القطيعة، وأصلح حال بني إسرائيل، وكان عثنيئيل رجلاً صالحاً، واستمر يدبِّر أمر بني إسرائيل أربعين سنة، وتوفي سنة اثنتين وتسعين لوفاة موسى عليه السلام.

وبعد وفاة عثنيئيل أكثر بنو إسرائيل المعاصي، وعبدوا الأصنام، فسلَّط الله عليهم (عَجلون) ملك مؤاب من ولد لوط، فاستعبد بني إسرائيل وظلوا تحت مضايقته ثماني عشرة سنة، ثم أقام الله لبني إسرائيل أَهُوْذ بن جيرا البنياميني فاغتال عجلون، وكفَّ عن قومه أذاه، وبقي أَهُوذ يدبِّر أمر بني إسرائيل ثمانين سنة إلى أن توفي.

ثم طغى بنو إسرائيل؛ فأسلمهم الله عزَّ وجل في يد بعض ملوك الشام، واسمه (يابين)، فاستعبدهم عشرين سنة حتى خلصوا منه، وذلك في سنة إحدى عشرة ومئتين لوفاة موسى عليه السلام.

وهكذا كان حال بني إسرائيل مع أنبيائهم؛ الذين كانوا يُبعثون إليهم ليجدِّدوا ما نسَوْا من التوراة، ويأمرونهم بالعمل بأحكامها، وكانوا هم الحكَّام فيهم، فكانوا يستقيمون على الطريقة مدة فيصلح حالهم وينتظم أمرهم، ثم يعودون إلى ما نُهوا عنه مدة؛ فيفسد حالهم، ويختل نظامهم، ويسلِّط الله عليهم أعداءهم، فيسومونهم سوء العذاب، ويذيقونهم كؤوس الذل والهوان.

ظلت حالتهم على هذه الطريقة إلى سنة اثنتين وثمانين وأربع مئة لوفاة موسى عليه السلام، ففي هذه المدة كثرت في بني إسرائيل الخُلوف، وعظمت فيهم الخطايا، وظهر لهم عدو من الفلسطينيين وهم قوم جالوت، وكانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، وهم العمالقة، فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم، وسَبَوا كثيراً من ذرارِيهم، وأسروا من أبناء ملوكهم أربع مئة وأربعين نفساً، فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم، ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة، ولم يكن لهم نبي يدبِّر أمرهم.

وكان ـ في هذه المدة ـ ولد في بني إسرائيل (شمويل)، وهو من سبط النبوة، ولما صار له من العمر أربعون سنة، أرسل نبياً إلى بني إسرائيل، فدبَّر أمرهم إحدى عشرة سنة، ومنتهى هذه الإحدى عشرة هي سني حكَّام بني إسرائيل وقضاتهم؛ فإن جميع من تولى أمرهم كانوا بمنزلة القضاة، وسدُّوا مسدَّ ملوكهم، فيكون انقضاء سني حكَّامهم في سنة ثلاث وتسعين وأربع مئة لوفاة موسى عليه السلام.

قال ابن كثير في «تاريخه الكبير» ـ نقلاً عن ابن جرير الطبري وغيره ـ: بعد وفاة اليسع عليه السلام مرج أمر بني إسرائيل، وعظمت منهم الخطوب والخطايا، وقتلوا مَن قتلوا مِن الأنبياء، وسلَّط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبَّارين يظلمونهم، ويسفكون دماءهم، وسلَّط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً، وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء، يكون معهم تابوت الميثاق الذي كان في قُبة الزمان، فكانوا يُنصرون ببركته، وبما جعل الله فيه من السكينة والبقية ممَّا ترك آل موسى وآل هارون.

فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وقهروهم على أخذه، فانتزعوه من أيديهم، فلما علم بذلك ملك بني إسرائيل ـ في ذلك الزمان ـ مَالَتْ عنقُه، ومات كمداً.

ويبقى بنو إسرائيل كالغنم بلا راع حتى بعث الله فيهم نبياً من الأنبياء، يقال له: شمويل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً ليقاتلوا معه الأعداء، ويكونوا تحت طاعته. فالنّبي الذي قال له بنو إسرائيل: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] هو (شمويل) هذا، وكان هذا القول منهم بعد مضيٍّ إحدى عشرة سنة من تدبيره لأمرهم كما تقدم.

فشمويل ـ لخبرته بأحوالهم قبل النبوة وبعدها، ومعرفته بما هم عليه من الخلاف، وخَور العزيمة والجبن، وعدم الانقياد لشريعتهم، وذوي الرأي فيهم ـ تيقَّن أنه إذا بعث إليهم ملكاً لا يجتمعون عليه، ولا ينقادون لأوامره، ولا يبذلون أموالهم وأرواحهم أمامه، وما داموا أشحَّاء بأموالهم، يؤثرون الحياة على الموت، ويرضون الذّلَّ والهوان فكيف يدفعون عنهم عادية الأجنبي، ويزيلون عنهم ذلك الكابوس، ويعيشون أحراراً؟ لذلك جاهرهم بفساد حالهم، وحقيقة أمرهم، وأخلاقهم، فقال لهم: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. إلا أن هؤلاء ـ للشدائد التي كانوا فيها والمصائب التي حاقت بهم ـ أظهروا قوةً من ضعف، وشجاعةً من جبن، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأتبعوا ذلك بعلَّة قوية ودافع عظيم، وهو قولهم: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]. ومن بلغ منه العدو هذا المبلغ ـ وهو إبعاد عدد كبير من أبناء أشرافهم وكبرائهم عن بلادهم ـ فالظاهر من أمره الاجتهاد في قمع عدوه، ومقاتلته، وبذل النفس والنفيس في هذا السبيل.

عندئذ سأل شمويل المولى تعالى ذلك الرجلَ العارفَ بتدبير الحرب، القادرَ بحسن رأيه على إنقاذهم مما هم فيه، فأعلمه به، وكتب عليهم القتال دفاعاً عن أوطانهم وعزهم ومجدهم: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗا﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فكان على هؤلاء أن يذعنوا لطالوت[1]، ويطيعوا ويرجعوا إلى رأيه، ويبرّوا بوعدهم، ويقاتلوا تحت رايته علماً منهم بإخلاص نبيهم لهم، وحسن نصيحته، ورغبته فيما يعود بالنفع العظيم لهم، إلا أنهم لجهلهم وغباوتهم وفساد أخلاقهم وعظمتهم الكاذبة: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فأظهروا التَّولِّي عن طاعته، والإعراض عن حكمه، وأنكروا إمرة طالوت عليهم لأمرين:

الأول: لأن النبوة كانت مخصوصة ـ في نظرهم ـ بسبط معيَّن من أسباط بني إسرائيل، وهو سبط لاوي بن يعقوب، ومنه موسى وهارون، كما كانت المملكة مخصوصة بسبط يهوذا، وطالوت ما كان من أحد هذين السبطين، بل كان من ولد بنيامين.

والسبب الثاني: أنه لم يكن من الأغنياء ذوي الثروة الطائلة، بل كان رجلاً فقيراً. قيل: دباغاً، وقيل: سقَّاءً، وقيل: راعياً، وهذا ذهاب منهم إلى اعتبار النسب وحده، وإنْ لم يكن هناك كفاءة بالخبرة والعلم، واعتبار الثروة، وإنْ لم يكن صاحبها على شيء من المعرفة والدراية.

وهذا نظير نظام البلدية الفاسد، وهو أنّه لا يجوز أن يكون مُنْتَخِباً أو مُنتَخَباً إلا من يعطي لصندوق الخزينة ٥٠ درهماً فصاعداً، ومن لم يعط هذا المبلغ لا يجوز أن ينتخب، وإن كان عالماً أو يحمل شهادة عالية.

ولا ريب أن رأيهم هذا كان فاسداً باطلاً لا يتمشَّى مع المصلحة العامة، وليس فيه صلاح البلاد، وصلاحها إنما يكون بتوسيد الأمور إلى أهلها، وإعطائها لمستحقها،

---

(١) ويسميه اليهود (شاول) وهو ابن قيس بن أبي إيل بن صرور بن بكورة بن أفيح. (الطباخ).

وهو العالم الخبير، والناقد البصير، والرّجل القوي القدير، وإذا كان فوق ذلك وسيماً جسيماً، يملأ القلوب جلالة، والعيون مهابة؛ كان ذلك أدعى للوصول إلى المطلوب، والحصول على الضالة المنشودة، لذلك ردَّ عليهم نبيُّهم اعتراضَهم، وبيَّن لهم خطأهم في استغرابهم أن يكون طالوت (شاول) هو الملك عليهم، إذ لم يستجمع صفات الملك على زعمهم، وأن انتخابه لطالوت ليس بمجرَّد اختياره هو، بل هو اختيار الله تعالى، لذلك قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وأمرُ الله يجب أن يُمتثل، ولا يُتردد عليه، واختياره تعالى مقدَّم على كل اختيار على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم بيَّن لهم أنَّ هذا الرجل الذي اصطفاه الله عليهم فيه صفتان عظيمتان جليلتان، بهما استحق أن يكون ملكاً عليهم، وإن لم يكن من بيت الملك، وإن لم يكن من ذوي الثروة، وهما: (العلم والقدرة)؛ فهاتان الصفتان أشدّ مناسبة لاستحقاق الملك من الصفتين السابقتين من عدة وجوه:

أولاً: لأن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقية، والجاه والمال ليسا كذلك.

وثانياً: أن العلم والقدرة من الكمالات الحاصلة لجوهر نفس الإنسان، والجاه والمال أمران منفصلان، عن ذات الإنسان.

وثالثاً: أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما من الإنسان، والمال والجاه يمكن زوالهما عنه.

ورابعاً: أن العالم بأمر الحروب، وذا البصر فيها، والقوي الشديد على المحاربة؛ يكون الانتفاع به في حفظ مصالح البلاد، وفي دفع شرِّ الأعداء أتمَّ من الانتفاع بالرجل

النَّسيب الغني إذا لم يكن له علمٌ بضبط المصالح، وقدرة على دفع الأعداء.

فثبت بما ذكرنا أن إسناد الملك إلى العالم القادر أوْلى من إسناده إلى النسيب الغني، وهذا تنبيه منه تعالى على أن الفضائل النفسانيَّة أعلى وأشرف وأجل نفعاً من الفضائل الجسمانيَّة.

ثم أعلمهم الله ـ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ـ أنَّ الملك لله، وأنه هو المتصرِّف في ملكه إعطاءً ومنعاً، وهو واهب المزايا لمن يشاء من عباده، وهو المختصُّ برحمته من يشاء كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأشار ـ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ـ إلى أنَّ الله واسع الفضل والرَّحمة، وأن رحمتَه وسِعَت كل شيء، فإذا أنتم طعنتم في إمرة طالوت عليكم بكونه فقيراً، فالله واسع الفضل والرّحمة، فإذا فوَّض الملك إليه، وعلم أن الملك لا يتمشى إلا بالمال؛ فالله تعالى بيده مفاتيح الخير والرزق، فهو يوسِّع عليه في المال، وهو ـ مع قدرته على إغناء الفقير ـ عالم بمقادير ما يحتاج إليه في تدبير الملك، وعالم بمآل ذلك الملك في الحاضر والمستقبل، فيختار ـ لعلمه بجميع العواقب ـ ما هو مصلحته في قيامه بأمر الملك.

إلا أن بني إسرائيل ـ لعنادهم الذي جبلوا عليه، وضعف يقينهم، وشغفهم بالاختلاف على أنبيائهم ـ لم يكتفوا بما تقدَّم من الدلائل على استحقاق طالوت للملك، وأهليّته التامَّة للقيام بأعباء أمورهم، فقالوا لنبيهم: نريد حُجَّة ظاهرة وآية مُشَاهَدة، فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

السياسة في القرآن[١]

(٢)

قلنا فيما تقدم: إن بني إسرائيل ـ لعنادهم الذي جُبلوا عليه، وضعف يقينهم، وشغفهم بالاختلاف على أنبيائهم ـ لم يكتفوا بما تقدم من الدلائل على استحقاق طالوت للملك وأهليته التامَّة للقيام بأعباء أمورهم، فقالوا لنبيهم: نريد حجة ظاهرة وآية مشاهَدة، فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

ما هو التابوت؟ وماذا فيه؟

ما هي قبة الزمان التي تقدَّم ذكرها؟

وما هي السكينة؟

ومن هم آل هارون؟

وكيف عاد إليهم التابوت؟

قال أصحاب الأخبار: إن التابوت صندوق صنعه موسى عليه السلام، وكان فيه قسط المن، وعصا هارون، ولوحا العهد عليهما الوصايا العشر، ثم وضع فيه التوراة.

---

(١) مجلة «الفتح» العدد ٧٥٤ ـ السنة ١٦: ٤ ربيع الآخر ١٣٦٠ هـ ص٧-٩.

وقد بقي في أيدي بني إسرائيل، فكانوا إذا اختلفوا في شيء لجؤوا إليه، وإذا حضروا القتال قدَّموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوِّهم، فلما عصَوا وفسدوا سلَّط الله عليهم العمالقة فغلبوهم على التابوت وسلبوه.

قال ابن كثير في «تاريخه»: قال أهل الكتاب: وقد أمر الله موسى عليه السلام بعمل تابوت من الشمشاد[1]، يكون طوله ذراعين ونصفاً، وعرضه ذراعين، وارتفاعه ذراعاً ونصفاً، ويكون مضبَّباً بذهب خالص من داخله وخارجه له أربع حلق في أربع زواياه، ويكون على حافتيه كروبيَّان من ذهب، يعنون صفة مَلَكين بأجنحة، وهما متقابلان.

وأما قبة الزمان: فقال ابن كثير نقلاً عن أهل الكتاب: إن الله أمر موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاد، وجلود الأنعام وشعر الأغنام، وأمر بزينتها بالحرير المصبَّغ، والذهب والفضة على كيفيَّات مفصَّلة عند أهل الكتاب، ولها عشرُ سُرادقات، طول كل واحد ثمانية وعشرون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، ولها أربعة أبواب، وأطنابٌ من حرير مصبَّغ، وفيها رفوفٌ وصفائحُ من ذهب وفضة، ولكل زاوية بابان، وأبواب أخر كبيرة، وستور من حرير مصبَّغ، وغير ذلك ممَّا يطول ذكره.

وكانت هذه القبة لهم كالكعبة يصلُّون فيها وإليها ويتقربون عندها.

وكان موسى عليه السلام إذا دخلها يقفون عندها، وينزل عمود الغمام على بابها، فيخرون عند ذلك سُجَّداً لله عزَّ وجل، ويكلم الله موسى عليه السلام من عمود الغمام الذي هو نور، ويخاطبه ويناجيه، ويأمره وينهاه، وهو واقف عند التابوت صامد

---

(١) في سفر الخروج ٢٥: «من خشب السنط» والسنط ـ ويسمى السيال ـ: شجر يكثر في فلسطين وسيناء والبادية، وخشبه صلب ثقيل، وأغصانه ذات شوك، ويصلح خشبه لصنع الأثاث، وفحمه جيد. (الطباخ)

إلى ما بين الكروبيَّين[1]، فإذا فُصل الخطاب، يخبر بني إسرائيل بما أوحاه الله عزَّ وجل إليه من الأوامر والنواهي، وإذا تحاكموا في شيء ليس عنده من الله فيه شيء، يجيء إلى قبة الزمان، ويقف عند التابوت، ويصمُدُ لما بين ذينك الكروبيَّين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة.

وأما السكينة: فقيل: إنها شيء، واختلف في ذلك الشيء:

فقيل: إنها بشارات من كتب الله المنزلة على موسى وهارون ومَنْ بعدهما من الأنبياء بأن الله ينصر طالوت وجنوده ويزيل خوف العدو عنهم.

وقيل: هي ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان.

وقيل: هي صورة من زبرجد أو ياقوت لها رأس كرأس الهرِّ وذنب كذنبه، فإذا صاحت كصياح الهرِّ ذهب التابوت نحو العدو ويمضون معه، فإذا وقف وقفوا، ونزل النصر.

وذهب آخرون إلى أن السكينة ليست شيئاً، بل هي عبارة عن الثبات والأمن، وهو كقوله تعالى في قصة الغار: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦]، فكذا قوله تعالى هنا: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. معناه: الأمن والسكون.

وقال قتادة والكلبي: هي «فعيلة» من «السكون»، أي: طمأنينة من ربكم، ففي أيِّ مكان كان التابوت اطمأنوا وسكنوا إليه، وهذا القول أولى بالصحة.

فعلى هذا كل شيء كانوا يسكنون إليه، فهو سكينة، فيحمل على جميع ما قيل فيه،

---

(١) الكروبيون: هم الملائكة المقرَّبون. وينظر الكلام عنهم في «الحبائك» للسيوطي ص١٣٣، و«الإيمان بالملائكة» لشيخنا عبد الله سراج الدين.

لأن كل شيء يسكن إليه القلب، فهو سكينة.

وذكر المفسِّرون والأخباريّون في كيفيَّة عودة التابوت أقوالاً متعدِّدة منها:

أنَّه لما غلب العمالقة على هذا التابوت، وكان فيه ما ذكر من السكينة والبقية المباركة، فلما استقرَّ في أيديهم وضعوه تحت صنم لهم بأرضهم، فلما أصبحوا إذا بالتابوت فوق رأس الصنم، فوضعوه تحته، فلما كان اليوم الثاني إذا التابوت فوق الصنم، فلما تكرَّر هذا علموا أن هذا أمر من الله تعالى، فأخرجوه من بلدهم، وجعلوه في قرية من قراهم، فأخذهم داءٌ في رقابهم، فلمَّا طال عليهم هذا جعلوه في عجلة وربطوها في بقرتين وأرسلوها، فيقال: إن الملائكة ساقتهما حتى جاؤوا بها ملأ بني إسرائيل وهم ينظرون ـ كما أخبرهم نبيُّهم بذلك ـ.

والظّاهر من قوله تعالى: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أنَّ الملائكة كانت تحمله بأنفسها إلى أن وضعته بين أيدي بني إسرائيل، فكان ذلك آية ظاهرة دالَّة على صدق نبيهم فيما أخبرهم به أن الله قد بعث لهم طالوت ملكاً عليهم، ولم يبق بعد ذلك مجال للإنكار والتَّعلُّل والتردُّد، ولذا قال نبيهم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

فعند ذلك أقرُّوا لطالوت بالمُلْك عليهم، فأمرهم أن يتأهَّبوا للجهاد والدفاع عن البلاد، وقال لقومه: لا ينبغي أن يخرج معي رجلٌ يبني بناء لم يفرغ منه، ولا تاجر مشتغل بالتجارة، ولا متزوِّج بامرأة لم يَبْن عليها، ولا أبغي إلا الشاب النشيط الفارغ.

والظاهر من اشتراطه هذه الشروط: «أن من كان له بناء لم يفرغ منه...» إلى آخر ما قاله؛ فإنه يظل بالُه عند بنائه أو تجارته، أو أهله التي يريد أن يبني بها، فلا يقاتل بإخلاص، ولا يندفع بكلية نحو الجهاد، فلا فائدة في وجوده سوى تكثير العدد.

وفي قول طالوت: «لا أبغي إلا الشاب النشيط الفارغ» دلالة على أن الاستقلال واسترجاع المجد إنما يكون بسواعد الشباب، وعليهم المعوَّل في هذا إذا أعدُّوا للأمر عدَّته من علم، ونشاط، وإخلاص، وتضحية، ومتانة أخلاق.

فعندما أخذ هؤلاء في التجهُّز والتجمُّع، اجتمع إلى طالوت في بيت المقدس سبعون ألفاً، وقيل: ثمانون، وقيل: مئة وعشرون ألفاً، فخرجوا منه تحت قيادة طالوت، ولم يتخلَّف عنه إلا كبير لكبره، أو مريض لمرضه، أو معذور لعذره.

وكان مسيرهم في حر شديد، فشكوا إلى طالوت قلة الماء بينهم وبين عدوهم وقالوا: إن المياه لا تحملنا فادع الله أن يجري لنا نهراً، فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ[1] فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهذا النهر هو بين الأردن وفلسطين، وقيل: إنه نهر فلسطين وهو نهر الأردن المسمَّى بالشريعة.

ثم ما الحكمة في هذا الابتلاء؟

قيل: المشهور عن بني إسرائيل أنهم يخالفون الأنبياء والملوك مع ظهور الآيات الباهرة، فأراد الله إظهار علامة قبل لقاء العدو يتميَّز بها من يصبر على الحرب ممن لا يصبر؛ لأن العطش قبل لقاء العدو لا يؤثِّر كتأثيره حال لقاء العدو، فلما كان هذا هو الصلاح قبل مقاتلة العدو لا جَرَم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾.

وقيل: ابتلاهم ليتعوَّدوا الصبر على الشدائد، فإنَّ الأمة إن ادَّرَّعت بالصبر

---

(١) يقال: نهْر ونَهَر، وكل ثلاثي حشوه حرف من حروف الحلق فإنه يجيء على هذين، كقولك: صَخْر وصَخَر، وشَعْر وشَعَر، وبحْر وبحَر. (الطباخ).

على عظائم الأمور إذا لاقت عدوَّها صمدت له، ونالت بغيتها منه. ففي الحديث: «**وإن النصر مع الصبر**»[١] فالمقصود من هذا الابتلاء: أن يتميَّز الصديق عن الزنديق، والموافق عن المخالف، وإنَّ الذين يكونون أهلاً لهذا القتال هم الذين تظهر منهم حقيقة الطاعة فلا يشربون من هذا النهر، وإنَّ كلَّ من شرب منه لا يكون مأذوناً في هذا القتال؛ لدلالة ذلك على عدم إخلاصه وطاعته، وعلى نفرته من الجهاد في سبيل دينه وبلاده.

ولما وصل اليهود إلى النهر هجموا عليه، وأكثروا الشرب، وخالفوا أمر الله، وجبنوا عن لقاء عدوهم ـ جالوت وجنوده ـ، ورجعوا إلى بلادهم، إلا قليل منهم فإنهم صبروا ولم يشربوا أو اغترفوا غرفة كما أمروا.

قيل: هذا القليل كان أربعة آلاف من أصل ثمانين ألفاً. وقيل: كان على عدد أهل بدر، وهم ثلاث مئة وبضعة عشر وهو الوارد في الحديث الشريف[٢].

إلا أن هذا العدد على قلته كان فيه الكثرة؛ وذلك لإخلاصه في إيمانه، وصدقه في عزيمته، فلم يبال بالأخطار التي أمامه، فجاوز مع قائده طالوت هذا النهر، فأبصر جيش جالوت، وهو وافر العَدد والعُدد، قد ملؤوا السهل والوعر، عند ذلك قال فريق من هؤلاء: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وقال الفريق الآخر ـ وهو الذي كان أخلص إيماناً، وأصدق عزيمة، وأعظم رغبة في

---

(١) جزء من حديث طويل أوله: «يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك..» أخرجه أحمد من حديث ابن عباس (٢٨٠٣).

(٢) ثبت في «صحيح البخاري» (٣٩٥٧) من حديث البراء: أن عدد أهل بدر ثلاث مئة وبضعة عشر. وفي «صحيح مسلم» (١٧٦٣)، من حديث ابن عمر: أنهم كانوا ثلاث مئة وتسعة عشر.

الشهادة ولقاء الله تعالى ـ : ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقصد هذا الفريق تقوية قلوب الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وتشجيعهم، وأنه يجب أن لا يبالوا بالموت، وأن يستميتوا في سبيل الدفاع عن بلادهم وعزهم، وأن لا عبرة بكثرة العدد وإنما العبرة بالتأييد الإلهي والنصر السماوي، فإذا جاءت الدولة فلا مضرَّة في القلة والذلة، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعُدة، وإن خير عدة تتخذها الأمة في سبيل الجهاد والجلاد إنما هي الصبر والثبات.

فعند ذلك عوَّل هذا الجمع القليل على لقاء عدوِّهم مع الالتجاء إلى الله والتضرُّع له وطلب المعونة والنصر منه، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. فهذه الفئة ـ على قِلَّتِها ـ أدركت أن الصبر هو السلاح الأعظم، والعدة الأولى للمحارب، وبدون الصبر والثبات لا تجدي الجيوش وإن كانت جرَّارة، ولا تنفع الآلات الحربية مهما تنوَّعت وعظُمت.

فاستجاب الله دعوتها لإخلاصها وثبَّت أقدامها ونصرها على أعدائها نصراً مبيناً، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

* * *

السياسة في القرآن[1]

(٣)

وكيف قتل داود جالوت؟

كان داود عليه السلام راعياً له سبعة إخوة مع طالوت، فلما أبطأ خبر إخوته على أبيهم أرسل يسّى ابنَه داود إليهم ليأتيه بخبرهم، فأتاهم وهم في المصافِّ، وبَدَرَ جالوت الجبار ـ وكان طويلاً عظيم الجثة ـ إلى البراز فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا بني إسرائيل لو كنتم على حق لبارزني بعضكم.

فقال داود لإخوته: أما منكم من يخرج إلى هذا الأقلف؟ فسكتوا، فذهب إلى ناحية من الصف ليس فيها إخوته، فمرَّ به طالوت ـ وهو يُحرِّض الناس ـ، فقال داود: ما تصنعون بمن يقتل هذا الأقلف؟

فقال طالوت: أنكحه ابنتي، وأعطيه نصف ملكي.

فقال داود: فأنا خارج إليه، وكان عادته أن يقاتل بالمقلاع الذئبَ والأسدَ في الرعي، فأخذ داود ثلاثة أحجار، فلما رماه بمقلاعه أصابه في صدره، وقتل بعده غيره، فهزم الله جنود جالوت.

قال المسعودي في «مروج الذهب»: وذُكِرَ أن الموضع الذي قتل فيه داود جالوت بَيْسَان من أرض الغور في بلاد الأردن.

---

(١) «الفتح» ـ العدد ٧٥٥ ـ السنة ١٦: ١١ ربيع الآخر ١٣٦٠هـ، ص ١٠، ١١.

وقال ابن كثير في «تاريخه» نقلاً عن ابن عساكر: إنَّ قتله كان عند قصر أم حكيم، وإن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية.

وقصر أم حكيم هو بقرب مرج الصُّفَّر، ومرج الصفر ـ كما قال في «معجم البلدان» ـ بدمشق.

وقد ذكره خالد بن سعيد بن العاص في شعره ـ وقد قتل فيه ـ، فقال:

هل فارسٌ كَرِهَ النِّزَال يُعيرني ... رُمْحاً إذا نزلوا بمَرْجِ الصُّفَّرِ

وفي صموئيل الأول ـ وهو السفر (السابع عشر) من كتب العهد القديم ـ وصفٌ ضافٍ لهذه الحرب، وممَّا جاء فيه: لما جمع الفلسطينيون وبنو إسرائيل جيوشهم نزلوا فوق جبلين متقابلين بينهم واد، فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جُليات (أي: جالوت)، وعليه درع عظيمة، وجرموقا[1] نحاس على رجليه، فوقف ونادى صفوف إسرائيل، وقال لهم: لماذا تخرجون لتصْطَفُّوا للحرب؟ اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إليَّ؛ فإن قَدِرَ أن يحاربني ويقتلني نصير لكم عبيداً، وإن قَدِرْت أنا عليه وقتلتُه تصيرون أنتم لنا عبيداً وتخدمونا.

ولما سمع جميع بني إسرائيل كلام الفلسطيني هذا، ارتاعوا وخافوا جداً، وكان الفلسطيني يتقدَّم ويقف صباحاً ومساء أربعين يوماً.

فقال يسَّى لداود ابنه: اذهب، وافتقد سلامة إخوتك ـ وكانوا في الجيش ـ، فبكَّر داود وجاء إلى موضع الحرب، والجيش خارج إلى الاصْطفاف، فجاء داود إلى الصف، وسأل عن سلامة إخوته، وبينما هو يكلمهم إذا برجل مبارز ـ اسمه: جليات ـ صاعداً من صفوف الفلسطينيين، وتكلم بمثل هذا الكلام.

(١) الجرموق: الخف القصير، يُلبس فوق خف.

فقال رجال إسرائيل: إنَّ الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنىً جزيلاً، ويعطيه ابنته، فكلَّم داود الواقفين معه قائلاً: ماذا يفعل الرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني، ويزيل العار عن إسرائيل؟ من هو هذا الفلسطيني الأغلف حتى يُعيِّر صفوف الله الحي؟

فكلّمه الشعب بمثل هذا الكلام قائلين: كذا يفعل الرجل الذي يقتله ـ أي: يُجزى الجزاء الذي ذكر ـ.

واتصل هذا الكلام بسمع شاول (طالوت)، فاستحضر داود، فقال داود لشاول: لا يسقط قلب أحد بسبب هذا الفلسطيني، عبدك يذهب ويحاربه، فقال شاول لداود: لا تستطيع أن تذهب إليه لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه.

فقال داود لشاوُل: كان عبدك يرعى لأبيه غنماً، فجاء أسد مع دبٍّ، وأخذ شاة من القطيع، فخرجت وراءه وقتلته، وأنقذتها من فيه، ولما قام عليَّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته، قتل عبدك الأسد والدبَّ جميعاً، وهذا الفلسطيني الأغلف يكون كواحد منهما؛ لأنه قد عيَّر صفوف الله الحي، والربُّ الذي أنقذني من يد الأسد والدبّ هو ينقذني من يَدِ هذا الفلسطيني.

فقال شاول لداود: اذهب وليكن الرب معك، وألبسه ثيابه، وجعل خوذة من نحاس على رأسه، وألبسه درعاً، فتقلَّد داود بسيفه فوق ثيابه وعزم أن يمشي، فقال لشاول: لا أقدر أن أمشي بهذه؛ لأني لم أجربها، ونزعها داود عنه، وأخذ عصاه بيده، وانتخب له خمسة حجارة ملس من الوادي وأخذ مقلاعه، وتقدَّم نحو الفلسطيني.

فلما رآه استحقره؛ لأنه كان غلاماً أشقر جميل المنظر، وبعد محاورة جرت بينهما، وهدَّد كلٌّ واحد منهما الآخر، رماه داود بمقلاعه، فأصاب جبهته، وسقط إلى الأرض، فأسرع داود نحوه، وأخذ سيفه منه واخترطه من غمده، وقتله وقطع به رأسه.

فلما رأى الفلسطينيون أن جبَّارهم قد مات هربوا ولحقتهم بنو إسرائيل حتى أبواب عفرون.

ومن ذلك اليوم عَلَتْ منزلة داود، وعَظُم في عين الشعب، ثم جُعل على رجال الحرب، وبعد مدة مات طالوت فنُودي به ملكاً على بني إسرائيل وَنُبِّئ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

تبيَّن لك ممَّا تلوناه أنَّ هذه الآيات القرآنيَّة مشتملة على أهم قواعد السياسة ونُظُمها، وتجلَّى لك فيها أنَّ الأمة إذا عضَّها الدهر بنابه، وأناخ عليها بكَلْكَله، وأمضَّها بالكوارث والمصائب، فالطريق لخلاصها ورفع الإصْر عنها، وحلِّ نِير الاستعباد من رقابها أن تخلص النيَّة، وتوحِّد الكلمة، وتدَّرع بالصبر، وتتحلَّى بحِلية العلم، وتُوسِّد أمورها إلى ذوي الكفاءة والمعرفة، وأن تبذل نفسها ولا تشح بمالها.

فإذا تسنَّى لها ذلك؛ نَجَتْ من اللجَّة التي كانت فيها، وخرجت إلى ساحة السلامة، ووقعت في ميادين العز والسيادة، وأصبحت قوية الشكيمة، شديدة الساعد، عزيزة الجانب، نافذة الكلمة، ولو كانت قليلة العدد ضعيفة العُدد.

وإنَّ الأمة التي لا تتسلَّح بسلاح العلم والصبر، ولا تجمع كلمتها، ولا تتحلى بمكارم الأخلاق، ولا تبذل النفس والنفيس في سبيل عزِّها، والذود عن حوض كرامتها ومجدها تظل مُسْتَعْبَدة مستعمَرة لا حوْل لها ولا طَوْل، وإن كان عددها يبلغ الملايين، فلا قلة مع اتحاد، ولا كثرة مع اختلاف.

أفادتنا هذه الآيات أن رجلين عظيمين من بني إسرائيل انتشلا تلك الأمة من وهدة الذل التي كانت فيها، ورفعاها إلى بحبوحة العز، وأحياها بعد الموت، فصدق عليهما قول من قال: الأمة تحيا برجل وتموت برجل.

ولهذَين العظيمَين نظراء كثيرون في تاريخ البشر، والأمة العربية، بل الأمة الإسلامية لا تعدم رجالاً من هذا النوع، وعلى تلك الشاكلة، ينهضون بنية خالصة، وعزم ثابت؛ فيستخلصون هذه الأمة من بوائق الاستعمار، ويعيدون لها مكانتها الأولى.

في هذه الآيات الست نموذجٌ من السياسة في كتاب الله تعالى، وإذا استقْصيت ما بين دفتيه، وأمعنت النظر، وتدبَّرت ما هنالك تجد من هذا النوع آيات كثيرة بل سوراً بتمامها لو استُخْلصت على حدة، وتُتبِّعت المقاصد فيها، وبُيِّنت الغايات منها لجاء ذلك في عدة أسفار، تعطيك كل آية منها ـ أو بعض آيات ـ نوعاً خاصاً، وأسلوباً آخر تتكشَّف به دقائق الأمور وحقائق الأشياء.

فعلى هذا؛ لم يدع القرآن العظيم منهاجاً من هذه المناهج إلا سلكه، ولا غامضاً إلا أوضحه.

وضع الصدر الأول من خلفاء الإسلام وملوكهم وأمرائهم وقادتهم هذه الآيات نُصب أعينهم، فاستنتجوا منها قواعد وأُسساً، عملوا بمقتضاها واسترشدوا بها، واستضاؤوا بمصابيحها، فوضحت أمامهم السبل؛ فساروا في طريق من الحياة بيِّنة إلى أن اقتعدوا الذروة، وحلَّقوا في سماء العلياء، وأسَّسوا من الحضارة والمدنية الحقَّة ما جرُّوا به ذيل الفخار على الأمم، وكان غرة في جبين الدهر.

فلْنَسر ـ إذا أردنا النجاة والحياة ـ على سيْرهم، ولنَقْتَفِ أثرهم، ولنهتد بهديهم،

فإذا فعلنا ذلك، وقمنا بهذا الواجب المقدَّس؛ لا نلبث ـ عشية أو ضحاها ـ إلا وقد نلنا بُغْيتنا، وحزنا أمانينا، وحَمِدنا عند الصباح السُّرى.

ورحم الله الشاعر العربي الذي يقول:

إذا طمَحَتْ للمعالي النفوسُ   فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ[١]

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) البيت للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي. وقد ورد بلفظ: إذا طمحت للحياة النفوس، وهو آخر بيت من قصيدته التي أولها: إذا الشعب يوماً أراد الحياة، ومعنى البيت في مطلع القصيدة وخاتمتها صحيح، والمراد: إذا الشعب أخذ بأسباب الحرية والنصر؛ فإن الله سبحانه يحقق له مطلبه، وينجح مسعاه، فإن من سنن الله وقَدَرِه الجاري أن مَن نصرَ اللهَ نصرَهُ اللهُ، ومن أخذ بالأسباب استجاب له، وكل ذلك من قَدَر الله.

حول موضوع (القرآن بحث علمي تاريخي أثري)[1]

لصديقنا الأديب الفاضل فيليب دي طرازي[2]

قال في مطلع موضوعه المنشور في الجزء ٩ و ١٠ من المجلد التاسع عشر:

«لما بُويع عثمان بن عفّان رضي الله عنه بلغه أنّ المسلمين اختلفوا في قراءة القرآن قدر اختلافهم في لهجاتهم فلم يرَ إلّا أن يجمع آياته ويَضْبطها بلغة قريش التي أنزل بها القرآن، ثم كتب أربع نسخ منه، بعث إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية بنسخة...» إلخ.

فقول الصَّديق: إنّ عثمان رضي الله عنه لم يرَ إلّا أن يجمع آياته ويضبطها ليس الأمر كذلك، وإليك الحقيقة بصورة ملخّصة:

قال الجلال السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن» في النوع الثامن عشر: قال الحاكم في «المستدرك»: جُمع القرآن ثلاث مرات: إحداها بحضرة النبي ﷺ. ثم أخرج بسنده على

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء الخامس والسادس، من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

(٢) فيليب بن نصر الله دي طرازي، ولد في بيروت سنة (١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م) من أسرة يرتقي منشؤها إلى حلب، وعمل أميناً لدار الكتب الوطنية مدة عشرين عاماً، وكان وثيق الصلة بالتيارات الفكرية والأدبية، وتربطه علاقات وثيقة بمشاهير الأدباء والمؤلفين العرب في زمانه. له عدد من المؤلفات في مجال التاريخ، أشهرها: «تاريخ الصحافة العربية» في أربعة أجزاء، طبعت الأجزاء (١-٣) في المطبعة الأدبية ١٩١٣، والجزء (٤) في المطبعة الأميركية ببيروت ١٩٣٣. توفي بمصيفه بعاليه بلبنان سنة (١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م) عن ٩١ عاماً.

شرط الشيخين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرِّقاع... الحديث.

قال البيهقي: يشبه أن يكون المراد بتأليفه: ما نزل من الآيات المفرَّقة في سورها وجمعها بإشارة النبي ﷺ.

الثانية: بحضرة أبي بكر رضي الله عنه. وأطال الكلام في بيان ذلك، ثم قال:

والجمع الثالث: هو ترتيب السُّور في زمن عثمان رضي الله عنه، وكان ذلك في سنة خمس وعشرين. وأطال في بيان ذلك، فهذا صريحٌ في أنَّ الذي كان في زمن عثمان رضي الله عنه هو ترتيب السور، وبعد ترتيبها كتب عدَّة مصاحف وأرسلها إلى الآفاق. وهذا البحث وسّعت الكلام فيه في كتابي: «الثّقافة الإسلامية»، وهو بعد في عداد المخطوطات[1].

وقول الصَّديق: إنّه كتب منه أربع نسخ، أيضاً مخالف للحقيقة، فالمصاحف التي كُتبت وأُرسلت إلى الآفاق هي سبعة، ذكرها الحافظ ابن كثير في كتابه «فضائل القرآن»، وهي:

المصاحف[2] ١ ـ لمكة، ٢ ـ للبصرة، ٣ ـ للكوفة، ٤ ـ للشام، ٥ ـ لليمن، ٦ ـ للبحرين، ٧ ـ أبقاه في المدينة.

ثمّ قال الحافظ ابن كثير: «وأمّا المصاحف العثمانية الأئمّة، فأشهرها اليوم الذي في الشّام بجامع دمشق عند الرّكن شرقيّ المقصورة المعمورة بذكر الله سبحانه وتعالى، وقد كان قديماً بمدينة طبرية، ثمّ نُقل منها إلى دمشق في حدود عشرة وخمس مئة. وقد رأيته كتاباً

(١) ثم طبع كما تقدَّم في ترجمته، وتجد كلامه عن جمع القرآن وترتيبه، وكتابة المصاحف، وإرسالها إلى الآفاق، وسبب ذلك في كتابه «الثقافة الإسلامية» ص٣٨-٥٠.

(٢) في «فضائل القرآن» ص ١٤٢: المصاحف التي نفذها عثمان إلى الآفاق...

عزيزاً جليلاً عظيماً ضخماً بخطٍّ حَسَن مبين بحبر مُحْكَم في رقّ أظنّه من جلود الإبل، والله أعلم». انتهى.

أمّا المصحفان اللذان أُرسلا إلى اليمن والبحرين فيذكر لنا الحافظ القاضي ابن العربي الأندلسي في كتابه: «أحكام القرآن» (ص ٤٢٦): أنّه لم يُسمع لهما خبر[1].

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) ينظر: «الثقافة الإسلامية» للطباخ ص٥٠.

الالتجاء إلى الله في كشف الكُرَب[1]

للأستاذ الشيخ راغب الطباخ

محدِّث الشهباء ومؤرِّخها وعضو المجمع العلمي

إنَّ هذا الإنسان مُؤلَّفٌ من جسد وروح، وتعتريهما الأسقام والأمراض، فلا بُدَّ لهما من المُدَاواة فأمرنا الشرع بمداواة هذه الأمراض بأشياء مادية ومعنوية تدرأ السَّقام فيتمكن هذا الإنسان من القيام بما فيه نفعه من أمور دينه ودنياه.

ومن جملة ما يعتريهما من الأمراض ثمانية أشياء:

الهم، الحزن، العجز، الكسل، الجبن، البخل، غلبة الدَّيْن، قهر الرجال.

وقد أمرنا أن نتعاطى الأسباب في إزالتها عنا؛ لما في بقائها فينا واستحكامها في جسمنا وروحنا من التأثير العظيم فيها.

ومن جملة تلك الأدوية؛ دواءٌ علَّمه النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابه مُشْتملٌ على التعوُّذ منها والالتجاء إلى الله في كشفها عنا.

وهذا الدعاء رواه الإمام أبو داود، والإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام الترمذي، والإمام النسائي، والإمام أحمد.

ونصُّه في «سنن أبي داود» في آخر كتاب الصَّلاة ج٢ ص٩٣، وهو مشتمل على بيان

---

(١) مجلة «التمدن الإسلامي» الدمشقية، العددان ٣ و٤ من السنة الرابعة عشرة: (جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ = نيسان ١٩٤٨م).

سبب وروده قال بعد أن ساق السند: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قال دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار، يقال له: أبو أُمامة، فقال: يا أبا أُمامة ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصَّلاة؟ قال: هموم لزمتني وديونٌ يا رسول الله.

قال: أفلا أُعلِّمك كلاماً إذا أنت قُلْته، أذهبَ اللهُ عزّ وجل همَّك، وقضى دَيْنك؟ قال: قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: قُلْ إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ: «**اللهمَّ إني أعوذُ بك من الهمِّ والحَزَن، وأعوذُ بك من العَجْز والكسل، وأعوذُ بك من الجُبْن والبخل، وأعوذ بك من غَلَبة الدَّيْن وقهر الرجال**». قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عزّ وجل همِّي وقضى ديني[1]. انتهى.

ونصُّه في «صحيح البخاري» في كتاب الدعوات في باب التَّعوّذ من غلبة الرجال، وفي باب الاستعاذة من الجبن والكسل، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أسمع النبي ﷺ يُكثر أن يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منَ الهَمِّ والحَزَنِ والعَجْزِ والكسَلِ والبُخلِ والجُبنِ وضَلَعِ الدَّيْنِ وغَلَبةِ الرِّجال». وأخرجه مسلم في الدعوات[2].

ولنشرح هذه الجمل الأربع المشتملة على هذه الأشياء الثمانية:

الجملة الأولى: قوله ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذ بك من الهم والحزن».

أما الهمُّ: فهو توقُّع المكروه. **وأما الحزن**: فهو تحسُّر القلب على ما فات، وهو ضد السرور.

---

(١) رواه أبو داود في فضائل القرآن (١٥٥٥)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٣٠٥)، وقال الحافظ في «نتائج الأفكار» (٢: ٣٩٧): هذا حديث غريب.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٢٥)، و مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٦)، كما رواه أحمد (١٢٦١٦)، وأبو داود في الصلاة (١٥٤١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٤)، والنسائي في الاستعاذة (٥٤٤٩)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال الخطَّابي: وأكثر الناس لا يفرقون بين الهم والحزن، بل يجعلونه من باب التكرير والتأكيد.

والفرق بينهما: أنَّ الهم إنما يكون في أمر متوقَّع، والحزن إنما يكون في أمر قد وقع، فالأول للاستقبال، والثاني للماضي. انتهى.

وقيل: الفرق بينهما بالشدّة والضعف، فالهمُّ أشدُّ على النفس من الحزن لما يحصل بينهما من الغم. انتهى.

وحاصل الأمر ثلاثة أشياء: هم وغم وحزن، فالأول: هو الكرب، الذي يحصل عندما يتوقع حصوله بما يتأذى به، والثاني: ما يحصل للقلب بسبب ما حصل، والثالث: هو ما يحصل بسبب ما يشقُّ على الشخص فَقْده وامتناع عنه. انتهى[١].

وقال أبو هلال العسكري[٢]: الفرق بين الهم والغم: أنَّ الهمَّ هو الفكر في إزالة المكروه واجْتلاب المحبوب، وليس هو من الغمِّ في شيء. ألا ترى أنك تقول لصاحبك: اهتم في حاجتي ولا يصح أن تقول: اغتمَّ بها، والغمُّ معنى ينقبض القلب معه، ويكون لوقوع ضرر قد كان، أو توقع ضرر يكون أو يتوهمه، وقد نسمِّي الحزن الذي تطول مدَّته حتى يذيب البدن هماً.

واشتقاقه من قولك: انْهَمَّ الشّحمُ: إذا ذاب. وَهَـمَّه: إذا أذابه.

---

(١) من «السبيل الأقوم في شرح الحزب الأعظم»، تأليف العالم الفاضل الشيخ صادق عاصم الحلبي المتوفى سنة ١٣٤٣، وهو في ثلاثة مجلدات، وهو في خزانتي نسخة المؤلف بخطه، وهي الوحيدة، وقد حرَّرت له ترجمة على ظاهر النسخة، و«الحزب الأعظم» هو لملَّا علي القاري، المتوفى سنة ١٠٦١ (هكذا، ويقصد الشيخ ١٠١٦ والصواب: ١٠١٤)، وقد طبع مراراً على هامش «دلائل الخيرات»، وعلى حِدَة (الطباخ).

(٢) في كتاب «الفروق اللغوية» ص٢٢٠.

والفرق بين الحزن والكرب: أنَّ الحزن تكاثف الغم وغلظه، مأخوذ من الأرض الحَزَن، وهو الغليظ الصّلب، **والكرب**: تكاثف الغم مع ضيق الصدر، ولهذا يقال لليوم الحار: يوم كرب، أي: كَرُب من فيه، وقد كرب الرجل وهو مكروب، وقد كربه إذا غمَّه وضيق صدره. انتهى.

قال في «السبيل الأقوم»: «واعلم أنَّ الهمَّ يذيب بدن الإنسان كما يُذيب الماء الملح، وهو عامٌّ في الدنيا والآخرة، لكن هموم الآخرة محمودة فلا يُستعاذ منها، بل هي مطلوبة، فقد وَرَدَ: «من جَعَل الهموم هماً واحداً همَّ الدِّين كفاه الله همَّ الدنيا والآخرة»[1].

وفي تأثير الهمّ في البدن يقول أبو الطيب المتنبي:

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نَحَافةً ... ويُذيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِمُ

وفي دفعه عن الفكر والتعوُّذ بالله منه يقول لنا العلَّامة محمد بن الحسن الكواكبي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٦ «ناظم الأصول والفروع»[2]، وضممنا في الآخر بيتَي الشيخ أبي العباس المرسي كما في آخر كتاب: **«حل العقال»** للأديب الفاضل الشيخ عبد الله الحجازي الحلبي:

حــتَّــامَ في لـيـل الهـمـو ... مِ زِنــادُ فـكـرِكَ ينقدِحْ

---

(١) رواه ابن ماجه في «الزهد» (٤١٠٦)، بلفظ «من جعل الهموم همًّا واحدًا، هم المعاد، كفاه الله هم دنياه». وقال الأرناؤوط: إسناده تالف. ورواه الحاكم في الرقاق (٢: ٤٤٣)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١٦٦)، ولفظه: «من جعل الهموم همًّا واحدًا، كفاه الله همَّه، من أمر دنياه وآخرته، وجعل غناه في قلبه»، وصححه الأرناؤوط: أثناء تخريج حديث ابن ماجه.

(٢) في الأصول الحنفي والفقه الحنفي مع شرحيهما للمؤلف نفسه، كنت طبعتهما في مصر في مجلدين سنة ١٣٢٢ منظومة الأصول في نحو ألفي بيت والفروع في نحو خمسة آلاف بيت، والنَّظمان رائعان جداً (الطباخ).

قــلــبٌ تحــرَّق بـالأسـى ودمـــوعُ عـــينٍ تنسفِحْ
ارفُــقْ بنفسكَ واعتصِمْ بِحِمى المهيمِنِ تنشَرِحْ
واضْرَع له إنْ ضَـاقَ عنـ ـك خناقُ حالـكَ ينفسِحْ
مـا أمَّ سـاحـةَ جـودِهِ ذو مـحـنـةٍ إلا مُـنِـحْ
أو جـاءهُ ذو المُعضِلا ت بـمُـغْـلَـقٍ إلا فُـتِـحْ
فَدَع السِّوى وانهج على الـ ـنهج الـسـويِّ المتَّضِحْ
واسـمـع مـقـالـةَ نـاصـحٍ إن كنتَ مِـمَّـن ينتصِحْ
(مـا كـان إلا مـا يريـ ـدُ فـدَعْ مـرادَكَ وانْطَرِحْ)
(واتـرُكْ وسـاوِسَـكَ التي شغَلت فـؤادَكَ تـسـتَرِحْ)

وقال الراغب الأصفهاني في «مفردات القرآن» ما خلاصته: «الحَزَن والحُزْن: خشونةٌ في الأرض، وخشونةٌ في النفس لما يحصل فيه من الغمِّ. ويُضادُّه الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خَشَنَتْ بصدره: إذا حَزَنْته يقال: حزن يحزن وأحزنته وأحزنته، قال عزّ وجل: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]. وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠]. وليس ذلك بنهيٍ عن تحصيل الحزن، فالحزن ليس يحصل بالاختيار، ولكن النهي في الحقيقة إنما هو عن تعاطي ما يُورِثُ الحزن واكتسابه، وإلى معنى ذلك أشار الشاعر بقوله:

ومَـنْ سرَّهُ أن لا يرى ما يسـوؤهُ فـلا يتَّخـذْ شـيئاً يُبـالي لـه فَقْدا

علاج الحزن:

قال ابن مسكويه في آخر كتابه «تهذيب الأخلاق» تحت عنوان: «الحزن ألمٌ

نفسانيٌّ يعرض لفقد محبوب أو فَوْت مطلوب»: وسَبَبُه: الحرصُ على القنيات الجسمانية، والشَّرَه إلى الشهوات البدنية، والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها، وإنما يحزن ويجزع على فقد محبوباته وفَوْت مطلوباته من يظنّ أن ما يحصل له من محبوبات الدنيا يجوز أن يبقى ويثبت عنده، أو أنَّ جميع ما يطلبه من مفقوداتها لابدَّ أن يحصل له ويصير في ملكه، فإذا أنصف نفسه وعلم أنَّ جميع ما في عالم الكون والفساد غير ثابت ولا باق، وإنما الثابت الباقي هو ما يكون في عالم العقل لم يطمع في المحال ولم يطلبه، وإذا لم يطمع فيه لم يحزن لفقد ما يهواه، ولا لفوات ما يتمنَّاه في هذا العالم، وصَرَف سَعْيَهُ إلى المطلوبات الصَّافية، واقْتَصَر بهمَّته على طلب المحبوبات الباقية، وأعرض عمَّا ليس في طبعه أن يثبتَ ويبقى، وإذا حَصَل له منه شيءٌ بادر إلى وضعه في موضعه، وأخذ منه مقدار الحاجة إلى دفع الآلام التي أحصيناها من الجوع والعُري والضرورات التي تشبهها، وترك الادِّخار والاستكثار، والتماس المباهاة والافتخار، ولم يُحدِّث نفسه بالمكاثرة بها والتَّمنِّي لها، وإذا فارقته لم يأسف عليها ولم يُبال بها، فإنَّ مَنْ فعل ذلك أمن فلم يجزع، وفرح فلم يحزن، وسعد فلم يَشْقَ، ومن لم يقبل هذه الوصيَّة، ولم يُعالج نفسه بهذا العلاج، لم يزل في جَزَع دائم وحزن غير منتقص، وذلك أنه لا يعدم في كل حال فَوْت مطلوب أو فقد محبوب، وهذا لازم لعالمنا هذا، لأنه عالم الكون والفساد، ومَنْ طمع من الكائن الفاسد أن لا يكون ولا يفسد فقد طمع في المحال، ومن طمع في المحال لم يزل خائباً.

والخائب أبداً محزون، والمحزون شقيٌّ، ومن اسْتشعر بالعادة الجميلة، ورضيَ بكلِّ ما يجده ولا يحزن لشيء يفقده لم يزل مسروراً سعيداً.

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أنَّ هذا الاستشعار لا يتمُّ له أو لا ينتفع به، فلينظر إلى استشعارات الناس في مطالبهم ومعايشهم واختلافهم فيها بحسب قوة الاستشعار فإنه سيرى رؤية بيِّنةً ظاهرةً فرح المنعشين بمعايشهم على تفاوتها، وسرور أصحاب الحرف المختلفة بمذاهبهم

على تَـبَاينها، وليتصفّح ذلك في طبقة من طبقات الدَّهْماء، فإنه لا يخفى عليه فرح التاجر بتجارته، والجندي بشجاعته، والمقامر بقماره، والشاطر بشطارته، والمخنَّث بتخَنُّثه، حتى يظن كل واحد منهم أنَّ المغبون من عُدِمَ تلك الحالة حتى فقد بهجتها، والمجنون من غَبِيَ عنها فحُرم لذَّتها، وليس ذلك إلا لقوَّة استشعار كل طائفة بِحُسْن مذهبها ولزومها إيَّاه بالعادة الطويلة، وإذا لزم طالب الفضيلة مذهبه، وقوي استشعاره، وحَسُن رأيه، وطالت عادته كان أوْلى بالسرور من هذه الطبقات الذين يخبطون في جهالاتهم، وكان أحظاهم بالنعيم المقيم لأنه مُحِقٌّ وهم مُبْطلون، وهو مُتيقِّنٌ وهم ظانُّون، ثم هو صحيح وهم مرضى، وهو سعيد وهم أشقياء، وهو وليُّ الله عزّ وجل وهم أعداؤه، وقد قال الله عزَّ من قائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

الجملة الثانية: قوله ﷺ: «وأعوذ بك من العجز والكسل».

أما العجز: فهو ضد القدرة. وفي الأصل: التأخُّر عن الأمر، ثم استعمل في مقابلة القدرة أي: عدم القدرة على تحصيل الكمالات وفعل الخيرات والمبرَّات.

وأما الكسل: فهو ضد الجلادة، وهو التثاقل عما لا ينبغي التثاقل عنه، ويكون لعدم انبعاث النفس إلى الخير وقلة الرغبة فيه مع القدرة عليه وظهور الاستطاعة لفعله، وقد ذمَّ الله المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢]. فمن كان عنده كَسَل من جهة تعب أو مرض أو كبَر سنّ فلا يدخل في هذا الذم. انتهى من «السبيل الأقوم».

الجملة الثالثة: قوله ﷺ: «وأعوذ بك من الجُبْن والبخل».

أما الجُبْن: بضم الجيم وسكون الباء أو ضمها فهو صفة الجبان، وهو ضد الشجاعة، وهو ضعف القلب عن تعاطي الحرب ونحوها خوفاً على المهجة وحرصاً على الحياة.

والمراد به هنا: الخوف من العدو بحيث يمنعه عن المحاربة معه، أو يحمله على موافقته والتنازل له عن حقوقه المخِلّة في دينه أو دنياه أو مقامه، لا سيما إذا كان مُطَاعاً في قومه كأمير وسلطان.

وهذا التَّعوُّذ يشمل ويعمُّ العدوَّ الصُّوري وهو الكافر، والعدوَّ المعنوي وهو الشيطان والهوى والنفس، وإنما استعاذ ﷺ من الجبن لأنه يؤدِّي إلى عذاب الآخرة كأن يفرَّ من الزحف، فيدخل تحت وعيد قوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

وربما يُفْتن عن دينه بجُبن أدركه خوفاً على مهجته وحرصاً على حياته من الأَسْر والعبودية، فأرشد ﷺ أمته إلى أهم الأدعية. ثبَّتنا الله على دينه القويم.

وأما الشجاعة فهي فضيلة قوة الغضب وانقيادها إلى العقل. انتهى من «السبيل الأقوم».

وقال الوطواط في «غرر الخصائص الواضحة»: الجبن غريزة كالشجاعة، يضعها الله فيمن شاء من خلقه. قال المتنبي:

يـرى الجُبَنـاء أنَّ الجُبْـنَ حَـزمٌ وتلـك خديعـةُ الطبـعِ اللئيـمِ

وَحَدَّه بعض المتكلمين، فقال: هو الضَّنُّ بالحياة والحرص على النجاة.

وقالوا: الجبان يعين على نفسه، يفرُّ من أمه وأبيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «إنَّ لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها، فأفٍّ للجبناء».

وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه عند موته: «لقيتُ كذا وكذا زحفاً وما في جسدي موضعٌ إلا وفيه ضربةٌ بسيف، أو طعنةٌ برمح، أو رميةٌ بسهم، وها أنذا أموت حتف أنفي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء».

وقال هانئ الشيباني لقومه يوم ذي قار: «يا بني بكر: هالك معذور خير من ناج فرور، المنيَّة ولا الدنيَّة، يا بني بكر: استقبال الموت خيرٌ من استدباره، الطعن في ثغور النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا بني بكر: قاتلوا فما لنا من المنايا بُدٌّ، الجبانُ مُبْغَض حتى لأمِّه، والشجاع مُحبَّب حتى لعدوه».

وقال ابن مسكويه في «تهذيب الأخلاق وتطييب الأعراق»: «والذي يتلو معالجة الغضب من أمراض النفس: معالجة الجبن الذي هو الطرف الآخر من صحَّتها، ولما كانت الأضْداد يُعرف بعضها من بعض، وقد عرفنا الطرف الذي حدّدناه بحركة للنفس عنيفة قوية يحدث منها غليان دم القلب شهوة للانتقام فقد عرفنا إذاً مقابله، أعني الطرف الآخر الذي هو سكون النفس عندما يجب أن تتحرَّك فيه، وبطلان شهوة الانتقام، وهذا هو سبب الجبن والخور.

وتتبعهما إهانة النفس وسوء العيش، وطمع طبقات الأنذال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين، وقلَّة الثبات والصبر في المواطن التي يجب فيها الثبات، وهما أيضاً سبب الكسل ومحبَّة الراحة اللذَين هما سبب كلِّ رذيلة، ومن لواحقهما: الاستجداء لكلِّ أحد والرضا بكلِّ رذيلة وضَيْم، والدخول تحت كل فضيحة في النفس والأهل والمال، وسماع كل قبيحة فاحشة من الشَّتم والقذف، واحتمال كلِّ ظلم من كلِّ معامل، وقلَّة الأَنفة مما يأنف منه الناس.

وعلاج هذه الأسباب واللواحق يكون بأضدادها، وذلك بأن تُوقظه النفس التي تمرض هذا المرض بالهزِّ والتَّحريك فإنَّ الإنسان لا يخلو من القوة رأساً حتى تجلب إليه من مكان آخر، ولكنها تكون ناقصة عن الواجب فهي بمنزلة النار الخامدة التي فيها بقية لقبول الترويح والنفخ فهي تتحرَّك لا محالة إذا حُرِّكت بما يلائمها، وتبعث ما في طبيعتها من التَّوقُّد والتَّلهُّب». انتهى.

وقال الشّيخ محمد عبده رحمه الله تعالى في مقالته «الجبن» كما في «تاريخه» ص ٣٢٨: «ماذا يقعد بالنفوس عن العمل، ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل، إذا ردَّت المُسبَّبات إلى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها؟ وجدنا لهذا علَّة هي أم العلل ومنشأ يقرن به كل خلل: الجبن.

الجبن، هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءَها، وهو الذي قطع روابط الأمم فحَلَّ نظامها، هو الذي وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم، وأضعفت قلوب العالمين فسقطت صروحهم، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين، ويُسهِّل على النفوس احتمال الذلة، ويخفِّف عليها مَضَض المَسْكَنة، ويهوِّن عليها حمل نِير العبودية الثقيل، يُوطِّن النفس على تلقِّي الإهانة بالصبر، والتَّذليل بالجَلَد، ويوطئ الظهورَ الجاسية[1] لأحمالٍ من المصاعب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التَّحلِّي بالشجاعة والإقدام.

الجبن؛ هو الذي يُلبس النَّفس عاراً دون القُرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمَّة عليَّة، ويرى الجبان وَعْرَ المذلَّات سهلاً، وشَظَف العيش في المسكنات رفهاً ونعيماً.

من يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ... مَا لـجُـرْح بِميِّتٍ إيـلامُ

---

(١) جاسية: جَسَا ضِدُّ لَطُفَ، وجَسَا الرجلُ جَسْواً وجُسُوّاً: صَلُبَ. لسان العرب.

لا بل يَتَجرَّع مرارات الموت في كل لحظة، ولكنه راضٍ بكلِّ حال، وإن لم يبق له إلا عين تُبصر الأعداء ولا ترى الأحياء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء، وإحساس لا يلمُّ به إلا ألم الأدواء.

هذه حياته أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء، وهو يظنُّ أنه أدرك البغية وحصل الـمُنْيَـة.

ما هو الجبن؟ انخذال في النفس عن مقاومة كلِّ عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الأمراض الروحيَّة، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعيَّة، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كلٍّ منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت.

الموت مآل كلِّ حي، ومصير كلِّ ذي روح، ليس للموت وقتٌ يُعرف ولا ساعة تُعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر، ينتظر في كلِّ لحظة، ولا يعلن إلا مقدار الآجال، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

يشتدُّ الخوف من الموت إلى حدٍّ يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعدَّه الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خُلقت لأجله.

نعم يَغْفل الإنسان عن نفسه فيظنُّ ما جعله واقياً للحياة وهو الشجاعة والإقدام سبباً في الفناء، يحسب الجاهل أنَّ في كل خطوة حتفاً، ويتوهَّم أن في كل خطرة خطراً، مع أنَّ نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانيَّة، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بآمالهم، وما ذلَّلوا من المصاعب في سَيْرهم، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات

غيْلان، ووساوس شياطين، غشيته فأدهشته، وعن سبيل الله صدَّته، ومن كل خير حرمته.

الجبن، فخٌّ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس الإنسان، وتلتهم به الأمم والشعوب، وهو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله، ويصدُّهم عن سبيله، هو عِلَّة كلِّ رذيلة، ومنشأ لكلِّ خَصْلة ذميمة، لا شقاء إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر إلا وهو باعثه ومُوجبه، مُـمزِّق الجماعات، ومُقطِّع روابط الصِّلات، هازم الجيوش، ومُنكِّس الأعلام، ومُهْبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة.

ماذا يحمل الخائنين على الخيانة في الحروب الوطنية؟ أليس هو الجبن، ماذا يبسط أيدي الأدنياء لدنيئة الارتشاء؟ أليس هو الجبن، ربما تتوهَّم بُعْدَ المثال فتأمل الخوف من الفقر يرجع بالحقيقة إلى الخوف من الموت، وهو علَّة الجبن، سَهُلَ عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الأمراض المفسدة لمعيشة الإنسان.

الجبن عار وشَنَار على كلِّ ذي فطرة إنسانية، خصوصاً الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويؤمِّلون أن ينالوا جزاءً لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً.

ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبن) فإنها أشدُّ الموانع عن أداء ما يُرضي الله، وإنهم لا يبتغون إلا رضاه.

يعلم قُـرَّاء القرآن أن الله قد جعل حُبَّ الموت علامةَ الإيمان، وامتحن الله به قلوب المعاندين، ويقول في ذمِّ من ليسوا مؤمنين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].

الإقدام في سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أول سِمَة يتَّسم بها

المؤمنون. لم يكتف الكتاب الإلهي بأن تُقامَ الصَّلاة وتُؤْتى الزكاة وتكف الأيدي، وعدَّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المنافقون، بل جَعَل الدليل الفرد هو بذل الروح في إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهي، بل عدَّه الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده.

لا يظنُّ ظانٌّ أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد. كيف يمكن هذا وكلُّ جزء من هذا الدين يُمثِّل الشجاعة ويُصوِّر الإقدام، وإنَّ عماده الإخلاص لله، والتَّخلِّي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه.

المؤمن مَن يؤمن أنَّ الآجال بيد الله يُصرِّفها كيف يشاء، ولا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه.

المؤمن مَنْ لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الـحُسْنَيَيْن: إما أن يعيش سيداً عزيزاً، وإما أن يموت مقرَّباً سعيداً، وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالكروبيين[١] والملائكة المقرَّبين.

مَنْ يتوهَّم أنه يجمع بين الجبن والإيمان بما جاء به محمد ﷺ فقد غشَّ نفسه وغرَّر بعقله، ولعب به هوسه، وهو ليس من الإيمان في شيء.

كلُّ آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الإيمان، لهذا نؤمِّل من وَرَثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق، ويُذكِّروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته والنَّهي عن التباطؤ والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك.

وفي الظنِّ أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن هذا المنكر)، زمناً قليلاً وَوَعظوا الكافَّة بتبيين معاني القرآن الشريف وإحيائها في أنفس المؤمنين، رأينا لذلك أثراً في هذه الملَّة يبقى ذكره أبد الدهر، وشهدنا لها يوماً تسترجع فيه مَجْدَها في هذه

---

(١) هم سادة الملائكة أو حملة العرش.

الدنيا وهو مجد الله الأكبر، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكَّن من أفئدتهم من آثار العقائد، لا يحتاجون إلا لقليلٍ من التنبيه ويسير من التذكير، فينهضون نهضة أسود فيستردون مفقوداً ويحفظون موجوداً، وينالون عند الإله مقاماً محموداً».

وأما البخل: فقد قال في «السبيل الأقوم»: «هو ضدّ الكرم، وهو في الأصل: منع السائل المحتاج عما فضل عن الحاجة، وفي الشرع: منع الواجب من حقوق المال.

وقيل: هو عام في أيِّ شيء كان من الخير سواء كان مالاً أو علماً أو جاهاً أو قوة أو غير ذلك، ولما كان الجودُ والكرمُ إما بالنفس أو بالمال، ويُسمَّى الأول: شجاعة ويُقابلها الجبن، ويُسمَّى الثاني: سَخَاوة ويُقابلها البخل. ولا تجتمع السخاوة والشجاعة إلا في نفس كاملة، ولا ينعدمان إلا من نفس متناهية في النقص، استعاذ ﷺ من ذلك ليُرشد أمته إلى أهم الدعاء». انتهى.

وقال الراغب الأصفهاني: «البخل: إمساك المقتنيات عمَّا لا يحقُّ حبسها عنه، ويقابلها الجود، يقال: بخل فهو باخل، وأما البخيل كالرحيم من الراحم.

والبخل ضربان: بخل بقنيات نفسه، وبخل بقنيات غيره، وهو أكثرهما ذماً.

دليلنا على ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

وقال الوطواط «في غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة»: «ومما جاء في البخل قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

قال بعض أهل المعاني: إنما خصَّ هذه الأعضاء دون غيرها بالذكر لأنَّ السائل إذا سأل البخيل زَوَى عنه وجهه، فإن ألحَّ ازْورَّ عنه بشقٍّ جَنْبه الذي يليه، فإنْ ألحَفَ ولَّاه ظهره.

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: البخيل يتعجَّل الفقر لنفسه، يعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويُحاسَبُ في الآخرة حساب الأغنياء.

وقال حكيم: لو أنَّ أهل البخل لم يَدْخُلْ عليهم من ضَيْر بُخْلهم ومَذَمَّة الناس لهم وإطباق القلوب على بُغْضهم إلا سوء الظن بربِّهم في الخُلْف لكان عظيماً فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]. وكفى بالبخيل مَعَرَّة أن يمنع نفسه اكتساب الحسنات مع افتقاره إليها، ويحرمها مُباح الشهوات مع اقتداره عليها، وربما ترك التَّداوي وإن أجْحَفت به العلَّة، وأهمَلَ دفع المكاره عن نفسه، وقد نيطت به المذلة لكثرة الإشفاق على الإنفاق، فهو لا يلقى في الدنيا شكوراً، ولا يلقى في الآخرة أجراً مدَّخراً.

وقالوا: البخل من سُوء الظنّ، وخمول الهمَّة، وضعف الرويَّة، وسُوء الاختيار، والزّهد في الخيرات.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: البخل جامعُ المَسَاوئ والعيوب، وقاطع المودات من القلوب.

وقالوا: البخل يهدم معاني الشَّرف ويسوقُ النفس إلى التلف.

وقالوا: البخيل لا يستحقُّ اسمَ الحريَّة فإنه يملكه ماله.

وقالوا: البخيل لا مال له وإنما هو لماله.

وقال الحسن البصري: لم أر أشقى بماله من البخيل لأنه في الدنيا مهتمٌّ بجمعه، وفي الآخرة مُحاسب على منعه، غير آمن في الدنيا من همِّه، ولا ناج في الآخرة من إثمه. عيشه في الدنيا عيش الفقراء، وحسابه في الآخرة حساب الأغنياء، أخذه من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه المتقدِّم.

الجملة الرابعة قوله ﷺ: «وأعوذُ بك من غَلَبة الدَّيْن وقهر الرجال».

أما غَلَبَة الدَّيْن: فهو قَهْره وقَهْر أصحابه حيث لا قُدرة له على وفائه.

وقد وَرَدَ: «الدَّين شَيْن»[1] أي: يشين صاحبه لخروجه عن حدِّ الاعتدال والاستقامة، ولما يلحق صاحبه من المذلة والانكسار. وعن بعضهم: ما دَخَل همُّ الدين قلباً إلا وذهب من العقل ما لا يعود أصلاً وأبداً.

وفي رواية: «وضَلَع الدَّيْن» بفتح الضاد واللام، وهو ثِقَلُهُ وشدَّته حتى يميل صاحبه عن حدِّ الاستواء والاستقامة، بحيث يُطالب به ولا قُدرةَ له على وفائه.

وأما قهر الرجال: فهو جَوْرُ السُّلطان، وتَسَلُّط الرجال واستيلاؤهم هَرَجاً ومَرَجاً مثل غَلَبة العوام والأوباش.

ويحتمل أن يُراد بقهر الرجال: الدائنون، فيكون استعاذته ﷺ من الدَّيْن ومن غَلَبة أصحابه مع العجز عن وفائه. من «**السبيل الأقوم**».

قال فيه بعد ذكره بعض رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «وعليه فيكون الحديث المذكور مَسُوقاً لذهاب الهمِّ وقضاء الدَّين، ومن الأذكار التي هي للصباح والمساء، وقد علمت أن التقييد بهما واقعيٌّ وأغلبيٌّ فينبغي الإكثار من هذا الذّكر في وقت

---

(١) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٠١٧)، ولفظه: «الدين شين الدين»، عن مالك بن يخامر مرسلاً، ورواه القضاعي في «الشهاب» (٣١)، عن معاذ بن جبل.

الصباح والمساء وغيرهما خصوصاً لمن ابتلي بالهمِّ والدَّيْن فإن الله تعالى يذهب عنه همّه، ويقضي دَيْنه، ويفرِّج عنه ببركته ﷺ». انتهى.

وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حجر: «قال الكرماني: هذا الدعاء من جوامع الكلم، لأنَّ أنواع الرذائل ثلاثة: نفسانيَّة، وبدنيَّة، وخارجيَّة، فالأولى بحسب القوى التي للإنسان وهي ثلاثة: العقليَّة، والغضبيَّة والشهوانيَّة، فالهمُّ والحزن يتعلَّقان بالعقلية، والجبن بالغضبيَّة، والبخل بالشهوانيَّة، والعجز والكسل: بالبدنيَّة، والثاني[١]: يكون عند سلامة الأعضاء وتمام الآلات والقوى، والأول[٢]: عند نقصان عضو ونحوه، والضَّلَع والغَلَبة بالخارجيَّة، فالأول مالي[٣]، والثاني[٤] جاهي، والدعاء مشتملٌ على جميع ذلك»[٥]. انتهى.

محمد راغب الطباخ

* * *

---

(١) أي: الكسل.
(٢) أي: العجز.
(٣) ضلع الدَّين.
(٤) غلبة الدَّين.
(٥) «فتح الباري» (١١: ١٧٤) السلفية.

الفصلُ الثّاني
مقالاتٌ وتحقيقاتٌ تاريخيَّة

١ ـ المياه في حلب.

٢ ـ المدرسة المستنصرية.

٣ ـ صناعة الزجاج في الحضارة العربية.

٤ ـ تصحيح قصة (عدم صحة لقاء أسامة بن منقذ بأبي العلاء بالمعري).

٥ ـ منبر المسجد الأقصى في القدس الشريف.

٦ ـ تحقيقات هامة واكتشاف خطير عن قبر أبي العلاء المعري.

٧ ـ دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً.

٨ ـ الرَّصافة والرَّقة.

٩ ـ قاعة دار الحفَّاظ.

١٠ ـ افتراء ابن بطوطة على ابن تيمية.

١١-١٢ ـ حول قبر معاوية.

١٣ ـ رأس يحيىٰ ورأس زكريا عليهما السلام.

١٤ ـ المدارس في الإسلام.

١٥ ـ فرنسا والشرق العربي.

المياه في حلب[1]

من المعلوم أنَّ اللهَ تعالى جَعَل حياةَ كافَّةِ الأشياء من الماء، فكان به قوام الموجودات من الحيوانات والنباتات، وضرورياً لبقاء أنواعها، وبه عمارة الأرض والبلاد، ومفتاح أبواب النجاح للعباد.

وقد جَرتْ عادةُ الله أنَّ كلَّ أرض كثُرَ ماؤها، وكان أهلها من ذوي الجدِّ والنشاط أن يبثَّ فيهم روح النَّماء والثروة مكافأةً لهم على قيامهم في خدمة أرضه، وسعيهم في عمارتها، أو بقدر ما تغزُر ثروتهم ويكثر عددهم، تعظم حضارتهم وتنمو معارفهم.

انظر إلى بيروت ـ بعد أن كانت بلدةً صغيرة الحجم، قليلةَ العدد، ضعيفة التجارة، قليلة الثروة ـ كيف أصبحت بعد جلب الماء إليها بلدة عظيمة، تتهافت الناس عليها، فشُيِّدت فيها البنايات، واتَّسعت فيها التجارات، وانبجست فيها عيون المعارف، وتقدَّمت بمدة وجيزة تقدُّماً باهراً بظلِّ الحضرة العليَّة السلطانيَّة، فصارت من أعظم الولايات المحروسة الشاهانية بهاءً ورونْقاً، وحالتها تُبشِّرنا بأنَّها سائرة في سبيل الحضارة والعمران سيْراً حثيثاً، وقِسْ كذلك عليها كلَّ بلدة أو أرض جُلب الماء إليها.

أما بلدتنا الشهباء فإنَّها ـ وإن كانت آخذةً في التَّقدُّم تقدُّماً يذكر، واتَّسع فيها نطاق العمران والتجارة خصوصاً بعد وصول السكَّة الحديديَّة إليها؛ كما نشرنا ذلك

---

(١) جريدة «ثمرات الفنون» البيروتية، العدد ١٦٠٩ من السنة ٣٣: (١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م)، وقال الطباخ في مقدمتها: «دعتني الغيرة الوطنيَّة لتحرير هذه السطور، فأرجو من حضرتكم نشرَها على صفحات (الثمرات) الغرَّاء».

سابقاً على صفحات «الثمرات» ـ، إلا أنَّ قلَّة المياه فيها جعلت تقدّمها بطيئاً بالنسبة لقابليَّتها للغراسة والزراعة، والتجارة والصناعة، والعمران والحضارة، نظراً لاعتدال هوائها وطيب تربتها.

وشِرْبُ أهلها، وسقي بساتينها من نهرها المسمَّى بقويق، إلا أنه غير وافٍ بحاجتهم من ذلك خصوصاً في السنين التي تقلُّ فيها الأمطار؛ فإنَّهم ـ خصوصاً الفقراء منهم ـ يُقاسون شدَّة عظيمة، ومشقَّات جسيمة، وتغلو قيمة الخضروات جداً، فلا يتناولها إلا ذَوو اليسار، وأما الفقراء فَتَراهم يَنظرون إليها ويهرولون، وبالمثل المشهور ـ وهو: العينُ بَصيرة واليد قصيرة، ـ يتمثَّلون.

وفي السنة الماضية انقطع ماؤه بالكليَّة إلا في أويْقات، وقاسى الأهالي أليم العطش، واضطرَّ البعض إلى شرب الماء المالحة من الآبار، ولولا كثرة الصهاريج التي في دورها، وفي بعض مساجدها المملوءة بالماء المخزون لكانت حالهم تنذر بالخطر.

أما البساتين والأراضي التي على طريق النهر فقد تضرَّرت هذه السنة بقلَّة المياه جداً، ولم يتناولْ أربابها إلا النَّزْرَ من وارداتها، وحينما كان يأتي الماء في بعض الأوقات كنتَ ترى الجدال قائماً بينهم كلٌّ منهم يريد أخذَ الماء لبستانه وأرضه، وكَثُر بينهم ذلك إلى أن أدَّى الحال إلى رفع الأمر إلى ملجأ الولاية، فبادر لتلافي هذا الأمر بتشكيل لجنة بذلَت جهدها في التوفيق بين البساتنة في أوقات السَّقي، وجعلت لكلٍّ جهة وَقتاً مخصوصاً، لكن ذلك ـ وإن أوجب رفعَ النزاع ووقوف كل واحد عند حدِّه ـ إلا أنَّ الخسائر التي تكبَّدوها لم تُعوّض عليهم، والفقير لم يزل محروماً.

وليست حالة هذا النهر كذلك في هذه الأعوام، بل هذا شأنه من قديم الزمان، ينقطع في الصيف في وقت الحاجة إلى الماء، ويجري في الشتاء في حين أنَّ الناس عنه في

غناء، وقد ذكر ذلك ابن خلِّكان في «تاريخه»، في ترجمته ياروق التركماني(١).

ولا يخفى أنَّ ابن خلِّكان من أهل القرن السابع، وقد وصف هذا النهر كثيرٌ من الشعراء؛ مثل البحتري، والمعري، ولأبي بكر أحمد بن محمد الصنوبري ـ الشاعر الشهير من أهل القرن الرابع، ومن معاصري المتنبي ـ قصيدةٌ طنّانة(٢)، وفيه تلميح بحالته التي ذكرناها.

وفي الزمن السابق كان نهر الساجور مُتَّصلاً به، ساقه إليه الأمير أرغون الكاملي حين ولايته على حلب في أوائل القرن الثامن.

قال ابن الخطيب في «تاريخه»: ولما ساق إليه ذلك كثُر ماؤه، فصار يَقِلُّ ماؤه في الصيف، لكنه لم ينقطع غالباً في هذه الأزمان.

أما الآن فلا ندري الطريق الذي كان يجري فيه نهر الساجور إلى أن ينصب بنهر قويق، والظاهر أنَّه دَرَسَ في الفتنة التميرية، غايته عندما يفيض في بعض أيام الشتاء ينصبُّ ماؤه في أراضٍ مُنخفضة فيتصل بنهر قويق، لكنه لا يُجدي ذلك شيئاً، حيث إنَّ ذلك يكون في الشتاء في وقت عدم الحاجة إلى الماء.

---

(١) قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٦: ١٧): ياروق بن أرسلان التركماني، كان مقدَّماً جليلَ القدر في قومه، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان، وكان عظيم الخِلقة، هائل المنظر، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية، وبنى على شاطئ قويق فوق تل مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنية كثيرة مرتفعة وعمائر متَّسعة، وتعرف الآن بالياروقية، وهي شبه القرية، وسكنها هو ومن معه، وهي إلى اليوم معمورة مسكونة آهلة يتردَّد إليها أهل حلب في أيام الربيع، ويتنزهون هناك في الخضرة، وعلى قويق وهو موضع كثير الانشراح والأنس، وتوفي ياروق المذكور في المحرم سنة أربع وستين وخمس مئة، رحمه الله تعالى.
وياروق: بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي الآخر قاف.

(٢) مطلعها كما في «الروضيات» التي جمعها الطباخ ص٤٣:

قويق لـه عهـد لدينـا وميثـاق وهذي العهود والمواثيق أطواق

فتبيَّن مما تقدَّم أنَّ أسلافَنا كانوا يَشكون ما نشكوه ويُقَاسون ما نُقَاسيه، وعدا عن ذلك فقد تبيَّن أنَّ البثرة التي تطلع في وجوه أبناء الشهباء المسمَّاة بحبَّة السَّنَة سببها الشرب من هذا النهر، وربَّما شوَّهت بعض الوجوه.

ولذلك عمد كثيرٌ من المأمورين وبعض من الأهالي إلى شراء الماء من العين المشهورة بعين التل مهما كلَّفهم.

وهذا نهر الفرات قريب إلى الشهباء خصوصاً من جهة (مَسكنة)، فإنَّه يبعد عنها نحو ست عشرة ساعة، وممكن الجلب وإن كان في ذلك بعض مشقة، لكنها تسهل بالنسبة إلى ما ينشأ عن ذلك من المنافع والواردات بزرع ضفتيه بأنواع الخضروات والمحصولات، ولا يخفى ما يعود على الأهالي وعلى دولتنا العليَّة أيَّدها الله من الفوائد الجليلة، فحبَّذا لو تتوجه أنظار ولاة الأمور وأرباب الثروة إلى إزالة عقبة هذه الشكايات، وحسم مادة هذه البثرة من وجوه المخلوقات، باستجلاب النهر المذكور، فتبلُّ بذلك قلوب صادية، وأراض جمَّة على طريقه عافية، وتستريح الأهالي من الشكوى، ومن هذه البثرة، وما فيها من البلوى، وتفتح عليهم أبواب الثروة والغنى، وينالون قصدهم والمنى.

والأمل بهمَّة ولاة الأمور، أن نرى ذلك قريباً إن شاء الله تعالى؛ بظلِّ الحضرة العليَّة السلطانيَّة لينظم ذلك في سلك ما لها ـ أيَّدها الله في ممالكها المحروسة ـ من جليل المآثر، وتدخل بلدتنا الشهباء في دور ثان من الحضارة والعمران، وتزيد منابع ثروتها، وتتقدّم ـ في سبيل النجاح ـ تجارتها، وتتَّسع حضارتها ومعارفها، وتحيا نفوسها وأرضها، وترتفع الدعوات الخيريَّة لجلالة خليفتنا الأعظم، والله الموفق.

المدرسة المستنصريّة[1]

في المحاضرة التي ألقاها رئيس المجمع أثناء وجوده في الشّهباء، في قاعة المدرسة الفاروقية بعنوان: «آثار الفيحاء والشهباء»، ذكر اسم المستنصرية التي شيّدها المستنصر العبّاسي في بغداد. وقد جاء ذكر هذه المدرسة في كثير من مقالات كتّاب العصر الحاضر ومؤرّخيه، غير أنّي لم أجد منهم ـ فيما وقفت عليه ـ من ذكر تفاصيل ما عيّنه الخليفة المتقدّم لهذه المدرسة من العلماء والتّلامذة وما كان يجريه عليهم من النّفقات.

وقد كنتُ ظفرتُ بذلك في جزء من تاريخ العلّامة الصلاح الصفدي المرتّب على السنين، وهو من نفائس مخطوطات المكتبة الأحمديَّة في حلب. ولم أجد هذه التّفاصيل فيما تصفّحته من كتب التّاريخ في غير هذا الكتاب، فأحببتُ أن أتحف مجلة المجمع العلمي بما كتبه ذلك المؤرّخ، لأنّ ذلك ولا ريب مما يهمّ الباحثين عن آثار الشّرق والحضارة الإسلامية في العصور الغابرة.

قال في حوادث سنة ٦٣١هـ:

في هذه السّنة فتحت المدرسة المستنصرية ببغداد، ونقل إليها ما يحتاج إليه من الفرش والقناديل والربعات والمصاحف بالخطوط المنسوبة.

قال ابن السّاعي: حمل إليها من الكتب مئة وستون جملاً سوى ما نقل إليها بعد ذلك، وسوى ما أحضره أرباب الدّولة والمتولين (هكذا والصّواب: المتولون أو

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق، الجزء الأول من المجلد الرابع: (جمادى الأولى، ١٣٤٢هـ).

المتموِّلون) من كتبهم تقرُّباً إلى قلب الخليفة. وحضر الوزير وأرباب الدّولة وسائر الولاة والحجَّاب والقضاة والمدرّسون والفقهاء ومشايخ الرّبط والصوفيَّة والقرّاء والوعّاظ وأعيان أهل بغداد والشّعراء وجماعة من التجّار والغرباء.

ورتّب محيي الدّين ابن فضلان مدرس الشّافعية، ورشيد الدين عمر بن محمد الحنفي للحنفية، ومحيي الدين ابن الجوزي للحنابلة، وأبو الحسن علي المغربي للمالكية، وخلع عليهم وعلى سائر الفقهاء، ورتب شمس الدّين علي المعروف بابن الكتبي خازناً، ومدَّ سماط فيه من سائر الأطعمة والحلويات وغريب المآكل.

وشرط الواقف ـ عظَّم الله أجره ـ: أن يكون عدة الفقهاء بها مئتين وثمانية وأربعين رجلاً، من كلّ طائفة اثنان وستّون، وأن يجريَ لكلٍّ واحد منهم في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً، وغرف طبيخ مما يطبخ في مطبخها، وفي كلّ شهر ديناران، غير الحلوى والفاكهة والصّابون والزّيت، وأن يكون لكلّ طائفة مدرّس وأربعة معيدين، وأن يكون لكلّ مدرّس في كلّ يوم عشرون رطلاً من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها وحطبها، وفي كلّ شهر اثنا عشر ديناراً.

وأن يكون لكلّ معيد في كلّ يوم سبعة أرطال خبزاً وغرفان طبيخاً، وفي كلّ شهر ثلاثة دنانير، وأن يكون في دار القرآن المجيد شيخ يُلقّن القرآن، ثلاثون صبياً أيتاماً، ومعيد يحفّظ الثّلاثين، ويكون للشّيخ كلّ يوم سبعة أرطال خبزاً وغرفان طبيخاً، وفي الشهر ثلاثة دنانير، وللمعيد في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً، وفي كلّ شهر دينار وعشرون قيراطاً، وللصّبيان لكلّ صبيّ في كلّ يوم ثلاثة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً، وكلّ شهر ثلاثة عشر قيراطاً وحبة.

وأن يكون في دار الحديث النّبوي شيخ عالي الإسناد يشغل بعلم الحديث، وقارئ وطلبة، ويكون للشّيخ المسمع في كلّ يوم ستة أرطال خبزاً ورطلان لحماً، وفي

كلّ شهر ثلاثة دنانير، وللمشتغلين لكلّ واحد منهما في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً، وفي كلّ شهر ديناران وعشرة قراريط، وللقارئ في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً وكلّ شهر ثلاثة دنانير، وللطلبة أسوة الأيتام الذين يتلقّون القرآن في الخبز والغرف والمشاهرة.

وأن يكون لخازن الكتب في كلّ يوم عشرة أرطال خبزاً وأربعة لحماً وفي كلّ شهر عشرة دنانير.

وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كلّ يوم خمسة أرطال خبزاً ورطلان لحماً، وفي كلّ شهر ثلاثة دنانير، وأن يكون للمناول في هذه الخزانة في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً، وفي كلّ شهر ديناران.

وأن يكون بها نحويٌّ يشغل بعلم العربيّة، يكون له في كل يوم ستة أرطال خبزاً ورطلان لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها، وفي كلّ شهر ثلاثة دنانير.

وأن يكون بها طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس بعلم الطّب أسوة طلبة الحديث في الخبز والطّبخ والمشاهرة.

وأن يكون بها من كلّ طائفة إمام يصلّي بهم وقارئ للسّبعة وداعٍ يدعو، وأن تضاعف المشاهرات في رمضان.

وأن يكون للنّاظر المرتب بها في كل يوم عشرون رطلاً خبزاً وخمسة أرطال لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها، وفي كلّ شهر اثنا عشر ديناراً.

وللمشرف في كل يوم عشرة أرطال خبزاً وثلاثة أرطال لحماً، وفي كلّ شهر سبعة دنانير.

وللكاتب في كل يوم مثل المشرف ومعمارية وفرّاشون وبوّابون وحمامي ومزيّن

وقيِّم وطبّاخ وغلامه وخازن الآلات وخزنة الدّيوان وغلمان الدّيوان ومرملاتي[١] (هكذا) ومؤذّن ونقاط[٢]. وقرر لهؤلاء كلهم جرايات ومشاهرات.

وأمّا الدّار المجاورة لهذه المدرسة في الحدّ الأعلى منها لم يرَ مثلها أحد ولا لإدراك وصفها أمد، وهذه الشّروط نقلتها من: «تاريخ ابن السّاعي»[٣]. انتهىٰ.

ولا أدري الآن ما بقي من آثار هذا المعهد العلمي العظيم. وحبّـذا لو أسهب المقال عنه الواقفون على تاريخ بغداد قديماً وحديثاً.

حلب

محمد راغب الطباخ

أحد أعضاء المجمع

* * *

(١) المرملاتي لعلّه الذي يملأ المرامل بالرّمل ويوزّعها على النّاسخين (المجمع).

(٢) لعلّ صوابه: نفّاط بالفاء، وهو الذي يتولى أمر التّنوير بزيت النّفط (المجمع).

(٣) ولابن الساعي المتوفى ٦٧٤ مجلد سماه: «شروط المستنصرية» كما في «كشف الظنون» ١٠٤٤، وذكر صاحب «تاريخ المستنصرية» أن اسمه: «مفاتيح الجنان ومصابيح الجَنان»

صناعة الزجاج في الحضارة العربية(١)

قرأت ما كتبتموه في مجلتكم «الزهراء» (م٤ ج٣ ص١٤٩) بعنوان: «صناعة الزجاج في الحضارة العربية» وما كتب به إليكم الأستاذ السيد عبد الله مخلص(٢) (م٤ ج٥ ص٢٨٩) عن القدَح الزجاجي الذي رآه في المتجر الأمريكي في بيت المقدس، وأنَّ صاحب المتجر قال: أنه ابتاعه من رجل يزعم أنه أتى به من جهات حلب، وقد كتب عليه: «برسم السلطان سنجر» سلطان بغداد المتوفى سنة ٥٥٢.

وقد استدلَّ الأستاذ من هذه الكتابة على أن هذا القدح من الصناعة البغدادية في القرن السادس الهجري، وهذا الاستدلال ليس بيقيني، بل يغلب على الظن أنه من مصنوعات حلب، وحُمل وقتئذ إلى بغداد؛ لأن حلب قد حازت قَصَب السَّبق في هذه الصناعة في تلك العصور، وقد عقدتُ في تاريخي «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» (ج٣ ص٢٧) فصلاً تكلَّمت فيه على هذه الصنعة في هذه الديار بعنوان: «الكلام على صنعة الزجاج بحلب واشتهارها في الآفاق»، فأحببت أن أُورده هنا ليضمَّ إلى ما ذكرتموه عن هذه الصنعة في الحضارة العربية.

---

(١) مجلة «الزهراء» المصرية (رمضان ـ شوال ١٣٤٦) ١٩٢٧

(٢) المولود سنة ١٢٩٦هـ = ١٨٧٨م في مدينة عين تاب من أعمال حلب، درس المرحلة الابتدائية، وكتب كثيرًا في الصحف، وعمل في التجارة بحيفا، ثم أصبح مديراً للأوقاف الإسلامية بالقدس، وكان من أعضاء المجمع العلمي في دمشق، وتوفي سنة ١٩٤٧ عن ٦٩ عاماً، وصلي عليه في المسجد الأقصى، ودفن بمقبرة باب الساهرة. وينظر كتاب: «تراث فلسطين في كتابات عبد الله مخلص» للأستاذ كامل جميل العسلي، الصادر عن دار الكرمل ١٩٨٦ في ٣٦٣ صفحة.

جاء في كتاب «لجنة حفظ الآثار العربية بمصر» تأليف: مكس هرتس بك، وتعريب المرحوم علي بهجة بك وكيل دار الآثار العربية في مصر (ص٢٩٠) في الكلام على صنعة الزجاج: «وقد تكلَّم حافظ ابرو المتوفَّى حوالي سنة ١٤٣٠م (وذلك يوافق سنة ٨٣٤ هجرية) على الأخص صنعة الزجاج في حلب، فقال: «هناك صنعة خاصَّة بحلب، وهي صنعة الزجاج، ولا نرى في غيرها أجمل مما يرى فيها من المصنوعات الزجاجية، وإذا دخل الإنسان السوق الذي تُباع فيه لا يحب الخروج منه لشدَّة ما يبهره من جمال الأواني المزخرفة زخرفة بديعة بذوق عجيب».

إلى أن قال: «ومصنوعات حلب الزجاجيَّة تُنقل إلى جميع البلاد للتهادي بها». انتهىٰ.

وأحال في هامش الكتاب المذكور على (سفرنامة) التعليق الوارد في صحيفة ٣٣.

ومما يدلك على تقدُّم هذه الصنعة في حلب: ما ذكره ابن حُجَّة الحموي في كتاب «ثمرات الأوراق» في ضمن حكاية طويلة نقلها عن «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمري، والحكاية جَرَت مع عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الموسيقي حينما دخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ فاتَّخذ هذا وليمة لبعض أمراء هولاكو، قال: فأتيت به إلى داري، وأحضرت له أطعمة فاخرة، ولما فرغ من الأكل، عملت له مجلساً ملوكياً، وأحضرت له الأواني المذهبة من الزجاج الحلبي وأواني فضية فيها شراب مروَّق الخ.

وممَّن نوَّه بالزجاج الحلبي الشيخ سعدي صاحب كتاب كَلستان (الكتاب المشهور باللغة الفارسية) المتوفَّى سنة ٦٩٠[1] قال في ضمن حكاية (ص٨٧) ما ترجمته:

---

(١) نقله إلى العربية جبرائيل بن يوسف المخلع، طبع في القاهرة سنة ١٢٦٣هـ (الطباخ).

«فقلت: وأين تلك السفرة، يا طويل الخبرة؟ فقال: قصدي أن آخذ الكبريت الفارسي إلى الصين، لأني سمعت أنه هنالك ثمين، ومن هناك آخذ القماش الهندي وأحضره إلى الروم، وآخذ الأقمشة الرومية إلى الهند، للربح المعلوم، وآتي بالفولاذ الهندي إلى حلب، فآخذ الزجاجات الحلبية إلى اليمن ولو مع التعب».

وممَّن نوَّه بالزجاج الحلبي ابن حُجَّة أيضاً في ذيل كتابه «ثمرات الأوراق» في ضمن حكاية هزلية مشهورة تعرف بحكاية أبي القاسم الطنبوري، حيث قال: «حُكي أنه كان ببغداد شخص يعرف بأبي القاسم الطنبوري، صاحب نوادر وحكايات، وله مداس له مدة سنين كلما انقطع منه موضع جعل عليه رُقعة إلى أن صار في غاية الثِّقل، وصار يضرب به المثل فيقال: أثقل من مَدَاس أبي القاسم الطنبوري، فاتفق أنه دخل سوق الزجاج، فقال له سمسار: يا أبا القاسم قد وصل تاجر من حلب، ومعه حمل زجاج مذهب قد كسد، فابتعه منه وأنا أبيعه لك بعد مدة بمكسب المثل مثلين. فابتاعه بستين ديناراً» الخ الحكاية.

وذكرت في الجزء الثاني من «تاريخي» (في حوادث سنة ٦٢٤) نقلاً عن التاريخ الكبير المسمَّى بـ«البداية والنهاية»[١] للحافظ ابن كثير ما نصُّه: «وممَّن توفي فيها من الأعيان: جنكز خان ملك التتار (وساق له ترجمة طويلة ومما جاء فيها): أهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب فاستحسنة جنكز خان، فوهَّن أمره عنده بعضُ خواصِّه، وقال: خوند هذا زجاج لا قيمة له، فقال: أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالماً؟ أعطوه مائتي بالس». انتهىٰ. وطبعاً لا يحمل من بلاد بعيدة إلى خزائن الملوك إلا الشيء النفيس النادر المثال.

وفاتني أن أذكر في تاريخي في الفصل المتقدِّم معدن ذلك الزجاج الذي كان

(١) موجود بتمامه في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب في ١٠ مجلدات كبار (الطباخ).

يصنع في مدينة حلب، وقد ذكره ياقوت في «معجمه» في الكلام على (بِشْر) حيث قال: «وهو اسم جبل يمتد من عُرْض[1] إلى الفرات من أرض الفرات من جهة البادية، وفيه أربعة معادن: معدِن القار، والمغرة، والطين الذي يعمل منه البواتق التي يسبك فيها الحديد، والرمل الذي في حلب يعمل منه الزجاج، وهو رمل أبيض كالإسفيداج، وهو من منازل بني تغلب بن وائل، قال عبد الله بن قيس الرقيات:

أَضحَت رُقَيَّةُ دونَها البِشرُ فَالرَقَّةُ السَّوداءُ فَالغَمرُ
يا لَيتَ شِعري كَيفَ مَرَّ بِها وَبِأَهلِها الأَيّامُ وَالدَهرُ

حلب
١٢ رمضان ١٣٤٦
محمد راغب الطباخ

* * *

(١) بليد في برية الشام يدخل في أعمال حلب الآن، وهو بين تدمر والرصافة الهشامية. انتهى، معجم البلدان. أقول: وإليها ينسب شيخ الإسلام الشيخ عمر العُرْضي، شارح الشفا، أحد رجال تاريخي «إعلام النبلاء» (الطباخ).

تصحيح قصة[1]

عدم صحَّة لقاء أسامة بن منقذ بأبي العلاء المعري

الحكاية التي نقلها الأستاذ الشيخ كامل الغزّي عن لسان الأمير أُسامة بن منقذ التي تفيد اجتماعه بأبي العلاء المعرّي ـ وهو صبيٌّ في أنطاكية، وامتحانه لقوّة ذاكرته ـ نسبتُها إلى الأمير المومأ إليه ليست بصواب، واعتراض الدكتور فيليب حتّي (مجلة المجمع ج٥ ص٣١٧) بأنّ بينهما قرناً كاملاً والواحد منهما لم يعاصرْ الآخر هو في محلّه.

وقد ذكر القصة على الصواب المؤرّخ الكبير ابن العديم في كتابه: «الإنصاف والتَّحرّي في دفع الظلم والتَّجرّي عن أبي العلاء المعرّي» الذي نشرته ـ على نقص فيه ـ في تاريخي الكبير: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ج٤ ص٧٨، والقصّة مذكورة في ص١٣٥، ونصّها: «وقفتُ على كتاب سيرة بعض الرؤساء بحلب، وضعه الشريف أبو علي المظفَّر بن الفضل بن يحيى العلوي الإسحاقي الحسيني، نزيل بغداد، وهو من ولد الشريف أبي إبراهيم العلوي الحراني، وأصله من حلب، وكان أبوه حاجب الباب ببغداد، ورد هذا الشريف علينا حلب زائراً أهله بها فذكر فيه قال: حدَّثني والدي رضي الله عنه وأرضاه يرفعه إلى ابن منقذ قال: كان بأنطاكية خزانة كتب... إلخ.

وبعد أن ذكر القصة استبعد أن تكون واقعة في أنطاكية لأسباب ذكرها، ثم قال: ويحتمل عندي أن يكون هذا بكفْر طاب، فقد كانت كفر طاب مشحونة بأهل العلم، وكان بها من يقرأ الأدب ويشتغل به قبل أن يهاجمها الإفرنج في سنة ثنتين وتسعين

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء العاشر من المجلد العاشر: (١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م).

وأربع مئة، وكانت لأبي المتوّج مقلد بن نصر بن منقذ في أيام أبي العلاء، فلعله تصحَّف «كفر طاب» بأنطاكية، وتصحيفها غير مستبعد، فإن كان كذلك فابن منقذ الحاكي لهذه الحكاية هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ، وأبوه نصر، و«كفر طاب» قريبة من «معرّة النعمان»، ويحتمل أنَّ ذلك كان بحلب؛ فإن أبا العلاء دخل حلب وهو صبي، واجتمع بمحمد بن عبد الله بن سعد النحوي، وردّ عليه خطأه في شعر المتنبي على ما ذكرناه في ذكر شيوخه الذين أخذ عنهم، فيُحتمل أنَّ هذه الحكاية التي حكاها ابن منقذ كانت بحلب، وأبو المتوج بن منقذ كان بحلب وله بها دار ومنزل، وكان بها خزانة كتب في الشرفية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم... الخ.

وأبو المتوج مقلد بن نصر له ترجمة في «تاريخي» في هذا الجزء (ص١٨٠) نقلتها عن: «تاريخ ابن خَلِّكان»، ووفاته سنة ٤٥٠ بحلب، وحمل إلى «كفر طاب»، فتكون وفاته بعد وفاة أبي العلاء بسنة، فاجتماعه به محقَّق، ولعلّ الأستاذ الغزّي علَّق ذلك من ذاكرته فكتب في المقالة أسامة بن منقذ بدل أبي المتوج مقلد بن نصر بن منقذ فوقع بهذا الخطأ، وجلَّ مَن لا يسهو.

عضو المجمع العلمي العربي
محمد راغب الطباخ

* * *

منبر المسجد الأقصى في القدس الشريف[1]

من جملة الصناعات التي حازت قَصَبَ السَّبْق في العصور الغابرة في مدينة حلب صنعة النجارة، فقد كان لها فيها القِدْح المُعَلَّى وتفوَّقت فيها على كثير من البلدان، والبقية الباقية من آثار ذلك المشاهدة بالعِيان، هي خير شاهد على ذلك، ومن هذه الآثار الخالدة: المنبر الموجود إلى الآن في القدس الشريف في المسجد الأقصى.

هذا المنبر صُنع في حلب وحُمل إلى القدس فَوُضع ثمَّة، وحفظته لنا أيدي الزمان من الحدَثان، وأبقته لنا إلى الآن، وإذا تأمَّلت رسمه هذا تتجلَّى لك بداعة الصَّنعة فيه، وتبدو لك دقَّة هندسته، وتتذكَّر عندئذ قول من قال: ليس في الإمكان أبدع مما كان.

السبب الذي دعا إلى صنع هذا المنبر:

وقد أحببتُ الآن أن أذكر السبب الذي دعا لصنع هذا المنبر في حلب وحمله إلى المسجد الأقصى، فأقول:

ذكر المؤرِّخون ابن الأثير، وصاحب الروضتين وغيرهم: أنَّ في رجب من سنة **٥٨٣هـ** فتح السلطان صلاح الدين البيت المقدس، وقد كان أُخذ من المسلمين سنة **٤٩٢هـ**، وبعد فتحه رتَّب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس،

(١) مجلة «الاعتصام» الحلبية، العدد العاشر من السنة الثانية: (١٣٥٠)، ومجلة «العاديات» الحلبية، العددان الثالث والرابع من السنة الأولى: (ربيع الأول والآخر ١٣٥٠هـ = تموز وآب ١٩٣١م).

وأمر أن يُعمل له منبر، فقيل له: إنَّ نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصُّنَّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه ليُنْصَب بالبيت المقدَّس فعمله النجَّارون في عدَّة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره فحُمِلَ من حلب ونُصِبَ بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين عاماً، وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده.

قال في «الروضتين» نقلاً عن العماد الكاتب ما خلاصته: أنه كان بحلب نجار يعرف بالأختريني من ضيعة تُعرف بأخترين[1] لم يلف له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم، والنحت المهندس، فجمع الصنَّاع، وأحسن الإبداع، وأتمَّه في سنين واستحقَّ بحقٍّ إحسانه التَّحسين، واتَّفق أن جامع حلب في الأيام النُّوريَّة احترق، فاحتيج إلى منبر ينصب، فنُصب ذلك المنبر وحسن المنظر، وتولى حينئذ النجار عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب شاهد منه على مثال المنبر القدسي الإحسان.

وجاء في «كنوز الذهب في تاريخ حلب» للحافظ أبي ذر قال: قرأت في «تاريخ الإسلام» للذهبي: وقد كان نور الدين أنشأ منبراً برسم الأقصى قبل فتح بيت المقدس طمعاً في أن يفتحه، ولم تزل نفسه تحدثه بفتحه، وكان بحلب نجار فائق الصنعة، فعمل لنور الدين هذا المنبر على أحسن نعتٍ وأبدعه، فاحترق جامع حلب، فنصب فيه [لما جدِّد المنبر المذكور]، ثم عمل النجار المذكور ويعرف بالأختريني [نسبة إلى قرية

---

(١) لم تزل هذه القرية موجودة، وهي في شمال حلب إحدى محطات سكة حديد بغداد، وبينها وبين حلب كيلومتر (الطباخ).

أخترين] منبراً آخر شبه ذلك المنبر. فلما افتتح السلطان بيت المقدس أمر بنقل المنبر، فنُصب إلى جانب محراب الأقصى»[١].

وقال قبل نقل كلام الذهبي: وأما المنبر الذي هو الآن به [أي بجامع حلب] فعُمل في أيام السلطان الملك الناصر محمد، وصانعه محمد بن علي الموصلي بتولِّي محمد ابن عثمان بن الحداد.

وهذا المنبر غير المنبر الذي كنت سمعت أنَّ صانعه كان فلاحاً من قرية الأخترين من قرى حلب، وأنه مات قبل تركيبه، وعجز الناس عن تركيبه، فرآه ولده في النوم، فقال له: عجزتم عن تركيبه؟ قال: نعم. فأراهم كيفيَّة التركيب فأصبح ولده وركَّبه. انتهى. هكذا ذكر لنا التاريخ هذه القصة.

وصف الرحَّالة ابن جبير سنة ٥٨٠هـ للمنبر الذي كان بجامع حلب الذي هو على مثال المنبر الموجود الآن في القدس

قال في رحلته في كلامه على جامع حلب: «وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها، قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متَّسع مفتح كله أبواباً قصريَّة الحسن إلى الصحن عددها ينيف عن الخمسين باباً، فيستوقف الأبصار حُسْن منظرها، وفي صحنه بئران معينتان. والبلاط القبلي لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح، وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته، واتَّصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب، فتَجلَّلت صفحاته كلها حُسْناً على تلك الصفة الغريبة، وارتفع كالتاج العظيم على المحراب، وعَلا حتى اتصل بسمك السقف، وقد قوِّس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنصية، وهو

(١) «تاريخ الإسلام» ١٢ : ٦٧٣ وما بين المعكوفين منه.

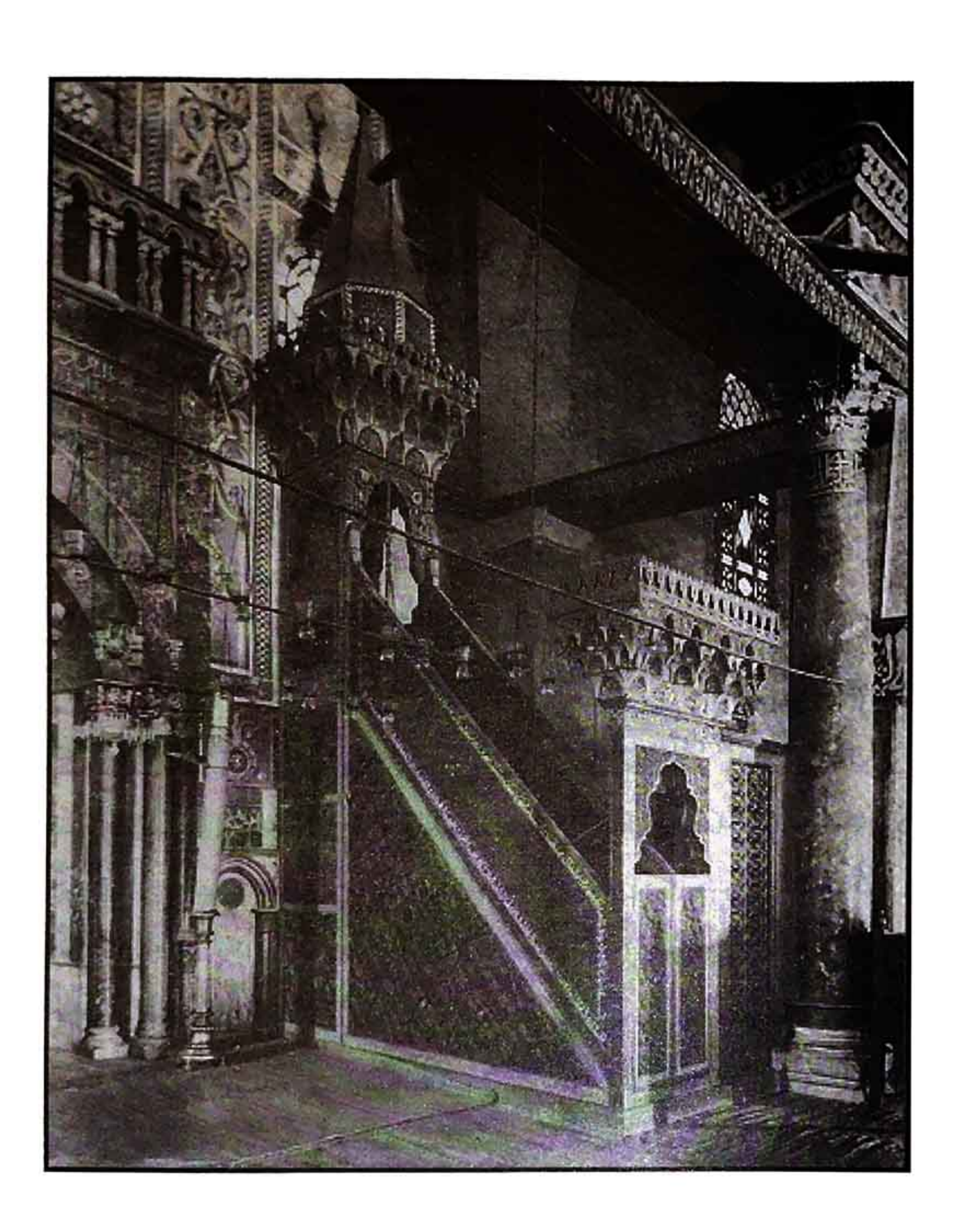
مُرصَّع كله بالعاج والآبنوس، واتِّصال التَّرصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من القبلة دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلي العيون منه أبدع منظر يكون في الدنيا، وحُسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف». انتهى.

ماذا فعل الزمان بذلك المنبر العظيم الذي كان بجامع حلب؟

قدَّمنا ما قاله المؤرخ أبو ذر نقلاً عن الذهبي: أنَّ المنبر الذي الآن به قد عمل في أيام الملك الناصر محمد، والملك الناصر محمد هو ممَّن تولَّى الملك في الديار المصريَّة ثلاث مرات.

والمرة الثالثة كانت سنة ٧٠٩ وبقي إلى سنة ٧٤١، وسبب عمله لهذا المنبر: احتراق ذلك المنبر العظيم الذي وصفه لنا الرحَّالة ابن جبير، وسبب حريقه ـ كما قال في «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة ـ: أن التتار لما استولوا على حلب سنة ثمان وخمسين وست مئة هجرية، دخل صاحب سيس (بلدة شمالي الاسكندرونة) إلى الجامع، وقتل به خلقاً كثيراً، وأحرق الجانب القبلي منه، وأخذ الحريق قبلة وغرباً إلى المدرسة الحلاوية، واحترق سوق البزَّازين، فعرف عماد الدين القزويني (نائب هولاكو بحلب) لهولاكو ما اعتمده السيسيون من الإحراق للجامع، فأمر هولاكو برفع ذلك وإطفاء النار وقتل السيسيين، فقتل منهم خلقاً كثيراً ولم يقدروا على إطفاء النار، فأرسل الله عز وجل مطراً عظيماً فأطفأها.

ثم إنَّ المحراب جُدِّد بعد ذلك، وهو الموجود إلى الآن، وكتب فوقه: «أمر بعمارته بعد حريقه مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاون عزَّ الله تعالى نصره»، ثم جُدِّد المنبر بعد ذلك في أيام الملك الناصر محمد في أوائل القرن الثامن، وهو باق إلى الآن، وهذا رسم منبر المسجد الأقصى:



منبر القدس

أما المنبر الذي حُمل إلى القدس فلم يزل باقياً إلى يومنا هذا، وقد كُتب على أطرافه الأربعة في الجهة الشرقية منه عن يسار المنبر بعد البسملة ما نصُّه:

«أمر بعمله العبد الفقير إلى رحمته، الشاكر لنعمته، المجاهد في سبيله، المرابط لإعلاء دينه، العادل نور الدين، ركن الإسلام والمسلمين، منصف المظلومين من الظالمين، أبو القاسم محمود بن زنكي بن اقسنقر ناصر أمير المؤمنين، أعزَّ الله أنصاره، وأدام اقتداره، وأعلا مناره، ونَشر في الخافقين ألويته وأعلامه، وأعزَّ أولياء دولته، وأذلَّ كفار نعمته، وفتح له وعلى يديه وأقرَّ بالنصر والزلفا عيناه (هكذا) برحمتك يا رب العالمين، وذلك في شهور سنة ٥٦٤».

ومكتوب على الجهة الغربية منه، وهي اليمنى في أطرافه الأربعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٠-٩٢].

ومكتوب على تاج المنبر في الجهة اليمنى في أطرافه الأربعة بعد البسملة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [النور: ٣٦].

وفي الجهة اليسرى أي: الملاصقة للمحراب في الأطراف الأربع أيضاً بعد البسملة: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

وكتب على بابيه: عمله حميد بن ظافر الحلبي رحمه الله، صنعه سليمان ابن هاني رحمه الله.

وكنت أتمنى لو أُتيحت لي الرحلة إلى بيت المقدس، وأن أرى ذلك المنبر الأثري بأمِّ العين وأُمتِّع النظر بحُسن صنعته، فأستدل بذلك على براعة صانعه، فلم تسمح لي الأقدار بذلك، غير أنه منذ نحو سنتين زار الشهباء المستشرق النمساوي الفاضل الدكتور ل. ا. ماير[1] المقيم في القدس، وأتيح لي الاجتماع به، فرأيت فيه رجل الفضل والعلم بالآثار القديمة، وتفرَّست فيه الشَّغف في ذلك وشدَّة العناية والبحث، فذاكرته في شأن هذا المنبر، ورغبت إليه أن يبحث لي عن رسمه؛ إذ لا بدَّ أن يكون هذا الأثر البديع قد أُخذ بالناقل الشمسي فلبَّى حضرته الطلب وتفضَّل بإرسال الرسم، وأصحبه بكتاب منه مؤرخ في ٢٢ كانون الثاني من هذه السنة، فشكراً له على معروفه الجزيل.

وإني أُقدِّم الآن لمجلتكم الغراء هذا الرسم البديع القائل بلسان حاله:

تلك آثارُنا تدُلُّ علينا فانظروا بعدَنا إلى الآثارِ

لتنشروه على صفحات المجلة، وهذه السطور التي تكشف النقاب عن صانعه، وتاريخ صنعه، ولماذا صُنع؟ لتعمَّ الفائدة بذلك، ويستدل بها على تقدُّم صنعة النجارة في الشهباء في العصور السالفة كتقدُّم كثيرٍ من الصنائع فيها في ذلك العصر الزاهر عصر الحضارة والعمران في هذه البلاد.

محمد راغب الطباخ

---

(١) ليو آريه ماير المتوفى سنة ١٩٥٩ عن ٦٤ عاماً من المستشرقين النمساويين، اختير رئيساً لمعهد العلوم الشرقية في القدس، وأصدر حولية في الآثار والفنون الإسلامية بعدّة لغات.

تحقيقات هامة واكتشاف خطير عن قبر أبي العلاء المعري[١]

أتيح لي منذ سنوات أن أذهب إلى «المعرّة» بلد أبي العلاء المعري، الذي طبّق الأرض بشهرته، وشغل الأفكار بشعره ونثره في حياته وبعد مماته إلى عصرنا هذا. ولما ألقيتُ فيها عصا التَّسيار، ذهبت إلى المسجد المدفون فيه، وحينما أبصرته رأيت مكاناً صغيراً جداً لا يخطر لرائيه إذا مرّ به أن هناك مسجداً، بل يظنّ أنه باب دار[٢].

طول صحن هذا المسجد ٣٠ قدماً من الشمال إلى الجنوب، وعرضه ٢٥ من الشرق إلى الغرب، وفي شرقيه حجرتان صغيرتان في إحداهما وهي الشمالية ضريح أبي العلاء ـ رحمه الله تعالى ـ وهي مربعة الشكل طولها ١٢ قدماً وعرضها كذلك، والضريح في منتصف الحجرة إلى القبلة والشرق أقرب، فوقه ثلاث أحجار طولها

---

(١) مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، العدد ٣٦، من السنة السادسة: (١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م).

(٢) قال ابن خَلِّكان في ترجمة أبي العلاء: وقبره في ساحة من دور أهله، وعلى الساحة باب صغير قديم، وهو على غاية ما يكون من الإهمال، وترك القيام بمصالحه. وأهله لا يحتفلون به، وفي «معاهد التنصيص» للعباسي في ترجمته قال القفطي: أتيت قبره سنة خمسين وست مئة فإذا هو في ساحة من دور أهله، وعليه باب فدخلت فإذا القبر لا إحفال به، ورأيت عليه خبازى يابسة والموضع على غاية ما يكون من الشعث والإهمال. قال الذهبي: وقد رأيت أنا قبره بعد مئة سنة من رؤية القفطي فرأيت نحواً مما حكى. انتهى.

ويقال إنه أوصى أن يكتب على قبره:

هــذا جـنـاه أبي عـليَّ ... ومـا جَـنَـيْـتُ عـلىٰ أحَـدْ

وهو متعلق باعتقاد الحكماء فإنهم يقولون: إيجاد الولد وإخراجه إلى العالم جناية عليه لأنه يعرض للحوادث والآفات. انتهى. والظاهر أن هذا البيت لم يكتب على قبره ولم تنفّذ وصيّته (الطباخ).

سبعة أشبار ونصف، وعرضها ثلاثة، وفوق ذلك حجرة كبيرة مسنمة الشكل، وفوق هذه الحجرة حجرة أخرى هي لوحة القبر قد ذهب نصفها العلوي بما فيه من الكتابة وبقي منها النصف التحتاني وعليه هذه الكتابة:

١ـ بن سليمان رحمه الله (توفي)

٢ـ الثاني لخمس ليال مضت

٣ـ رمضان سنة وثمانين وخمس مئة.

ولما قرأت هذه السطور، وكان ذلك بعد عناء شديد أخذني العجب إلى أقصاه، والتفتُّ إلى مَنْ كان حاضراً من أهل المعرّة وسألته: أهذا قبر أبي العلاء؟ فقال: نعم، فقلت له: كيف يكون هذا قبره واللوحة التي على الضريح تنادي أن صاحب هذا القبر ممن توفي بعد الثمانين وخمس مئة، وأبو العلاء المعري توفي سنة ٤٤٩؟ فبين وفاتيهما أكثر من مئة وثلاثين سنة.

ثم لاحت مني التفاتة فرأيت لوحة أخرى ملقاة في زاوية الحجرة طولها ثلاثة أشبار ونصف، وعرضها شبران، عليها كتابة الخط الكوفي وقد مُحي منها السطر الأول ولم يبقَ منه سوى (بي)، ويظهر أن المحو (هذا قبر) وألف أبي، وعلى السطر الثاني والثالث العلاء بن عبد الله بن سليمان فيكون مجموع الكتابة: (هذا قبر أبي العلاء بن عبد الله بن سليمان) فتكون هذه اللوحة الملقاة في طرف هذه الحجرة هي لوحة قبر أبي العلاء بلا ريب.

ولما حصل لي هذا الإشكال، وصرت في شكّ في صاحب هذا القبر، أخذت في التحقيق والتأمّل، فرأيت أنَّ اللوحة الموضوعة على الضريح فيها شيء من الصُّفرة ولا شيء من ذلك في الأحجار الأربعة التي تحت اللوحة، وتأمّلت في اللوحة الملقاة

فوجدت نوع حجرها يشابه الأحجار التي تحت اللوحة فحصل بذلك عندي شيء من اليقين أنَّ هذا القبر هو قبر أبي العلاء، وأن اللوحة الملقاة في الحجرة هي لوحة قبره.

ثم جمعتنا مجالس مع كثير من أهل المعرّة من سُراتها وفضلائها شبانها وشيوخها، وكانت القصة موضوع حديثنا، فكان الكل يشهدون بطريق التواتر أن هذا القبر هو قبر أبي العلاء، غير أنَّ هذه الحجرة كانت قد تهدّمت منذ ستة وعشرين سنة أي في سنة ١٣٢٧، فأعاد بنائها السري الوجيه نورس باشا الحراكي ـ رحمه الله تعالى ـ كما هو مسطور على حجرة فوق باب الحجرة. فهنا تبيَّن أنَّ البنا (وهو من العوامّ طبعاً، ومن الصعب عليه بل وعلى غيره ممَّن يمارس قراءة الخطوط القديمة خصوصاً إذا كانت على الأحجار) لم يفرق بين حجرة وحجرة فوضع الحجرة المحرَّر عليها سنة وثمانين وخمس مئة بدل تلك، وكان فوق الأحجار ضريح من خشب قد جُلِّل بكساء أخضر على عادة ما يوضع فوق أضرحة الأولياء، فلما زار العلَّامة أحمد زكي باشا المصري ـ رحمه الله تعالى ـ المعرّة، وكان ذلك قبل زيارتي بنحو سنة، كلّف أهل المعرّة أن يرفعوا هذا التابوت فرفع للحال ورأيته موضوعاً على مَصْطبة في صحن المسجد، وأخبرني أهل المعرّة بسبب رفعه.

فلعلّ وجود هذا التابوت الخشبي فوق تلك الأحجار كان السبب في عدم الوقوف على هذه الحقيقة ممن زار قبر أبي العلاء من الباحثين، وظلّ ذلك إلى أن أتيح لنا الرحلة إلى المعرّة، ووفقنا لاكتشاف هذه الحقيقة، ويظهر أن صاحب السعادة لم يمعن النظر في هذه اللوحة؛ ليظهر له ما ظهر لنا وإلا فهو ابن بَجْدتها وذلك البحّاثة الكبير.

ولما قامت لديَّ هذه الدلائل وزال عني ذلك الشكّ، ذاكرت حضرة قائم مقام المعرّة نسيب بك النابلسي الدمشقي، وقائد الدرك فيها وقتئذ إبراهيم أفندي فسُرَّا جداً لهذه التحقيقات، وحضرا مع جمع حافل من أهل المعرّة إلى المسجد، وأحضرا

بنّاءً فرفعت اللوحة السابقة ووضعت اللوحة المحرّر عليها هذا قبر أبي العلاء الخ، وارتاح الجمع لهذه التحقيقات، لأنه لو بقيت اللوحة السابقة وفقدت اللوحة الأخرى من الحجرة، وحضر أحد الباحثين العارفين بقراءة الخطوط القديمة لجزم أنَّ هذا القبر ليس قبر أبي العلاء، ويتساءل عندئذ: أين قبره؟ ويحكم أنه قد درس.

وزيادة في التحقيق أحببت أن أبحث عن صاحب اللوحة السابقة، فراجعت تاريخي «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» فوجدت في الجزء الرابع منه (ص٢٧٣) ترجمة أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن أبي المجد بن عبد الله بن محمد بن سليمان المعرّي، وأن وفاته كانت سنة إحدى وثمانين وخمس مئة، فتكون اللوحة السابقة لقبر أبي اليسر هذا، وهو من أولاد أخي أبي العلاء، وكلمة «إحدى» قد مُحيت من اللوحة.

غير أن ما يجدر ذكره هنا أن ترجمته المنقولة عن «معجم الأدباء» لياقوت، وعن كتاب «الإنصاف والتَّحرّي» للكمال ابن العديم لم يذكر فيها مكان وفاته، ووجدت له ترجمة في «مختصر تاريخ الذهبي» للعلامة أحمد بن الملا، وهو من مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب، وقد ذكره فيمن توفي سنة ٥٨١، إلا أنه لم يذكر أيضاً مكان وفاته، ولم أجد بعد البحث أنَّ أحداً من أسرة أبي العلاء كانت وفاته في هذه السنة غير أبي اليسر هذا. لذا تحقَّق عندي أنَّ أبا اليسر كان مدفوناً ـ والله أعلم ـ بجانب قبر أبي العلاء، أو في الحجرة الثانية التي بجانب هذه الحجرة، لكنه درس ولم يبقَ من آثاره سوى هذه اللوحة التي وضعت غلطاً على قبر أبي العلاء.

وفي المسجد قبلية صغيرة طولها من الشرق إلى الغرب ٢٤ قدماً، وعرضها ٢٢، في جانبها الغربي قبر قديم عليه كتابة قديمة على لوحته وعلى جانبيه، أما على اللوحة فهي سورة الإخلاص، وأما التي على جانبه الشمالي فهي آية الكرسي وتتمّتها على حجرة فوق القبر، وأما على الطرف الآخر الملاصق لجدار القبلية فهي:

(١) ها.... أبو... بن أحمد بن مدرك.

(٢) رحمه الله سنة اثنين وأربعين وست مئة، وأحمد بن مدرك هو والد المدفون هنا أو جدّه، وهو من التنوخيين أسرة أبي العلاء، وله ذكر في كتاب «الإنصاف والتحرّي» الذي أدرجناه في الجزء الرابع من تاريخنا.

ولأحمد بن مدرك أخ رأيت له ذكراً في «عيون التواريخ» لابن شاكر في الجزء الرابع منه حيث قال: ولأبي سهل عبد الرحمن بن مدرك التنوخي المعري:

كأنَّ دمشقَ أفلاكٌ تدورُ تلوحُ بها الشُّموسُ أو البُدورُ
وأيَّ محلّةٍ قابلتَ منها رأيتَ كواكباً فيها تسيرُ

وشرقي هذه القبلية خربة طولها ٤٠ قدماً وعرضها ٢٤، وقد أراد بعض الجيران أن يحتكر قطعة من هذه الأرض يدخلها إلى داره، وبعد أن حفر هناك وجد عدّة قبور فعدل صاحب الدار عن أخذ تلك القطعة وردمت تلك الحفر، فتبيّن من هذا أنَّ أسرة أبي العلاء كانت تُدفن في هذه الخربة، وأنها تربتهم التي أشار إليها المؤرِّخون، وأن منهم من دفن داخل القبلية وفي الحجرتين المتقدمتين. والله أعلم.

محمد راغب الطباخ

* * *

دور الكتب[١]
في حلب قديماً وحديثاً[٢]

سادتي:

لم تقف همّة أجدادنا العظام وسلفنا الصالح عند تأسيس المدارس وتشييد بنائها، بل إنَّهم ذلّلوا كلَّ عقبة تعوق عن تحصيل العلم، وتحول دون الورود إلى مناهله واجْتناء ثمراته.

وقد وجدوا أنَّ من أعظم الوسائل لرفع منار العلوم ونشر ألوية المعارف، تأسيس خزائن الكتب في المدارس التي أنشؤوها وتنظيم شؤونها وإسنادها إلى أهل الفضل وذوي المعرفة والخبرة بها، فأخذوا في التَّباري في هذا المضمار، وتسابقوا في حلبة هذا الميدان، ووقفوا من الكتب على اختلاف العلوم والفنون ما لو بقي إلى الآن لعدّ بالملايين.

غير أنَّ الحوادث والمصائب العُظْمى التي حلَّت بالإسلام في كثير من الأقطار شتَّتت شمل هذه الخزائن ومزّقتها كلّ ممزّق.

---

(١) مجلة «المجمع»: ألقى الأستاذ محمد راغب الطباخ عضو مجمعنا العلمي هذه المحاضرة النفيسة في حفلة افتتاح دار الكتب الوطنية بحلب، ويرى القارئ وصف هذه الحفلة في باب الآراء والأفكار من هذا الجزء.

(٢) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان السابع والثامن، من المجلد السادس عشر: (١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م).

ولما انتبه العالم الغربي كان في طليعة أعماله أن وجّه نظره وهمّته إلى الاستحواذ على هذه الكتب بشتّى الوسائل فتمّ له ما أراد، وأنشأ في العواصم الأوروبية وغيرها مكاتب حافلة اشتملت على آلاف من الكتب العربية والفارسية والتركية، وكثيرٌ منها من النوادر التي لا تجد منها شيئاً في بلاد الشرق، وأكبُّوا على ترجمتها ونشرها والاستفادة منها وما زالوا دائبين على ذلك إلى وقتنا هذا.

ولو أردنا أن نذكر المكاتب التي شيَّدها سلاطين المسلمين وأمراؤهم وعلماؤهم وذوو اليسار منهم في مختلف الأقطار الإسلامية في الشرق والغرب لاحتجنا إلى مؤلف حافل، غير أنا بمناسبة الاحتفال في هذا اليوم بافتتاح: «دار الكتب الوطنية» التي هي فرع المجمع العلمي العربي في دمشق، أحببنا أن نقتصر بمحاضرتنا هذه على ذكر دُور الكتب في حلب قديماً وحديثاً، ومنها يعلم أنَّ الشهباء كانت غنية بهذه الذخائر الثمينة، جارت غيرها من البلاد العربية الكبيرة، ولا ريب أنَّ دور الكتب في الأمم هي مقياس رقيها وعنوان تقدّمها.

حركة العلم والأدب في القرنين الثالث والرابع:

يرشدنا التاريخ إلى أنَّ حركة العلم والأدب كانت في القرن الأول والثاني ضعيفة في حلب وما حولها إلا أنها أخذت تتقوَّى في القرن الثالث للهجرة، فقد ظهر فيها وفيما حولها، حفّاظ في الحديث، ونبغاء في الأدب، وحَسْبُكَ من هؤلاء: الوليد بن عبيد الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٤.

وكانت حلب في ذلك الوقت قد أخذت بحظّ وافر من العمران وازدحمت بالسكان فتطاولت إليها أعناق الملوك والأمراء، ومن جملتهم: سيف الدولة بن حمدان، فنهض إليها بجيشه واستولى عليها، وذلك سنة ٣٣٣، ومن ذلك الحين عظمت

الحركة العلميّة فيها وقامت دولة الأدب، وذلك لما كان عليه سيف الدولة من العلم والفضل، وإغداقه الأموال الطائلة على العلماء والأدباء، وصارت الشهباء في عهده محطّ الرحال، ومَوْئلاً لعظام الرجال، وأسّس فيها مكتبة عظيمة، عنها انبعثت أنوار العلوم، وتفجّرت ينابيع الفنون، ومنها انتهل المتعطشون.

خزانة كتب سيف الدولة:

قال الحافظ الذهبي في «تاريخه»: كان في خزانة الكتب بحلب عشرة آلاف مجلدة من وقف سيف الدولة بن حمدان وغيره، وكان من جملة المتولِّين على هذه الخزانة: ثابت ابن أسلم الشيعي المتوفى سنة ٤٦٠، فألّف كتاباً في كشف عوار الإسماعيلية، فحُمِل إلى صاحب مصر فَصَلَبه وأُحرقت تلك الخزانة.

وقال الإمام الكبير والوزير الخطير عمر بن العديم في كتابه «**الإنصاف والتَّحرِّي في دفع الظلم والتَّجرِّي عن أبي العلاء المعري**» الذي نشرناه ـ على نقص قليل فيه ـ في الجزء الرابع من تاريخنا «**إعلام النبلاء**»: وكان بحلب خزانة كتب في الشرقية التي بجامع حلب في موضع خزانة الكتب اليوم، واتفقت فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة، ونُهبت خزانة الكتب، وكان ذلك في زمن أبي العلاء، ولم يبقَ في خزانة الكتب إلا القليل، وجدَّد الكتب فيها بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان، ثم وقف غيره كتباً أخر بها.

وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي الشاعر المشهور[1] مؤلّف كتاب «سرّ الفصاحة» الذي طبع حديثاً بمصر[2]، هذه الخزانة في قصيدته التالية التي

---

(١) المتوفى سنة ٤٦٦.

(٢) نشر الكتاب عدة نشرات، منها بتحقيق علي فودة سنة ١٩٣٢.

كتبها من القسطنطينية، يداعب أحد أصدقائه بها قال فيها:

أَبلِغ أَبا الحَسَنِ السَّلامَ وَقُل لَهُ ... هَـذا الجَفاء عَداوَةٌ لِلشِّيعَةِ
فَلأَطرُقَنَّ بِما صَنَعتَ مُكابِراً ... وَأَبُثُّ ما لاقَيتُ مِنكَ لِنُكتَةِ
وَلأَجلِسَنَّكَ لِلقَضِيَّةِ بَينَنا ... في يَوم عاشوراء بِالشَّرقِيَّةِ
حَتّى أُثيرَ عَلَيكَ مِنها فِتنَةً ... تُنسيكَ يَومَ خَزانَةِ الصُّوفِيَّةِ

وهذا أبو الحسن سالم بن علي بن تميم الفقيه الكفر طابي المعروف بالحمامي، وكان من فضلاء حلب، وكان سُنِّي المذهب، وأبو محمد الخفاجي شيعي، وكان بينهما مودّة ومكاتبة، وبُنْكُه[1] من غوغاء الشيعة، ثم ذكر الصاحب ابن العديم ما يفيد أنَّ أبا العلاء المعرّي كان يغشى هذه المكتبة في تردّده إلى حلب.

ماذا حصل في هذه المكتبة بعد ذلك؟

قال ابن خَلِّكان في «تاريخه» في ترجمة أبي السعادات المعروف بالمسعودي: «حكى أبو البركات الهاشمي قال: لما دخل السلطان صلاح الدين إلى حلب سنة تسع وسبعين وخمس مئة، نزل المسعودي المذكور إلى جامع حلب، وقعد في خزانة كتبها الموقوفة، واختار منها جملة أخذها، لم يمنعه منها مانع، ولقد رأيته وهو يحشوها في عدل». وهذه الحادثة مما يؤاخذ عليها السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى ـ.

ثم أسّس بعد ذلك في أواسط القرن السابع القاضي الأكرم جمال الدين يوسف ابن إبراهيم وزير حلب دار كتب بحلب، وجمع بها ما لا يوصف، وكان هذا القاضي الوزير من غواة الكتب ومن عشّاقها المتفانين في حبها[2].

---

(١) البُنْك: أصل الشيء وهو معرب. يقال: رده إلى بُنكه أي: إلى أصله. وصميم كل شيء: بُنكه وخالصه.

(٢) أقول: هذه مكتبة شخصية وليست دار كتب.

قال ياقوت في «معجم الأدباء»: وكان القاضي الأكرم جمَّاعة للكتب حريصاً عليها جداً لم أرَ ـ مع اشتمالي على الكتب وبيعي لها وتجارتي فيها ـ أشدّ اهتماماً منه بها، ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد، وكان مقيماً بحلب، وبها توفي سنة ست وأربعين وست مئة.

وقال ابن شاكر في تاريخه «فوات الوَفَيَات» في ترجمة القاضي الأكرم: وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد، جمع من الكتب ما لا يُوصَف، وقُصِد بها من الآفاق، وكان لا يحبّ من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب، وكانت تساوي خمسين ألف دينار، وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب.

قال الصلاح الصفدي في «تاريخه» المرتَّب على السنين في جزء منه، هو الآن من مخطوطات المكتبة الأحمديَّة بحلب، في ترجمة القاضي الأكرم: «وله حكايات عجيبة في غرامه بالكتب، منها أنه وقع له نسخة مليحة من كتاب «الأنساب» لابن السمعاني بخطّه يعوزها مجلد من أصل خمسة، فلم يزل يبحث عنه ويطلبه من مظانّه فلم يحصل له، فبعد أيام اجتاز بعض مَنْ يعرفه بسُوق القلانسيين، فوجدوا أوراقاً منه فأحضرها إليها، وذكر القصة، فأحضر الصانع، وسأله عنه، فقال: اشتريته في جملة أوراق وعملته قوالب للقلانس، فحدث عنده من الهمّ والغمّ والوجوم ما لا يمكن التعبير عنه، حتى إنه بقي أياماً لا يركب إلى القلعة وقطع جلوسه، وأحضر من نَدَبَ على الكتاب كما يندب على الميت المفقود المؤيس منه، وحضر عنده الأعيان يسلُّونه كما يُسَلَّى من فُقِدَ له عزيز، والحكايات الدالة على عشقه الكتب كثيرة». انتهىٰ.

وكتاب «الأنساب» هذا كتابٌ عظيم في هذا الفنّ، ذكره ابن خَلِّكان في ترجمة مؤلفه عبد الكريم بن محمد المروزي، وأنه في ثمان مجلدات، وقد اختصره عزّ الدين بن

الأثير في ثلاث مجلدات، والمختصر هو الموجود بأيدي الناس والأصل قليل الوجود.

قال ذلك عنه ابن خَلِّكان، وهو من أهل القرن السابع.

وهذا الكتاب يحتاج إليه مزاولو علم الحديث والتاريخ والأدب والجغرافية، فإنه يوقفك على الصَّواب من أسماء الرجال والبقاع إلى غير ذلك من الفوائد، يوجد الآن منه نسخة نفيسة في مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا في الأستانة رقمها ١٠١٠.

وقد سبقنا الألمانيون إلى طبع هذا السِّفر النفيس بالفوتوغراف (المصوّر الشمسي)، وجاء منه نسخة إلى حلب إلى بعض باعَة الكتب، بيعت آخراً على ما أظنّ إلى مكتبة المدرسة الخلوتية، ولا أدري أطبعه الألمانيون على هذه النسخة الموجودة في الأستانة أم غيرها، وعلى كلّ فإن نسخه الأصليَّة نادرةُ الوجود.

مكتبة المدرسة الشَّرفيَّة:

ومن جملة المكاتب العظيمة التي أُسِّست في حلب: مكتبة العلَّامة شرف الدين الشيخ عبد الرحمن العجمي باني «المدرسة الشَّرَفية» وراء الجامع الكبير، واشتهرت عند الناس بـ«الأشرفية» وهو خطأ، وكانت وفاته سنة ثمان وخمسين وست مئة، في وقعة التتر لما دخلوا حلب.

قال مترجموه: «وقد وقف الواقف ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه المدرسة الكتب النفيسة من كل فنّ من حديث وتفسير وفقه ونحو وغير ذلك، فمن كتبها: «مسند الإمام الشافعي»، و«الأم»، وجميع كتب الإمام الشافعي، وكتب الأصحاب، و«تفسير الثعلبي» وغيره من التفاسير، وكـ«النهاية»، و«الحاوي الكبير»، و«الإبانة»، و«التتَّمة»، و«الذخائر»، و«الشامل»، (إلى أن قال): وكان بها أربعون نسخة من «التنبيه»، وجميع كتب الغزالي، وكانت أسماء الكتب مثبتة عند أقاربه في درج كبير فذهب في محنة تيمر».

مكتبة جامع منكلي بغا (الرومي):

* ومن دور الكتب في حلب: **جامع منكلي بغا المعروف الآن بجامع الرومي** في محلة باب قنسرين، أنشئ هذا الجامع سنة سبع وستين وسبع مئة هجرية.

قال أبو ذرّ في تاريخه «**كنوز الذهب**»: ووقف منكلي بغا كتباً نفيسة لهذا الجامع، ومنها: «التفسير» للقرطبي، و«التبصرة» لابن الجوزي، و«مجمع الأحباب» للحسيني، وغير ذلك من الكتب النفائس ـ وقد ذهب نصف «مجمع الأحباب»، وكان كله في مجلدين، فذهب مجلد واحد، وهو كتاب جليل ترجم فيه الأولياء والعلماء، وتكلّم فيه على طريق الصوفية[1] ـ ووضع الكتب في خزائن الجامع المذكور، وهذه الخزائن متقنة محكمة، فيها الصنائع[2] العظيمة على طريق النجّارين، وبلغني أنَّ الشيخ فربكاً ـ وهو من الصالحين ـ كان نجار ذلك.

والآن لا خزائن هناك ولا كتب، وقد رأيت منها تفسير القرطبي في بعض البيوت، وهو في (١١) مجلداً من أصل خمسة عشر، وقد بيعت هذه المجلدات منذ عهد قريب، ويغلب على الظن أنَّ هذه النسخة النفيسة أصبحت الآن في خزائن المكاتب الغربية.

دار الحديث:

* ومن دور الكتب: **دار الحديث التي أمر ببنائها أحمد مطاف باشا** من غلة دراهم قدرها عشرة آلاف دينار ذهباً، وقفها في سبيل الخيرات، وكتاب هذا الوقف محرَّر سنة ١٠٠٤، ودار الحديث هذه كانت شرقي تربة الواقف الكائنة في محلة الجلُّوم الملاصقة

---

(١) «مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب» للإمام محمد بن الحسن الواسطي الحسيني المتوفى سنة ٧٧٦ عن ستين عاماً، اختصر فيه «حلية الأولياء» لأبي نُعيم، وقد صدر الكتاب سنة ١٤٢٨ عن دار المنهاج بجدة، وعُني به: عبد الله حميدان، ومحمد الخضر، ومحمد زكريا المقداد.

(٢) في «كنوز الذهب»: الصفائح.

للخان المعروف بخان المطاف، وقد ذكر في كتاب وقفه ثمانين كتاباً خطياً وقفها على دار الحديث هذه، وهي كتب متنوِّعة من جملتها جلدان من «لسان العرب»، وصل فيهما إلى حرف الراء، وقد تبعثرت هذه الكتب، واستبدلت هذه الدار بدار في محلة وراء الجامع، دُعيت بدار الحديث أيضاً، لكنها في عداد المدارس المعطَّلة التي لا تستفيد منها الأمة.

هذا ما عثرت عليه في هذه العجالة من دور الكتب في الشهباء قبل الألف، وكلها أصبحت أثراً بعد عين، ونحن نلقي تَبِعَة ذلك على أمراء ذلك العصر وعلمائه، فإنه لولا تهاونهم وسكوتهم لحُفظ إلى هذا الوقت ذلك التراث المجيد، ولَكُنّا نقتطف منه ثماراً يانعة، ولكن إلى الله المشتكى.

ما أُنشيء من دور الكتب بعد الألف:

من أعيان الشهباء في أوائل القرن الحادي عشر رجل يقال له: **الشيخ أحمد القاري**، وكان خليفة للشيخ أبي بكر، صاحب المزار المشهور الذي يعدّ اليوم في جملة آثار حلب القديمة، وهو شرقي حلب إلى شماليها.

وكان هذا الرجل ذا تدبير وحُسْن رأي وصلاح ومعرفة وسَخَاء يد، محبوباً إلى الأمراء الذين يَرِدُون حلب، وإلى الأهلين فأُغدقت عليه الأموال، فبنى تلك التكيّة المعروفة إلى اليوم بتكية الشيخ أبي بكر، ووقف لها عقارات ومزارع، ونظم أمورها على ما يطلبه ذلك العصر.

مكتبة تكية الشيخ أبي بكر:

ومن جملة ما أسَّسه فيها مكتبة قيمة فيها مختلف العلوم والفنون، إلا أنها كانت كغيرها عُرضة للناهبين، ومنذ عشر سنين كان فيها بقيّة قليلة في خزانة تجاه ضريح الشيخ أبي بكر، ورأيت في جملة هذه البقية مصحفاً كريماً مُحلَّى جميعه بالذهب، وربعة أي أجزاء

من القرآن العظيم، وكل جزء منه محلًّى كذلك، ولا أكون مبالغاً إذا قلت لكم: إنَّ هذا المصحف وتلك الأجزاء تساوي أكثر من ٣٠٠ ليرة ذهبية، وقد فُقد ذلك كله، وتلك البقية من الكتب استلمتها دائرة الأوقاف منذ سنين قلائل أضافتها إلى كتب مكتبتها.

مكتبة التكيَّة المولويَّة:

وهذا الرجل هو الشيخ أحمد القاري، وقف كتباً قيمة أيضاً على التكية المولويّة، وهي مما بني في أواسط القرن العاشر، وكان هو مولوياً أيضاً، وأظنّ أن هناك أشخاصاً آخرين ممَّن تولوا أمر هذه التكية وقفوا فيها كتباً كثيرة، إلا أنها أيضاً كانت معرَّضة للنهب لعدم انتظام أمرها فَفُقِد منها الكثير، وفي فهرست كتبها الأخيرة عدد الكتب يناهز ١٢٠٠، ولما أحصتها دائرة الأوقاف بلغت ٩٥٠ كتاباً، إلا أنَّ المهم من هذه المكتبة لا يزيد على خمسين كتاباً، وهي اليوم بحالة لا يستفاد منها مطلقاً، وذلك مما يؤسف له، وقد قلنا: إن تَبِعة ذلك ملقاة على عاتق أمراء حلب وعلمائها، فهم المسؤولون عن ذلك كله: «فكلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته».

وفي القرن الثاني عشر في أواسطه وأواخره أُسِّس في الشهباء خمس مكاتب:

المكتبة الأحمدية:

الأولى: أسسها أحمد أفندي طه زاده[1]، وتعرف اليوم بالمكتبة الأحمدية، وهي في مدرسته التي أنشأها في محلة الجلُّوم، تحوي ألفاً وأربع مئة وخمسين كتاباً، تبلغ ثلاثة آلاف مجلدة كلها مخطوطة، وفيها الكثير من النفائس، وبالرغم عن تشديد الواقف في أمرها فإنها لم تسلم من أيدي العابثين، وعلى ما أقدِّر أنها نقصت من حين إنشائها إلى

---

(١) المتوفى سنة ١١٧٧. تنظر ترجمته ووقفه والكلام على مكتبة مدرسته في «إعلام النبلاء» في المجلد السابع ٧٠-٧٨.

الآن نحو ١٥٠ كتاباً منها نحو السبعين فُقدت منذ خمسين سنة إلى الآن، وهي بالنسبة إلى غيرها تعدّ محفوظة بالجملة.

ومن جملة نفائسها: «أُسطرلاب نحاسي» بديع الصنعة محكم لا تقل قيمته عن خمسين ليرة ذهبية، وفيها كرتان قديمتان من صنع أوربة؛ الواحدة سماوية، والأخرى أرضية، بلغني أن زائرة إيطالية عالمة بالآثار أكّدت أنَّ هاتين قلَّ أن تجد كرة معاصرة لهما في المتاحف الأوربية.

مكتبة المدرسة العثمانية:

الثانية: أسسها المرحوم عثمان باشا الدوركي باني المدرسة العثمانية، وأضاف إليها المرحوم تقي الدين باشا المدرس الحلبي كتباً مخطوطة ومطبوعة، وذلك في أوائل هذا القرن، وفيها من وقف هذين العظيمين كتب من النفاسة بمكان، ولم تسلم أيضاً من الأيدي الأثيمة لعدم انتظام أمر قوَّامها، وبعض هذه الكتب لقلّة الاهتمام بها أصابتها الأمطار فالتصقت أوراقها بعضها ببعض، والخلاصة: أن الخلل في هذه المكتبة ليس أقلّ من الخلل الواقع في أوقافها وهذا مشاهد معلوم.

مكتبة أحمد الكواكبي:

الثالثة: أسَّسها المرحوم أحمد أفندي الكواكبي في مدرسته التي أنشأها في الجلُّوم، وكانت لا تقلّ أهمية عن المكتبة الأحمديَّة، وقد بُدِّدت كلها. وبضع أجزاء منها آلَ إلى مكتبة الأوقاف العامة، وقد كان فيها عدّة كتب هي من تأليف بني الكواكبي، منها: ذيل في تراجم الرجال لمحمد أفندي الكواكبي، ورحلة نفيسة إلى أحمد أفندي الكواكبي جد أحمد أفندي الواقف.

مكتبة التكية الإخلاصية:

الرابعة: مكتبة أسَّسها الشيخ محمد البخشي، شيخ سجَّادة التكية الإخلاصية في محلة البياضة، وزاد فيها بعد ذلك الشيخ أبو الوفا الرفاعي جدُّ بني الرفاعي القاطنين بها الآن، ولم تسلم كغيرها من المكاتب، بل امتدّت إليها بعض الأيدي، ولم يزل منها جملة حسنة في خزانة آل الرفاعي، وهي غنيَّة بكتب الحديث والرجال وفيها ما لا يوجد في غيرها، وقد كنت نشرت نفائسها في مجلة مجمعنا العلمي العربي(١).

المكتبة المارونية:

الخامسة: المكتبة المارونية، وهي في دار البطريكية المارونية، وكون تأسيسها منذ قرنين، أقوله ظنّاً لا يقيناً.

وفيها من النفائس في كتب الأدب: «**مباهج الفكر ومناهج العبر**» لمحمد بن إبراهيم الأنصاري المعروف بالوطواط المتوفى سنة ثمان عشرة وسبع مئة، ومن هذا الكتاب عدَّة نسخ في الأستانة، وهو جدير بالطبع(٢).

---

(١) في الجزء السادس من المجلد الثامن: (١٣٤٧-١٩٢٩) وستأتي في الفصل الرابع من هذه المقالات في التعريف بالكتب والمخطوطات ص ٤١٥-٤٢٠.

(٢) نشر د. فؤاد سزكين مخطوطته كاملة بالنشر التصويري، في مجلدين (فرانكفورت ١٩٩٠م) معتمداً نسخة مجموعة فاتح، مكتبة السليمانية، إستنبول، وهي مكتوبة في حياة المؤلف.
وأفرد أحمد عبد الكريم سليمان القسم الرابع منه (النبات) بعنوان: «الحياة الزراعية في مصر في العصر المملوكي من كتاب مباهج الفكر».
واستخرج د. عبد العال عبد المنعم الشامي ما يخص جغرافية مصر، ونشرها في الكويت عام (١٩٨١) بعنوان: «صفحات من جغرافية مصر: من مباهج الفكر» قال في مقدمتها ص١٢: «وقد تناول الوطواط في كتابه معظم العلوم البشرية المعروفة في عصره، ففي المجالات الأدبية اهتم بالأنساب والتواريخ والجغرافية، بما فيها من وصف الأقاليم وذكر مسالك البلدان، كما اهتم بفروع من العلم الطبيعي كالنبات والحيوان والفلاحة، والمعادن والجواهر، بالإضافة =

مكتبات حلب في القرن الثالث عشر:

وفي القرن الثالث عشر أنشئ في المدرسة البهائية المعروفة بالصلاحية أيضاً مكتبة فيها الآن نحو ٧٠ كتاباً، وكذلك في المدرسة المنصورية في محلة الفرافرة، أنشأها الشيخ منصور السرميني، وقد تبعثرت وأحضرت البقية الباقية منها سنة ١٣٤٥ إلى مكتبة الأوقاف.

ومكتبة أنشأها إسماعيل باشا، واقف المدرسة الإسماعيلية في مدرسته، وقد بقي منها بقية أُحضرت أيضاً إلى مكتبة الأوقاف.

= إلى المعارف الفلكية والكونية. وكفى بذلك كله منبئاً عن معارف المؤلف الواسعة... ومن المصادر النادرة التي رجع إليها: كتاب «الأمصار» للجاحظ، و«الأنواء» للمرزباني». وكان هذا القسم عمدة محمد رمزي في كتابه: «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين حتى سنة ١٩٤٥».

وقد حقق الكتاب الدكتور عبد الرزاق الحربي، ونشرته الدار العربية للموسوعات سنة ١٤٢٠.

وأقام الوطواط كتابه على أربعة فنون، هي: (الفلك، والجغرافيا، والحيوان، والنبات) وقسَّم كل فن إلى تسعة أبواب. ثم اختصره في كتاب سماه: «نزهة العيون في أربعة فنون»، وتوجد نسخة من المختصر أيضاً، وهي في مكتبة (أحمد الثالث) بإستنبول.

قال الصفدي في «الوافي»: «ومن تصانيفه: «مباهج الفكر ومناهج العبر» أربع مجلدات، تعب عليه وما قصر فيه».

وينظر ما كتبه جرجس منش الماروني الحلبي في مجلة «المشرق»: السنة ١٠ (١٩٠٧م) في العدد (١٦ص٧٢٣) بعنوان: «المناهج في وصف المباهج». والفصل الخاص بالكتاب في «تاريخ الأدب الجغرافي» كراتشكوفسكي (نشرة القاهرة ١٩٥٧م ص٤٠٦). وحول مختصره: نزهة العيون، تنظر: (مجلة المجمع العلمي العربي دمشق: ٩ ص ٦٨١، سنة ١٩٢٩).

وأصبحت هذه الموسوعة مصدرًا مهمًا للكتب التي جاءت بعده، فأخذ منها النويري صاحب كتاب «نهاية الأرب» كذلك أخذ منها الدميري عند تأليفه كتاب «الحيوان».

ومكتبة في خزانة جامع السكاكيني في محلة القصيلة، بقي منها بقية أُحضرت أيضاً إلى مكتبة الأوقاف.

ومكتبة في خزانة المدرسة الطرنطائية في محلة محمد بك في باب النيرب عند بني البادنجكي لم يزل منها بقية إلى اليوم.

ومكتبة في المدرسة القرناصية في محلة الفرافرة، بُدِّدت أيضاً، وأصبحت في خبر كان.

ما أُسِّس من المكاتب في هذا القرن:

مكتبتان هامتان وقفهما رجلان جليلان في هذا القرن:

الأولى: مكتبة وقفها محمود أفندي الجزار[1]، وضعت بعد وفاته في الجامع الكبير.

والثانية: مكتبة الحاج عبد القادر الجابري[2]، بقيت في بيته بعد وفاته، ثم أُحضرت المكتبتان منذ خمسة عشر عاماً إلى المدرسة الخسرويَّة، ثم نُقلتا إلى المدرسة الشَّرَفيَّة، التي تقدَّم ذكرها، وأضيف إليها ما تقدّم ذكره من البقيّة الباقية في تكيّة الشيخ أبي بكر والمنصورية وجامع السكاكيني والمدرسة الإسماعيلية، واشتريت لها بعض الكتب المطبوعة، فتألف من ذلك مكتبة حسنة تابعة لإدارة الأوقاف، لكنها في حاجة كبرى إلى الزيادة مما طبع في مصر وأوربة وغيرها، ليكون منها مكتبة حافلة يرتوي منها

---

(١) المتوفى سنة ١٣١٤ عن ٦٣ عاماً رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته ونفائس مكتبته في «إعلام النبلاء» الجزء السابع: ٤٢٨-٤٣١.

(٢) المتوفى سنة ١٣٢٥ عن ٨٠ عاماً رحمه الله تعالى. قال الطباخ في ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٥٠٨: «وأخذ في اقتناء الكتب مخطوطها ومطبوعها، فكان له خزانة كتب نفيسة، ووقف مكتبته، وبقيت عند ولده الحاج مراد أفندي إلى سنة ١٣٤٣ فسعيتُ في نقلها إلى المدرسة الخسروية، ثم نقلت إلى المدرسة الشرفية في سنة ١٣٤٥، وهي ٦٠٠ مجلد». وذكر الطباخ في ترجمته الكثير من نفائس هذه المكتبة.

روَّاد مناهل العلم، فعسى أن تُلبِّي دائرة الأوقاف نداءنا، وتضع لها في ميزانيتها كل سنة مقداراً حسناً يكون سبب نموِّها وانتظامها.

ومنذ سنوات وقف الشيخ أحمد الصِّدِّيق ـ رحمه الله تعالى ـ كتباً مخطوطة ومطبوعة على مدرسة في محلة قارلق، ولم تزل هناك إلى الآن.

مكتبة المجمع العلمي بحلب:

وآخر مكتبة أُسِّست في الشهباء هي مكتبة فرع المجمع العلمي العربي بدمشق، وكان ذلك منذ أربعة عشر عاماً، أرسل إليها المجمع من تأسيسها إلى الآن نحو ١٩٠٠ مجلد، وفي هذه السنة أرسل إليها ١٢٠٠ كتاب، فصار فيها جملة صالحة، إلا أن المكان الذي كانت فيه، وهو تلك الحجرة التي هي في الطابق العلوي في خان الكمرك، التابع لدائرة الأوقاف، كان غير صالح لوضع مكتبة فيه، وذلك لضيقه وعدم ارتفاع سقفه، والإنسان يضيق به ذرعاً بعد قعوده فيه قليلاً، وتعتريه السآمة فيغادر المكان وهو لم يَشْفِ غليلاً، وأمكنة المطالعة تقتضي أن تكون فسيحة الأرجاء، مرتفعة السقف، ينشرح لها الصدر وترتاح بها النفس؛ ليكون ذلك سبباً للدأب في المطالعة والاسترسال فيها من غير ملل.

وطالما ذاكرت المجمع العلمي بدمشق وفي حلب عند حضور رئيسه وبعض أعضائه عن حالة هذا المكان فلم يُجْد ذلك شيئاً، إلى أن عُيِّن محافظ حلب المحبوب **الأمير مصطفى الشهابي**[1]، فذاكرته في ذلك لأول زيارتي له في فندق بارون على أثر حضوره، فوجدت منه أذناً صاغية وقلباً ملئ شَغَفاً بهذه المشاريع التي فيها مستنار العقول وحياة البلاد.

---

(١) الأمير مصطفى بن محمد سعيد الشهابي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، توفي سنة ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م عن ٧٥ عاماً رحمه الله تعالى.

ولم تقف همَّة المحافظ ـ حفظه الله ـ عند نقل هذه المكتبة من مكانها الضيِّق إلى هذا المكان المتَّسع الجميل، بل سعى لدى المجلس البلدي بأن يضع في ميزانيته مبلغاً وافراً في كل سنة ليبنيَ داراً عظيمة للكتب، ويبتاع منه ما يطبع في مصر وغيرها من الكتب العربية وغير العربية، ليجدَ المطالع فيها جميعَ ما يحتاج إليه وما يَشْفي غليله، ولا ريب أن هذا العمل مأثرة كبرى لمحافظنا، يحفظها له التاريخ ويخلد له جميل الذكرى، والمجلس البلدي يكون في عمله هذا قد اقتدى بالمجالس البلديَّة في البلاد الأوربيَّة فإن لها مكاتب عظيمة هي في تقدّم مستمرّ.

ولم نسمع في الشرق للمجالس البلدية مكتبة إلا للمجلس البلدي في الإسكندرية، فإن له مكتبة قيمة اشتملت على آلاف من المخطوطات والمطبوعات[١]، وهو في كل سنة يزيد في عددها وتنظيمها.

فإذا أبرز المجلس البلدي في حلب هذا المشروع لحيّز الوجود وقام بهذا العمل المجيد، يكون المجلس الثاني الذي قام في الشرق بأمثال هذه المشاريع النافعة للبلاد، وهو الأول من نوعه في البلاد الشامية.

والذي نرجوه من المجلس البلدي ومن دائرة الأوقاف إذا أحبَّا أن يكون لنا مكاتب تدرّ بالفائدة الكبرى على هذه البلاد أن لا يقتصرا على ابتياع ما طُبع وما يُطبع فحسب، بل عليهما أن يأخذا ما تعظم الفائدة به من آثار أسلافنا التي تسرَّبت إلى مكاتب الغرب، والأستانة ومصر بـ«المصوّر الشمسي»، ويستردّا بضاعتنا إلينا.

وأهم هذه الآثار بالنسبة إلى حلب، بل إلى بلادنا الشاميَّة جميعها ذلك التاريخ العظيم وهو: «بغية الطلب في تاريخ حلب» للإمام الكبير والوزير الخطير والمؤرخ الشهير الشاعر الناثر ذي الخط الجميل الذي ضُرِب به المثل ونوّه به شعراء عصره

---

(١) أي: المجلس البلدي في الإسكندرية.

كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم المتوفى سنة ٦٦٠، وقد أفردت لهذا الرجل العظيم ولتاريخه كتاباً خاصاً في سبعين صحيفة[١].

ومعظم تاريخه بخطِّه في ثمان مجلدات في سراي طوب قبو في الأستانة، وجزء منه في لوندرة، وجزء في باريس، وثلاثة أجزاء في مكتبة أيا صوفية في الأستانة، وهي بخطه أيضاً، وقد سبقتنا الحكومة المصرية إلى أخذ هذه الأجزاء بالمصوّر الشمسي، وقد كان المرحوم أحمد زكي باشا أرسل لي سبع أوراق، أخذها عن النسخة المصرية، وها هي أعرضها على أنظاركم الكريمة.

وجزء من هذا التاريخ العظيم في إحدى مكاتب الموصل قد استنسخناه، وفيه ترجمة نحو عشرين شاعراً من شعراء المعرّة قلَّ منا من يعرف واحداً منهم وإلى غير ذلك من الفوائد التي اشتمل عليها هذا الجزء وما هو بين أيديكم.

وباسترداد هذا الكتاب وأمثاله مما نحن في حاجة إليه وإبرازه لعالم المطبوعات، نزداد علماً بمجد آبائنا، ومعرفة ببلادنا الشاميّة، وما دثر منها والأحوال المدنية والعمرانية التي كانت عليها، وتقف على ما أنبتته من الرجال، وما قاموا به من جليل الأعمال، وما خلّدوه من الآثار، إلى غير ذلك من جليّ الفوائد وعظيم العوائد، وذلك ولا ريب من أعظم البواعث لنهضتنا واستيقاظنا من رقدتنا واسترجاع سالف عزّنا ومجدنا، والله الموفق.

والسلام عليكم ورحمة الله

في ١٨ / جمادى الأولى/ سنة ١٣٥٦هـ
٢٦ / تموز / سنة ١٩٣٧م.

محمد راغب الطباخ

---

(١) هو في الفصل الرابع من فصول هذه المقالات ص ٤٤٦-٥٤٣، بعنوان: (الكمال ابن العديم وتاريخه «بغية الطلب»)، وقد نشر في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية.

الرَّصافة والرَّقة[١]

من محاضرة قيمة لفضيلة الأستاذ الشيخ: محمد راغب الطباخ

عضو مجمع العاديات

الرَّصافة:

قال في «المعجم»: الرصافة مواضع كثيرة، منها رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة، بينهما أربعة فراسخ على طرف الهبرية، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام، وكان يسكنها في الصيف.

ووجدت في أخبار ملوك غسان: ثم ملك النعمان بن الحارث بن الأيهم وهو الذي أصلح صهاريج الرصافة وصنع صهريجها الأعظم.

وهذا يُؤْذِن بأنها كانت قبل الإسلام بدهر ليس بالقصير، ولعل هشاماً عمَّر سورها أو بنى بها أبنية يسكنها.

وقال أحمد بن يحيى: وأما رصافة الشام فإنَّ هشام بن عبد الملك أحدثها، وكان ينزل فيها الزيتونة[٢].

---

(١) مجلة «العاديات» الحلبية، العدد الأول من السنة الخامسة: (كانون الثاني وآذار ١٩٣٨) الموافق ١٣٥٦هـ.

(٢) الزيتونة: موضع كان ينزله هشام بن عبد الملك في بادية الشام، فلما عَمَّرَ الرصافة، انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات. كما في «معجم البلدان».
وقوله: (ينزل فيها) هكذا في «معجم البلدان»، ولعل الصواب: ينزل قبلها.

قال الأصمعي: الزوراء رصافة هشام وفيها دير عجيب، وعليها سور، وليس عندها نهر ولا عين جارية، إنما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور، وربما فرغت في أثناء الصيف فلأهل الثروة منهم عبيد وحمير يمضي أحدهم إلى الفرات العصر فيجيء بالماء في غداة غد؛ لأنه يمضي أربعة فراسخ أو ثلاثة ويرجع مثلها، وعندهم آبار طول رشاء كل بئر مئة وعشرون ذراعاً وأكثر، وهو مع ذلك ملح رديء، وهي في وسط البرية، ولبني خفاجة عليهم خفارة يؤدونها إليهم صاغرين، وبالجملة لولا حب الوطن لخربت.

وفيها جماعة من أهل الثروة؛ لأنهم بين تاجر يسافر إلى أقطار البلاد وبين مقيم فيها يعامل العرب، وفيها سوق عدة عشر دكاكين، ولهم حذق في عمل الأكسية، وكل رجل فيها غنيهم وفقيرهم يغزل الصوف ونساؤهم ينسجن.

وذكرها ابن بطلان الطبيب في رسالته إلى هلال بن الحسن، فقال: وبين الرصافة والرحبة مسيرة أربعة أيام، قال: وهذا القصر ـ يعني قصر الرصافة ـ حصن دون دار الخلافة ببغداد مبنيٌّ بالحجارة، وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفصِّ المذهب، أنشأه قسطنطين بن هيلانة. وجدَّد الرصافة وسكنها هشام بن عبد الملك، وكان يفزع إليها من البق في شاطئ الفرات، وتحت البيعة صهريج في الأرض على مثل بناء الكنيسة معقود على أساطين الرخام مبلط بالمرمر مملوء من ماء المطر.

وسكان هذا الحصن بادية، أكثرهم نصارى، معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع، والصعاليك مع اللصوص.

وهذا القصر في وسط بريَّة مستوية السطح لا يرد البصر من جوانبها إلا الأفق، ورحلنا منها إلى حلب في أربع رحلات اهـ. كلام ابن بطلان.

قال ياقوت: «وكان ابن بطلان كتب هذه الرسالة في سنة ٤٤٠».

وهؤلاء النصارى هم من بني تغلب، ذكر ذلك ياقوت في الكلام على الرضاب.

قال ثمة: أوقع خالد بأهل البِشر[1] في أيام أبي بكر، رضي الله عنه ثم عطف من البشر إلى الرضاب، وهو موضع الرصافة قبل بناء هشام إيَّاها، فانقشع مَن بها مِن تغلب فلم يلق كيداً.

وفي «الدر المنتخب» نقلاً عن الكمال بن العديم أنه نقل من كتاب «ربيع الأبرار في محاسن الأخيار وعيون الأشعار» لأبي أحمد العسكري، قال: حدثنا هشام بن محمد، قال: لمّا كثُر الطاعون في زمن بني أمية وفشا، كانت العرب تنتجع البر وتبني القصور والمصانع هرباً منه إلى أن ولي هشام بن عبد الملك فابتنى الرصافة، وكانت مدينة رومية بنتها الروم في قديم الزمان، ثم خربت، وكانت الخلفاء وأبناؤهم يهربون من الطاعون فينزلون البرية، فعزم هشام على نزول الرصافة، فقيل له: لا تخرج فإن الخلفاء لا يُطعَنون. قال: أو تريدون أن تجربوا فيَّ؟ فخرج إلى الرَّصافة كون أنها في البرية، وابتنى بها ـ بسبب ذلك ـ قصرين وأصلح بها صهاريج كثيرة.

ثم قال: وفي الرَّصافة دير مذكور للنصارى.

خراب الرصافة:

قال ابن الشحنة: قال في «الدر المنتخب»: ولما استولى التتر على حلب وأعمالها في سنة ثمان وخمسين وست مئة، أمَّنوا أهل الرصافة، وأبقوهم على ما هم عليه، فلما كَسَرَ المسلمون التتر، ولَّى عليها السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس صاحب الديار

---

(١) البِشرْ ـ بكسر أوله ثم السكون ـ: وهو في الأصل حُسن الملقى وطلاقة الوجه، وهو اسم جبل يمتد من عرض إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية،..... وهو من منازل بني تغلب ابن وائل. كما في «معجم البلدان».

المصريَّة والشاميَّة والياً، ولم يزل مقيماً بها إلى سنة ثمان وستين وست مئة أجلوا عنها وسكنوا سلمية وحماه وغيرها من البلاد ولم يبق بها أحد البتة.

وقفة على الرصافة ودمعة عليها:

بعد استراحة ساعة في مسكنة، استأنفنا السير إلى الرصافة على متون السيارات، ولا بد لنا أن نقدِّم شكرنا لحضرة الوجيه الأمثل السيد حسن بك، نجل الوجيه أحمد صديق باشا آل المدرّس؛ الذي تفضَّل أن يصحبنا في هذه الرحلة، وهو ممَّن له تمام المعرفة بتلك النواحي، وقد قالوا: قتل أرضاً خبيرُها، فسِرْنا بدلالته ومعرفته، فضرب بنا كبد البرية وتلك السهول المترامية الأطراف المنقطعة عن العمران والمفاوز التي لا ترى فيها عوجاً ولا أَمْتا، ولا قرية ولا ماء، إلا ما رأيناه في بعض الأمكنة من بعض العرب الرُّحَّل.

ولم نصل إلى الرصافة التي تبعد عن حلب ٢٠٠ كيلو متراً إلا وصارت الشمس في أفق السماء، وقبل أن نلقي عصا التَّرحال، أطفنا بسورها العظيم المحيط بها من جوانبها الأربع، وطول هذا السور ٥٠٠ متر، وعرضه ٣٠٠ متر، ثم عدنا إلى بابها الأعظم، وهو من جهة الشمال، ولما رأيناه أكبرناه، وتجلَّت لنا عظمة بنايتها، وأخذت الخشية منا مأخذها؛ من ضخامة تلك الأحجار، وعظم تلك العواميد، وإحكام ذلك البناء، وهذه الحجارة مأخوذة من جبال شمالي الرصافة بينها وبين الرقة.

ثم دخلناها وأخذنا بالتطواف في جهاتها الأربع، فوجدناها خاوية على عروشها ليس بها أحد البتة، ورأينا صهريجها الأعظم، وهو في غربيِّها.

وإذا تأمَّلت في أساطين ذلك وتلك القناطر المبنية، تأخذك الدهشة من ارتفاعها وعظمتها، وهناك ترى آثار البيوت والقصور، وكلها خربة، والأرض جميعها حفر متلاصقة حفرت لاستخراج ما كان فيها من الأواني الخزفية وغيرها، وفي شرقها كنيسة

عظيمة من بناء الملكة هيلانة؛ كأنها قلعة حصينة؛ إلا أن بعض القناطر التحتانية هي بناء عربي، وظهر لنا أنها بُنيت لاستمساك القناطر العليا الشاهقة التي خيف عليها السقوط.

وفيها على بعض قواعد العواميد كتابة باليونانية، ذكر فيها اسم المسيح عليه السلام، ولا ريب أنك بعد أن تراها وترى ما هنالك من آثار الدور والقصور؛ وتتذكَّر أنها كانت زاهرةَ العمران، يتمتَّع سكانها بأطيب العيش وأرغده، وأنها أصبحت من قرون قاعاً صَفْصَفاً ليس فيها أحد لا يأوي إليها إلا بعض الطيور والوحوش والهوام؛ ترسل الدمعة تلو الدمعة، وتأخذ العَبرة من نفسك مأخذَها، وتتحقَّق معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٦]، وأنَّ الملك لله الواحد القهار.

وبعد أن قضينا منها لبانتنا، سرنا إلى الدير الذي مركزه ـ وهو في شمالها ـ يبعد عنها رمية سهم، فوجدناه كذلك خالياً خاوياً، وهو أيضاً عظيمُ البناء مُحكمُهُ، إلا أنَّ معاول الخراب قد أثَّرت فيه تأثيراً بيِّناً، وفيه بعض الكتابات باليونانية أيضاً.

ثم اتَّجهنا نحو الشمال، فوصلنا الرقة بعد العصر فشاهدنا فيها بقية آثار الدولة العباسية والدولة الأيوبية.

بناء المنصور للرافقة التي دُعِيَت بعد ذلك الرقة وآثار الرشيد بها:

قال الطبري في حوادث سنة ١٥٤: «في هذه السنة عَزَم المنصور ـ فيما ذكر ـ على بناء الرافقة، ولما أراد ذلك امتنع أهل الرقة، وأرادوا محاربته، وقالوا: تعطل علينا أسواقنا، وتذهب بمعايشنا، وتضيق منازلنا، فهمَّ بمحاربتهم، وبعث إلى راهب في الصومعة هنالك، فقال له: هل لك علم بأن إنساناً يبني هاهنا مدينة؟ فقال: إن رجلاً يقال له: مقلاص يبنيها، فقال: أنا والله مقلاص».

وقال في حوادث سنة ١٥٥: «وفيها وجَّه المنصور ابنه المهدي لبناء الرافقة،

فشخص إليها فبناها على بناء مدينة بغداد في أبوابها وفصولها ورحابها وشوارعها، وسوَّر سورها وخندقها، ثم انصرف إلى مدينته».

وقال ياقوت في «المعجم»: الرافقة: بلد متَّصل البناء بالرقة، وهما على ضفة الفرات، وبينهما مقدار ثلاث مئة ذراع.

قال: وعلى الرافقة سوران بينهما فصيل، وهي على هيئة مدينة السلام، ولها ربض بينها وبين الرقة وبه أسواقها، وقد خرب بعض أسوار الرقة.

قال ياقوت: هكذا كانت أولاً، فأما الآن فإن الرقة قد خربت وقلب اسمها على الرافقة، وصار اسم المدينة الرقة، وهي من أعمال الجزيرة، مدينة كثيرة الخير.

ثم قال: قال أحمد بن يحيى: لم يكن للرافقة أثر قديم، إنما بناها المنصور في سنة ١٥٥ على بناء مدينة بغداد، ورتَّب بها جنداً من أهل خراسان، وجرى ذلك على يد المهدي، وهو وليُّ عهده، ثم إن الرشيد بنى قصورها.

وكان فيما بين الرقة والرافقة فضاء وأرض ومزارع، فلما قام علي بن سليمان بن علي والياً على الجزيرة، نقل أسواق الرقة إلى تلك الأرض.

وكان سوق الرقة الأعظم فيما مضى يُعرف بسوق هشام العتيق، فلما قدم الرشيد الرقة استزاد في تلك الأسواق، وكان يأتيها ويقيم بها فعمرت مدة طويلة.

وفي «القاموس»: قصر السلام للرشيد بالرقة.

وقال ياقوت في الكلام على هِرَقلة مدينة ببلاد الروم: كان الرشيد غزاها بنفسه، ثم افتتحها عَنوة، ثم قدم الرقة في شهر رمضان، فلما عيَّد جلس للشعراء، فدخلوا عليه وفيهم أشجع السلمي فبدر فأنشد:

لا زلتَ تنشرُ أعياداً وتَطْويها   تَمضي لها بكَ أيامٌ وتُمضيها

ولا تقضَّت بك الدنيا ولا برِحَتْ يطوي بك الدهـرُ أياماً وتَطويها
لِيَهْنِـكَ الفتـحُ والأيـامُ مقبلـةٌ إليـك بالنصر معقـوداً نواصيها
أمست هِرَقْلَةُ تهوي من جوانبها ونـاصرُ اللهِ والإسـلامِ يرميهـا
ملكتَهـا وقَتَلـتَ الناكثـين بهـا بنصرِ مَن يملـكُ الدنيا وما فيها
ما رُوعِيَ الدينُ والدنيا على قَدمٍ بمثْـلِ هـارونَ راعيـهِ وراعيهـا

فأمر له بعشرة آلاف دينار، وقال: لا ينشدني أحد بعده بشيء، فقال أشجع: والله لأمره ألّا ينشده أحد من بعدي أَحَبُّ إليَّ من صلة.

وكان في السَّبي الذي سبي من هرقلة: ابنة بطريقها، وكانت ذات حسن وجمال، فصادفت منه محلاً عظيماً، فنقلها معه إلى الرقة، وبنى لها حصناً بين الرافقة وبالس على الفرات، وسمَّاه: هرقلة، يحكي بذلك هرقلة التي ببلاد الروم، وبقي الحصن عامراً حتى خرب، وآثاره إلى وقتنا هذا باقية، وفيه آثار عمارة وأبنية عجيبة، وهو قرب صفِّين من الجانب الغربي.

وقال ياقوت في الكلام على النيل: والنيل أيضاً نهر من أنهار الرقة، حفره الرشيد على ضفة نيل الرقة والبليخ ودَير زكّى[1]، ولذلك قال الصنوبري:

كأنَّ عِنـاق نَهْـرَي دَيـرِ زَكّـى إذا اعتَنَقـا عنـاقُ مُتيَّمَـينِ
وَقَـتْ ذاكَ البليـخَ يـدُ الليـالي وذاك النيـلَ مـن مُتَجاوِرَيـنِ

(١) دَير زَكّى ـ بفتح أوله وتشديد الكاف مقصور ـ : هو دير بالرها. كما في «معجم البلدان». وفي موقع (قنشرين للكنائس والأديرة): كان دير زَكّى بظاهر مدينة الرقة ـ شرقها ـ في زاوية نهر البليخ بنهر الفرات، وكان من أديار السريان الكبرى المشهورة، شيِّد في المئة الخامسة للميلاد. وكان يضم مدرسة لاهوتية مشهورة، يقصدها الرهبان للتعليم، و بقي دير زكى حتى القرن العاشر للميلاد.

وقال في الكلام على هارونيَّة: مدينة صغيرة قرب مَرْعَش، بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام، استحدثها هارون الرشيد، وعليها سوران وأبواب حديد، ثم خرَّبها الروم، فأرسل سيف الدولة غلامه قرعويه فأعاد عمارتها.

قال أحمد بن يحيى: لما كانت سنة ١٨٣ أمر الرشيد ببناء الهارونية بالثغر، فبنيت وشحنت بالمقاتلة ومَن نزع إليها من المطوعة، ونُسبت إليه، ويقال: إنه بناها في خلافة أبيه المهدي، وتمَّت في أيام ابنه.

ساعة في الرقة وحالة قصر الرشيد فيها:

لما وصلنا الرقة حملنا قاربان صعدا للمرور إلى الضفة الأخرى الشمالية، وبين الشاطئ والبلدة نحو ٨٠٠ متراً، اجتزناها مشاة؛ إذ لا يوجد عَجَلات أو سيارات تقضي هناك لعدم العلم بوقت مجيء الناس، والتراب ناعم تغوص فيه الأقدام، ونالنا بذلك مشقّة عُظمى من ذلك التراب، ولا ريب أنَّ المارَّة ينالهم أشدّ العناء من ذلك، خصوصاً في فصل الشتاء والربيع.

وقصَّاد الرقة لا يُحصون كثرة، وتجارتها لا بأس بها، ويلتحق بها قرى كثيرة، وواردات البلدية فيها وافرة بالنسبة إليها، فكيف تبقى هذه المسافة الوجيزة بدون إصلاح ليسير الناس والحيوانات والعجلات بدون مشقة وعناء!

وعسى أن تسمع هناك هذا النداء فتبادر إلى إصلاح هذا الطريق وتعبيده وغرس الأشجار في طرفيه، فتكون قد أحسنت الصنع لهذه البلدة الطيبة وقامت بالواجب عليها.

وشرب أهل الرقة من ماء الفرات بواسطة قُرَب وغير ذلك تحمل على الدواب، فيضعون الماء في الخوابي إلى أن يَصْفُو بالجملة فيشربونه، وهذا فيه من المشقة ما فيه، وما

أحرى أهل الرقة بقول الشاعر:

فيـا عطَـشي وهـذا المـاءُ يجـري ويـا شـوقي وهُـوْ مِنّـي قريـبُ

وعجبنا أيضاً كيف أنَّ المجلس البلدي لا يقوم بمدِّ أقنية من الفرات إلى البلدة، توزع الماء في الشوارع والمساكن بعد تصفيته وتطهيره، وتريح أهل الرقة من عناء الاستقاء وتسقيهم ماءً زلالاً!

ولما دخلنا البلدة، استقبلنا أهلوها بكلِّ حفاوة على عدم معرفتنا بهم، ونخصُّ بالذِّكر منهم: السيد أحمد العبد الله أحد وجهائها، وبعد أن استرحنا قليلاً، ركبنا سيارات أُحضرت لنا، وسرنا نحو الشرق من الرقة إلى الرقة القديمة، فرأينا باباً عظيماً مرتفعاً في الهواء مبنياً من الطوب الأحمر سمحت الأيام ببقائه، ويظهر أنه من عهد الرشيد أو أبيه المهدي، وذكر لنا أنه يُسمَّى باب حلب.

ثم سرنا بضع دقائق فوصلنا إلى باب آخر مثله، آثار العظمة والزخرفة والمتانة بادية عليه أيضاً، وذكر لنا أنه يدعى باب بغداد، ومن هناك أخذنا في السير داخل أسوار الرقة وأبراجها، وهي محيطة بالرقة القديمة التي كانت تدعى الرافقة، وهي خالية خاوية، وفيها حفر كثيرة يتلو بعضها بعضاً، حُفرت للتنقيب فيها عن الآثار القديمة، وقد استخرج منها من سنين إلى الآن الشيء الكثير من الأواني الزخرفية والجرار وغير ذلك.

وهناك مسجد عظيم لم يبق منه سوى جدار القبلية الشمالي المطل على الصحن، وعلى ذلك الجدار كتابة تفيد أن قبليَّة الجامع مبنيَّة من إحدى عشرة قنطرة، وهي على نَسَق قناطر الجامع الكبير بحلب، وتفيد تلك الكتابة أنها من آثار زنكي والد نور الدين الشهيد، ولم نتمكَّن من قراءتها كلها لارتفاعها ولضيق الوقت.

وفي شمالي الصحن منارة عظيمة، تقارب منارة جامع مسكنة، ويظهر أنها بنيت مع بناء ذلك الجامع، وداخل السور بقية من جدار قصر الرشيد، وقد أخبرنا أن ما كان فيه من الحجارة نُقل إلى بعض أبنية الحكومة، وبئس العمل فإن حفظ مثل هذا الأثر العظيم كان من المتحتِّم على الحكومة.

ولما كنا هناك جاءنا يسعى الأستاذ الفاضل الشيخ مصطفى النعساني مفتي الرقة ووكيل القائم مقام بها وقتئذ، وهو شاب فاضل مهذَّب، وظل مرافقاً لنا هو والسيد أحمد العبد الله إلى أن عدنا إلى الشاطئ، فودَّعانا إلى الضَّيْعة الأخرى، فشكراً لهما على حُسن صنيعهما، ثم أقلَّتنا السيارات إلى الشهباء، وكان ذلك خاتمة المطاف.



قاعة دار الحفاظ[1]

أمام المدرسة الشَّرَفيَّة التي هي وراء الجامع الكبير من جهة الشرق، والتي فيها الآن دار الكتب الحديثة للأوقاف الإسلامية مع انحراف قليل نحو الجنوب، تجد زقاقاً غير نافذ في صدره باب صغير مصفَّح بالحديد تظنُّه باب دار للسكنى وليس الأمر كذلك، بل هناك أثر عظيم وبناء فخم هو:

دار القرآن العشائريَّة

احتوت هذه الدار على صحن صغير وبيت صغير عالٍ، له نافذة مطلَّة على الزقاق، وقاعة واسعة الأرجاء شاهقة البناء، سقفها قبة عظيمة، وفي جنوبها باب كبير يخرج منه إلى الرواق الشمالي من الجامع الكبير.

حجارة هذا الباب من جهة الجامع سُود وصفر، أحسن الباني هندسته وأفرغه في قالب بديع من الصنعة التي تشهد لذاك العصر بتقدُّم الفنّ المعماري في حلب.

مَنْ بنى هذه الدار، ومتى بنيت؟

قال الحافظ أبو ذرّ في تاريخه «كنوز الذهب في تاريخ حلب»:[2] «فمنها:

---

(١) مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية: الأعداد (١٠٣-١٠٦)، سنة ١٣٦٠هـ = ١٩٤١م.

(٢) جزء بخط المصنف في خزانة المرحوم أحمد تيمور باشا المصري، كان أرسله إلينا، فأخذنا ما فيه فيما يتعلّق بحلب إلى تاريخنا: «إعلام النبلاء»، وجزء آخر بخطه في خزانة المرحوم الشيخ كامل الغزّي، وقد نَقَل عنه كثيراً في تاريخه «نهر الذهب» (الطباخ).

ثم إن «كنوز الذهب» طبع بحلب سنة١٤١٧هـ طبعة رديئة، عن أصل خطي ناقص، ونُسب =

العشائرية وهي مطلّة على الجامع الكبير من شباك أُحدث في حائط الجامع بعد فتنة كبيرة، فشرط واقفها على نفسه أنه لا يمنع أحداً من الجامع أن يدخل ليستنجي فيها فسكنت الفتنة حينئذ.

قال والدي[1]: أنشأها بعد وفاة ولديه الحسن والحسين شيخنا علاء الدين علي ابن بدر الدين محمد بن محمد بن هاشم بن عبد الواحد بن أبي العشاير.

ثم إنَّ ولده ناصر الدين محمد غيَّر ذلك وجعل نفسه الواقف، وزاد ونقص في الأعيان والشروط. انتهى.

وشرط فيها مدرساً على مذهب الإمام الشافعي وملقناً للقرآن.

وهي لطيفة وفيها إيوان منجور من صنعة أولاد عبد الله.

قال ابن خطيب الناصرية في تاريخه «الدر المنتخب» في ترجمة علي بن محمد بن عشائر: وعمَّر دار القراءة بحضرة المدرسة الشرفية، واستمرَّ على ما هو بصدده إلى أن أدركته المنيَّة، وتوفي سنة ثمان وسبعين وسبع مئة بحلب. اهـ.

ورأيت قطعة من آخر وقفيّة هذه الدار، تفيد أن الواقفين هم عمر بن إبراهيم

= إلى الإمام سبط ابن العجمي، وهو لولده أبي ذر. وأبوذر هو موفق الدين أحمد ابن البرهان الحلبي (٨١٨-٨٨٤)، اشتغل بالعلم وتفنَّن فيه، وسمع الكثير، وأخذ عن شيوخ كثيرين بحلب ودمشق والقاهرة، وتعاطى الأدب أولاً، ومهر فيه، ثم توجَّه للحديث حتى برع فيه، وصنَّف وأكثر من قراءة الصحيحين، و«الشفا».

(١) هو الحافظ الكبير برهان الدين إبراهيم بن محمد بن خليل سبط ابن العجمي الحلبي المولد والوفاة، الشافعي المذهب، ولد سنة ٧٥٣بحيِّ الجلُّوم أحد الأحياء الحلبية العريقة بالعلم، وتوفي شهيداً بالطاعون قبل ظهر يوم الإثنين، ٢٦من شوال سنة٨٤١عن عمر مبارك: ثمان وثمانين سنة رحمه الله تعالى.

ابن قاسم، ومحمد، وعلي أولاد بني العشاير، جاء فيها بعد ذكر المقدمة وما وُقِف على هذه الدار ما نصُّه:

يكون ذلك وقفاً على مصالح المدرسة المعمورة بذكر الله تعالى المعروفة بإنشائه، جَعَل الله الجنَّة مثواه، الكائنة بحلب المحروسة شمالي الجامع الكبير الأموي، المطلّ شباكها إليه إلى جهة القبلة المشرّفة، ويقبض من ولي النظر أو التصرّف من ريع هذا الوقف المذكور، ويُصرف على عمارة وترميم ما تهدَّم من جدران المدرسة المذكورة وفرشها وتنويرها وأجرة خادم وأجرة سياقة الماء إليها، وما فضل بعدُ يأخذ الناظر لنفسه ثمن المتحصِّل، والباقي يدفعه في آخر كلِّ سنة لمن كان فقيراً من ذريّة الواقف واحداً كان أو أكثر ذكراً أو أنثى، يقسم الناظر بينهم على الفريضة، والباقي من الجهات الواقف الممنوح إلى الوليين المار ذكرهم (هكذا) على أولادهم وأولاد أولادهم ومن توفِّي منهم عن ولد أو ولد ولد عاد ما كان جارياً عليه من ذلك إلى ولده وإلى ولد ولده، وإذا انقرض من ينتسب إلى الواقفين المذكورين بأب من الآباء وبأم من الأمهات، عاد وقفاً على عُتقاء الواقفين، وإذا انقرضوا عاد وقفاً على الحرمين الشريفين، وعند انقطاع السبيل وتعذُّر الوصول، عاد وقفاً على الفقراء، وذلك في شهر رمضان المعظم سنة ستة وثمانين وسبع مئة، شهد بذلك:

عمر بن محمد بن عمر بن أبي جرادة، محمد بن عبد الله بن أبي جرادة، محمد بن عمر الحنفي.

وفي «كنوز الذهب» في ترجمة الإمام: محمد بن علي بن عشائر أحد الواقفين، عند كلامه على العشائرَّية: وقد درس بهذه المدرسة شمس الدين النوادي، وآلَ تدريسها بعد ذلك إلى بدر الدين محمد بن عمر الواقف، وكان جاهلاً فأخذته عنه ولم أدرس بها وألزمت بالنزول له عنها كرهاً، فلما توفي أخذها القاضي زين الدين بن النصيبي، وأخوه

القاضي شرف الدين، وقد أغلق هذا المكان بعد فتنة تمر، وصار مسكناً لأقارب الواقف يلعبون فيه بالشطرنج، فنزل فيها العلّامة المحقق شمس الدين محمد الأطعاني فأقام فيه ذاكراً قائماً، فلما توفي[١] سكنها الشيخ الصالح أبو بكر الحيشي[٢] ـ رحمه الله تعالى ـ

من سُكَّان هذه الدار ومُدرِّسيها

قال الرضيّ الحنبلي في تاريخه «دَرُّ الحَبَب» في ترجمة العلَّامة تاج الدين الشيخ عبد الوهاب العُرْضي، المتوفى سنة ٩٦٧: ثم إن الشيخ تاج الدين أفتى بحلب، ودرس بجامعها الأعظم وأمَّ به، وتزوج ببنت يحيى بن الحاضري، وأسكنها بالقاعة الملاصقة لدار القرآن العشائرية المشهورة الآن بالحيشية، وحظي بالجلوس بها عند شبَّاكها في محل سجادة شيخنا الصوفي التقي أبي بكر الحيشي وبصلاة بعض المخاديم عنده.

وفي «خلاصة الأثر» للمحبِّي في ترجمة شيخ الإسلام الشيخ عمر العُرْضي المتوفى سنة ١٠٢٤: «ولد المتقدم وشارح الشفاء»: وكانت ولادته بحلب بقاعة العشائرية الملاصقة لزاويتهم دار القرآن، شمالي جامع حلب سنة خمسين وتسع مئة.

وفي ترجمة أبي الوفاء العُرْضي المتوفى سنة ١٠٧١ ولد المتقدِّم الشيخ عمر: وتصدَّر للإقراء مدَّة حياته في دار القرآن الحيشية المنسوبة إلى أبي العشائر المطلّ شباكها على الجامع الكبير بحلب.

وَصْف الشيخ الغزّي لها في «تاريخه»

قال في الجزء الثاني من تاريخه «نهر الذهب» ص٢٥٨: قد اشتملت هذه الدار على إيوان في جهتها الشرقيَّة موجَّه غرباً، وعلى غرفة في جهتها الغربية في طول ٨ أذرع

(١) توفي سنة ٨٠٧ كما في «تاريخنا» ج ٥ ص١٤٤ (الطباخ).
(٢) قطن في هذه الدار سنة ٨١٦ إلى أن توفي ٨٤٦ كما في ترجمته في «تاريخنا» (الطباخ).

وعرض ٤ أذرع مركبة فوق دهليز (بوابة) في الزقاق المذكور يرقى إليها بدرج في شرقي الدار ماراً على سطح الإيوان المذكور، وفي جهتها الشرقية قاعة عالية في وسطها بئر ولها شباك وثلاثة منافذ على صحن الدار، ولها بابٌ عظيم جميل على الرواق الشمالي من الجامع الكبير الأموي طول القاعة ١٢ع و١٥ ط، وعرضها ١٠ع و١٠ط، وكانت تعرف بقاعة الحيشية نسبة إلى أبي بكر محمد بن أبي بكر الحيشي، والظاهر من ترجمة المذكور أنَّ بابها المفتوح إلى الرواق الشمالي من الجامع حادث، وأنه كان في محله شباك كما أن هذه الدار لم تكن باقية على حقيقتها، بل هي مأخوذ منها إلى البيوت المجاورة لها، والله أعلم.

ولهذه القاعة مُدرِّس يدرس في كل يوم له راتب شهري قدره مئة وخمسون قرشاً، وقد تواتر عندنا أنَّ قريتي كرت وخيام في قضاء عينتاب موقوفتان على الدار المذكورة تُصرف غلَّتها على تعميرها وترميمها وعلى راتب المدرس، وهما جاريتان الآن تحت تولية المتولي على وقف بيت الخطيب، ولا نعلم واقفها هل هو من بيت بني العشائر، أم من بيت الخطيب، أم من بيت الشيخ عبد الوهاب العرضي؟

ويوجد في شرقي القاعة باب مسدود ينفد منه إلى دار في جوارها يدّعيها جماعة أنها وقفٌ عليهم لأنهم من نسل الشيخ عبد الوهاب العُرْضي الذي جعل القاعة سكناً له كما يفهم من ترجمته، وبعض الناس يزعم أنَّ الدار المذكورة وقف على القاعة والحقيقة مجهولة، ورأيت في السجل كتاب وقف حافل وقف فيه بانيها علاء الدين المتقدِّم ذكره شيئاً كثيراً على الدار المذكورة تاريخه سنة ٧٨٦. انتهى ما في «نهر الذهب».

وآخر من عُيِّن للتدريس فيها الشيخ محمد علي الكحيل المتوفىَّ ـ كما في ترجمته في «تاريخنا» ـ سنة ١٣٠٤، وكان عالماً فاضلاً، ولي أمانة الفتوى بحلب، وبعد وفاته عُيِّن فيها ولده.

وهو لم يزل في عداد الأحياء، منعه من التدريس فيها ساكناها الآتي ذكرهما فتعطَّل التدريس فيها بتاتاً وانقطع راتبه الذي كان يُؤْخذ مع رواتب مدرِّسي الجامع.

وأخبرني الشيخ ناجي الكردي قيِّم الجامع الكبير، وهو في عداد الأحياء، ومن الواقفين على أحوال هذه الدار أنه كان يقرئ الأطفال فيها القرآن الشيخ نور ابن الشيخ سعيد الركبي، وبقي إلى أن توفي سنة ١٣٢٠، وقد كان أبوه من قبله يقوم بذلك، وراتب تعليم القرآن يُؤْخذ مع رواتب الجامع الكبير، وبعد وفاته بقي هذا المكان مغلقاً، ومفتاحه عنده نحو ثمان سنين، فكلَّفه في نواحي سنة ١٣٢٨ مفتي حلب وقتئذ الشيخ محمد العبيسي أن يُسلِّم هذا المكان إلى الأخوين الشيخ زكي والشيخ ثريا، وهما من العوام إلا أن للناس فيهما اعتقاداً، وهما من بيت الخطيب، واستحصلا على التَّولية لهذا المكان بموجب براءة سلطانيَّة، وسَكَنا هذه الدار بأهلهما، فتعطَّل فيها التدريس وتعليم القرآن، ثم مات الشيخ ثريا فاستقلّ بها الشيخ زكي إلى أن مات في تاسع شعبان سنة ١٣٥٩. انتهى ما أخبرني به الشيخ ناجي.

إحياء هذا الأثر وإعادته إلى ما بُنِيَ لأجله

على أثر وفاة الشيخ زكي الخطيب وفَّقني المولى تعالى لإحياء هذا الأثر وإعادته إلى ما بُني لأجله، وذلك أني أخبرت مدير الأوقاف الحالي السيد عادل بك الأتاسي(١) عن أمر هذه الدار وما بُنيت له، وأنها من جملة الآثار القديمة بحلب، وأنَّ إشغال المومأ إليه لها بأهله كان بغير حق، وقد أدَّى لتعطيل التدريس فيها وتعطيل تعليم القرآن العظيم، وأنَّ من الضروري إحياءها وإرجاعها إلى ما بُنيت له بأن تنقل دار الحفَّاظ التي

(١) السيد عادل بن محيي الدين بن حامد الأتاسي، مدير أوقاف حلب، ورئيس المالية فيها، توفي عام ١٩٦٨ عن ثمانين عاماً.

أسَّسها الوجيه الفاضل السيد يحيى الكيالي حينما تولَّى إدارة الأوقاف وأسكنها في قبلية المدرسة الهاشمية في محلة الفرافرة، ثم نقلتها منها لصغر هذه القبلية والتشويش فيها على ساكنيها من طلاب المدارس العلمية، وذلك منذ ثلاث سنين إلى غرفة التدريس في المدرسة السعيدية في محلة البياضة التي هي ضمن الجامع المعروف بجامع السروي بعد ترميم تلك الغرفة التي كانت مشرفة على الخراب وتبليطها بسعي السيد عادل بك المومأ إليه لما كان مديراً للأوقاف للمرة الأولى.

ولما علم بأمر دار القرآن العشائريَّة، حضر إليها بنفسه، وشاهد حالتها وما آلت إليه، فاهتمَّ بترميمها وتبييضها، وكتب لي فنقلت دار الحفاظ إليها، وذلك في شهر ربيع الأول من هذه السنة، وهي سنة ١٣٦٠هـ.

دار الحفَّاظ الآن

دار الحفَّاظ مؤلفة من إحدى وعشرين تلميذاً، ستة منهم شرطهم أن يكونوا من الحفاظ فيقرؤون بالروايات السبع، وأستاذهم وهو مدير هذه الدار القارئ المتقن الشاب الشيخ نجيب الآلا[1]، من خرِّيجي المدرسة الخسروية، وأحد من تلقَّى القرءات السبع على الشيخ أحمد التيجي المصري ثم المدني[2] لما حضر إلى مدينة حلب مهاجراً

---

(١) هو شيخ قراء حلب العلامة محمد نجيب خياطة المولود في حلب سنة ١٩٠٥ والمتوفى فيها سنة ١٩٦٧ رحمه الله تعالى.

(٢) هو العلامة المقرئ الشهير السيد أحمد بن حامد بن عبد الرازق الحسيني التِّيجي، ولد في أبي تيج بمصر سنة ١٢٨٥، وأخذ عن والده، والشيخ محمد سابق، والشيخ عبد العزيز كحيل، ومحمد علي الضبَّاع، ورحل إلى الحجاز سنة ١٣١٦ وأقام بالمدينة المنورة إلى سنة ١٣٣٥، ثم رحل إلى حلب وأقام فيها، وعاد إلى مكة سنة ١٣٤٧، وعمل بمدرسة الفلاح، وتوفي بمكة سنة ١٣٦٨ وصلي عليه بالمسجد الحرام، ودفن بالمعلاة، رحمه الله تعالى. ينظر «الدليل المشير» لتلميذه أبي بكر الحبشي بتحقيقي ص ٣١-٣٢.

بعد الحرب العالمية وعُيِّن بهذه الوظيفة وبقي عدَّة سنوات ثم عاد إلى مصر ثم إلى مكة المكرمة وهو فيها اليوم، في المعهد السعودي.

والمدَّة المحدودة لتلَّقي الروايات السبع هي أربع سنين.

وخمسة عشر منهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ومدتهم ثلاث سنين ومن لم يحفظ من هؤلاء ومن السابقين في المدة المعيّنة فإنه يخرج. ولم يكن لهؤلاء مدة معيّنة فخشية أن تُتخذ دار بطالة سعيت في تحديد المدَّة، ولهؤلاء معلِّمان هما الشيخان الفاضلان: الشيخ أحمد المصري، والشيخ بكري الناطور.

وبهذه الدار قد كَثُر حفاظ القرآن بحلب، وتعدّد من يقرأ بالروايات السبع بعد أن فقد مدّة من يقرأ بها، وهي حَسَنة تذكر للساعي بها والمعتني بشأنها، وله من الله الجزاء الأوفى.

قلت فيما سبق: إنَّ باب هذه الدار صغير، ولا ريب أنه لا يتلاءم مع عَظَمة القاعة الداخليّة، فنأمل من دائرة الأوقاف أن تُعلي باب هذه الدار وتُوسِّعه بصورة يتلاءم مع الداخل ليدلّ الظاهر على الباطن ويلفت نظر المارّة، ويُعلم أن هناك أثراً عظيماً، من أهم الآثار القديمة بحلب[1].

محمد راغب الطباخ

---

(١) الجامعة ـ ونحن نرجو إدارة الأوقاف الموقرة كذلك زيادة الاعتناء بهذه الدار فتزيد عدد طلابها برواتب تعينهم على العيش تشجيعاً لحفظ القرآن العظيم، ونشره وترسل منهم إلى القرى لتعليمه الناس متقناً، وأن تعيِّن فيها مع أساتذتها الفضلاء أساتذة من القراء المجيدين أمثال القارئ الشيخ عبد الوهاب المصري، أحد تلاميذ أستاذنا التيجي، وأن تنصب على مدخلها لوحة كبيرة يُكتب عليها بالخط الجميل: دار حفاظ القرآن (مجلة الجامعة الإسلامية).

افتراء ابن بطوطة على ابن تيمية[1]

ذكَّرني ما جاء في الجزء الرابع من المجلَّد السادس عشر من «مجلة المجمع العلمي» في ص١٩١ من قول رئيسه عن كتاب «تعاليم ابن تيمية الاجتماعية والسياسية» تأليف صديقنا السيد هنري لاوست[2]، نفذ مؤلف هذا الكتاب إلى تاريخ شيخ الإسلام ابن تيمية، وغاص كما يغوص العالم الذي لا مأرب له غير خدمة الحقائق في كتب هذا الإمام... إلخ.

إن بعض من ينتقده ويطعن في عقيدته ويقول: إنه يذهب إلى القول بالجهة يستند إلى ما ذكره الرحَّالة ابن بطوطة في رحلته (في ص٥٢): «وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين ابن تيمية كبير الشأن، ويتكلَّم في الفنون إلا أن في عقله شيئاً، وكان أهل دمشق يعظِّمونه أشدَّ التعظيم ويعظهم على المنبر (إلى أن قال): وكنت إذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظُ الناس على منبر الجامع ويُذكِّرهم فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر».

وقد تبيَّن لي بعد البحث والتدقيق ولا أعلم أحداً تنبه لذلك قبل الآن[3] أن هذه

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان الثالث والرابع، من المجلد السابع عشر (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م).

(٢) المستشرق الفرنسي الذي يعدُّ أهم من تخصَّصوا في ابن تيمية. وللدكتور محمد بن شقرون كتاب «هنري لاست» طبع عام ٢٠٠٥ في ٤٧٧ صفحة.

(٣) كتب في هذا الموضوع الأستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار في مجلة دمشق ج١٠ ص٣ (الطباخ). ينظر: «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» للبيطار. صـ٤٧-٤٨. ولمجيزنا العلامة عبد الهادي=

القصة من وضع ابن بطوطة، وأنها محض افتراء على شيخ الإسلام ابن تيمية، وإليك البيان:

قد ذكر ابن بطوطة نفسه في ص٥٠ من «رحلته» أنه دخل دمشق يوم الخميس التاسع من رمضان عام ستة وعشرين (وسبع مئة) ونزل بالمدرسة المالكية المعروفة بالشرابشية.

وقد جاء في «الدر المنتخب في تاريخ حلب» للقاضي علاء الدين ابن خطيب الناصرية[1] في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية ما نصُّه بعد كلام طويل: «وهذا الثناء عليه، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، ثم جَرَت له محن بسبب فتواه في مسألة الطلاق الثلاثة وشد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، أوجبت القيام عليه وحُبِسَ مرَّات بالقاهرة والإسكندرية ودمشق، وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق، وحَصَل له في بعضها تعظيمٌ زائد من السلطان. وآخر الأمر وَرَدَ مرسومٌ شريفٌ من السلطان في شعبان سنة ستّ وعشرين بجعله في القلعة في قاعة حَسَنة، وأُجري إليها الماء... الخ»، ثم قال في آخر ترجمته: «توفي معتقلاً ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبع مئة».

وقال ابن شاكر الكتبي في تاريخه: «فوات الوفيات» في أواخر ترجمة ابن تيميَّة ما نصُّه: «وَوَرَدَ مرسوم السلطان في شعبان من سنة ستٍّ وعشرين بجعله في القلعة، فأُخْليت له قاعة حسنة، وأُجْري إليها الماء، وأقام فيها ومعه أخوه[2] يخدمه، (إلى أن

= التازي محقق «رحلة ابن بطوطة» مقالة عن زيارة ابن بطوطة دمشق وكلامه عن ابن تيمية، نشرت في مجلة «العربي» في العدد (٥٥٣) سنة ٢٠٠٤ بعنوان: «لقاء الفقيه والرحالة».

(١) من مخطوطات مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب، وقد تكلمت عليه في الجزء الرابع من المجلد السادس عشر، ص١٨٦. (الطباخ).

(٢) أخوه الذي حَبَس نفسه معه اسمه عبد الرحمن، وترجمته في: «الدرر الكامنة»: (ج٢ ص٣٢٩) (الطباخ).

قال): «وأقبل ـ وهو بالحبس ـ على التلاوة والعبادة والتهجُّد حتى أتاه اليقين فلم يفجأ الناس إلا نعيه وما علموا بمرضه، ثم قال: وكانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبع مئة».

فقد اتفق هذان المؤرِّخان على أنه اعتقل في شعبان سنة ٢٦، وظلَّ معتقلاً إلى أن أتاه اليقين. وابن بطوطة يقول: إنه دخل دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان[١]، وأنه سمعه يوم الجمعة العاشر منه يقول ما قدَّمنا ذكره عنه مع أنه ـ باتفاق المؤرخين ـ كان في شهر شعبان معتقلاً فكيف سمعه وهو معتقل وقتئذ[٢]؟!

---

(١) سنة ٧٢٦، والفارق الزمني بين سجن ابن تيميَّة ودخول ابن بطوطه خمسة وعشرون يوماً. وسيأتي مناقشة ذلك فيما سأنقله عن المحقق عبد الهادي التازي.

(٢) قال مجيزنا المؤرخ عبد الهادي التازي في مقالته «لقاء الفقيه والرحالة» المنشورة في مجلة العربي: «إنَّ ابن بطوطة في (معلومته) عن تقي الدين ابن تيمية كان يتحدث عن زيارته لدمشق عام ٧٢٧هـ وليس عن زيارته الأولى ٧٢٦هـ، ومما يثبت ذلك وجود تأليف يتعلق بالحديث الشريف، مكتوب بخط ابن بطوطة نفسه عام ٧٢٧هـ بدمشق، بالمدرسة العزيزية، نسخه لصديقه الشيخ علي السخاوي المالكي الذي كان تعرّف عليه ضمن علماء دمشق! ذلك التأليف هو «المفهم لما أشكل من تلخيص حديث مسلم» لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي دفين الإسكندرية عام ٦٥٦هـ. فبمناسبة الزيارة الثانية التي قام بها ابن بطوطة لدمشق حيث كانت له بها زوجة ستنجب ولدًا، كان يبعث له الرحّالة من الهند بمساعدات مالية (ج٤، ص ٣١٦).... بتلك المناسبة وجد من الوقت ما يسمح له بانتساخ بعض أجزاء «المفهم».

ومما يثبت ذلك أن والدة ابن تيمية تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه، فقام بإطلاق سراحه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية، وكان ابن بطوطة إذ ذاك بدمشق فحضر مجلسه. وقال التازي: «فمع تأكدنا من أن ابن بطوطة كان بدمشق عام ٧٢٧هـ، ومع عدم ما ينفي تدخل والدته من أجل العفو عن هذا الرجل الذي ظل ضيفًا مستديمًا على السجون، ألا يمكن أن نجعل من الرحلة مصدرًا معاصرًا شاهدًا لوجود فترة سراح أخرى كان يتمتع فيها ابن تيمية بحريته، قبل أن يصدر الأمر في الأخير بتاريخ تاسع جمادى الآخرة عام ٧٢٨هـ = ٢٥ أبريل=

هذا ـ ولا ريب ـ محض افتراء، ويؤيِّد قولنا: إنَّ هذه القصة مُفْتراة من ابن بطوطة ما قاله الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» في ترجمته (ج٤ ص٨٠): «قال شيخنا أبو البركات ابن البلفيقي: حدَّثنا بغرائب مما رآه فمن ذلك، أنه زعم أنه دخل القسطنطينية، فرأى في كنيستها اثني عشر ألف أسقف، وقرأت بخط ابن مرزوق: أن أبا عبد الله بن جزيّ نمَّقها وحرَّرها بأمر السلطان أبي عنان، وكان البلفيقي رماه بالكذب فبرَّأه ابن مرزوق وقال: إنه بقي إلى سنة سبعين ومات».

والقاعدة عند علماء الحديث وأصوله: أنَّ من حفظ حُجَّة على من لم يحفظ، والجرح مُقدَّم على التعديل، فتبيَّن بهذه النقول التاريخيَّة، وبما ذكره الحافظ ابن حجر أنَّ هذه القصة مكذوبة على ابن تيمية، وأنه بريء منها.

وقد ظفرت في مجموع مخطوط بقصيدة من نَظْم شيخ الإسلام ابن تيمية تُعْرِبُ عن عقيدته، فأحببت ذكرها هنا وهي:

يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي	رُزِقَ الهدى مَنْ للهداية يسألُ
اسمع مَقَالَ محقِّقٍ لا ينْثني	عن قولِهِ يوماً ولا يَتَحَوَّلُ
حُبُّ الصحابة مذهبي لي مذهبٌ	ومودَّةُ القربى بها أتوسَّلُ

= ١٣٢٨م بتجريده من كتبه وأدواته وقلمه قبل أن يدركه أجله في السجن ليلة الاثنين ٢٠ ذي القعدة ٧٢٨هـ = ٢٦-٢٧ سبتمبر ١٣٢٨م، بمعنى أن ابن تيمية كان يتمتع بحريته، وأنه عاد إلى نشاطه، أثناء زيارة ابن بطوطة ثانية لدمشق عام ٧٢٧هـ.

وانتهى إلى هذه النتيجة: «إن الذي أريد أن أقوله بوضوح بعد وجود ما يثبت حضور ابن بطوطة بدمشق عام ٧٢٧هـ = ١٣٢٧م، هو أن الرحالة المغربي يمسي معتبرًا مصدرًا معاصرًا من مصادر الحديث عن ابن تيمية. وأنه لا يجوز لنا أن نهمل معلومات الرحلة، بل علينا أن نقرأها قراءة جديدة انطلاقًا مما قدمناه، وانتهاء إلى أن الهدف يبقى دائماً هو البحث عن الحقيقة والحقيقة وحدها».

ولكُلِّهم قَدَمٌ عَلَتْ وفضائلٌ ... لكنَّما الصِّدِّيق منهم أفضلُ
وأقول في القرآن ما جاءت به ... آياتُهُ فهو القديمُ المُنْزَلُ
وصحيحُ أخبار الصفات أُمرُّها ... حقّاً كما ذكَرَ الطّرازُ الأولُ
وأردُّ عُهْدَتَها إلى نقَّالها ... وأصونُها عن كلِّ ما يُتخيَّلُ
وأقول: قالَ الله جلَّ جلالُهُ ... والمصطفى الهادي ولا أتأوَّلُ
قُبحاً لمن نَبَذَ القُرانَ وراءَهُ ... وإذا استدلَّ يقولُ قال الأخطلُ (١)
وأُقِرُّ بالميزان والحوض الذي ... أرجُو بأني منه ريّاً أنهَلُ
وكذا الصِّراط على جهنَّم مَدُّهُ ... فَمُسَلَّمٌ نَاجٍ وآخَرُ مُهمَلُ
والنار يَصْلاها الشَّقيُّ بحكمةٍ ... وكذا التَّقيُّ إلى الجِنَانِ سيدخُلُ
والمؤمنون يَرَوْنَ حقاً ربَّهم ... وإلى السماء بغيرِ كيفٍ ينزلُ
ولكُلِّ حيٍّ عاملٌ في قبرِهِ ... عَمَلٌ يقارنُهُ هناك ويُسألُ
هذا اعتقادُ الشافعيِّ ومالكٍ ... وأبي حنيفةَ ثمَّ أحمدَ يُنْقَلُ
فإن اتَّبعتَ سَبيلَهم فَمُوفَّقٌ ... وإن ابتدعتَ فما عليكَ مُعَوَّلُ

محمد راغب الطباخ

* * *

---

(١) إشارة إلى البيت المشهور المنسوب إلى الأخطل وهو:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

حول قبر معاوية رضي الله عنه[1]

من حين أن كتب الأستاذ التنوخي مقالتَه عن قبر معاوية رضي الله عنه، في المجلد الخامس عشر، في الجزء الثاني، عَوَّلتُ على التقاطِ ما أعثرُ عليه أثناء تصفُّحي لتراجم الأعيان. وقد عثرتُ على عدَّة نصوص حرَّرتُها على هامش هذا العدد، وكلُّها تؤيد أنَّ قبرَه في تربة الباب الصغير، كما جاء في النصوص التي نَقَلَها الأستاذ التنوخي والأمير جعفر، وذكر لنا الأول أنَّه وجدَ بجانب الحُجْرة من خارجها قبراً، كُتبَ عليه: إنَّه قبر الشيخ أبي الفتح نصر بن إبراهيم بن داود المقدسي سنة ٤٩٠هـ.

أقول: قال السبكي في «طبقات الشافعية» «٤: ٢٩» ـ في آخر ترجمة أبي الفتح ـ: وقبره معروف بباب الصغير، تحت قبر معاوية رضي الله عنه. قال النووي: «سمعتُ الشيوخ يقولون: الدعاءُ عند قبره يوم السبت مُستجاب» اهـ.

وفي «شذرات الذهب»، للعماد الحنبلي «٤: ٢٣٩»، في ترجمة الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر، ما نصُّه: «توفي في رجب، ودفن بمقبرة باب الصغير، شرقي الحجرة التي فيها معاوية رضي الله عنه».

وفي «رحلة ابن بطوطة»، ص٥٩، تحت عنوان: ذِكْرُ بعضِ المشَاهد والمزارات بها: «فمنها بالمقبرة التي بين البابين: باب الجابية والباب الصغير، قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين، وقبر أخيها أمير المؤمنين، وقبر بلال مؤذن رسول الله ﷺ، وقبر أُوَيْس القَرَني، وقبر كعب الأحبار رضي الله عنه». اهـ.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي»، الجزءان ٥ و٦ من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

أقول: أمَّا أمُّ حبيبة فإنَّها ماتت بالمدينة كما في «الإصابة». أما أُوَيس القَرَني فقد ذكر ابن بطوطة ـ بعد أسطر ـ: أنَّ الأصحَّ أنَّه قُتِل بصفِّين مع علي رضي الله عنه. وأما كعبُ الأحبار فإنَّه مات بحمص.

وفي «الضوء اللامع»، للحافظ السخاوي ٢: ١٦٧: «أنَّ أحمد بن محمد بن قوصون توفي سنة ٨١٦هـ، ودُفِن بالباب الصغير، بالقربِ من قبرِ مُعَاوية رضي الله عنه» اهـ.

بقي النصُّ الذي عَثرتُ عليه في «تاريخ القرماني»، وكتبته قبلاً للأمير جعفر وضمنه مقالته.

فهذه النقول، والنقول التي ذُكرت في المقالات الثلاث، وتلك التحقيقات لا تبقي لنا ريباً أنَّ قبرَه في تربةِ الباب الصغير، والذي أراه في نبش قبور بني أميَّة ـ إذا سلَّمنا بصحته ـ: أنَّ عبد الله بن علي العباسي تحاشى عن نَبْشِ قبرِ مُعاوية لصحبته، وخشيةَ أن يكون ذلك سبباً لإثارةِ الرأي العامِّ؛ لذا ذكر لنا المؤرِّخون عدداً ليس بقليل أنَّهم دُفِنوا بالقربِ من قبر معاوية رضي الله عنه، وذلك يفيد أنَّ قبره كان مَعْروفاً مُسْتفيضاً بين الناس، ومُسَلَّماً أنَّه هناك، ولو صحَّ عندهم نبشه لما ذكروا أنَّ فلاناً وفلاناً دُفن بالقرب من قبره في قرونٍ مُتعدِّدة.

حول قبر معاوية رضي الله عنه[1]

كنتُ كتبتُ للمجلة ما عثرت عليه من التراجم التي قيل فيها أنه دُفن بالقرب من قبر معاوية رضي الله عنه في الباب الصغير، وكتبت لها عما رأيته في تاريخ القرماني من أنَّ الأمير أحمد بن طولون عَمَّر في سنة ٢٧٠ قبّة عالية وعلّق فيها قناديل وجعل هناك قرّاء.

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان ٥، و٦، من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

والآن عثرت في الجزء الخامس من «المنتظم» للحافظ ابن الجوزي على ما يتعلَّق بقبر معاوية.

قال في ص٧١ في حوادث سنة ٢٧٠:

«وفيها بنى أحمد بن طولون أربعة أروقة على قبر معاوية بن أبي سفيان، وأمر أن يسرج هناك، وأجلس أقواماً معهم المصاحف يقرؤون القرآن». انتهىٰ.

فالقرماني يقول لنا: قُبّة عالية، وابن الجوزي يقول لنا: أربعة أروقة، وهي تأخذ مساحة واسعة، وهما متفقان على أن البناء كان سنة ٢٧٠ فأيهما أصحّ؟ ومتى خربت تلك القبة أو الأروقة؟

لعلَّ هناك من يكشف لنا الحقيقة نقلاً عن تواريخ دمشق أو غيرها.

محمد راغب الطباخ

* * *

رأس يحيى ورأس زكريا عليهما السلام[1]

المشهور على ألسنة الناس في حلب: أنَّ الضريح العظيم الذي في جامعها الأعظم فيه جثمان زكريا، وقد وصل بنا البحث في تاريخ حلب إلى أنَّ الموجود في جامع حلب هو قطعة من رأس يحيى أو رأس أبيه زكريا ـ عليهما السلام ـ وإليك البيان:

قال في «الدرّ المنتخب» المنسوب لابن الشحنة ص٧٤: وذكر ابن العظيمي الحلبي في تاريخه في سنة خمس وثلاثين وأربع مئة: ظهر ببعلبك في حجر منقور رأس يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ فنقل منها إلى حمص، ثم منها إلى مدينة حلب في هذه السنة، ودفن بهذا المقام «مقام إبراهيم عليه السلام في قلعة حلب» في جرن من الرخام الأبيض، ووضع في خزانة إلى جانب المحراب، وأغلقت، وَوُضع عليها سَتْر يصونها.

وذكر الكمال بن العديم في «تاريخه»: أن الملك العادل نور الدين بن عماد الدين زنكي جدّد عمارته.

وفي سنة تسع وست مئة في أيام الملك الظاهر غياث الدين غازي احترق بنار وقعت فيه وما كان من الخيم والسلاح وآلات الحرب شيء كثير، واحترق الجميع ولم يسلم من الحريق إلا الجرن المذكور، ودفع الله عنه سبحانه النار.

وهذا يدلّ على أن الرأس الذي وضع فيه رأس يحيى ـ عليه السلام ـ لأن النار لم تصل إليه وحُمي منها.

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء الثالث والرابع من المجلد الحادي والعشرين: (١٣٦٥-١٩٤٦).

وقال كمال الدين «ابن العديم» أيضاً: أن أبا الحسن علي بن أبي بكر الهروي[1] أخبره وقال: إنَّ بقلعة حلب في مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ صندوقاً فيه قطعة من رأس يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ ظهر في سنة أربع وثلاثين وأربع مئة.

وفي كتاب «الصَّلصَلة في الزلزلة» للجلال السيوطي: «في سنة ٤٣٤ زلزلت تدمر وبعلبك، ومات تحت الردم معظم أهل تدمر». انتهىٰ.

أقول: يظهر أن هذا هو السبب في ظهور رأس يحيى عليه السلام في بعلبك.

سبب نقل هذا الصندوق إلى الجامع الأعظم في حلب

قال في «الدرّ المنتخب» ص٧٦ ما ملخصّه: لما تسلَّم التتر قلعة حلب، سنة ثمان وخمسين وست مئة، أخربوها وأخربوا الجامع «الذي فيه المقام»، ثم أحرقوا المقامين: مقام إبراهيم ومقام الخضر على ما يقال حريقاً لا يمكن جبره، وذلك في أحد الربيعين من سنة تسع وخمسين وست مئة.

ولما أحرق المقام الذي هو الجامع عمد سيف الدولة أبو بكر بن إيليا الشحنة بالقلعة المذكورة والناظر على الذخائر، وشرف الدين أبو حامد بن النجيب الدمشقي الأصل الحلبي المولد إلى رأس يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ فنقلاه من القلعة إلى المسجد الجامع في حلب، ودفناه غربي المنبر، وقيل: شرقيه (وهو الصواب)، وعمل له مقصورة وهو يزار. انتهىٰ.

وفي الجزء الأول من تاريخنا «إعلام النبلاء» ص٢٩٥، نقلاً عن هامش «تجارب الأمم» نقلاً عن صاحب «تاريخ الإسلام» للذهبي في حوادث سنة ٣٥٧: في هذه السنة في ذي القعدة، أقبل عظيم الروم نقفور بجيوش إلى الشام، فخرج من الدرب

---

(١) وفاته سنة ٦١١ وهو صاحب كتاب: «الإشارات إلى معرفة الزيارات».

ونازل إنطاكية (إلى أن قال:) ثم سار إلى كفر طاب وشيزر، ثم إلى حماة وحمص، فخرج من بقي بها فأمَّنهم ودخلها فصلى في البيعة، وأخذ منها رأس يحيى بن زكريا وأحرق الجامع ثم سار إلى عرقة الخ.

فهذه الرواية تفيد أنَّ رأس يحيى كان في حمص، ولعلَّ نقفور نقله إلى بعلبك، ثم ظهر فيها على أثر الزلزلة التي حصلت فيها سنة ٤٣٤ كما تقدّم، أو أنَّ هذه الرواية لا أصل لها.

قال ابن الوردي في «تتمة تاريخ أبي الفدا» في حوادث سنة ٧٢٨: في هذه السنة في صفر توفي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن الدقاق الدمشقي ناظر الوقف في حلب، وفي أيام نظره فتح الباب المسدود، الذي في الجامع شرقي المحراب الكبير لأنه سمع أن بالمكان المذكور رأس زكريا النبي ﷺ فارتاب في ذلك فأقدم على فتح الباب المذكور بعد أن نهي عن ذلك فوجد باباً عليه تأزير رخام أبيض، ووجد في ذلك تابوت رخام أبيض فوقه رخامة بيضاء مربعة، فرفعت الرخامة عن التابوت فإذا بعض جمجمة[1] فهرب الحاضرون هيبةً لها، ثم ردّ التابوت وعليه غطاؤه إلى موضعه وسُدّ عليه الباب، ووضعت خزانة المصحف العزيز على الباب.

وما أنجح الناظر المذكور بعد هذه الحركة وابتلي بالصَّرع إلى أن عضّ لسانه فقطعه ومات، نسأل الله أن يلهمنا حُسْنَ الأدب.

توسيع تلك الخزانة إلى حجرة كبيرة وضريح عظيم

وذلك في سنة ١١٣٠، وهو ما عليه الآن.

جاء في تاريخنا «إعلام النبلاء» في حوادث سنة ١١١٩: «في هذه السنة ولي حلب

(١) هذا يؤيد ما جاء عن الهروي أن الموجود في هذا الصندوق هو بعض الرأس (الطباخ).

عبدي باشا، وجاء في حوادث سنة ١١٣٠ قال قاضي حلب عبد الرحمن بن مصطفى الكيبري الذي تولى القضاء فيها هذه السنة في آخر رسالة له ذكر فيها نبذة من تاريخ حلب أغلبها مما يتعلق بالجامع الكبير:

وفي زماننا هذا وهو زمان السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان، أمر الوزير الأعظم الصدر علي باشا في زمان حكومة الفقير بتوسيع المرقد المقدَّس فشرعنا في تنفيذ أمره في اليوم الرابع من شعبان سنة عشرين ومئة وألف، وهدم الحائط الشرقي ـ أي شرقي المنبر ـ وهو محلّ المقام ووراءه الصندوق الذي هو ستر جلالة من قديم الأيام، إذ ظهر هذا الجرن بين الحائط المرئي والحائط القديم، وهو من الرخام الأبيض، فلما أخذنا في حمله فاح منه رائحة طيبة أزكى من المسك فحملناه بالتسليم، ووضعناه في خزانة وأحضر أكثر من ثلاثين شخصاً من حفَّاظ القرآن الكريم، وصاروا يقرؤون عنده ويُهلِّلون ولازموا المكان ليلاً ونهاراً إلى أن تمَّ ذلك المقام.

ولما كان يوم الجمعة قبل العصر حادي عشر ذلك الشهر من السنة المرقومة، اجتمعنا مع الوالي وهو الدستور المكرّم حضرة عبدي باشا والعلماء والأعيان، ورفعنا الجرن المبارك مع الوزير والعلماء والصُّلحاء ووضعناه في جرن أكبر منه موضوع فوق بناء مؤسَّس مرتفع عن الأرض، ووضعنا فوقه من الرخام والتراب الذي كان معه من الأزمنة الماضية وغطَّيناه بالرخام والتراب، والقراء يقرؤون القرآن ويطلبون الرحمة والرضوان، والحمد لله على ما أنعم من هذه النعم الجليلة والبركة الجميلة التي لم تتيسَّر إلا لآحاد الناس. انتهىٰ باختصار.

وقال بعد ذلك: وهو مما يجب أن لا نختصره، وصلاة على نبينا الأكمل وعلى صاحب المقام الأجمل سيدنا أبي الحصور زكريا عليه وعلى نبينا أفضل التحية.

وفي ترجمة مفتي حلب علي بن أسد المتوفى سنة ١١٣٠ (ج٦ ص٤٥٨): «وتولى

إفتاء الحنفية بحلب مدة خمس عشرة سنة إلى أن مات، وكان إذ ذاك متولياً على جامع بني أمية بحلب، وفي أيام توليته عليه أمر بمرمات الجامع المذكور ومرمات بعض حيطانه، فظهر من أحد الحيطان لما قشروا عنه الكلس رائحة تفوق المسك والعنبر، وإذا فيه صندوق من المرمر مطبق ملحوم بالرصاص مكتوب عليه: هذا عضو من أعضاء نبيِّ الله زكريا ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ فاتخذوا له هناك في ناحية القبلة في حجرة قبراً في مكانه الآن، وحمل الصندوق إليه جميع العلماء والصالحين بالتعظيم والتبجيل والتوقير والتكبير، وذلك سنة عشرين ومئة وألف». انتهىٰ.

وفي تلك المدة كان مقيماً في حلب شاعر كبير من شعراء الأتراك يعرف بالنابي[١]، فنظم قصيدة غرّاء تركية في ٥٤ بيتاً، وهي مذكورة في ديوانه المطبوع ص٧٩ و٨٠، ذكر فيها ظهور هذا الصندوق، وبناء هذا الضريح، ووضع هذا الصندوق فيه وما حصل وقتئذ، ترجم لنا هذه القصيدة نثراً بعض فضلاء الأكراد العارفين باللغتين العربية والتركية إلا بعض أبيات منها متعلقة بالمديح والدعاء للسلطان مما هو خارج عما نحن فيه، وهي لا تخرج عما تقدَّم مما ذكرناه عن قاضي ومفتي حلب إلا أنه قال: إنَّ ذلك كان في السابع عشر من شعبان من سنة ١١٢٠ ولا أدري أيُّهما أصحّ والخطب سهل.

وصْفُ الحضرة النَّبَويَّة الحاضر

وصف الحضرة النبويَّة زميلنا وصديقنا الشيخ كامل الغزي ـ رحمه الله تعالى ـ في تاريخه «نهر الذهب» ـ ج٢ ص٢٤٤ ـ فاكتفينا به، قال:

«محلّها بين العضادة العاشرة والحادية عشرة من الصف الأول ـ شرقي المحراب ـ

---

(١) توفي عام ١٧١٢ رحمه الله تعالى.

في حجرة مربعة تبلغ ٤ أذرع في مثلها تقريباً يصعد إليها من أرض القبلية بدرجة واحدة، سقفها قبة لها على سطح الجامع كوات بشبكات من الحديد، وفي قاعدة القبة شبكة كالسقف مفتوحة من النحاس بعيون مربعة تبلغ فتحة واحدتها ثلاثة قراريط في مثلها ترتفع عن أرض الحجرة نحو ثمانية أذرع وجدران الحجرة الثلاثة التي هي الغربي والشرقي والجنوبي المقابل وجه المصلِّي ظهارتها من أرض الحجرة إلى الشبكة المذكورة مبنيَّة بأجمل أنواع الخزف المعروف بالقاشاني، وباب هذه الحجرة، وهي الجهة الرابعة منها قنطرة مُشَادة عالية حجارتها سود وصفر، محمولة على عمودين عظيمين (من الرخام الأصفر)، وارتفاعها من ختمها إلى أرض القبلية ثمانية أذرع في عرض أربعة أذرع، وهذه القنطرة العظيمة مع العمودين المحمولة عليهما لها غلق يستوعبها من أرض الحجرة إلى خَتْم القنطرة من نحاس أصفر مشبَّك ببعضه على شكل مربَّع وهو من رأس العمودين إلى أرض الحجرة ذو مصراعين يفتح ويغلق، وسَعَة عيون شبكاته قيراطان في مثلهما. ومن رأس العمودين إلى ختم القنطرة قطعة واحدة لا تفتح ولا تغلق، وسَعَة عيون شبكاته قيراط واحد في مثله، وفي جانب كلٍّ من العمودين المذكورين لمعة ظهارتها من الخزف القاشاني المذكور مكتوب على زناد شبكة الباب شعر تركي لنابي الشاعر المشهور.

قال في «نهر الذهب»: أما صندوق الجرن الشريف فهو في وسط الحجرة من الخشب على صفة ضريح عليه كسوة من مخمل مزركش بالقصب الفضي، مكتوب فيه بعض سورة مريم، وهذه الكسوة أنعم بها السلطان المرحوم عبد العزيز خان سنة ١٢٩١، وكان قبلها كسوة سرقت قديمة بالية وضعت سنة ١٢٣٢، على إثر كسوة سرقت في السنة المذكورة، وهذه الكسوة التي هي قبل الكسوة الحاضرة أُرسلت إلى إستانبول ووضعت هناك في محلّ الآثار القديمة، وعلى هذه الكسوة الجديدة فوق سنام الضريح عدَّة شالات ثمينة عجمية وهندية.

ثم قال: ويوجد هناك عشرة قناديل فضة صغار وقنديلان كبيران من الفضة وقنديل ذهب وشمعدان فضة وقمقم ومبخرة فضة وغير ذلك من البلور والسجادات والبقج والشالات. انتهىٰ.

ما قاله المؤرِّخون عن مقتل يحيى عليه السلام ومكان قبره وقبر أبيه زكريا عليه السلام:

في «عرائس المجالس» للثعالبي بعد كلام طويل بيّن فيه سبب مقتله: قتل وهو قائم يصلي في بيت المقدس في محراب داود، وأُخذ رأسه.

وفي «معجم البلدان» في الكلام على دمشق، والمسجد الصغير الذي خلف جبرون: يقال: إن يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ قتل هناك.

وفي الجزء الرابع من «صبح الأعشى» ص٩٦: وقد ورد أن المسيح ـ عليه السلام ـ ينزل على المنارة الشرقية، ويقال: إن القبة التي فيها المحراب لم تزل معبداً لابتداء عمارتها، وإلى آخر الوقت بناها الصابئة معبداً، ثم صار إلى اليونانيين، فكانوا يعظِّمون فيها دينهم، ثم انتقل إلى اليهود فقتل يحيى بن زكريا ـ عليه السلام ـ ونصب رأسه على باب جبرون من أبوابه فأصابته بركته، ثم صار إلى النَّصارى فجعلتها كنيسة، ثم افتتح المسلمون دمشق فاتَّخذوه جامعها، وعلّق رأس الحسين عليه السلام عند قتله في المكان الذي علّق عليه رأس يحيى بن زكريا إلى أن جدَّده الوليد، ويقال: إنَّ رأس يحيى ـ عليه السلام ـ مدفون به، وبه مصحف عثمان الذي وجّه به إلى الشام.

وقال في «المعجم» في الكلام على جامع دمشق ص٨٠: وبالجامع رأس يحيى ابن زكريا ـ عليهما السلام ـ وجماعة من الأنبياء والصِّدِّيقين، وهي من أعمال نابلس[1].

---

(١) في كلامه عن سَبَسْطِيَة، مدينة قرب سميساط، والمشهور أنها بلدة من نواحي فلسطين بينها وبين القدس يومان، وبها قبر زكريا ويحيى.

وفي «مسالك الأبصار» لابن فَضْل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ ج١ ص١٨٨ :
«قال أحمد بن إبراهيم الغسَّاني: حدثنا أبي عن أبيه، عن زيد بن واقد قال: وكلني الوليد على العمال في بناء مسجد دمشق، فوجدنا فيه مغارة، فعرفنا الوليد ذلك، فلما كان الليل وافى والشموع تُزْهر بين يديه، فنزل وإذا كنيسة لطيفة ثلاثة أذرع في ثلاثة، وإذا فيها صندوق، فإذا فيه سفط، وفي السفط رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، فأمر به الوليد فردّ إلى المكان، وقال: اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من الأعمدة فجعل عليه عمود مسقط الرأس.

وفيه في ص٢٢٠: قبر يحيى وزكريا، يقال إنهما بسَبَسْطية.

وحكى ابن عساكر عن زيد بن واقد... إلخ. ما تقدَّم، وزاد بعد قوله: «وفي السفط رأس يحيى بن زكريا»: مكتوباً عليه هذا رأس يحيى بن زكريا... إلخ. ما تقدَّم.

ثم قال: قال زيد بن واقد: رأيت رأس يحيى بن زكريا وعليه البشرة والشعر على رأسه لم يتغيَّر.

وقال القاسم بن عثمان الجوعي: سمعت الوليد بن مسلم، وسئل: أين بلغك رأس يحيى بن زكريا؟ قال: بلغني أنه ثَمّ، وأشار بيده نحو العمود المسفط الرابع من الركن الشرقي.

وقال هشام بن عمار: حدثنا محمد بن شعيب، قال: دخلت مع شدّاد بن عبد الله من باب الدرج، فقال لي: ترى ها هنا كتابة بالرومية؟ قلت: نعم، فصلى ركعتين، وقال: ها هنا رأس يحيى بن زكريا.

وروى القاسم الجُوعي، عن الوليد بن مسلم أنه سأل الأوزاعي: أين بلغك رأس يحيى بن زكريا؟ قال: في العمود الرابع المسفط. انتهىٰ.

ونحو ذلك في «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير (ج٩ ص١٥٦)، وزاد فيه: وقال الوليد بن مسلم: عن زيد بن واقد، قال: حضرت رأس يحيى بن زكريا، وقد أخرج من الليطة القبلية الشرقية التي عند مجلس سجيلة فوضع تحت عمود الكاسة. انتهىٰ.

وفي أوائل «الحضرة الأنسيّة في الرحلة القدسيّة» للشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤٣: «ثم سرنا فمررنا في الطريق على قرية سَبَسْطية، وبعضهم يقول: باسطين ـ بياء بعدها نون ـ، وهي فلسطين المشهورة».

وذكر الهروي في زيارته قال: سبطين هي فلسطين، بها بدن يحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ وقبر أمه وقبر اليسع.

يُلخص ممَّا تقَّدم:

أنَّ مؤرِّخي حلب المتقِّدمين بعضهم يقول ـ وهم الأكثر ـ: أن في جامعها رأس يحيى. والهروي منهم يقول: قطعة من رأسه، ولم يقل لنا أحد منهم: إنَّ فيه زكريا أو رأسه.

وابن الوردي المتوفى بحلب سنة ٧٤٩، يقول لنا: إنه رأس زكريا ـ عليه السلام ـ.

وثلاثة متعاصرون وهم: مفتي حلب علي بن أسد الله، وقاضيها عبد الرحمن الكيبري، والشاعر نابي التركي، الذين كانوا وقت توسيع الخزانة إلى الحجرة الحاضرة سنة ١١٢٠هـ، يقولون: إنه رأس زكريا أو عضو من أعضائه، والقلقشندي المصري مؤلِّف «صبح الأعشى»، وياقوت الحَمَوي المتوفَّى بحلب، وابن فضل الله العُمري الدمشقي، والحافظ ابن كثير الدمشقي، يقولون: إنَّ الموجود بجامع دمشق هو رأس يحيى ـ عليه السلام ـ.

وهنا ـ كما ترى ـ قد تعارضت الأخبار فأيُّها الصحيح، ويمكن الجمع بينها أن يقال: إن قطعة من رأسه بجامع دمشق، وقطعة منه بجامع حلب، كما أفصح بذلك الهروي، وكما قال ابن الوردي: إنَّ في الصندوق بعض جمجمة.

والتعارض باقٍ بين مؤرِّخي حلب الأقدمين القائلين: إنَّ الموجود بحلب هو رأس يحيى، وبين المتأخرين منهم القائلين: إنه رأس زكريا، وعلى كلٍّ لا يخلو جامع حلب من أثر نبويّ، هو إما قطعة من رأس يحيى، أو رأس أبيه زكريا ـ عليهما السلام ـ، ولا يوصلنا إلى الصحة ولا يوقفنا على الحقيقة إلا الكشف على الصندوق، وقراءة ما كُتِبَ عليه بدقّة، وهل هذا متيسّر أو متعسّر؟ نَدَع الجواب عنه لغيرنا.

وصاحب «المعجم» في الكلام على سَبَسْطية[1] يقول: إنَّ بها قبر يحيى وزكريا ـ عليهما السلام ـ بدون تفرقة بين رأسهما وبدنهما، والنابلسي يقول لنا في «رحلته»: إن بها بدن يحيى، ولم يذكر زكريا، فبقي مكان جثمانه مجهولاً، ولعلّه لعلمه أنّ في دمشق رأس يحيى ـ وهو مما لا خلاف فيه عند مؤرِّخي دمشق وأهاليها ـ ذهب إلى أنَّ الموجود في سبسطية هو بدنه دافعاً للتعارض. والله أعلم.

محمد راغب الطباخ

*　　*　　*

---

(١) قرية تقع إلى الشمال الغربي لمدينة نابلس، وفيها آثار كنعانية ويونانية ورومانية. وفيها مسرح سَبَسْطية الروماني.

المدارس في الإسلام[1]

بقلم المؤرخ الأستاذ محمد راغب الطباخ

كان الصحابة رضي الله عنهم، يتلقَّون العلم عن النبي ﷺ، في مسجده وبيته، وعند مرافقتهم له في الغزوات وغير ذلك، وعلى هذا نسج التابعون في تلقِّيهم عنهم، وكذا تابعوا التابعين، تجد ذلك مُصرَّحاً به في الحديث النبوي، وفي كثير من تراجم الصحابة والتابعين.

ظلَّ الحال على هذا، حتى آخر القرن الرابع وأول الخامس، فبني لتلقِّي العلوم دور خاصَّة على شكل خاصٍّ، دُعيت بالمدارس.

أول بلدة بنيت فيها المدارس:

وأول بلدة بُنيت فيها المدارس هي: «نيسابور». قال ابن خلكان في ترجمة أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني الفقيه الشافعي: «وبنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور، وكانت وفاته سنة ثماني عشرة وأربع مئة».

وفي «الخطط» للمقريزي ج٤ ص١٩٢: «والمدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تُعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربع مئة من

(١) مجلة «الجامعة الإسلامية»، الأعداد (٢١٣) (٢١٩) (٢٢٣) (٢٢٧) (٢٣١) (٢٣٥)، من السنة الثامنة عشرة: ١٣٦٥-١٩٤٦.

سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبُنيت بها المدرسة البيهقية[١].

وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة[٢]، وبنى بها أخوه السلطان محمود ابن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية، وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة.

المدرسة النظامية في بغداد:

وأشهر ما بني في القديم: المدرسة النظامية ببغداد، لأنها أول مدرسة قُرِّر بها للفقهاء معاليم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق ابن العباس الطوسي، وزير ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي في مدينة بغداد، وشرع في بنائها في سنة سبع وخمسين وأربع مئة، وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربع مئة، ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي الفيروز أبادي، صاحب كتاب «التنبيه» في الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، فاقتدى الناس به من حينئذ في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر، وفي بلاد الجزيرة وديار بكر.

قال ابن خلِّكان في ترجمة الشيخ إبراهيم بن محمد الشيرازي: «لما بنى نظام الملك مدرسته ببغداد سأله أن يتولاها فلم يفعل، فولاها لأبي نصر ابن الصباغ صاحب «الشامل» مدة يسيرة، ثم أجاب إلى ذلك فتولاها، ولم يزل بها إلى أن مات في سنة ست

---

(١) نسبة إلى الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، كانت وفاته سنة ٤٥٤، ويظهر أنها المدرسة التي بُنيت لأبي إسحاق الإسفراييني، ونُسبت بعده للبيهقي لاستقراره في تدريسها بعده سنة ٤٤١. (الطباخ)

(٢) له ذكر في ترجمة أخيه السلطان محمود بن سبكتكين في «تاريخ ابن خلكان»، ولم أقف بعد على تاريخ وفاته، وأخوه السلطان محمود كانت وفاته سنة ٤٢١أو ٤٢٢. (الطباخ).

وسبعين وأربع مئة ببغداد... وجلس أصحابه للعزاء بالمدرسة النظامية، ولما انقضى العزاء رتَّب مؤيد الملك بن نظام الملك أبا سعد المتولِّي مكانه، ولما بلغ الخبر نظام الملك كتب بإنكاره ذلك، وقال: كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله، وزرى على من تولَّى موضعه، وأمر أن يدرس الشيخ أبو نصر عبد السيد بن الصباغ في مكانه».

وقال في ترجمة الشيخ أبي نصر بن الصباغ: «تولَّى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد أول ما فتحت، ثم عُزل بالشيخ أبي إسحاق، وكانت ولايته عشرين يوماً، ولما تُوفي أُعيد أبو نصر المذكور.

وذكر أبو الحسن محمد بن هلال بن الصابي في «تاريخه»: أنَّ المدرسة النظامية بدأ بعمارتها في ذي الحجة من سنة سبع وخمسين وأربع مئة، وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من سنة تسع وخمسين.

وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس بها أبا إسحاق الشيرازي، وقرَّروا معه الحضور في هذا اليوم للتدريس، فاجتمع الناس ولم يحضر، وطُلب فلم يوجد، فنفذ إلى أبي نصر بن الصباغ فأُحضر ورُتِّب بها مدِّرساً، وظهر الشيخ أبو إسحاق في مسجده ولحق أصحابه من ذلك، فأبان عليهم[1]، وفتروا عن حضور درسه، وراسلوه إن لم يدرس بها مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه، فأجاب إلى ذلك وعُزل ابن الصباغ، وجلس ابن الصباغ يوم السبت مستهل ذي الحجة فكانت مدة تدريس ابن الصباغ عشرين يوماً».

وقال ابن النجار في «تاريخ بغداد»: «ولما مات أبو إسحاق تولى مكانه أبو سعد المتولِّي، ثم صُرِفَ في سنة ست وسبعين وأُعيدَ ابن الصباغ، ثم صُرِف سنة سبع وسبعين

(١) في «وفيات الأعيان» (٣: ٢١٨): ما بان عليهم.

وأعيد أبو سعد إلى أن مات، وأبو سعد المتولِّي اسمه عبد الرحمن، وكانت وفاته سنة ثمان وسبعين وأربع مئة»[١].

المدرسة المستنصريَّة في بغداد:

أشهر مدرسة بُنيت بعد ذلك في بغداد: المدرسة المستنصريَّة.

قال الصلاح الصَّفَدي في «تاريخه» المرتَّب على السنين[٢] في حوادث سنة إحدى وثلاثين وست مئة: «في هذه السنة فتحت المدرسة المستنصريَّة ببغداد، ونقل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والقناديل، والربعات والمصاحف بالخطوط المنسوبة.

قال ابن الساعي: حَمَل إليها المستنصر بالله من الكتب مئة وستين جملاً، سوى ما نقل إليها بعد ذلك، وسوى ما أحضره أرباب الدولة والمتولُّون من كتبهم تَقَرُّباً إلى قلب الخليفة، وحضر الوزير، وأرباب الدولة، وسائر الولاة، والحجَّاب، والقضاة، والمدرِّسون، والفقهاء، ومشايخ الرُّبُط، والصوفية، والقرَّاء، والوعاظ، وأعيان أهل بغداد، والشعراء، وجماعة من التجار والغرباء.

ورُتِّب محيي الدين ابنُ فضلان مُدَرِّساً للشافعية، ورشيد الدين عمر بن محمد الحنفي للحنفية[٣]، ومحيي الدين يوسف بن الجوزي للحنابلة، وأبو الحسن علي المغربي

---

(١) في هذه المدرسة تلقَّى العلم الإمام أبو بكر محمد بن محمد الطرطوشي الأندلسي صاحب «سراج الملوك» المتوفى سنة ٥٢٠، وفيها كتب نسخة من «معالم السنن» للإمام الخطابي، وهو شرح سنن أبي داود سنة ٤٧٨، وهذه النسخة من مخطوطات الأحمدية بحلب وهي أقدم كتاب فيها. (الطباخ).

(٢) جزء منه من مخطوطات الأحمدية بحلب، وفيها ثلاثة أجزاء من تاريخه هي تراجم، والأجزاء الأربعة كان استنسخها المرحوم أحمد تيمور باشا. (الطباخ).

(٣) قال القرشي في «الجواهر المضية» في ترجمته: «هو الإمام الكبير، أول من درس بالمستنصرية، =

للمالكية، وخلع عليهم وعلى سائر الفقهاء، ورتب شمس الدين علي المعروف بابن الكتبي هو ابن نجيب المتقدِّم خازناً، ومُدَّ سماط فيه من سائر الأطعمة والحلويات وغريب المآكل.

وشرط الواقف ـ عظَّم الله أجره ـ: أن يكون عدَّة الفقهاء بها مئتين وثمانية وأربعين رجلاً، من كل طائفة اثنان وستون، وأن يجري لكلِّ واحد منهم في كلِّ يوم أربعة أرطال خبز وغرْف طبخ مما يطبخ في مطبخها، وفي كل شهر دينارين غير الحلوى والفاكهة والصابون والزيت، وأن يكون لكلِّ طائفة مدرس وأربعة معيدين، وأن يكون لكلِّ مدرس في كلِّ يوم عشرون رطلاً من الخبز وخمسة أرطال من اللحم بخضرها وحوائجها وحطبها، وفي كلِّ شهر اثنا عشر ديناراً، وأن يكون لكلِّ معيد في كلِّ يوم سبعة أرطال خبزاً وغرفان طبيخاً، وفي كل شهر ثلاثة دنانير، وأن يكون في دار القرآن المجيد شيخٌ يلقِّن القرآن ثلاثين صبياً أيتاماً، ومعيدٌ يُحفِّظ الثلاثين، يكون للشيخ كل يوم سبعة أرطال خبزاً وغرفان طبيخاً، وفي الشهر ثلاثة دنانير، وللمعيد في كل يوم أربعة أرطال خبز وغرف طبيخ، وفي كل شهر دينار وعشرون قيراطاً، ولكل صبي في كل يوم ثلاثة أرطال خبز وغرف طبيخاً، وكل شهر ثلاثة عشر قيراطاً وحبة.

وأن يكون في دار الحديث النبوي شيخ عالي الإسناد يشغل بعلم الحديث، وقارئ وطلبة، ويكون للشيخ المسمع في كلِّ يوم ستة أرطال خبزاً ورطلان لحماً، وفي كل شهر ثلاثة دنانير، وللمشتغلين لكلِّ واحد منهما في كلِّ يوم أربعة أرطال

= بناها أمير المؤمنين المستنصر بالله على شاطئ الدجلة، وهي راسخة في قرار الماء، ورتب فيها أربعة مذاهب ومحدثين وغير ذلك، ابتدأ في عمارتها سنة ٦٢٥، وفتحت بكرة الخميس لخمس خلون من رجب سنة ٦٣١».

خبز وغرف طبيخاً، وكل شهر ثلاثة دنانير[١]،... وللطلبة أسوة الأيتام الذين يتلقون القرآن في الخبز والغرف والمشاهرة.

وأن يكون لخازن الكتب في كل يوم عشرة أرطال خبزاً وأربعة لحماً وكل شهر عشرة دنانير.

وأن يكون للمشرف على هذا الخازن في كل يوم خمسة أرطال خبزاً ورطلان لحماً وكل شهر ثلاثة دنانير.

وأن يكون للمناول في هذه الخزانة في كل يوم أربعة أرطال خبز وغرف طبيخ وكل شهر ديناران.

وأن يكون بها نَحْويٌّ يشغل بعلم العربية، يكون له في كل يوم ستة أرطال خبزاً ورطلان لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها، وفي كل شهر ثلاثة دنانير.

وأن يكون بها طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس بعلم الطب أسوة طلبة الحديث في الخبز والطبيخ والمشاهرة.

وأن يكون بها من كل طائفة إمام يصلِّي بهم وقارئ للسبعة، وداع يدعو. وأن تضاعف المشاهرات في شهر رمضان.

وأن يكون للناظر المرتّب بها في كل يوم عشرون رطلاً خبزاً وخمسة أرطال لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها، وفي كل شهر اثنا عشر ديناراً.

وللمشرف في كل يوم عشرة أرطال خبزاً وثلاثة أرطال لحماً، وفي كل شهر سبعة دنانير.

---

(١) هنا سقط. وهو: «وللمشتغلين لكلّ واحد منهما في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً، وفي كلّ شهر ديناران وعشرة قراريط، وللقارئ في كلّ يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً وكلّ شهر ثلاثة دنانير». وقد جاء على التمام في مقالة: المدرسة المستنصرية التي تقدمت ص١٦٧.

وللكاتب في كلِّ يوم مثل المشرف ومعمارية وفراشون وبوّابون وحمّامي ومزيِّن وقيِّم وطبّاخ وغلامه وخازن الآلات وخزنة الديوان وغلمان الديوان ومرملاتي[1] والمؤذن والنقاط. وقرّر لهؤلاء كلهم جرايات ومشاهرات.

وأما الدار المجاورة لهذه المدرسة في الحد الأعلى منها لم ير مثلها أحد، ولا أدرك وضعها أمد»[2]، وهذه الشروط نقلها من «تاريخ ابن الساعي». انتهى[3].

وفي «البداية والنهاية» لابن كثير في حوادث سنة ٦٣١: «فيها كمل بناء المدرسة المستنصريَّة ببغداد، ولم يبن مدرسة قبلها مثلها. وبعد أن ذكر خلاصة ما تقدَّم قال:

ولما كان يوم الخميس خامس رجب، حضرت الدروس بها، وحضر الخليفة المستنصر بالله، بنفسه الكريمة، وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلَّف أحد من هؤلاء، وعمل سماط عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواصِّ والعوام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يوماً مشهوداً، وأنشدت الشعراءُ الخليفةَ المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في «تاريخه» مطوَّلاً مبسوطاً شافياً كافياً. وبعد أن ذكر من عُيِّن للتدريس من الأئمة في المذاهب الأربعة، قال: وَوُقِفَتْ خزائنُ كتب لم يُسمع بمثلها في كثرتها وحُسْن نسخها وجَوْدة الكتب الموقوفة بها.

---

(١) تقدم ذكر معنى المرملاتي في مقالة: «المدرسة المستنصرية» المتقدمة ص ١٧٠.

(٢) تقدم في مقالة الطباخ عن المدرسة المستنصرية: ولا لإدراك وصفها أمد. بدل: ولا أدرك وضعها أمد.

(٣) في «الإعلان بالتوبيخ» للسخاوي في الكلام على تواريخ بغداد: وذيل على «تاريخ ابن الدبيثي» التاج علي بن أنجب بن الساعي خازن كتب المستنصرية ببغداد، ويقال: إنه في نحو ثلاثين مجلداً، وكانت وفاته سنة ٦٧٤ (الطباخ).

وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيَّد الدِّين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين. انتهى.

وهذه المكتبة العظيمة التي وصفها خازنها ابن أنجب وجميع كتب بغداد لم يبق منها إلا النادر في حادثة التتر الكبرى، ومن هذا النادر: جزء من تفسير الإمام الماوردي المتوفى سنة ٤٥٠ وهو حسن الخط مضبوط بالشكل في مكتبة الوجيه السيد أسعد العينتابي، وهو ـ كما سيأتيك ـ وقفٌ على مدرسة أمر بإنشائها الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيـين، غير أني لم أر ـ فيما وقفت عليه من ترجمته ـ أن من آثاره مدرسة[1]، ولعلَّها لم تُبْنَ؛ لأن مدة المستعصم لم تَطُل بعد تاريخ هذا الكتاب.

وقد كُتب على ظهره: الجزء الثالث من تفسير القرآن، تأليف أقضى القضاة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي رحمه الله تعالى، وتحت ذلك لصق ورق أبيض قدر أصبعين، وتحت ذلك ما نصُّه:

(١) «هذا ما وقفه [وتصدَّق به][2]... الجهة[3] الشريفة المكرمة المقدسة الزكية المعظمة (٢) الرضية الأمينة الرحيمة الرؤوفة النبويَّة الإماميَّة الطاهرة (٣)

---

(١) علق هنا الأخ الكريم البحاثة الدكتور عبد الحكيم الأنيس: «بل هو وقف على المدرسة (البشيرية) التي أنشأتها باب بشير حظيَّة الخليفة المستعصم بالله، كما هو واضح من نص الوقفية، وكانت امرأة فاضلة محسنة، لها خيرات ومبرات. وهذه المدرسة مشهورة معروفة. انظر عنها: «مدارس بغداد في العصر العباسي» للدكتور عماد عبد السلام رؤوف ص ٢٠٥-٢١٧. وقد رأيت الجزء الخامس من هذه النسخة من تفسير الماوردي في المكتبة العباسية في البصرة، وعليه مثل هذه الوقفية التي على الجزء الثالث، فانظر إلى هذه النسخة كيف تبعثر جزآن منها من بغداد إلى البصرة وحلب، والله أعلم بمصير باقي الأجزاء».

(٢) مستدرك من نصِّ الوقفية على الجزء الخامس في المكتبة العباسية بالبصرة (الأنيس).

(٣) هذا نصٌّ واضح في أن الواقفة امرأة، والجهة تطلق على حرم الخليفة، ولابن الساعي البغدادي:=

المبرورة [جهة][1] سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبي أحمد (٤) عبد الله المستعصم بالله أمير المؤمنين، ثبَّت الله دولته وأعلى كلمته على طلاب العلم (٥) رغبةً فيما عند الله تعالى من حُسْن الثواب وذخراً صالحاً ليوم المآب (٦) وأمرت[2] أن يكون بالمدرسة الميمونة التي أمرت بإنشائها بظاهر ملحة شارع (٧) ابن رزق الله بالجانب الغربي من مدينة السلام، وأن يعار برهن حافظ للقيمة (٨) فمن بدَّل ذلك أو قصَّر في حفظه ممن يتولاه أو يستعيره أو غير ذلك (٩) فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله تعالى منه يوم القيامة (١٠) صَرْفاً ولا عَدْلاً فمن بدَّله بعد ما سمعه فإنَّما إثمُهُ على الذين يبدِّلونه إنَّ الله (١١) سميع عليم... بُتَّ في شهر رمضان المبارك من اثنين وخمسين وست مئة. انتهى.

وأول الجزء قوله عزّ وجل: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ... ﴾ [الأعراف: ٩٥] فيه وجهان...، وهي في سورة الأعراف في وسطها آية ٩٤، وآخر الجزء ينتهي في سورة الإسراء كتب في آخره: يتلوه في الجزء الرابع أول سورة الكهف ولا تاريخ لكتابته[3].

دور العلم في مصر:

قال المقريزي في «الخطط» ج٤ ص١٩٢: «وأما مصر فإنَّها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين، ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة، وإنما هم شيعة إسماعيلية ـ كما

= «جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء» ذكر فيه نساءهم وجواريهم، وهو مطبوع. (الأنيس)

(١) مستدرك من نصِّ الوقفية على الجزء الخامس في المكتبة العباسية بالبصرة (الأنيس).

(٢) وهذا يؤكد ما سبق.

(٣) يستفاد من كتاب «تذكرة نوادر المخطوطات» للعلامة الندوي الهندي، ومن «كشف الظنون»: أن اسم هذا التفسير «النكت والعيون» قال الندوي: منه نسخة بجامع القرويين بفاس، ونسخة في ٣ مجلدات بمكتبة كوبرولو في الأستانة (الطباخ).

تقدَّم ـ وأول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز (من٣٦٥ إلى ٣٨٦)، ووزارة يعقوب بن كلس، فعمل ذلك بالجامع الأزهر كما تقدَّم ذكره، ثم عمل في دار الوزير يعقوب بن كلس مجلس يحضره الفقهاء، فكان يقرأ فيه كتاب الوزير، ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز (من ٣٨٧ إلى ٤١٠) دار العلم بالقاهرة».

وقال في ج٢ ص٣٣٤، تحت عنوان: دار العلم: «في العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاث مئة فتحت الدار الخليفية بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها، ونسخ كل من التمس نسخ شيءٍ مما فيها فالتمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجِّمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدَّام وفرَّاشون وغيرهم، رسموا بخدمتها، وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممَّن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها، فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضاً التي لم يُسمع بمثلها من إجراء الرزق السَّني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وهي الدار المعروفة بمختار الصقلي.

وفي سنة ثلاث وأربع مئة أُحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب

والمنطق، وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد[1]، وجماعة من الأطباء إلى حضرة الحاكم بأمر الله، وكانت كل طائفة تحضر على انفرادها للمناظرة بين يديه، ثم خلع على الجميع وَوَصَلهم.

ووقف الحاكم بأمر الله أماكن في فسطاط مصر على عدَّة مواضع، وضمَّنها كتاباً ثبت على قاضي القضاة مالك بن سعيد، وقد ذكر عند ذكر جامع الأزهر، وقال فيه: وقد ذكر دار العلم ويكون العشر وثمن العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه في كل سنة، من العين المغربي: مئتان وسبعة وخمسون ديناراً من ذلك لثمن الحصر العيداني وغيرها لهذه الدار عشرة دنانير، ومن ذلك الورق للكاتب ـ يعني الناسخ ـ : تسعون ديناراً، ومن ذلك للخازن بها ثمانية وأربعون ديناراً، ومن ذلك لثمن الماء: اثنا عشر ديناراً، ومن ذلك للفراش: خمسة عشر ديناراً، ومن ذلك للورق والحبر والأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء: اثنا عشر ديناراً، ومن ذلك لمرمة الستارة: دينار واحد، ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها: اثنا عشر ديناراً، ومن ذلك لثمن لبود للفرش في الشتاء: خمسة دنانير، ومن ذلك لثمن طنافس في الشتاء: خمسة دنانير».

ثم أغلق هذه الدار الأفضل بن أمير الجيوش لأسباب بسطها المقريزي هنا، وقال في ص٣١٣، تحت عنوان: دار العلم الجديدة:

لما أغلق الأفضل دار العلم التي كان الحاكم بأمر الله فتحها في باب التبَّانين؛ اقتضى الحال بعد قتله إعادة دار العلم، وامتنع الوزير المأمون من إعادتها في موضعها، فأشار الثقة زمام القصور بهذا الموضع، فعمل دار العلم في شهر ربيع الأول سنة سبع

---

(١) هو حافظ مصر ومؤلف كتاب «المؤتلف والمختلف» في أسماء نَقَلَةِ الحديث، وكتاب «مشتبه النسبة» وهما مطبوعان معاً في الهند، وتوفي سنة ٤٠٩ (الطباخ).

عشرة وخمس مئة، وولاها لأبي محمد حسن بن أكرم، واستخدم فيها مفرشين، ولم تزل دار العلم عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية.

وإذا تأمَّلنا في تواريخ عمارة المدارس في نيسابور وعمارة دار العلم في مصر زمن الفاطميين نجدها متقاربة.

المدرسة الناصريَّة في مصر:

قال المقريزي ج٤ ص١٩٢: «لما انقرضت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين، أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، وأقام بها مذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام مالك، واقتدى بذلك بالملك العادل نور الدين محمود زنكي فإنه بنى بدمشق وحلب وأعمالها عدة مدارس للشافعية والحنفية، وبنى أيضاً لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر.

وأول مدرسة أحدثت بديار مصر: المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً، ثم المدرسة السيوفية التي بالقاهرة، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين في بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر والبلاد الشامية والجزيرة أولاده وأمراؤه، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم إلى يومنا هذا.

وسأذكر ما بديار مصر من المدارس، وأُعرِّف بحال مَنْ بناها على ما اعتدته في هذا الكتاب من التوسط دون الإسهاب».

ثم قال تحت العنوان المتقدِّم ما خلاصته: «كان محل المدرسة دار تعرف بدار الفلفل، ثم اتخذت داراً للشرطة في سنة ثلاث عشرة ومئتين، ثم صارت سجناً تعرف بالمعونة، فهدمها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في أول المحرم سنة ست

وستين وخمس مئة، وأنشأها مدرسة برسم الفقهاء الشافعية، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد، وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة، وهي أول مدرسة عملت بديار مصر، ولما كملت وَقَفَ عليها الصاغة وكانت بجوارها وقد خربت، وبقي منها شيء، قرأت عليها اسم الخليفة العزيز بالله، وأول من ولي التدريس بها ابن زين التجار فَعُرفت به، ثم درس بها بعده ابن قطيطة بن الوزان، ثم من بعده كمال الدين بن شيخ الشيوخ، وبعده الشريف القاضي شمس الدين محمد بن الحسين الأموي فَعُرفت به، وقيل لها: المدرسة الشريفية من عهده إلى اليوم».

ثم ساق ما بُني في مصر من المدارس من ص١٩٣ إلى ص٢٥٦، وتلاه الجلال السيوطي في «حُسن المحاضرة» فذكر بعض هذه المدارس وما بني بعد ذلك، وإذا جمع هذا وذاك وأضيف إليهما ما أُنشئ بعد ذاك من المدارس في مصر وأعمالها يكون مؤلفاً حافلاً مفيداً.

المدارس في دمشق:

الذي ظهر لي أنَّ أول من بنى مدرسة في دمشق هو الملك العادل نور الدين الشهيد، ففي ترجمته في «البداية والنهاية»: وقد ابتنى بدمشق داراً لاستماع الحديث وإسماعه، وهو أول من بنى دار حديث، وأنشأ مدرسة للحنفية بين باب الخوَّاصين وباب الجنين على الدرب، وفيها دفن وقبره بها يُزار.

وبنت زوجته الست خاتون: المدرسة الخاتونية البرانية، وبنت الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب، والست خاتون هي بنت معين الدين بن أتابك، وهو واقف **المدرسة المعينية** داخل باب الفرج، وكانت وفاته سنة ٥٤٤، وبنت الست عذار بنت شاهنشاه بن أيوب بن شادي أخو السلطان صلاح الدين **المدرسة العذارية**.

ووقف تقي الدين عمر بن السلطان صلاح الدين المدرسة التقوية، وكانت وفاتة سنة ٥٨٧، فتبيَّن من هذا أن بناء المدارس في دمشق كان في منتصف القرن السادس.

وقد أَلَّف في مدارسها ومساجدها ورُبُطها وزواياها العلَّامة محيي الدين عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ مؤلفاً واسعاً سمّاه ـ كما في «كشف الظنون» ـ: «تنبيه الطالب وإرشاد الدارس فيما بدمشق من الجوامع والمدارس» نسخة منه في مكتبة المجمع العلمي بدمشق يشتغل من مدَّة في تصحيحه والتعليق عليه بعض أعضاء المجمع، والمأمول أن تُقدّم للطبع عما قريب[1].

ونسخة من مختصر هـذا الكتاب للشيخ عبـد الباسط العلموي في المدرسة المحمديَّة بالموصل كما جاء في كتاب «مخطوطات الموصل» للفاضل الأديب الدكتور داود الجلَبي ص١٧٣، ونصُّ عبارته: «مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس؛ لعبد الباسط العلموي، بخط بدر الدين بن محمد المناشيري، كتبه لمحمد أفندي التذكرجي بدمشق الشام والمتفرقة بالباب العالي، وهو مجلد طوله ٢١ وعرضه ١٤,٥ س، في كل صفحة منه ١٣ سطراً، وعدد أوراقه ٩٧»، وبعد أن ذكر أوله قال: «في آخره ذيل في صفحتين ونصف، ذكر فيه ما تجدَّد من العمارات نقلاً عن الشيخ عبد الباسط العلموي الذي كانت وفاته سنة ١٠٠٤[2]، يأتي بعد ذلك كلام في المساجد في ٦٢ صفحة، جاء

---

(١) قام بتصحيحه والتعليق عليه الأمير جعفر الحسني، وصدر الجزء الأول عام ١٩٤٨، والثاني عام ١٩٥١ منسوباً للنعيمي تحت عنوان: «الدارس في تاريخ المدارس»، وهو في الحقيقة أحد مختصراته، كما يذكر ذلك الحسني نفسه في مقدمة الكتاب، ورجّح صلاح الدين المنجد في كتابه «معجم المؤرخين الدمشقيين» أن مختصره هو ابن طولون.

(٢) بل كانت وفاته سنة ٩٨١ عن ٧٤ عاماً. وقد حقق هذا المختصر صلاح الدين المنجد.

في أولها: يقول كاتب هذه الأحرف الفقير إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الحنفي الجينيني الأصل الدمشقي الدار:

قد اطَّلعت على أصل هذا المختصر لأبي المفاخر النعيمي، فرأيته جعل في الآخر خاتمة في المساجد، فأحببتُ إلحاقها، فنقلتها هنا بحروفها تتميماً للفائدة». انتهىٰ. ولا ريب أن هذا الكتاب يخبرنا عن المدارس في دمشق بالتفصيل(١).

المدارس في حلب:

أول مدرسة بنيت فيها:

قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥١٧: «في هذه السنة بُنيت مدرسة بحلب لأصحاب الشافعي».

وفي «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة نقلاً عن ابن شدّاد في الكلام على المدارس:

---

(١) كتب العلامة الطباخ في ٣ كانون الأول ١٩٣٠ رسالة إلى الأستاذ محمد كردعلي رئيس المجمع العلمي العربي: «تبجيلاً واحتراماً وبعد، فقد كنتم ذكرتم في بعض أعداد المجلة أن المجمع عوَّل على طبع «إرشاد الدارس» للنعيمي، ويرغب أن يرشد إلى ما يوجد من نسخ هذه المؤلفات ثم ذكرتموها.
فأقول: قد عثرت على واحد منها في كتاب مخطوطات الموصل للدكتور داود الحلبي وقال: إنه في جملة مخطوطات المدرسة المحمدية في جامع الزيواني.
قال في ص ١٧٩: «مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس» لعبد الباسط العلموي بخط بدر الدين بن محمد المناشيري، كتبه لمحمد أفندي التذكرجي بدمشق الشام. إلخ في وزارة الدفاع.
والدكتور هو الآن في بغداد موظف فيها، ويمكنكم مخابرته في أمر استنساخه إن شئتم، واقبلوا فائق الاحترام».

المدرسة الزُّجَاجيَّة[1]:

أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق، صاحب حلب، وهي أول مدرسة بُنيت بها، ابتدأ في عمارتها في سنة عشرة [كذا في الأصل] وخمس مئة، وعلى حائطها مكتوب: سنة سبعة عشر [كذا]، ولما أراد بناءها لم يمكِّنه الحلبيُّون؛ إذ كان الغالب عليهم حينئذ التشيُّع.

قال ابن الشحنة: أخبرني شيخي أبو الوفا ـ هو الحافظ الكبير المشهور بالبرهان الحلبي المتوفى سنة ٨٤١ ـ، غير مرة: أن أهل حلب كانوا كلهم سنيَّة وكلهم حنفيَّة، حتى قدم شخص إلى حلب فصار فيهم شيعيَّة، وصار فيهم شافعيَّة، فقلت: يا سيدي من هو؟ قال: الشريف أبو إبراهيم المدوح «ممدوح أبي العلاء المعري»[2].

قال: فكان كلما بنى فيها شيئاً نهاراً أخربوه ليلاً إلى أنْ أعياه ذلك، فحضر الشريف زهرة بن علي بن أبي إبراهيم الإسحاقي الحسيني، وهو الشريف أبو إبراهيم الذي أشار شيخنا عنه [كذا]، والتمس منه أن يباشر بناءها ليكفَّ العامَّة عن هدم ما يبني، فباشر الشريف البناء ملازماً له حتى فرغ منها، وكان هذا الشريف من أكابر الأشراف وذوي الرأي والأصالة والوجاهة، مُقدَّماً في بلده، يرجع الناس إلى أمره ونهيه، وكان مُعظَّم القدر عند الملوك، ولما توجَّه عماد الدين زنكي إلى الموصل في سنة تسع وثلاثين وخمس مئة، أخذه معه فمات بالموصل.

---

(١) نشرت في مقالة مستقلة في مجلة «الأوقاف الإسلامية» بدمشق في العدد الرابع: (ذو الحجة ١٣٦٤).

(٢) هو زهرة بن عليّ بن محمد بن أبي إبراهيم الحسيني، نقيب الأشراف بحلب، مدحه المعري بقصيدة منها:

يـا أبـا إبراهيمَ قُصِّرَ عنـكَ الـ ـشعـر لمـا وُصِّفـتِ بـالقُرآنِ

وقال في «الزبد والضَّرب»: «وفي سنة ست عشرة وخمس مئة ولّى بدر الدولة سليمان[١] الوزارة بحلب أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله[٢]، وجدَّد (والصواب: أنشأ أو كمل) المدرسة التي بالزُّجاجيين بحلب المعروفة ببني العجمي بإشارة أبي طالب بن العجمي، وذكر لي أنه عزم على أن يقفها على الفرق الأربع [ونقل آلتها من كنيسة داثرة كانت بالطحانين]. قال ابن الشحنة: وهذه المدرسة هي الآن خراب داثرة قد عُمِّر بها دور للسكن». انتهىٰ.

وفي تاريخي «إعلام النبلاء» ج٤ ص٢٥٠، في ترجمة أبي طالب شرف الدين عبد الرحمن بن العجمي الحلبي المتوفى سنة ٥٦١، فصل منقول عن «كنوز الذهب» لأبي ذر يفيد أن المدرسة من بناء ابن العجمي هذا، وقلت ثمة: والذي يغلب على الظن أنهما اشتركا في بنائها، ولذا كان ينسب بناؤها لسليمان تارة ولابن العجمي تارة، وإليك ما ذكره أبو ذر عنها قال:

«سُمِّيت باسم السوق الذي هي فيه، وكان هناك معمل للزجاج، ولما حفر أساس الفرن الموجود الآن تجاه الحمام وجدوا آثار المعمل المذكور.

وهذه المدرسة أول مدرسة بُنيت بحلب، وكانت قديماً تدعى بالشرفية باسم بانيها: شرف الدين أبي طالب ابن العجمي، وترجمته مذكورة مع أقاربه، وكذا أخبرني شيخنا ابن الضياء بذلك.

ورأيت في تاريخ ابن خلّكان أنها من بناء أبي الربيع سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب.

---

(١) هو أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق.

(٢) سعد الله ـ وقيل سعد ـ بن هبة الله بن نصر: أبو الرجاء التغلبي الوزير، تولى وزارة حلب لأبي العز لؤلؤ الملكي لما استولى على حلب، و لبدر الدولة أيضاً.

ورأيت في كلام الصاحب ابن العديم في «زبدة الحلب»: وجدَّد بدر الدولة المدرسة التي بالزجَّاجين بحلب المعروفة ببني العجمي بإشارة ابن العجمي، وذكر لي أنه عزم أن يقفها على الفرق الأربع». انتهى.

وبدر الدولة هو سليمان المذكور، ووجدت في «تاريخ الإسلام» للذهبي، ما يشهد أنها من بناء عبد الرحمن بن العجمي المتقدِّم ذكره؛ لأنه قال في ترجمته: وبنى بحلب مدرسة مليحة، ووقف عليها.

وفي كلام ابن السبكي في ترجمته أيضاً: وبنى بحلب مدرسة تُعرف به.

وبعد أن ساق العلَّامة أبو ذر في «كنوز الذهب» من درَّس بها من العلماء بما يطول ذكره قال: وهذه المدرسة عظيمة كبيرة، ولها إيوان من أعاجيب الدنيا، ولها قبلية عجيبة وشمالية، وأرضها مفروشة بالرخام الأبيض والأسود، ولها أعمدة أخذ تغري برمش[1] كافل حلب من أعمدتها بدلالة ابن الحصوني)[2] مباشرة فجعلها أحجاراً للمكحلة التي عملها ليرمي بها على القلعة فلم ينجح بسبب ذلك، وفي طرازها مكتوب بالكوفي: كملت عمارتها في سنة سبع عشرة وخمس مئة.

ثم قال: ووقف صاحب الزجاجية عليها قرية (كارس)، وكانت الجمعة تقام بهذه القرية.

ولم تزل هذه المدرسة قائمة الشعار عامرة إلى محنة (تمر) [سنة ٨٠٣] فانهدم

---

(١) تغري برمش ـ ويقال: ورمش ـ واسمه حسين، ولي نيابة حلب في سنة ٨٣٩هـ، إلى أن قتل في يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة سنة ٨٤٢هـ. ينظر: «الضوء اللامع» ١ : ٤٧٩.

(٢) الحسن بن أحمد بن صدقة الحصوني الحلبي الشافعي. ولد سنة ٧٥٩ وتوفي قريباً من ٨٤٠ كما في «الضوء اللامع».

غالبها، وبقي أبوابها، وسيأتي في الحوادث متى خرب. وقد غيَّر أساسها الأمير علاء الدين علي بن الشيباني.

ثم قال: والمدرسة الآن خراب والضيعة عامرة، وقال في الكلام على درب الزجَّاجين: وبهذا الدرب حمام يعرف الآن بالزجَّاجِّين، وبه مسجد غربي المدرسة، أمر بعمارته العادل أبو بكر محمد بن أيوب بتولِّي أحمد بن عبد الله الشافعي في سنة إحدى وخمسين وخمس مئة.

أقول: هذا المسجد لم يزل موجوداً إلى يومنا هذا، وبابه مؤلف من ثلاثة أحجار سود كبار كُتب على أعلاها:

(١) البسملة أمر بعمارته مولانا الملك العادل سيف الدنيا والدين (٢) ركن الإسلام أبو بكر محمد بن أيوب خليل أمير المؤمنين (٣) أدام الله أيامه بتولي الفقير أحمد بن عبد الله القصري الشافعي في سنة إحدى وخمسين وخمس مئة.

وشرقي هذا المسجد خان كبير يعرف الآن بخان ألطاف، ويقال له أيضاً: خان الشيباني نسبة إلى المتقدِّم ذكره[١]، ويظهر أنه اشتراه بعد ذلك أحمد مطاف باشا أو كمل بناءه ووقفه فنُسب إليه، وأحمد مطاف باشا مدفون في تربة خاصَّة شرقي باب الخان يأتي إليها قُرَّاء القرآن في كل يوم إلى يومنا هذا، ومعظمهم من العميان، والمتولي على هذا الخان وبقية وقف أحمد مطاف باشا آل الغنام.

وكان شرقي هذه التربة دار للحديث والحمام التي قدَّمنا ذكرها، وكانت قد تخربت فبيعتا أواخر القرن الماضي، واتُّخذتا كنيسة عظيمة دُعيت كنيسة مار فرنسيس

(١) علاء الدين علي بن الشيباني.

للآباء الفرنسيين، وذلك سنة ١٨٦٧م ١٢٩٥هـ وتعرف بين الناس بكنيسة الشيباني نسبة للمتقدم ذكره، ومنذ ثلاث سنين ١٣٦١ بيعت هذه الكنيسة لبعض الأهلين، وعمَّر بائعوها كنيسة غيرها قرب السبيل غربي حلب، والذي اشتراها خربها وباع أنقاضها ولم يبق منها الآن إلا جدارها الشرقي والشمالي والباقي عرصة كبيرة، وبيعت لشركة الدخان وستبنيها مستودعاً لها على ما ذكر.

علمتَ مما سبق أنَّ هذه المدرسة تعرف بالزُّجاجية، وذلك الدرب يعرف بالزجَّاجين، وأنَّ معمل الزجاج كان هناك. وقد كان في الدرب سوق عظيم لبيع الزجاج.

وقد أفردت مقالة مسهبة لصناعة الزجاج الحلبي الذي اشتهر في الآفاق، نشرت في مجلة «الزهراء» المصرية في السنة الرابعة ص٤٠٥ سنة ١٣٤٦هـ[1].

والحوانيت الشمالية من هذا الدرب (الزقاق)، اتُّخذت على ما يظهر من نحو ٣٠ سنة خانات وديراً، ومنذ أربع أو خمس سنين أُخرج من هذه الخانات والدير حوانيت، اتُّخذت للخياطة والحلاقة وغير ذلك فعاد سوقاً إلى ما كان عليه في القديم.

تتابع بناء المدارس بعد الزُّجاجيَّة:

وبعد مدة يسيرة تتابع بناء المدارس في حلب، وذلك على أثر استيلاء السلطان نور الدين الشهيد على حلب، وذلك في سنة ٥٤١، وبنى فيها عدَّة مدارس، والمارستان الكبير الذي في محلة الجلُّوم، وبابه لم يزل باقياً من ذلك العهد، وبنى الربط، واقتفى أثره نوَّابه في بناء المدارس والخانقاهات، ونكتفي هنا بذكر المدارس التي بناها هو ونوَّابه، والجميع مبسوط في تاريخنا «إعلام النبلاء».

---

(١) تقدمت هذه المقالة في هذا الفصل ص ١٧١.

المدرسة الحَلَوِيَّة:

قال في «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة: «المدرسة الحلويَّة» كانت كنيسة من بناء هيلانة أم قسطنطين، وجعلها القاضي أبو الحسن بن الخشّاب مسجداً بسبب ما اعتمده الفرنج من بعثرة قبور المسلمين وإحراقهم حين حصارهم حلب في سنة ثماني عشرة وخمس مئة، وكانت تعرف بمسجد السرَّاجين، فلما ملك نور الدين جعلها مدرسة، وجدَّد بها مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيواناً، وكان مبدأ عمارتها في سنة أربع وأربعين ـ الصواب ثلاث وأربعين كما هو مكتوب على جدار بابها الآن ـ وجلب إليها من أفاميه[1] مذبحاً من الرخام الملكي الشفَّاف الذي إذا وضع تحته ضوء بان من وجهه.

قال ابن شدَّاد: وهي أعظم المدارس صيتاً، وأكثرها طلباً، وأغزرها جامِكِيَّة.

قال: ومن شرط الواقف: أن يجعل في كل شهر رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدارس، يصنع بها طعاماً للفقهاء، وفي ليلة النصف من شعبان حلوى معلومة، وفي الشتاء ثمن لباس لكل فقيه شيء معلوم، وفي أيام شرب الدواء من فصْلَي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المواليد أيضاً الحلوى، وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به من أنواعها بطيخاً ومشمشاً وتوتاً.

وقد بسط الكلام على هذه المدرسة في التاريخ، وقد اعتنى المتولون عليها من أوائل هذا القرن بعمارتها وتنمية عقاراتها.

والآن هي تحت تصرُّف دائرة الأوقاف وإشرافها ملحقة بالكلية الشرعيَّة (أي: الخسروية).

---

(١) أفاميا مدينة أثرية في سورية، تقع على مسافة ٦٠ كم شمال محافظة حماة.

المدرسة العَصْرونيّة:

قال في «الدر المنتخب»: إنَّ هذه المدرسة كانت داراً لأبي الحسن علي بن أبي الثريا، وزير بني مرداس، فصيَّرها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بعد انتقالها إليه بالوجه الشرعي مدرسة، وجعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، وذلك في سنة خمسين وخمس مئة، واستدعى لها من جبل بناحية (سنجار) الشيخ الإمام شرف الدين أبا سعد عبد الله بن أبي عصرون التميمي الحديثي[1] ثم الموصلي الشافعي، وكان من أعيان فقهاء عصره، ولما وصل إلى حلب ولي تدريسها والنظر فيها، وهو أول من درس فيها فعرفت به، وصنف كتباً كثيرة في المذهب والخلاف والفرائض مشهورة في أيدي الناس.

والذي في ترجمته في تاريخ ابن خلِّكان: أنه أتى حلب سنة ٥٤٥، فيكون قد بُوشر ببنائها قبل ذلك وتمَّ في هذه السنة، واستدعي إليها في هذا التاريخ.

وقد بسطتُ ذلك في «إعلام النبلاء» في الكلام على آثار نور الدين الشهيد بحلب، وفي ترجمة الإمام ابن أبي عصرون المذكور، وقلت هناك نقلاً عن «كنوز الذهب» لأبي ذر: وعلى بابها مكتوب بتولي ابن أبي عصرون، وهذه المدرسة بلغني من المتقدِّمين أنها محصورة (أي طلابها لهم عدد معين)، والدليل على ذلك: ما تقدَّم من قول ابن شداد أنه جعل فيها مساكن للمرتبين بها، وهذه المدرسة يدخل إلى داخلها بدرج ولها باب آخر من الغرب ـ (هذا هو الموجود الآن وقد جدد كما سيأتي، وأما الباب الآخر فيظهر أنه من الزقاق الصغير الذي لا ينفذ الذي هو شرقي الجامع المعروف الآن بجامع الحيَّات)، وبها قاعة لمدرسها، ووقف لها واقفها أوقافاً حوانيت وقرى داخل حلب وخارجها، ثم بعد المحنة التيمرية لما قدم المؤيد (ملك مصر) إلى

(١) نسبة إلى حديثة الموصل، بليدة على دجلة بالجانب الشرقي، كما في «وفيات الأعيان» ٣: ٥٦.

حلب جدَّد سوقها وجعله نصفين: نصفاً لمدرسته بالقاهرة ونصفاً لهذه المدرسة (إلى أن قال): ورتَّب والدي (والده: هو الحافظ الكبير المعروف بالبرهان الحلبي) الفقهاء على السوق المذكور.

وفي سنة أربع وسبعين (وثمان مئة) عدَّد الفقهاء المرتّبين بها فوق المئة، وهنا عدَّد أبو ذر من ولي التدريس بها بما يطول ذكره إلى أن قال: ودرس فيها الشريف الحسيني قاضي حلب دروساً محكمة تدلُّ على سَعَة اطلاعه، وهذا آخر من درس بها.

وهناك قلت: موقع هذه المدرسة في محلة الفرافرة، جنوبي الجامع المعروف الآن بجامع الحيَّات، وكانت خربة مهجورة، ففي سنة ١٢٩١، سعى جميل باشا والي حلب في عمارة قبو كبير في غربها عن يمين الداخل من بابها، واتخذ مكتباً ابتدائياً، ثم عمر في جهتها الشرقية بعض حجر صار يسكنها بعض الطلبة الغرباء، ثم هجرت وصارت مسكناً للفقراء.

والآن تسعى جمعية دار الأرقم لدى دائرة الأوقاف في استلام تلك المدرسة لبناء قاعة كبيرة لإلقاء المحاضرات، وغرف لإدارتها ومكتبتها على شروط مخصوصة.

المدرسة النِّفرية:

ومن المدارس التي أنشأها نور الدين الشهيد: (المدرسة النفرية، ويقال لها: النُّورية)، وأول من درس فيها: العلاَّمة مسعود بن مسعود النيسابوري المتوفى سنة ٥٧٨[1].

---

(١) الفقيه المشهور، مصنف كتاب «الهادي» في الفقه، وأحد أساتذة نظامية نيسابور، حضر إلى دمشق عام ٥٤٠، وأقام فيها، واستدعاه نور الدين إلى حلب، وأسند التدريس إليه في هذه المدرسة.

قال أبو ذر: والمدرسة المذكورة تجاه المدرسة الصاحبيَّة التي أنشأها ابن شدّاد.

أقول: هذه المدرسة دثرت ولم يبق لها أثر.

والمدرسة الصَّاحبيَّة:

هي في محلة السفاحيّة، جنوبي المدرسة الخسرويّة إلى جهة الشرق، وقد دثرت أيضاً، وستأتيك لمحة عنها.

المدرسة الشُّعَيْبيَّة:

ومن آثاره أيضاً: المدرسة الشُّعَيبية، نسبة للشيخ شعيب بن أبي الحسن الأندلسي[1]، وهي في محلة باب أنطاكية داخل الباب، وكانت هذه مسجداً أول ما اختطَّه المسلمون عند فتح حلب، وهي الآن جامع تقام فيه الخطبة ولا مدرس فيها ولا تدريس، وفوق بابها من جهة الغرب وجدارها من جهة الشمال كتابة بالخط الكوفي المزهر آية في الإبداع.

نوَّاب الشهيد نور الدين الذين اقتفوا أثره في بناء المدارس والخوانق في حلب:

الأمير مجد الدين أبو بكر بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥ بنى مدرستين:

المجدية الجوانية:

وهي بالقرب من ضريح النبي بلوقيا في محلة بزي.

والمجدية البرانية:

والاثنتان خربتا ولم يبق لهما أثر.

---

(١) شعيب بن أبي الحسن بن حسين بن أحمد الأندلسي الفقيه، كان من الفقهاء الزهَّاد، وكان نور الدين محمود يعتقد فيه، ويتردّد إليه، فوقف على هذا المسجد وقفا، فرتب فيه شعيبًا المذكور، مدرسًا على مذهب الإمام الشافعي. توفي بطريق مكة سنة ٥٩٦.

وبنى داراً للحديث ولا أثر لها، ولا تُعرف أين كانت.

وبنى **خانقاه** بعرصة الغراتي لا نعرف مكانها ولا أثر لها الآن.

وبنى **خانقاه** بمقام إبراهيم عليه السلام.

المدرسة المقدَّمية:

ومن الأمراء الذين بنوا المدارس في زمنه: الأمير عز الدين المقدَّم فإنه بنى **المدرسة المقدميَّة.**

قال في «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة: «المدرسة المقدَّمية، أنشأها عز الدين عبد الملك المقدم، وابتدأ في عمارتها سنة خمس وأربعين وخمس مئة. ولم يزل يشتغل بها المدرسون إلى أن وليها افتخار الدين أبو المفاخر محمد بن تاج الدين أبي الفتح يحيى بن القاضي أبي غانم محمد بن أبي جرادة المعروف بابن العديم، ولم يزل مدرِّساً بها إلى أن قتل عند استيلاء التتر على حلب». انتهى.

أقول: وهي في محلة الجلُّوم في الزقاق المعروف بزقاق خان التـتن، ومكتوب على بابها بعد البسملة: «هذا ما وقفه تقرُّباً إلى الله تعالى في أيام الملك العادل محمود بن زنكي ابن آق سنقر، عزَّ نصره بتولِّي الفقير إلى رحمة الله تعالى محمد بن عبد الملك بن محمد سنة أربع وستين وخمس مئة فرحم الله مَنْ قرأه ودعا له بالمغفرة».

ويظهر أنَّ عز الدين عبد الملك، ابتدأ بعمارتها سنة ٥٤٥، ولم تتم وتـمَّمها بعده ولده السيد شمس الدين محمد، وكتب على بابها سنة ٥٦٤.

ومحمد هذا له ترجمة مُوجَزة في «البداية والنهاية» لابن كثير ج١٢، وكانت وفاته سنة ٥٨٣ بمِنىً، وهو أميرٌ على الحجَّاج.

المدرسة الشَّاذْبَخْتيَّة:

ومن الأمراء الذين بنوا المدارس في زمنه: **الأمير جمال الدين شاذْبَخْت الخادم** فإنه بنى المدرسة المعروفة بالشَّاذْبَخْتية.

وموقع هذه المدرسة في وسط السوق المعروف بسوق الزرب (الضرب)[1]، وهذا السوق يبتدئ من جامع يشبك، وينتهي إلى قنطرة فيها باب تخرج منه إلى تجاه القلعة من جهة الغرب، ولا تزال هذه المدرسة موجودة وقبليَّتها عامرة، ويظهر أنَّ الضريح الموجود في حجرة شمالية منها وله شباك كبير إلى السوق هو ضريح بانيها الأمير المذكور، واشتهرت هذه المدرسة الآن بجامع الشيخ معروف، وهو عندنا غير معروف، وقد كُتب على حجرةٍ فوق بابها البديع من عهد الواقف:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام الأعظم سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه في أيام الملك الظاهر غازي بن يوسف عز نصره العبد الفقير إلى رحمة ربه، شاذبخت عتيق الملك العادل محمود بن زنكي في سنة تسع وثمانين وخمس مئة».

ومـحراب القبلية بديع جداً، وفيه عامودان من الرخام الأبيض، هو يقارب في هندسته المحراب العظيم الذي في مدرسة الفردوس، والمحراب الذي في جامع البهرميَّة، وقد كتب على أعلى المحراب: (عمل أبي الرجا وعبد الله يحيى رحمه الله).

وقد تغيَّرت الأوضاع في هذه المدرسة فلا مدرِّس ولا تدريس، وحالتها الحاضرة مما يؤسف له، وهذه الحالة تعلمها دائرة الأوقاف، ويجب على الأقل أن تعتبرها مدرسة

---

(١) سوق الضرب، أي: سوق الصفق والضرب بالكفين حين إبرام عقد البيع بين المتبايعين، كما يقول الفقهاء. (الطباخ).

بموجب الكتابة التي عليها من عهد بنائها ووقفها مما لا ريب فيه، لا زاوية لإقامة الذكر في كل سنة أو سنتين، ولها ـ كما للمدرسة العصرونية ـ من بقية أوقافها أوقاف عشرية في القرى وأراض مذكورة في غير موضع من الكتاب الذي كانت طبعته دائرة الأوقاف عن أصل مخطوط قديم لتطالب بموجبه دائرة المالية بما يدخل عليها من أعشار القرى الموقوفة، وقد نجحت بعد مخابرات طويلة، واستحصلت بعض ما تستحق.

وقال ابن خلِّكان في ترجمة أبي المحاسن القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شدَّاد المتوفى بحلب سنة ٦٣٢، يحدِّثنا عن مدرسة ابن شداد وحالة المدارس في ذلك الوقت: «كانت حلب في ذلك الزمان (قبل الست مئة) قليلة المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها، وعُمِّرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان الملك الظاهر (غازي ابن السلطان صلاح الدين) قد قرَّر له إقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة، ولم يكن له خرجٌ كثير، فإنه لم يولد له ولا كان له أقارب، فتوفر له شيء كثير، فعمَّر مدرسة الشافعية بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى (هي النفرية التي تقدَّم ذكرها)، ورأيت تاريخ عمارتها مكتوب على سقف مسجدها، وهو الموضع المعدّ لإلقاء الدروس، وذلك في سنة إحدى وست مئة.

ثم عمّر في جوارها داراً للحديث النبوي، وجعل بين المكانين تربة برسم دفنه فيها، ولها بابان: باب إلى المدرسة، وباب إلى دار الحديث، وشباكان إلى الجهتين، وهما متقابلان بحيث إنَّ الذي يقف في إحدى المكانين يرى من يكون في المكان الآخر.

ولـما صارت حلب على هذه الصُّورة، قصدها الفقهاء من البلاد، وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها.

ثم ذكر ابن خلّكان هنا مجيئه مع أخيه إلى حلب ونزوله في هذه المدرسة واشتغاله بالعلم إلى أن قال: ولم نزل عنده إلى أن توفي[1].

وقدَّمنا في الكلام على المدرسة النفرية موضع هذه المدرسة، وأنها قد دثرت ولم يبق من دار الحديث التي عمرت معها سوى حجرة بُنيت حديثاً فوق البئر الذي في أول الجادة التي تذهب منها إلى محلة ساحة بزي من جهة اليسار. وقد ذكرنا ما هو مكتوب على هذه الحجرة مع الكلام على هذه المدرسة المسمَّاة بالصاحبيَّة في ترجمة القاضي ابن شداد في (ج٤ ص٣٨٣) من تاريخنا الكبير.

وتجد ما بنى بعد نور الدين الشهيد من المدارس والجوامع والربط والتكايا والزوايا منثوراً في تاريخنا، كلُّ أثر في ترجمة بانيه مع الكلام عليه على قدر الإمكان، وأظنُّ أني قد أتيت على معظم ذلك، ولكنِّي لا أدَّعي الإحاطة؛ لأن عملي على مقدار ما وصل إليَّ من المصادر التي ذكرتها في آخر تاريخي.

وتجد ذلك أيضاً في تاريخ زميلنا المرحوم الشيخ كامل الغزي «نهر الذهب» فقد وصل إليه من المصادر جزء من «كنوز الذهب» لأبي ذر، وقطعة من «معادن الذهب» للعُرْضي، وهذان لم يصلا إليَّ، على أنَّ ما ذكرته وما ذكره الغزي لو جُرِّد لجاء مجلداً، ويمكن الزيادة عليه لمن تتبَّع وأخذ في البحث واستحصل على غير ما استحصلناه من المصادر، وخصوصاً إذا استنسخت وقفيات حلب من السِّجلات الكثيرة الموجودة في المحكمة الشرعيَّة، وفي دائرة الأوقاف في حلب، وطبعت مُرتَّبة على السنين، وهذا مما اقترحته على دائرة الأوقاف غير مرة، وبيَّنت لها ما في ذلك من الفوائد الجمَّة.

والآن أذكر هنا المدارس الموجودة العامرة وغير العامرة مع بيان مكانها ولا أذكر ما دُثِر منها:

---

(١) سنة ٦٣٢هـ الموافق ١٢٣٤م.

١ـ **الحلاويّة** أمام جامع حلب من جهة الغرب.

٢ـ **العصرونيّة** في محلة الفرافرة، تقدم ذكرها.

٣ـ **الصلاحيّة** في محلة الفرافرة.

٤ـ **الزينبيّة** في محلة الفرافرة.

٥ـ **الهاشميّة** في محلة الفرافرة.

٦ـ **القرناصيّة** في محلة الفرافرة.

٧ـ **الشعبانيّة** في محلة الفرافرة.

٨ـ **الإسماعيليّة** في محلة الفرافرة.

٩ـ **السيافيّة** في محلة الفرافرة.

١٠ـ **العثمانيّة** في محلة الفرافرة.

١١ـ **المنصوريّة** في محلة الفرافرة.

١٢ـ **الحساميّة** في محلة الفرافرة غربي القلعة.

١٣ـ **الناصريّة** في محلة الفرافرة بين جامع الحيات والعصرونية.

١٤ـ **الدليواتيّة** في محلة الفرافرة تحت المنصورية.

١٥ـ **الصاحبيّة** في محلة الفرافرة أمام خان الوزير.

١٦ـ **الشرفيّة** شرقي الجامع الكبير.

١٧ـ **الجاوليّة** التي اتخذت مستوصفاً وراء الجامع.

١٨ـ **بني العشائر** شمالي الجامع دار الحفاظ.

١٩ـ الأحمديّة في محلة الجلُّوم.

٢٠ـ المقدميّة في محلة الجلُّوم ومثلها في دمشق.

٢١ـ الكواكبيّة في محلة الجلُّوم.

٢٢ـ الشاذبختيّة تقدم الكلام عليها.

٢٣ـ الأسديّة الجوانية في محلة باب قنسرين.

٢٤ـ موسى الريحاوي في محلة باب قنسرين.

٢٥ـ حمزة الجعفري في محلة وراء الجامع.

٢٦ـ السعيديّة في محلة البياضة داخل جامع السروي.

٢٧ـ الرحيميّة في محلة البياضة.

٢٨ـ المستداميّة في محلة مستدام بك.

٢٩ـ السلطانيّة تجاه باب القلعة.

٣٠ـ الخسرويّة قرب القلعة في محلة السفاحية.

٣١ـ الكلتاويّة في محلة الجبيلة.

٣٢ـ النارنجيّة في السويقة ملاصقة لجامع الحاج موسى.

٣٣ـ الطرنطائية في محلة باب النيرب.

٣٤ـ الصباهيّة في محلة باب المقام.

٣٥ـ الفردوس في محلة الفردوس.

٣٦ـ السكاكيني في محلة القصيلة.

٣٧ـ دار الحديث في محلة وراء الجامع.

٣٨ـ السفاحيّة في محلة السفاحية.

٣٩ـ القرموطيّة في محلة بحسيتا.

٤٠ـ الأتابكيّة في محلة الجبيلة.

٤١ـ مدرسة أبي ذر في محلة الجبيلة.

٤٢ـ المدرسة البلاطيّة خارج باب المقام بعد خطوات قلائل شرقي تربة خاير بك. انظر: أول السادس من تاريخنا، وهي الآن مربط للبقر والحمير ولا ندري أتأخذ أجرتها دائرة الأوقاف أم لا؟

٤٣ـ المدرسة الظاهريّة خارج باب المقام قبل الفردوس، وهي خراب داخلاً وجدرانها الأربع قائمة. تظنها قلعة لكبرها ومتانة بنائها ولا كتابة عليها[١]، وهي من بناء الظاهر غازي[٢].

٤٤ـ المدرسة الكامليَّة خارج باب المقام أيضاً ولا كتابة عليها.

---

(١) كان بحلب مدرستان يقال لكلٍّ منهما المدرسة الظاهرية، هذه التي هي خارج باب المقام، ويقال لها أحياناً: الظاهرية البرَّانية، وكانت متهدِّمةً، وجدِّدت الآن، وافتتحت مركزاً لتحفيظ القرآن الكريم وقراءاته، والثانية: وهي داخل سور البلد، وتوصف بالظاهرية الجوانيَّة، وهي المقابلة لباب القلعة، القائمةُ بين المدرسة الخسروية (الثانوية الشرعية)، ودار الحكومة (السراي)، وتعرف الآن بجامع السلطانية. وينظر: «إعلام النبلاء» ٤: ٣٦٩.

(٢) السلطان الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، وعهد بالنظر فيها إلى ضياء الدين محمد بن الحسن بن أسعد بن عبد الرحمن ابن العجمي (٥٦٤-٦٢٥)، وإلى القاضي أبي المحاسن يوسف بن رافع بن شداد (٥٣٩-٦٣٢). وينظر الكلام عن المدرسة الظاهرية البرانيّة في: «إعلام النبلاء» ٤: ٣٣٣.

هذه أربعة[1] وأربعون مدرسة دينية في حلب، الخرب منها العصرونية والمقدمية ما عدا قبليتها، والظاهرية والكاملية، وباقيها عامر، واثنتان منها وهما الخسروية والحلوية دُعي طلابهما، وهم نحو المئة بالكلية الشرعيَّة، لهم برنامج منظَّم وإدارة ينفق على أساتذتها وطلابها وإدارتها من قبل دائرة الأوقاف، وباقي المدارس يُحزنك حالتها وحالة التدريس والطلاب فيها يصدق فيها قول الشاعر:

مـدارسُ آياتٍ خَلَـتْ مِن تلاوةٍ ... ومَهبِـطُ وَحْيٍ مُقْفِـرُ العَرَصَاتِ

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) الصواب: أربع.

بمناسبة ذكرى عيد الجلاء

فرنسا والشرق العربي[١]

بقلم المؤرخ الأستاذ محمد راغب الطباخ

أطماع الغرب في الشرق ليس شيئاً مُسْتحدثاً، بل يرجع إلى ما قبل قرون عديدة، وخصوصاً دولة فرنسا؛ فإنها أكثرهم طمعاً، وأعظمهم جشعاً، وقد غزت الشرق العربي عدَّة مرَّات، وعادت مدحورةً خاسرة.

ونذكر هنا حملتين لها على مصر، كان نصيبها فيهما الفشل والخيبة؛ لسوء إدارتها، وضعف سياستها، واستنزافها الأموال بأيِّ طريقة كانت، والثالثة حملتها على سوريا، وخروجها منها.

الحملة الأولى:

كانت الحملة الأولى في سنة (٦٤٧هـ) سبع وأربعين وست مئة هجري، قال أبو الفداء[٢]: «في هذه السنة سار (ريد إفرانس)؛ وهو من أعظم ملوك الفرنج، و (ريد) بلغتهم هو: الملك، أي: ملك فرنسا، وكان جمع نحو خمسين ألف مقاتل، وشَتَى في جزيرة قبرس، ثم سار ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان قد شحنها الملك الصالح

(١) مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، الأعداد (٢٥٣-٢٥٦) السنة التاسعة عشر (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م)، لم أقف في المجلة إلا على هذه المقالة دون حديثه عن بقية الحملات التي شنتها فرنسا على مصر والشام.

(٢) في «المختصر في أخبار البشر».

بآلات عظيمة، وذخائر وافرة، وجعل فيها بني كنانة، وهم مشهورون بالشجاعة.

وكان قد أرسل الملك الصالح[١] فخر الدِّين ابن الشيخ بجماعة كثيرة من العسكر؛ ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط.

ولـمَّا وصلت الفرنجُ؛ عَبَرَ فخر الدِّين ابن الشيخ من البرّ الغربيّ إلى البرّ الشرقي، ووصل الفرنج إلى البرّ الغربي، فتملَّكها الفرنج من غير قتال، واستولوا على ما بها من الذخائر والسلاح، وكان هذا من أعظم المصائب، وعَظُم ذلك على الملك الصالح، وأمر بشنق بني كنانة؛ فشُنِقُوا عن آخرهم.

ووصل الملك الصالح إلى المنصورة، ونزل بها لخمسٍ بَقِين من صفر من هذه السنة، وقد اشتدَّ مرضه».

وبعد أن ذكر خبر موته في شعبان قال: «وتقدَّم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة، وجرى بينهم وبين المسلمين ـ في مستهلِّ رمضان ـ وقعةٌ عظيمة؛ استُشهد فيها جماعة من كبار المسلمين، ونزلت الفرنج بحر مساح، ثم قربوا من المسلمين.

ثم إنَّ الفرنج كبسوا المسلمين على المنصورة لخمس بقين من ذي القعدة، وكان فخر الدين يوسف ابن الشيخ صدر الدِّين بن حموية في الحمام بالمنصورة، فركب مسرعاً، وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه.

ثم حملت المسلمون والترك البحريَّة على الفرنج فردُّوهم على أعقابهم، واستمرَّت بهم الهزيمة.

---

(١) نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر، توفي سنة ٦٤٧، وكانت مدة مملكته للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً. وكان عمره نحو أربع وأربعين سنة كما في «المختصر في أخبار البشر».

ثم إنَّ الملك المعظَّم توران شاه[١]، سار من حصن كيفا، ووصل إلى دمشق في رمضان، ثم سار إلى المنصورة؛ فوصلها لخمس بقين من ذي القعدة من هذه السنة.

ثم اشتدَّ القتال بين المسلمين والفرنجة برّاً وبحراً، ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج، وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركباً، منها تسع شواني، فضعف الفرنج لذلك، وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل، وأن يُسلِّموا دمياط إلى المسلمين؛ فلم تقع الإجابة إلى ذلك.

ولما أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة؛ فنيت أزوادهم، وانقطع عنهم المدد من دمياط، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم، فلم يبقَ لهم صبر على المقام، فرحلوا في المحرم متوجِّهين إلى دمياط، وركب المسلمون أكتافهم.

ثم خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف؛ فلم يَسْلَم منهم إلا القليل، وبلغت عدَّة القتلى من الفرنج ثلاثين ألفاً على ما قيل، وانحاز (ريد إفرانس) ومَن معه من الملوك إلى بلد هناك، وطلبوا الأمان، فأمَّنهم الطواشي محسن الصَّالحي، ثم احتيطَ عليهم، وأُحضِروا إلى المنصورة، وقُيِّد (ريد إفرانس)، وجُعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين بن لقمان، ووكَّل ابنُ الطواشي صبيحَ المعظمي، ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم بالعساكر من المنصورة، ونزل بفارسكور، ونصب بها برج خشب للملك المعظم.

ثم وقع الحديث مع (ريد إفرانس) في تسليم دمياط بالإفراج عنه، فتقدَّم (ريد إفرانس) إلى مَن بها من نُوَّابه في تسليمها، فسلّموها، وصعد إليها العلم السلطاني

---

(١) توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد، آخر ملوك الأيوبيين في مصر، قتل في ٢٧من المحرم سنة ٦٤٨هـ.

يوم الجمعة، لثلاث مضين من صفر من سنة ثمان وأربعين وست مئة، وأطلق (ريد إفرانس)، فركب في البحر بمن سَلِم معه، وأقلعوا إلى عكا، ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار.

وفي (ريد افرانس) يقول جمال الدين يحيى بن مطروح أبياتاً منها:

قـل للفرنْسيسِ إذا جـئـتَـهُ ... مقالَ صـدقٍ عن فؤادٍ[1] نصيحْ

أتيـتَ مـصراً تبتغي مُلْـكَها ... تحسبُ أنَّ الزَّمْـرَ يـا طبـلُ ريحْ

وكلُّ أصحابِـكَ أوردْتَـهُـم ... بحُسْـنِ تدبيرِكَ بطْـنَ الضَّريحْ

خمسـون ألفـاً لا يُـرى منهُـمُ ... غـيـرُ قـتيـلٍ أو أسـيرٍ جريـحْ

وقُـلْ لهـم إن أضمَـروا عـودةً ... لأخذ ثـأرٍ أو لقـصدٍ صـحيحْ

دارُ ابـنِ لقـمانَ عـلى حـالِها ... والقيدُ بـاقٍ والطّواشي صبيحْ

* * *

(١) في المطبوع من «المختصر»: فؤول.

الفصلُ الثّالث

في التّراجم

١ ـ نعي محمد علي باشا أمير لواء الرديف.

٢ ـ بدائع الصنائع والمرأة المسلمة في العصور المتقدمة. (ترجمة العلاء السمرقندي وتلميذه الكاساني، وزوجته فاطمة بنت شيخه العلاء السمرقندي).

٣ ـ ترجمة الشيخ محمد كامل الهبراوي.

٤ ـ ترجمة السيد محمد مسعود الكواكبي.

٥ ـ حول مقالة الشاعر الصنوبري.

٦ ـ الشريف محمد عبد الحي الكتاني يزور سوريا.

٧ ـ خطر انقراض العلم الإسلامي في الديار الشامية (رثاء أحمد الزرقا وعطاء الله الكسم وأبي المواهب الباشا).

٨ ـ كلمة تعريفية موجزة عن الشيخ مصطفى الزرقا.

٩ ـ ترجمة الشيخ محمد راغب الطباخ الذاتيَّة.

١٠ ـ ترجمة كاتب جلبي.

١١ ـ ترجمة مفقودة (ابن عادل الحنبلي).

١٢ ـ بقية ما ترك الأجداد (حول ترجمة ابن حبان البستي).

نعيُ محمد علي باشا[1]

فقدنا رجلاً عظيماً وطَوْداً باسلاً كريماً، ألا وهو أميرُ لواء الرديف[2]، ورئيسُ قلمِ أخذِ العسكر؛ محمد علي باشا، فإنه في الساعة الثامنة من يوم الجمعة أحسَّ بألمٍ ألمَّ به، فألزمه الفراش، فاستدعى عدَّة من الأطباء، فلم ينجع به دواء، فأنشبت المنية فيه أظفارها، وانتقلت روحه الكريمة من دار الفناء إلى دار البقاء، في الساعة الثانية من ليلة السبت، وعمره نيِّف وستون سنة.

وصبيحة ذلك اليوم أقيم له مشهد حافل مشى أمامه بلوكان من الجنود الشاهانية وأبناء المكتب الإعدادي، وجمْعٌ غفير من العلماء والوجهاء ومأمورو الملكية والعسكرية والأهالي إلى أن واروه جدثَه في تربة الجبيلة.

وقد أسف عليه ـ رحمه الله تعالى ـ كل من عرف عظيمَ مزاياه، وجميل خصاله، وكريم أخلاقه، وعالي همَّته، ورفعةَ جانبه.

---

(١) مجلة «ثمرات الفنون» البيروتية، العدد (١٦٠٩) من السنة ٣٣: (١٣٢٤هـ = ١٩٠٧م).
وهذه المقالة من مقالات الطباخ المبكرة ويلحظ استخدامه ألفاظاً تركيةً فيها.

(٢) كلمة عربية من المرادفة، أفادني الأخ إمرة يازجي أن الرديف هو اسم مؤسسة عسكرية، أسست في سنة ١٨٣٤ في عهد محمود الثاني، وهو مثل جيش الاحتياط يرجع إليه عند الاحتياج إضافة إلى الجيش الأصلي.
وقد أصدر قانون في سنة ١٨٤٣ أن من انتهى من وظيفة الجيش خلال ٥ سنوات يدخل إلى الرديف ويخدم فيه ٧ سنوات أيضاً.

وله خدمات تستحق أن تُذكر فتُشكر مع حزم وعزم، ودراية واستقامة وغَيْرة، وشهامة ونفس أبيَّة عن كلِّ دنيَّة.

كان رحمه الله مُحبّاً للمذاكرات العالية في الأحاديث النَّبويَّة، والعلوم العربية مع تضلُّع في الفنون الرياضيَّة، والتاريخية والقوانين النظامية، وله في ذلك اليد الطولى، والقدم الراسخة، نسأله سبحانه أن يُغْدق عليه سحائبَ رحمته ورضوانه وعفوه وإحسانه، ويلهم نجله الماجد سعيد بك (بينباشي[١] طابور بازارجق[٢] حالّاً التابع للواء مرعش) الصبر الجميل، ويوفيه الأجر الجزيل.

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) بنباشي: (بيكباشي) مركب من (بيك) بمعنى ألف، وتقرأ الكاف نوناً، ومن (باش) بمعنى رأس، وهو رئيس ألف أي: قائد الألف، وهوالضابط الذي له نجم وهلال. وهو ضابط بمرتبة رائد فوق النقيب ودون المقدَّم.

(٢) طابور: فرقة وقطعة عسكرية. بازارجق: اسم بلد، وهو قضاء متعلق بمحافظة مرعش (كاهرامان ماراش).

بدائع الصنائع
والمرأة المسلمة في العصور المتقدّمة[1]

تكلَّمتم في الجزء العاشر من المجلد الخامس على كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»، وبيَّنتم فضل الكتاب وماله من المكانة عند المشتغلين بفقه الإمام الأعظم[2] فأحببت أن أتحف قراء المجلة بترجمة المؤلف وترجمة أستاذه، وبنت أستاذه زوجته فاطمة الفاضلة فإنها أنموذج ممَّا كانت عليه الأمة الإسلامية من العناية بتربية النساء.

قال الفاضل محمد عبد الحي اللكنوي الهندي في طبقاته المسمّاة بـ«الفوائد البهية في تراجم الحنفية» في صفحة ١٥٨: محمد بن أحمد بن أبي أحمد أبو بكر علاء الدين

---

(١) مجلة المقتبس «الدمشقية»، الجزء الثامن من المجلد السادس: (١٣٢٩-١٩١١).

(٢) جاء في ذلك الموضع المحال إليه ص٦٧١ تحت عنوان: مخطوطات ومطبوعات: في «ترتيب الشرائع» للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي المتوفى سنة ٥٨٧هـ طبع بمصر سنة ١٣٢٨: اعتاد محمد أمين أفندي الخانجي صاحب المكتبة المشهورة في القاهرة والأستانة أن يطبع للأمة كل نافع من آثار سلفها الصالح، فأحيا بإقدامه عدَّة أمهات، ومنها هذا الكتاب في الفقه الحنفي، تعرَّض فيه مؤلفه الملقّب بملك العلماء لأقسام المسائل وفصولها وتخريجها على قواعدها وأصولها ليكون أسرع فهماً وأسهل ضبطاً وأيسر حفظاً، وقد جمع جملاً من الفقه مرتَّبة بالترتيب الصناعي والتأليف الحكمي مع إيراد الدلائل الجلية والنكت القوية، وهو في سبعة أجزاء تمَّ الأول والثاني والخامس والسادس والسابع منها، وسيتمُّ الجزآن الآخران، وقد وقع في نحو ٢٥٠٠ صفحة بالقطع الكامل على ورق جيد وحروف مصرية، ولا شك أن المشتغلين بفقه الإمام الأعظم يحلُّون هذا الكتاب محلّه من الاعتبار كما أحلَّ المالكية «المدوَّنة الكبرى» المنسوبة للإمام مالك، والشّافعية كتاب «الأم» للشافعي فيُعدُّ عندهم مرجعاً واسعاً.

السمرقندي صاحب «تحفة الفقهاء» أستاذ صاحب «البدائع»، شيخ كبير فاضل، جليل القدر، تفقَّه على أبي المعين ميمون المكحولي، وعلى صدر الإسلام أبي اليسر البزدوي، وكانت ابنته فاطمة الفقيهة العلَّامة زوجة علاء الدين أبي بكر صاحب «البدائع»، وكانت تفقَّهت على أبيها، وحفظت «تُحفته»، وكان زوجها يخطئ فتردُّه إلى الصواب، وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطها وخط أبيها، فلما تزوَّجت بصاحب «البدائع» كانت تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها. انتهىٰ.

وقال في الكتاب الموسوم بـ«مدينة العلوم»: (وهو من البقية الباقية من نفائس المخطوطات مكتبة المدرسة العثمانية بحلب)، ومنها (أي من كتب الحنفية): كتاب «التحفة» للشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي أحمد الإمام علاء الدين السمرقندي، وهو الذي تزوَّج الكاساني ابنته فاطمة وشرح «تحفته». وفاطمة هذه كانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وربما تردُّ فتوى زوجها الكاساني، ويرجع هو إلى قولها، وكانت الفتوى أولاً تخرج وعليها خطها وخط أبيها السمرقندي، ثم كانت تخرج بخطِّهما وخطِّ زوجها الكاساني، وكانت في يدي فاطمة سواران (باعتهما)، وعملت بالثمن الفطور كل ليلة بالحلاوى، واستمر ذلك إلى اليوم، ولهذا سمِّيت تلك المدرسة بالحلاوية. انتهىٰ. (لم يزل هذا اسمها وهي من آثار نور الدين الشهيد عمرها سنة ٥٤٤).

وقال في «الفوائد البهية» أيضاً في صفحة ٥٣: أبو بكر بن مسعود بن أحمد علاء الدين، ملك العلماء الكاساني، صاحب «البدائع» شرح «تحفة الفقهاء»، أخذ العلم عن علاء الدين محمد السمرقندي صاحب «التحفة»، عن صدر الإسلام أبي اليسر البزدوي، وعن أبي المعين ميمون المكحولي، وعن مجد الأئمة السرخسي، وله كتاب «السلطان المبين في أصول الدين».

وتفقَّه عليه ابنه محمود، وأحمد بن محمود الغزنوي صاحب «المقدمة الغزنويَّة»،

مات في عاشر رجب سنة سبع وثمانين وخمس مئة، ودُفن بظاهر حلب عند قبر زوجته فاطمة ابنة صاحب «التحفة» الفقيهة العالمة، والدّعاء عند قبرهما مستجاب.

قال الجامع: قال علي القاري: إنَّه مصنِّف «البدائع» الكتاب الجليل و«السلطان المبين»، قيل: وسمّاه: «المعتمد في المعتقد». ومن شعره:

سبقتُ العالمين إلى المعالي ... بصائب فكرةٍ وعُلوِّ همَّهْ
ولاحَ بحكمتي نور الهدى في ... ليال بالضَّلالة مُدلهِمَّهْ
يريد الجاهلون ليطفئوه ... ويأبى الله إلا أنْ يُتِمَّهْ

وتفقَّه على محمد بن أحمد السَّمرقندي، وقرأ عليه معظم تصانيفه، وَزَوَّجه شيخُه ابنتَه فاطمة، وقيل: إنَّ سبب تزويجها أنها كانت من حِسَان النِّساء، وكانت حفظت «التحفة» لأبيها، وطلبها جماعة من ملوك بلاد الروم، ولما صنَّف صاحب الترجمة «البدائع» وهو شرح «التحفة»، وعرضه على شيخه، ازداد به فرحاً، وزوَّجه ابنتَه، وجعل مهرها منه ذلك، فقالوا في عصره: شرَح تُحفتَه وتزوَّجَ ابنتَه، وأرسل صاحب «البدائع» رسولاً من ملك بلاد الروم إلى نور الدين محمود بحلب، وكان قبل ذلك قدم الرضا السرخسي صاحب «المحيط» إلى حلب، فولاه نور الدين الحلاوية، واتفق عزله فولاه نور الدين الحلاوية فتلقاه الفقهاء بالقبول.

وقال ابن العديم: سمعت ضياء الدين الحنفي قال: حضرت الكاساني عند موته، فشرع في قراءة سورة إبراهيم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فخرجت روحه ودُفن عند زوجته داخل مقام الخليل بظاهر حلب، والدعاءُ عند قبريهما مستجاب، ويعرف عند الزوّار في حلب بقبر المرأة وزوجها، انتهى.

قلتُ: إنَّ الأشعار التي نسبها إليه، قد نسبها حسن جلبي في «حواشي التَّلويح» إلى الحكيم عمر الخيام، والله أعلم.

ونسبته إلى الكاساني بالكاف، ثم الألف، ثم السِّين المهملة، ثم الألف، ثم النُّون: بلدة وراء الشَّاش، ذكره السّمعاني، وقد يقال في نسبته: الكاشاني بالمعجمة بدل المهملة.

وفي «مشتبه النسبة» للذهبي: قاسان بلد كبير بتركستان خلف سيحون، وأهلها يقولون: كاسان، وكانت من محاسن الدّنيا، خربت باستيلاء التُّرك عليها، ومنها العلَّامة علاء الدين الكاساني من أئمة الحنفية بدمشق (صوابه بحلب) أيام الملك نور الدِّين. انتهى.

وقال العلَّامة ابن عابدين في «حاشيته على الدر المختار» في أوائل باب الطهارة ما نصه: هذا الكتاب (أي «البدائع») جليل الشأن لم أر له نظيراً في كتبنا. انتهىٰ.

وقد أكثر العلَّامة المذكور في «حاشيته» من النقل عنه والمتـتبِّع لها يرى أنه حينما يأتي بالنقل عنه يكون قد آذن بالإتيان بما فيه فَصْلُ الخطاب في المسائل المختلف فيها.

فكتاب يلقِّب المؤرِّخون صاحبه بملك العلماء، ويشهد فيه العلَّامة ابن عابدين هذه الشهادة، ويكون عمدته في «حاشيته» التي عليها المعوَّل في عصرنا هذا، يدلُّ دلالة واضحة على عِظَم فَضْل مؤلِّفه وجلالة قدره وغزارة مادته، ومع هذا الفضل والعلم الزاخر كانت زوجته فاطمة ربما ردَّت فتواه ورجع هو إلى قولها، ولا رَيْب أنّها لم تُقدِم على ذلك إلا حينما آنست من نفسها أنّها ضاهَتْه في العلم، أو بلغت مبلغه في الفضل.

وحَسْبُنا هذا دليلاً على ما وصلت إليه المرأة المسلمة من الرُّقيِّ في تلك العصور، وقايس ـ أخي القارئ ـ بين أمثال هذه الفاضلة وبين المرأة المسلمة في عصرنا هذا،

وقل لي ـ رعاك الله ـ : هل يوجد اليوم في مشارق الأرض ومغاربها امرأة مسلمة حازت من العلياء هذه الدرجة؟ وقل لهؤلاء العلماء القائلين بتحريم تعليم المرأة الكتابة: أكان صاحب «التحفة» السمرقندي ـ الذي هذَّب ابنته فاطمة وعلَّمها ما علَّمها ـ جاهلاً بالحكم الذي يعلمه هؤلاء؟

فهل لنا أن نأخذ من ترجمة هذه الفاضلة درس عِظَة يُوقِظنا من سُباتنا، ويبعثنا من أجداث خُمولنا، ويُرشدنا إلى النُّهوض إلى تعليم بناتنا واجباتهم الدينية، وحوائجهم الدنيوية؛ لنحيا في الدّنيا حياة طيّبة، ونعيش في الآخرة عيشة راضية[1].

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

---

(١) تنبيه: علم مما تقدم أن «بدائع الصنائع» هو شرح لـ«تحفة الفقهاء»، لكن المتصفِّح للكتاب لا يرى فيه المتن البتة، وذلك لأنه شرح على طريقة المتقدِّمين أي: إنه أتى إلى كل بحث من أبحاث «التحفة» فوسَّع دائرته وجعله فصلاً ومزج المتن مع الشرح مزجاً لا يمكن التفرقة بينهما إلا لمن يرى «التحفة» على حِدَتها، فالكتاب عبارة عن فصول متتابعة (الطباخ).

ترجمة شيخنا الشيخ محمد كامل الهبراوي

رحمه الله تعالى[1]

١٢٦٥-١٣٤٦

نسبه كما هو مسطور بخطِّه في مجموعته:

هو ابن السيد الشيخ محمد بن العلَّامة الملقّب بالشافعي الصغير شهاب الدين أحمد بن السيد محمد بن السيد ياسين بن عبد الغني بن محمد بن كريم الدين الهبراوي ابن أحمد بن أبي بكر بن محمد أبي المعالي بن علي بن عيسى الهبراوي بن مصطفى بن بدر الدين ـ أول قادم للديار الحلبية ـ بن أحمد شهاب الدين بن عبد الله بن صالح جمال الدين ـ قاضي المدينة المنورة ـ بن أحمد أبي صالح بن يحيى بن شعيب بن عبد الله المدني ابن علي حازم بن أحمد المرتضى بن علي بن رفاعة الحسن المكي الهاشمي بن المهدي بن محمد أبي القاسم بن حسن أبي موسى بن حسين عبد الرحمن المرتضى بن أحمد الأكبر، ابن موسى الثاني أبي يحيى بن إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين السِّبط رضي الله عنه ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه.

---

(١) من «الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبيَّة»، الطبعة الأولى ١٣٥١-١٩٣٢عند سرده لشيوخه الذين أجازوه، أورد ترجمة شيخه كامل الهبراوي، ولم تنشر في «إعلام النبلاء» لأنه توقف عند سنة ١٣٤٥، فاستحسنتُ نقلها إلى قسم التراجم في هذه المقالات.

ولادته ونشأته وشيوخه:

ولد ـ رحمه الله تعالى ـ في الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ١٢٦٥ ألف ومئتين وخمس وستين، ولما ترعرع أتقن حفظ القرآن العظيم على الورع الزاهد الشيخ مصطفى الأصيل[1]، من رواية حفص، وتلقَّى عنه الخط بأنواعه، وقرأ عليه «الآجرُّومية»، وقليلاً من «شرح الشاطبية» لابن القاصح، سورة الفاتحة وأوائل البقرة.

وقرأ على العالم الفاضل الفَرَضي الشهير الشيخ مصطفى الشربجي[2] «الأمثلة الصرفية»، و«متن السخاوية»، و«متن السراجية»، ثم شرحها للسيد.

وقرأ على الفاضل العالم الشيخ حسين الكردي[3] مدرّس المدرسة العثمانية جملة رسائل في الصرف والبيان.

وقرأ على العارف بالله تعالى العلَّامة الكبير الشيخ أحمد الترمانيني «شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك» في النحو، و«شرح الشذور»، و«شرح القطر» لابن هشام، و«شرح القطر للفاكهي»[4]، مع مراجعة شرحه عليه، و«المغني»، و«الأشموني»، و«شرح السعد على العزّي» في الصرف، و«شرح الخطيب» مع مراجعة بعض «حواشي البجيرمي»،

---

(١) مصطفى الأصيل: الشيخ مصطفى بن هاشم الأصيل، الحنفي، المتوفى سنة ١٢٧٩هـ عن ٦٣ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٣٠٥-٣٠٨.

(٢) مصطفى الشُرْبَجي: بضم الشين وسكون الراء وفتح الباء، الفَرَضي، المتوفَّى سنة ١٣٠١هـ عن مئة عام أو تنقص قليلاً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٣٧٢.

(٣) حسين الكردي: مدرِّس المدرسة الأحمدية والرضائية، المتوفى في نواحي سنة ١٣٣٤هـ كما في ترجمة عبد السميع الكردي، المتوفى سنة ١٣٣٨، وهو من شيوخ العلامة بشير الغزي، المتوفى سنة ١٣٣٩هـ، قرأ عليه علم المنطق وآداب البحث والمناظرة وجملة من التفسير ومصطلح الحديث. ينظر: «إعلام النبلاء» ٧: ٥٦٣ و ٥٧٥.

(٤) واسمه: «مجيب النِّدا في شرح قطر الندى»، للفاكهي المكي، عبد الله بن أحمد المتوفى سنة ٩٧٢، طبعته الدار العثمانية بعمان سنة ١٤٢٩، بتحقيق مؤمن عمر البدارين.

و«شرح المنهج» كذلك، و«شرح التحرير»، و«متن الكافي»، و«منظومة الصبَّان في علمَي العَروض والقوافي»، وغير ذلك.

وقرأ على الشيخ عبد الحميد دده الفلكي[١] شيخ تكيَّة بابا بيرم رسالة عظيمة مترجمة في علم الهندسة، و«مجموعة النِّسب الجدولية»، و«الظلية»، وطالع عليه كيفية أعمالها المسماة باللغرتمة، ودوَّن ذلك في رسالة وعرضها على شيخه فاستحسنها للغاية، وقرأ عليه قليلاً من علم الفلك.

وقرأ على شيخنا الشيخ محمد الجزماتي[٢] «الأشباه والنظائر»، في الفقه الحنفي، وقليلاً من شرح «الدر المختار» و«حاشية ابن عابدين»، وقليلاً من «شرح المختصر» للسعد، و«رسالة الدردير» مع «حاشية الصَّاوي» في البيان.

وقرأ على شيخنا الفقيه الكبير الشيخ محمد الزرقا[٣] كتباً كثيرة منها: «شرح الأزهريَّة» مع «حاشيتها» للعطار بالحرف، و«حاشية الخضري على ابن عقيل» بالحرف، و«المغني» لابن هشام مع مراجعة بعض «الحواشي الدسوقية» عليه، وجملة من «شرح الأشموني» مع مراجعة الصبَّان، وغير ذلك.

وقرأ على العالم الفاضل الشيخ عبد السلام الترمانيني[٤] بعض «شرح المختصر» للسعد. وقد كتب لي ذلك كله بخطه.

---

(١) المتوفى سنة ١٣٠٤هـ عن ٧٦ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٣٨٧-٣٨٩.

(٢) الشيخ محمد بن عبد الله الجزماتي، سبط أحمد الترمانيني، أمين الفتوى بحلب الشهباء، وأحد أركان العلم فيها، المتوفى سنة ١٣٢٦، عن ٦٤ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٥١٣-٥١٥.

(٣) الشيخ محمد بن عثمان الزرقا، فقيه الديار الحلبية، وعالم البلاد السورية، المتوفى سنة ١٣٤٣هـ عن ٨٥ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٦٢٩-٦٣٨.

(٤) عبد السلام بن عبد الكريم بن أحمد الترمانيني، مفتي الشافعية بحلب وابن مفتيها، =

ومشايخه هؤلاء كلهم مترجمون في تاريخي «أعلام النبلاء» ما عدا الشيخ حسيناً الكردي مدرس العثمانية فإنه لم يتيسَّر لي ترجمته، وقد أدركته، وكانت وفاته بعد الثلاثين، ودُفن في تربة الجبيلة[1].

وقد شاركته في شيخين من مشايخه وهما: الشيخ محمد الجزماتي، والشيخ محمد الزرقا كما بيَّنت ذلك فيمن قرأتُ عليهم من المشايخ[2].

وتلقَّى الحديث وعلومه، وسمع الكثير من كتبه على العلَّامة الشيخ عبد القادر الحبال[3]، وقرأ عليه: التفسير والعقائد، وعلم آداب البحث، وبعض رسائل في علم الفلك، وقد ذكر ذلك في إجازته.

وقرأ الفقه الشافعي، وشرح المحلِّي على «جمع الجوامع» في الأصول، و«المغني» و«حاشيته» للدسوقي، وبعض «شرح الأشموني»، و«حاشيته» للصبّان، وعلم

= وشيخ الحديث بمدينة حلب وما يليها، المتوفى سنة ١٣٠٥هـ عن ٦٧ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٣٨٩-٣٩٥.

(١) قال العلامة الطباخ في ترجمة شيخه عبد السميع الكردي المتوفى ١٣٣٨: وبعد وفاة مدرس المدرسة الأحمدية الشيخ حسين الكردي، نواحي سنة ١٣٣٤ صار ـ أي شيخه عبد السميع ـ مدرسها.
وذكر في ترجمة شيخه مصطفى الهلالي المتوفى سنة ١٣٣٧: أنه قرأ على الشيخ حسين الكردي مدرس العثمانية في الأصول والتفسير، وآخر ما حضر عليه تفسير البيضاوي.
وذكر في ترجمة شيخه بشير الغزي المتوفى ١٣٣٩: ولما آل التدريس في المدرسة الرضائية إلى الشيخ المحقق حسين الكردي لازمه، فقرأ عليه المنطق وآداب البحث والمناظرة، وجملة من التفسير ومصطلح الحديث.

(٢) في ترجمته الذاتية التي كتبها في كتابه «الأنوار الجلية» بعد ترجمته لشيخه محمد رضا الزعيم. وتنظر ترجمته الذاتية الموسعة التي ستصدر بعنايتي قريباً بعون الله.

(٣) الشيخ عبد القادر بن عمر الحبال، الحنفي الفقيه الصوفي، المتوفى سنة ١٣٠٠هـ، عن ٦٣ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٣٧٢-٣٧٣.

المنطق، وغير ذلك على الشيخ محمد شهيد الترمانيني[١]، وقد ذكر ذلك شيخه المذكور في إجازته له[٢].

وكان مشايخه شديدي المحبة له والعناية به؛ لأدبه، وحُسْن أخلاقه، وسَمْته، وحرصه على الاستفادة، وملازمته للطلب مع أناةٍ وفَرْط ذكاء ونَجَابة.

وفي برهة قليلة فَضُل ونَـبُل، وشَهِدَ له مشايخه بالبراعة والتفوُّق، وعندئذ شرع في التدريس، وانتفع به الخاصَّة والعامَّة، وخصوصاً أهل محلته المعروفة بالكلاسة، فإنهم انتفعوا به في درسه العام لهم، وصار مرجعهم في أحكام دينهم، وفي وقائعهم وتقسيم تَرِكَاتِهم، يتحاكمون إليه عند اختلافهم في قضاياهم، وله فيهم القول المسموع والكلمة النافذة، مع التبجيل والتعظيم من كبيرهم وصغيرهم.

ولـما كان ما لديه من الوظائف لا يقوم بأمر معيشته وَجَد أن لا مندوحة له عن الكسب فشارك رجلاً من أهل محلته فتعاطيا صنعة الأغَبَاني في السُّوق المعروف بسوق إستانبول، ولما كان معظم رواج هذا الصنف في البلاد الحجازية صار هو وشريكه ـ أوهما معاً ـ يأخذان في كلِّ سنة هذا الصنف وغير ذلك من البضائع التي تروج في الحجاز، وبقيا على ذلك سنين كثيرة، وأثْريا من ذلك وتجمَّل حالهما، واستحضرا لمكَّة مطحنةً حديديَّةً من البلاد الغربية، ووضعا في قيمتها مبلغاً عظيماً، ولما حصلت الحرب العالمية الكبرى، وثار الشريف حسين أمير مكة على الدولة العثمانية حينما مُنعت عنه الميرة، نهبت عساكر الشريف ما كان هناك من طحين، وكسروا بعض آلات المطحنة.

وسبب ذلك: أنَّ شيخنا كان منحازاً للدولة العثمانية وأمرائها هناك، فأرسل

---

(١) الشيخ محمد شهيد بن عبد العزيز الترمانيني، المتوفى سنة ١٣٠١هـ عن ٦٥ عاماً. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٣٧٩.

(٢) أورد نص إجازته له في «الأنوار الجليَّة».

الشريف جماعةً من قِبَلِهِ فطلبوا طحيناً، فأرسل المترجَم إلى الأمير من قِبَل الأتراك، فأرسل له جنداً واقتتلوا هناك، وقُتل من عسكر الشريف نحو عشرة أشخاص، عندها أرسل الشريف عساكر كثيرة فنهبت ما هنالك، وكسرت بعض آلات المطحنة، فتعطّلت، ثم إنَّ شيخنا صَالحَ الشريف حُسيناً، لكن كما يقال: بعد خراب البصرة.

مغادرته الديار الحجازية ووفاته:

وبعد مدة غادر البلاد الحجازية، وعاد إلى وطنه خاوي الوفاض[1]، بادي الأنقاض[2]، وذهبت تلك الثروة، وصار يعيش عيشة الكفاف من معلوم كان له في الجامع الكبير الأموي، ومن بعض الجهات التي كانت عليه، وهي شيءٌ لا يُذكر.

وعُيِّن بعد حضوره لبعض الدروس في المدرسة الخسرويَّة إلا أنه ـ لكبر سنِّه، ووهن قواه، وضعف بصره ـ لم يتمكن من القراءة والإفادة، فاضطر إلى ترك ذلك الدرس، ولزم بيته مشتغلاً بشؤونه وعبادة ربه حتى أتاه الحق اليقين.

وذلك يوم الخميس ثامن عشر شعبان سنة ألف وثلاث مئة وستة وأربعين.

ودُفن في تربة الكليباتي خارج محلة باب قنّسرين جانب أبيه وجده، وجوار شيخه الشيخ عبد القادر الحبال، وشيخ شيخه الشيخ أحمد شنُّون المشهور بالحجَّار[3]، رحم الله الجميع رحمة واسعة، ولا زال سحائب الرضوان فوق أجداثهم هامعة بمَنِّه وكرمه.

---

(١) الوفضة: خريطة الراعي لزاده وأداته.

(٢) النِّقض والنِّقضة: هما الجمل والناقة اللذان هزلتهما وأدبرتهما، والمهزول من الإبل والخيل، كأن السفر نقض بنيته.

(٣) العلامة الشيخ أحمد بن قاسم شنُّون الشهير بالحجّار، المتوفى سنة ١٢٧٨هـ عن ٨٨ عاماً رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٢٩٥-٢٩٩.

اجتماعه بعلماء مكة واستجازتهم:

وفي تردُّده إلى مكة الـمرَّات الكثيرة؛ كان يجتمع بعلمـائها وأفاضلها ويُذاكرهم ويُحاضرهم، فظهر لهم علمه، وتبيَّن لهم فضْله، واسْتَجازهم فأجازوه إجازات متعددة، بل وقد أجاز بعض هؤلاء.

ولا ريب أن سفراته الكثيرة في المدَّة الأخيرة حالت دون الاستفادة الكاملة منه في حلب، وكان لسان حاله يقول:

قالت: تسافر يا فتى   وتُفارِقُ الوجْهَ الحَسَنْ
فأجبتُها بِتَذلُّل   والقلبُ يعلوهُ الشَّجَنْ
هَمُّ المعيشةِ فرَّقتْ   بين الأحبَّة والوطنْ

مؤلفاته:

له رسالة في الحساب، وهي شرح سمَّاه: «القلائد الهبراوية على المنظومة السملالية» في خمس كراريس.

وله «الدرر الوهبيَّة في الأعمال الفرضيَّة الجدولية» في نحو خمس كراريس أيضاً.

وله شرح على المنظومة المسمَّاة بـ: «العقود البرهانيَّة في علم الفرائض» للشيخ محمد بن حجازي الحلبي المتوفى في سنة ١٢٠٥، وهو أحد رجال تاريخنا، وترجمته في ج٧ص١٣١، وقد قلت ثمة: إنه شرحها شرحاً حسناً، أفاد فيه وأجاد، وقد قرَّظتُ هذا الشرح المفيد في جملة من قـرَّظه.

وله منظومة في الوفق المثلث الخالي الوسط والعامر الوسط، حمله على تأليفها

شيخنا الشيخ حبيب الله الشنقيطي[1] المجاور بمكة المكرمة قديماً، ونزيل الديار المصريّة حالاً.

وبعد عودته من مكة؛ زُرته في بيته في محلة الكلاسة غير مرة، واستفدت من مذاكرته ومحاضراته، وشملتني دعواته ونظراته، واسْتَجزتُه فأجازني، وكتب لي الإجازة بخطه في مجموعتي.

وبالجملة فقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ حسنةً من حَسَنات الشهباء، وعَلَماً من أعلامها، ولم يخلفه بعده وبعد شيخنا الشيخ أحمد المكتبي[2] في فقه السادة الشافعية مثله، وذلك مع رقّة معاشرة ودماثة أخلاق، وحُسْنِ سَمْت ووقارٍ، وأناةٍ وروِيَّة ودراية، وذلك ظاهرٌ فيه متى وقع بَصَرُك عليه.

شعره:

وله شعرٌ رائقٌ حسنٌ، لا كُلْفَةَ فيه، لكنه لم يجمعه في ديوان؛ فتبعثر ولم يبق منه إلا بقية قليلة، ظفرت بها في مجموع صغير له، وهي مما قاله في حال الصِّبا.

فمن شعره في مطلع قصيدة قالها سنة ١٢٨٧:

قلبُ المتيَّم لا يُحبُّ سواكا ... يا مالكاً رِقِّي جُعِلتُ فداكا
يا قاتلي بصدوده مَهلاً فقد ... طال المطالُ على قتيل هواكا
إنْ كان قصدُكَ حاسدي فقد اشتفى ... يا منصفي لا تحرمنِّ رضاكا

---

(١) هو العلامة المسند الشيخ محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد الملقب بـ(ما يابى) التجكني، وتوفي سنة ١٣٦٣هـ عن ٦٨ عاماً رحمه الله تعالى.

(٢) هو العلامة المحدّث النحوي الأصولي، أحمد بن مصطفى المكتبي، فقيه الشافعية في الديار الحلبية، المتوفى سنة ١٣٤٢هـ عن ٧٩ عاماً رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٦١٧-٦١٩.

مَـهْ لا يحلُّ بشـرع أهـل الحبّ أن ‏ ‏ تسـطو عـليَّ وتمنحـنَّ جفاكـا
رفقـاً بصـبٍّ مُذْنَـف قـد صـار في ‏ ‏ ضَـنْـكٍ ورقَّ بـالـذي ولاكـا

ومنها:

يـا قلبَـهُ القـاسي ورقّـة خَصْـرِهِ ‏ ‏ هـلَّا نقلـتَ إلى هنـا مـن ذاكا
حتى متـى هذا الصّـدود وذا الجفا ‏ ‏ يـا حـبُّ إني لا أريـد سواكـا

إلى أن قال:

عطفـاً عـلى عبـدٍ أسيرِ صَبابـةٍ ‏ ‏ قـد ذاب شـوقاً مـن أليـم جفـاكا
عوَّدتـه الإحسـان منـك فهـل لـه ‏ ‏ إذْ ضـاق ذرعـاً في الهـوى إلّاكا
ريـحَ الصَّبـا عـرِّج إليـه، وقـل لـه ‏ ‏ هــذي تحـيَّـة مُـغْـرم يهـواكـا
ممزوجـةٌ بالمسـك طيِّبـة الشَّـذى ‏ ‏ منهـا يفـوح النِّـدُّ مـن ريَّـاكا
تُهـدى لحضرتـك العليَّـة دائـماً ‏ ‏ مـا حَـنَّ قلـبُ متيَّـمٍ لِلِقـاكا

وله مخمِّساً في سنة ١٢٨٨:

تزايدَ شـوقي من غرامـي وَلَوْعَتي ‏ ‏ وأقْلَقنـي وَجْـدي وفَـرْط محبتـي
فناديـتُ: صـبراً يـا أُهيـل مَـودَّتي ‏ ‏ بُلِيــتُ بظبـيٍ نـافرٍ رامَ قتلتــي

ولم يَـدْرِ قتـل النفـس شيءٌ محـرَّمُ

وَهَبـتُ لـه روحي وقلبـي فلم يرِدْ ‏ ‏ وألفيتُـه عَضْبـاً لقتـلي مُسـتعِدْ
ولمـا غـدا وجهـي بنـار الجفـا يقِدْ ‏ ‏ كتمتُ الهوى خوفـاً عليه فلم أجِدْ

مُعينـاً لشـوقي وهْوَ بالحـال أعلمُ

لقد صرت مُضنىً للعواذل عبرةً طريحاً على الأعتاب أندب حسرةً
فـما كان ظنّـي بالحبيـب قسـاوةً وما كنـت أدري أن أقاسيَ لوعةً

ودمعـي غـدا منـي إليـه يترجـمُ

إلى أن قال فيه:

عُبَيْدُكَ قد أمسـى ببابك مُشـرِفا على تَلَفٍ؛ فارحَمْ وكُن له مُنصِفا
ومن صدّه والهجر نادى تلهُّفا فهـذا الرجـا فاقبله منِّـي تعطُّفا

وإلا غدا يا حبّ عشـتَ وتسـلمُ

وله ـ رحمه الله تعالى ـ قصيدة يمدح بها السيد الأعظم ﷺ، مطلعها:

أَوَرْقَـاءُ مهـلاً إنَّ قلبـي مُتَيَّـمُ أسـيرُ غـرامٍ بالجفـا متـألـمُ
أُذِقتُ الهوى طفلاً فهل ثَمَّ مُنصفٌ يـرقُّ لـذلّي أو بحـاليَ يعلـمُ
وينشد أخباري ويشـرح قصَّتي لأحبـاب قلبي علَّهـم ليَ يرحموا
ويَرْثُوا لِصَبٍّ ذاب سُقْماً من الجَفَا وفي قلبـه نـارُ الصَّبابـة تُضْـرَمُ

ومنها في التَّخلُّص:

نسيمَ الصَّبا إن جُزتَ نجداً فَبلِّغن تحيَّـة صَـبٍّ في الهـوى مُترنِّـمُ
وأخبِرْهُـمُ أنّي رهـينُ صَبابـةٍ وفي مهجتي نارٌ من الحب تُضـرَمُ
وإنْ سألوا عني وعن حال بُغيتي فقـل بعد تبليـغ السـلام إليهمُ:
محبُّكُـمُ قد ضاق ذرعـاً من الجفا وليـس لـه إلَّا النَّبـي المكـرَّمُ
نَبـيٌّ تَقـيٌّ هاشـميٌّ مُهَـذَّب عظيـمٌ جليـل أبطحـيٌّ معظَّـمُ
عطوفٌ رؤوفٌ ذو جلالٍ ورفعةٍ حليمٌ غدا للذنـب يعفُو ويرحمُ

فلولاه ما سَارَ الحجيجُ بيثربٍ ولـولاه مـا كان الخليـل وآدمُ

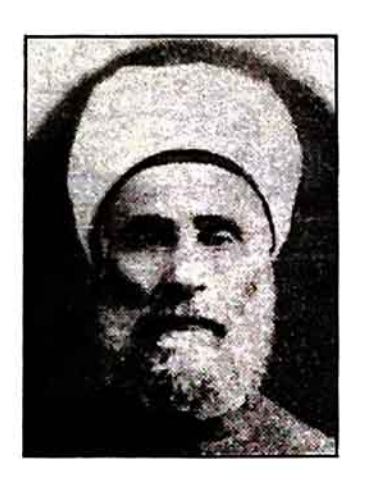
وهي طويلة وله:

لله درُّ غـــزالٍ لا أُسَــمِّـيــهِ أُكْنِي بذكـر سـواهُ ثـمّ أَعنيـهِ
أخشـى عليه من العُـذّال قاطبةً أوْ سـهم عينٍ من الحسّـاد يرميهِ
قـد مُلِّـك القلـب منّي في محبّتِهِ لـمـا غــدا يتثنّى في تَـلَـوِّيــهِ
يميسُ عَطْفاً فيا وَيْحَ الغصون إذا أضحى يميس على الخلّان بالتِّيهِ
في خدِّه الوردُ منظومٌ بسلك عقيـ ـقٍ قـد حـلا وتجلَّى لمحبِّيـهِ
قد أطرق البدرُ خوفًا منه حين بَدَا مـن أيـن للبـدر وَجْـهٌ أن يحاكيهِ
مُهَفْهَفٌ تسـلبُ الأرواحَ طلعتُهُ عَمْـداً فمهجـة مَنْ يهـواه في تيهِ
أشـكو إلى الله ظبياً بالفؤاد سَـطَا عـلى فـؤادي ولم يعلـم بـما فيـهِ
هـل مخبرٌ لـه ما ألقـاه من سَـقَمٍ عسـى بحلـمٍ يَقيـني مِـنْ تجافيهِ
يـا أكحلَ العين يا نُورَ الهلالِ ويا حاوي المحاسن يا أقصـى أمانيهِ
هلّا رَثَيْتَ ـ رعاكَ الله ـ حالَ فتى أضحى كئيباً قريـحَ الجفن باكيهِ
ارْدُدْ عليـه منامـاً كان يعهَـدُهُ لعـلَّ طَيْـف خيـالٍ منـك يأتيـهِ
وراقـبِ الله في أمـر المحـبِّ فـما لاقى من الصَّدِّ والهجران يكفيهِ
رام العـواذلُ أن أسـلُو محبَّتـه وعنَّفـوني ولم يَـدْروا بـما فيـهِ
فمُذْ رأوا نور محيّاه أَشَرْت لهم[1] (فذلكـنَّ الـذي لمتُنَّنِـي فيـهِ)

* * *

(١) كذا في الأصل، وفيه كسر.

ترجمة السيد محمد مسعود الكواكبي[1]



١٢٨١-١٣٤٨هـ

بقلم العلَّامة الأستاذ راغب أفندي الطباخ

ولـو كان سـهماً واحـداً لاتَّقيتُـهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ولكنَّــه ســهمٌ وثــانٍ وثالـثُ

يا لله من دهر يأتينا بالمصائب بعد المصائب، وينهالُ علينا بالخطوب والكوارث، فلا نكادُ ننتهي من واحدة إلا وتعقبها الأخرى، ذلك دأبنا معه، وتلك حالتنا فيه، وأنَّى لدرع صَبْرِنا أن يقاوم تلك السهام وقد تكسَّرت النِّصال على النِّصال، وأنَّى لقلوبنا أن تتحمّل.

صُبَّـت علـيَّ مصائـبٌ لـو أنَّهـا ‏ ‏ ‏ ‏ صُبَّـتْ علـى الأيـام عُـدْنَ لياليا

(١) مجلة «الاعتصام» الحلبية، الجزء السابع: (رجب ١٣٤٨هـ = ١٩٢٨م).

فُجِعَتْ الديارُ الحلبيَّة بالأمس بالعلَّامة الشيخ: بشير الغزي، وتلاه العلَّامة الشيخ أحمد المكتبي، وتلاهما الأستاذ الصَّديق الشيخ: محمد الحنيفي، وفقيه هذه الديار شيخنا الشيخ محمد الزرقا، وقفَّى على أثرهم الفقيه الأديب الشيخ كامل الهبراوي[1]، فانطفأت تلك المصابيحُ التي كانت تَستنير بهم هذه البلاد في سنين مُتقاربة، فرحلوا عن هذه الديار وكأنَّهم لم يأتُوا إليها.

فكأنه بَرْقٌ تألَّق في الحِمى ثمَّ انطوى فكأنَّه لم يلمعِ

وأصبحنا بعد أُفول هذه الشموس المشرقة نرفع الصوت ونقول:

خَلَتِ الديارُ فلا كريمٌ يُرتجى منه النَّوالُ ولا مليحٌ يُعشَقُ[2]

وما كدنا نمسحُ الدمع المُسْترسل لغيبوبة تلك الأقمار تحت أطباق الثَّرى حتى فاجأتنا الأنباءُ البرقيَّة من دمشق بوفاة عَلَم من أعلام الشهباء، وركنٍ عظيمٍ من أركانها، له في شرف النَّسب وكرم المَحْتِد الذِّروةُ العليا، فكان لهذا النبأ العظيم رنَّة صدَّعت القلوب وأفاضت الدمع إلا أنَّه لم يسعنا تلقاء هذا المصاب الجلل إلا الاسترجاع وتلقِّيه بالصبر الجميل، فذلك خيرُ ما يُلتجأ إليه ويتدرَّع به، فإنَّ ذلك القضاء المُحَتَّم لا محيد عنه ولا مندوحة لكلِّ نفس منه «لابدَّ من صَنْعَا وإنْ طال السفر».

وإني لمحبَّتي له ومعرفتي بفضلة الغزير ومعاشرتي له مدَّة طويلة، أحببتُ أن أُترجم هذا الراحل الكريم، وأذكر ما لديَّ من أشعاره وآثاره، وقد كان أتحفني بذلك كلِّه حالَ حياته بطلبٍ مني، فكان بذلك المنعمَ المتفضِّلَ وهو عندي بخطه، وأحببتُ

---

(١) المتوفى يوم الخميس ١٨ شعبان ١٣٤٦هـ عن ٨١ عاماً رحمه الله تعالى، وقد تقدَّمت ترجمته في هذا الفصل ص٢٨٦-٢٩٦.

(٢) هذا البيت لأبي إسحاق إبراهيم بن عثمان الغزي المتوفى سنة ٥٢٣ عن ٨٢ عاماً، وسيأتي مقال للطباخ عن الغزي وديوانه في الفصل الخامس ٢: ١٢٠-١٢٧

بل اقترح عليَّ غير واحد من مُحبِّيه وعارفي فضله أن أنشر ذلك في صفحات «الاعتصام» تخليداً لذكره في بطون الكتب على ممرِّ الأجيال وكرِّ العصور.

نسبه:

هو محمد مسعود أبو السعود ابن الشيخ أحمد بهائي بن محمد مسعود بن الحاج عبد الرحمن بن الحاج محمد بن محمد ابن الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن محمد الشيخ أبي يحيى الكواكبي، دفين الجامع المعروف به في محلة الجلُّوم الصُّغرى، ابن برهان الدين إبراهيم، بن علاء الدين علي، بن شيخ المشايخ والعارفين صدر الدين موسى الأردبيلي، ابن الشيخ صفي الدين إسحاق الأردبيلي، ابن الشيخ أمين الدين جبريل، ابن الشيخ صالح، ابن الشيخ أبي بكر قطب الدين أحمد حيدر «زاوة في الهند ٥٧٠ = ٦٧٠» ابن الشيخ صلاح الدين رشيد، ابن الشيخ محمد الحافظ، ابن الشيخ عوض الخوَّاص، ابن الشيخ فيروز شاه البخاري، ابن الشيخ محمد المهدي، بن بدر الدين حسن شرف شاه، بن أبي القاسم محمد بن ثابت بن حسين بن أحمد، بن الأمير داود بن علي، ابن الإمام موسى الثاني، ابن الإمام إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصادق، ابن الإمام محمد الباقر، ابن الإمام علي زين العابدين، ابن الإمام الحسين السبط، ابن الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ورضي عنهم.

ولادته ونشأته:

ولد في الثلاثين من شعبان سنة إحدى وثمانين ومئتين وألف[١]، وحفظ نحوَ النصف من القرآن العظيم، وقرأ العلوم العربية والمنطق والفقه الحنفي على والده،

---

(١) أي أنه يصغر أخاه عبد الرحمن الكواكبي بستة عشر عاماً.

وعلى الشيخ محمد الكحيل، والشيخ عبد القادر الحمصي، وتعلَّم مبادئ التركية والرياضيات، واللسان الفرنسوي في المدرسة الرُّشديَّة الرسميّة بحلب، ثم استزاد من الفرنسويَّة قراءةً وكتابةً على معلِّمين مخصوصين، ثم أكبَّ على المُطالعة فأكمل اللسان التركي، وحصل من الفنون العصريَّة مثل الطبيعيات والهندسة والجغرافيا والتاريخ والهيئة على حظٍّ وافر، وتعلّم الخطَّ عند الشيخ محمد العريف في المدرسة الشَّرَفية حينما كان يُعلِّم فيها، وبرع في أنواعه الثلاث، ثم بالممارسة تعلَّم الخط الفارسي والديواني، ثم سَمَت نفسه إلى تعلُّم الخط العبراني والرومي والأرمني.

ما تولاه من المناصب:

أول منصب تولاه: مُعاون محرِّرِ المقاولات[1]، وذلك في ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٩٧، وفي غُرَّة جمادى الثانية من سنة ١٣٠١، عُيِّن إلى ترجمة محكمة التجارة، وفي ١٧ من المحرم من سنة ١٣٠٨، رُقِّي إلى رئاسة الكتاب فيها.

وفي ١٣من ربيع الأول سنة ١٣١٢، طلب إلى الأستانة، وهناك كلِّف لإنشاء جريدة تدعى «استقامت» أمر السلطان عبد الحميد الثاني بإصدارها باللغتين العربية والتركية لتدافع عن إدارته، فذهب واجتهد في التَّنصُّل من هذا التكليف، وأقام إلى ٢٦ محرم سنة ١٣١٣، وكان قد صرف النظر عن الجريدة فعاد إلى حلب.

ثم في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣١٤، عُيِّن مرة ثانية إلى رئاسة الكتاب في محكمة التجارة، وبقي إلى ٢ ربيع الأول سنة ١٣١٩، ثم عُيِّن مديراً لمدرسة الصنائع فلم يُباشرها، وذهب إلى الأستانة فَعُيِّن إلى عضويَّة هيئة تدقيق المؤلفات في نظارة المعارف إلى أن أُلْغيت الهيئة المذكورة بإعلان المشروطيَّة.

---

(١) أي مسجّل المحكمة.

وفي تلك الأثناء عقدت جمعيَّة حضرها كل عربي في الأستانة، وهم مئات، وشكّلوا حزباً سياسياً باسم «جمعية الإخاء العربي» فانتخب المترجَم باسم حلب في اثنين وعشرين عضواً.

انتخابه لمجلس النوَّاب العثماني:

لما حصل الانقلاب العثماني، وأعلنت المشروطيَّة في عهد السلطان عبد الحميد خان العثماني، وذلك في سنة ١٣٢٦، وصدر الأمر بافتتاح مجلس النوَّاب العثماني، وأن تنتخب كل نوَّابها، كان المترجَم في مقدِّمة من توجَّهت الأنظار لانتخابه، وذلك لما عُلم من مقدرته وكفاءته واستقامته، وكنت وقتئذ في مقدِّمة الدعاة إليه، ونشرتُ يومئذ نشرةً بيَّنتُ فيها مزاياه، فكان ثاني ستَّة من المُنتَخَبين عن نفس الشهباء، وذلك في ٢٧ رمضان سنة ١٣٢٦، فتوجَّه مع بقية النوَّاب إلى الأستانة، وهناك انتظم في لجنة الاستدعاء من المجلس النيابي، وكان من أعضاء الحزب الحر المعتدل، ثم عند إلغاء هذا الحزب وتشكُّل حزب الحريَّة والائتلاف كان من أعضائه، وصدر باسمه بضعة أعداد من جريدة للحزب دُعِيَت «تقديرات»، ثم ألغتها حكومة الاتحاديين، وبقي السنين الأربع التي هي الدورة الأولى.

تعيينه لنقابة أشراف حلب:

وفي أثناء وجوده في الأستانة، عُيِّن لنقابة أشراف حلب، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٢٧، وبقي فيها إلى غاية جُمادى الآخرة سنة ١٣٣٨، ومن تولى نقابة أشراف حلب يُسْنَد إليه تولية الوقف المشهور بوقف بشير باشا الواقع مسجده وعقاراته في مكان واحد من المحلَّة المعروفة بالجدَيْدَةِ، وقد تكلَّمت على هذا الوقف في الجزء الثالث من تاريخي «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ص٢٦٣، وذكرت ثمَّة أنه انتقل إلى المترجَم بعد وفاة الشيخ أبي الهدى الصيادي.

ولما كان في توليته قام بأمره أحسن قيام، ورمَّم عقاراته، فازدادت الرغبة فيه، ونَمَا رَيْعُه وتبلغ وارادت هذا الوقف ١٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً.

ومبلغ كبير من ريع هذا الوقف اشترط واقفه أن يُرْسَل إلى الحرمين الشريفين في كُلِّ سنة ليُصْرَف في جهات مخصوصة، وفي أثناء الحرب العامَّة، حالت الحوائل دون إرسال ما هو مخصَّص للحرمين وبقي في صندوق الوقف، فاجتمع لديه منه مبلغ لا يُستهان به، ولما فُصِل عن نقابة الأشراف في التاريخ المتقدِّم، وعُيِّن لها السيد عبد الرزاق الصَّيَّادي النقيب الحالي سلَّم المترجَم هذه المبالغ لدائرة الأوقاف.

والدائرةُ لم ترسلها إلى الحرمين وتَصَرَّفت فيها كما تريد، وَلِيمَ المترجَم على تسليمه هذه الأموال للدائرة، وأنَّ الأوْلى به أن يُرسلها رأساً إلى الحرمين أو أن يُوزِّعها على مَنْ في الشهباء اليوم من المهاجرين من أهل المدينة المنوَّرة، وكنت من جملة اللائمين له، وعَدَدْنا ذلك هفوةً منه رحمه الله تعالى.

ثم على إثر انسحاب الدولة التركية من حلب، وُحِّدت محكمة الحقوق والجزاء فَجُعلتا محكمة واحدة، وانتخب إلى رئاستها فلم يقبلها.

ثم عُيِّن مديراً للأوقاف بحلب في ٢٩ محرم سنة ١٣٣٧، وبقي فيها عشرين يوماً، واسْتَعْفَى، وكان أثناءها قد انتخب إلى رئاسة نادي العرب، فبقي فيها نحو ستة أشهر، ثم انسحب عن كلِّ عمل إلى أن أُلِحَّ عليه بقَبول رئاسة ديوان الرسائل في مديريَّة الداخليَّة عند استقلال دولة حلب فقَبل، لكن لدى الكتابة إلى الحكومة المُنْتَدَبة بذلك لم توافق عليه مُتَعلِّلَةً بأن ترجمته عندها لا تسمح لها بقَبوله فبقي معتزلاً

وفي سنة ١٩٢٣م انتخب إلى عضويَّة المجمع العلميِّ في دمشق، وكان يعهد إليه النظر في بعض الكتب المطبوعة التي تَرِدُ إلى المجمع، وكان يكتب عليها كتابةَ خبير بصير، ويُبيِّن كثيراً مما وقع فيها من الأغلاط المطبعيَّة، ممَّايدل على تَضَلُّعه في اللغة العربيَّة.

وأول ما كتب عليه كتاب «معاني الشعر» لأبي عثمان الأشنانداني الذي طُبع في دمشق، وذلك في المجلد الثالث من المجلة (ص٣٤٧) الصادر سنة ١٣٤١هـ، وسنة ١٩٢٣م.

وآخر كتابته ما كتبه على نسخة من صحيح البخاري رواية الحافظ أبي عمر بن سعَادة، كانت في مكتبة جامع القرويين بفاس، ثم فُقِدت منه، ثم ظهرت أخيراً وأخذ عنها فرع التصوير الشمسي، وذلك في الجزء السابع من المجلد التاسع ص٤٤٨، المؤرخ في المحرم من هذه السنة ١٣٤٨.

وفي شعبان سنة ١٣٤٠، اجتمعت جمعيَّة من المفكِّرين، فانتخبته في اثني عشر للمداولة فيما يجب عمله إصلاحاً للحالة الوطنيَّة، فقرَّروا مطالب ثلاثة وكتبوها، فوقَّع عليها أهل الطبقة الأولى والثانية من الحلبيين، وكان لها تأثير بتوحيد سوريا بعد تفريقها إلى دول.

وفي الشهر المذكور اجتمع كبارُ مُتَولِّي الأوقاف وشكَّلوا نقابة للمُتَولِّين، فانتُخب للهيئة الإداريَّة.

ثم في ذي الحجّة من هذه السنة عندما تشكَّلت الحكومة الاتحاديَّة عُيِّن إلى كاتميَّة سرِّ الرئاسة فبقي إلى جمادى الثانية من سنة ١٣٤١ إذ عُيِّن إلى عضويَّة محكمة التَّمييز في دمشق، فقام بأعبائها أحسن قيام.

وقد جمع إلى الاستقامة وشرف النفس دقَّةَ النظر وسُرعةَ الخاطر وعُلوَّ الهمَّة، ولم يزل في هذه الوظيفة إلى أن فُصِل عنها في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٤٧ و٢٠ حزيران سنة ١٩٢٨، وذلك بقرار من رئيس مجلس الوزراء القاضي بتأليف أعضاء جُدُد لمحكمة التَّمييز السوريَّة، فلزم بيته القاطن فيه بدمشق في محلّة الشهداء.

رُتَبُهُ:

وكان له من الدولة التركيَّة وسامٌ مجيديٌّ ومدرسية أدرنة، ثم رفع إلى باية أزمير المجردة سنة ١٣٢٥، ثم إلى باية المخرج في محرم سنة ١٣٣٧.

خُطَبُهُ المنبريَّة:

وتولَّى خطبة جامع أوغلبك منذ سنة ١٣٠٥، ولم يكن مَسْلَكُه في الخطبة مسلك الجمهور من تلاوة بعض المواعظ المدوَّنة المسجَّعة، التي حفظها الناس لكثرة تردُّدها على أسماعهم، بل كان في كلِّ جمعة يتكلَّم على موضوع اجتماعيٍّ له مناسبة بما عليه الناس من عادة سيِّئة، فلذلك كان المستمعون يُلقون إلى خطبته السمع، ويحصل منها ـ بتوفيقه تعالى ـ النفع الجزيل.

شعره:

وله ـ كثره ـ شعرٌ لطيفٌ مُنْسَجم، قليل التَّكلُّف فيه، بعيداً عن الألفاظ الغريبة، يَتَوخَّى أن يفهمه العوام بسهولة، وهو مجموع في ديوان محفوظ عند ولديه الشابين المقيمين الآن في دمشق وهما: السيد صلاح الدين والسيد جميل.

وكان منذ خمس سنوات أتحفني بنبذة منه، وإني مُوردٌ جميع ما أتحفني به حفظاً لآثاره، وتخليداً لها على ممرِّ الأجيال. فمن نظمه في مطلع قصيدة غزلية:

قسماً بأدعَجِ مُقْلتيه وجَفْنِهِ ... هذا هو السِّحر الحلالُ بعينِهِ
إن كان من شأن الغزال نفورُه ... فهل القتالُ بمُرهَفٍ من شأنِهِ؟

ومنها:

لا شيء أثقلُ في الورى من عاذلٍ ... قد راح مُهتمًّا بما لم يَعْنِهِ

ومنها:

هو ليس يدري ما الهوى وأنا الذي ... قد زدتُ في شرح الهوى عن مَتْنِهِ
إن كان غيري عاصراً خمرَ الهوى ... فلقد سكرتُ بِصِرْفِهِ من دنِّهِ

وله مطلع قصيدة عمرانية:

إذا افتخرَ الورى قال ابنُ شرقٍ ... فَخاري بالفصاحة واللسانِ
أسامي السيف عندي نحوُ ألفٍ ... وللخالِ المئونُ من المعاني
وكم لي من بديعِ موشّحاتٍ ... وكم لي من جِناساتٍ حِسانِ

ومنها:

فقال له ابن غربٍ: مَهْ فإني ... أراك من البلاهة في مكانِ
أَتَقْدِرُ أن تراسلَ أهل نجدٍ ... وأنت بمصرَ في بعض الثواني
أتقدر أن تجوبَ البحر طولاً ... وعرضاً كيف شئتَ مع الأماني
أتقدر أن تطيرَ بلا جناحٍ ... فتلحق بالطيور إلى العَنانِ
أتقدر من مسافة نصفِ يومٍ ... على تخريب حصنٍ كِسْرواني
أتقدر أن تمثِّل شخصَ ظلٍّ ... تراهُ إذا تباعَدَ كالعيانِ
أتقدر أن تكلّمهُ بشيءٍ ... فيسمع وَهْوَ قاصٍ غيرُ دانِ
وتكتنزَ الحديث أوانَ وصلٍ ... ليسمعَ بعد ذيَّاك الأوانِ
فلستَ لها ولكنَّ ابن غربٍ ... يُشار إليه في ذا بالبَنَانِ
ولستُ أريدُ نصحَكَ يا ابنَ شرقٍ ... فمنذُ اعتلَّ شأنُكَ صحَّ شاني
فلازِمْ مَسْلكاً أُولعْتَ فيه ... وزِدْ إن شئتَ أسماءَ اليماني
وكُلْ واشرَبْ من التعليل والإكـ ... ـتفاءِ والاستعارةِ والبيانِ

فإن سمنت ضلوعُك بعدَ هذا فإنّي لَذَّ لي أكلُ السِّمانِ

وله مطلع قصيدة حِكميَّة:

ما في زمانك مَنْ بحقٍّ ينطقُ فانظُرْ إذا حدَّثتَ كيف تُصدَّقُ
ولقد فَشَا داءُ الخيانة في الملا حتى بأورعهم غَدَا لا يُوثَقُ
أَلِفوا الفسوقَ، فإن يَرَوا ذا عفّةٍ نقموا عليه أنه لا يفسُقُ
والفخرُ عندهُمُ لمن هو ذا غنى إن كان يُنفق منه أولا ينفقُ
والناس ما لم تدْعُهم للمَّةٍ ما فيهم إلا المُحِبُّ المشفقُ
فإذا دعوتهمُ لخَطْبٍ لم تجدْ أحداً كأنَّ جميعهُمْ لم يُخلَقوا
مَنْ رمتَ منهم أن تبثَّ بعقلِهِ نورَ الحقيقة قال: هذا أحمقُ
وتراه إن حدَّثتهُ بخرافةٍ يهتزُّ من طربٍ لها ويُصفِّقُ
كم من ظلومٍ ليس يُقعده سوى عجزٍ وما يبديه فهْوَ تخلُّقُ
فإذا تولَّى الأمر أظهرَ خُلْقَهُ وهناك أخلاقُ الرجال تَحَقَّقُ
وَلَرُبَّ مِفساقٍ تراه صُوَيْلحاً فالسرُّ في أنَّ الصُّويْلح مُمِلِقُ
إن رمتَ كشفَ السرِّ فاملأْ كيسَهُ وانظر أيفسُقُ فيه أم يتصدَّقُ
كلًّا تراهُ يذمُّ خُلْقَ رفاقه والكلُّ من ماء السفاهة قد سُقوا

وكان يجيد نظم التاريخ، فمن ذلك قوله مؤرِّخاً وصولَ الخطِّ الحديديِّ إلى حلب:

[حبَّذا] خطُّ حديدٍ به[1] قد أعدنا شأن شهبانا
عمَّت الأفراح لما غدا مقبلاً في نصف شعبانا

---

(١) زيادة من إعلام النبلاء (٣: ٤٠٠).

ولســـانُ الـسـعـد أرَّخـــه   وطـريـق الخـيـر قـد بـانـا(١)

وقوله مؤرِّخاً وصول الخط الحديدي إلى المدينة المنورة:

خـطُّ الحجـاز إلى المدينـة كُمِّـلا   فاقْصِـدْ بـه الْمُدَّثِّـر الْمزمّـلا
قـرَّتْ بـه عـينُ الشـفيع عندمـا   وافـاه في شـعبان يسـعى مقبـلا

إلى أن يقول:

ثم الصَّلاة مع السلام على الذي   للخَلْـق طُـرًّا رحمـةً قـد أُرسـلا
والآل مـا بالِبشْـــر قــال مـؤرِّخ   خـطُّ الحِجـاز إلى المدينـة كُمّـلا
١٣٢٦

وقوله مؤرِّخاً بناء مسجد:

مـسـجـد عَـمَّـرَهُ لله   ذِكْـرُ مَـن آمَـنَ بـالله
فـاذكُـرِ الـلَّـهَ وأرِّخ   في بيـوتِ أذِنَ اللَّـه
١٣٢٥

وقوله بالتركية تهنئة لمن اسمه نجيب في ولد له اسمه فؤاد على لسان صادق:

همان جشم نجيبانه كزي صادق ديدي تاريخ   ايده آيدين فؤاد مسعدت بينادلرى هر دم(٢)
١٣١٦

---

(١) كذا في الأصل، ولم يذكر التاريخ بحساب الجمل.

(٢) المعنى بالعربية كما أفادني الأخ المحقق محمد بونيو كالن: قال صاحب العين النجيبة والبصر الصادق: إن التاريخ (أي: تاريخ ولادة الطفل) أسعد فؤاد الأصول دائماً. والتاريخ موجود في الشطر الثاني بحساب الجمل حسب حروف الأبجد.

وله في دار السعادة:

بلـدٌ بـه مِـنْ كلِّ ما طلَـبَ الفتى ... من مأكلٍ أو مشـربٍ أو مجلسِ
دارُ السعـادة لـلغنيِّ وإنهـا ... دار الشقاوة والضَّنى للمُفلسِ

وفي هذا الباب قول القاضي عبد الوهاب البغدادي من رجال ابن خلِّكان:

بغـدادُ دارٌ لأهـل المـال طيّبـةٌ ... وللمفاليس دارُ الضّنْكِ والضيقِ
ظللتُ حيرانَ أمشـي في أزقّتها ... كأنني مصحفٌ في بيـت زنديقِ

وله معتذراً عن سكوته في المجلس النيابي:

نَصَحتُ فـما أثَّـرتُ في ذي تعنُّـتٍ ... لـه أُذُنٌ صُمّت عن النُّصح والزّجْرِ
وإنَّ الصَّـوابَ المحض بادٍ وظاهرٌ ... يـراهُ ذوو حِجْر وأيـن ذوو الحِجْرِ
وما نفعُ مشـيي[1] إلى وجهة الهدى ... إذا كنتُ في فُلْكٍ إلى عَكْسـها تجري

وقوله في المعنى في قصيدة أجاب بها رسول حقِّي أفندي عن قصيدة مدحه بها:

ولقـد أرانـي لـم أقُـمْ بفرائـضٍ ... وَجَبـت علـيَّ لأمتـي وبـلادي
أشـفقتُ منهـا منـذ قـد حُمّلْتُها ... وغَـدَت عـلى كتفـيَّ كالأطـوادِ
إني أريـد الخـيرَ لكـنْ لا أرى ... حـالاً تُمكِّـن مـن بلـوغ مـرادي
فسـكتُّ لمـا لـم أقُـلْ خيـراً لِمـا ... في اللـوم غـيرُ تعاظُـمِ الأحقـادِ

وله معتذراً عن اعتزاله خدمة الحكومة:

يقولون: هلّا كنـتَ فيمن تبوؤا الـ ... ـمراتب تَحْـذُو حَذْوَهُمْ في المعامَلَهْ
أرى النـاسَ لا يرضَـونَ إلا بشـدّةٍ ... وطبعـيَ لا يُرضيـهِ إلا المجامَلَـهْ

---

(١) يصح الوزن لو قال: وما نفع أن أمشي..

وله:

تنفّسَ صُبْحُ الشيب عن ليل هامتي وكانت بهذا الليل تُخفي معايبي
أبعدئذٍ أرجو بقاءً يغرُّني وفي الصبح خُبْرٍ عن أُفول الكواكبِ

وكان رحمه الله تعالى جميل الخط في النوعين المعروفين بالنسخي والفارسي، فمن نظمه مشيراً إلى ذلك:

يريدون من نَظْمي وخَطّي قصائداً تُخبِّر بَعْدي عن حياةٍ قد انْقَضَتْ
وها أنا ذا[1] وما لي خطورة فما أثري مِن بعدِ عيني إذا مَضَتْ

ومن نظمه قصيدة قدَّمها للسلطان عبد الحميد في سَفْرته الأولى لدار السعادة تهنئة في تذكار مولده ومطلعها:

هَذي مصابيحُ حُفَّتْ بالرياحينِ أم نورُ علمٍ بدا في مَفْرَق السِّينِ
وذي خدودٌ بها نار الشبيبةِ أم توقّدُ الفِكر حلّاها بتلوينِ
وذاك رَقْشُ فَتيّاتٍ نَبَغْنَ لنا أم مِنْ بديعِ نقوش الهند والصينِ
وما نراه جبالُ النار موقدةً أم ذي سفائنُ تعزيزٍ وتحصينِ

ومنها:

أنار من تلك حتى كلُّها اتفَقَتْ مقيمةً عيدَها في أيِّ تزيينِ
لعلها، بل هو التحقيقُ قد فرحت بعيدِ ميلادِ سُلطانِ السلاطينِ

ومنها:

فحال ميلاده نادى مؤرّخُهُ عبد الحميد بدا فَرْدَ الخواقينِ

---

(١) هنا سقط لو وُضع مكانَه كلمةُ «حيٌّ» لساغَ.

وفي خلافته نادى يُؤرِّخه ... عبد الحميد بتوفيقٍ وتمكينِ
والكون بالبِشْر في ذاك أرَّخه ... والله يحفظُهُ للكون والدينِ

بنو الكواكبي:

وبنو الكواكبي بيت قديم في حلب، مضى على توطُّنهم فيها نحو خمسة قرون، وأول من عرف منهم وترجم العارف بالله محمد بن أبي يحيى، دفين الجامع المعروف به في محلة الجلُّوم، وهم أيضاً بيت عريق في العلم والأدب، تولى الكثير منهم المناصب العالية مثل القضاء والإفتاء في حلب وغير ذلك، وقد أدرجت تراجمهم في تاريخي الكبير «إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء» وواسطة عِقْد هذا البيت: محمد بن الحسن الكواكبي، صاحب المؤلَّفات العديدة، وأشهرها: منظومتاه في فروع الفقه الحنفي وأصوله وشرحاه لهما، ومنظومته الفقهية في نحو خمسة آلاف بيت، والأصوليَّة في نحو ألفي بيت، ونظْمها سَلِسٌ جداً، يدلُّك على رسوخ قدمه في الأدب وصناعة القريض، وشرحهما سهل للغاية للإفهام، لذلك سَعَيْتُ في نشر هذين الكتابين سنة ١٣٢٢ وطبعتهما في مصر، وتداولهما فقهاء الحنفيَّة في مصر وغيرها، واقترحت وقتئذ على المترجم رحمه الله تعالى نظم أبيات مشتملة على تاريخ الشروع في الطبع تُوضع في الخاتمة، فلبَّى الطلب، وقد أثبتُّها في آخر الكتاب، وهي:

تَباشَرُ أهل العلم من كلِّ جانبٍ ... بنظْمٍ ونَثْرٍ للإمام الكواكبي
أحاطَ بمجموع الأصول وهكذا الـ ... ـفروع كَفَتْ عن غيرِها كلَّ طالبِ
وقد كان قبلَ اليوم كنزاً مُطَلْسماً ... تنصُّ للُقْياهُ كِنازُ النجائبِ
فوفَّق مولى الفضل جلَّ جلالُهُ ... لإخراج ذاك الكنز أسنى الرغائبِ
وقد زاده حُسْناً رصانةُ طبعِهِ ... فجاء بعَوْن الله في خير قالبِ

لئن كان هـذا النظـمُ في الفهم هيِّناً ... ففـي نظمـه لا شـكّ كلُّ المصاعبِ
فـإن تعجبـوا ممَّن فدى وقـتَ غيرِهِ ... بأوقاتِـهِ قصـداً لترغيـب راغـبِ
فأعجَـبُ منـه مَـنْ تقـاصَرَ فهمُـهُ ... عن الحفـظِ إنّ الحفظَ أدنى المراتبِ
وأعجَبُ مِن هذينِ مَنْ ليس يقتني ... كتابـاً بـه يُكفـى عظيـمَ المتاعـبِ
جـزى الله خـيراً سـادةً مهَّـدوا لنـا ... إلى العلـم والتعليـم أقـربَ لاحبِ
وحمـداً لـه أنْ أصبَـحَ العلـمُ دانيـاً ... وزال عـن الطـلّاب رَيْـن الغيايبِ
وأذهانُهـم تـمَّـت جـلاءً فأرَّخـوا ... وطاب بسلك الطبع نظْم الكواكبِ

وله في الحماسة مُعرِّضاً بمن بلغه أنه ذمَّه:

وإن غـرَّ غِـرًّا أنَّ خُلْقِـيَ هـيِّنٌ ... وشاهدَ بي ما ليس يعدو حقيقَتَهْ
صَفَوْتُ كماء الُمـزْن فالعذرُ بيِّنٌ ... لمـن رام شُرْبي أو رأى فيَّ صورَتَهْ

وله من قصيدة كتبها إلى بعض أوِدَّائه من الأستانة لما سافر إليها للمرَّة الأولى:

بـالله يـا نـشــر الـصَّبـا ... بـلِّـغ سـلامـي حـلَـبـا
ولا تــظــنَّ أنـنــي ... سَـلَـوْتُ هـاتيـك الـربـى
لئن سَـلَـوتُ مـرتـعَ الـ ... ـظبـاء لا أنـسـى الظِّبا
فـإنَّ في الـشـهـبـاء لي ... صَـحْبـاً تـسـامَـوا حَسَبا
وقـد عَـلَـوا مـنـزلـةً ... في الـعـلـماء الأُدَبــا
والأتـقـيـاء الأصـفـيـا ... والـشـعـراء الخُـطَـبـا
مـن كـلّ شـهـمٍ فضلُهُ ... عـن أصـلِـهِ قـد أعـربـا
يـرى الـفـتـى لـديـهـمُ ... مـن كـلّ مـا قـد رغـبـا
عـهـدتُهـم أهـل ودا ... د صـادق مـن الصبا

لله كـم مـن لـيـلـةٍ لـنـا تـقـضّـت طـربـا
كـنـتُ لـديهـم مكـرماً إلـيـهـمُ محُـبَّـبـا
والآن مـن وفـائـهـم يـتـابـعـون الـكُـتُـبـا
يبلو الفتى صداقةَ الـ أحبـاب إن تَـغَـيَّـبـا
فـمَـن تـولّى فـإلى ومَـن أتـى فـمرحبـا
فـإنْ أَعُـد إلـيـهـمُ إن شـاء ربّي وحَـبَـا
لأضْرِفَـنَّ الجـهـد في إيـفـائـهـم مـا وَجَـبـا
ما كـان قصدي الهجر بل مَـن جـدّ نـال الأربـا
وإنّـما اسْـتَـزَدْتُ مِـن عـطـاء مـولىً وَهَـبـا
سـبـحـانَـهُ مـن مُـنْـعِـمٍ بـمَـن أتـاهُ رحّـبـا
مـا أمَّـهُ ذو حـاجـة إلا أصـابَ المـأربـا

ومنها:

ودَّعـتُ صَحْبي مُدلجـاً ثـمّ امـتـطـيـتُ أشـهـبـا
لم أُلْـقِ لـلـسَّـيْر عصاً وقـد كـلـلـتُ تـعـبـا
حـتـى أتـيـتُ مـن غـدي بـحـراً تـبـاهـى لَـجِـبـا
عـلـوتُـهُ وإنـنـي ركـبـتُ مـا لم أركـبـا
ظـلـلـتُ خمـساً مُبْـحِـراً ومـا لـقـيـتُ نَـصَـبـا
ثـمّ حـلـلـتُ بـلـداً لم أَلْـقَ مـنـه أطـيـبـا
لـولا فـراقُ أسرتي أمـضـيـتُ فـيـه حِـقَـبـا
تَـخِـذْتُـهُ لي سُـلَّـماً أصـعـدُ فـيـه رُتَـبـا

وهي طويلة، وقال على أسلوب الصوفية من قصيدة:

افرحـا لي مـا ازداد شـوقي أُوارا فتـمامُ الوصـال يـومُ أُوارى
كلُّ حـالٍ مـا ازددتُ فيـه هياماً أنـا منهـا أسـتغفرُ استغفارا
حالتـي في الغـرام أعجَـبُ حال ليس بِدْعـاً للعقـل بي أن يحـارا
رام غـيري عمَّـن أحـبُّ سُـلُوّاً ورأيـت السـلوان عنـه خسـارا
أنـا أدعـو لحبِّـهِ كلَّ فـردٍ وإذا مـا سـواي شـارَكَ غـارا
عشِـقَ العاشـقون ذاتـاً رأوهـا وأنـا اليـومَ أشـهـدُ الآثـارا
كلـما ازددتُ في المحبّـة قُربـاً زادني قربُـهُ جـوىً واسـتعارا

وقال ـ وقد أخذ منها أخوه المرحوم السيد عبد الرحمن سبعة أبيات تمثَّل بها في مطلع كتابه «أم القرى» ـ:

دَراكِ فمـن يَدنَفْ ـ لَعَمْرُكَ ـ يُدفَنِ ومـا نافـع نَـوْحٌ متى قيـل: قد فني
دَراكِ فـإنَّ الديـن يـزداد وهْنُـهُ وقد صار فرضـاً رأبُ هذا التوهُّنِ
هلـمَّ إلى فـرض التعـاون إنـه بإهمالـه إثـمٌ عـلى كلّ مؤمـنِ
وإنَّ الذي الأسيافُ شـادَتْهُ قبلَكُم هـو اليـومَ لا يحتـاج إلا لألسُـنِ
إلامَ تمـاشي الغـرب فيـها يشـينُنا حَنَانَيْـكَ إنَّ المـرء عبـد التمـرُّنِ
لقـد شـابنا نحـن الحنيفـينَ ملّـةً مفاسـدُ مـا يدعونَـهُ بالتمـدُّنِ
ومهـما اجْتنَـوا منـا خـلالاً حميـدةً فنحنُ سوى سفسافِهِمْ ليس نَجْتَني
وكـم خصلةٍ للبعـض زينٌ ومدحةٌ وفي جَنْـب بعضٍ مَطعنٌ أيُّ مطعنِ
وقـد كان عـاراً نـزعُ ثـوب وعِمَّةٍ فـما القـول أن نقفوهُـمُ بالتَّديُّـنِ
هُـمُ أسرفوا لكـنْ بمِعشـارِ رَيْعِهِم ومن يُفْنِ رأسَ المال يُفلِسْ ويُسجَنِ

إذا كان نبذُ الدين يدعى تفنُّناً فيا بئسما يسري لنا مِنْ تفنُّنِ
أنرجو وأهل العلم أحلاسُ بيتِهم شفاءً لداءٍ قد عرا الدينَ مُزمِنِ
وكان يُعَدُّ العلمُ للصدر زينةً ومالاً به إصلاحُ عيشٍ ومَسكنِ
فكان له أهلٌ يُوَفُّون حقَّهُ بهدْيٍ وتلقينٍ وحُسْنِ تلقُّنِ
وما هان إلا عندما هانَ نَيْلَهُ وكان عزيزاً قبل ذا غيرَ هيِّنِ
متى كان هذا العلمُ إرثاً ومنحةً ومن لم يُعانِ العلم يُلحدْ ويَلحَنِ
لقد ذلَّ قومٌ خدمةُ العلم عندَهم تُناط بذي جهلٍ لها غيرِ محسنِ

وله:

ألا إنَّ فضل المرء ميزان قدْرِهِ وما كُرِّم الإنسانُ إلا لِجَجْرِهِ
تساوى بنو حوّاءَ خَلْقاً وإنّما تفاضُلُهُم في خُلْقِهِم لا بغيرِهِ
وكم بين من يَقْليهِ للهَوْن أسرةٌ ومَنْ باسمِهِ تميزُ عصرٍ بأسرِهِ
وهل كان يدري خامل الذكر أنه إذا همّ يلقى عائقاً دون سيرِهِ
ولكنّهُ ما كلُّ نفسٍ عظيمةٌ ولا كلُّ فردٍ مُحسنٌ صرْفَ عمرِهِ
خُطا الأغنياء الأغبياء قصيرةٌ إذا جاوز الجوزاءَ حبْرٌ بحِبْرِهِ
على أنَّ عزّ المالِ كالمال نافدٌ وذو الفضل طمَّاحٌ لتخليد ذكرِهِ
وما في وساماتِ الفتى مَفْخرٌ له إذا لم تكُنْ عنوانَ مكتوبِ صدرِهِ

ومنها:

ومَنْ يُحكِمِ التنظيم في أمرِ جيشِهِ يكُنْ جأشُهُ في قوّةٍ عندَ كرِّهِ

ومنها:

وما قيمةُ الأشعار إن لم يكُنْ لها سوى خَبَرٍ عن حلوِ عشْقٍ ومُرِّهِ

ومن نثره المسجَّع في فاتحة كتاب إلى صديق تعرَّف به في حمص عند عودته منها:

سلام أبهى وأبهج من المياس، وتحيات لا يُحاكيها سوى لطف من صحبت هنالك من خير الجُلاس، وبث شوق يجلُّ عن أن يُحصيه قرطاس، أو يشوبه تناس، إلى قرة عين المجد، وإكليل هام السعد، أطال المولى بقاءه ويسَّر للمشوق لقاءه.

ومنه في فاتحة كتاب إلى صديق آخر هنالك:

سلام أزكى من ربا الأزهار، وألطف من نسمات الأسحار، وتحيات أحلى من وصال الحبيب على أمن الرقيب، وبثّ فرط اشتياق لا تُحصيه الأوراق، إلى تاج هام المحامد، وإنسان عين الكرام الأماجد، أدام المولى بقاءه في مدارج الكمال ارتقاءه.

بقية آثاره:

وله: تفسير القرآن الحكيم مكتوب بخط يده على هامش المصحف الشريف الذي كان يقرأ به، وله مولد شريف في ١٥ صحيفة سمّاه: «المولد المسعودي» طبعه في بيروت في المطبعة الأهليَّة سنة ١٣٣٦ ووزَّعه على أصدقائه، مَطْلعه:

الحمدُ لله على آلائه ... وحمدُنا إيَّاه من نعمائه
وأفضلُ الصَّلاة والسَّلامِ ... على الذي هدى إلى الإسلامِ
من بعد ما الكفر دَجَا في الأرضِ ... وعمَّها في طولها والعرضِ
والبغيُ سَادَ في قبائل العرَبْ ... ليس يبالي أحدٌ بما كسَبْ
فعَبدتْ ما صَنعت من آلهةْ ... وأصبحت بحُبِّهنَّ والهةْ
ودفنت على الحياة اللاتي ... ليس لها ذنبٌ من البناتِ

وختمه بدعاء في آخره:

وأصْلِح الراعيَ والرعيَّهْ وأصْلِح الآبـاءَ والذريَّهْ
وفِّقْ لترك سيئات البدعِ ولاتِّباع الشَّارع المتَّبَعِ
كن راحمَ الأحياء والأمواتِ ومُرْخِصَ الأسعارِ والأقواتِ
وأجزل الأجرَ لعبدٍ نَظَمَهْ ونجِّ من نار الجحيمِ أعظُمَهْ
وَصَلِّ ربَّنا على النَّبيِّ العربيِّ المجْتبى الأمِّيِّ
والآل والصَّحْب مع السلامِ وأحسنِ اللهمَّ للختامِ

١٢٥ ١٠٦ ١١٠١ سنة ١٣٣٢

وفي رحلتي إلى دمشق في العام الماضي سنة ١٣٤٧ في مهمَّة تتعلق بالمدارس العلمية والمدرسة الخسرويَّة وأرباب الشعائر الدينيَّة، زرته في بيته الذي كان يقطنه في محلة الشهداء، ودار بيننا أحاديث كثيرة، وأنشدني من لفظه أرجوزة نظمها لتُلقى في جمعية شبان المسلمين التي كان يسعى في تأسيسها في دمشق، وكان فيها العامل الأكبر، وبعد ذلك أتحفني بها بخطِّه الجميل، ونُشرت في مجلة الفتح المصريَّة، بدون توقيع ولعلها من آخر نظمه، وهي:

ربيَ في بدء المقال أحمَدْ مُصَلياً على الرسول أحمَدْ
مَنْ جاءنا من جانب الخلَّاقِ مُتمِّماً مكارم الأخلاقِ
وآله وصحبه الهادينا من أيَّدوا بالجِدّ هذا الدينا
وبعد فاصْحُوا أيها الأُباةُ فإنه طال بنا السُّباتُ
بدون سعيٍ ليس يكفينا الدُّعا إذ ليس للإنسان إلا ما سعى
إن لم يصاحِبْ عملاً توكُّلُ منَ الفتى فذلك التأكُّلُ
لا فخر في مكارم الأسلافِ إلا لمقْتفٍ من الأخلافِ

ما الفخرُ في مآثر الأجدادِ ... وما لنا منها سوى التَّعدادِ
ماذا يفيد شَمَمُ الآباءِ ... إذا خلا النَّسل من الإباءِ
بقَدَرِ احتياجنا إلى الأُمَمْ ... نبعدُ عن عزَّةِ نفسٍ وشَمَمْ
والمرءُ مأسورٌ لما يحتاجُ ... حتى ذَوُو مُلْكٍ عليهم تاجُ
فَلْنَعْنَ في تربية البنينا ... تربيةً عن غيرنا تُغْنينا
وذاك في الفنون والصنائعِ ... فهْيَ أساسُ هذهِ البدائعِ
ولنأخذ الحكمة لا نهتمُّ ... بجنس مَنْ فيها به نأتمُّ
أما الذي يُبدِّل فينا زيَّهْ ... فذاك نَذْلٌ فاقدُ المزيَّهْ
رُقِيُّ أهل الغرب في صنَعتِهِمْ ... لا في سفورهم وقُبَّعَتِهِمْ
وإنما التقدُّم المحمودُ ... أنْ يُبْدَل الخمولُ والجمودُ
فلنجتهِدْ فيما به صلاحُنا ... ولا يتمّ دونهُ فلاحُنا
وأن تكون اليدُ منا واحدَهْ ... في درءِ ما يبثّه الملاحدَهْ
معظَمُ ما نراهُ من فظائعِ ... لم ينبعث عن مقتضى الطبائعِ
فالمرء في طبعٍ سليمٍ فطرتُهُ ... يفسده قرينُهُ أو أسرتُهُ
قالوا ـ وتلك قولة الشقيِّ ـ: ... يمنعنا الدينُ من الرُّقيِّ
ألم يكن ذا الدين في نَضَارَهْ؟ ... يوم أقام تلكُمُ الحضارَهْ
وهل سوى الأئمة الأعلامِ ... مُؤسِّسو حضارةِ الإسلامِ
لكنْ مُريد العيش كيف شاءا ... يبغضُ ديناً يحظُرُ الفحشاءا
ما حرَّم الرحمنُ شيئاً عَبَثاً ... لكن لكونِه مُضرّاً خَبُثَا
وكلُّ ما شرَعَهُ في شرعَتِهْ ... فَهْوَ لِما يعلَمُ من منفَعَتِهْ
فكم منَ الشرِّ بهذا السُّكْرِ ... نحولُ جسمٍ وخُمولُ فكْرِ
وكم من الأسواء في القِمارِ ... من قتل أسرةٍ ومن دمارِ

صواحبُ الخدور والجَمالِ إن رُحنَ يبرُزْنَ إلى الرجالِ
تزينُهُنَّ تلكم الأزياءُ يرتفع الإيمانُ والحياءُ
وليس بعد ذاك الإختلاطِ عدٌّ لأولاد الزنا الأملاطِ
وهذه طلائع الإباحَهْ وإنَّ فيه منتهى القباحَهْ
ما أمة في مثل ذا تهوّرَتْ إلا وعُقْبى الأمر أن تدهورَتْ
ما زان ذاتَ الخِدْر مثلُ العفّةِ ولم يشنها شائنٌ كالخفّةِ
هل تستوي ثِنْتان ذي معاهَرَهْ دنيئةٍ وذي حَصَانٍ طاهرَهْ
مَنْ يرض للمرأة خدْناً غَيْرَهْ فما له إذن عليها غَيْرَهْ
لأنَّ ذا يغايرُ الحصانَهْ وإنَّ من أحبَّ شيئاً صانَهْ
فهذه أفكارنا نبُثُّهَا في أمّةٍ على التُّقى نحثُّها
يجمَعُنا على الهدى ائتلافُ فليس فيما بيننا اختلافُ
السَّعي في شيوخنا بالحزمِ والسَّعي في شبابنا بالعزمِ
ما اجتهد العبد بصدق النيّةِ فخاب ما يرجوه من أمنيّةِ
فنسألُ اللهَ لهذا العملِ تحقيقُ ما لنا به من أملِ
وأن يزيد النفعَ في تعميمِهِ ويخلق التيسيرَ في تتميمِهِ

مرضه ووفاته:

ابتدأ به المرض بالتهاب أمعاء بسيط لم يدم أكثر من ثلاثة أيام، وشفي منه تماماً، ولكن نوبة جديدة أصابته في الدماغ، على أثر التوعُّك والضعف الذي أصابه من التهاب المعي، وهذه النوبة تدعى في الطب «نزف دماغي» لبثَ فيها مُغمى عليه لا حسَّ به ولا حركة مدَّة أسبوع كامل، ثم توفي ليلة الجمعة خامس عشر ربيع الثاني سنة ١٣٤٨،

الموافق ١٩ أيلول سنة ١٩٢٩، ودفن حسب وصيَّته في أقرب تربة من البيت الذي يقطنه، وهي تربة نبي الله ذي الكفل عليه السلام في جبل قاسيون في صالحيَّة دمشق.

صفته وأخلاقه:

كان رحمه الله تعالى مربوعَ القامة، أسمرَ اللون، نحيفَ الجسم، أزجَّ الحاجبين، أسود العينين، تشفَّان عن ذكاء مفرط وقلب زكي، دمث الأخلاق، كثير البِشْر عند الملاقاة، متأنياً في أقواله وأفعاله، يأتيك بفصل الخطاب بعد تروٍّ قليل، محبوباً عند الجمهور من المسلمين وغيرهم لحُسْن سلوكه في كلِّ عمل وَلِيَهُ، فلم تكن تُطلق حرية الكلام والانتخاب للناس في مرة إلا وكان في مقدّمة من يرشَّح ويُنتخب للعمل، ولكن لما كان يعقب ذلك تَسُلُّط المتسلِّطين على حرية الناس وعلى المناصب كان ينسحب ولا يُزاحم.

وكان محباً للنفع العام، لا يدع فرصة يؤمِّل منها خدمة البلاد إلا انتهزها، فمن ذلك يوم إعلان المشروطيَّة، سنة ست وعشرين وثلاث مئة، إذ كان في الأستانة، فإنه خاف من سُوء تفسير الحوادث التي حدثت، وعودها على الموضوع بالعكس، فأسرع إلى كتابة تفاصيل الوقائع في رسائل طويلة، يبعث بها إلى بعض أحبائه، ولما رأيت أنَّ فيها تهدئة للأفكار، جعلت أطبعها وأذيعها على الناس في حلب، فكان لها أحسن وقع لما هو معهود في المترجَم من صدق الحديث، والوقوف على الحقائق، واطمأنَّ الناس بها وانتصح الكثيرون ممَّن لم يكونوا يعلمون ما هي الحرية فيظنونها شيئاً من الفوضى وخلع العذار.

وكان رحمه الله تعالى متحلياً بالتقوى، متمسِّكاً بالدين، الصلاحُ صفة ذاتيَّة له، وحُسْنُ المعاملة أمر طبيعيٌّ فيه، حَسَن العقيدة لا ترى فيها شيئاً من العوج الذي عليه

بعض ذوي المعرفة أو مُدَّعيها من أهل هذا العصر، مُبغضاً لمن كان على هذه الصفة، مؤنّباً له، وأرجوزته التي قدَّمناها مُشْعِرة بذلك، مُعْرِبة عما هناك.

وبالجملة فإنه لم يكن فيه شيء يشينه أو يُلام عليه، سوى أنه لم يكن فيه من الجرأة ما كان في أخيه المرحوم السيد عبد الرحمن[1]، وقد ليمَ على صمته في المجلس النيابي الذي كان انعقد في الأستانة عدّة سنوات، وكان من أعضائه ـ كما قدَّمنا ـ فاعتذر عن ذلك بأبيات ذكرناها في نظمه.

ومختصر القول فيه: أنه كان حسنةً من حسنات الشهباء، ودرّةً فريدة في تاجها، وكانت خسارتنا به عظيمة، وما أجدره بقول الشاعر:

وما كان قيسٌ هُلْكُه هلكُ واحدٍ ولكنَّه بنيانُ قومٍ تهدَّما

فرحمهُ الله رحمة واسعة، وأغدق على جدثه شآبيب المغفرة والرضوان.

في ٢٥ جمادى الثانية[2] سنة ١٣٤٨هـ.

كتبه

محمد راغب الطباخ الحلبي

* * *

---

(١) المتوفى بالقاهرة سنة (١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م) عن ٥٥ عاماً.

(٢) كذا. والصواب: الآخرة.

حول مقالة الشاعر الصنوبري[١]

قرأت في الجزء الثامن من المجلد الحادي عشر ص٤٨٤ من مجلة «المجمع» مقالة للصديق الأستاذ الشيخ كامل الغزي، عنوانها: الشاعر الصنوبري، ذكرَ في مطلعها: أنَّه جمعَ نُبذةً من أخباره، وجمع زهاءَ أربع مئة بيت من شعره، وأنَّ أولَ سِفْرٍ عثرَ فيه على كلمات في هذا الشاعر مجموع قديم مخطوط، ثم قال: إذا أمعنّا النظر في ترجمة الصنوبري التي أتى بها كلٌّ واحد من صاحب المجموع المخطوط، و«فَوَات الوَفَيات»، و«مُعجم البلدان»، وابن عساكر، وابن جِنّي، فإنَّنا لأول وَهْلَة يظهر لنا اختلافٌ عظيم في اسمِ الصنوبري، واسم أبيه وجَدِّه، وجدِّ أبيه، ووصفه مرَّة بالصيني وأخرى بالضَّبِّي، وتسمية ياقوت لجده بمروان، وتسمية ابن عساكر لجدِّ أبيه بمرار، وتفرَّد ابن جنِّي باسمه واسم أبيه دون جميع مَنْ ذكرناهم ممَّن ترجموا له.

ثم ذكر أنَّه اتبع باسمه واسم أبيه ونسبه الأكثريَّة، وأنَّه أحمد بن محمد الصيني الصنوبري الحلبي، وأنَّ كلمة الضبِّي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر محرَّفة عن الصيني، ثم قال:

أما تاريخ وفاته فلم أرَ من صرَّح به سوى صاحب المجموع، فزعم أنَّها كانت في سنة ٣٣٤هـ، وهذا بلا ريب تاريخ مَغْلوط إذا سلَّمنا بصحة الحكاية التي أوردها

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية»، بدمشق، الجزء ١، و٢، من المجلد ١٢، (١٣٥٠هـ = كانون الثاني، شباط ١٩٣٢م)، وطبع الطباخ كتابه «الروضيات» في هذه السنة بعد نشر هذا المقال، ويبدو أن نشر الغزي مقالاً عن الصنوبري، جعل الطباخ يسارع إلى نشر كتابه عنه.

صاحب «اليتيمة» عن ابن جنّي، فإنها كادت تفيدنا صراحة أنَّ الصنوبري كان في سنة ٣٤٦ حياً يُرزق.

نستفيد هذا من قول ابن جني: وأنشدت أبا علي ليلاً قصيدة أبي الطيب التي أولها:

واحـرَّ قلبـاه ممَّـن قلبُـه شَـبِمُ ومَنْ بجسمي وحالي عنده سقَمُ!.. إلخ

فإنَّ هذه القصيدة آخر ما نَظَمَه أبو الطيب في حلب، أي: أنَّه نظمها حين فارق سيفَ الدولة، وذلك في السنة المذكورة.

وعلى كلِّ حال فإنَّ تاريخ وفاة الصَّنوبري لا يخلو من إبهام، فهو يحتاج إلى تدقيق عميق. اهـ

أقول: وإني أيضاً ممن عُني منذ مـدَّة بجمع أخبار الصنوبري وشعره، وقـد أودعت ترجمته ونبذة من شعره المجلد الرابع من تاريخي: «إعلام النّبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ص٢٣، ناقلاً مُعظم ذلك عن «تاريخ ابن عساكر» المحفوظ بظاهريَّة دمشق، وقد سمَّيت هذه المجموعة: «الروضيَّات»، وفي نيَّتي طبعها ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد أربى ما جمعتُه من شعره إلى الآن على ٦٠٠ بيت[1].

أما قول الأستاذ الغزّي: أنَّ اسمَه واسمَ أبيه أحمد بن محمد فهو صواب لا ريب فيه؛ لاجتماع كلمة مَن ذكرهم من المؤرِّخين وغيرهم على ذلك.

أما اسم جدِّه فهو الحسن (لا الحسين كما جاء في المجموع المخطوط، وهو تحريف

---

(١) وقد طبع الروضيات سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م، وسيأتي كاملًا في الفصل الخامس من فصول هذا الكتاب، ٢: ٤٠.

من الناسخ)، وهكذا سماه (الحسن) ابنُ عساكر، وياقوت، والذهبي في «تاريخه الكبير» الموجود منه خمسة أجزاء في المكتبة الأحمدية بحلب، وفي تاريخه «العِبَر في أسماء من غبر»، الموجود في هذه المكتبة، بخط الحافظ ابن حجر.

وأما اسم أبي جده فهو مرار لا مروان، كما جاء في «المعجم» لياقوت، فإنَّه هكذا في ابن عساكر، وفي «تاريخ الذهبي» أيضاً، وما في «المعجم» تحريف.

وأما قول الأستاذ: إنَّ كلمة الضبِّي الواردة فيما تَرجم له ابن عساكر مُحَرَّفة عن الصيني، وجزمه بأنَّه الصّيني فهو بعيد عن الصواب، وخطأ محض، والصَّواب أنَّه الضبِّي كما قال ابن عساكر، وهكذا «في تاريخ الذهبي الكبير»، وفي العبر أيضاً: هو نسبة لبني ضبة قبيلة من قبائل العرب.

ويغلب على الظن أنَّه لو كان الصيني لذكره ياقوت في كلامه على الصين كما هو شأنه في نسبة المشاهير، ويدعونا إلى الجزم بأنَّه الضبِّي أنَّ جدَّ الصنوبري كان قاطناً في بغداد، وهو صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون، كما قاله ابن عساكر في أول ترجمته، فهو عراقي.

وبنوضبَّة نزلت بلاد العراق، كما ذكر ذلك القلقشندي في «صبح الأعشى» حيث قال ١ : ٣٤٨: (ومن قبائل طابخة بنو ضبة).

قال في «العبر»: وكانت بالناحية الشمالية من نجد، بجوار بني تميم، ثم انتقلوا في الإسلام إلى العراق، وهم الذين قتلوا المتنبي الشاعر. اهـ.

وقول الأستاذ: إنَّه لم يرَ من صرَّح بتاريخ وفاته سوى صاحب المجموع، فزعم أنَّها كان في سنة ٣٣٤هـ، وهذا بلا ريب تاريخ مغلوط...، إلخ.

أقول: وممن صرَّح بوفاته في هذه السنة الحافظ الذهبي في «تاريخه» المتقدِّم، في وَفَيَات هذه السنة، وأورد له من نظمه:

لا النوم أدري به ولا القلق

وذكره أيضاً في تاريخه «العبر» في حوادث سنة ٣٣٤، ونصُّ عبارته: وفيها ـ أي توفي ـ الصنوبري، الشاعر أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن الضبِّي الحلبي، وشعره في الذِّروة العليا. اهـ.

وصاحب المجموع ـ الذي هو من مخطوطات مكتبة الأوقاف في حلب المحفوظة في المدرسة الشرفية ـ عَيَّن لنا الشهر الذي تُوفي فيه، وهو شهر رجب، فيكون نقلُه لتاريخ وفاته عن غير الذهبي، والذهبي لم يُعيِّن الشهر لا في «تاريخه الكبير»، ولا في «العبر»، فيكون الذهبي وصاحب المجموع قد اتَّفقتْ كلمتهما على أنَّ وفاته في هذه السنة.

وعلى هذا فيكون الصنوبري قد بقي مدَّةً وَجيزة بعد مجيء سيفِ الدّولة إلى حلب، هي سنة وأربعة أشهر؛ لأنَّ سيف الدولة دخلها في ثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ.

وأما استدلاله بقول ابن جنِّي: أنشدت أبا علي ليلاً... إلخ، وأنَّها كادت تفيد صراحةً أنَّ الصنوبري كان حياً في سنة ٣٤٦ إلخ، فهو غلط منه وسهو في النقل؛ فإنَّ العكبري شارح «ديوان المتنبي» لم يذكرْ في شرحه لهذه القصيدة أنَّها آخر ما نظمه المتنبي في سيف الدولة، وأنَّه فارقه بعد ذلك، بل آخر قصيدة قالها في حلب هي قصيدته التي أولها:

عُقْبى اليمين على عقبى الوغى ندَمُ... إلخ.

فقد ذكر العكبري هنا ٣: ٢٨٧، أنّه قالها سنة خمس وأربعين وثلاث مئة، وأنّها آخر قصيدة قالها بحضرة سيف الدولة.

فعلى هذا تكون وفاة الصنوبري في سنة ٣٣٤هـ أمراً محقّقاً لا ريب فيه، هذا ما ظهر لنا، وفوق كل ذي علم عليم.

* * *

الشَّريف الكتَّاني يزورُ سوريا[١]

من أفذاذ العالم الإسلامي في هذا العصر، ومن النابغين فيه المبرزين على الأقران، والذين طبقت شهرتهم الآفاق، وطار صيتهم في المشارق والمغارب: العلَّامة الكبير حافظ العصر ومحدِّثه السيد الشريف الشيخ محمد عبد الحيّ الكتّاني الإدريسي، أحد علماء فاس في المغرب الأقصى.

قَصَدَ هذا الأستاذ الكبير في العام الماضي الديار المباركة الحجازية فمرَّ في طريقه بالديار المصريَّة، فأكرمت تلك الديار مثواه، ولقيَ من فضلائها وعظمائها جميلَ الحفاوة وعظيمَ الإقبال لما عُرِفَ وشُوهد فيه من جلالة الفضل وعظم القدر. ولقي في الديار الحجازية مثل ذلك، وفي عودته أتى إلى دمشق فبيروت فاستُقْبل أيضاً أحسَنَ استقبال

(١) مجلة «الاعتصام» الحلبية، العدد الأول من السنة الثالثة: (ربيع الأول ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م).
ويلمس القارئ لهذه المقالة، الأدب الرفيع، الذي تجلّى في شخصية الشيخ محمد راغب الطباخ، في محبته وتقديره للسيد الكتاني، مع أنه أكبر منه سناً بتسع سنوات، فقد ولد سنة ١٢٩٣هـ بينما كان مولد السيد الكتاني ١٣٠٢هـ رحمهما الله تعالى. إضافة لما للشيخ راغب من منزلة علمية كبرى في بلده، امتدَّ أثرها إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي، وقد ابتدأت الصلة بينهما بمراسلة السيد الكتاني له من المغرب. قال الشيخ راغب في خاتمة «الأنوار الجلية في مختصر الأثبات الحلبية» (ص ٤١٣): «وأجازني أيضاً علامة الديار المغربية، وحافظ العصر ومحدثه، وإمام التاريخ وفلسفته، مسند الزمان ونسَّابته: أبو الإسعاد وأبو الإقبال مولانا الشيخ محمد عبد الحي الحَسَني الإدريسي الكتاني الفاسي، أمتع الله المسلمين بطول بقائه، ونفع الأنام بمعارفه وعلومه. وسبب ذلك: أنه وصل نسخة من تاريخي «إعلام النبلاء» للديار المغربية، وأظنها النسخة التي أرسلتها لدمشق لسيدي العلامة المحدث السيد محمد عبد الله بن جعفر الكتاني الفاسي، وذلك قبل أن يعود إلى بلدته فاس، فاطَّلع شيخنا عليها فسُرَّ لها سروراً عظيماً=

وقدَّرته هذه البلاد قدره. وكان من نيَّته أن يزور الشهباء لوعدٍ كان منه لكاتب هذه السطور قبل خروجه من بلدته فاس إلا أنه لما كان في بيروت أرسل إليَّ رسولَين اعتذرا عن عدم تمَكُّنه من المجيء إلى حلب لعدَّة أسباب بيَّنَّاها، وأنه عائدٌ الآن إلى وطنه بعد أن يزور طرابلس الشام، ووعد بالعودة إلى الشهباء في رجب المقبل، وأنه منها سيستأنف الرحلة إلى بغداد عاصمة العباسيين، ومنها يذهب للهند لتكملة رحلته التي يقصد فيها لُقيَّ الفضلاء في هذا العصر والتَّعارف بهم لأنَّ من رأيه أن شَدَّ أواصر المعرفة بين أهل العلم والفضل في كل قطر ومصر من أهم الواجبات على كلِّ ذي فضل ومعرفة لما يترتَّب على ذلك من الفوائد الجُلَّى.

ولما كنت من عشّاق هذا الأستاذ الكبير لمكاتبات بيني وبينه قبل خمس سنوات كان له فيها فضل التقدُّم، عرفت منها مكانته العلميّة وعظيم فَضْله.

ولعلمي بما له من المؤلَّفات التي أرْبَت على المئتين وناهزت المئتين وخمسين مؤلفاً، ولاطّلاعي على بعض المطبوع منها ومعرفتي منها غزارة علمه وسَعَة اطلاعه وعظيم إحاطته بالرجال وأخبارهم في القديم والحديث، بادرت بالرحلة إلى طرابلس الشام، حيث إنه دُعي إليها من علمائها ووجهائها في التاسع والعشرين من شهر صفر الماضي، وهناك في قرية (قلمون) وهي على مقربة من طرابلس الشام حظيت بالاجتماع

= لأنه وجد فيها بُغْيته من تراجم محدِّثي الشهباء مع الإشارة إلى أثباتهم، ومحال وجودها، فورد لي من حضرته كتاب مؤرخ في ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧هـ، يثني فيه على هذا العاجز بصفاته وبما هو الجدير به...». وقد حرص الشيخ الطباخ على لقاء السيد الكتاني عند عودته من الديار الحجازية في حَجَّته الثانية، ووعد الكتاني الشيخ راغباً القدومَ إلى زيارته، ولما لم يتيسَّر قدومه إلى حلب؛ شدَّ الشيخ راغب الرحال إلى طرابلس، فتساقيا العلم والأدب كما ستراه في هذه المقالة الماتعة.

وإنها لتعبِّر عن أدب العلماء في صداقتهم وودِّهم واحترام كلٍّ منهما للآخر، والحرص على الفائدة العلمية، وتوثيق الصلات، وتمتين الروابط فيما بينهم.

بهذا السيد الجليل، فأدهشني منظره كما كان يدهشني خبره. ورأيت فيه الكثير من صفات جدِّه الأعظم ﷺ فهو مربوع القامة، واسع الجبين، عظيم الحاجبين، واسع العينين، أقنى الأنف، واسع الفم، متوسط اللحية، قد شاب منها بعض الشعرات، شثن الكفين، عظيم الرأس، بدين بطين كجدِّه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذا أطرق تعلُوه المَهَابة والجلالة، وإذا تكلَّم تبسَّم، وترى الفصاحة عندئذٍ تتدفَّق من فيه، وتخرج الكلمة منه مشتملة على تمام مخارج الحروف، لا يَسْرُد الكلامَ سَرْداً بل تجده فيه على تمام التأنِّي، لا يعزب عن سامعه شيءٌ منه.

اشتمل كلامه على حُسْن البيان وعُذوبة المنطق لا تجد فيه حَشْواً ولا فضولاً وترى فيه فصل الخطاب، والحكمةُ تجري من أطراف لسانه، لا يملُّ سامعه حديثه، بل يود أن لا يسكت لما اشتمل عليه من الطلاوة ولما فيه من الفوائد الغزيرة والعلم المفيد.

والخلاصة: أنك إذا أبْصَرتَه أبْصرتَ الشمائل المحمديَّة متجلِّيَةً فيه خَلْقاً وخُلقاً، وترى النور المحمدي قد أشرق في أسارير وجهه، وهو الآن في الخمسين من العمر، أمتع الله الأمة بطول بقائه، وجَعَله لها ذُخْراً ومستمداً.

ولما قُدِّمت إليه وذُكِر له اسمي بَشَّ كثيراً وأمر فركبت إلى جانبه في سيارته، وعدنا إلى طرابلس لمنزل السَّريِّ الوجيه مفتي طرابلس السابق، وزعيم شبابها الناهض الشيخ عبد الحميد أفندي كرامة[1]، ذلك المنزل البديع المبني على الطراز الأندلسي في

---

(١) المولود سنة ١٣٠٥هـ والمتوفى سنة ١٣٧٠هـ من أسرة علمية. قال الزركلي في «الأعلام» ٣: ٢٨٦: «كان صلباً في وطنيته، عالي الصوت في مقاومة الاستعمار، حاول الفرنسيون استمالته، أيام احتلالهم لبنان فجعلوه حاكماً لبلده وما حولها فلم ينفعهم، فآذوه وسجنوه وظل الطرابلسيون ملتفين حوله، تولى رئاسة الوزراء اللبنانية سنة ١٩٤٥م، في عهد الاستقلال، ثم استقال مبتعداً عن تحمُّل التَّبعات».

نوافذه وأبوابه ونجارته ودهانة جدرانه وسقوفه[١]. ولما ألقينا فيه عصا التَّسيار هرع علماء الفيحاء، ووجهاؤها للسلام عليه وتقبيل يديه.

وأول ما رأيت من أمارات ذكائه وسَعَة معرفته: أن قُدِّم له كتاب في التفسير نُسب للشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه فبعد أن تأمَّل فيه ناولنيه، فقلت: إنه لم يناولنيه إلا لأمر بدا له فيه، فتأمَّلت في بعض عباراته فرأيت الكتابة فيه كتابة المتأخِّرين لا علماء القرن الخامس والسادس، فتقدَّمت إليه وقلت: قد ظهر لي أن التفسير لبعض المتأخرين من أهل القرن العاشر أو الحادي عشر، فقال: «هو كذلك هو كذلك»، وهناك تجلَّت لي فطنته وسرعة مداركه.

وكان قد حان وقت الغداء، فلما قمنا إلى المائدة، وكنت إلى جانبه كما أمرني فسألني: هل تَوَلَّى الشيخ خليل الخالدي[٢] المقدسي القضاء في حلب؟ أجبت: لا إنما تولى قضاء جبل سمعان، وهو عبارة عن أزيد من مئة قرية حول حلب، ولما لم يكن فيها مكان صالح لأن يُتَّخذ مركز حكومة، اتخذ له في نفس حلب مركز خاص، وله حاكم خاص وقاضٍ شرعي، والشيخ خليل إنما تولى القضاء لجبل سمعان هذا، وحينما كان بحلب كنا نزوره ويزورنا، فقال: قد زال الإشكال وعُرِفَت الحقيقة، وذلك أني قرأت في مؤلف لبعض علماء الغرب أنه تولى القضاء في حلب[٣]، ولما قرأتُ ذلك ذكرت أني

---

(١) أفاد الأخ الأستاذ محمد سعيد منقارة الطرابلسي حفظه الله: أن هذا المنزل لايزال موجوداً، ويقع في وسط طرابلس قريباً من منطقة التل، ويشرف على ساحة النور، وهي مدخل طرابلس الجنوبي، ويسكنه الآن الأستاذ مصطفى كرامة.

(٢) المولود سنة ١٢٨٢، والمتوفى سنة ١٣٦٠. انظر ترجمته في «الأعلام» (٢: ٣١٦-٣١٧)، و«العلماء العزاب» (ص ٢٢٩-٢٣٧).

(٣) ذكر الشيخ عبد الحفيظ الفاسي في ترجمته في «معجم الشيوخ» ٢: ٢٧: أن الشيخ الخالدي تولى القضاء في حلب.

لم أجد له ذكراً بين أسماء قضاة حلب الذين ذكرهم الشيخ كامل الغزي في «تاريخه» على التَّوالي، فعجبتُ لذلك، وقلت: لا يُزيل هذا الإشكال إلا فلان، وأبقيت ذلك لحين الاجتماع بك.

فهذا ولا ريب ينبئ عن حافظة قوية وذاكرة عظيمة، وأنه يحقِّق أموراً لا يأبه لها القارئ إذا مرَّ بها ولا تَخْطر له على بال، ولكنها ذات قيمة تاريخية عند محقِّقي التاريخ أمثال الأستاذ.

ولَعَمْري إنه بذلك ازْدَادت عَظَمتُه في عيني، وكَبُرت منزلته في قلبي حينما علمت أنَّ أمراً مثل هذا ليس من الأهمية بمكان يدركه بمجرَّد قراءته له وهو من أهل المغرب الأقصى، ويستشكل فيه لمخالفته لما كان قرأه في كتاب آخر، ويبقى في ذاكرته تلك المدة إلى أن يأتي إلى المشرق فيسأل عنه ليزيل ما كان استشكله ويقف على الخبر اليقين.

ثم إنه بعد عصر ذلك اليوم ألقى درساً في جامع طرابلس الكبير، افتتحه بالحديث المسلسل بالأوليَّة، وساق السند فيه من طريقين، من طريق مغربي عن والده العارف بالله الشيخ عبد الكبير بسنده، ومن طريق شرقي دمشقي عن العلَّامة المحدِّث الشيخ عبد الله السُّكَّري الدمشقي، ثم أخذ في تفسير الفاتحة ففسَّر نصفها الأول على طريقة أهل التصوف بعبارات وجمل خشعت لها الأفئدة، وأخذت بمجامع القلوب.

وفسَّر النصف الثاني منها على طريقة علماء الاجتماع؛ فبهر بذلك الألباب، وكان له وَقْعٌ عظيمٌ، تجلَّت بذلك مقدرته وحسن نظمه للعبارات؛ بحيث كان لها في القلوب عظيم التأثير.

مساء ذلك اليوم استأنفنا السَّيْر إلى بيروت فأمر كذلك أن أكون في سيارته إلى

جانبه، وكان نزولنا فيها في منزل ذي الصَّـدر الرَّحْب، والفضل الجمّ الشيخ محمد العربي المغربي[١] نزيل بيروت، وهو فاسي الأصل، ومن تلاميذ السيد الموما إليه، ومن المتصدِّرين في بيروت للإفادة ونشر العلم.

وهناك أطلعني سيدي الشيخ على ما ابتاعه من المخطوطات النادرة من مصر والحجاز، وما أُخذ له من الكتب النفيسة بالمصوّر الشمسي (الفوتوغراف)، ومن جملتها:

كتاب للحافظ السخاوي في ثلاثة مجلدات، فيه ترجمة شيخه الحافظ ابن حجر ومشيخته لا غير، وهو كتابٌ جليلٌ غزيرُ الفوائد جامعٌ لطرف كثيرة[٢].

وكتاب «**المجمع المؤسَّس للمعجم المفهرس**» للحافظ ابن حجر[٣]؛ فأفدته أنَّ نسخةً نفيسة من هذا في مكتبة الأحمدية بحلب، فسُرَّ لذلك جداً، كما سُرَّ لإفادتي له عن مخطوطات نادرة هي موجودة في مكاتب الشهباء المبعثرة[٤].

وهنا تجلّى لي شَغَفه العظيم بالكتب وغرامه فيها وسَعْيه الحثيث لاقْتناء النفائس منها بالاسْتِنْساخ والابتياع.

---

(١) المولود سنة ١٣٠٨هـ، والمتوفى سنة ١٣٨٢هـ. كما في ترجمته في «الأعلام» (٦: ٢٦٧).

(٢) وهو «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» صدرسنة ١٤١٩هـ عن دار ابن حزم ببيروت في ثلاثة مجلدات بتحقيق الأستاذ إبراهيم باجس عبد المجيد.

(٣) طبع سنة ١٤١٣هـ، عن دار المعرفة ببيروت في أربعة مجلدات مع الفهارس بتحقيق الدكتور يوسف المرعشلي.

(٤) جميع الكتب المخطوطة الموجودة في المدارس الشرعية أو المكتبات العامة المتفرقة في سوريا؛ جُمعت في المكتبة الوقفية، فكان هذا الجمع سبباً في الحفاظ عليها من الضياع، ثم ضُمَّت إلى مكتبة الأسد بدمشق، وفي ذلك مخالفة لشرط الواقف!!

وفي يوم السبت في الثامن من ربيع الأول؛ ودَّعتُ سيدي الأستاذ على ظهر الباخرة، وكان فراقه عليَّ عظيماً؛ بحيث أني أرسلتُ الدمع ذلك اليوم عدةً مرات، وتلك حالة لم تُعْهد مني في أحد قبل ذلك، ومنها علمت أنَّ الشيخ قد يعشق ويتصابى، وأنشدته ذلك اليوم في الفراق:

لو أنّ «مالكَ» عالمٌ بذوي الهوَى وبمحلِّهِ مِنْ أضلُعِ العُشَّاقِ
ما عذَّب العُشَّاقَ إلا بالهوى وَإنِ استغاثوا أغاثهم بِفراقِ

ولما انتهيت من إنشادهما قال: لا. قل: (بتَلاقِ بتَلاقِ).

ثم أنشدته أيضاً، وهو مما لم يخطر مني على بال منذ عشرين عاماً:

أرى آثارَهُم فَأَذوبُ شَوْقاً وأسْكُبُ في مواطِنِهم دُموعي
وأسْأَلُ مَنْ بفرْقَتِهِم بَلاني يَمُنُّ عليَّ منهم بالرجوعِ

فرقَّ لذلك رقَّة عظيمة ظهر أثرها على مُحيَّاه، وأكَّد الوعد بزيارة الشهباء عاصمة الحمدانيين، وبلدة جدَّته العليا؛ فإنها حلبية الأصل، لأنها بنت الشيخ أحمد عبد الحي الشافعي، وهذا ممَّن هاجر من قرنين إلى فاس وتوطَّنها، وزوَّج بنته من بعض أجداد هذا السيد، وهو وكثير من العائلة الكتانية من نسل هذه السيدة الحلبيَّة، ولأبيها هذا ترجمة حافلة في تاريخي «إعلام النبلاء» في الجزء السادس منه.

هذه بعض مزايا هذا الأستاذ الكبير حافظ السنة النبويَّة والعالم بها روايةً ودرايةً، والعارف بتاريخ الأمة الإسلامية قديمه وحديثه، والواقف على فلسفة تاريخها إلى معرفته بالأحوال الحاضرة وتقلُّبات الأمور في هذه الأزمنة في المشرق والمغرب.

وتلك بعض نعوته الكريمة أحببتُ أن أُتحفَ بها أبناء وطني وغيرهم ليقف

عليها من لم يسمع بهذا المحدِّث الكبير، وأرجو الله أن لا تحرم الشهباء من رؤيته والتمتُّع بحُسْن طلعته والاقتباس من فوائده في شهر رجب المقبل كما وعد بذلك، وإنَّ (رجب) لناظره قريب[1].

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) لم يتيسرَّ لهما اللقاء بعد اللقاء المتقدِّم، ولم يتحقَّق الوعد من السيد محمد عبد الحي لظروف متعددة، وقد توفي الشيخ راغب الطباخ في الخامس والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٧٠هـ، ثم بعد ذلك توفي السيد محمد عبد الحي الكتاني في التاسع والعشرين من جمادى الأخرة سنة ١٣٨٢هـ رحمهما الله تعالى، وكان بين لقاء الطباخ بالكتاني ووفاته ثمانية عشر عاماً.

خطر انقراض العلم الإسلامي في الديار الشاميَّة
إذا لم تُشيّد فيها معاهد لتخريج من يخلف العلماء الراحلين[1]

إنَّ جمعية البرّ والأخلاق الإسلامية، ورابطة مأذوني المدارس العلمية، ودار الأرقم من شباب محمد ﷺ بحلب، ترفع نداءَها هذا إلى الحكومة السورية والنوّاب الكرام، وإلى أصحاب الفضيلة العلماء الأجلّاء والمسؤولين من أُولي الأمر في الأوقاف، وإلى الجمعيات الإسلامية، وكل مسلم غَيور على دينه ـ بمناسبة النكبة الأخيرة التي نُكب بها الإسلام، وأصيبت بها العلوم الإسلامية بوفاة فقيدنا العلَّامة الكبير، حُجَّة الفقهاء، ومرجع الأدباء الشيخ: «**أحمد الزرقا**» في ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ بعد أيام قلائل من وفاة المفتي العام، الفقيه الكبير: «**عطاء الله الكسم**»، رحمهما الله رحمة واسعة، كما نُكب الآن قطر مدينة «أريحا» بفقد عالمه الصَّالح الورع، المرحوم الشيخ: «**أبي المواهب الباشا**» الذي كان في قطره المصدر الأكبر للعلم والصلاح.

ترفع الجمعيات نداءها هذا بمناسبة تعاقب النكبات على العلم لفقدان العدد الكثير من أعلامه في شتّى المدن السورية، دون أن تعمل الأمة والأيدي المسؤولة عن إعداد الخلف مكان الراحلين الأفاضل، حتى كانت النكبة العظمى بوفاة العلَّامة الزرقا؛ الذي كان لنا في حياته عزاء عن الذين تقدّموه، ففقد المسلمون بفقده حُجَّةً

---

(١) مجلة «الفتح»، العدد (٦١٨) من السنة الثالثة عشرة: (١٣ رجب ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م).

في الفقه، وعقلاً في البحث، ومنطقاً صحيحاً في التدليل، ومجمعاً كبيراً لشَتَات العلوم، أضفْ إلى ذلك نفْساً أبيَّة وشخصيَّةً متواضعة.

ترفع الجمعيات نداءها هذا وهي معبّرة عما يخالج نفوس الجميع من الخوف على انقراض العلم بفقدان أهله، بل من الخوف على الإسلام نفسه لأنه دين مبنيٌّ على العلم والعقل. **فإذا فقد العلم انحطّت مكانة الإسلام في النفوس، وعمّت الجهالة بين الناس، وتحمّل الجميع آثام الإهمال الذي كان سبباً لكل ذلك.**

ترفع الجمعيات نداءها هذا معتقدة بأنها تُعبِّر عن شعور كلِّ مسلم وكلِّ مدينة إسلاميَّة، بل عن شعور كل عالم وجامعة علميّة، فإنَّ مراكز العلم هي أشد بكاءً على فقدان العلوم الإسلامية وخاصة منها الفقه الإسلامي، فإن فيه الخبر اليقين عن العقل الاجتماعي، والتَّحليل العلميّ اللذين وصل إليهما الإسلام فبلغ منهما الذروة، وكان له فيهما أبرز أثر وفضل في المدنية الإسلامية.

ترفع الجمعيات نداءها هذا وهي شاعرة بما يتهدَّد الإسلام والمسلمين من خطر، وما يصيب العلم والعلماء من خسارة بفقدان العلوم الإسلامية بموت أعلامها، راجيةً ممن وجّهت إليهم نداءَها أن يعمل كلٌّ منهم في دائرة إمكانه، وأن يفكّر الجميع بالمسؤولية الدينيَّة الملقاة على عاتقهم في سبيل تدارك ذلك الخطر والخسران عن طريق إيجاد مدارس علميّة دينيّة راقية؛ لإعداد خَلَف لأولئك الراحلين، ولتهيئة عددٍ كافٍ لسَداد الحاجة في القضاء، والإفتاء والتدريس العام والخاص في الجوامع والمدارس الدينية، والتعليم في المدارس الرسمية والأهليَّة، وللقيام بالشعائر الدينيَّة بواسطة رجال علماء واقفين على حقيقة الدين وجوهره، وعاملين على نشر تعاليمه، وإنَّ كل ذلك مما يدعو العلماء الأفاضل والجمعيات الإسلامية إلى الاهتمام بعقد مؤتمراتٍ تبحث وتقرّر ما يجب عمله اليوم.

وإنَّ الجمعيَّات لَتُذكِّر الحكومة الجليلة بها وعدت به من إرسال بعثات علميَّة إلى الجامعة الأزهرية اعتباراً من السنة الماضية، ذلك الوعد الذي لم ينجز حتى الآن، رغم عدم كفايته فيما لو تم؛ فإنَّ البعثات إنما واجبها القيام بالوظائف المحدودة الموكولة إليها، فمن للمسلمين ولدينهم ولتعليمهم ولشعائرهم؟

ذلك هو ما يحدونا إذا ما ذكَّرنا الحكومة الجليلة بوعدها، أنْ نُلحَّ عليها في تنظيم الأوقاف الإسلامية، وجمع معاهدها الدراسيَّة الدينيَّة كلها ضمن نظام واحد، وتوحيد ميزانيَّتها ضمن ميزانيَّة واحدة، وفتح مدرسة أوَّليَّة ثانويَّة في كلٍّ من مدينتي حلب ودمشق، ومدرستين أوَّليَّتين على الأقل في كلٍّ من مدينتي حمص وحماة، ومدرسة أخرى لتخريج القضاة والمفتين والمحامين الشرعيين ملحقة بالجامعة السورية، والحكومة إذا فعلت عن طريق توحيد المدارس الدينية ضمن نظام واحد لم تتكلَّف في سبيل هذا المشروع الدينيِّ الكبير درهماً واحداً.

هذا هو نداؤنا الأول، ولعله يجد من حكومتنا الكريمة السادة الموجَّه إليهم الخطاب مكاناً لحُسْن السمع والاهتمام والعمل، وإننا نستنهض همم العلماء الكرام من سائر البلدان للتفكير في هذا النوع الخطر الذي أصبح الاهتمام به مُلقىً على عاتقهم قبل غيرهم، والله من وراء القصد.

حلب ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٥٧.

محمد راغب الطباخ	عبد الوهاب التونجي	أحمد ناجي أبو صالح
رئيس جمعية البر والأخلاق	نائب رئيس دار الأرقم	رئيس رابطة مأذوني المدارس العلمية

صورة الكتاب المرسل من الشيخ محمد راغب الطباخ

إلى الأستاذ محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

لترشيح الأستاذ مصطفى الزرقا للمجمع العلمي العربي بدمشق[١]

تبجيلاً واحتراماً، وبعد فيوم الخميس الماضي الموافق ٣١ كانون الأول ١٩٤٢م أقيمت في المدرسة التجهيزيَّة حفلة تأبين لمرور أربعين يوماً لوفاة المرحوم الأستاذ الشيخ محمد بدر الدين النعساني[٢]، حضرها جميع الطبقات، وكانت بالغةَ الحدّ المنتهى في الجلال، تجلّت فيها مكانة الفقيد، وكان الأسف عليه عاماً.

والمرحوم هو سابع سبعة من أعضاء المجمع العلمي في حلب، انتقلوا لدار البقاء[٣]، والباقي من أعضائه ثلاثة: الشيخ عبد الحميد أفندي الجابري[٤]، وفضيلة المفتي الحالي الشيخ عبد الحميد أفندي الكيالي[٥]، وكاتب هذه السطور.

---

(١) كتبها في المحرم ١٣٦٢هـ الموافق ٧ كانون الثاني ١٩٤٣م.

(٢) توفي سنة ١٣٦١هـ الموافق ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٢ عن ٨٣ عاماً. تنظر ترجمته في «علماء من حلب في القرن الرابع عشر الهجري» ص١٦٣-١٦٨.

(٣) ومنهم السيد مسعود الكواكبي، المتوفى سنة ١٣٤٨هـ عن ٦٧ عاماً، والشيخ كامل الغزي، المتوفى سنة (١٣٥١هـ = ١٩٣٣م)، انتخب عام ١٩٢١، وأصبح رئيس فرع المجمع بحلب سنة ١٩٢٥.

(٤) المتوفى سنة (١٣٧٠هـ = ١٩٥١) عن تسعين عاماً، له ترجمة موسّعة في موقع رابطة العلماء السوريين بتحريري.

(٥) المتوفى سنة (١٣٧٥هـ = ١٩٥٦م) عن ٨٠ عاماً.

والثلاثة قد وَهَن العظم منهم، واشتعل الرأس شيباً، وشَمْسُهم قد آذنَتْ بالغروب، فرأيتُ من الضروريّ أن يكون لهذا السَّلف خَلَف ينسج على ذلك المنوال، ويعاضد المجلة بنفثات أقلامه في الأدب وغيره من كل فنّ يلائم خطّة المجلة.

ووجدتُ الآن في طليعة هؤلاء: الأستاذ الفاضل الأديب، والناظم الناثر الخطيب، الشيخ مصطفى أفندي الزرقا، فإنَّه مجموعة فضائل، وخزانة شمائل.

والآن أضع لحضرتكم نبذةً من ترجمته وخصائصه، وثلاث قصائد من شعره من أوَّليَّات نظمه وأوساطه وأُخْرَياته، بها يتجلَّى لحضرتكم مكانته العلميَّة والأدبيَّة، وتبريزه في كلِّ فنّ.

والخلاصة أنه اليوم مفخرةٌ من مفاخر الشهباء، وجوهرةٌ نيّرة من جواهرها، أرجو تقرير نَظْمه في عِقْد أعضاء المجمع الموقّر، ليزيدَ ذلك العِقْد دُرَّة إلى دُرَرِهِ الكريمة.

دمتم للعلم أنصاراً وذُخراً، وأرجو أن تكتب لي وله في ذلك.

١ / محـــرم ١٣٦٢هـ.
٧ / كانون الثاني ١٩٤٣ م.

محمد راغب الطباخ

* * *

كلمة تعريف موجزة عن الشيخ مصطفى الزرقا(١)

حياته ونشأته العلمية:

هو الشيخ مصطفى ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد الزرقاء، جدّه ـ رحمه الله تعالى ـ علامة الشهباء غير منازع، وفقيهها الأكبر الذائع الصِّيت، ووالده أيضاً ـ رحمه الله تعالى ـ الشيخ أحمد الزرقا وارث فقه الجدّ.

ولد الشيخ مصطفى أفندي في حلب أواخر ١٣٢١هـ وأوائل ١٩٠٤م، دخل الكتّاب طفلاً فتعلَّم القرآن والقراءة والكتابة ومبادئ الحساب على الشيخ محمد أفندي الحجَّار، وهو حافظٌ متقنٌ لم يكن في حلب إذ ذاك حافظ متقن مُجيدٌ للقراءة مثله، ثم دخل الشيخ مصطفى أفندي مدرسة الفرير الفرنسية بحلب ١٩١٣م، وفيها تعلم مبادئ اللغة الفرنسية، وظهر امتيازه بين رفاقه، فنال منذ أول امتحان فيها جائزة كتاباً قصصياً أخلاقياً مُذَهباً باللغة الفرنسيَّة.

ولما وقعت واقعة الحرب العامة السابقة في ١٩١٤م، انقطع بعد نحو سنة من وقوعها عن التحصيل المدرسيِّ لإغلاق معظم المدارس من وطنيَّة وأجنبيَّة.

ولما أُنشئت المدرسة الخسرويَّة الشرعيَّـة بحلب سنة ١٣٤٠هـ، وسنة ١٩٢١م، سجّله والده في عداد طلابها فَحَذق فيها العلوم الشرعيَّـة والعربيَّة والعقليَّة، وهضمها

(١) وقفتُ عليها في مكتبة الشيخ الزرقا، بخطِّ أستاذه الشيخ راغب الطباخ، عضو المجمع العلمي العربي بدمشق، كتبها في محرم ١٣٦٢هـ الموافق كانون الثاني ١٩٤٣م، بمناسبة ترشيحه تلميذه الزرقا لعضوية المجمع.

هضماً سريعاً، وظهر في برنامج المدرسة الدراسي وهو فيه مبتدئ تفوُّقٌ عظيمٌ على رفاقه من الطلاب، وفيهم من له في طلب العلم أكثر من عشر سنين.

وقد استفاد كثيراً من وجود أقدر علماء حلب في تدريس هذه المدرسة لأول افتتاحها ممن اخْترمتهم المنيّة بعد افتتاحها بزمن غير طويل، كالشيخ محمد أفندي الحنيفي، والشيخ أحمد أفندي المكتبي ـ رحمهما الله تعالى ـ، وقد تَفَقَّه تفقُّهاً بالغاً على والده الذي كان مُدرّس الفقه الحنفي في المدرسة الخسرويَّة وغيرها من المعاهد الدينية، فكان يَتَتبَّع دروسه، ووالده أشهر فقيه بعد جدّه في دقَّة نظره ورسوخ مَلَكته وقوة بحثه.

وكان الشيخ مصطفى أفندي منذ صغره ويفوعته ولوعاً بقراءة القصص العربية التي تَتَجلَّى فيها الصِّبْغة العربية أو البطولة، كألف ليلة وليلة، والأميرة ذات الهمَّة، وخاصَّة سيرة عنترة، إذ كان يُكرِّرها ويُعْنى باستظهار أشعارها، ويُكثر من حفظ الشعر العربي عامَّة، ويُميِّز بين مُعتلّ الأوزان ومستقيمها وبين مختلف البحور الشعرية المتقاربة من غير أن يعرف أسماءها بذوقه وسليقته، ولذلك ظهرت متانته العربية وتفوّقه فيها منذ أول عهده بالدراسة في المدرسة الخسرويَّة، وقد بدأ بنظم الشعر إثر دخوله المدرسة الخسرويَّة، وهو إذ ذاك دون العشرين، وكانت منظوماته جيّدة جدّاً بالنسبة إلى ابتدائه.

وقد تابع مدَّة وجوده في المدرسة الخسرويَّة إذ ذاك (وهي أربع سنوات) دراسة اللغة الفرنسيَّة على أساتيذ خصوصيين ولاسيما في فرص التعطيل الصيفي لكي يبني على مبادئه فيها ولا تضيع سُدىً، فحصَّل من اللغة الفرنسيَّة أكثر ممَّا يحصِّله طلاب التجهيز المتخرّجون وأجاد فيها التكلم والكتابة.

وهذا ما سهَّل عليه بعد الخُسْرويَّة أن يتوجَّه بعنايته إلى دراسة العلوم الكونية التجهيزية في نظام البكالوريا، حيث عكف على دراستها في نيسان ١٩٢٩م، واختار

لها الأساتيذ الخصوصيين، وواظب ليل نهار على استيعاب دراسة القسم التجهيزي بجميع فنونه فأتمّه كلّه في خمسة أشهر، وتقدّم إلى امتحان البكالوريا السورية في دورة تشرين من السنة نفسها، فأحرز في المسابقة شهادة البكالوريا الأولى في شعبتي الفنون والآداب بالأوَّلية العامَّة على طلاب سورية جميعاً، وقد وَرَدته من دمشق برقيات التهنئة المشعرة بأوليّته، ومنها برقية من مدير معارف حلب إذ ذاك.

وكان هو في ذلك التاريخ أول من درس العلوم الكونية، وأحرز شهادة البكالوريا من شباب السِّلْك الديني بحلب، وكان بذلك قدوة لغيره منهم في هذا المضمار.

وقد دفعه نجاحه هذا إلى استكمال مراتب التحصيل الرسمي، ولم يكن عندئذ صف للبكالوريا الثانية في غير دمشق، فذهب إلى تجهيز دمشق، ودخل صف البكالوريا الثانية فيه (شعبة الفلسفة)، وهو بشعاره الديني، وكان محلّ إعجاب جميع أساتيذ التجهيز.

وفي الامتحان العام نال شهادة البكالوريا الثانية من شعبة الفلسفة بالأوَّلية العامة أيضاً على جميع طلاب سورية سنة ١٩٣٠م.

ثم دخل معهد الحقوق السوري ومدرسة الأدب العليا في بدء ١٩٣١م، وتخرج منهما في سنة ١٩٣٣م بتفوّق عظيم، ووجَّهت إليه إدارة معهد الحقوق كتاباً وإدارة مدرسة الأدب العليا أيضاً كتاباً تُثنيان فيهما على ما ضرب من مثل عالٍ في المعهدين، وتُسجّلان محافظته على الأوليَّة في امتحانات جميع سنيّ الدراسة فيهما بالأرقام العليا، وقد نشر الكتابان إذ ذاك في جريدة الشعب بدمشق وجريدة الاتحاد بحلب، ولم يسبق قبل هذا في المعهدين المذكورين أن وجّهت إدارتاهما مثل هذا الثناء المسجَّل لأحد، وقد كنت قلت له: إنَّ هذين الكتابين أثمن من شهادتي المعهدين.

وقد ودَّع حياة الطلب والتلمذة بموشّح شعري عاطفي رائق نُشر في صحف دمشق، وصف فيه هواه العلمي، ونشوة حياة الطلب في نفسه وجهوده وصبره الطويل وعزوفه عن الملذّات في سبيله، وقد استهلّه بقوله:

نِعْـمَ مـا نوَّلتِنـي مـن أربي ... فوداعـاً يـا حيـاةَ الطَلَـبِ
لكِ ذكرى لَـذّةٍ تعصِفُ بي ... عرَّفَتْنـي فعـلَ بنـتِ العنـبِ
إنَّ لي عنـدكِ عهـداً أن تَفـي ... لي بـودّي إنني ذاك الـوفي
لـم أفارِقْـكِ فـراقَ المنتفـي ... لا ولم أقطَعْ حبالَ النَّسَبِ

وبوجوده في دمشق تلك السنوات الأربع أصبح معروفاً فيها بمزاياه لدى الطبقات العلميّة، كما عرفه الكثيرون بخطبه الجمعيّة التي كان يلقيها في «جامع دنكز» بشارع جمال باشا بدمشق، إذ نهج فيها منهجاً مرتجلاً جديداً، يعالج فيه الموضوعات الدينية والأخلاقية والاجتماعيّة مستمدَّة من حاجة العصر والمجتمع، فَضَرب بها مثلاً رائعاً في التجديد الذي تحتاج إليه خطبة الجمعة في المجتمع الإسلامي.

ولما عاد من دمشق إلى حلب مارس المحاماة مدة سبع سنين، فكان فيها محلّ تقدير جميع الحكام، واشتهر بفصاحته وبلاغته في المرافعات الجزائيّة التي تعتمد كثيراً على البيان.

ولم يكن له من نيَّة في الاستقرار في المحاماة، وإنما كان يريد أن يجمع بين العلم النظري والعملي في التشريع، ويحصل الخبرة في آثار التطبيق العملي للأحكام التشريعية وما تظهره نتائج التطبيق من نواقص في النصوص القانونية وفي التفريعات الفقهيّة الاجتهاديّة.

وبهذه الخبرة العمليّـة قوي في نفسه الرأي بضرورة الرجوع إلى جميع المذاهب

الفقهية الإسلامية من الأربعة المنظّمة، وما وراءها من مذاهب الصحابة والتابعين، وبقية المجتهدين حيث الثروة التّشريعيّـة الكبرى الكافية.

ويرى ـ كما نرى ـ أنَّ كلَّ مذهب على حدته لا يمكن أن يفيَ بالحاجة، ولا يخلو من شذوذ أو نواقص عن الحاجة العمليّة التي اتَّسعت لها أصول التشريع الإسلامي وقواعده، وذلك خلاف ما يرى متعصّبو كلّ مذهب من أتباعه.

وهو شديد الإنكار للتعصُّب الأخْرق والجمود المَشْهُودَيْن في كثيرٍ من المتسبين إلى المشيخة والعلم من غير فهمٍ وإدراك للحقائق ومقاصد الشريعة.

وقد كنت أستعجله في ترك المحاماة التي كانت تستغرق أوقاته في خصومات الناس وتهيئة المدافعات، وأروي له خبر «الكمال ابن الهُمام» أعظم شارح لكتاب «الهداية» العمدة في فقه المذهب الحنفي، فقد بلغ «الكمالُ» بعلمه رتبةَ الاجتهاد المطلق في عصره، وغلب عليه الزهد، فآثر أن ينقطع إلى التصوّف والعبادة، ويترك التدريس والإفادة العلميّة، فقيل له: إنَّ الناس في حاجة إلى علمك وأنت عن ضياعه مسؤول، فعاد إلى حياة التدريس والتعليم، وألّف كتابه الشهير: «فتح القدير شرح الهداية» الذي يعدُّ من أعظم ذخائر الفقه تحقيقاً وتدقيقاً وتمحيصاً لمسائل المذهب الحنفي، فكنت أقول أنا أيضاً للشيخ مصطفى أفندي عندما أروي له هذا الخبر: إنَّ معاهد العلم أحوج إليك من المحاماة.

ولما توفي والده الشيخ «أحمد الزرقا» ـ رحمه الله تعالى ـ منذ أربع سنوات ونيّف[1]، ترك المحاماة وانتقل إلى تدريس الفقه مكان والده في «المدرسة الخسروية»، والتدريس العامّ في الجامع الأموي وسواه، ثم عُيِّن خطيباً للجامع الأموي بحلب، فشهد على يده منبره من التجديد في أساليب خطبة الجمعة ومواضيعها مع الارتجال البليغ أعلى مثال.

---

(١) توفي ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧ رحمه الله تعالى.

وقد نهج في تدريس الفقه في المدرسة الخسرويَّة منهج حكمة التشريع، ومقارنة المذاهب الفقهية على أساس مقاصد الشريعة، ومقابلة الأحكام الفقهيّة بالقوانين الحاضرة، وبيان ما نسخته منها وما أبقته، مما يجدر أن يكون منهاجاً لدراسة الفقه في معاهد الحقوق العليا، ولعلّ هذا من ثمرات خبرته الواقعيَّة في ممارسة المحاماة.

وهذا ما وجَّهه إلى العناية بتدوين مباحث في حكمة التشريع الإسلامي في الأحكام المدنيّة العمليّة هي في غاية المتانة والإحكام والنُّضج والابتكار، يتجلّى فيها البحث الحرّ، ووزن المذاهب الاجتهادية بميزان المصالح ومقاصد الشريعة، ويبلغ المبيّض من هذه المباحث نحو مئتين وخمسين صفحة، وهو آخذٌ بتحرير ما لم يبيّض منها واستكمال مباحث جميع الأحكام المدنيّة في الأبواب الفقهية، وهذا أفضل عمل علميّ يُعرض فيه الفقه الإسلامي بثوب جديد ولغة العصر، وتبرز مكنون تراثنا التشريعي العامّ، وتـمهّد السبيل للاستفادة مما يناسب حاجة العصر من المذاهب الاجتهاديّة في الإسلام.

هذا إلى تعمُّق في الأدب العربي نصوصاً وتاريخاً، وإلى تضلُّع في اللغة، وباع في الشعر بصراً ونظماً حتى إنه ليعدّ اليوم في الشهباء مجمع الثقافتين الشرعيَّة والعصريّة، ومرجع اللغة، ورأس الخطباء والمنابر والمحافل، وفي طليعة الأدباء والكتّاب، وكلّ مزيَّة علمية وأدبية، واجبة لرجال السلك العلمي ومفقودة عند معظم رجاله تجدها فيه.

آثاره:

١ـ رسالة عنوانها «**أطوار الغزل العربي**»، وهي الأطروحة التي قدّمها إلى إدارة مدرسة الأدب العليا بدمشق، وَفْقَ نظامها لنوال شهادتها، وهي فيما أعلم أول خطوة، في بحث هذه الناحية من الأدب العربي، وقد ذكر أنه إنما اختار هذا الموضوع

لأطروحته؛ لأنه أراد أن يطرق بحثاً لم يُطرق من قبل، فإنَّ جميع ما كتبه رجال الأدب المعاصرون ومن قبلهم عن الغزل هو ـ على كثرته ـ مباحث متفرّقة عن غزل خاص بأحد الشعراء وبأحد العصور الأدبية، ولم يعالج أحد الغزل العربي ويُؤرِّخ جميع أطواره من حيث هو فنّ أدبي خاصّ بقطع النظر عن قائليه.

وقد تكلَّم في هذه الرسالة عن نشأة الغزل في ديوان العرب، وعن قِدَمه وسلسلة أطواره المختلفة ارتقاءً وانحطاطاً، وتابعيّة لغيره من مقاصد الشعر أو استقلالاً، ولغةً وأسلوباً ومعاني وألفاظاً، وقسَّم فيها الغزل إلى أنواع: طبيعي، ومتكلّف، وفلسفي، وعاطفي، ووصفي، وقصصي، وهجائي، ومؤنّث، ومذكّر، وصوفي، ورمزي، وغير ذلك.

وقد عيَّن تاريخ نشأة كل نوع في عصور الأدب الخمسة من أقدم ما يؤثر عن العهد الجاهلي إلى العصر الحاضر، حتى الأغاني الشعبية الحاضرة مع الإشارة إلى عوامل تلك الأطوار في مختلف الأدوار.

وهذه الرسالة تبلغ نحو سبعين صفحة، وهي أصغر حجماً مما تقتضيه سَعَة موضوعها وغزارة عناصر البحث المسرود فيها، ولكنه قد اعتذر عن ذلك بأنه كتبها في خمس ليالٍ في فرصة عيد الأضحى، إذ كان منهمكاً في الاستعداد لامتحان السنة الأخيرة من الحقوق، فأوجز عبارتها، وأقلَّ فيها من الشواهد.

وقد كان طلبها منه السيد أحمد عبيد بدمشق، ليطبعها على حساب مكتبته وينشرها نظراً لحاجة طلاب البكالوريا إلى مباحثها فلم يشأ رغبة في أن يتفرَّغ لبسطها والتوسّع فيها، وزيادة شواهدها، وإنَّ مبيَّضتها موجودة في مخلَّفات مدرسة الأدب العليا بدمشق.

٢ـ مباحث حكمة التشريع الآنفة الذكر.

٣ـ مجموعة مقالات، كانت نشرت متفرّقة في مجلات مصر ودمشق وحلب في مواضيع شتّى من إسلامية وتشريعية وتاريخية وأدبية، وكلٌّ بحث فيها قيّم مفيد[١].

٤ـ ديوان شعر، يبلغ أكثر من ألف بيت، معظم قصائده اجتماعية وسياسية ورثاء ومراسلات إخوانيّة[٢].

وإني مرسل بثلاث قصائد من شعره كنموذج لمراحله فيه:

الأولى: هي من أول بدئه بنظم الشعر منذ كان تلميذاً في المدرسة الخسروية، وله في ذلك العهد أجود وأمتن منها، ولكنني اخترت هذه لما فيها من دلالة على اتجاهه وطموحه.

والثانية: هي آخر قصيدة نظمها منذ أربعين يوماً في رثاء صديقه فقيد العلم والأدب الشيخ أمين أفندي الجيلاني الحموي[٣]، أستاذ علم الدين والأدب العربي في تجهيز الإناث بحلب، وأستاذ الإنشاء في المدرسة الخسروية، وقد ألقاها في حفلة تأبينه الأربعينيّة بحلب في ١٢ ذي القعدة الماضي[٤].

والثالثة: بين هذين التاريخين في وصف قاطرة السكّة الحديدية بأوصاف مستمدّة

---

(١) وقد وفقني الله تعالى إلى جمع مقالات شيخنا مصطفى الزرقا ومحاضراته وبحوثه، وستصدر ـ بعون الله تعالى ـ قريباً في عدة مجلدات.

(٢) نشر أستاذنا الزرقا ديوان شعره، وسماه: «قوس قزح»، وصدر في حياته في سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م ضمن الكتب التي ينشرها الوجيه عبد المقصود خوجة في كتاب الإثنينية بجدة.

(٣) هو العلامة المؤرخ الأديب الداعية المربي أمين بن مصطفى الكيلاني الحموي، المتوفى في اليوم الثالث من شهر شوال سنة (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م)، عن ٤٦ عاماً رحمه الله تعالى. له ترجمة واسعة بتحريري في موقع رابطة العلماء السوريين.

(٤) ومطلعها: مضى فاستعبر الأدب القريض وجفن العلم منكسر مريض

من أوصاف الناقة عند العرب، وقد كان بعث بها من دمشق إلى صديقه إبراهيم بك العظم من أدباء حماة وشعرائها في مراسلة بينهما[1]. وفيها تتجلى ضلاعته في اللغة وتعمقه فيها.

وإنَّ من ديوانه الشعري المذكور قسماً خاصاً أسماه: «**الإبراهيميات**» يشتمل على المراسلات الشعرية بينه وبين صديقه إبراهيم بك[2] المشار إليه[3].

* * *

---

(١) وهذه القصائد الثلاثة، نشرت في ديوانه «قوس قزح».

(٢) إبراهيم بن طاهر العظم، الشاعر الحقوقي، ولد في حماة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م، وتخرج في معهد الحقوق بدمشق سنة ١٩٢٨م، واشتغل في الأدب، ومارس المحاماة، وتولى أوقاف حماة وحلب، ثم كان قاضياً استئنافياً في دمشق إلى أن توفي سنة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م رحمه الله تعالى، كان مشهوراً بالنزاهة والاستقامة، ديِّناً تقياً، حافظاً للقرآن الكريم، مجوِّداً له، حسن الصوت به.

(٣) وقد تلقّى الأستاذ الفاضل الشيخ محمد راغب الطباخ جواباً من رئيس المجمع العلمي العربي الأستاذ محمد كرد علي جاء فيه: «حضرة الأستاذ الشيخ راغب الطباخ المحترم: أتت رسالتكم المؤرّخة في ١ المحرم ١٣٦٣هـ، مؤيّدة لما كنت خبرته بنفسي من مزايا الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا، وكنتُ أودّ لو تهيّأ للمجمع العلمي العربي انتخابه عضواً مؤازراً له، غير أن المجمع عزم على ترك المجال واسعاً لأهل العلم والفضل يتبارون بإخراج آثارهم وثمرات علمهم، حتى إذا برز بعضهم بحُسْن نتاجه كان ذلك حافزاً بالمجمع على الاستفادة من إكمال تتبعاتهم، وأملي أن يكون المومأ إليه في مقدّمتهم، وأنا بانتظار مقالاته تَتْرى على مجلة المجمع العلمي العربي لتُثبت مكانته وفضله عند إخواني أعضاء المجمع. ولكم الشكر على حسن تذكيركم وجميل فضلكم».

دمشق في: ٧/ المحرم / ١٣٦٢هـ — رئيس المجمع العلمي العربي
١٣/ كانون الثاني / ١٩٤٣ م — محمد كرد علي

محمد راغب الطباخ

ترجمة محمد راغب الطباخ الذاتية

بقلمه(١)

لحضرة الوجيه المفضال رئيس المجمع العلمي الموقر.

قبلاً تلقَّيت كتابَكُم المؤرَّخ في ٢ حزيران سنة ١٩٤٣م وفيه ترغبون أن أبعث إليكم بترجمتي فنزولاً عند رغبتكم كتبت لحضرتكم الصحف الآتية، وهي مقتضبة من ترجمة واسعة وضعتها لنفسي تبلغ ٤٠ صحيفة، والذي دعاني لذلك أمران:

أحدهما: الاقتداء بكثير من المتقدِّمين الذين ترجموا لأنفسهم كالإمام السبكي، والحافظين السيوطي والسخاوي، وإن كان فيه قياس مع الفارق ولكن من باب: فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم.

---

(١) ترجم العلامة الشيخ محمد راغب الطباخ لنفسه أربع تراجم:
الأولى: سنة (١٣٥١هـ) في آخر ثبَته المسمَّى: «الأنوار الجليَّة في مختصر الأثبات الحلبيَّة» عند ترجمته لشيخه محمد رضا الزعيم، وقال: «وحيث إنَّ شيخي الشيخ محمد رضا الزعيم ـ رحمه الله تعالى ـ ذكر في إجازته لي ما قرأْتُه عليه من الكتب والفنون، أحببتُ أن أذكر هنا نشأتي واشتغالي بالتَّحصيل، وما قرأْتُه من الكتب والعلوم على مشايخ الشهباء وغيرهم؛ لأني لم يُتَحْ لي أن أستجيز مَن قرأت عليه سوى شيخي المار الذكر، فرأيت أن لا يخلو هذا المجموع من ذكرهم؛ اعترافاً بعظيم جميلهم، وما لهم عليَّ من الفضل الجزيل، جزاهم الله عني أحسن الجزاء، وبوَّأهم دار النعيم المقيم، ومتَّعهم بمنِّه وكرمه بالنظر إلى وجهه الكريم، وجمعنا معهم أجمعين تحت لواء سيد المرسلين؛ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». =

والثاني: أني لما وضعت تاريخ حلب، ووصلت إلى رجال القرن الثالث عشر والرابع عشر، رجعت إلى كثير من أبناء وأحفاد وأقارب من يستحقون الترجمة من علماء وأدباء ووجهاء فوجدتهم لا يعرفون شيئاً من ترجمة آبائهم وأجدادهم سوى أنه توفي في السنة الفلانية، ودفن في تربة كذا، فرجعت إلى من أثق به من أصحابهم أو تلامذتهم، فوجدت عند البعض منهم شيئاً من ترجمتهم وحياتهم تلقَّيتها ودوَّنتها، وبقي غير واحد من الذين يستحقون الترجمة، وأن يخلد ذكرهم بدون ترجمة، وقد سألني بعض الفضلاء، فقال: إنا لم نجد في تاريخك ترجمة لفلان، وهو معدود من

= الثانية: ثم كتب ترجمة موسَّعَة سنة (١٣٥٨هـ) كتبها بخط يده في ٤١ صفحة، نُشِر قسمٌ منها في «مجلة الجامعة الإسلامية»، في العددين: (٣٩١ و٣٩٦) من السنة الرابعة والعشرين. قال في خاتمتها: «تمَّت كتابتها يوم الخميس، الموافق للثاني عشر من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥٨هـ، التاسع والعشرين من شهر حزيران ١٩٣٩م».

وقد حقَّقت هذه الترجمة الذاتيَّة الموسعة، وعلقت عليها تعليقات ضافية، وألحقت بها فصلاً في وفاته ومراثيه والكلمات التي قيلت فيه، كما ألحقت فصلاً آخر في شيوخه بالإجازة، وسيصدر هذا الكتاب قريبًا بعون الله تعالى.

الثالثة: ثم ترجم لنفسه بطلب من الأستاذ محمد كردعلي، رئيس المجمع العلمي في ٨ من ذي الحجة من سنة (١٣٦٢هـ)، الموافق ٥ كانون الأول من سنة (١٩٤٣م)، وهي الترجمة المنشورة أعلاه في هذا الفصل من المقالات.

الرابعة: ثم ترجم لنفسه بطلب من الشيخ سليمان الصنيع النَّجدي الأصل، المكِّي مولداً ومنشأً (١٣٣٣-١٣٦٨هـ) في سبع صفحات في آخر الإجازة التي كتبها له بخط يده، سنة (١٣٦٦هـ)، قال في مقدمتها: «وإجابةً لطلب الشيخ سليمان، ختم الله له بالحسنى وكمال الإيمان، أكتب له خلاصة ترجمتي التي وضعتها لنفسي أسوة بكثير من المتقدِّمين الذين ترجموا أنفسهم، كالحافظين الجليلين: السخاوي والسيوطي»

وقال في خاتمتها: «هذه خلاصة ترجمتي أيها الأخ الفاضل، اختصرتها من ترجمة واسعة تزيد عن أربعين صحيفة، وأسأل الله تعالى لي ولكم التوفيق لما يحبه ويرضاه، والإخلاص في القول والعمل، وحُسْن الخاتمة». وقد نشرت هذه الترجمة مع إجازة الطباخ للصنيع في موقع رابطة العلماء السوريين الذي أشرف عليه.

رجالات الشهباء، فلما بيِّنت له السبب، عذر واستغرب هذه الحالة، وهي جهل الأبناء بمعرفة آبائهم وعدم عنايتهم بتدوين حياتهم، ولا ريب أنَّ الأمة التي لا تعرف آباءها لا تعرف نفسها، فعلمي بهذه الحالة هو الذي دعاني أن أضع لنفسي ترجمة.

ولادتي ونشأتي:

ولدت ـ كما رأيته بخطِّ والدي رحمه الله تعالى في كتاب أرسله إلى أخي لمكة المكرمة ـ في الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ألف ومئتين وثلاث وتسعين، وختمتُ القرآن العظيم وعمري ثمان سنين، ثم شرعت في الكتابة على الشيخ محمد العَرِّيف الذي عُرف بشيخ الأشرفية[١] (نسبة إلى المدرسة الشَرَّفيَّة المشهورة الكائنة وراء الجامع الكبير. والناس يقولون غلطاً: الأشرفية).

ثم دخلت المدرسة المنصوريَّةَ[٢] في محلّة الفرافِرة سنة ١٣٠٤هـ، وقد اتخَّذتها

(١) قال الطباخ في «إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء» ٣: ٣٧٣ عند حديثه عن ولاية جميل نامق باشا وما أسَّسه في حلب من المكاتب: «وقبل تأسيس هذه المكاتب كان العارفون بالقراءة والكتابة قليلين جداً إذ لم يكن في حلب سوى كتاتيب قليلة في الزوايا والمساجد المهجورة، وكان أحسنها الكتّاب الذي كان فيه الخطاط المشهور الشيخ محمد العريف المعروف بالأشرفية، نسبة إلى المدرسة الشرفية الكائنة وراء الجامع الكبير لأن سكناه كانت فيها، وقد أدركته وهو قاطن بها، ثم انتقل منها إلى مدرسة القرموطية في محلة بحسيتا بالقرب من الجامع العُمري، وبقي فيه يعلم الأطفال الكتابة والقراءة والخط وشيئاً من مبادئ الحساب والفقه إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى، واستلمه من بعده الشيخ أحمد المصري، وهو لازال فيه إلى يومنا هذا (١٣٤٥هـ)، وقد أدخل إليه الشيخ أحمد شيئاً من الانتظام، وهو يجتهد في ترقيته، وفقه الله تعالى».

(٢) المدرسة المنصوريَّة: أنشأها العالم الزاهد الشيخ منصور بن مصطفى السرميني المتوفى سنة ١٢٠٧ عن ٧١ عاماً، في محلة الفرافرة، مبنىً ضخماً يضمُّ مسجداً ومدرسة وزاوية ومكتباً لتعليم الأطفال ومكتبة كانت عامرة تبعثرت فيها بعد وضاع معظمها. ينظر: «إعلام النبلاء» ٧: ١٤٠-١٤٢، و«نهر الذهب» ٢: ١٤٢.

الحكومة مدرسة ابتدائية، ونلت شهادتها سنة ١٣٠٦ ـ كما ذكرت ذلك جريدة الفرات[1] الرسميَّة في عدد ١٠٢٣.

وفي شهر ذي القعدة سنة (١٣٠٧هـ)، ذهبت مع والدي إلى الحجاز الشريف، وعدنا في جمادى الأولى سنة (١٣٠٨هـ)[2].

وعدتُ إلى مُعَاطاة التجارة عند والدي إلا أني صِرْتُ أتَـرَدَّد إلى المدرسة الشعبانية[3]، فحفظتُ «الآجرُّوميَّة» في النَّحو، و«الجوهرة» في التوحيد، و«إيساغوجي» في المنطق، وشيئاً من «الألفية» لابن مالك، وقرأتُ «الفصول الفكرية» في النحو[4] على

(١) أُسِّست هذه الجريدة في حلب الشهباء سنة ١٢٨٤ في أيام واليها جودت باشا. كما في «إعلام النبلاء» ٧: ٥٠١ في ترجمة العلامة الشيخ محمد طاهر العيَّاشي مفتي إدلب المتوفى سنة ١٣٢٤. وقال الطباخ في «إعلام النبلاء» ٧: ٦٢٠ في ترجمة صديقه محمد الحنيفي المتوفى بجدة سنة ١٣٤٢: «لمعرفته باللغة التركية، وكان قد تعلمها من المكتب العسكري، عُيِّن مترجماً لجريدة الفرات الرسمية التي تصدر باللغتين العربية والتركية».

(٢) قال الطباخ في ترجمة عمِّه عبد السلام الطباخ المتوفَّى بمكة في ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٠٨هـ عن ٦٨ سنة: «ولما عدت من مكة مع سيِّدي الوالد إلى حلب، وذلك في ربيع الأول سنة ١٣٠٨، كان سيدي العم معنا، ونزلنا جميعاً في جدة، وقعدنا فيها ٤٥ يوماً ننتظر مجيء سفينة تقلّنا إلى بيروت أو الإسكندرونة».

(٣) التي بناها شعبان آغا بن أحمد آغا المأمور بتحصيل الأموال في حلب. وينظر كلام الطباخ عن هذه المدرسة في ترجمته لمفتي حلب ومتولي وقف المدرسة الشعبانيَّة الشيخ أحمد الزويتيني المتوفى سنة ١٣١٦ عن ٧٠ سنة في «إعلام النبلاء»: ٧: ٤٣٨-٤٤١. ولا زالت هذه المدرسة من أعمر مدارس حلب.

(٤) كتاب «الفصول الفكريَّة للمكاتب المصريَّة» تأليف عبد الله فكري، طبع سنة ١٣٠٧ في ٣٦ صفحة بالمطبعة العامرة الشرفية. وعبد الله فكري باشا بن محمد بليغ وزير مصري من المتأدِّبين، وكان ناظراً للمعارف المصرية، ورئيساً للوفد العلمي المصري في مؤتمر استوكهلم توفي بالقاهرة سنة ١٣٠٦ عن ٥٦ عاماً.

ابن خالي الشيخ محمد بن محمد كِلْزِيَّة، وكان مجاوراً في المدرسة المذكورة، وهو لم يزل في عِدَاد الأحياء وهو في سنّ الثمانين[١].

وقرأت «شرح الآجرُّوميَّة» للسيِّد الدَّحلاني على الفاضل الشيخ خالد الجزماتي[٢]، وكان أيضاً مجاوراً في المدرسة المذكورة.

وفي ربيع الثاني من سنة ١٣٠٩ تُوفي والدي[٣] إلى رحمة الله وعفوه فتركت التَّرَدُّد إلى المدرسة.

وفي غرَّة رمضان من سنة ١٣١٠ توجَّهت والدتي إلى الحجاز الشريف، صحبةَ أخي الحاج بشير، وأوصتني بالعَوْد إلى طلب العلم، فعملتُ بما أشارت به، وعدتُ إلى طلب العلم مع الاشتغال بالتجارة.

وأخذتُ في حفظ المتون، فأكملت حفظ أحد عشر متناً منها: «الألفية» بتمامها، وأخذت في الحضور على فضلاء العصر، وآخر من قرأت عليه: الفقيه الكبير الشيخ محمد أفندي الزرقا إلى سنة ١٣٢٧ ففيها تركت الحضور، واكتفيت بالمطالعة ودأبت عليها.

وسبب تركي الحضور: أنه قبل ذلك بسنتين، أُعلن الدستور العثماني، وتألفت في البلاد العثمانية، جمعية الاتحاد والترقِّي، وفي جملتها حلب، فانتظمت فيها مع بعض الإخوان، وأخذنا في السعي في إصلاح بعض الأمور، وخصوصاً المعارف، وعيِّنت

---

(١) قال في ترجمته الذاتية الرابعة التي كتبها للصنيع: توفي في هذه السنة (١٣٦٦)، وهو آخر مشايخي موتاً رحم الله جميعهم.

(٢) تُوفِّي سنة (١٣٥٧) رحمه الله تعالى.

(٣) في يوم الجمعة ٩ من شهر ربيع الآخر، عن ٦٣ سنة. وقد ترجم له ترجمة وافية في «إعلام النبلاء» ٧: ٤٠٥-٤٠٨.

وقتئذ في مجلس المعارف، وتوفقت مع بعض أعضائه لإدخال اللغة العربية في المكاتب الابتدائية بعد عناء كثير، ولا زال صورة ذلك القرار محفوظاً عندي باللغة التركية، وهو مؤرخ في ١٦ كانون الأول سنة ١٣٢٦ رومية.

ولم أقف عند هذا الحدّ، بل صرت أنا والأديب الفاضل السيد بدر الدين النعساني[1] نكتب المقالات المتعدِّدة في الجرائد، ونُبيِّن فيها حالةَ اللغة في المدرسة التَّجهيزيَّة السلطانيَّة، وكان لهذه المقالات تأثير عظيم، وكانت سبباً لتعيين السيد المذكور أستاذاً لِلُّغة العربية في المدرسة المذكورة.

وفي سنة ١٣٢٣: صرتُ أكاتب الجرائد، وخصوصًا جريدة «الاتحاد العثماني»، التي كانت تصدر في بيروت لصاحبها المرحوم أحمد حسن طبارة، وأنشر فيها بعض المقالات.

وفي سنة ١٣٢٢: نشرت منظومَتَي العلامة محمد بن الحسن الكواكبي في الأصول والفروع مع شرحيها للناظم، وكان نشري لهذين الكتابين سبباً لتأليفي تاريخ حلب، وقد ابتدأت في تأليفه سنة ١٣٢٣، وختمته تأليفاً وطبعاً في مطبعتي العلمية سنة ١٣٤٥هـ. وهو في ٧ مجلدات كبار، وذكرت في آخره المصادر وهي تزيد عن خمس مئة ما بين مخطوط ومطبوع وعربي وغير عربي.

وفي سنة ١٣٣٤: انتُخِبت عضواً لغرفة تجارة حلب، ولما انتهَت مدّة الانتخاب، وهي ست سنوات، انتُخِبتُ مرّة ثانية، وبقيت إلى سنة ١٣٤٣.

في سنة ١٣٣٧: عُيِّنتُ عضواً لدائرة الأوقاف، وكان المدير وقتئذ مرعي باشا

---

(١) توفي هذا المفكِّر، كبير الأدباء والكتَّاب في حلب في شهر ذي القعدة، سنة ١٣٦١هـ (الطباخ)، وقد نقل الطباخ من كتابه: «التعليم والإرشاد» في كتابه «الثقافة الإسلامية» ص١٥٣.

الملاح[١]، غير أني لم ألبَث أن اسْتَعفيت منها، وكانت مدّتي فيها أقلّ من سنة.

ثم انتُخِبت إليها مرة ثانيةً، وذلك في سنة ١٣٤٠هـ و١٩٢١م.

وفي أثناء ذلك وفَّقَني الله لافتتاح المدرسة الخُسرويَّة العلمية، وتنظيم برنامجها، وشارَكَني في تلك المساعي الأستاذ المرحوم الشيخ محمد الحَنيفي[٢]، وقد تكلَّمت على ذلك في الجزء الثالث من التاريخ، في الكلام على المدرسة الخُسرويَّة[٣].

وفي ربيع الثاني من سنة ١٣٤٠، وكانون الأول سنة ١٩٢٢: انتُخِبتُ عضواً لمجلس الأوقاف الأعلى الذي انعقد في دمشق للمرّة الأولى.

والغرضُ من انعقاده: النّظرُ في الموادّ التي وضعت لنظام الأوقاف الإسلامية وتحويرها، وزيادة ما يقتضي زيادته عليها، والنظر في الميزانية العامة لكلٍّ ولاية من ولايات دمشق وحلب وبيروت واللاذقية.

وانصرفَتْ همّتي لوضع مواد تتعلّق بإصلاح المدارس العلمية، وغير ذلك.

---

(١) مرعي باشا الملاح، المتوفى سنة ١٩٣٠ عن ٧٤ عاماً، من خيرة وجهاء حلب، تلقى العلم عن شيوخ بلده، وتخرج في المعهد السلطاني بالأستانة، وتولى عدداً من المناصب؛ آخرها: حاكم دولة حلب العام.

(٢) قال الطباخ في ترجمته ٧: ٦٢١: «وقد كان لي الصديق المخلص والخِلّ الوفي، يُفضي كل واحد منا إلى الآخر بمكنونات قلبه، ويطلعه على مخزونات سره. ولما فتحت المدرسة الخسرويَّة وعُيِّنت لدرس التاريخ وغيره فيها، كنت أذاكره في شؤون المدرسة وما يعود بالصلاح عليها، وما أسرع اتفاقنا على ما يلزم عمله، ولعلنا لم نختلف يوماً قط، وكأن الرأيين خرجا من قلب واحد. وكنا ـ بعد الاتفاق ـ نسعى في إبراز ذلك إلى حيز العمل».

(٣) المدرسة الخسرويَّة: نسبة إلى بانيها خُسرو باشا والي حلب، الذي أمر عتيقه فروخ كيخيا المتوفى سنة ٩٦٩ أن ينشئ له بحلب جامعاً وتكية، وأتم عمارتها سنة ٩٥١. ينظر: «إعلام النبلاء» ٣: ١٤٨-١٤٩

وفي سنة ١٣٣٧: عُيِّنتُ مدرِّساً للغة العربية، والإنشاء، والعلوم الدينيّة، في مدرسة (شمس المعارف الأهلية)؛ التي سُمِّيت بعد ذلك بـ(الكلية الفاروقية التجهيزية)، ومديرها وصاحبها السيد عبد الغفور أفندي المسوتي، وبقيتُ فيها إلى سنة ١٣٤٩هـ و١٩٣١م، ثم تركتها لإلغاء الصفوف العالية فيها لأسباب مالية وغيرها.

وحينما افتُتِحت المدرسة الخسرويَّة ـ بالتاريخ المتقدّم، وهو سنة ١٣٤٠هـ و١٩٢١م، أو قبل ذلك بقليل ـ عُيِّنتُ لتدريس السّيرة النبويَّة والأخلاق.

وفي سنة ١٣٤٢ أُضيف لي إلى ذلك درس التفسير والحديث في بعض الصفوف، ثم خُصِّصت سنة ١٣٤٣ بتدريس الحديث النبوي في الصفوف التي يدرس فيها الحديث وعلومه.

ولا أزال إلى الآن في تدريس التاريخ والحديث وعلومه.

وفي العام الماضي وهو سنة ١٣٦١ زيد في علوم المدرسة (الثقافة الإسلامية) فعيِّنت لهذا الدرس، ولعدم وجود كتاب خاصٍّ في هذا الفن، شرعت في وضع كتاب بهذا الاسم، سرت فيه على مقتضى الخطة التي رسمت في برنامج تدريس المدارس العلمية في الجمهورية السورية، ولا زلت أكتب فيه، وفقني الله لإتمامه[1].

---

(١) قال الطباخ في آخر كتاب «الثقافة الإسلامية» ص٤٠٧: «تمَّ تأليفه عصر يوم الجمعة الموافق للرابع من شهر ذي القعدة، سنة ١٣٦٣هـ، والعشرين من شهر تشرين الأول، سنة ١٩٤٤م. وتمَّ طبعه يوم الأحد الموافق للعاشر من شهر ربيع الثاني، سنة ١٣٦٩هـ والتاسع والعشرين من شهر كانون الثاني، سنة ١٩٥٠م. وزِيد فيه بين المدتين زيادات مفيدة قيِّمة، وبالله التوفيق».
وقال الشيخ الطباخ في التعريف بهذا الكتاب في آخر كتابه «ذو القرنين»: (الثقافة الإسلامية) هو في مجلد واحد في ٣٥٠ صحيفة، افتتح ببحث لغوي يستنتج منه تعريف الثقافة، ثم بمواقع بلاد العرب، ثم بالديانات والمعتقدات الباطلة التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، ثم بعاداتها الفاسدة وخرافاتها، ثم بعلاقات العرب مع الممالك المجاورة لها في السياسة والدين، ثم بظهور الإسلام ونزول القرآن، وكيف كان ينزل، ثم جمعه وترتيبه، ثم بأسلوبه وإعجازه، =

وفي سنة ١٣٤١هـ وسنة ١٩٢٣م؛ عُيِّنتُ عضواً للمجمع العلمي العربي في دمشق مع الأعضاء الذين عيِّنوا له وهم عشرة أشخاص، والباقي في عداد الأحياء

= ثم برسمه، ثم بمواضيع القرآن العظيم ومقاصده، ثم ببحث التفسير وأحسن طرقه، ثم بطبقات المفسرين وأشهرهم، ثم بالكلام على ٤٠ تفسيراً من التفاسير القديمة إلى زمننا مع الإشارة إلى مطبوعها ومخطوطها وفي أيِّ مكتبة هو؟ ثم بأثر القرآن في الثقافة الإسلامية والثقافة العربية.

ثم بحث الحديث: أقسامه، مواضيعه، مقاصده، جمعه، أشهر كتب السنة في القرن الثاني والثالث والرابع والخامس، وأشهر الحفاظ من القرن الأول إلى غاية العاشر وغير ذلك من الأبحاث.

ثم علم أصول الحديث: أشهر المؤلفين في الحديث وعلومه، ثم أشهر شراح الكتب الستة وغيرها.

أثر الحديث في الثقافة الإسلامية والثقافة العربية.

ثم العلوم التي سبّبها الإسلام: أصول الفقه، علوم الفقه، تفاوت الأئمة الأربعة في الإكثار من الحديث وقِلّته، وأشهر أصحاب الأئمة الأربعة، أشهر الفقهاء من المذاهب الأربعة من القرن الثاني إلى العاشر. البلاد التي انتشرت فيها المذاهب الأربعة قديماً وأسباب ذلك، انتشار هذه المذاهب الآن، التوحيد ويسمى علم الكلام، التصوف، زيادة في بيان الصوفية وأحوالهم، أثر التصوف في الإسلام.

العلوم الأدبية، علم النحو، التصريف، الاشتقاق، البلاغة، آداب البحث، الجدل، التاريخ، مؤرِّخو الإسلام والنواحي التي طرقوها، طبقات الرجال، فوائد التاريخ، أشهر المؤلفين في التاريخ والطبقات.

بدء الترجمة، كثرتها زمن المأمون، سبب ذلك. تتمة وزيادة بيان في حركة النقل والترجمة، النهضة الفكرية أيام بني أمية و بني العباس. زيادة بيان في هذا البحث والذي قبله.

الحياة السياسية زمن الأمويين والعباسيين. رقود الحركة الفكرية ويقظتها الأخيرة. حالة اللغة العربية وأدبها في البلاد العربية في هذا العصر. هذا مجمل أبحاث هذا الكتاب، ومجموعةُ تبيان وتفسير لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وتفصيل لقوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فهو يبسط تلك الظلمة التي كانت العرب والناس تتخبّط في دياجيرها قبل الإسلام، ويبيّن لنا ذلك النور الذي صارت العرب والناس إليه، وتجلّت لنا محاسنه وعظمته». انتهى.

من هؤلاء العشرة: كاتب هذه السطور، والشيخ عبد الحميد أفندي الجابري، ومفتي حلب الشيخ عبد الحميد الكيالي.

ولي في مجلّة المجمع كتابات كثيرة، لو جُرِّدت لبلغت نصف مجلد.

وفي سنة ١٣٥٠: عُيِّنت عضواً في دار الأيتام الإسلامية، وبقيت سنة وأشهراً، ولما جدّد الانتخاب سنة ١٣٥٢ رجوت الإخوانَ واعتذرتُ لهم بكثرة أشغالي؛ فقبلوا عذري.

وفي سنة ١٣٥٣: جُدِّدَ الانتخاب فانتخبت للمرة الثانية، وبقيتُ إلى سنة ١٣٥٦، ثمّ لما جُدّد الانتخاب، اعتذرت لهم بكثرة أشغالي العامة والخاصة، فقُبِلَ عذري.

وفي سنة ١٣٤١ و١٩٢٢: أسّست مطبعة دعوتها (المطبعة العلمية)، وطبعتُ فيها عشرة كتب من مؤلفاتي ما بين كبير وصغير. وأخصُّ بالذكر منها تاريخي: «**إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**» ولا زال عدّة كتب من تأليفي لم تطبع بعد، أخصُّ منها: «**ذو القرنين والسد. من هو؟ وأين هو؟**».

ونشرت من الكتب القديمة في علم الحديث والفقه والأدب والتاريخ والدواوين وغير ذلك ستة وعشرين كتاباً.

وآخر ما نشرته: «معالم السنن» للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨، وهو شرح لـ«سنن الإمام أبي داود السجستاني»، أحد الكتب الستة، وهو في أربعة أجزاء. وهذا الشرح ـ على ما أعلم ـ أقدم شرح لكتب الحديث»، إذ قد مضى عليه نحو ألف سنة.

واستنسختُ بخط يدي كثيراً من الكتب القديمة تبلغ آلافاً من الصحائف،

ويعض الكتب التي نشرتها هي مستنسخة بخطي عن أصلها.

وصحَّحت كثيراً من الكتب التي طبعت في مطبعتي ويطول تعداد ذلك.

وفي سنة ١٣٥٤: عيِّنت عضواً في جمعية إحياء المعارف النعمانية في الهند، وعلى إثر تعييني، أرسلت لي الجمعية الجزء الأول من «مبسوط» السَّرَخْسي في الفقه الحنفي؛ لتصحيحه على الجزء الموجود في مكتبة الأحمديَّة بحلب، المعنون فيها بكتاب الإمام محمد، وهو جزء من مبسوط.

واستنسخ بواسطتي كثير من الكتب، أرسلت إلى مصر والهند ودمشق والحجاز ويطول تعدادها. وأخصُّ بالذكر منها: «ذيل القطب اليونيني» الموجود في مكتبة الأحمديَّة، فإنه استنسخ للمستشرق د. س. مرجليوث في لندن، في جامعة أكسفورد.

وفي سنة ١٣٥٥هـ ١٩٣٦ م: عُيِّنتُ عضواً في جمعية عاديات حلب، وعلى إثر ذلك قام معظم أعضائها برحلة إلى مسكنه (بالس) فالرصافة فالرقة، وبعد حضورنا بأيام كتبتُ مقالة عن هذه الرحلة نُشِرَت في مجلة «العاديات».

وفي سنة ١٣٥٥، وكانون الثاني ١٩٣٧: عُيِّنتُ مديراً للمدارس العلمية الدينيّة، ومقرُّ إدارتها المدرسة الخسرويَّة، ولم أزل مديراً لها إلى كتابة هذه السطور.

وفي صفر سنة ١٣٥٦: عُيِّنت رئيساً لجمعية (البر والأخلاق الإسلامية)، وساعدني في تأسيس ناديها وتنظيمه الفاضلان الأديبان: الشيخ مصطفى الزرقا، وهو نائب الرئيس، والشيخ معروف الدواليبي وهو أمين السر، وغيرهما من أعضاء الجمعية.

وفي سنة ١٣٥٧ وسنة ١٩٣٨: انتُدبت لحضور مؤتمر العلماء الذي انعقد بدمشق

في المدرسة الكاملية، وكان توجُّهي مع زمرة من علماء حلب، وقُرِّرَ في هذا المؤتمر ١٥ قراراً تتعلّق بالأوقاف والقضاء الشرعي، وإصلاح المدارس الدينيَّة، وغير ذلك.

وقد نُشرت هذه القرارات في الصحف، وفي كتاب خاصّ.

حلب في ٨ ذي الحجة ١٣٦٢هـ
في ٥ كانون الأول ١٩٤٣م

كتبه
محمد راغب بن الحاج محمود بن
الشيخ هاشم الطباخ

* * *

ترجمة كاتب چلبي مع اختصار[1]

قال النّاشر: لا شكّ أنّ «كاتب چلبي» وبعنوانه الآخر «حاجي خليفة» ممَّن ازدان بهم الزّمان، وشرُف بهم المكان، وإغفال ترجمته من صاحب «خلاصة الأثر» مع أنّه نابغة القرن الحادي عشر مما يقضي بالعجب ويستنكر.

ولكن من حُسْن الحظّ أنّه كتب بنفسه أوائل ترجمته في آخر القسم الأول من كتابه «سلّم الوصول إلى طبقات الفحول»[2] وهاك بنصّه العربي:

وهو العبد الفقير إلى رحمة ربّه القدير مصطفى بن عبد الله القسطنطيني المولد والمنشأ، الحنفي المذهب، الإشراقي المشرب (وبعد أن ذكر من ترجم نفسه في مؤلفاته) قال: ولدت سنة ١٠١٧هـ وكان والدي عبد الله دخل الحرم السّلطاني، وخرج بالوظيفة المعتادة ملحقاً إلى الزّمرة السّلحداريّة. ولمّا بلغ سنّي إلى خمس أو ست عَيَّنَ لي معلماً لتعليم القرآن والتّجويد، ثمّ ابتدأت قراءة التّصريف والعوامل على الإمام إلياس خوجه، وتعلّمت الخطّ من الخطّاط المعروف ببوكري أحمد چلبي، ولمّا بلغ سنّي إلى أربعة عشر أعطاني أبي من وظيفته كلّ يوم عشرة دراهم، وألحقني بزمرته، وجعلني تلميذاً في القلم المعروف بمحاسبة أناطولي من أقلام الديوان.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزآن ٣ و٤ من المجلد التّاسع عشر: لعام (١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م).

(٢) نسخة المؤلف موجودة في مكتبة شهيد علي باشا تحت رقم ٧٧٨١ وهي بخطّه الجميل. انتهى من الأصل (الطباخ). وقد طبع هذا الكتاب «سلَّم الوصول»، وينظر (٣ :٤٤٧-٤٤٨) من طبعة إستانبول. وله طبعة مصرية بتحقيق محمد حرب.

ثم سافرت سَفْرةَ بغداد مع والدي، وقاسيتُ الشّدائد في المحاصرة مدّة تسعة أشهر من الحرب والقتال، ولمّا رجعنا ميؤوسين، ودخلنا الموصل مات والدي سنة خمس وثلاثين وألف، ودفن في مقابر الجامع الكبير.

وكتب القسم الأخير من ترجمته في آخر تأليفاته القيمة، وهو كتاب «ميزان الحقّ في اختيار الأحقّ»، وتعريبه ما يأتي:

وبعد أن عاد من محاصرة أرزن الروم (أرض الرّوم) إلى الأستانة سنة ١٠٣٨هـ مع العساكر، قصد جامع السّلطان محمد الفاتح يوماً، فرأى الشّيخ محمد بن مصطفى الباليكسري، يلقي الدّرس فيه، وكان عالماً طَلْقَ اللسان، فاجْتذبه سحر بيانه إلى طلب العلم، وانضمّ إليه وصية والده له بالطلب، فجدّد المقدِّمات وأعادها، فحصل الملَكَة التامَّة في زمن يسير، (وبعد أن عدّد ما قرأ)، قال:

وفي سنة ١٠٤٣هـ سافر مع الوزير الأعظم محمد باشا إلى مشتى حلب، وحجّ إبان ذلك، وبعد أن حجَّ وزار، لحق بالجيش في ديار بكر، ثمّ سافر مع السّلطان مراد الرّابع سنة ١٠٤٤هـ إلى روان، ورجع إلى إسطنبول سنة ١٠٤٥هـ فحينئذ صمّم العزم وأقبل إقبالاً تامّا على العلم والمطالعة، فشرع في إتمام المهمة التي كان ابتدأها في حلب، وهي مهمة تدوين أسماء الكتب التي ألهمه الله إيَّاها حتى اشتغل بها مدّة إقامته بحلب.

وكان يكتب أسماء الكتب التي يجدها عند الورّاقين الكتبيين، وفي خزانات الكتب بها. وكان يُنقّب عن الكتب ولاسيما كتب التّاريخ والطّبقات والوَفَيَات في خزانات الكتب بالأستانة، ويقْتني المؤلفات، وساعَدَه في ذلك أموال وَرِثها من بعض قرابته سنة ١٠٤٧هـ، حتى صرف لشراء الكتب نحو ثلاث مئة ألف عثماني، ولم يشارك الجيش في الحروب بعد حرب «روان» مفضِّلاً الإقامة والاشتغال بالعلم على الرّحيل مع الجيش.

(وبعد أن ذكر مَنْ لازمه بعد ذلك من العلماء وما قرأه عليهم قال): وكتب سنة ١٠٥١هـ تاريخ مئة وخمسين من ملوك الدّول، وسمّاه «الفذلكة»، وأراد شيخ الإسلام يحيى أفندي أن يقدِّمها إلى السلطان إبراهيم الأول بعد تبييضها، ولكنّه ما احتفل به وما بيّضه.

وفي سنة ١٠٥٣هـ وسنة ١٠٥٤هـ اشتغل بالعلم وإلقاء الدّروس على الطّلبة، ومطالعة الكتب والتّعمّق في الفنون، وداوم على هذا الحال مدة عشر سنين، لا ينام في بعض الليالي حرصاً على كتاب حتى يطلع الفجر. كان دأبه في العلم إرجاع الكثرة إلى الوحدة المطلقة وإحاطة الكليات، وضبط الأصول.

وفي سنة ١٠٥٥هـ بمناسبة حرب جزيرة أقريطش اشتغل بعلم تخطيط الأرض ورسمها (الخرائط)، وطالع الرّسائل المتعلّقة به.

وفي هذه الأيّام ترك الخدمة الرّسميّة، وحادَ عنها، ووقع بينه وبين مقابله باشي خليفة سي نزاع ببخس حقوقه الرّسمية، فانكبّ على إلقاء الدّروس بالكليّة، وتأليف الكتب مدّة ثلاث سنين، وكان يدرس علم الصّرف والمنطق والنّحو والمعاني والفرائض والفقه والحكمة والكلام والطبّ والهيئة، وشرح في تلك السّنين كتاب «محمدية» لعلي قوشجي في الهيئة إلى نحو نصفه، وألف «تقويم التّواريخ» مجدولاً في شهرين[١]، أرسله في سنة ١٠٥٨هـ لشيخ الإسلام عبد الرحيم أفندي إلى الوزير الأعظم فوجه محمد باشا.

وفي سنة ١٠٦١هـ و١٠٦٢هـ بيّض المجلّد الأوّل من كتابه: «سلّم الوصول إلى طبقات الفحول»، وعام ١٠٦٣هـ بيّض كتابه: «تحفة الأخبار في الحكم والأمثال والأشعار» إلى حرف الجيم، ووضع أسامي الكتب والفنون التي رآها منذ عشرين سنة

---

(١) منه نسخة في الأحمدية بحلب تحت رقم ١٢٤٠ (الطباخ).

في كتب العلوم والتّواريخ وطبقات العلماء والمكتبات، وعند الكتبيين وسائر مظانّها بترتيب الحروف في مواضعها.

ولا يخفى على أحد أنّ من أهمّ العلوم: علم أحوال الكتب، فإنّه أول مرحلة من مراحل البحث والتّنقيب، ومَنْ لا يعلم ما أُلّف من الكتب في أيٍّ موضوع كان، يطول عليه أمد بحثه بدون أن يحصل منه على طائل. وعلم موضوعات العلوم من أنفع الوسائل وأجداها لأنّ من يعرف الموضوع إجمالاً تحصل منه البصيرة.

وسمّاه: بـ«**كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون**»، وألّف فيه جهان نما، وبيَّن فيه الممالك التي بيد النّصارى[١]، وترجم له من اللغة اللاتينيّة الشّيخ محمد الإخلاصي الرّاهب الإفرنسي الذي هداه الله تعالى إلى الإسلام كتاب أطلس مينور سمّاه بـ: «لوامع النّور»، وترجم التّاريخ الإفرنكي، تاريخ ملوك النّصارى وتاريخ قسطنطينية سمّاه بـ: «رونق السّلطنة»، وألّف في نظم الدّولة رسالته المسمّاة بـ: «دستور العمل لإصلاح الخلل»، وجمع في سنة ١٠٦٤هـ و١٠٦٥هـ فتاوى ومسائل غريبة سمّاه بـ: «رجم الرّجيم بالسّين والجيم». وكتب في سنة ١٠٦٦هـ كتابه المسمّى بـ: «تحفة الكبار في أسفار البحار»[٢].

وله «الإلهام المقدّس من الفيض الأقدس في حكم فاقد وقت العشاء من الأقاليم»، وكتب سنة ١٠٦٧هـ التي تُوفي فيها آخر مؤلفاته وهو «ميزان الحق في اختيار الأحقّ»[٣].

وله مجموعة فيها فوائد فقهية وتاريخيّة وبعض التّراجم وغيره، وهي باللغة العربيّة

---

(١) منه نسخة مطبوعة قديمًا في هذه المكتبة تحت رقم ١٢٥٢ (الطباخ).

(٢) منه نسخة في هذه المكتبة تحت رقم ١٢٣٣ أظنّ أنها مما طبع قديمًا (الطباخ).

(٣) قال الكوثري في «مقالاته» ص٤٨٠: رسالة نافعة فيما يجب الأخذ به في أمور يحتدم فيها الجدال، وفي آخره ترجم لنفسه كما فعل في «سلّم الوصول».

موجودة بمكتبة نور عثمانية، تحت عدد ٤٩٤٩ وعدد أوراقها ٢٥٢ ونصفها بياض.

ذكر صاحب «معيار الدول ومسبار الملل» في آخر كتابه: أنّه مات فجأة عن خمسين سنة ـ رحمه الله رحمة واسعة[1] ـ. انتهى.

وفي آخر هذا المجلّد (الأول من كشف الظّنون) ٢٤ صحيفة باللغة التّركيّة وبالحرف اللاتيني، هي مقدمة للنّاشرين، وترجمة للمؤلف، ويغلب على الظّن أنّ هناك زيادات عمّا هنا.

وأظنّ أنّ هذا المجلّد لم يصل بعد إلى مكتبة المجمع العلمي، وآمل متى وصل أن يكتب عنه أحد الزّملاء كلمة أخرى تزيدنا علماً بالمؤلِّف والمؤلَّف.

وأرى تسهيلاً للمطالعين والباحثين أنّ هذا الكتاب بعد أن يتمّ طبعه مع ذيوله التي تقدّم ذكرها أن يرتَّب على شكل آخر اختصاراً للوقت وللمراجعة، بأن يذكر العلم، وموضوعه، وأبحاثه، وتطوراته، كالأصل، ثم تذكر كتب هذا العلم مرتَّبة على الحروف وهكذا.

وبذلك يختصر وقت طويل، ويعلم مقدار ما ألّف في هذا الفنّ وتطوّراته في كل عصر. وما أعظم هذه الفوائد، والله الموفق.

حلب

محمد راغب الطباخ

---

(١) توفي في ١٥ من ذي الحجة سنة ١٠٦٧هـ ودفن في ساحة الكتاب المنسوب إليه، وقبره معروف إلى اليوم، وهو قريب من جامع شاه زاده، على الشارع العام. وتنظر ترجمته في «مقالات الكوثري» ص ٤٧٥-٤٨١ بعنوان: ترجمة كاتب جلبي مؤلف كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون.

آراء وأنباء

ترجمة مفقودة(١)

هذه الترجمة هي ترجمة عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، مؤلف التفسير الكبير العظيم المسمَّى: (اللباب في علم الكتاب) ذكره صاحب «الكشف»، وقال: إنه في ستة مجلدات، وهو تفسير مشهور، ولم يذكر تاريخ وفاة مؤلفه، وكناه: أبا حفص(٢).

وفي الأحمديَّة بحلب من هذا التفسير أربعة أجزاء:

١ ـ تحت رقم ٩٤، وهو من الأول إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٠٣]. قال في آخره: جمعه وعلقه لنفسه عمر بن علي بن عادل النُّعماني منشأً(٣)، الحنبلي مذهباً. حرَّره عبد الرحيم بن عبد الباسط السلموني الحنفي سنة ٩٦٥.

٢ ـ تحت رقم ٩٦ من تفسير سورة المائدة إلى آخر الأعراف، ولا تاريخ لكتابته.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد العشرون: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م). وينظر: «الثقافة الإسلامية» للطباخ ص١٤٤-١٤٥.

(٢) تفرد صاحب «السحب الوابلة» فكناه بأبي الحسن ولم يذكر غيرها!!

(٣) لعلها نسبة إلى مذهب الإمام أبي حنيفة، النعمان بن ثابت، فيكون نشأ حنفيًّا، وتحول إلى المذهب الحنبلي، لكن الذي في النسخة الأحمدية في الصفحة الأخيرة من الجزء الأول [الورقة٢٩٧/ آ] أنه: (النعماني نسباً، الحنبلي مذهباً)، وكذلك أيضا جاء في غلاف الجزء الثالث من نسخة تشستربتي [الورقة ١/ ب] أنه: (النعماني نسباً، الحنبلي مذهباً).
وعليه فتكون هذه النسبة إلى النعمان بن بشير رضي الله عنه، وهذا مايرجح أن ولادته كانت بدمشق، وأصله خزرجي من بلاد الحجاز، والله أعلم.

٣ ـ تحت رقم ٩٥ أوله: سورة النساء وبعض سورة المائدة، محرر عليه الجزء الثاني، ولا تاريخ لكتابته أيضاً.

٤ ـ تحت رقم ٩٦ أيضاً أوله: سورة التغابن إلى آخر القرآن.

قال في آخره: كان الفراغ من كتابته سنة ست وسبعين وثمان مئة، وهو ينقل كثيراً عن تفسير القرطبي، وأبي حيان المتوفى سنة ٧٤٥[١] فعلمت أنه من أهل القرن الثامن أو التاسع[٢].

---

(١) اعتمد ابن عادل في تفسيره الكبير على أربع تفاسير بشكل رئيسي، وهي:
١ـ معالم التنـزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (٥١٦هـ).
٢ـ مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير للإمام محمد بن عمر الرازي (٦٠٦هـ).
٣ـ الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ).
٤ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف، السمين الحلبي (٧٥٦هـ).
فأما طريقة النقل عنهم فإنه سبك كتاب «الدر المصون» للسمين الحلبي بأكمله في تفسيره، حتى أنه يمكن اعتبار «اللباب» نسخة مخطوطة إضافية للدر المصون، وأما نقله عن القرطبي فإنه ينقل عنه المسائل الفقهية مختصراً لها غالباً وبعض المسائل اللغوية، وأما نقله عن الرازي فلو جرد ما نقله ابن عادل من اللباب لخرجنا بتفسير مختصر للرازي فيه أهم مسائل وقضايا تفسير الرازي، وأما البغوي فغالباً ما ينقل عنه الروايات الحديثية والأقوال المأثورة، وأما الخازن فينقل عنه غالباً ما يتعلق بخصائص السورة كعدد الآيات وعدد أحرف السورة وهكذا.
ولكن هذا لا يعني أنه لم ينقل عن غيرها، فقد نقل عن «لباب التأويل في معاني التنزيل» للإمام علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن (٧٢٥هـ)، وعن تفسير القرآن العظيم للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ).
وقد طبعت دار الكتب العلمية الكتاب في عشرين مجلداً، بتحقيق عادل أحمد عبد الموجود علي محمد معوض سنة ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م، كما حُقق الكتاب في خمس وعشرين رسالة علمية في كلية أصول الدين بجامعة أم درمان فرع دمشق، قسم الدراسات العليا في التفسير وعلوم القرآن، وكان صاحب الفكرة في تحقيقه في رسائل علمية الدكتور نور الدين عتر.

(٢) سيأتي استبعاد الطباخ أن يكون ابن عادل من رجال القرن التاسع كما في كتابه: «الثقافة الإسلامية».

وراجعت «الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد» وهو مخطوط عندي، استنسخته عن نسخة في الأحمدية، وهو للعلامة الشيخ عبد الرحمن العليمي المتوفى سنة ٩٢٧هـ اختصره من طبقاته الكبرى المسمّاة بـ«المنهج الأحمد» كما قال في أوله، وآخر ترجمة فيه ترجمة شيخه محمد بن محمد بن خالد السعدي المصري المتوفى سنة ٩٠٢هـ فلم أجد فيه شيئاً.

وراجعت «مختصر طبقات الحنابلة» للكمال الغزي المتوفى سنة ١٢١٤ ومختصره لصديقنا الشيخ جميل الشطي المطبوع بدمشق سنة ١٣٣٩ فلم أجد فيه شيئاً.

وفي رحلتي إلى دمشق سنة ١٣٦٣ راجعت «المنهج الأحمد» الذي هو في مكتبة المجمع العلمي في أربع مجلدات كبار المأخوذ بالمصوّر الشمسي عن نسخة في خزانة أحمد تيمور باشا الذي قال عنه في مقالته «نوادر المخطوطات»: أنه أجمع كتاب فيها، منه نسخة وحيدة في خزانتنا، كذلك لم أر شيئاً.

وقد وجدت ترجمة عمر بن علي بن عادل الحنبلي في «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» للشيخ محمد بن حميد النجدي مفتي الحنابلة بمكة المشرفة[1]. قال:

«عمر بن علي سراج الدين أبو الحسن بن عادل، مؤلف التفسير العديم النظير، وله حاشية على «المحرر في الفقه» لم أجد له ترجمة في «الدرر الكامنة»، ولا في «الضوء اللامع»، وهو من رجال أحدهما بلا شك، وأظنه ينقل عن أبي حيان في التفسير بـ: قال شيخنا[2]،

---

(١) أرشده إلى هذه الترجمة الوجيه المفضال محمد نصيف كما صرَّح الطباخ في كتابه «الثقافة الإسلامية» ص ١٤٤

(٢) لم ينقل ابن عادل عن أبي حيان بـ: «قال شيخنا»، بل ينقل عنه بـ: قال أبو حيان، وعلى فرض صحة كلام ابن حميد في «السحب الوابلة»؛ فإن هذه العبارة (قال شيخنا) هي عبارة «الدر المصون»؛ لأن السمين الحلبي ينقل عن شيخه أبي حيان بـ: «قال شيخنا»، وابن عادل ينقل =

وروى عنه التقي الفاسي المكي بعض روايات[١]، وكذا نور الدين الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد»، وكناه أبا حفص. اهـ[٢].

ولم يذكر سنة وفاته في «كشف الظنون» ولا في فهرس دار الكتب المصرية، وليس له ذكر في «تذكرة النوادر» لمطبعة دائرة المعارف في حيدر آباد الدكن، ولا في «طبقات المفسِّرين» للسيوطي طبعة أوروبا، وهذا يفيد أن مؤلف «السحب الوابلة» لم يقف له على ترجمة.

= عن كتاب السمين: «الدر المصون»؛ فتكون هذه عبارة الدر المصون ـ إن وجدت في اللباب ـ نقلها ابن عادل عنه.

(١) هو محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب الفاسي ثم المكي، المالكي، مفيد بلاد الحجاز وعالمها، وقاضي المالكية بمكة، الإمام الحافظ المؤرخ، ولد سنة ٧٧٥هـ، وتوفي سنة ٨٣٢هـ عن ٧٧عاماً.
وقد استبعد الأخ الباحث مرهف السقا الحمَوي أن يكون التقي الفاسي من تلامذة ابن عادل؛ لعدة أسباب لخصها بالآتي:
ـ أن التقي الفاسي ولد بمكة ثم رحل إلى المدينة، وكانت ولادته سنة ٧٧٥هـ، أي: بعد أقصى مدة لحياة ابن عادل على ما سيأتي في تحرير تاريخ وفاته.
ـ أن التقي الفاسي لم يذكر في «ذيل التقييد» أنه أخذ عن ابن عادل في معرض ذكره لترجمة ابن عادل، وعادة الفاسي أن يذكر في ترجمة شيخ أنه أخذ عنه إن كان قد أخذ عنه.
ـ بعد دراسة طويلة وتتبع لترجمة الفاسي، ودراسة لرحلاته إلى دمشق، وعمّن أخذ من الشيوخ في كل رحلة؛ تبين أن التقي الفاسي كانت له أربع رحلات إلى دمشق:
الرحلة الأولى كانت سنة ٧٩٨هـ من القاهرة إلى دمشق لسماع الحديث.
الرحلة الثانية كانت سنة ٨٠٠هـ في جمادى الآخر، ثم انطلق من دمشق إلى الحج.
الرحلة الثالثة كانت سنة ٨٠٢هـ مع الحافظ ابن حجر.
الرحلة الرابعة كانت سنة ٨٠٦هـ.
إذن كانت أول رحلة للفاسي بعد أقصى مدة لوفاة ابن عادل بثلاث وعشرين سنة.
ثم إن التقي الفاسي لم يذكر ابن عادل من بين شيوخه.

(٢) ينظر: ١: ١٠.

وفي الظاهريَّة بدمشق نسخة من هذا التفسير في ستة مجلدات كبار، محرَّرة سنة ١١٦٥ فلم يزد في الأجزاء الستة عن كلمة تفسير ابن عادل، ولعله يذكر اسمه فقط في بعض الأجزاء.

وفي كتاب «الأدب العربي» لبروكلمن، ذكر أن وفاة المؤلف سنة ٨٨٠هـ وأن نسخة من تفسيره في دار الكتب السلطانية بمصر، وأخرى في الإسكوريال، وأخرى في الجزائر(١).

بحثي هذا عَلم به شاب نجيب من حلب يقال له: الشيخ عبد الفتاح غدة، نشأ ولوعاً بالبحث عن الكتب مخطوطها ومطبوعها، وقد ذهب هذه السنة لمصر لتكميل التحصيل في كلية الشريعة، وقد كتب لي من عهد قريب أنه اجتمع بالعلامة البحَّاثة الشيخ زاهد الكوثري، فسأله عن ترجمته، فقال له: إنني بحثت عن ترجمته كثيراً وطويلاً فلم أعثر له على ترجمة رغم استقصائي الممكن في البحث، ولكني أدلكم على كتاب «طبقات المفسرين» لمحمد بن علي بن أحمد الداودي المالكي المتوفى سنة ٩٤١ كما في «الكشف»، وهو في دار الكتب السلطانيّة. قال: فراجعتها وهي تحت رقم ١٦٨ فلم أجد شيئاً.

واجتمع بالعلامة البحَّاثة القاضي أحمد محمد شاكر في منزله، وسأله عن ترجمة هذا الرجل؟ فقال: قد مرَّ عليَّ اسمه أو اسم كتاب له، وأخذا في الكشف في مكتبته الغنية

---

(١) قال الطباخ في «الثقافة الإسلامية»: «لا يصح أن تكون وفاته ٨٨٠هـ كما قال بروكلمن مع قول الشيخ ابن حميد في «السحب الوابلة»: أنه روى عن التقي الفاسي ونور الدين الهيثمي. ونور الدين وفاته سنة ٨٠٧هـ، والتقي الفاسي وفاته سنة ٨٣٢هـ فإذا تكون وفاة ابن عادل في أواخر القرن الثامن لا في أواخر القرن التاسع كما قال بروكلمان، ويؤيد ما قلناه نقل المؤلف عن تفسير أبي حيان وقوله: قال شيخنا. وأبو حيان توفي سنة ٧٤٥هـ». اهـ. وتقدم التنبيه على عدم صحة رواية الفاسي عن ابن عادل، ولا نقله عن أبي حيان، بل عن تلميذه السمين الحلبي.

قال: فلم نعثر على شيء سوى ما رأيناه في الفهرس القديمة لدار الكتب السلطانية، وذلك في الجزء الأول ص٩٦، من علم التفسير ونصه: «اللباب تأليف عمر بن علي من علماء القرن التاسع، كتب في آخر سورة طه: أنه فرغ من تفسيرها خامس عشر رمضان سنة ٨٨٠هـ ثم أفاضت الفهرس إفاضة عظيمة في وصف الأجزاء الموجودة في الدار». اهـ.

وهذا يفيد أنه في أواخر القرن التاسع والجزء الذي في الأحمديَّة الذي أوله سورة التغابن إلى آخر القرآن يقول: إنه فرغ من كتابته سنة ٨٧٦ فهل ابتدأ بالتفسير من آخر القرآن، و إذا لم يكن كذلك وشرع فيه من الأول على العادة، وانتهى في رمضان من سنة ٨٨٠ إلى سورة طه التي هي في نصف القرآن تقريباً فيستبعد أن يتمَّه في ثلاثة أشهر، وتكون و فاته سنة ٨٨٠ كما قال بروكلمن، فلا ريب أن وفاته بعد الثمانين وثمان مئة، ويكون قول بروكلمن على التقريب لا على التحديد[١].

هذا ما وصل إليه بحثي وبحث هؤلاء الأفاضل عن ترجمة هذا العالم الكبير مؤلف هذا التفسير العظيم[٢]. فهل في الحيِّ من يبحث لنا عن هذه الترجمة المفقودة،

---

(١) كلٌّ من كتب عن حياة ابن عادل عند تحقيقهم لأجزاء من تفسيره، حدَّدوا وفاته سنة ٨٨٠هـ، والسبب في ذلك هو اعتمادهم على النقل مما كتب في آخر بعض نسخ مخطوطات تفسيره، وممن ترجم لابن عادل وأبرزهم الأستاذ الجليل راغب الطباخ، ولكن بتتبُّع شيوخه وتلامذته، يظهر أنه توفي في القرن الثامن قطعًا، فإذا كان ابن عادل قد سمع من ابن ساعد وغيرهم في أول القرن الثامن أو آخر القرن السابع، وكان الهيثمي من تلامذته، وسمع من ابن عادل سنة ٧٥٠هـ فيكون ابن عادل عاش على ذلك أكثر من ٢٠٠ عاماً فهل يعقل هذا ولا أحد يعلم به ويترجم له!!

(٢) ظهر الثناء على على تفسير ابن عادل والاعتماد عليه فيما بعد، فقد كان أحد مراجع الشربيني الخطيب المتوفى سنة ٩٧٧هـ في تفسيره، ونقل أيضاً عن تفسيره القسطلاني المتوفى ٩٢٣هـ في شرحه للبخاري، والآلوسي المتوفى ١٢٧٠هـ في تفسيره أيضاً، والله أعلم.

لعله يعثر عليها ويتحفنا بها؛ إذ يستبعد لهذا التفسير الذي وصف بأنه تفسير مشهور ـ وقد رأيت نقولاً عنه في عدة كتب ـ أن يغفل جميع مؤرِّخي عصره ترجمته وخصوصاً مُدوِّني تراجم مذهبه[1].

حلب

محمد راغب الطباخ

---

(١) كتب الأخ الكريم د. مرهف السقا الحمَوي كلمة في تحديد مولده في رسالته التي حقق فيها (سورة الحجر والنحل والإسراء) من تفسير ابن عادل، وحدَّد فيها مولده ووفاته، وانتهى فيها إلى أنه ولد في أواخر القرن السابع، وتوفي في أول الربع الأخير من القرن الثامن، وأنه من أعيان القرن الثامن يقينًا، أي أنه عاش بين عامي ٦٧٥هـ و٧٧٥هـ تقريباً، وقال: إن المصادر التي ترجمت لابن عادل لا تفيدنا شيئًا عن مولد ابن عادل أو وفاته أو ما يخصّ حياته، بل إن أقصى ما في الأمر أن صاحب «السحب الوابلة» ذكر بأنه من أعيان القرن الثامن أو التاسع دون جزم منه لأحدهما، وجعله صاحب «طبقات المفسرين» في فصل الأئمة والمشايخ المفسرين الذين لا يوجد تاريخ لوفاتهم ولا لمولدهم في الطبقات والتواريخ، ولكن من الممكن معرفة تاريخ تقريبي لمولده ووفاته من خلال استقراء شيوخه وتلامذته، ومعرفة تراجمهم.

أولاً: مولده ونشأته:

من خلال دراسة تراجم شيوخ ابن عادل؛ يتبين أنه ولد في أواخر القرن السابع، وعلى وجه أقرب بعد سنة ٦٧٥هـ على الأقل، وبيان هذا في استعراض مولد ووفاة شيوخه:

شيخه محمد بن علي بن ساعد ولد بحلب سنة ٦٣٧هـ وتوفي سنة ٧١٤هـ في القاهرة.

شيخته وزيرة بنت عمر بن المُنجَّا ولدت سنة ٦٢٤هـ وتوفيت سنة ٧١٦هـ في دمشق.

شيخه أحمد بن أبي طالب المعروف بابن الشحنة النجار توفي سنة ٧٣٠هـ، ولكن أظهر سماعه ورواياته في دمشق سنة ٧٠٦هـ.

فمن خلال عرض وفيات شيوخ ابن عادل، يتبين أنه كان أهلاً لسماع الحديث في بداية القرن الثامن، وعليه فتكون ولادته في آخر القرن السابع، وبما أن المسندة وزيرة توفيت في دمشق سنة ٧١٦هـ، والحافظ ابن الشحنة توفي في دمشق سنة ٧٣٠هـ، فإن ذلك يدل على أن ابن عادل كانت نشأته ونشاطه العلمي في دمشق. =

= وأما ابن ساعد؛ فأرى أن ابن عادل سمع منه في دمشق، لأن ولادة ابن ساعد كانت في حلب، ووفاته في القاهرة، فيكون ابن عادل سمع «معجم الطبراني الكبير» من ابن ساعد أثناء طريق رحلته إلى القاهرة ومروره بدمشق، وهذا يعني أيضاً أن ابن ساعد مكث في دمشق مدة، مما يدل على بُعد خروج ابن عادل من دمشق، والله أعلم.
ثانياً: وفاته:
كذلك نسلك في معرفة وفاة ابن عادل مسلكنا في معرفة ولادته، ولكن لا بد من الإشارة إلى ما قيل في وفاة ابن عادل ممن ترجم له، إذ إن بعض المصادر تذكر أنه كان حياً سنة ٨٨٠هـ، اعتماداً على أنه وجد مكتوب في آخر تفسير سورة طه أنه فرغ من تفسيرها في رمضان سنة ٨٨٠هـ كما في الأعلام، بل جعل صاحب «نيل السائرين» وفاته في سنة ٨٨٠هـ، ولكن الجزء الذي في الأحمدية الذي أوله سورة التغابن إلى آخر القرآن يقول إنه فرغ من كتابته سنة ٨٧٦هـ وفي هدية العارفين ومعجم المؤلفين أنه فرغ من تفسيره كاملاً في رمضان ٨٧٩هـ.
وفي ما مر من الاضطراب ما يغني عن رد القول بأنه توفي سنة ٨٨٠هـ أو بعد، بل أقول: إن ذلك دليل على أن ما وجد في أواخر النسخ؛ إنما هو تاريخ نسخ الكتاب من النساخ وفراغهم منه، و أما صاحب «السحب الوابلة» فقد تردد في تحديد عصر ابن عادل؛ أهو من القرن الثامن أم التاسع، ثم قال: (وهو من رجال أحدهما بلا شك)، ولم يذكر له تاريخ وفاة.
ونعود الآن إلى المنهج الذي سلكناه قبلُ في معرفة ولادة ابن عادل؛ لنتعرف على تاريخ وفاته من خلال معرفة تلامذته، يذكر من تلامذة ابن عادل:
علي بن أبي بكر الهيثمي، ولد سنة ٧٣٥هـ وتوفي سنة ٨٠٧هـ، سمع من ابن عادل أجزاء من «معجم الطبراني الكبير»، ولا أشك في أنه سمع من ابن عادل أثناء رحلة الهيثمي إلى دمشق، ومما يؤكد ذلك أن الهيثمي صحب شيخه العراقي بالغاً، ولم يفارقه سفراً ولا حضراً، وهناك ما يفيد أن العراقي والهيثمي كانا في دمشق بعد سنة ٧٥٠هـ ففي ترجمة عز الدين، أبي الفضل، محمد بن إسماعيل بن عمر ابن الحموي الدمشقي الثقة الصالح المتوفى سنة ٧٥٧هـ ذكر الفاسي في «ذيل التقييد»: أن العراقي زينَ الدين سمع من ابن الحَمَوي في جامع دمشق كتاب «السنن الكبير» للبيهقي من أوله إلى آخر كتاب الإيلاء، وأن الحافظين زين الدين العراقي ونور الدين الهيثمي أكثرا عنه، وبما أن الهيثمي صحب العراقي بالغاً؛ فلا ضير أنه كان بالغاً بعد سنة ٧٥٠هـ لأن ولادته سنة٧٣٥هـ؛ وأنه كان مع شيخه العراقي في رحلته هذه؛ وأنه سمع من ابن الحموي وأكثر عنه في هذه الرحلة؛ وأنه في أثناء هذه الرحلة ـ والله أعلم ـ التقى بابن عادل، وسمع منه معجم الطبراني الكبير، وكان ذلك مابين سنة ٧٥٠هـ وسنة ٧٥٧، وأظن =

بقية ما ترك الأجداد[1]

المنشورة في الجزء الثالث: من المجلد العشرين

(حول ترجمة ابن حبان وكتابَي «الكفاية» و«الجامع» للخطيب البغدادي)

قال الأستاذ الرئيس ما خلاصته: «ومن المكثرين في التأليف والمجوّدين فيه إمام أساء إليه المجتمع بقدر ما أحسن هو إليه، وهذا الإمام هو أبو حاتم محمد بن حبّان البُستي (المتوفى سنة ٣٥٤)، الذي ألّف تآليف لم يسبق إليها.

هذا الإمام لم يترجم له المحدِّثون ولا الفقهاء ولا المتكلمون ولا الأدباء ولا اللغويون ولا الأطباء ولا المنجّمون، ولو لا ما ترجم له ياقوت في مادة «بست» من «معجم البلدان»، لما عرفنا عنه شيئاً يذكر من الكتب، ولا يبعد أن يكون أصحاب التراجم قد وفَّوه حقّه، ولكن الكتب التي وصلت إلينا لم تشرْ إلى ذلك».

= أنه لو كان هناك معجم لشيوخ العراقي لوجد ابن عادل من بينهم لأن شيوخ الهيثمي الذين سمع منهم هم أيضاً شيوخ العراقي.

ويضاف إلى ما مرَّ أن ابن عادل نقل في تفسيره «اللباب» كتاب «الدر المصون» كاملاً، وقد فرغ السمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ) من تأليفه في أواسط رجب سنة (٧٣٤هـ)، فلا بد أن يأخذ وصول الكتاب إلى ابن عادل وقراءته وقتاً، وكذلك جمع المعلومات ونسخها وتبييضها يأخذ وقتاً طويلاً أكثر من عشرين عاماً، وعليه فإنه يمكن القول أن ابن عادل كان حياً إلى سنة ٧٥٠هـ يقيناً، وأما وفاته فيغلب على الظن أنه توفي قبل سنة ٧٧٥هـ، فهو من أعيان القرن الثامن الهجري قطعاً.

وعليه فتكون حياة ابن عادل محصورة بين عامي ٦٧٥هـ و٧٧٥هـ، والله أعلم.

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزآن ١، و٢ من المجلد الحادي والعشرين: (١٣٦٥هـ = ١٩٤٦م).

أقول: سبق ياقوت في ترجمته الحافظ الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٣) في كتابه «الكفاية في معرفة أصول الرواية»، وهو من مخطوطات المكتبة العثمانية بحلب، وقديماً تصفَّحته وقرأت الكثير منه، ونقلتُ عنه في تعليقاتي على كتاب: «علوم الحديث» المعروف بـ«مقدمة ابن الصلاح» وشرح «التقييد والإيضاح» لشيخ الإسلام الحافظ العراقي، وقد طبعتهما معاً سنة ١٣٥٠هـ وسنة ١٩٣١م، وذيّلتهما بهذه التعليقات التي دعوتها «المصباح على مقدمة ابن الصلاح».

وهذا الكتاب العظيم نقلت فهرس أبوابه، وهو نحو ٣٨٠ صفحة، قال في أواخره في ص٣٦٢: ذكر الرجال الذين يجمع حديثهم، ثم جمع التراجم، ثم جمع الأبواب، ثم الأحاديث المسلسلة.

وقال في ص٣٦٥: وهذه تسمية كتبٍ سَبَق المتقدِّمون إليها، ويستحب لصاحب الحديث أن يخرج عليها.

وهنا يذكر مؤلفات الحافظ علي بن المديني. وقال في هذه الصفحة:

ومن الكتب التي يكثر منافعها إن كانت على قدر ما ترجمها به واضعها. وهنا يذكر مؤلفات أبي حاتم محمد بن حبان البستي، ويطيل الكلام في ترجمته.

وفي الظاهرية بدمشق نسخة نفيسة من هذا الكتاب رقمها (٣٩٣)، وكنت قابلت الفهرس على نسخة الظاهرية، فوجدت أن نسخة العثمانية تنقص أبواباً عن الظاهرية، فحرّرت ذلك في هوامش الفهرس.

وهناك نسخ أخرى مخطوطة في مصر وغيرها لا أرى حاجة لذكرها بعد أن طبع الكتاب في الهند.

وعن «الكفاية» هذا ينقل لنا ياقوت صفحتين بالحرف في كتابه في الكلام على (بست) حيث يقول في ص١٧٤:

أخبرنا أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي شفاهاً، قال أخبرنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي إذناً، عن أبي بكر أحمد بن ثابت (وهو الخطيب البغدادي) كتابةً قال: ومن الكتب التي يكثر منافعها إن كانت على قدر ما ترجمها به واضعها مصنّفات محمد بن حبان البستي، إلى قوله في الصفحة التي بعدها: والله أعلم.

وترجم البستيَّ أيضاً الحافظ الذهبي في كتابه: «ميزان الاعتدال» ج٣ ص٣٩، ومما قاله في ترجمته: وقال الإمام أبو عمرو ابن الصلاح وذكره في «طبقات الشافعية»: «وربما[1] غلط الغلط الفاحش في تصرُّفه وصدق أبو عمرو... إلخ»، ودافع عنه دفاعاً مجيداً.

وترجمه الحافظ الذهبي أيضاً في «تذكرة الحفاظ» ج٣ ص١٢٥، ومما قاله:

«قال الحاكم: كان ابن حبّان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال، قدم نيسابور فسمع من عبد الله بن شيرويه وغيره، ورحل إلى بخارى فلقي عمر بن محمد بن بُجَيْر، ثم ورد نيسابور سنة أربع وثلاثين، وسار إلى قضاء نسا، ثم انصرف إلينا سنة سبع، فأقام بنيسابور وبنى الخانقاه، وقُرئ عليه جملة من مصنفاته، ثم خرج من نيسابور إلى وطنه سجستان، عام أربعين وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه».

ثم ساق بأسانيده نحو ما ذكره في «ميزانه» ودافع عنه نحو دفاعه ثمة.

وترجمه الإمام السبكي في «طبقات الشافعية» ج٢ ص١٤١: ومما قاله فيه: «وقال الحاكم: كان ثقة نبيلاً، ودافع عنه دفاعاً حسناً، وطعن في الطاعن فيه».

---

(١) التصحيح من ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (الطباخ).

وآخر من ترجمه على ما رأيت العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ في «شذرات الذهب» ج٣ ص١٦، ومما قاله: أن له ترجمة في «طبقات الشافعية» للإسنوي.

وهو من مخطوطات الأحمدية بحلب والظاهرية بدمشق، وذكره ابن الصلاح في المقدمة ص١٢٧: ـ من طبعتي التي أشرت إليها ـ فقال: وقال أبو حاتم بن حبان البستي أحد المصنِّفين من أئمة الحديث إلخ.

ويقصد العلماء بقولهم: أحد المصنفين، أي: المكثرون من التأليف. وإذا جمعت هذه التراجم جميعها يكون منها كتيب قيّم جداً يعمّ نفعه، ويعرف بهذا الإمام العظيم.

وبمناسبة ذكر كتاب «**الكفاية**» للخطيب البغدادي، أحببت أن أذكر له كتاباً آخر هو من هذا النوع، وهو من بقية ما ترك الأجداد، وهو كتاب: «**الجامع لآداب الراوي والسامع**»، قال الجلال السيوطي في أوائل كتابه «التدريب»: عمل الخطيب في قوانين الرواية كتاباً سمّاه «الكفاية»، وفي آدابها كتاباً سمّاه «الجامع لآداب الشيخ والسامع»، قلّ من فنون الحديث إلا وقد صنّف فيه كتاباً مفرداً، فكان كما قال الحافظ أبو بكر بن نقطة: كل من أنصف عَلِمَ أنَّ المحدِّثين بعده عيالٌ على كتبه.

وهذا الكتاب موجود الآن في مكتبة المجلس البلدي بالإسكندرية.

قال في فهرس هذه المكتبة: هي محرّرة بقلم نسخ صحيح سنة ٥٠٠، ومعارضة على النسخة المنقولة عنها، وعلى كلِّ جزء منها سماع لأبي الحسن سعد الخير محمد بن سهل الأنصاري، وبناته فاطمة وزينب بحضرة السيدة ليلى ورابعة وفتاهُ نافع، وكان ذلك على الشيخ أبي القاسم الشهرزوري بحقِّ إجازته عن المصنف في سنة ٥٢٩، وهي (جلد ١ رقم ٣٧١١)[1].

---

(١) وهذه النسخة كانت في حلب منذ القرن السابع إلى القرن الرابع عشر، فبيعت إلى مكتبة الإسكندرية، ونشر الكتاب عنها.

وفي الظاهرية بدمشق أوراق ضمن مجموع يظهر لي منها، ومن مقدمة ابن الصلاح التي تجد فيها نقولاً كثيرة عنه ما فيه دروس في كيفية التعليم والتعلم وآداب ذلك، فيكون منطبقاً على اسمه «الجامع لآداب الشيخ والسامع»[1]، ويكون ما نسمّيه الآن الطريقة الحديثة في التعليم قد سبقنا إليه المتقدّمون بأحسن بيان.

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) واسمه الصحيح: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع». وقد حقق ثلاث مرات.

الفصلُ الرّابع

المخطوطات والمطبوعات (تعريفٌ ونَقْد)

١ ـ الصُّوَر السَّمائيَّة.
٢ ـ قواعد الكتابة العربية.
٣ ـ المدهش، لابن الجوزي وياقوت و«الإنصاف والتَّحرّي».
٤ و٥ و٦ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.
٧ ـ أربع تواريخ مخطوطة للبلاد اليمانيَّة.
٨ ـ نفائس التكيَّة الإخلاصيَّة بحلب.
٩ ـ بقايا خط البغدادي وكتبه الأخرىٰ.
١٠ ـ حول تسمية كتاب «النجوم الشارقات».
١١ ـ كتاب «مناقب بغداد» لابن الجوزي.
١٢ ـ حول الجزءين الرابع والسابع من «إرشاد الأريب» لياقوت الحمَوي.
١٣ ـ نفائس الكتب المخطوطة في حلب (مخطوطات المدرسة العثمانيَّة).
١٤ ـ الكمال ابن العديم وتاريخه: «بُغْية الطلب».
١٥ ـ «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، لابن خطيب الناصريَّة.
١٦ ـ إنباء الغَمْر بأبناء العمر.
١٧ ـ حول كتاب: «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيَّان التوحيدي.
١٨ ـ حول تاريخ الحافظ ابن كثير.
١٩ ـ حول مقالة الحسبة، لكوركيس عوَّاد.
٢٠ ـ حول كتاب: «لوامع أنوار القلوب».
٢١ ـ التَّصحيف والتَّحريف.
٢٢ ـ حول كتاب: «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي».
استدراك علىٰ ترجمة الأمير شكيب أرسلان.
٢٣ ـ كتب ضبط الأسماء والألقاب (حول ما كتبه الأستاذ حمد الجاسر علىٰ مقدمة المنجد علىٰ كتاب: طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب).
٢٤ ـ «غاية الاختصار في أخبار البيوتات العَلَويَّة المحفوظة من الغبار»، ليس لابن زهرة الحسيني.

الصُّور السَّمائيَّة[١]

تكلَّم أحمد بك زكي في محاضرته التي نشرتها مجلة «المقتبس» في الجزء السادس من المجلد الخامس تحت عنوان: «الكتابة والكتب ودُورها» على كتاب: «الصور السمائية» لعبد الرحمن بن عمر بن محمد بن سهل الصوفي، فقال عنه: «وإذا بحثتم في أرض مصر من الشلالات إلى الأشاتيم، ومن بادية العرب إلى صحراء لوبيا لا تجدون سوى الترجمة الفرنسية وسوى الترجمة الفارسية في دار الكتب الخديوية، أما الأصل العربي فقد لبس طاقية الاختفاء، وتطاير في الفضاء، وهجر ديارنا، وواصل غيرنا فيما وراء البحار، ورحل عن أرضٍ أُهين بها إلى بلاد ظهرت قيمتُه بين أهلها؛ بحيث إنَّ العرب الذين صدر الكتاب بلغتهم إذا احتاجوا الآن لمراجعته وَجَب عليهم أن يتلقنوا إحدى هاتين اللغتين الفرنسية أو الفارسية، أو أن يذهبوا إلى بطرسبرج، وإن استبعدوها فإلى باريس، وهنالك يجدون منه خمس نسخ، أستغفر الله بل ستاً؛ لأن السادسة هي التي سأتكلم عليها...» إلخ.

وحينما تلوتُ هذه العبارة تذَّكرت أنِّي رأيتُ هذا الكتاب من نحو خمس سنين في المكتبة الأحمديَّة؛ التي نوَّهتْ مجلة «المقتبس» في ذاك الجزء بذكرها، وذكرتْ بعضاً من نفائس كتبها، فدعاني ذلك أن أستفتح المكتبة، وأعيد النظر إلى هذا الكتاب، وأكتب شيئاً عنه، تبشيراً لعشَّاق هذا العلم بوجود هذا الكتاب في هذه البلاد بلغة الناطقين بالضاد؛ لعلهم يَسعَون في طبعه، ويقتبسون من غُرِّ فوائده.

---

(١) مجلة «المقتبس» الدمشقية، الجزء العاشر من المجلد الخامس: (١٣٢٨هـ = ١٩١٠م).

أوله بعد البسملة: «قال عبد الرحمن بن عمر ـ المعروف بأبي الحسن الصوفي، بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله المصطفى وآله:

(أما بعد): فإني رأيت كثيراً من الناس يخوضون في طلب معرفة الكواكب الثابتة في مواضعها من الفلك وصُورها، ووجدتهم على فرقتين: إحداهما: تسلك طريقة المنجِّمين، ومعوَّلها على كرات مُصوَّرة مِنْ عمل مَنْ لم يعرف الكواكب بأعيانها، وإنما عوَّلوا على ما وجدوه في الكتب من أطوالها وعروضها فرسموها في الكرة من غير معرفة خطئها وصوابها، فإذا تأمَّل مَنْ يعرفها فيها؛ وجد بعضها مخالفاً في النَّظْم والتأليف لما في السماء أو على ما وجدوه في الزيجات، وادَّعى مؤلفها أنَّهم قد رَصَدوها وعرفوا مواضعها، وإنَّما عمدوا إلى الكواكب المشهورة التي يعرفها كثيرٌ من الخاصِّ والعام، مثل عين الثور، وقلب الأسد، والسماك الأعزل، والثلاثة التي في جبهة العقرب، وقلب العقرب، وهذه الكواكب هي التي ذكر بطليموس أنه رصدها بأطوالها وعروضها، وأثبتها في كتابه المعروف بـ (المجسطي) لقربها من منطقة فلك البروج، فرصدوها وأثبتوا مواضعها في وقت أرصادهم»، ثم قال بعد كلام طويل:

«وأما الفرقة الأخرى فإنَّها سلكت طريقة العرب في معرفة الأنواء، ومنازل القمر، ومعوّلهم على ما وجَدَتْ في الكتب المؤلَّفة في هذا المعنى.

ووجدنا في الأنواء كتباً كثيرة، أتمُّها وأكملها في فنِّه كتاب أبي حنيفة الدِّينَوَرِي، فإنَّه يدلُّ على معرفة تامَّة بالأخبار الواردة عن العرب في ذلك، وأشعارها وأسجاعها فوق معرفة غيره ممَّن ألفوا الكتب في هذا الفن.

ولا أدري كيف كانت معرفته بالكواكب على مذهب العرب عِياناً، فإنَّه يحكي

عن ابن الأعرابي وابن كنانة وغيرهما أشياء كثيرة من أمر الكواكب، يدلُّ على قلّة معرفتهم بها، وأن أبا حنيفة لو عَرَف الكواكب لم يسند الخطأ إليهم، ثم كلُّ مَنْ عَرف من الفرقتين إحدى الطريقتين لم يعرف الأخرى، وأُلِفَ في كتابه أشياء من غير الفن الذي أخذ فيه؛ نادى على نفسه بها بالخطأ، وخفَّة البضاعة فيه، منهم أبو حنيفة، فإنه ذكر في كتابه أن البروج الاثنا عشر لم تُسَمَّ بهذه الأسماء إلا لأنَّ نظم كواكبها مُشَاكِلٌ للصورة المسمّاة باسمها، وأنَّ الكواكب تنتقل عن أماكنها، وأسماء البروج غير زائلة، وإن زال نظم الكواكب، ولم يُعلم أن نظمها لا يزول ولا يتغير.

(إلى أن قال): وقد كنت أظن بأبي حنيفة أنَّ له رياضة بعلم الهيئة والرصد، فقد كنت بالدِّينَوَر في سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة من سني الهجرة، في صحبة الأستاذ أبي الفضل محمد بن الحسين نازلاً في حُجْرته، وحكى لي جماعة من المشايخ أنه كان رَصَد الكواكب على سطح هذه الحجرة سنين كثيرة، فلما ظهر تأليفه وتأمّلت ما أودعه كتابه؛ علمتُ أنَّ الذي كان يُراعيه إنما كان طلب الظاهر المشهور من الكواكب، وما كان يجده في كتب الأنواء من ذكر المنازل وما أشبهها، والناس كلهم متَّفقون على أنَّ لهذه الكواكب حركة إلى توالي البروج».

ثم قال بعد كلام طويل: «ولما رأيت هؤلاء القوم ـ مع ذكرهم في الآفاق، وتقدُّمهم في الصناعة، واقتداء الناس بهم، واستعمالهم مؤلفاتهم ـ قد تَبِعَ كلُّ واحد منهم مَن تقدَّمه من غير تأمُّل لخطئه وصوابه بالعيان والنظر؛ حتى ظنَّ كلُّ مَن نظر في مؤلَّفاتهم أن ذلك عن معرفة بالكواكب ومواقعها، وَوَجدتُ في كتبهم من التخلُّف ـ ولا سيما في كتب الأنواء ـ من حكاياتهم عن العرب، والرواية عنهم أشياء من أمر المنازل وسائر الكواكب ظاهرة الفساد؛ لو ذكرتها طال الكتاب بلا فائدة، عَزَمتُ مرَّات كثيرة على

إظهار ذلك وكشفه، وكان يعتريني فتور في حالٍ وأشغال تصُدُّني عن المراد في أخرى، إلى أن شرَّفني الله بخدمة الملك عضد الدولة أبي شجاع بن ركن الدولة ـ رحمه الله تعالى ـ وأنعم عليَّ بإدخالي في جملة خَوَله وحَشَمه، ووجدتُه من فنون العلم متمكِّناً، وفي المعرفة بها منبسطاً، وعلى عامَّة العلماء مُقبِلاً، وإلى جميعهم محسناً، ورأيتُه كثيرَ الذِّكر لأحوال الكواكب، مائلاً إلى امتحانها والوقوف على مواقعها من الصُّور ومواضعها من البروج والدرج بالرصد والعيان، ولم أجد بحضرته من المنجِّمين من يعرف شيئاً من الصور الثماني والأربعين التي ذكرها بطليموس في كتابه المعروف بـ (المجسطي) على حقيقتها، ولا شيء من الكواكب التي في الصور على مذهب المنجِّمين، ولا على مذهب العرب؛ إلا اليسير الظاهر المشهور الذي يعرفه الخاص والعام، ولم أجد لمن تقدَّمني من العلماء أيضاً كتاباً في أحد الفنَّيْنِ يُوثَقُ بمعرفة مؤلّفه إلا كما تقدَّم ذكره، ولا يمكن الرصد إلا بمعرفة الصور وكواكب كلِّ صورة بالنظر والعيان، فرأيت أن أتقرَّب إليه بتأليف كتاب جامع يشتمل على وصف الصور الثماني والأربعين، وعلى كواكب كل صورة منها، وعددها ومواقعها من الصُّوَر، ومواضعها من فلك البروج بأطوالها وعروضها، وعدد كواكب الفلك كلها المرصودة؛ التي من الصور، والتي حوالي الصور وليست منها».

وبعد كلام طويل أخذ المؤلِّف يتكلَّم على الصور الثماني والأربعين صورة فصورة، مع إثبات نفس الصورة ونقشها بحروف وأرقام عند موضع كل كوكب، غير أن أربع عشرة صورة منها ليس عليها شيءٌ من الحروف والأرقام، وخالية من الإشارات إلى مواضع الكواكب.

وبعد أن ينتهي من الكلام على كلِّ صورة يُذيِّله بجدول فيه أسماء كواكب تلك

الصُّورة، وأرقام تدلُّ على مواضع تلك الكواكب فيها، والكتاب في ١٢٧ صفحة بقطع قريب من الكامل.

قال ناسخه في آخره: وافق الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة ـ المسمَّاة بكواكب الصُّوفي ـ في الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر، خمس بعد الألف.

وتحت ذلك ثلاثة أسطر أُخَر، لم يُقرَأ منها سوى: (المقري المؤقت يومئذ بجامع حلب الشهباء الكبير، عَمَره الله تعالى).

حلب

محمد راغب طباخ

* * *

«المدهش» لابن الجوزي[١]

وصلني المجلّد الأول والثّاني من مجلة «المجمع»، وغدوت شاكراً المجمع على هديّته الثّمينة، تصفّحت الأجزاء فوجدت أنّه قد ذكر في الجزء السّادس من المجلّد الثّاني النّسخ التي عثر عليها من كتاب «المدهش» لابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ.

أقول: قد عثرتُ على نسختين من هذا الكتاب في حلب إحداهما: في مكتبة المدرسة الأحمديَّة وهي قديمة الخط مصحّحة منسوخة سنة ٧٧٣هـ، والثّانية: في مكتبة وقفها المرحوم عبد القادر أفندي الجابري[٢]، وهي الآن تحت يد ولده الحاج مراد أفندي، قال ناسخها في آخرها: «نقل من نسخة قديمة صحيحة مقابلة بأصله، وكان الفراغ من كتابته سنة ١٠٠٥ بخط محمد بن عبد الواحد الشّهير بالخوانكي، وكتب برسم شمس الدّنيا والدّين محمد أفندي رئيس دولة آل عثمان»، وهي نسخة حسنة الخط مضبوطة بالشّكل في ١٤١ ورقة كل صفحة ٢٧ سطراً[٣].

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق، الجزء الأول من المجلد الرابع، جمادى الأولى: (١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م) ص ٤٠.

(٢) هو الوجيه السري الحاج عبد القادر بن مراد الجابري، المتوفى سنة ١٣٢٥هـ، عن ٧٩ عاماً. تنظر ترجمته وأخبار خزانة كتبه النفيسة في «إعلام النبلاء» ٧: ٥٠٧-٥٠٩.

(٣) طبع «المدهش» أكثر من طبعة، ومن ذلك الطبعة التي صدرت سنة ١٤٢٥هـ الموافق ٢٠٠٤م في مجلدين عن دار القلم بدمشق، واعتمد محقّقاه الفاضلان الشيخ عبد الكريم تتَّان والشيخ خلدون مخلوطة الحَمَويان على نسختين خطيتين مصوَّرتين من مكتبة الظاهرية، الأولى: تحت رقم (٣٣١٥/ أدب٥٧٠) مكتوبة بتاريخ ١٠ ربيع الأول ٧٤٩هـ. وعدد صفحاتها ٤١٧ صفحة. والثانية: تحت رقم (٧٠٥٢/ أدب) مكتوبة بتاريخ شهر ربيع الآخر ١١٤٢، والناسخ مصطفى بن بكتاش، عدد صفحاتها (٣٧٦) صفحة.

ياقوت و(الإنصاف والتَّحرّي):

ورأيت الأديب الفاضل عيسى إسكندر المعلوف قال فيما كتبه على كتاب «الإنصاف والتّحرِّي»: ومن أغرب ما رأيت أنّ ياقوت في «معجم الأدباء» لم يذكر هذا الكتاب بين مؤلفات ابن العديم... إلخ.

أقول: لا محلّ للاستغراب لأنّ ياقوت توفي سنة ٦٢٦، وابن العديم توفي سنة ٦٦٠، فتكون وفاته بعد وفاة ياقوت بأربع وثلاثين سنة، فلا مانع من أن يكون هذا الكتاب مما ألّفه ابن العديم بعد وفاة ياقوت.



قواعد الكتابة العربية[١]

وضع هذا الكتاب خير الدين أفندي أسد الحلبي المدرس بالمدرسة الفاروقيَّة بحلب، وطبع في المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤١هـ وهو يقع في ٤٠ صفحة جيد الورق ثمن النسخة ٣٥ مليماً، ويطلب من مكتبة عيسى أفندي البابي الحلبي وشركاه بمصر.

تكلم المؤلف بإسهاب عن الكتابة الإملائية، وتراكيب الحروف، وأكثر من الأمثلة عقب كل قاعدة بما يجعل المطلع على الكتاب يأمن العثار في الإملاء، ولقد تناول مباحث يرجع البحث فيها إلى النحو لكنه وفَّاها حقها، فلذلك نلفت الأنظار إلى كتابه.

---

(١) مجلة «المكتبة» المصرية، الجزء الأول من السنة الأولى: (شوال ١٣٤٢).
وعرَّفت المجلة في الجزء السابع من السنة الأولى (شعبان ١٣٤٣) بكتاب: «اللوامع الضيائية في نظم السراجيَّة» وكتبت:
«اسم لسفر صغير في علم الفرائض تأليف الأستاذ الشيخ (عبد الله بن عبد الرحمن الحنبلي) عُني بنشره الفاضل (محمد راغب الطباخ) صاحب تاريخ حلب الشهباء.
هذا السِّفر يحتوي على منظومة رجزيَّة في فنِّ المواريث. وفضلها أشهر من أن يذكر فإنها متداولة في أيدي طلبة العلم كثيراً، والانتفاع بها عظيم فيما بينهم، غاية الأمر أنه في هذه الطبعة تحسنت أوضاعها، فسهل تناولها للطلاب أكثر من ذي قبل، فجزى الله ناشرها خير الجزاء.
وهي مطبوعة طبع جيد على ورق جيد واقعة في ٢٩ صحيفة من القطع الصغير، وثمنها قرشان صاغ».

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء[١]

سبعة أجزاء

(١) مجلة «المكتبة» المصريَّة، لمديرها عبد العزيز الحلبي، الجزء السادس من السنة الأولى: (جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ). وذكر العلامة الطباخ في ترجمته الذاتية الموسَّعة أنه راسل مجلة «المكتبة»، ونشر عدَّة مقالات فيها، وظهر لي أن هذه المقالات هي التي عرَّف فيها ببعض مؤلفاته ومطبوعاته.
وقد كتب محرِّر المجلة في صدر المقال: «اسمٌ لمؤلف حديث من أبدع ما أُلِّف في التاريخ لنابغة الفضلاء الأستاذ الشيخ (محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ) الحلبي مولداً ومنشئًا، تكلم فيه على تاريخ حلب الشهباء منذ الفتح الإسلامي الذي افتتحه الصحابي الجليل سيدنا (أبو عبيدة بن الجراح) رضي الله عنه، مرتِّباً ذلك على سنين الهجرة إلى نهاية سنة ١٣٢٥.
وابتدأ هذا التاريخ بذكر أسماء الكتب التي نقل منها، وعزى كل كتاب إلى المكتبة التي يوجد فيها، وقصد المؤلف أن يحذو على نحو ما ألفه الحاكم في تاريخ نيسابور وابن عساكر لدمشق، فأبدع وأحسن، ومن اطلع على هذا التاريخ، عرف سَعَة اطلاع مؤلفه، وغزارة علمه، مع سلاسة التعبير، وحُسن الترتيب فإنه قسمه إلى مقدمة ذات فصلين:
الفصل الأول: هي ذكر التواريخ الخاصَّة بحلب، والفصل الثاني: في ذكر التواريخ العامة التي ذكرت فيها حلب الشهباء.
ثم إلى قسمين، القسم الأول: فيمن ملك حلب منذ الفتح إلى هذه الأيام، والقسم الثاني: في ذكر الفضلاء والعلماء والشعراء والوجهاء التي تضمُّهم هذه البلدة المباركة.
ولما تصفَّحنا هذا السِّفر الجميل، وجدناه مسرحاً يروق الناظرين، ويسر السامعين، أودعه أخبار من مضى من القرون، مع طرائف من الأدب مستحسنة في موضعها، و مقتطفات شعرية ونثرية استدعى لها مقام التأليف.
وممَّا يدلُّ على براعة الأستاذ في فنِّ التاريخ أنه لم يقتصر على ذكر من ملك حلب أو نزل بها، بل نقَّب عن البلدة وذكر ما حدث فيها من التغيير والتنقل في الأدوار وما كانت عليه من زيادة في بعض الأجيال ونقص لحضارة في وقت آخر.
وإليك نبذة ممَّا ذكر في مبدأ الكتاب يذكر فيها خطته في القسم الثاني من الكتاب بعدما ذكر المقدمة وما أودعه فيها والقسم الأول وخطته فيه».

خطتي في هذا القسم[١]

تَوَخَّيت في هذا القسم خطة البسط أيضًا، فما رأيته من التراجم في كتابين، أخذتُ أوسعهما، وأضفتُ إليه ما وجدته من الزوائد المفيدة في الثانية، وانتهجت منهج الاستقصاء بقدر الإمكان، فلم يقع نظري على ترجمةٍ لحلبيٍّ في كتاب من الكتب التي اطَّلعتُ عليها إلا ونظمتها في عِقد هذا التاريخ؛ لأنَّ في هذا الاستقصاء يتسنَّى لبعيدي النظر استجلاء سير العلم والاجتماع في العصور السالفة، فيقايسون بينها وبين هذا العصر، أو بين كل عصر وعصر، وسيظهر لنا الزمان في المستقبل أنَّ الكثير من هؤلاء المترجَمين لهم آثار علميَّة وأوقاف خيريَّة لم تذكر في تراجمهم إلى غير ذلك من الفوائد.

وقد التزمت أن لا أذكر إلا من كانت ولادته في الشهباء أو كان ممَّن توفي فيها، وأما من نزلها ثم ارتحل عنها أو اجتاز بها فقد ضربت عنه صفْحاً لأن ذلك ممَّا يطول شرحه، ويحتاج إلى مجلدات كثيرة، وجعلت أعيان كل قرن على حدة مبتدئاً من القرن الثالث (لأني لم أقف على تراجم لأحد منهم قبل ذلك) إلى هذا العصر مرتِّباً لهم على مقتضى سني وفاتهم؛ لتكون ترجمة المعاصر مقرونة مع معاصره تقريبًا، وسلسلة حوادثهم متَّصلة غير منفصلة أو قريبة الارتباط ببعضها، وجدت أن ذلك أولى من ترتيبهم على حروف المعجم لأن ذلك يجعل من كان من أهل القرن الثالث مع من كان من أهل القرن الثالث عشر وهلمَّ جرًّا، فتختلط القرون ببعضها، وتتبعثر سلسلة الحوادث، فيصعب على القارئ التمييز، ويحصل له من التشويش ما لا مزيد عليه، وما كان مطبوعًا من مؤلفات علماء الشهباء، أشرت إليه بذكره بين هلالين أثناء الترجمة أو في الذيل، وأشرت إلى كثير مما هو غير مطبوع إلى المكتبة التي يوجد فيها هذا الكتاب ليسهل الاستحصال عليه لمن رامَ ذلك، وهذا القسم في أربعة مجلدات. تبلغ نحو ألفي

(١) القسم الثاني: في ذكر الفضلاء والعلماء والشعراء والوجهاء التي تضمُّهم هذه البلدة المباركة.

صفحة وتنيف عدد التراجم فيه على ألف وخمس مئة ترجمة.

ومن مزايا تاريخي: أنني عَزوتُ كلَّ حادثة وكل ترجمة إلى الكتاب المنقول عنه، وما تجده غير معزو، أو بعد كلمة أقول، فإنه ممَّا أملاه فهمي الفاتر، وسطره قلمي القاصر، قصدت بذلك أن يكون القارئ مطمئن البال، وليسهل عليه الرجوع إلى الأصل عند اقتضاء الحال.

ويزيد ما تصفحته من الكتب عن ثلاث مئة مجلد، هذا غير المجاميع والأوراق المبعثرة التي ظفرت بها في الخزائن وما تلقيته من أفواه الرجال الذين أثق بهم.

ولا تسل عمَّا تكبدته من المشاق، وما تجشَّمته من المتاعب في سبيل الحصول على هذه المواد، واقتناص شواردها، وجمع شملها المتبدِّد، حتى انتظم منها عِقْد هذا التاريخ، وتراصفت مبانيه:

وطالَمَا واصلتُ ليلي بالسَّهَرْ أرعى النجومَ لالتقاطيَ الدُّرَرْ
كأنَّ سِلْكَ عِقدها المجَرَّةْ أضمُّ فيه دُرَّةً فدُرَّةْ

على أن ما صرفته من ثمين الوقت، وما لاقيته من المصاعب، كنت أجده شراباً سائغاً، ومورداً عذباً بجانب الغاية النبيلة التي كنت أقصدها، وهي القيام بخدمة بلادي وأبناء وطني بكتاب يوقفهم على تاريخ أوطانهم ومآثر أسلافهم.

هذا وإني لا أدَّعي الإحاطةَ بجميع حوادث الشهباء، وجميع تراجم أعيانها في هذه القرون مع أني لم آل جهداً في الحصول على ما أمكن الحصول عليه في الديار السورية لأن ذلك من الأمور المستحيلة، وعلى فرض إمكان ذلك فإنه موقوف على الحصول على جميع التواريخ التي ذكرناها في المقدمة، وعلى مراجعة غيرها من التواريخ التي لم نذكرها في كتابنا، ومن رام الزيادة على ما وضعته فعليه أن يشدَّ الرحال إلى

الديار المصرية والرومية والغربية فهناك يجد باب الزيادة مفتوحًا أمامه، خصوصًا إذا كان من الواقفين على اللغات الغربية المشهورة، ويكون بذلك قد قام بخدمة جُلى لمدينة الشهباء، والله الهادي إلى سواء السبيل.

وكنت أود وضع قسمين آخرين يكونان متمِّمين لهذا التاريخ، أذكر في قسم محلات حلب، وما في كل محلة من المدارس والجوامع والمساجد والرباطات والخانات وغير ذلك من الأماكن والآثار القديمة، وأتكلم على كل مكان، فأذكر اسم بانيه وواقفه وماوقفه، وماهو نوع ذلك الوقف، وحالة ذلك المكان الآن وحالة وقفه.

والقسم الثاني أذكر فيه أعمال الشهباء من البلاد والقرى وأحوالها الماضية والحاضرة، وما هناك من الآثار القديمة وبقاياها.

ولا ريب أني أكون بذلك أحسنتُ الصنع، وأكملتُ الوضع، ووفيت تاريخ الشهباء حقه، غير أني وجدت أن هذا العمل العظيم ليس في وسعي أن أقوم به وحدي، ويحتاج إلى عدَّة أشخاص من الواقفين على اللغات الأجنبية والآثار القديمة، يقومون بسياحة طويلة في هذه الأماكن، ويقتضي لهؤلاء نفقات كثيرة لا يقوم بها إلا الحكومة، فاكتفيت بما وضعته، واقتنعت بما جمعته، ولعل الله يلهم أولي الأمر بالقيام بهذا العمل الجليل في مستقبل الأيام.

هذا وإني أبسط يدَ الرجاء إلى الناقد البصير، أن يسيل ذيل العفو ويصفح عما يجده من التقصير والسهو فإن الكمال لله جلَّ جلاله، والعصمة لأنبيائه العظام ورُسله الفخام.

يا ناظراً فيما قصدتُ لجمعِهِ ... اعذِرْ فإنَّ أخا الفضيلةِ يعذرُ
واعلَمْ بأن المرءَ لو بلَغَ المدى ... في العُمْر لاقى الموت وهْو مُقصّرُ
فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافتَحْ لها ... باب التَّجاوُزِ فالتَّجاوُزُ أجدرُ

ومن المحال بأن يرى أحد حوى　　كُنـه الكـمال وذا هـو المتعـذر

غير النبي المصطفى الهادي الذي　　يفنـى الزمـان وفضلـه لا يحصر

والله أسأل وبنبيِّه الأعظم ﷺ أتوسل، أن يجعل سعيي مشكورًا، وعملي خالصًا مقبولًا، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وقد آنَ أن أشرع بالمقصود بعون الملك المعبود.

وهذا التاريخ النفيس يقع في سبع مجلدات على ورق جيد بحروف واسعة، والجزء الأول يحتوي على ٥١٨ صحيفة من القطع الكبير، وثمنه ٣٠ قرشاً. ورق بدون تجليد، والطبع جاري في باقي الأجزاء[١].

* * *

---

(١) الجزء الثاني من أعلام النبلاء وصلنا والمجلة تحت الطبع مجلة «المكتبة».

الجزء الثاني من أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء[١]

وصل إلينا هذا الجزء بعدما استوفينا الكلام على الجزء الأول في العدد السابق، فأحببنا أن نتحف القراء في هذا العدد بما اشتمل عليه الجزء الثاني من الفرائد والفوائد.

إننا تصفَّحنا هذا الجزء فوجدناه روْضاً يانعاً، تسرح بين أزهاره العيون، فتنشرح ببهجته النفوس والألباب: ابتدأ هذا الجزء بذكر ولاية نور الدين الشهيد محمود بن زنكي على حلب، وذلك في سنة ٥٤١ هجرية، وذكر السبب في ولايته على حلب، ثم ساق الحديث بكل ما فعل نور الدين من مواقعه المشهورة مع الإفرنج لما حاولوا مرارًا أن يحتلوا حلب، ويدافعهم وينتصر عليهم المرات العديدة، وكذلك انتشاب الحرب بينه وبين ملك أنطاكية وانتصاره عليه والبلاد التي احتلها نور الدين في زمن ولايته وما كان منه للمصريين إلى أن انتهت مدة ولايته وتولى مَنْ بعده، وساق حديثه كما ساق حديث نور الدين الشهيد، وهكذا كل من تولى حلب وسيرهم وأخبارهم إلى أن انتهى الجزء بذكر مجيء (قرا يوسف التركماني إلى حلب) وذلك سنة ٨٢١، وساق في آخر الجزء تعريف المكاييل والأثمان التي كان يُتعامل بها من سنة ٥٦٩ في مصر وفي الديار الشامية، واستمرت على ذلك إلى انتهاء القرن التاسع، وختم ذلك بذكر العربان القاطنين حول حلب.

هذا هو ملخص ما احتوى عليه هذا الجزء من تاريخ حلب الشهباء، وإذا وصل

---

(١) مجلة «المكتبة» المصرية، الجزء السابع من السنة الأولى: (شعبان ١٣٤٣). وهذا التعريف بالكتاب بقلم الشيخ راغب، والله أعلم.

إلينا الجزء الثالث ننشر للقرَّاء عنه إن شاء الله، ونُلخِّص لهم ما فيه وكذلك إلى انتهاء الأجزاء كلها؛ ليعلم علماء التاريخ أيُّ فراغ سدَّ به هذا الكتاب، ولنحضّ القراء على اقتنائه فإنه جوهرة نفيسة قلَّ أن يوجد لها مثيل.

وهذا الجزء واقع في ٥٢٨ صحيفة من القطع الوسط مطبوع طبعاً جيداً على ورق جيد، وقيمة كل جزء منه في الاشتراك ٣٠ قرشاً.

* * *

إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء[1]

تكلمنا في العدد السادس والعدد السابع عن هذا الكتاب بمناسبة ظهور الجزء الأول والثاني منه بما يدلُّ على قيمته، ويشير إلى محتوياته بصفة إجماليَّة، ونريد في هذا العدد أن نقول: إنَّ هذا الكتاب، وإن كان اسمه، والغرض الأساسي من تأليفه، يدلان على أنه خاص بتاريخ حلب وحدها، إلا أنه في الواقع يتناول الكلام عن كثير من الأقطار والبلدان الشرقية، ويسهب في سرْد الحوادث التي وقعت فيها، سواء كانت حوادث وقعت بين شرقيين وشرقيين، أو بين شرقيين وغربيين.

فهو من أجل ذلك كتاب عظيم الأهمية، كبير الفائدة، لاسيما وقد اشتمل على كثير من المستندات الرسميَّة، والمراسلات التي كانت تتبادل بين ملوك العصور الماضية، حيث يستطيع المرء بقراءة هذه المستندات والمراسلات أن يستشفَّ الروح التي كانت سائدة في تلك الأزمان بين قوَّاد الأمم، ومدبِّري شؤون العالم.

ونريد أن ننقل إليك من هذا الكتاب أمثلة ممَّا اشتمل عليه من تلك المستندات والمراسلات، فمن ذلك: وصية من السلطان صلاح الدين لابنه الملك الظاهر بعد عوْدِه من بعض الحروب:

(أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به، فإنه سبب نجاتك، وأحذُّرك من الدماء، والدخول فيها، والتقلُّد بها، فإنَّ الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعيَّة، والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك

---

(١) مجلة «المكتبة» المصرية الجزء التاسع من السنة الأولى: (صفر ١٣٤٤).

بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد، فإنَّ الموت لا يبقي على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس، فإنه لا يغفر إلا برضاهم، و ما بينك و بين الله، يغفره الله بتوبتك إليه؛ فإنه كريم).

أما الرسائل التي كانت تتبادل بين الملوك فإني أنقل إليك مثلاً منها، وهو رسالة من الملك هولاكو ملك التتر إلى الملك الناصر صاحب حلب، وهو يقول فيها: (يعلم الملك الناصر أننا نزلنا بغداد في سنة ست وخمسين وست مئة، وفتحناها بسيف الله تعالى، وأحضرنا مالكها وسألناه مسألتين فلم يجب لسؤالنا، فلذلك استوجب منا العذاب، كما قال في قرآنكم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وصان المال، فآل الدهر إلى ما آل، واستبدل النفوس النفيسة، بنقوش معدنية خسيسة، وكان ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لأننا قد بلغنا بقوَّة الله الإرادة، ونحن بمعونة الله في الزيادة، ولا شك أنا نحن جندُ الله في أرضه، خلقنا وسلَّطنا على من حلَّ عليه غضبه، فليكن لكم فيما مضى معتبر، وبما ذكرناه وقلناه مُزدَجَر.

فالحصون بين أيدينا لا تمنع، والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يُسمع، فاتَّعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أموركم قبل أن ينكشف الغطا، ويحل عليكم الخطا، فنحن لا نرحم من شكا، ولا نرقُّ لمن بكى، قد أخربنا البلاد، وأيتمنا الأولاد، وتركنا في الأرض الفساد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من سهامنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فمن طلب منا الأمان سلم، ومن طلب الحرب ندم، فإن أنتم أطعتم أمرنا، وقبلتم شرطنا، كان لكم مالنا، وعليكم ما علينا، وإن أنتم خالفتم أمرنا، وفي غيِّكم تماديتم، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم، فالله عليكم يا ظالمين، فهيئوا للبلايا جلباباً، وللرزايا أتراباً، فقد أعذر من أنذر، وأنصف

من حذَّر، لأنكم أكلتم الحرام، وختنتم الأيمان، وأظهرتم البدع، واستحسنتم الفسق بالصبيان، فأبشروا بالذل والهوان، فاليوم تجدون ما كنتم تعلمون: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

فقد ثبت عندكم أننا كَفَرة، وثبت عندنا أنكم فَجَرة، وسلَّطنا عليكم من بيده الأمور مقدَّرة، والأحكام مدبَّرة، فعزيزكم عندنا ذليل، وغنيُّكم لدينا فقير، ونحن مالكون الأرض شرقاً وغرباً، وأصحاب الأموال نهباً وسلباً، وأخذنا كل سفينة غصباً، فميزوا بعقولكم طرق الصواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي بشرارها، فلا تبقى منكم باقية، وتبقى الأرض منكم خالية، فقد أنصفناكم حين راسلناكم، وأعذرناكم إذ أنذرناكم، فسارعوا إلينا برد الجواب بتة، قبل أن يأتيكم العذاب بغتة، وأنتم تعلمون.

وقد ردَّ عليه الملك الناصر برسالة أخرى قال فيها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقفنا ـ والحمد لله والصلاة على رسول الله محمد وآله وسلم ـ على كتاب من الحضرة الإيلخانية، والسدَّة السلطانيَّة، بصَّرها الله رُشْدَها، وصَيَّر الحق والصواب مقبولاً عندها، فعرفنا من تفصيله وجملته، ما أبان أنكم مخلوقون من سخط الله ونقمته، وأنكم مسلَّطون على من حلَّ عليه غضبه في محنته، لا ترقُّون لشاكٍ، ولا ترحمون عَبْرة باكٍ، قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، وذلك كله من جملة عيوبكم، ولقد كشفتم عن الأمر الخفي، لأنه لا ينتزع الرحمة إلا من قلب شقي، وهذه صفات الشياطين، لا

صفات السلاطين، وكفى بهذا لكم واعظاً شافياً، وبما و صفتم به أنفسكم رادعاً كافياً، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢]. ففي كل كتاب لُعنتم، وعلى لسان كل نبي أُهنتم، وبكلٍّ بيان بالقبح عُرِفتم وَوُصِفتُم، وعندنا خبركم من حيث خلقتم، وأنتم الكفرة الظلمة كما زعمتم ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]. وقلتم عنا: إننا أظهرنا البدع في الإيمان، واستحلينا الفسوق والعصيان، لا غرو أن كان فرعون مذكراً، والظالم ناهياً منكراً، وكل من تمسك بالأصول، لا يبالي بالفروع، بالإيمان ندرأ فعل العصيان، ونحن المؤمنون حقاً، لا يداخلنا عيب، ولا يخامرنا ذمٌّ ولا ريب، والقرآن علينا نزل، وربنا رحيم بنا لم يزل، قد تحققنا تنزيله، وعرفنا أسراره وتأويله، والجنة لنا زُخرفت، والجحيم لكم خُلقت، ولخلودكم فيها سُعِّرت، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٢].

ومن أعجب العجب، تهديد الرتوت باللتوت، والسباع بالضباع، خيولنا عربية، وسهامنا يمنية، ولتوتنا صعيدية، وسيوفنا مصرية، وهي شديدة المضارب، موصوفة في المشارق والمغارب، وإنا لا يصدع قلوبنا التهديد، وجمعنا لا يخاف التفرقة والتَّبديد، ولو أننا نستفّ الصعيد، فإنا لا نحيل ولا نبيد، وذلك بتأييد العزيز الحميد، إن عصيْناكم فتلك الطاعة، وإن قاتلناكم فنِعْم البضاعة، وإن قَتلنا، أو قُتلنا، فبيننا وبين الجنة ساعة.

وأما قولكم: قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فإن القصَّاب لا يبالي بكثرة الغنم، وكثير من الحطب، يحرقه قليل من الضَّرم.

والفرار من الدنايا، لا من المنايا، وهجوم المنية، هو عندنا غاية الأمنية، وإنا إن عشنا، عشنا سعداء، وإن متنا، متنا شهداء، أبعد أمير المؤمنين، وخليفة ربِّ العالمين، تطلبون منا الطاعة؟ لا سمع لكم ولا طاعة!

لا نعطي الذلة وبأيدينا سيوف حِداد، وبين أيدينا رجالٌ شِداد.

وزعمتم أن نلقي إليكم أمرنا، قبل أن ينكشف الغطا، وينزل علينا منكم الخطا، هذا كلام فيه لحن وتحكيك، وفي نظمه تبديل وتركيك، فسوف ينكسر منكم المطا، وتقصر منكم الخطا! أكفر بعد إيمان؟ أم تكذيب بعد تبيان؟ أم طاعة صليب وأوثان؟ أم تدعون مع الله إلهاً ثان؟ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٩-٩٠].

فقولوا لكاتبكم الذي رصف رسالته، وصفَّف مقالته: ما قصَّرت، وأوجزت وأبلغت واختصرت، ووصل إلينا كتابك، وفهمنا ما تضمَّنه خطابك، فكان عندنا كصرير الباب، أو كطنين الذباب! ما كان الغرض إلا إعلان فصاحتك، وإظهار محض نصيحتك، وقد يستفيد الظِّنَّة المتنصح، الآن قد استوجبتَ النِّقم، كما استخففت بالنِّعَم، وسوف تقع في النَّدم، وتزلُّ بك القدم، والسلام على من اتَّبع الهدى، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، والحمد لله وحده، والصلاة على محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

أربع[١] تواريخ مخطوطة للبلاد اليمانيَّة[٢]

قُرَّة العيون ـ نَشْر المحاسن اليَمانيَّة

روح الروح ـ اللطائف السَّنِيَّة

البلادُ اليمانيَّة ـ على سَعَتها، وتنائي أطرافها، وما لها من قديم الحضارة ـ لا نعلم عن حوادثها وتراجم أعيانها إلا النَّزْر اليسير؛ الذي نراه ثانياً[٣] وبالعَرَض في ابن الأثير، و«معجم البلدان»، وغيرهما من كُتُب التاريخ والتقاويم.

والبلاد إذا لم يكن لها تواريخ خاصَّة بها، يؤلّفها أُناس من أهلها العارفين بها، المشاهدين لما يجري فيها من الحوادث، فمِن الصعب الوقوف على أحوالها وقوفاً تامّاً، يُعلَم به غابر تاريخها، وتقلُّب الدول عليها، وجَرْيُها في ميدان الحضارة والعمران، وما أنتجَتْهُ قرائح أبنائها من العلوم والفنون والآداب، وما لهم هناك من جميل الأخبار، وجليل الآثار.

فنهوض الفاضل الشيخ عبد الواسع الواسعي اليماني ووضعه تاريخه: **«فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن»**[٤] قد سدّ بعضَ ثلمةٍ في تاريخ تلك البلاد الشاسعة عنا.

---

(١) الوجه أن يقول: أربعة.

(٢) مجلة «الزهراء» المصرية: ذو القعدة: (١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م)، ص ٥٤٨.

(٣) كذا في الأصل، ولعله نائياً.

(٤) طبع في المطبعة السلفية ١٣٤٦على ورق جيد في ٤٠٠ ص (الطباخ).

قسَّم المؤلِّف كتابه إلى قسمين:

الأول: في السيرة النبويَّة، وأئمة اليمن إلى زمن حضرة إمامها الموجود في هذا الزمن.

والثاني: في جغرافية اليمن وسياستها، فتكلّم على مَنْ تولاها من عهد صاحب الرسالة ﷺ إلى ولاية الإمام العبَّاس الملقّب بالمهدي (١١٤٠)، بصورة موجزة جداً في نحو ٥٠ صحيفة.

ثم أخذ في التوسّع من عهد هذا الإمام الذي كانت وفاته سنة **١١٨٩** إلى عهد ملكها الحالي الإمام يحيى بن حميد الدين، وذلك من صحيفة **٥٨** إلى صحيفة **٢٧٩**، وابتدأ القسم الثاني من صحيفة (٢٨٠) إلى الآخر.

وكنت أودُّ من المؤلِّف أن لا يسلك خطَّة الاختصار التي رسمها لنفسه، حيث قال في مقدمة تاريخه: «ولست أذكر معظم الحوادث إلا من المئة الثانية عشرة، أما الحوادث المتقدّمة فقد أغْنَت عنها كُتُب التاريخ القديمة، وكذا سيرة الدَّولَتَين الأمويَّة والعباسيَّة»؛ لأنَّ الحوادث المتقدِّمة ما كان منها مُشتَّت الشَّمْل، مبعثراً في بطون التواريخ العامّة؛ فهو قليل الجدوى لمن أراد الوقوف على أحوال البلاد اليمانيَّة خاصَّة في مدَّة وجيزة بطريقة سهلة، وما كان منها مجموع الشَّمل في التواريخ الخاصّة بها؛ فهو غير معلوم؛ لأنه لم يُطبع منها شيء إلى الآن، وإن كانت خزائن الكتب التي أَلْـمَع إليها المؤلف في كتابه وما هنالك من المكاتب التي في البيوت لا تخلو من هذه التواريخ.

وقد ذكر صاحب «كشف الظنون» للبلاد اليمانيَّة تواريخ كثيرة؛ فليرجع إليه مَن أحبّ الوقوف عليها، وممَّن ذَكَرَ تواريخها العلَّامة الجليل صاحب السعادة الأستاذ أحمد تيمور باشا؛ في مقالة له؛ كان نشرها في مجلة «الهلال» المصرية، تحت

عنوان: «نوادر المخطوطات»، وإليك ما قاله:

«من أهم تواريخ اليمن وأندرها: **«الإكليل»** للهمداني المعروف بابن الحايك[١]، عَثَرَ المستشرق مولر على جزء منه فطبعه، وهو في وصف قصور اليمن ومحافدها، وصفة توزيع المياه في سدّ مأرب، وفي الخزانة الأنستاسية ببغداد: الجزء الثامن في محافد اليمن، ودفائنها، وقصورها، ومراثي حمير... إلخ، ومن هذا الجزء نسخة ببرلين، ويشبه أن يكون نفس المطبوع المذكور قبله.

وفي خزانة برلين أيضاً: الجزء العاشر في معارف همدان، ونسلها، وعيون أخبارها، ومعه: ذِكْر ما عُرف من معادن اليمن، وأخبار مختارات عن همدان للآحبي.

وفي هذه الخزانة أيضاً: أنساب الملوك، وقبائل اليمن للهمداني، ولا يبعد أن يكون جزءاً من الإكليل».

قال: «وحيث بدأنا بذكر هذا الكتاب فلْنُلْحِقْه بذكر ما يهمّ الوقوف عليه من تواريخ اليمن:

فمنها: **«العسجد المسبوك فيمَن وَلِيَ اليمن من الملوك»**، للخزرجي، في مكتبة البلدية بإسكندرية[٢].

وفيها أيضاً: **«خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة»**، لنشوان الحميري[٣].

---

(١) كتاب «الإكليل» طبع منه أربعة أجزاء، عدّة مرات، بتحقيق محمد بن علي الأكوع، الشقيق الأكبر للمؤرخ المعاصر إسماعيل علي الأكوع. وللعلامة محمد بن أحمد الشامي رحمه الله كتاب بعنوان: «جناية الأكوع على ذخائر الهمداني»، وهو مطبوع منذ أكثر من ثلاثة عقود.

(٢) هذا الكتاب لم يطبع بعد.

(٣) هذا الكتاب طبع مرتين، الطبعة الأولى في المطبعة السلفية لقصي بن محب الدين الخطيب، والثانية بيروتية مأخوذة عنها.

ومنها: «**شرح البسَّامة**» للصعدي[١]، وهي قصيدة لصارم الدين إبراهيم في خزانتنا.

و«**بغية المستفيد في أخبار زبيد**» للديبع، في خزانتنا، وفي دار الكتب المصريَّة بالقاهرة.

وفيها أيضاً ذيله لمؤلِّفه المسمَّى: «**الفضْل المزيد**»[٢].

و«**الدرّ الثمين**» في أيام الإمام محمد بن عايض في الخزانة الزكيَّة[٣].

و«**روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح**» لعيسى بن المطهر[٤]، في دار الكتب المصريَّة والخزانة الزكيَّة وفي خزانتنا.

و«**تاريخ الزمان**» للكبسي، وصل فيه إلى سنة ١٣٠٤هـ، وهو مفيدٌ في حوادث اليمن الأخيرة.

و«**اللطائف السنيَّة في أخبار الممالك اليمانيَّة**» له أيضاً إلى سنة ١٣٠٥هـ، وكلاهما عندنا[٥].

---

(١) الصعدي، بالعين، نسبة إلى صعدة، الشهيرة، معقل الحوثيين، ومسقط رأس أئمة آل البيت، من السادة الزيديَّة. وللبسَّامة ذيولٌ كثيرةٌ، ولكلِّ ذيل شرح مُتَّسع، لم يطبع منها شيء حتى الآن. وأصلها في نظم نسب الإمام شرف الدين.

(٢) البغية وذيلها طبع مرات، أولاها: بتحقيق يوسف شلحد (جوزيف شاخت)، المستشرق الروسي، ومؤخّراً صدرت طبعة بتحقيق عبدالله الحبشي، فيها زيادات ورجوع إلى أصول خطيَّة جديدة.

(٣) الدُّرُّ الثمين في ذكر المناقب والوقائع لأمير المسلمين محمد بن عائض، حقَّقه عبدالله بن علي بن حميد، أبها وصدر عامَ ١٩٧٨.

(٤) طبع حديثاً طبعة سيئة، ويحتاج إلى إعادة تحقيق ودراسة.

(٥) طبع الثاني منهما، طبعتين.

و«**العسجد المسبوك**» المتقدِّم ذِكْرُه، مختصر للديبع اسمه: «**قرة العيون في أخبار اليمن الميمون**»[١]، لخَّصه منه وزاد عليه، وهو في دار الكتب المصريَّة بالقاهرة.

ويلحق بتاريخ اليمن «**تاريخ ثغر عدن**»[٢]، لأبي محمد عبد الله الطيب، في مكتبة البلدية بإسكندرية، وهو نادر في موضوعه». انتهى.

والتواريخ الثلاثة ـ التي قُبَيل الأخير ـ عَثرتُ عليها في مدينة حلب، فأحببتُ أن أصفها لقرَّاء (الزهراء)، ومحبِّي الوقوف على ما في الزوايا من الخبايا.

* * *

قُرَّة العيون في أخبار اليمن الـمَيْمون

أما «**قرة العيون**» فهو في مجلد واحد، معه كتابان سيأتيك ذكرهما، وهو حسن الخط في **١٣٤** صفحة كبيرة الحجم، في كل صفحة **٣٤** سطراً، طول السطر **١٤** سنتمتراً، وهو تأليف العلَّامة الشيخ عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الشيباني المعروف بالدَّيْبَع[٣]، هكذا حُرّر نسبه على ظاهر النسخة، وكتب هناك: «إنَّ الديبع بلغة النوبة: الأبيض، ولد يوم الخميس رابع المحرم سنة أربع وأربعين وثمان مئة، هكذا

---

(١) مطبوع بتحقيق محمد بن علي الأكوع.

(٢) تاريخ ثغر عدن، حققه مستشرق هولندي، ونشرته بالتصوير مكتبة المثنى ببغداد، وسرقته مكتبة مدبولي بمصر، وأصدره أخيراً الشيخ علي حسن عبد الحميد الأثري، في دار عمار بالأردن.

(٣) مؤلف «تيسير الوصول إلى جامع الأصول» الذي جمع بين الكتب الستة، وقد طبع في الهند أولاً، ثم في مصر سنة ١٣٣٠، وأعيد طبعه بالمطبعة السلفية، ومنه نسخة خطيَّة في مكتبة المدرسة الأحمدية في حلب (الطباخ).

ذكره شيخنا سيدي العلَّامة المؤرِّخ محمد إسماعيل الكبسي ـ رحمه الله تعالى ـ في بعض إجازاته»، وأول الكتاب:

«الحمد لله الذي خصّ قُطْر اليمن الميمون بالإيمان دون سائر الأقطار، فالإيمان يمانٍ، والفقه يمانٍ، والحكمة يمانية، بشهادة المصطفى المختار ﷺ».

ثم قال ما خلاصته: «لما كان قُطر اليمن من أيمن الأقطار ألّف في فضائله وأخباره جَمْعٌ من العلماء والأخيار، فمِمَّن ألَّف في ذلك في مواضي الأعصار: الإمام أبو حفص ابن سميرة، والفقيه عُمارة اليمني، والبهاء الجندي، وجمال الدين عبد الباقي ابن عبد المجيد القرشي، والمؤرّخ النسّابة أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي، وشيخ شيوخنا شرف الدّين إسماعيل المقري، والعلّامة حسين بن عبد الرحمن الأهدل.

وكان أحسن مؤلَّف في ذلك كتاب «العَسْجَد» لأبي الحسن الخزرجي، فجعلتُه قدوتي، ولخَّصت ما احتوى عليه من فرائد المحاسن، ومحاسن الفرائد، وأضفتُ إليه من غيره نكتاً يعظم الاحتياج إليها، وزدتُ عليه باقي تاريخ دولة الملوك بني رسول، من أول دولة الناصر بن الأشرف، إلى دولة ملوكنا الأطاهر الأطهار، وختمتُ بتاريخ دولتهم القاهرة، وأيامهم الزاهرة الأنوار، فجمعتُ من أخبار دولتهم السعيدة، وأيامهم الحميدة، ما اقتدى فيه بي غيري من المؤرِّخين الأخيار، وجعلتُه في ثلاثة أبواب:

(**الباب الأول**): في ذكر اليمن، ومَن ملك صنعاء وعدن، وفيه عشرة فصول:

الأول: في فضل اليَمن، وما يتعلّق بذلك.

الثاني: في ذكر إسلام أهل اليمن.

الثالث: في ذكر عمَّاله بعد وفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

الرابع: في ذكر عمَّال بني أُميَّة.

الخامس: في ذكر عمّاله في الدولة العباسية.

السادس: في ذكر القرامطة باليمن.

السابع: في ذكر الأمراء المتغلِّبين على صنعاء.

الثامن: في ذكر أول الدولة الصليحية.

التاسع: في ذكر ملوك صنعاء بعد الصليحيين.

العاشر: في ذكر أخبار الزريعية واستيلاء الزريعيين على عدن.

(الباب الثاني): في ذكر مدينة زَبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها، وفيه ١٨ فصلاً.

(الباب الثالث): في ذكر الدولة الطاهريَّة، وفيه ثلاثة فصول:

الأول: في ذكر دولة الملك المجاهد علي وأخيه الظاهر عامر ابني طاهر.

الثاني: في ذكر دولة ابن أخيهما الملك المنصور عبد الوهاب بن داود.

الثالث: في ذكر دولة السلطان أبي النصر عامر بن عبد الوهاب.

وجعلتها ختَام الفصول والأبواب، وتمام محاسن الكتاب.

وانتهت الحوادث فيه إلى جمادى الآخرة سنة ٩٢٣، وقد ذكر في حوادث هذه السَّنَة استيلاء ملوك الجراكسة على صنعاء، وقتلهم عامر بن عبد الوهاب، وختم الكتاب بقوله:

«وحصلت خصلة من الظاهر عامر تذمّ، وهي تعرّضه للوقف، ومعارضة الفقهاء فيه، وأظنّ ذلك هو السبب لزوال دولته وما في يده. وأنا ناصحٌ ـ والنصيحة من الدِّين ـ لكلِّ مَنْ يَتولَّى أمور المسلمين، من الملوك والسلاطين، وسائر المتَصرّفين؛ أن لا يَتعَرّض للوقف وأهله، ولا يبيع عزّه بذُلِّه، فما سمعت بأحدٍ تعرّض له من الملوك

ومن دونهم إلا تغيَّرت أحواله، وتلاشت أمواله، وتَبَلْبَلَ باله، وَوُتِر أهله وماله، ولا حَوْل ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم، وحسْبُنا الله ونعم الوكيل».

كان الفراغ من تحصيل هذا التاريخ يوم الأحد، ثاني وعشرين من شهر رمضان الكريم، سنة ١١١٥، في محروسة صنعاء اليمن ـ حرسها الله ـ بقلم أفقر العباد، المطهرِ عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر بن علي الشهيد الهروي الحسني، العلوي، الفاطمي، حامداً لله، ومصلياً على رسول الله ﷺ. انتهى.

وأما الكتاب الثاني في هذا المجلد فهو كتاب **«الذَّخيرة، وكشف التوقيع لأهل البصيرة، في تأويل الأحلام في الليالي والأيام»**.

وهو كما ترى من اسمه في تعبير الرؤيا، ويتغلّب على الظنّ أنه لمؤلِّف «قرة العيون»، وهو في ١٥٣ صحيفة بالحجم السابق.

* * *

نَشْرُ المحاسن اليمانيَّة في خصائص اليمن ونسب القحطانيَّة

ويليهما هذا الكتاب ويظهر أنه لمؤلِّف **«قرّة العيون»**[1]، وقد ذكر فيه جملة من علماء اليمن وأفاضلها: منهم الفقيه العلَّامة شرف الدِّين إسماعيل المقَّري صاحب: «عنوان الشرف»، المتوفَّى سنة ٨٣٧.

وهذا الكتاب لم يذكره صاحب «الكشف»، ولا سعادة الأستاذ أحمد تيمور باشا في مقالته المتقدِّمة الذِّكر، وهي في ٢٧ صفحة، عدد سطورها كسطور الكتابين

(١) نعم هو له، وقد صدر «نشر المحاسن» لابن الديبع، عن دار الفكر المعاصر ١٤١٣هـ، بتحقيق أحمد راتب حموش.

السابقين، والكتب الثلاثة بخط كاتبٍ واحد، وهذا الكتاب على صِغَرِ حجمه غزيرُ المادة، كثيرُ الفوائد، قال في خطبته: «ورسمت مقاصده في سبعة أبواب:

الباب الأول: في شرح خصائص اليمن، وما فيه من الخيرات.

الباب الثاني: في ذكر الآثار العُلْويَّة، كالشّمس والقمر والسَّماوات، والمطر والبرق والرعد، والزلازل والرياح، وذكر جهات هبوب الرياح الأربع وصفاتها، وما يُحْمَد منها وما يُذَمّ، وما جاء في الجنوب المنسوبة إلى اليمن.

الباب الثالث: في ذكر القحطانيَّة.

الباب الرابع: في ذكر بطون قحطان، ومن انتقل منهم من اليمن إلى الشام، وغيره من البلدان.

الباب الخامس: في ذكر مَنْ تولّى أمر الحرمين الشريفين، وهما مكّة ويثرب، ومَن سكن فيها من القحطانيين.

الباب السادس: في ذكاء فطن القحطانية، وكرم طباعهم، وعُلو همّتهم، ووفائهم وشجاعتهم.

الباب السابع: في ذكر وصاب ومن فيه من القبائل المعروفين، والعلماء والصَّالحين وهو آخر الأبواب».

وبعد أن أنهى الأبواب السبعة قال: «الخاتمة فيما ظهر في وصاب من القصص والعجائب والأمور الغرائب»، وبعد أن ذكر أسطراً من الخاتمة انقطع الكلام، ويظهر أنَّ الناقص من الكتاب ورقةٌ أو ورقتان.

وقد قسم الباب الأول ـ وهو شرح خصائص اليمن ـ إلى سبعة فصول، ونحن نكتفي بذكر واحد منها، وهو:

«فصل: ومن خصائص اليمن أيضاً: أن فيه ما لم يكن في غيره من الحصون والمساكن العامرة، والقصور العجيبة الفاخرة، وفيها قَصْر غُمدان الذي بصنعاء، وهو قصر عجيب فاخر، أسَّسه أزال بن قحطان بأمر أخيه يَعْرُب، بناه عشرين طبقة بعشرين سقفاً، بين كل سقفين عشرون ذراعاً، وجعل فيه مئة مسكن، وكان أعلى غرفه ممّرداً بالزجاج».

«ومدينة صنعاء هذه المذكورة من أحسن بلاد الله مسكناً، وأطيبه نوماً، وأصحّه هواءً؛ وذلك أن الشتاء يكون بها بارداً جداً، ولستَ تلقى بها مفلوجاً، ولا صاحب رعشة، ولا مَن به علّة البرد، كما يحدث في بغداد وخراسان وسائر البلدان من الشامية من العلل القبيحة، ولا يزال فراش الرجل فيها في صيفه وشتائه في موضع واحد.

وحرُّها[1] مثل الفيروزج، أو مثل السيف الصقيل، يُشرب به الماء البارد، ويتوضأ به في الشتاء، فلا يضر في ظاهر ولا باطن، وفيها أنواع الفواكه والعنب، لا ينقطع عنها دائم الزمان.

ومنها (ظَفار)؛ وهو قصر الملك أبرهة، ومنها (سلحين)؛ قصرٌ بناه الحارث الرائش بين صنعاء ومأرب، ومنها (ناعط)؛ قصر ملوك هَمْدان في الشرق، ومنها (بينون)؛ قصر بناه تُبَّع الزايد بأرض عنس من مذحج، ومنها (مأرب)؛ مدينة ملوك حِمْيَر، ومنها (صرواح)؛ لسعد بن خولان، ومنها (قصر العسيب)، ومنها (قصر العيقان)، ومنها (موكل)؛ قصر في المشرق، بناه أبرهة ذو المنار بن الحارث الرايش، ومنها (براقين)، ومنها (ذورم) لصهر أبرهة بن الصباح، ومنها (أغماد) لسام يدي سبا[2]، وهو من ولد سبأ الأصغر.

---

(١) كذا بالأصل (الطباخ).

(٢) إني على شك في ضبط بعض هذه الأسماء وقد رسمتها كما هي مرسومة، فليحرّرها العارف بها (الطباخ).

قلت: والعجيب من الكلاعي كيف عدّد حصون اليمن ومدائنه، وسكت عن زبيد.

(ثم قال): وسكتّ عن مدينة تعز».

كيف وصل هذا المجلد إلى حلب؟

وهذا المجلد المشتمل على هذه الكتب الثلاثة ابتاعه الشيخ أحمد رجب الحلبي حينما كان في صنعاء؛ بوظيفة مفتي لواء، في سنة ١٣٢٥هـ وبقي هناك أربع سنوات، كما ابتاع غيره من مخطوطات، أحضرها معه إلى مدينة حلب، وكانت وفاته في حوالي سنة ١٣٣٦هـ، والكتاب الآن في خزانة ولده.

* * *

روح الروح

وأما «**روح الروح فيما كان باليمن من الفتن والفتوح**» لعيسى بن لطف الله ابن المطهر، فهو في جزأين، الأول في ١٦٨ صفحة، والثاني في ١٨٦، كل صفحة ١٩ سطراً، طول السطر ٩ سنتمترات، أورد فيه حوادث اليمن من سنة ٩٠١ إلى سنة ١٠٢٩، فيكون هذا التاريخ ذيلاً لتاريخ «**قرة العيون**»، والنسخة رديئة الخط لا تُقرأ إلا بعد تمعُّن، وهي مكتوبة سنة ١١٠١، و«**قرّة العيون**» أغزر مادة، وأجزل فوائد، وأحسن سبكاً.

* * *

اللطائف السنِيَّة في أخبار المملكة اليمانيَّة

وأما «اللطائف السنيّة» فهو للعلامة بدر الدين محمد بن إسماعيل الكبسي، في ٢٣٥ صفحة، أسطرها ٢٣، وبعض الصفحات أكثر من ذلك، لأنَّ الناسخ لم ينسخه على نَسَق واحد، وطول السطر ١٥ سنتمتراً.

وقد سلك المؤلِّف في أوله طريق الإيجاز، فذكر حوادث اليمن ومَنْ وَلِيَها من عهد النبيِّ ﷺ إلى آخر الدَّولة الأُمويّة، في أربع صفحات، وذكر حوادث تلك البلاد من قيام الدولة العباسية إلى حين انقراضها سنة ٦٥٦ في ٦٥ صحيفة، ثم أخذ في التوسّع أكثر من ذي قبل، وتنتهي فيه الحوادث إلى سنة ١٢٩٤، أو التي بعدها، ويظهر أنَّ المؤلّف استمدّ تاريخه من الكتابين السَّابقين مع زيادات في بعض الأماكن، ثم ذيّل عليهما إلى السَّنة المتقدّمة.

والنسخة حديثة الخطّ، كُتبت سنة ١٣٢٤، نقلاً عن نسخة منقولة من خط المؤلّف، ومقابَلَة عليها، قابلها عبد القادر بن عبد الله بن يحيى بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن المتوكّل على الله إسماعيل، ثم قال المقابل ـ بعد أن رفع نسبَه إلى الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه ـ: وذلك بعناية صاحب المعروف كامل بيه أفندي ـ أكمل الله صحَّته، وأصلح نفسه وذرّيّته ـ.

وكامل بيه: هو محمود كامل باشا العينتابي الحلبي، مستشار نِظارة الحربية العثمانية، في عهد ناظرها أنور باشا الشهير، وقد استنسخ هذا التاريخ، وابتاع الذي قبله حينما كان في البلاد اليمانية، سنة ١٣٢٣ بوظيفة أركان حرب مع القائد العام المشير علي رضا باشا؛ الذي أرسلته الدولة العثمانية لمحاربة الإمام، وقد ذكرت له ترجمة مطوَّلة في الجزء السابع من تاريخي «إعلام النّبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، مع

ذكر بعض الحوادث والفتن التي حصلت هناك في تلك السنة والتي بعدها، والتاريخان الآن في خزانة أخيه الوجيه السيد أسعد العينتابي.

فالتواريخ الثلاثة: «قرة العيون»، و«روح الروح»، و«اللطائف السنيَّة» إذا برزت لعالم الطبع؛ تتمُّ بها وبتاريخها الذي طبع حديثاً للأستاذ الشيخ عبد الواسع اليماني حلقات حوادث تلك البلاد، وبذلك يقف محبُّو الاطِّلاع على أخبارها مُتَسلسلة من الهجرة النبويَّة إلى السَّنة التي نحن فيها.

وإذا أضيف إلى ذلك أمثال كتاب «نشر المحاسن اليمانية» الذي ذكرناه؛ فهناك شفاء الغليل، من معرفة تلك الديار الواسعة، وما فيها، وما كان هناك من الأحوال في الأزمنة الغابرة، وكان المأمول من جلالة الإمام يحيى أن يُعْنى بطبع الكُتب النادرة، في تاريخ اليمن، وأن ينشر مؤلفات الأئمة، ولاسيما قدمائهم، كما فعل السلطان عبد الحفيظ سلطان الغرب، وكما تفعل الحكومة المصرية فيما تُصدِره دار الكتب المصرية من المؤلَّفات النفيسة، وكما يفعل جلالة الملك ابن السعود، فإن في ذلك نفعاً راهناً وثواباً خالداً، وبالله المستعان[1].

محمد راغب الطباخ

---

(١) عقَّب العلامة سليمان الندوي على مقالة الشيخ الطباخ في مجلة «الزهراء»: جمادى الأولى ١٣٤٧ ص ٩٦-٩٧ بما يلي:
«قرأت في مجلة «الزهراء» (ج٩ م١٢) مقالة للأستاذ الشيخ راغب الطبَّاخ، ذكر فيها سلسلة تواريخ اليمن، فجئت أقفو أثره لأتمّم بعض بيانه:
نسخة: «روح الروح فيما كان باليمن من الفتن والفتوح» لعيسى بن لطف الله بن المطهَّر، التي ذكرها الأستاذ ووصفها بأنها رديئة الخط لا تُقرأ إلا بعد تمعّن، وهي مكتوبة سنة ١١٠١هـ فلهذا الكتاب نسخة أخرى حسنة الخطّ، يمنية القلم، بمكتبة دار المصنِّفين «أعظم كَر بالهند» وهي مكتوبة سنة ١٠٧٩، والجزء الثاني من الكتاب يتمّ بحوادث سنة ١٠٢٩، وقد قال =

= صاحبه في آخره: وإلى هنا انتهى الجزء الثاني من كتاب «روح الروح فيما كان باليمن بعد التسع مئة من الفتن والفتوح»، وهو القادر أن يبلِّغني كمال الثالث والرابع في دولة هذا الوزير؛ الذي جعله الله في سماء المكرمات كالبدر المنير».

وقد كان تملَّك هذه النسخة عليُّ بن شمس الدين بن محمد بن سليمان بن أبي الرجال، وتداولتها أيدي الملاك، حتى انتهى أمرها إلى مكتبة دار المصنفين.

ويلي هذه النسخة بعض الرسائل المهمّة التاريخية، ومنها: صورة الرسالة الواصلة من السلطان سليمان بن سليم خان العثماني إلى السيد الكامل الإمام فخر الدين المطهر بن شرف الدين، وذلك صحبة الباشا مصطفى البشار، وحرّر بالقسطنطينية سنة ثمان وخمسين وتسع مئة.

ويليه: جواب السيد الشريف العلَّامة المنيف، فخر الآل والدين المطهر بن شرف الدين على كتاب السلطان الأعظم سلطان البحرين، وحامي الحرمين، السلطان سليمان بن سليم خان، وحُرِّر في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وتسع مئة.

وأما الكتاب الآخر الذي لم يذكره الأستاذ فهو «التحفة العنبرية في معرفة الأئمة من العترة النبوية»، وهو يحتوي الحوادث الكائنة في اليمن بعد استيلاء الأتراك عليها، وشرح فيه مؤلّفه ما دار بين أهل اليمن والأتراك من القضايا.

والموجود في مكتبتنا من هذا الكتاب نبذة استطرد فيها صاحبه إلى ما حدث من الحروب في زمن الإمام المؤيَّد بالله محمد بن أمير المؤمنين المنصور بالله، من سنة ١٠٢٩ إلى سنة ١٠٣٩، مدة عشر سنين حتى وصول حيدر باشا إلى اليمن.

والنبذة الموجودة من الكتاب لا تذكر اسم المؤلف، فنحن نجهله، غير أنه من أدباء اليمن، كما تدلُّ عليه الغَيْرة اليمنية التي تبدو خلال أسطره، والسلام (سليمان الندوي أعظم كر بالهند).

نفائس التكيَّة الإخلاصيَّة بحلب[1]

من جملة المكاتب التي وقفتُ عليها في مدينة حلب: مكتبة التكية الإخلاصية الكائنة في محلة البياضة، عند بني الشيخ محمد بهاء الدين الرفاعي، فرأيتُ فيها كثيراً من الكتب النفيسة والنادرة الوجود، فأحببتُ أن أتحف مجلة «المجمع» بما وقع عليه اختياري من هذه المكتبة وذلك:

في علم التفسير:

١ـ النصف الثاني من «**تفسير الثعلبي**» من سورة الكهف إلى الآخر. مجلد فرغ كاتبه من نسخه بمكة سنة ٥٥١، وهو إبراهيم بن ميخا بن إبراهيم.

في علم الحديث ورجاله:

٢ـ الأول من «**معالم السنن**»، للخطابي بخط البخشي، أحد مشايخ التكية الإخلاصيَّة.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء السادس من المجلد الثامن: (١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م).
وقد تقدَّم التعريف بهذه المكتبة ومؤسِّسها الشيخ محمد البخشي شيخ التكية الإخلاصية، في مقالة: «دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً».
وكتب العلامة الطباخ لرئيس المجمع محمد كرد علي بتاريخ ٥ ربيع الثاني سنة **١٣٤٩** الموافق ١ تشرين الأول سنة ١٩٢٧: «لديَّ أوراق كثيرة فيها نفائس المخطوطات التي في التكايا والبيوت الآن، حرَّرت لكم منها ما هو في مكتبة التكيَّة الإخلاصية، وكلما وجدت فرصة أكتب لكم منها، وهذه الأوراق نتائج بحثي وتنقيبي مدة عشرين سنة ودمتم باحترام».

٣ـ «**الإحكام لأحاديث الإلمام**»، تأليف أبي الحسن علي بن بلبان بن عبد الله الفارسي، والأصل لابن دقيق العيد.

٤ـ «**مختصر موضوعات ابن الجوزي**»، للبدر بن سلامة، بخط العلَّامة أبي ذر ابن الحافظ البرهان الحلبي.

٥ـ «**تقريب التهذيب**»، للحافظ ابن حجر.

٦ـ «**المعرفة**»، و«**المدخل في علم الحديث**»، للحاكم، محرر سنة ٨١١. ومن هذا الكتاب نسخة في الظاهرية بدمشق.

٧ـ «**الكاشف في معرفة من له ذكر في الكتب الستة**»، للحافظ الذهبي، محرَّر سنة ٨٨٩. جزء تام.

٨ـ «**ثَبَت الشيخ محمد بن عقيلة المكي**»، وعليه خطُّه مجيزاً به للشيخ عبد الله البخشي.

٩ـ «**ثَبَت الشيخ حسن العجيمي**».

١٠ـ كتاب «**الفاصل بين الراوي والواعي**» للحافظ الرامهرمزي، والنسخة نفيسة جداً عليها خطوط كثير من العلماء، منهم الإمام أبو الوليد بن الشحنة، والحافظ البرهان الحلبي.

١١ـ الجزء الأول من كتاب «مشتبه النسبة» في رجال الحديث، تأليف الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي. ومنه نسخة في الظاهريَّة بدمشق.

١٢ـ كتاب «**التقييد والإيضاح لما أُطلق وأُغلق من كتاب ابن الصلاح**» في علم مصطلح الحديث تأليف الحافظ العراقي، بخط الحافظ ابن حجر العسقلاني، حرّره في عدن سنة ٨٠٦.

١٣ـ «**غاية السول في خصائص الرسول**»[١] تأليف أبي الحسن علي الأندلسي الشهير بابن الملقن ومعه «**الإمتاع بحكم السماع**» للعلامة الخيضري وغير ذلك.

١٤ـ «**ذيل الكاشف**»، للذهبي، تأليف الحافظ العراقي[٢] بخطه، كتب سنة ٨٠٥، ذكر فيه من تركه الذهبي من كتاب «التهذيب» للمزّي.

١٥ـ الجزء الثاني والثالث من «**مختصر تهذيب الكمال**»، اختصار الشيخ الخطيب القرصي، والجزء الثاني انخرم منه الصفحة الأولى.

في علم الأصول والكلام:

١٦ـ «**شرح معالم أصول الفقه**»، لابن الخطيب، الشارح أبو محمد عبد الله بن محمد الفهري التلمساني، محرَّر سنة ٦٦٤، وهي نسخة نفيسة جداً.

١٧ـ «**شرح لمع الأدلة في قواعد أهل السنَّة**»، لشرف الدين أبي محمد عبد الله الفهري التلمساني.

١٨ـ كتاب «**لمع الأدلة في أصول الدين**»، لإمام الحرمين.

١٩ـ «**المستصفى في الأصول**»، لحجَّة الإسلام الغزالي. (مطبوع).

٢٠ـ «**قواعد الزركشي**»، مجلد ضخم، نسخة نفيسة جداً.

٢١ـ «**معالم أصول الدين**»، للفخر الرازي.

٢٢ـ مجموع فيه رسالة «**الكوكب الساري في حقيقة الجزء الاختياري**»، للشيخ عبد الغني النابلسي في (٨) ورقات وغير ذلك.

---

(١) صدر عن دار البشائر الإسلامية ببيروت سنة ١٤١٤، بتحقيق عبد الله بحر الدين.
(٢) هو ابن الحافظ العراقي ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٢٦.

٢٣ـ مجموع فيه «الاقتصاد في الاعتقاد»، للغزالي (مطبوع)، وكتاب «قواصم شبه الملاحدة»، و«مسألة في الرد على المجبرة».

٢٤ـ رسائل العلَّامة محمد الدياجي بخطه، وهي ١٣ رسالة أولها: «البيان الجميل لمحاسن القرآن الجليل».

٢٥ـ «شرح جمع الجوامع»، للمحلِّي بخط الحسين بن محمد الشحنة، محرر سنة ٨٩٢.

في الفقه الحنفي والشافعي:

٢٦ـ «المجموع المُذْهَب في قواعد المذهب»، لصلاح الدين أبي سعيد خليل بن كيكلدي العلائي، مجلد ضخم محرَّر سنة ٨٦٠.

٢٧ـ «نصاب الاحتساب»، لعمر بن عوض[1].

٢٨ـ «شرح منظومة النسفي في الخلافيات»، لمحمد بن محمد اللؤلؤي.

٢٩ـ الجزء الثاني والثالث والرابع من «الفتاوى التاتارخانية» (حنفي).

٣٠ـ الأول والثاني من «بدائع الصنائع» (حنفي).

٣١ـ منظومة ابن الشحنة في الفقه.

٣٢ـ «سيف النصر في فتاوى أئمة العصر»، للشيخ إبراهيم بن أحمد الملا الحلبي بخطه.

---

(١) السُّنامي الحنفي المتوفى سنة ٧٣٤، قام بتحقيقه ودراسته مريزن سعيد مريزن العسيري، وطبع بمكتبة الطالب الجامعي بمكة المكرمة سنة ١٤٠٦.

في النحو والأدب والتصوف وغير ذلك:

٣٣ـ «شرح المفصَّل»، لمظهر الدين محمد، كتب في آخره أنه فرغ من تأليفه سنة ٦٥٩.

٣٤ـ «شرح تائية ابن الفارض»، لعز الدين محمود الكاشي، نسخة نفيسة.

٣٥ـ «فاتحة العلوم»، للغزالي.

٣٦ـ مجموع فيه أرجوزة تشتمل على الظاء والضاد، نظمت في عون الدين ابن هبيرة الوزير ـ كنت كتبتُ عنها ـ وفيه: «مثلثات قطرب»، «مثلثات الأزهري»، «مثلثات العجلوني»، و«تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس» للحافظ ابن حجر، «التبيين لأسماء المدلسين»، «تذكرة الطالب المعلَّم بمن يقال: إنه مخضرم»، «الاغتباط بمن رُمي بالاختلاط»، الثلاثة للحافظ البرهان الحلبي[١] بخطِّ ابن النَّصيبي.

في التاريخ:

٣٧ـ كتاب «القَصْد والأَمم في التعريف بأنساب العرب والعجم»، للحافظ ابن عبد البَر كتاب صغير.

٣٨ـ «اللباب في معرفة الأنساب»[٢]، تأليف النسَّابة أبي الحسن بن إبراهيم الأشعري[٣].

---

(١) وهذه الكتب الثلاثة للبرهان الحلبي، طبعت بعناية الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله تعالى. وسيأتي التعريف بها في الفصل السادس ٢: ٢٥١-٢٥٥ في مقدمات الكتب التي حقَّقها وطبعها.

(٢) مخطوط في دار الكتب المصرية كما في «فهرسها» ٥: ٣٧.

(٣) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم الأشعري الحنفي، والأشعري نسبة إلى قبيلة الأشاعرة التي كانت تنزل في نواحي زبيد، توفي نحو سنة ٦٠٠ رحمه الله تعالى، له ترجمة في «بغية الوعاة» ١: ٣٥٦، و«الطبقات السنية» ٢: ١٥، و«الأعلام» ١: ٢١٧.

٣٩ـ «لب اللباب في معرفة الأنساب»، للحافظ السيوطي (مطبوع).

٤٠ـ طبقات الحنفيَّة المسَّماة «تاج التراجم»، لابن قطلوبغا (مطبوع).

٤١ـ «طبقات القراء»، للحافظ الذهبي، كتب في القرن التاسع.

٤٢ـ «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية».

٤٣ـ «تذكرة الصحابة في شعراء الصحابة»، للشيخ عبد الله بن محمد البخشي، بخط مصنفه، اخترمته المنيَّة قبل إتمامه، وبقي في المسوَّدة.

محمد راغب الطباخ

* * *

بقايا خطّ البغدادي
ورسالة أخرى من مؤلفاته[1]

قرأت في صدر الجزء الماضي[2] من مجلتكم «الزهراء» الغرَّاء ترجمتكم للعلامة الأديب عبد القادر البغدادي مؤلف «خزانة الأدب»، وذكركم لبقايا خطِّه في الخزائن، فذكَّرني ذلك مجموعاً مهماً في مكتبة المدرسة الأحمديّة بحلب رقم ٨٨٤ وجميعه بخطِّ العلامة المذكور، فأحببتُ أن أحرِّر لكم ما تضمَّنه هذا المجموع من الكتب والرسائل، وهو مختومٌ برسالة من تأليف البغدادي يقتضي أن تضاف إلى ما ذكرتموه من مؤلفاته فتكون عاشرها.

أول الكتب التي فيه كتاب «المعرَّبات» للإمام الأجلّ أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المعروف بالجواليقي، وهو في ٥٤ ورقة، كل صحيفة منها في ١٧ سطراً كتب في آخره ما نصُّه:

«تمَّ الكتاب. كتبه لنفسه العبد الذليل عبد القادر البغدادي، أقالَ الله عثراته، وزاد في حسناته، وتمَّ في الليلة الرابعة والعشرين من ربيع الثاني من شهور سنة تسع وستين وألف هجرية. وكتبها من نسخة صحيحة، وهي بخط محمد بن صدقة المقرئ المشهور، وكتب في آخرها ما نصُّه: (تمَّ الكتاب، وكتب محمد بن صدقة بن علي بن

---

(١) مجلة «الزهراء»، الجزء الخامس من المجلد الخامس: ذو القعدة ١٣٤٧-١٩٢٩م.

(٢) في الجزء الرابع من المجلد الخامس: (شوال ١٣٤٧) ص٢٠٩-٢١٧ بعنوان: «عبد القادر البغدادي مؤلف خزانة الأدب الكبرى» (١٠٣٠-١٠٩٣) كتبها محب الدين الخطيب وأعانه عليها الميمني وأحمد تيمور باشا.

صدقة، في شهر الله الأصم رجب من سنة تسع وعشرين وخمس مئة للهجرة، حامداً لله تعالى، ومصلياً على رسوله محمد النبي، وعلى آله وصحابته مُسلِّمًا. انتهى). وكان في آخره خطوط العلماء وهذه عباراتهم».

وهنا أثبت الأديب البغدادي خطوط الأئمة المُثْبتة على النسخة التي حرَّرها محمد بن صدقة. ونقلُ ذلك يطول.

ولما كان الشيء يذكر بالشيء فمنذ أشهر يمَّم حلبَ الفاضلُ الأديب أحمد أفندي عبيد الكُتبي الدمشقي فذكر لي أنه ابتاع من هنا بعض مخطوطات، وفي جملتها كتاب «المعرَّبات»، وأنه عزم على طبعه، فذكرت له هذه النسخة، فأحب أن تُستنسخ له، وقد تمَّ ذلك.

ويلي كتاب «المعرَّبات» رسالة في ٦ صحائف في بيان تحقق التوسُّعات في كلام العرب، أولها: اعلم أنَّ التوسُّع في لغة العرب وهو على أنحاء: منها إجراء الاسم مجرى الصفة... ولم يذكر اسم مؤلفها.

ويلي ذلك رسالة في ٣ صحائف قال في أولها: وبعد، فهذه رسالة معمولة في نسبة الجمع. ولم يذكر اسم مؤلفها كذلك.

وبعدها كتاب في معاني قول النبي ﷺ: (أنزل القرآن على سبعة أحرف) تأليف الشيخ أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن المقرئ الرازي في ٨١ ورقة، وربما كان هذا الكتاب أوسع كتاب أُلِّف في هذا الموضوع وأوفاه[1]، ولا أدري إن كان الأستاذ العلامة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً اطَّلع على هذا الكتاب

---

(١) حققه أستاذنا الدكتور حسن ضياء الدين عتر رحمه الله تعالى، ونشرته دار النوادر في طبعته الأولى عام ١٤٣٣هـ ووزعته وزارة الأوقاف القطرية، وحققته أيضاً الطالبة عائشة بنت عبدالله الطوالة في جامعة محمد بن سعود في عام١٤٢٥هـ.

حينما ألف رسالته[1] أو لا؛ لأني لم أطلع عليها بعد.

وفي آخره ما نصُّه: تمَّ الكتاب ـ ولله الحمد ـ بمصر المحروسة في سابع ليلة ـ وهي ليلة الجمعة المباركة ـ مِنْ شهر جمادى الأولى من شهور سنة تسع وستين وألف من الهجرة النبوية، عليه أفضل صلاة وأكرم تحية. كتبه بيده الفانية الفقير إلى الله تعالى عبد القادر البغدادي لطف الله به في الدنيا والآخرة. نقلها من نسخة صحيحة بخط المقرئ الهمداني، وهذا كلامه في آخره: وقع الفراغ منه على يدي العبد الضعيف الراجي عفو الله سبحانه وتعالى وغفرانه عمر بن الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي حفص الهمداني غفر الله له ولوالديه، وذلك ببلدة أصفهان حماها الله من حوادث الزمان، في جمادى الأولى من سنة إحدى وسبعين وخمس مئة.

ويلي ذلك رسالة في ١٩ ورقة، «**في توجيه قراءة ابن محيصن في الاستبرق وتحقيق كونها معرَّبة**»، وهي من تأليف العلامة البغدادي، ذكر في أولها شيخه العلامة الشهاب الخفاجي، ثم الوزير غازي باشا حافظ المملكة المصرية وما يليها، وقد كتب على ظاهر هذه النسخة ما نصُّه: «هذه الرسالة تأليف الفقير إلى الله تعالى في جميع أحواله عبد القادر بن عمر البغدادي لطف الله به في الدارين آمين».

وإنَّ ما كتب على ظاهرها هو خطُّه بيقين، وأما نفس النسخة فإني على شك في ذلك لاختلاف الخطِّ عمَّا قبله. وقد خُتمت بقوله: «تمَّت هذه الرسالة العظيمة في ليلة الأحد المبارك حادي عشر صفر الخير من شهور سنة سبع وستين بعد الألف. والحمد لله وحده».

محمد راغب الطباخ

---

(١) المراد رسالته: «الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن».

حول تسمية كتاب: «النجوم الشارقات»[١]

قال صديقنا الأستاذ العلَّامة السيد مسعود الكواكبي عن كتاب «النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج إليها في علم الميقات» (ج٨ ص٧٦٥): أنه ليس فيه مما يختصّ بعلم الميقات شيء، بل جلّه في معالجة بعض الصباغات والدهانات والمعادن فلعلّ تسميته «في عمل الليقات» ـ كما وردت في محاضرة للزميل الأستاذ المعلوف ـ أصحّ.

أقول: يظهر أن الأستاذ لم يتصفَّح جميع أبواب الكتاب ولو تصفَّحه لوجد فيه عدة أبواب، مثل الباب الأول والباب الرابع والخامس والعاشر والحادي عشر والثالث عشر والرابع والعشرين فكلها لها دخل عظيم في علم الميقات؛ لأن كتب هذا العلم تكتب كما رأيناه في عدّة كتب مخطوطة بالمدادات الملوّنة، والباب الرابع والعشرون الذي هو في معرفة ما يحتاج إليه في دوائر المعدل ودوائر العروض والأكر وكرسيها والمقورات... له دخل كبير في هذا العلم، ولذلك قلت في خاتمة الطبع: يغلب على الظنّ أن الصواب ما هو مذكور هنا وأن المؤلّف سمّاه بأهمّ أبواب الكتاب.

وبعد طبعي للكتاب[٢] ظفرت بورقة منه عند بعض الأصدقاء فيها الصفحة الأولى والتاسعة عشر والعشرون، وقد كتب على ظهرها: «النجوم الشارقات في الصنائع المحتاج إليها في بعض الأوقات»، وقال في أول الخطبة: قال الشيخ الإمام

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء السادس من المجلد التاسع: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

(٢) طبعه العلامة الطباخ في المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٦هـ.

العالم العلّامة... أبو عبد الله محمد بن أبي الخير الحسيني[١] الأرميوني المالكي[٢].

ثم قال: وبعد فيقول الراجي عفو ربه من الذنوب والـزلات محمد بن أبي الخير الأرميوني ـ يسَّر الله له الخيرات ـ: إني استخرتُ الله في وضع فوائد لا بدَّ منها لمن أراد التوصُّل إلى فنِّ الوصفيَّات وسمَّيتها بـ«النجوم الشارقات في بعض الصنائع المحتاج إليها في بعض الأوقات»، ورتَّبتها على خمسة وعشرين باباً...

وكتب لي علامة فاس والديار المغربية الشيخ محمد عبد الحي الكتاني[٣] ما نصّه: إني ظفرتُ بنسخة منه في الجزائر عنوانها هكذا: «النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج إليها في بعض الأوقات» لأبي عبد الله محمد بن أبي الخير الأرميوني الحَسَني المالكي، ولاشكّ أنَّ «المحتاج إليها في بعض الأوقات» أحسن وأنسب من العنوان الذي رتَّبتم.

فتكون النسخة التي ظفر بها الأستاذ موافقة في التسمية للنسخة التي ظفرت بورقة منها عند بعض الأصدقاء.

ثم بينما كنت أتصفَّح الكتاب الذي وضعه الدكتور داود جلبي في المخطوطات النادرة الموجودة في مكاتب الموصل، رأيتُه ذكر في جملة الكتب التي هي في خزانة مجموعة فيها «النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج إليها في علم الميقات»، لمحمد بن أبي الخير الحسني.

قال أحمد زكي باشا البحَّاثة المصري: إنَّ مؤلف هذا الكتاب أبو عبد الله محمد ابن أبي الخير الحسني الأرميوني، نسبة إلى قرية قريبة من كَفْر الشيخ في مديرية الغربية في

---

(١) سيأتي في أكثر من موضع في هذه المقالة أنه حَسَني.

(٢) المتوفى بالقاهرة سنة ٨٧١ قبل أن يبلغ الثلاثين.

(٣) وهذا يدلُّ على التواصل بين الشيخين الطباخ والكتاني قبل أن يلتقيا في طرابلس سنة ١٣٥٢.

مصر، وقال: إنَّ من هذا الكتاب نسخة في الخزانة الزكيَّة عُني هو بتصحيحها ومقابلتها على نسختين: إحداهما في المكتبة المصرية في القاهرة ـ وهنا أطال الدكتور[1] الكلام على هذا الكتاب ـ فتكون هذه النسخ الأربع حسب الظاهر، حيث إن الدكتور لم يذكر فيها اختلافاً في التسمية موافقةً للتسمية المذكورة في النسخة الخطيّة التي ظفرت بها وطبعتُ عليها الكتاب.

فتلخَّص من مجموع ما بيَّناه أن لهذا الكتاب اسمين:

الأول: ما أثبتناه في الطبع.

الثاني: «النجوم الشارقات في الصنائع المحتاج إليها في بعض الأوقات».

فيكون قول الصَّديق الأستاذ الكواكبي: «فلعلّ تسميته (في عمل الليقات) ـ كما وردت في محاضرة الأستاذ المعلوف ـ أصحّ»، بعيداً عن الصحَّة والصواب.

عضو المجمع العلمي
محمد راغب الطباخ

* * *

(١) أي: داود جلبي.

كتاب «مناقب بغداد»[١]

هو لابن الجوزي المتوفّى سنة ٥٩٧هـ

تلوتُ تلك المعركة القلميَّة التي قامت بشأن كتاب: «مناقب بغداد»[٢]، وهل هو للإمام عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ أم لحفيده[٣] المسمَّى باسمه وكنيته ولقبه، المقتول مع أبيه يوسف سنة ٦٥٤هـ[٤]؟

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء السابع من المجلد التاسع: (١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م).

(٢) انتسخ الكتاب عن نسخة مصورة عن النسخة المحفوظة في الخزانة التيمورية في القاهرة وَعُني بتصحيحه وتعليق هوامشه ونشره محمد بهجة الأثري البغدادي، في مطبعة دار السلام سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م، وشكَّك في نسبة الرسالة إلى ابن الجوزي، وقال في مقدمة تحقيقه: لست بواثق بها، ولا جازم بصحَّتها.

(٣) قال العلامة عبد العزيز الميمني في رسالة لتلميذه مختار أحمد: (أقول: وقد وقفت على أنَّ نسبتها إلى ابن الجوزي صحيحة، وذلك في «رقم الحلل» للوزير لسان الدين ابن الخطيب ص ٢٨ حيث ذكر ولاية المقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفِي، قال: وولي المقتفِي محمد ابن المستظهر وقارب الاستبداد، وقد مات التركي أمير الجيوش سنجير، وظهر العدل، حكى ذلك أبو الفرج الجوزي في «مناقب بغداد» ولكني لم أجد هذا في المطبوع، ولعل في النسخة نقصاً. والله أعلم.

وفي «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي حيث عدَّد تآليف جده، قال: مناقب بغداد وهو مجلد، ولم أر لابن الجوزي ترجمة أوفى من ترجمة سبطه له، فقد أفاض فيها القول، وأطلق لقلمه العنان) انتهى. وينظر مقالة الراجكوتي في مجلة «المجمع العلمي العربي»، المجلد التاسع سنة ١٩٢٧، ص١١٩-١٢٠، وسيأتي تحقيق نسبة هذه الرسالة لابن الفوطي المتوفى سنة ٧٢٣.

(٤) بل سنة ٦٥٦ على يد هولاكو.

فتصفَّحت كتاب: «الدر المنضّد» في رجال الإمام أحمد، للعلامة عبد الرحمن ابن محمد العمري، وهو من مخطوطات المكتبة الأحمدية في حلب، وقد قال في أوله: إنه اختصره من طبقاته الكبرى المسماة بـ«المنهج الأحمد» فوجدت فيه ترجمة للإمام عبد الرحمن بن الجوزي في عشر صفحات فاستنسختها وقد عدَّد فيها (١٩٦) مصنفاً له ولولا خوف الإطالة لسردتها ههنا.

وقال بعد أن عدّدها: وتصانيف أُخَر غير هذه، وقيل: إنَّ له حواشي على صحاح الجوهري ومآخذ عليها، واختصر فنون ابن عقيل في بضعة عشر مجلداً.

وقد وضعت فيما نقلته أرقاماً لمصنَّفاته التي ذكرها فبلغت ما تقدَّم فجاء في رقم (٨٣): «مناقب بغداد» مجلد. فلم يبقَ هناك من رَيْب في أنَّ الكتاب هو لعبد الرحمن المتوفى سنة ٥٩٧هـ لا لحفيده عبد الرحمن المتوفى سنة ٦٥٤.

وقد قدّمت أن «الدر المنضّد» هو مختصر من «المنهج الأحمد» فيغلب على الظنّ أن المؤلف هناك سَرَد أسماء مصنَّفات ابن الجوزي[1]. فالمرجو ـ من الأستاذ الشيخ عبد القادر المبارك عضو مجمعنا العلمي الذي عنده نسخة من هذا الكتاب، ومن الأديب يوسف إليان سركيس الكتبي في مصر الذي نقل نسخة من هذا الكتاب بالمصوّر الشمسي، ولا أدري في خزانة من هي، ومن الأستاذ الشيخ سعيد الكرمي الذي عنده قطعة كبيرة من هذا الكتاب، كما ذكر ذلك الأديب عيسى إسكندر المعلوف في مجلة «المجمع» قديماً، ـ أن يرجعوا إلى هذا الكتاب ويفيدونا هل بين هذه المصنفات ذكر لكتاب «مناقب بغداد»؟

ويغلب على ظنّي أن صاحب «المنهج» أخذ ترجمة ابن الجوزي من «ذيل طبقات

(١) هو في «المنهج الأحمد» ٤: ٢٥ لمجير الدين العليمي المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ٩٢٨، طبعة دار صادر الأولى ١٩٩٧.

الحنابلة» لابن رجب[1]، ومنه نسختان في المكتبة الظاهريَّة، فالمرجو من الأستاذ حسني الكسم مدير هذه المكتبة أن يفيدنا: هل لهذا الكتاب ذكر بين مصنَّفاته[2]؟

فإذا كان قد ذكر في هذين الكتابين أو في أحدهما فلا يبقى هناك مجال للشك في نسبة الكتاب إلى الإمام ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ «وتقطع جهيزة قول كل خطيب»[3]، ويكون ما ذكر في كتاب «المناقب» من حوادث سنة ٦٥٤هـ من زيادات الحفيد أو غيره، وهذا مما لا يستغرب فقد رأينا لذلك نظائر هذا «كشف الظنون»

---

(١) هو في «ذيل طبقات الحنابلة» ٢: ٤٩٣، طبعة العبيكان ـ الأولى ١٤٢٥.

(٢) أجاب الأستاذ حسني الكسم على سؤال الطباخ، وكتب في مجلة «المجمع» في العدد العاشر من المجلد التاسع: (ربيع الثاني ١٣٤٨): «اطلعت على سؤال لحضرة الأستاذ محمد راغب الطباخ، عضو المجمع العلمي، في الجزء ٧، ص ٤٤٠، من مجلة «المجمع العلمي»، المجلد ٩، يسألني فيه عن كتاب: «مناقب بغداد»، لعبد الرحمن ابن الجوزي، هل هو مذكور في «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب؟ نعم، تصفَّحتُ «ذيل طبقات الحنابلة»، لابن رجب، فوجدت فيه ترجمة حافلة لعبد الرحمن ابن الجوزي، المذكور، تقع في زهاء ٣٠ صفحة بالقطع الكامل، وقد ذكرت فيه مؤلفاته، التي تبلغ نحو ٤٠٠ مؤلفاً، ومنها: «مناقب بغداد»، الذي حصلت الضجَّة بسببه، وبشأن نسبته إلى حفيد ابن الجوزي، المسمَّى باسمه وكنيته ولقبه. لهذا لم يبقَ أدنى شك في صحَّة نسبة كتاب «مناقب بغداد» إلى مؤلفه عبد الرحمن ابن الجوزي، المتوفَّى سنة ٥٧٩هـ، لا إلى حفيده المذكور، المتوفَّى سنة ٦٥٤هـ؛ لأنَّ النسخة التي اعتمدنا عليها في المراجعة كُتبت في القرن الثامن للهجرة، وإنَّ ما حقَّقه الأستاذ الشيخ محمد راغب الطبَّاخ هو الصحيح لا شبهةَ فيه». اهـ.

(٣) صرَّح ابن الجوزي بتأليفه للكتاب، فقال في «المنتظم» ٨: ٨٥: وقد كان أبو الوفاء بن عقيل يصف ما يشاهد من بغداد، وهذا عند خرابها وذهاب أهلها، فيذكر العجائب، وقد ذكرت ذلك في «مناقب بغداد».

وقد نسبه إليه الأئمة، ومنهم: ابن رجب الحنبلي في «ذيل طبقات الحنابلة»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، وابن القطيعي المؤرخ المشهور، كما في «معجم الكتب» لابن المبرد ص ٧٩.

لكاتب جَلَبي؛ فإنَّ صاحبه تُوفي على ما أذكر الآن حول سنة ١٠٧٠[١]، وقد أدرج فيه ذيله وطُبعا معاً بدون تفرقة بين الأصل والذيل، فترى فيه من تُوفي من المؤلفين في وسط القرن الثاني عشر، وقلّ من الناس من يعلم ذلك[٢].

عضو المجمع العلمي
محمد راغب الطباخ

* * *

(١) توفي كاتب جلبي سنة ١٠٦٧ هجرية، الموافق ١٦٥٧ ميلادية رحمه الله تعالى.

(٢) طبع كتاب «مناقب بغداد» مؤخَّراً بتحقيق الدكتور محمد عبد الله القَدَحَات، وصدر عن دار الفاروق بعمان سنة ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٨م، ورجَّح المحقِّق أن الكتاب المطبوع باسم «مناقب بغداد» ليس لابن الجوزي الجد، ولا لأحد أحفاده، وساق أدلة تدلُّ على ذلك من الكتاب نفسه، وجزم بأنَّ الكتاب هو من تأليف كمال الدين عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد بن محمد، المعروف بابن الفُوطي، (نسبة إلى بيع الفوط، وهي ضَرْب من الثياب كان يتاجر بها جدّ أبيه لأمه) المولود سنة ٦٤٢، والمتوفى سنة ٧٢٣، وعزا الكتاب إليه تلميذه الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام» ١٢: ١١٠٢، وفي كتابه «مناقب بغداد» نقل عن كتاب ابن الجوزي المفقود، وذكر بعض الأحداث التي وقعت ببغداد في القرنين السادس والسابع الهجريين، وقد اعتمد المحقق في إخراج الكتاب على الأصل المخطوط في دار الكتب المصرية ضمن مجموعة أحمد تيمور.

حول الجزء السابع والرابع من «إرشاد الأريب»[1]

باشرت منذ عهد قريب بطبع كتاب: **«الإفصاح عن معاني الصِّحاح»** لعالم الوزراء يحيى بن محمد بن هبيرة، المتوفى سنة ٥٦٠، وهو كتابٌ جليلٌ ذكر فيه مؤلفه ما أجمع عليه فقهاء المذاهب الأربعة وما اختلفوا فيه بصورة سهلة قريبة التناول، فدعاني ذلك أن أبحث عن ترجمة المؤلف فوجدت من جملة من ترجمه العلَّامة ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة»، وهذا الكتاب منه نسختان خطيّتان في المكتبة الظاهرية بدمشق فاستنسخت لي بواسطة بعض أهل الأدب والفضل، ولما تلوتها وجدت في أواخرها ما نصّه:

وذكر ياقوت في كتابه «معجم الأدباء»[2] أنَّ الوزير عرضت عليه جارية فائقة الحُسن، وظهر له في المجلس من أدبها وحُسْن كياستها وذكائها وظرفها ما أعجبه، فأمر فاشتريت له بمئة وخمسين ديناراً...

فهذه العبارة تفيد ولا ريب أنَّ للوزير ترجمة في «معجم الأدباء»، فتصفَّحت الجزء السابع الذي نجز منذ عهد قريب، وكتب عنه السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي كلمة في (م٧ ص٢٣٣) وفيه حرف الياء، فلم أجد ذكراً للمترجم في حين أنه قد ذكر جميع من اسمه «يحيى» وذكر بعده من اسمه «يزيد، ويعقوب، واليمان، ويموت، ويوسف، ويونس».

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزء الثامن من المجلد التاسع: (١٣٤٨-١٩٢٩).

(٢) «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» المعروف بـ«معجم الأدباء» لياقوت الرومي الذي نشره المستشرق (د. س مرجليوث).

فعدم ذكر ترجمة الوزير يحيى بن هبيرة بين هؤلاء مع ما لاحظه السيد محمد كرد علي من قِصَر التراجم فيه، وفي الجزء الرابع الذي نشر بعده حيث قال هنا: وقد حوى هذا الجزء الأخير ٢٠٧ تراجم ليست في طولها على مثال ما وَرَدَ للمشهورين من نوعها في الأجزاء السالفة.

وقال في كلامه على الجزء الرابع (ص٥٦٨): وقد لاحظنا في أكثر تراجم هذا الجزء اختصاراً لم يكن مألوفاً لياقوت ولعله كتبها ولم يعاود النظر فيها.

يجعلنا نشك في صحة نسبة هذين الجزأين لياقوت الرومي، وأن نغلِّب الظنَّ أنهما مُلفَّقان، لفَّقهما من باعها لحضرة الأديب مارجليوث علماً منه بشغفه في إحياء هذا الكتاب الجليل ورغبته الشديدة في تتميم أجزائه.

فعسى أن يأتينا ناشره بما يزيل هذا الارتياب[١]، وعلى كلٍّ فإنا له من الشاكرين على ما بذله من الجهود في سبيل نشره له، والمأمول منه أن يواصل البحث عن الجزء الخامس الذي لم يعثر عليه بعد فتكمل بذلك أجزاء هذا الكتاب وتعمّ فائدته.

عضو المجمع العلمي
محمد راغب الطباخ

---

(١) ليس لابن هبيرة أيضاً ترجمة في حرف الياء من مطبوعة دار الغرب من «معجم الأدباء» وهو ناقص. وقد ذكره ياقوت في بعض التراجم، والله أعلم أفاتته ترجمته ـ مع كونه ترجم لنظرائه ـ أم سقطت ترجمته فيما سقط من هذا الكتاب الحفيل النفيس؟ وقد نُقل عنه ما لا نجده فيه، ومن هؤلاء الناقلين: ابن الساعي في «الدر الثمين في أسماء المصنفين» المطبوع قريباً بتحقيق أحمد شوقي بنبين ومحمد سعيد حنشي. وللوزير ترجمة حافلة في «الذيل» لابن رجب، ولعلها أوسع ما ترجم له، وستأتي في الفصل السادس ٢: ٣٠٢.

نفائس الكتب المخطوطة في حلب[1]

مخطوطات المدرسة العثمانيَّة

كانت في الشهباء مكاتب متعدِّدة في مدارسها وزواياها الكثيرة؛ إلا أنَّ أيدي الزمان قضت عليها وشتَّتت شملها، والبقية الباقية منها الآن هي في مكتبة الأحمدية، والعثمانية، والشرفية التابعة للأوقاف، والمولوية، وهذه المكاتب الأربع لا تمنع يد لامس بالرُّغم من وجود محافظين لها، ومنذ ثلاث سنوات وقعت في الأحمدية سرقة هامة بلغ عدد المسروق منها بالإحصاء الرسمي ٩٠ كتاباً، منها ما هو في النفاسة في الدرجة الأولى، وكانت النتيجة بعد المحاكمة والتحقيقات الكثيرة تبرئةَ السارق، كأنَّ السرقة لم تكن، ولو وقع أقل من ذلك بكثير في مكاتب أوربا لقامت القيامة لذلك الحادث، وتَوالى البحث والتحقيق إلى أن تظهر تلك اليد الآثمة، وتُجازى بما تستحقُّه.

---

(١) نشرت في مجلة «الاعتصام» الحلبية بهذا العنوان، في العدد التاسع من السنة الثانية: (١٣٥٠)، ثم نشرت في مجلة «المجمع العلمي» في الجزأين السابع والثامن من المجلد الثاني عشر: (١٣٥١-١٩٣٢) بعنوان: «مخطوطات المدرسة العثمانية بحلب».

وأرسل العلامة الطباخ لرئيس المجمع العلمي محمد كرد علي بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٣٥١ الموافق ٣٠ أيار سنة ١٩٣٢ : «حضرة العلامة المفضال. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد كنت شرعت بوضع فهرست لمكتبة المدرسة العثمانية في حلب المجهول ما فيها إلى الآن، وأنهيت قسم التفسير والحديث، وانتقيت من ذلك نفائس المخطوطات في هذين القسمين، فرآها عندي صاحب مجلة «الاعتصام» فألحَّ في أخذها ونشرها، وكان ذلك. وإن نشرها هناك كان قليل الجدوى على ما أرى، وهي الآن مرسلةٌ لحضرتكم لتنشروها في المجلة، ومتى أتممت باقي الأقسام، أقدِّمها إن شاء الله».

ومنذ سنتين أيضاً ظفرت عند بعض بَاعَة الكتب بكتاب عليه ختم المكتبة العثمانيَّة فابتعته ممَّن هو عنده بعد استئذان إدارة الأوقاف، عندئذ اهتمَّت الدائرة بعض الاهتمام، وأحببت على إثْر ذلك أن أتحرّى هذه المكتبة وأكتب ما فيها، فباشرت بذلك، وبعمل فهرس لها، ولكن حالت عوائق دون إتمام ما شرعت فيه، والآن عدتُ إلى ذلك، وأتممتُ كتب التفسير والحديث، فأحببتُ أن أتحفَ قراء مجلة «الاعتصام» بالنُّخبة من هذين القسمين، إذ لا يخلو ذلك من فائدة لعشَّاق الكتب المخطوطة النادرة ومُحبِّي الاطلاع على نفائسها.

نفائس كتب التفسير:

* **الجزء الأول من «تفسير الوسيط»** للإمام الواحدي. فيه من تفسير سورة الأنعام إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. لا تاريخ لكتابته، ويظهر أنه مما كُتب في القرن السابع أو الثامن.

* **الجزء الثاني منه:** فيه من سورة يونس إلى آخر سورة الكهف لا تاريخ لكتابته أيضاً.

* **الجزء الثالث منه:** أوله سورة مريم، وفي آخره من سورة الأحزاب إلى قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠]. لم يذكر أيضاً تاريخ كتابته، لكنه أقدم كتابةً من الجزأين الأولين، يظهر أنه مما كُتب في القرن السادس.

* **الجزء الرابع منه:** أوله سورة الصَّافَّات إلى آخر القرآن محرَّر سنة **٥٧٢** **بخطِّ أبي** العباس أحمد بن الحسين ابن حيدرة السيرافي الواسطي. وهذا الجزء أقدم من سابقيه.

* **«نغبة البيان في تفسير القرآن» لأبي عبد الله العارف بالله الشيخ عمر بن محمد السهروردي البكري**، وعليه خطه في أوله، وفي آخره في ذيل سماع الكتاب عليه. نسخة تامّة نفيسة جداً محررة سنة ٦١٣، وهذا التفسير والذي قبله لم يُطْبَعَا بعد[١].

* **الجزء الأول من «النهر» للإمام أبي حيان محمد بن يوسف.**

آخره قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨]. بخطٍّ أحمد بن محمد بن عثمان الخطيب الطوخي بمدرسة الكهارية[٢] «من مدارس مصر على ما أظن» يظهر أنه مما كتب في القرن الثامن.

* جزء منه: فيه من سورة الأنعام، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤] إلى آخر سورة مريم، لا تاريخ عليه، غير أنه على ما ظهر لي مما كتب في القرن الثامن.

وهو من وقف الملك المؤيَّد أبي النصر شيخ، أوقفه وما قبله وما بعده على الجامع الذي أنشأ بباب زويلة في مصر، وعليه خط أحمد بن علي العلائي.

* جزء منه: أوله سورة الكهف إلى آخر القرآن، لا تاريخ لكتابته غير أنه مما كُتب في القرن الثامن ظناً، وعلى الورقة الأولى منه خط العلّامة إبراهيم البتروني الحلبي سنة ١٠٤٧

* الجزء الأول من «النهر» أيضاً إلى آخر سورة يونس بخط محمد الأشموني بخط عادي محرَّر سنة ١١٤٧، والثاني منه أوله سورة هود إلى آخر القرآن.

---

(١) حقَّق قسمًا من «نغبة البيان» من الفاتحة إلى نهاية الأنفال الأستاذ عدنان محمد أبو عمر.

(٢) المدرسة الكهارية بالقاهرة بجوار حارة الجودرية المسلوك إليه من القماحية كما في «المواعظ والاعتبار» للمقريزي ٢: ٤١.

* **«تفسير الكواشي» المعروف بـ«التلخيص»، لأبي العباس أحمد بن يوسف الكواشي المتوفى سنة ٦٨٠ الورقة الأولى مذهبة، محرَّر سنة ٧١٠ بخط عمر بن عبد الرحيم الكردري.**

* **«إعراب بعض آيات من القرآن العظيم»**، لجمال الدين أبي عمرو المعروف بابن الحاجب، نسخة قديمة الخط لا تاريخ في آخرها، يرجع عهد كتابتها إلى القرن الثامن.

* **«إعراب آيات من القرآن العظيم»**، لأبي عبد الله الحسين بن خالويه المتوفَّى سنة **٣٧١**، الفاتحة وآيات من جزء عم.

* **«أسئلة القرآن»** لمحمد بن أبي بكر الرازي، محرَّر سنة **١٠٥٩** قطع ربع.

* أيضاً **«أسئلة القرآن»** للرازي، نسخة ثانية وَصَل فيها إلى سورة: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، تنقص أوراقاً.

* حواشي قطب الدين[1] على تفسير **«الكشَّاف»** إلى أواخر سورة طه.

* **«عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»**، لابن السمين أحمد الحلبي، محرر سنة **١٠٥٦**، ومن هذا الكتاب نسخة ثانية في مكتبة الأحمديَّة بحلب، وربما كان الناسخ واحداً.

* **«أسباب نزول القرآن»**، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.

* **«الزبور»**، قطع كامل خطه حَسَنٌ، مُحَرَّرٌ برسم عثمان باشا باني المدرسة العثمانية، وواقف الكتب فيها بخط محمد بن عيسى الكردي.

---

(١) هو محمد قطب الدين الرازي المعروف بالتحتاني، توفي سنة ٦٧٧ بظاهر دمشق عن نحو أربع وسبعين سنة، يكثر الآلوسي وابن عاشور النقل عن حاشيته، وقد حُقِّقت حاشيته على تفسير الكشاف في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سنة ١٩٨١.

* **«كتاب في القراءات»، لأبي عَمْرو عثمان بن سعيد الداني.**

* **«حاشية السعد على الكشّاف»**، نسخة نفيسة قديمة الخط من الأول إلى آخر سورة الأنعام.

نفائس كتب الحديث:

* **الجزء الأول من «المُفْهِم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»** تأليف الإمام أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، لا تاريخ لكتابته، ويظهر أنه مما كُتب في القرن الثامن.

الجزء الثاني منه، مثل الأول خطاً وحجماً، وعليه خط العلّامة إبراهيم بن الملا الحلبي، وخط المحدِّث الشيخ أحمد الشراباتي الحلبي.

الجزء الثالث منه، مثل الأول والثاني خطاً وحجماً.

الجزء الرابع منه، عليه خط الملا أيضاً، أوله كتاب: **«فضائل الصحابة»** إلى آخر الكتاب، مُحَرَّر سنة ٧٢٤ بخط محمد بن عيسى بن رزيك محرِّر الأجزاء التي قبله.

* **الجزء الأول من «شرح الشفا»** لشيخ الإسلام الشيخ عمر العُرْضي[١] الحلبي المتوفى سنة ١٠٢٤، واسمه: **«فتح الغفار»**[٢] قطعه كامل بخط خليل بن محمد، مُحرَّر برسم نعمة الله أفندي الكواكبي، نقله من نسخة المصنِّف.

---

(١) هذه النسبة إلى عُرض ناحية بدمشق ـ بضم العين وسكون الراء كما في «الأنساب» ـ، وقال في «اللباب»: «هي مدينة صغيرة في البر من أعمال حلب». وقال في «معجم البلدان» (٤: ١٠٣): «وعُرضٌ بُليدة في برية الشام تدخل في أعمال حلب الآن، وهي بين تدمر والرصافة». وقال السِّلفي في «معجم السفر» ص ٤٠٣: العُرض بالسخنة مدينة صغيرة من المناظر في طريق دمشق.

(٢) وتمام اسمه: «بما أكرم الله به نبيَّه المختار».

الجزء الثاني منه، والثالث منه بخط عمر بن أحمد، مُحَرَّر سنة ١١٤١، وبه تمَّ الكتاب، ومن هذا الشرح نسخ متعدِّدة في الأستانة، ذكرت أماكنها في تاريخي «إعلام النبلاء» في ترجمة المؤلف، وهو شرح جليل اعتنى فيه مؤلفه، وقد ذكره الشهاب الخفاجي في مقدِّمة شرحه للشفا.

* الجزء الثاني والرابع والخامس من «تخريج أحاديث الهداية» للزيلعي، ومن هذا الكتاب نسخة كاملة في مكتبة الأحمدية بحلب.

* «الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار»، للحافظ الحازمي المتوفى سنة ٥٨٤، عليه في آخره خط الحافظ محمد بن سعيد الدبيثي وغيره من الحفاظ، مُحرَّر في بغداد سنة ٦٣٢ بخط محمد بن أحمد بن أبي بكر بن خليل البكري، وعلى هذه النسخة وعلى نسخة مطبوعة في الهند طَبَعْتُ هذا الكتاب في مطبعتي العلمية.

* «جامع الأصول» للإمام ابن الأثير، وهو الذي جمع فيه الكتب الستة، مجلد ضخم قطع كامل مُذهَّب الصحيفة الأولى، جميل الخط لا تخاله إلا طبعاً وفي آخره رجال الكتب الستة لا تاريخ لكتابته، ويظهر أنه مما كتب في القرن العاشر في بعض بلاد العراق[١].

* «فتح المتعال في مدح النعال» للعلامة أحمد بن محمد المقّري المغربي التلمساني نزيل القاهرة، جلد واحد نسخة المصنف كما هو مذكور في آخره وفيه سبعة رسوم لنعل النبي ملونة بالألوان البديعة، وفي آخرها تقاريظ لعلماء عصره من علماء الديار المصرية، آخرهم سيدي محمد بن رأس العين، وهذا الكتاب طبع الآن في الهند.

---

(١) في مدرسة يحيى باشا في الموصل نسخة في مجلدين ورقها حرير جلد محلى بخط حمو الكردي، خطها في غاية الجودة وقد رتب حواشيه أحسن ترتيب ا.هـ. مخطوطات الموصل للدكتور داود الحلبي ص ٢٣٤ (الطباخ).

* **«نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض»** للشهاب الخفاجي في مجلد ضخم مُذهَّب الورقة الأولى، محرَّر سنة ١١٢٩.

* **«توثيق عرى الإيمان في تفضيل حبيب الرحمن»** للإمام العلَّامة الشيخ إبراهيم(١) ابن البارزي الحَمَوي(٢)، مجلَّد واحد ضخم(٣)، النسخة مَقْروءة على المؤلف سنة ٧٣٣، وهي بخط علي بن جمعة ابن أبي الحسن الشافعي الهلالي الحَمَوي، حرَّرها سنة ٧٢٢، وهذا الكتاب نادر الوجود، ولا أعلم له نسخة ثانية(٤).

* **«الكاشف في رجال الكتب الستة»** للحافظ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، نسخة نفيسة جداً محرَّرة سنة ٧٥٦، أي: بعد وفاة المؤلف بقليل ومقابلة(٥).

* **«دلائل النبوة»** للحافظ البيهقي، مجلَّد ضخم بخط مغربي، محرَّر سنة ٨٧٤ بخط محمد بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل الدفتري المالكي.

---

(١) اسمه هبة الله وإبراهيم هو جده.

(٢) هو الإمام القاضي المفتي المصنِّف المقرئ المحدِّث الفقيه أبو القاسم شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم البارزي الحَمَوي الشافعي، نسبة إلى باب أبرز في بغداد، ولد بحماة سنة ٦٤٥، وتوفي ليلة الأربعاء من ذي القعدة ٧٣٨، عن ٩٣ عاماً، رحمه الله تعالى.

(٣) لخَّصه من كتاب «الشفا» للقاضي عياض (ت٥٤٤) ذكره تلميذه ابن الوردي (ت ٧٤٩) في «تاريخه» ٢: ٤٨٣.

(٤) بل له نسخ مخطوطة كثيرة أهمها: نسخة في الخزانة العمرية ببغداد تحت رقم (٢٢٣٧٦) في ٤٦٦ صفحة، بخط محمد بن عبد الرحمن أبو الفتح المظفر، وتاريخ النسخ سنة ٧٣٠ في عصر المؤلف. ونسختان في المكتبة العباسية بالبصرة، الأولى تحت رقم (٣٧٨) في ٥٠٠ صفحة، والثانية تحت رقم (٧٧٤) في ٥٠٠ صفحة وتاريخ نسخهما قبل سنة ٧٣٨ كما في «الفهرس الشامل» ١: ٢٢٥. وللكتاب مخطوطات أخرى، وسيصدر محققاً قريباً عن دار الفتح بعمان.

(٥) حققه على نسخة بخط المصنف مع حاشية البرهان الحلبي بخطه أيضاً، أستاذنا العلامة المحقِّق المحدِّث الشيخ محمد عوامة الحلبي ثم المدني حفظه الله تعالى، وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م في خمسة مجلدات.

* **«جزء منتخب من تهذيب الكمال»** للمزي، اختصار عماد الدين أبي بكر بن أبي المجد الحنبلي البعلبكي الأصل المتوفَّى سنة ٨٠٤، ومعه كتاب **«الضعفاء»** المختصر من «تهذيب الكمال».

* **«الكواكب الدراري في شرح البخاري»** للعلامة الكرماني نسخة في ٣ مجلدات قطع كامل.

* **«خلافة الأئمة الأربعة»** للإمام أحمد بن حجر الهيتمي، مجلد وسط، قطع وسط، محرَّر سنة ألف بخط تقي الدين بن الحاج أبي بكر الموقت بجامع الكبير بحلب، حسن الخط.

* **«شرح الإمام سراج الدين عمر بن أبي الحسن علي بن الملقِّن»** الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤، في أربع مجلدات ضخام.

المجلد الأول: ينقص من أوله قليلاً، وأول ما فيه: باب ما ذكر من ذهاب موسى في البحر إلى الخضر عليه السلام.

والمجلدات الأربع هي بخط دقيق جداً، وناسخها الحافظ الكبير الإمام إبراهيم ابن محمد بن خليل سِبْط ابن العَجَمي الحلبي المعروف بالبرهان الحلبي المتوفى سنة ٨٤١.

المجلد الأول: محرَّر سنة ٧٨٥، والثاني: سنة ٧٨٦، وعليهما خطُّ المؤلف في عدَّة محلات، وقد حرَّرهما البرهان الحلبي حينما كان في مصر.

وجاء في آخر المجلد الثاني ما نصُّه: ثم بلغ في الثاني بعد المئة قراءةً عليَّ ومقابلةً بأصله نفعه الله وإيَّاي. كتبه مؤلفه غفر الله له.

والمجلد الثالث والرابع: حرَّرهما الحافظ البرهان الحلبي سنة ٨٢١ في حلب في

المدرسة الشرفية بهذا الخط الدقيق، وفي نهاية الرابع تمَّ الشرح.

جاء في «كشف الظنون» في الكلام على «جامع الصحيح» للإمام البخاري وشروحه في ص٣٦٦: «وشرح الإمام سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي المتوفى سنة ٨٠٤، وهو شرح كبير في نحو عشرين مجلداً أوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، أحمد الله سبحانه وتعالى على توالي إنعامه... الخ. قدَّم فيه مقدِّمة مهمة، وذكر أنه حصر المقصود في عشرة أقسام في كل حديث وسمّاه: «شواهد التوضيح».

قال السخاوي: اعتمد فيه على شرح شيخه مغلطاي، والقطب وزاد فيه قليلاً.

قال ابن حجر: وهو في أوائله أقعد منه في أواخره، بل هو من نصفه الباقي قليل الجدوى. انتهى.

وذكر الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع» في ترجمة الحافظ البرهان الحلبي التي نقلناها عنه إلى تاريخنا: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ج٥ ص٢٠٧:

«وكتب عنه[١] شرحه[٢] على البخاري في مجلدين بخطه الدقيق الذي لم يحسن عند المصنِّف لكونه كتب في عشرين مجلداً».

وجاء في ترجمته بعد ذلك: «واجتهد الشيخ رحمه الله تعالى في هذا الفن ـ فن الحديث ـ اجتهاداً كبيراً، وكتب بخطه الحسن الكثير، فمن ذلك كما تقدَّم شرح البخاري لابن الملقِّن، بل فقد منه نصفه في الفتنة (فتنة تيمورلنك)، فأعاد كتابته أيضاً». انتهىٰ.

---

(١) أي: تلميذه البرهان الحلبي.

(٢) أي: شيخه ابن الملقن.

ويستفاد من كلام الحافظ السخاوي أنه كتب جميع الشرح في مجلدين، وليس كذلك لما تقدَّم من أنه كتب النصف الأول في مجلدين سنة ٧٨٥، وسنة ٧٨٦، ويحتمل أنه تـمَّم كتابة الجميع في أربع مجلدات، ثم فقد منه النصف الثاني في الفتنة، فأتمه في مجلدين سنة ٨٢١ بالمدرسة الشرفية في حلب.

وولادة الحافظ البرهان الحلبي سنة ٧٥٣، وكتابته لهذين المجلدين اللذين يبلغان عشرة مجلدات سنة ٨٢١ فيكون عمره حين اشتغاله بكتابتهما ٦٨ سنة، ومن هنا تعلم عُلوَّ همَّة هؤلاء الرجال وحرصهم على الإفادة والاستفادة، وإنَّ كبر السن لم يكن مانعاً لهم من الاشتغال والتَّحرير.

وطريقة الإمام ابن الملقِّن في هذا الشرح أنه يذكر الحديث بتمامه، ثم يشرع في الكلام عليه من عشرة وجوه، وهكذا.

وفي الجملة فهو شرحٌ جليل من أجلِّ شروح البخاري يُضَاهي شرحَ العيني وابن حجر، ولعله في كثير من المواضع أعظم فائدة منهما، ولا يؤثِّر فيه ما تقدَّم من قول الحافظ السخاوي.

وهو ـ لِعِظَم فائدته ـ جديرٌ بالطبع، فعسى أن ينهض لإبرازه إلى عالم المطبوعات بعض أرباب المطابع في مصر فتعم الاستفادة منه(١).

* «**شرح المصابيح**» للإمام فضل الله التوربشتي، مجلد واحد، مُحرَّر سنة ٧١٢.

* «**شرح المناوي الكبير للجامع الصغير للجلال السيوطي**» في سبع مجلدات، نسخة كاملة. الجزء الثاني من المناوي أيضاً.

---

(١) طبع الكتاب في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، وصدر في ٣٦ مجلداً، وقامت بتحقيقه دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث بالفيوم.

* **«القُرَبُ في فضل العَـرَب»** تأليف الحافظ الزين العراقي.

* **«بهجة المحافل وأجمل الوسائل بالتعريف برجال الشمائل» تأليف الشيخ** إبراهيم اللقاني.

* **«الإصابة في أسماء الصحابة»** للحافظ ابن حجر، في مجلدين، بخط محمد الداغستاني كتبهما سنة **١١٢٩**.

* **«التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح»** للإمام الزركشي، جلد واحد، مُحرَّر سنة **٨٤٨**.

* الجزء الأول من **«سنن أبي داود»** إلى آخر الجزء السادس من أجزاء الخطيب، وعليه خط الحافظ يوسف بن عبد الهادي وسماعات كثيرة.

* **«الاستيعاب في أسماء الأصحاب»** للحافظ ابن عبد البر الأندلسي، في أربع مجلدات بخط مغربي وعليها سماعات متعدِّدة مكتوبة بقرطبة، والأجزاء بخط إبراهيم ابن يحيى بن إبراهيم حرَّرها سنة **٥٢٣** فهي محررَّة بعد وفاة المؤلف بقليل، ولعل هذه النسخة أنفس نسخ **«الاستيعاب»** الموجودة في الدنيا.

* **«المنهاج»** للإمام أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي المتوفى سنة **٤٠٣**، وهو من رجال ابن خلِّكان، وهو في ثلاث مجلدات ضخام، وهو شرح لحديث واحد وهو قوله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة»**.

آخر الجزء الأول: فصل: فأما الفرق بين دعاء الرجل لغيره بالحضر وبين الشفاعة له، قال في آخره: يتلوه في الجزء الثاني: الثالث عشر من (شعب الإيمان) وهو باب التوكل على الله جلَّ ثناؤه. وهو بخط محمد بن أحمد بن سليمان المالكي، محرَّر سنة **٧٤٥**.

والجزء الثاني ليس عليه تاريخ كتابته، لكنه بخط الناسخ الأول، وعلى هذا الجزء خط شيخ الإسلام الشيخ عمر العُرْضي الحلبي شارح «الشفا» للقاضي عياض.

الثالث منه، وهو تتمَّة الكتاب، عليه خط العُرْضي أيضاً، وليس عليه تاريخ كتابته، لكن الناسخ واحد.

وهو كتابٌ جليلٌ عظيم الفائدة، حَسَنُ السَّبْك، منسجم العبارة، اشتمل على مكارم الأخلاق الإسلامية والمزايا المحمديَّة، وأخبرني بعض مستشرقي الألمان وهو قَيِّم المكتبة الألمانية أو رفيق له قاطنٌ الآن في الأستانة يبحث عن المخطوطات العربية، وقد كانا حضرا منذ نحو ثلاث سنين إلى الشهباء وأطلعتهما على هذا الكتاب، فقال واحد منهما: إنَّ هذا الكتاب يوجد منه نسخة في المكتبة السلطانية بمصر ولا يعلم لهما ثالثة.

ولكن مما يؤسف له أنَّ كثيراً من أوراقه في الأجزاء الثلاثة ملتصقة ببعضها البعض لمطر كان أصاب هذه النسخة وغيرها، وذلك لقلة العناية بأمر المكتبة وعدم المبالاة في أمر حفظها من أمثال ذلك.

وأتمنى أيضاً أن يُقَيِّض الله لهذا الكتاب مَنْ يقومُ بأمر طبعه لينتشر وتعمَّ فائدته.

* «**الحلية النبوية الشريفة**» وهي ورقة واحدة فيها صحيفتان، فيها نعت النبي ﷺ بخط درويش محمد المولوي بخط جميل جداً، الصحيفة اليمنى ضمن سطور مكتنفة بألوان من الأحبار والدهانات العجيبة ومُموَّهة بالذهب، واليسرى شجرة ملوَّنة كذلك ومموَّهة بالذهب، وهي ضمن غلاف من جلد.

* «**كتاب فضل الخيل**» للحافظ شرف الدين الدمياطي المتوفى سنة ٧٠٥ بمجلد واحد عليه في آخر صحيفة منه خط المؤلف وسماع عليه سنة ٦٨٩ بالقاهرة وخط

حسن، وهو مضبوط بالشكل، وهو من نفائس هذه المكتبة أيضاً.

وقد وفَّقني المولى جلَّ جلاله لطبع هذا الكتاب[١] على هذه النسخة، وعلى نسخة أخرى هي في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب محرَّرة سنة ٧٢٩، وقد أخذتُ بالمصور الشمسي صحيفة من تلك وصحيفتين من هذه، وطبعت معه كتاب **«رشحات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد»** للعلامة الشيخ محمد البخشي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٨[٢].

في ٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٠

عضو المجمع
محمد راغب الطباخ

* * *

(١) طبعه العلامة الطباخ في مطبعته العلمية سنة ١٣٤٩، وستأتي مقدمته لهذا الكتاب في الفصل السادس في مقدِّمات الكتب التي حقّقها وطبعها ٢: ١٩٧-٢١٨.

(٢) قال في آخر مقالته المنشورة في مجلة «الاعتصام» الحلبية: ومتى أتممت تحرير فهرس هذه المكتبة، ألتقط منها نفائسها، وأُتحف بها قرّاء مجلة «الاعتصام» إن شاء الله تعالى، وبالله التوفيق.

الكمال ابن العديم وتاريخ «بُغْية الطَّلب»[1]

بقلم: المؤرخ الأستاذ الطباخ

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

فإنَّ من الأفذاذ الذين أنبتتهم الشهباء، وكان لهم في الآفاق صيتٌ ذائع، وفَضْل شائعٌ، وعُرفوا بالنُّبوغ منذ نعومة أظفارهم، ومبدأ نشأتـهم، العلَّامة الكبير والوزير الخطير، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جَرادة العُقَيْلي المعروف بابن العديم المتوفَّى سنة ٦٦٠هـ مؤلف: «بغية الطلب في تاريخ حلب»، ذلك التاريخ الحافل الذي

(١) مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيَّة: الأعداد (٥٨-٦٠) من السنة ١١: ذي الحجة ١٣٥٨، والأعداد (٦١-٦٤) من السنة ١٢: محرم ١٣٥٩، والأعداد (٦٥-٦٨) من السنة ١٢: ١٣٥٩، والأعداد (٦٩-٧١) من السنة ١٢: ١٣٥٩. والأعداد (٧٢-٧٤) من السنة ١٢: جمادى الآخرة ١٣٥٩، والأعداد (٧٥-٧٨) من السنة ١٢: رجب وشعبان ١٣٥٩، والأعداد (٧٩-٨٢) من السنة ١٢: رمضان وشوال١٣٥٩، والأعداد (٨٣-٨٦) من السنة ١٢: ذي القعدة وذي الحجة ١٣٥٩، والأعداد (٨٧-٩٠) من السنة ١٣: المحرم وصفر ١٣٦٠.
وجاء في مقدِّمة البحث بقلم تحرير المجلة: «استقصاء الجهد في التحقيق عن حياة عالم الشهباء، وكوكب قرنها السابع ـ ابن العديم ـ قضى في إظهاره فضيلة الأستاذ الشيخ محمد راغب الطباخ عشر سنوات كاملة، إثر إخراج تاريخ «إعلام النبلاء» الذي أمضى في تأليفه كذلك خمسة وعشرين عاماً، فجاء هذا الاستقصاء والتَّحقيق عن ابن العديم، وتاريخه «بُغْية الطلب» دراسة واسعة لحياته منذ نشأته حتى وفاته: سيرةً وعلماً وأدباً وشعراً، ثم إنتاجاً وتأليفاً، فإنَّ تاريخه المسمَّى: «بغية الطلب في تاريخ حلب» هو أبرز تأليف له، إذا ما آخذ من هذه الدراسة مكاناً، واعتناء فلأنه من أقدم تواريخ حلب، لم يطبع بعد، قد تفرَّقت نسخ منه في دور كتب البلاد شرقاً وغرباً، من حلب إلى بغداد، إلى مصر إلى باريس!!! =

يجيء في نحو عشر مجلدات ضخمة، وقد أودعت ترجمته في الجزء الرابع من تاريخي: «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»، الذي تمَّ طبعه في مطبعتي العلمية سنة ١٣٤٥، وتكلَّمت في المقدمة على تاريخه هذا وما هو موجود منه الآن في المكاتب الغربية.

إلا أنَّ جلالة قدر هذا الرجل، دعتني أن أتابع البحث عن أحواله وأخباره وعن تاريخه، فكنتُ كلما ظفرت أثناء مطالعتي وتَصَفُّحي للكتب التاريخيَّة والأدبيَّة بنبذة تتعلَّق بترجمة هذا الفذِّ العظيم، وكلَّما عثرت على شيء يتعلَّق بتاريخه الحافل، أُقيِّد

= وبـهذه الدراسة يتبدَّى للقارئ صُوَر عن أواخر القرن السادس، وأوائل القرن السابع، في حلب الشهباء، والتاريخُ مرآةُ الأمم، ومنارٌ للأجيال، وحافزٌ حميد للرُّقيِّ، فللأستاذ الطباخ الشكر على حرصه في إحياء مآثر للشهباء كادت تبيد، ودونك ذلك تباعاً».

وقال العلامة الطباخ في ترجمته الذاتيَّة الموسَّعة: «وفي سنة ١٣٥٣، وضعت للإمام الكمال عمر بن أحمد بن العديم مؤرّخ حلب المتوفّى سنة ٦٦٠ ترجمة خاصة، وتكلَّمت على تاريخه الكبير لحلب المسمَّى: «بُغيةُ الطلب في تاريخ حلب»، وهو في ٨٠صحيفة، دعوتها: «ترجمة الكمال ابن العديم والكلام على تاريخه العظيم». نُشر منها ٦٠ صحيفة في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبيّة».

وقال الطباخ في «الثقافة الإسلامية» في ترجمته لابن العديم وكلامه عن تاريخه عند ذكره أشهر المؤلِّفين في التاريخ ص٣٥٣: «ذكرت فيها ترجمته الحافلة، وبيَّنت مكان أجزائه المتفرِّقة في مكاتب العالم مع وصفها بالجملة. والعشرون صحيفة التي لم تُنشر فيها نُقول من كُتب متفرّقة عن هذا التاريخ العظيم، ويهتم الآن المعهد العلمي الإفرنسي في دمشق بجمع تلك الأجزاء، وأخذها بالمصوّر الشمسي، ثم السعي في نشرها، حقّق الله ذلك».

وقد نشر العلامة الطباخ في مجلة المجمع في الجزء الثاني من المجلد الثالث والعشرين (١٣٦٧-١٩٤٨) مقالة بعنوان: «بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم»، ذكر فيها أجزاء الكتاب المبعثرة في دور الكتب بالشرق والغرب، ما ذكره مكرر في هذه المباحث التي نوردها من مجلة «الجامعة الإسلامية»، فاستغنيت عن إعادة نشرها مرة أخرى، وقال في ختام مقالته في «المجمع»: «هذا ما وقفت عليه من أجزاء هذا التاريخ العظيم، وأنا متابع البحث عنه من أكثر من أربعين سنة إلى الآن.

وأرجو ممن يقف على شيء منه غير الأجزاء التي ذكرناها أن يتحفنا به على صفحات مجلة المجمع خدمة للعلم والأدب، ونحن له من الشاكرين، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

ذلك عندي إلى أن اجتمع لديَّ شذرات كثيرة هامة، فخشيةً من تبعثر هذه الدرر، وأن تذهب أدراج الرياح، أحببت أن أنظمها في عِقْد، وأُتحف بها أبناء وطني، والمشتغلين بالتاريخ والأدب من غيرهم من عُشَّاق الاستطلاع، تنويهاً بخطر هذا العَلَمِ الفرد وعظيم فضله، إذ هو ولا ريْب حسنة من حسنات الشهباء، بل دُرَّة يتيمة في تاجِ ذاك العصر الزاهر.

أسرته:

لم يكن الصاحب ابن العديم ـ رحمه الله تعالى، وبرّد مَضْجعه ـ رجلاً عصامياً فحسب، بل كان رجلاً عصامياً عظامياً من بيت قديم في الشهباء عريقٍ في المجْد والفضل تَسَلْسَلَ العلم والأدب في هذا البيت في الشهباء عصوراً متعدّدة.

إنَّ السَّـــريَّ إذا سَرَى فَبِنَفْسِـهِ وابنُ السَّـــريِّ إذا سَرَى أسراهُمَا

قال ياقوت الحمَوي في «معجم الأدباء»: هو عمر بن أحمد بن أبي جرادة، يعرف بابن العديم العُقَيْلي، يُكنَّى أبا القاسم، ويلقَّب كمال الدين، من أعيان أهل حلب وأفاضلهم، وهو عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة، صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه.

واسم أبي جرادة: عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عُقَيل ـ أبي القبيلة ـ بن كعب بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن معد بن عدنان.

وبيت أبي جرادة، بيتٌ مشهور من أهل حلب: أدباء، شعراء، فقهاء، عبَّادٌ، زهَّادٌ، قضاةٌ، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر، وتالياً عن غابر، وأنا أذكر قبل شروعي

في ذكره شيئاً من مآثر هذا البيت، وجماعة من مشاهيرهم، ثم أتبعه بذكره ناقلاً ذلك كله من كتاب ألّفه كمال الدين ـ أطال الله بقاءه ـ وسمّاه: «الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة» وقرأته عليه فأقرّ به.

لِمَ سُمِّي هذا البيت ببني العديم؟

قال ياقوت: سألته أولاً: لم سُمِّيتم ببني العديم؟ فقال: سألتُ جماعةً من أهلي عن ذلك، فلم يعرفوه، وقال: هو اسم مُحْدَثٌ، لم يكن آبائي القدماء يُعرفون بهذا، ولا أحسبُ إلا أن جدَّ جدي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة ـ مع ثروةٍ واسعةٍ ونعمةٍ شاملة ـ كان يكثر في شعره من ذكر العدم وشكوى الزمان، فَسُمِّي بذلك، فإن لم يكن هذا سببه، فلا أدري ما سببه؟!

عناية هذا البيت بحفظ القرآن العظيم:

قال ياقوت: حدثني كمال الدين أبو القاسم «أي المترجَم»، قال: حدثني جمال الدين أبو غانم محمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة عمِّي قال: لما ختمت القرآن قبَّل والدي ـ رحمه الله تعالى ـ بين عينيّ وبكى، وقال: الحمد لله يا ولدي هذا الذي كنت أرجوه فيك[1]، حدَّثني جدُّك عن أبيه عن سلفه: أنه ما منَّا أحد إلى زمن النبي ﷺ إلا من ختم القرآن.

قال ياقوت: وهذه منقبة جليلة، لا أعرف لأحدٍ من خلق الله شَرْواها، وسألت عنها قوماً من أهل حلب فصدَّقوها.

وقال لي زين الدِّين محمد بن عبد القاهر النَّصيبي: دع الماضي، واستدلَّ بالحاضر

---

(١) لم يقل: منك، لأنه يرجوه من الله فيه. وهذا تعبير دقيق، ومقصد عميق. تنظر: رسالة «التربية القرآنية وأثرها في تنشئة الأجيال» للأخ الدكتور عبد الحكيم الأنيس، ص ١٥.

فإنني أعدّ لك كلَّ من هو موجود في وقتنا هذا ـ وهم خلق ـ ليس فيهم أحدٌ إلا وقد ختم القرآن، وجعل يتذكَّرهم واحداً واحداً، فلم يخرم بواحد.

هجرة جدهم الأعلى من البصرة إلى حلب وتوطئتهم فيها:

قال ياقوت: حدَّثني كمال الدين ـ أطال الله بقاءه ـ قال: وكان عقب بني أبي جرادة من ساكني البصرة، في محلة بني عُقيل بها، فكان أول من انتقل منهم عنها: موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عامر بن أبي جرادة إلى حلب، بعد المئتين من الهجرة، وكان وَرَدَها تاجراً.

وحدَّثني قال: حدَّثني عمّي أبو غانم[1]، قال: سمعت والدي يذكر فيما يأْثره عن سلفه: أن جدَّنا قدم من البصرة في تجارة إلى الشام، فاستوطن حلب، قال: وسمعتُ والدي يذكر أنه بلغه أنه وقع طاعون بالبصرة، فخرج منها جماعة من بني عُقيل وقدموا الشام، فاستوطن جدُّنا حلب.

قال: وكان لموسى من الولد: محمد وهارون وعبد الله، فأما محمد فله ولد اسمه عبد الله، ولا أدري أَعْقَبَ أم لا، وأما العقب الموجود الآن فلهارون وهو جدُّنا، ولعبد الله وهم أعمامنا.

ثم ساق ياقوت عدّة تراجم من نسل هارون وعبد الله[2] (وقد أودعنا الجميع في تاريخنا)[3]، ثم أخذ في ترجمة الصاحب كمال الدين أبي القاسم، فقال:

هو كمال الدين أبو القاسم عمر بن القاضي أبي الحسن أحمد بن القاضي أبي

---

(١) هو: محمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة.

(٢) «معجم الأدباء» ٥: ٢٠٧٠-٢٠٨٢.

(٣) أي: في «إعلام النبلاء» للطباخ رحمه الله تعالى.

الفضل هبة الله بن القاضي ابن غانم محمد بن القاضي أبي سعيد هبة الله بن القاضي أبي الحسن أحمد بن أبي جرادة.

كلُّ هؤلاء من آبائه وليَ قضاء حلب وأعمالها وهم حنفيُّون، وهو الذي نحن بصدده، وإلى معرفة حاله ركبنا سَنَن المقال وجُدَدَه، فإنه من شروط هذا الكتاب، لكتابته التي فاقت ابنَ هلال، وبلغت الغاية في الجودة والإتقان، ولتصانيفه في الأدب التي تذكر آنفاً إن شاء الله تعالى.

فأما أوصافه بالفضل فكثيرةٌ، وسِماتهُ بحُسْن الأثر أثيرةٌ، وإذْ كان هذا الكتاب لا يتَّسع لأوصافه جميعاً، وكان الوقت يذهب بحلاوة ذكر محاسنه سريعاً، رأيت من المشقَّة والإتعاب، التَّصَدِّي لجميع فضائله والاستيعاب، فاعتمدتُ على القول مُجْملاً لا مفصّلاً، وضربةً[1] لا مبوّباً، فأقول:

إنَّ الله عزّ وجل عُني بخلقته، فأحسن خَلْقه، وخُلُقه، وعقله، وذهنه، وذكاءه، وجعل همّته في العلوم ومعالي الأمور، فقرأ الأدب وأتقنه، ثم درس الفقه فأحسنه، ونظم القريض فجَوَّده، وأنشأ النثر فزيّنه، وقرأ حديث الرسول ﷺ وعَرَف عِلَله، ورجاله، وتأويله وفروعه وأصوله، وهو مع ذلك طَلْق البَنَان، جواد بما تحوي اليدان، وهو كاسمه كمالٌ في كل فضيلة، لم يَعْتَنِ بشيء إلا وكان فيه بارزاً، ولا تَعَاطى أمراً إلا وجاء فيه مُبرّزاً، مشهورٌ ذلك عنه، لا يخالف فيه صديق، ولا يستطيع دفاعه عدو.

وأما قراءته للحديث في سرعته، وصِحَّة إيراده، وطيب صوته، وفصاحته؛ فهو الغاية التي أقرّ له بها كل مَنْ سمعه، فإنه يقرأ الخطَّ العَقِدَ، كأنه يقرأ من حفظه.

---

(١) أي: دفعة واحدة.

وأما خطُّه في التجويد والتَّحرير، والضبط والتَّقييد، فَسَواد مُقْلة لأبي عبد الله بن مقلة، وبدرٌ ذو كمال عند علي بن هلال.

خِـلالُ الفَضْل في الأمجادِ فَوْضى ... ولكــنَّ الكمــالَ لـهـا كمـالُ

وإذا كان التامّ من خصائص عالم الغيب، وكان الإنسان لابدَّ له من عيب، فعيبُه لطالب العنت والشَّيْن، أنه يُخاف عليه من إصابته العين.

هذا مع العفاف والزَّمْت، والوقار وحُسْن السَّمْت، والجلال المشهور، عند الخاصّ والجمهور.

قاد الجيوشَ لِسَبْعَ عَشْـرَةَ حجَّةً ... وَلِدَاتُـهُ عـن ذاكَ في أشـغالِ(١)

نشأته:

قال ياقوت: سألته ـ أدام الله عُلوَّه ـ عن مولده؟ فقال لي: ولدتُ في ذي الحجّة، سنة ٥٨٨، قال: فلما بلغتُ سبعة أعوام، حُملت إلى المكتب، فأُقْعِدتُ بين يدي المعلّم، فأخذ يمثّل لي كما يمثّل للأطفال، ويمدّ خطاً، ويرتّب عليه ثلاث سينات، فأخذت القلم، وكنت قد رأيته، وقد كتب (بسم) ومدّ مدّته، ففعلت كما فعل وجاء ما كتبته قريباً من خطّه، فتعجّب المعلّم، فقال لمن حوله: لئن عاش هذا الطفل، لا يكون في العالم أَكْتَب منه. وصحّت ـ لعمري ـ فِراسةُ المعلّم فيه فهو أكتبُ من كلِّ مَنْ تقدّمه بعد ابن البوّاب، بلا شك.

قال: وختمتُ القرآن ولي تسع سنين، وقرأتُ بالعشر ولي عشر سنين، وحُبِّبَ إليّ الخطّ، وجعل والدي يحضُّني عليه.

---

(١) البيت لكميت يمدح به مخلد بن يزيد بن المهلب.

فحدَّثني الشيخ يوسف بن علي بن زيد الزهري المغربي الأديب معلّم والده بحضرة كمال الدين قال: حدَّثني والد هذا (وأشار إليه) قال: وُلد لي عدَّة بنات وكَبُرْنَ، ولم يولد لي غير ولد واحد ذكر، وكان في غاية الحُسْن والجمال والفِطْنة والذكاء، وحفظ من القرآن قَدْراً صالحاً وعمره خمسُ سنين.

واتَّفق أن كنتُ يوماً جالساً في غرفةٍ لنا مشرفةٍ على الطريق، فمرّت بنا جنازة، فاطَّلع ذلك الطفل ببصره نحوها، ثم رفع رأسه إليَّ وقال: يا أبت إذا أنا متّ بما تُغشِّي تابوتي؟ فزجرتُه، وأدركني في الوقت استشعارٌ شديدٌ عليه، فلم يمضِ إلا أيام حتى مرض ودَرَج إلى رحمة الله، ولحق بربِّه.

فأصابني عليه ما لم يُصِبْ والداً على ولد، وامتنعت من الطعام والشراب، وجلستُ في بيت مظلم، وتَصبَّرت فلم أُعْطَ عليه صبراً.

فحملتني شدَّة الوَلَه على قصد قبره، وتولَّيت حفره بنفسي، وأردتُ استخراجه والتَّشَفّي برؤيته، فلمشيئة الله، ولطفه بالطفل ـ أو بي ـ ؛ لئلا أرى به ما أكرهُ، صادفتُ حجراً ضخماً، وعالجتُه فامتنع عليَّ قلعه، مع قوَّة وأيْدٍ كنت معروفاً بهما، فلما رأيت امتناعَ الحجر عليَّ علمتُ أنه شفقة من الله على الطفل ـ أو عليَّ ـ فزجرتُ نفسي، ورجعتُ ولهان، بعد أن أعدت قبره إلى حاله التي كان عليها.

فرأيت بعد ذلك في النوم ذلك الطفل وهو يقول: يا أبتاه، عرِّف والدتي أني أريد أجيء إليكم، فانتبهتُ مرعوباً، وعرّفت والدته ذلك، فبكينا وترحَّمنا واسترجعنا.

ثم إني رأيت في النوم، كأنَّ نوراً خرج مني[١]، حتى أشرف على جميع دارِنا ومحلَّتنا وعلا عُلُواً كبيراً، فانتبهتُ وأوّلْتُ ذلك، فقيل لي: أَبْشِر بمولودٍ يعْلو قدْرُه، ويعظم أمره، ويشيع بين الأنام ذكره بمقدار ما رأيت من النور.

---

(١) في «معجم الأدباء»: من ذكري.

فابتهلت إلى الله عزّ وجل، ودعوتُه، وشكرته، وقَوِيَتْ نفسي بعد الإياس؛ لأني كنت قد جاوزت الأربعين.

فلم تمض إلا هُنَيْهة حتى اشتملت والدة ولدي هذا ـ وأشار إلى كمال الدين أيّده الله ـ على حَمْل، وجاءت به في التاريخ المقدَّم ذكره، فلم يكن بقلبي بحلاوة ذلك الأول، لأنه كان نحيفاً جداً، فجعل كلما كَبُر نَبُل جسماً وقدراً، ودعوتُ له عدَّة دعوات، وسألتُ الله له عدَّة سؤالات، ورأيت فيه ـ والحمد لله ـ أكثرها.

ولقد قال له رجل يوماً بحضرتي ـ كما يقول الناس ـ : أراكَهُ الله قاضياً كما كان آباؤه، فقال: ما أريد له ذلك، ولكني أشْتهيهِ أن يكون مُدرِّساً، فبلّغه الله ذلك بعد موته.

تحصيله للعلم وعناية أبيه به في هذا السبيل:

قال: وسمع الحديث على جماعة من أهل حلب والواردين إليها، وأكثر السماع على الشيخ الشريف افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي[1].

ورحل به أبوه إلى البيت المقدَّس مرتين، في سنة ٦٠٣، وفي سنة ٦٠٨، ولقي بها مشايخ، وبدمشق أيضاً، وقرأ على تاج الدين أبي اليُمْن ـ في النَّوبتَيْن ـ كثيراً من مسموعاته.

حدَّثني كمال الدين أدام الله معاليه قال: قال لي والدي: احفظ «اللمع» حتى أُعطيك كذا وكذا. فحفظته، وقرأته على شيخ حلب وقتئذ، وهو الضياء ابن دُهن الحصا[2].

---

(١) له ترجمة في الجزء الرابع من «تاريخنا» ص٣٤١. وكانت وفاته سنة ٦١٦ (الطباخ).

(٢) له ترجمة في «تاريخ ابن خلّكان»، وله ترجمة واسعة في تاريخ المترجم «بغية الطلب» في الجزء الذي سنتكلم عليه بعد ـ إن شاء الله تعالى ـ وفيها ما ليس في «تاريخ ابن خلكان» (الطباخ).

ثم قال لي: احفظ «القُدُوري» حتى أهَبَ لك كذا وكذا ـ لدراهم كثيرة أيضاً ـ فحفظته في مُدَّة يسيرة، وأنا في خلال ذلك أُجوِّد [الخطَّ]، وكان والدي ـ رحمه الله تعالى ـ يُحرِّضني على ذلك، ويتولّى صَقْل الكاغد لي بنفسه.

فإني لأذكر مرَّةً، وقد خرجنا إلى ضيعة لنا؛ فأمرني بالتجويد، قلت: ليس هاهنا كاغد جيد، فأخذ بنفسه كاغداً كان معنا رديأً، وتناول شربة اسفينذر ـ وكانت معنا ـ فجعل يصقل بها الكاغد بيده، ويقول لي: اكتب.

ولم يكن خطُّه بالجيِّد، وإنما كان يعرف أصول الخطِّ، فكان يقول لي: هذا جيِّد وهذا رديء. وكان عنده خط ابن البوّاب، فكان يريني أصوله إلى أن أتقنتُ منه ما أردت.

ولم أكتب على أحد مشهور؛ إلا أن تاج الدين محمد بن أحمد البرفطي البغدادي، وَرَدَ إلينا إلى حلب، فكتبتُ عليه أياماً قلائل لم يحصل منه فيها طائل.

ثم إنَّ الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ خَطَبَ لي وزوّجني بقوم من أعيان حلب، وساق إليهم ما جرت العادةُ بتقدمته في مثل ذلك، ثم جرى بيننا وبينهم ما كرهته، وضيَّق صدري منهم، فوهب لي الوالد جميعَ ما كان ساقه إليهم وطلَّقتهم.

ثم إنه وصلني بابنة الشيخ الأجلّ بهاء الدين أبي القاسم عبد المجيد بن الحسن ابن عبد الله المعروف بابن العجمي، وهو شيخ أصحاب الشافعي، وأعظم أهل حلب منزلةً وقَدْراً ومالاً وحالاً وجاهاً، وسَاقَ إليهم المهر وبالغ في الإحسان.

وكان والدي ـ رحمه الله تعالى ـ بارّاً بي، لم يكن يلتذُّ بشيءٍ من الدنيا التذاذَهُ بالنظر في مصالحي، وكان يقول: أشتهي أرى لك ولداً ذكراً يمشي.

فَوُلد أحمد ولدي ورآه، وبقي إلى أن كبر ومرض مرضة الموت، فيوم مات مشى

الطفلُ حتى وقع في صدره، ثم مات والدي رحمه الله تعالى في الوقت الذي تقدَّم ذكره[١].

وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب ـ رحمه الله تعالى ـ كثيرَ الإكرام لي، وما حَضَرتُ مجلسه قط، فما أقبل على أحد إقباله عليَّ، مع صِغَر السنّ.

واتَّفق أنْ مرضتُ في شهور سنة ٦١٨ مرضاً أُيِسَ مني فيه، فكان يخطر ببالي ـ وأنا مريض ـ أنَّ الله تعالى لابدَّ وأن يَمُنَّ بالعافية لثقتي بصحَّة رؤية الوالد، وكنت أقول: ما بلغت بعد مبلغاً، يكون تفسيراً لتلك الرؤيا، إلى أنْ منَّ الله بالعافية وله الحمد والمنَّة، فذهب عني ذلك الخيال، وليس يخطر منه في هذا الوقت ببالي شيء؛ لأنَّ نِعَم الله عليَّ سابغة، وأياديه في حقِّي شائعة.

أوَّل ما ولي من التدريس وأول مؤلفاته:

قال: ولما مات والده بقي بعده مدة، ومات مدرِّس مدرسة شاذ بخت[٢]، وهي من أجلّ مدارس حلب وأعيانها فولي التدريس بها في ذي الحجة سنة ٦١٦، وعمره يومئذ ٢٨ سنة، هذا وحلب أعمر ما كانت بالعلماء والمشايخ، والفضلاء والرواسخ، إلا أنه رؤي أهلاً لذلك دون غيره، وتصدّر وألقى الدرس بجَنَان قويّ ولسان لَوْذعيّ، فأبهر العالم وأعجب الناس.

---

(١) كان وفاة والده سنة ٦١٣ (الطباخ).

(٢) هو القاضي شمس الدين محمد بن يوسف بن الخضر المعروف بابن القاضي الأبيض، وكانت وفاته سنة ٦١٤، كما ذكرته في تاريخي ج٤ ص٣٢٠، وهذه المدرسة في سوق النشابين، ويعرف الآن بسوق الزرب (الضرب) وهي في وسط السوق، وتعرف الآن بمسجد الشيخ معروف، ويزعم الناس أنه المدفون في الحجرة التي عن يسار باب المدرسة، وللحجرة نافذة مطلّة على السوق ويغلب على الظن غلبةً تقارب اليقين أن المدفون هنا هو شاذ بخت باني المدرسة، وقد تكلمت عليها هنا وفي الجزء الثاني ص٨٤ (الطباخ).

وصنَّف مع هذا السن كتباً منها كتاب: «**الدَّراري في ذكر الذّراري**»[١] جمعه للملك الظاهر، وقدّمه إليه يوم وُلد ولده الملك العزيز الذي هو اليوم سلطان حلب.

وكتاب: «**ضوء الصباح في الحثِّ على السماح**» صنّفه للملك الأشرف، وكان قد سيَّر من حرَّان يطلبه، فإنه لما وقف على خطِّه اشتهى أن يراه، فقدم عليه فأحسن إليه وأكرمه وخلع عليه وشرَّفه.

وكتاب: «**الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة**»، وأنا سألته جمعه فجمعه لي وكتبه في نحو أسبوع، وهو عشرة كراريس.

وكتاب: **في الخط**، وعلومه، ووصف آدابه وأقلامه وطروسه، وما جاء فيه من الحديث والحكم. وهو إلى وقتي هذا لم يتمّ.

وكتاب: **تاريخ حلب** في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومَنْ كان بها من العلماء ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكُتّاب.

حُسْن خطِّه واشتهاره في الآفاق:

قال: وشاع ذكره في البلاد، وعُرف خطُّه بين الحاضر والباد، فتهاداه الملوك، وجُعِل مع اللآلي في السلوك، وضُربت به في حياته الأمثال، وجعل للناس في زمانه حذْواً ومثالاً.

فممّا رغَّب في خطِّه: أنه اشترى وجهةً واحدة بخطِّ ابن البوَّاب بأربعين درهماً، ونقلها إلى ورقة عتيقة ووهبها من حيدر الكتبي، فذهب بها وادَّعى أنها بخط ابن البوَّاب وباعها بستين درهماً[٢]، ونسخ لي هذه الرُّقعة بخطِّه، فدفع فيها كتَّابُ الوقت

---

(١) طبع سنة ١٢٩٨ في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ثم طبع في دار السلام في القاهرة ١٤٠٨.
(٢) في «معجم الأدباء» زيادة على التي بخط ابن البواب بعشرين درهماً.

ـ على أنها بخطه ـ ديناراً مصرياً، ولم يطبْ قلبي ببيعها.

وكتب لي أيضاً جزءاً فيه ثلاث عشرة قائمة، نقلها من خط ابن البوَّاب، فأُعطيتُ فيها أربعين درهماً ناصرية قيمتها أربعة دنانير ذهباً فلم أفعل.

وأنا أعرف أنَّ ابن البوَّاب لم يكن خطّه في أيامه بهذا النَّفاق، ولا بلغ هذا المقدار من الثمن، وقد ذكرت ما يدل على ذلك في ترجمة ابن البواب(١).

وممَّن كتب إليه يسترفده خطُّه: أمين الدين ياقوت، المعروف بالعالم، وهو صهر أمين الدين ياقوت الكاتب، الذي يُضْرب به المثل في جَوْدة الخط، وتخرَّج به ألوف، وتتلمذ له من لا يحصى.

كتب إلى كمال الدين رُقعةً ـ وحموهُ حيٌّ يرزق ـ نُسْخَتُها:

«الذي حضَّ الخادم على عمل هذه الأبيات، وإن لم يكن من أرباب الصِّناعات؛ أنَّ الصدر الكبير الفاضل عز الدين ـ حرس الله مجْدَه ـ لما وصل إلى الموصل ـ خلَّد الله ملكَ مالكها ـ نشر من فضائل المجلس العالي العالمي الفاضلي، كمال الدين ـ كمل الله سعادته، كما كمَّل سيادته، وبلَّغه في الدارين مُناهُ وإرادَته ـ ما يعجز البليغُ عن فهمه، فضلاً عن أن يُورِدَهُ، لكنَّ فضائل المجلس كانت تُملى على لسانه وتشغله.

فطرب الخادمُ من استنشاق ريَّاها، واشتاق إلى رؤية حاويها عند اجتلاء محيَّاها، فسمح عند ذلك الخاطر مع تبلُّده بأبيات تخبر المجلس محبة الخادم له وتعبده، وهي:

حَيَا نَدَاكَ ـ كَمالَ الدِّين ـ أحيانا ... ونَشْرُ فَضْلِكَ عن مَحياكَ حيَّانا

وحُسْنُ أخلاقِكَ اللاَّئي خُصِصْتَ بها ... أهدَتْ على البُعْدِ لي روْحاً وريْحانا

حَوَيْتَ يا عمرُ المحمودُ سيرتُهْ ... خَلْقاً وخُلْقاً وإفْضالاً وإحسانا

---

(١) أي: في «معجم الأدباء» (الطباخ).

إن كان نجـلُ هـلالٍ في صناعَتِـهِ ونجْـلُ مقلـةَ عينـا الدَّهر قـد كانا
فأنت ـ مولاي ـ إنسانُ الزمان وقد غَـدَوْتَ في الخـطِّ للعينَـين إنسـانا
قـد بثَّ فَضْلَكَ عـزُّ الدين مقْتَصِداً وبـثَّ شُـكرَكَ إسراراً وإعلانـا
فضاع نَشْـرُكَ في الحدْباءِ واشتُهِرَتْ آيـاتُ فَضْلِـكَ أرسـالاً وَوُحْدانـا
أُثنـي عليـك وآمـالي معلّقـةٌ بحُسْـن عفوِكَ ترجو منـكَ غُفرانا
وإن تطفَّلْـتُ في صـدقِ الـوداد ولم يُقْـضَ التَّلاقـي لنا عَفْـواً ولا حانا
فـما أُلامُ عـلى شيءٍ أُتيـتُ بِـهِ «فالأُذنُ تعشـقُ قبـل العين أحيانا»
يا أفضـلَ الناس في علـمٍ وفي أدبٍ وأرجـحَ الخلـق عنـدَ الله ميزانـا
قـد شرَّف الله أرضـاً أنت سـاكنُها وشرَّف النـاسَ إذ سـوَّاك إنسـانا

قد هجم الكلام على المجلس العالي بوجهٍ وقاح، ولم يخش مع عفو المولى وَصْمَة الافتضاح، فَلْيلقِ عليها المولى سَتْر المعروف، فهو أليق بكرمه المألوف، والسلام.

فكتب إليه كمال الدين بخطِّه الدُّري ولفظه السِّحري وأنشدنيها لنفسه:

يـا مَـنْ أبحـتُ حمـى قلبـي مودَّتَـهُ ومَـن جعلـتُ لـهُ أحشـاي أوطانـا
أرسـلتَ نحْـويَ أبياتـاً طَرِبْـتُ لهـا والفضـلُ للمُبتـدي بالفضل إحسـانا
فَرُحْـتُ أختـال عُجْباً مِـن محاسِـنها كَشـاربٍ ظـلَّ بالصَّهبـاء نَشْـوانا
رَقَّـتْ وراقَـتْ فجـاءت وَهْيَ لابسـةٌ مـن البلاغَـةِ والتَّرصيـع ألوانـا
حَكَـتْ بمنثورِهـا والنّظـمِ إذ جُمعـا بأحـرفٍ حَسُـنَت رَوْضـاً وبسـتانا
جَـرَّتْ عـلى جَـرْولٍ[1] أثـوابَ زينتِها إذ أصبحَتْ وَهْيَ تكسو الحُسْنَ حسَّانا[2]

---

(١) هو الحُطيئة، جرول بن أوس.

(٢) هو حسان بن ثابت رضي الله عنه.

أضْحَت تغبِّرُ وَجْهَ العَنْبريِّ[1] فما "بنو اللقيطةِ من ذُهل بن شيبانا"
يُمسي لها ابنُ هلالٍ[2] حين ينظرُها يحكي أباهُ بما عاناهُ نُقصانا
كذاك أيضاً لها عبدُ الحميدِ[3] غَدَا عبداً يجرُّ من التقصير أردانا
أتَتْ وعبدُكَ مَغْمورٌ بعِلَّتِهِ فغادَرَتْهُ صحيحاً خيْرَ ما كانا
وكيف لا تَدفعُ الأسقامَ عن جَسَدي وَهْيَ الصَّبا حَمَلَتْ رَوْحاً ورَيْحانا
فما على طَيْفِها لو عاد يَطْرُقُنا فربَّما زار أحياناً وأحيانا
فاسْلَم وأنت أمينُ الدين أحسنُ مَنْ وشَّى الطُّرُوسَ بمَنْظومٍ ومَنْ زانا
ولا تخطَّتْ إليك الحادثاتُ ولا حَلَّت برَبْعِكَ يا أعلى الورى شانا

وفي أنموذج[4] الشيخ محمد العُرْضيِّ الحلبي، قال الذهبي[5]: بحُسْن خطِّه

---

(١) يقصد بالعنبري: أحد شعراء بلعنبر؛ وهو قريط بن أنيق صاحب الحماسية الأولى.

(٢) هو علي بن هلال الخطاط الشهير المعروف بابن البوَّاب، المتوفى سنة ٤٢٣هـ.

(٣) عبد الحميد، هو عبد الحميد بن يحيى المعروف بالكاتب، يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسِّلون، قُتل مع مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية سنة ١٣٢هـ.

(٤) هو من المخطوطات، وذكر له في ترجمته من جملة المؤلفات: «الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار»، و«مراد المراد ومواد المواد». وقال في ترجمة أبي العز موفق الدين الأعمى: ومن حلم الملك الكامل وفراسته: ما حكاه الصاحب كمال الدين في كتابه: «الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار»: أنَّ بعض خواصّه كان قد صار بحيث يبدو من فَلَتات لسانه كلمات فيها غلظة في حقِّ الملك الكامل، ودام على ذلك إلى أن مات ذلك الشخص. فلما مات قال الملك الكامل لبعض ثقاته: امض إليه بسرعة وائتني بما في جرابه، فمضى وأتى بشيء مثل الدرور، فأحضر الطبيب، وقال له بمحضر من خواصّه: ما هذا؟ فقال: سمٌّ قاتل. فقال الملك: لهذا السم مع هذا الشخص ثلاث سنين، يترقَّب أن يجعل منه شيئاً في طعامي وأنا أعلم به، وما أحببتُ أن أفضَحَه، وكانت وفاة الملك الكامل بمدينة دمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين وست مئة في بيت صغير، ولم يشعر به أحد من هيبته رحمه الله تعالى (الطباخ).

(٥) في «تاريخ الإسلام» ١٤: ٩٣٧.

يُضْرَب المثل، من ذلك ما أنشدنيه ابن القَيْسراني:

بخـدٍّ[1] مُعَـذِّبي آيـاتُ حُسْـنٍ ... فَقُـل مـا شـئتَ فيـه ولا تُحاشي
ونُسْـخةُ حُسْـنِهِ قُرِنَتْ فَصَحَّت ... وهـا خـطُّ الكمال عـلى الحواشي

وقال فيه بدر الدين بن حبيب:

وعَـذَارٍ مُزَخْـرَفِ الخـدِّ يهـوى ... طائـرُ القلـبِ نـارَهُ كالفَـراشِ
فَهْـوَ كالمسـكِ أو كنَمْـل بعَـاجٍ ... أو كَخِـطِّ الكمال فـوقَ الحواشي

وقال علي بن عثمان الأربيلي:

ومَيْـزٌ بـين فُوديـهِ وفَـرْقٌ ... دقيـقٌ كالصِّـراط المسـتقيمِ
حـروفُ مَلَاحـةٍ دقَّـت وجَلَّت ... معانيهـا كخـطِّ ابـن العديـمِ

وكتب إليه سعد الدين بن عربي يطلب منه شيئاً من خطِّه:

ألا يـا سـيِّدَ الـوُزَراءِ طُـرّاً ... نوالُـكَ سـابقٌ منِّـي السـؤالا
يُرجِّي العبدُ منك سـطورَ نَسْـخٍ ... يُزيـلُ بِنُورِهـا عنـهُ الضـلالا
فخطُّـكَ فيـه للظَمْـآن رِيٌّ ... إذا مـا خَـطُّ غـيرِكَ كان آلا
ولا أرضى بخـطٍّ فيـه نقـصٌ ... وعنـدي هِمَّـةٌ ترجُـو الكـمالا
وَمِـنْ عجَـبٍ وأنـتَ بـلا مثيـلٍ ... بـأني أبتَغـي منـكَ المثـالا

وله أيضاً:

شـغَلْتَ يمينَـكَ يـا ذا المعـالي ... بَفْيـضِ اليَراعِ وفَيـضِ النَّـوالِ
فـلا ابـنُ الهـلالِ ولا غـيرُهُ ... يُدانيـك بابـنِ العديـمِ المثـالِ
فـإنَّ الهـلالَ فكيـفَ ابنُـهُ ... غَـدَا قـاصراً عـن محـلِّ الكـمالِ

---

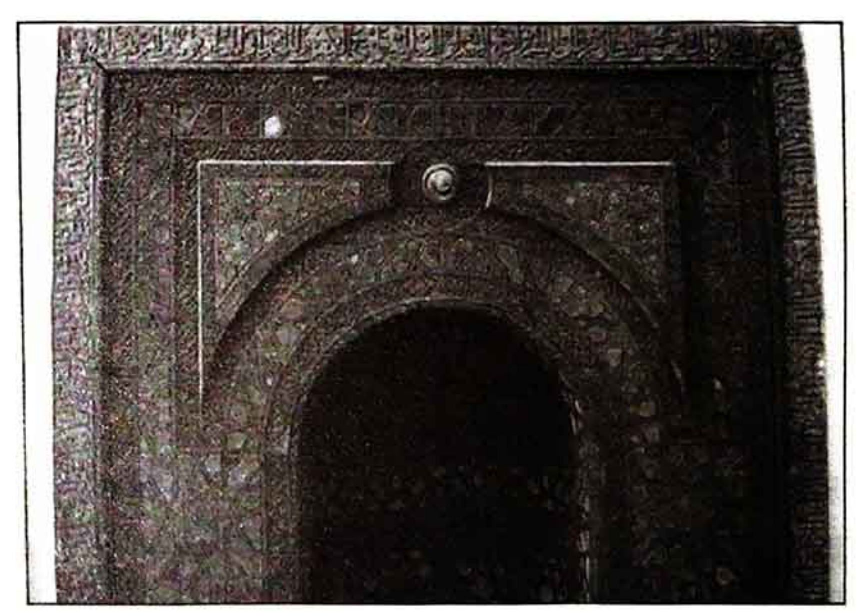
(١) في «تاريخ الإسلام» للذهبي: بوجهِ بدل: بخدٍّ.

آثار خطِّه:

أقول: وقد أبقت أيدي الزمان من خطِّه الجميل في مدينة حلب ما هو مكتوب على أطراف المحراب الخشبي البديع في إيوان المدرسة الحلويَّة[1]، التي هي تجاه باب الجامع الأعظم الغربي.

ونصُّ ما كتب بعد البسملة:

جدّد هذا المحراب في أيام مولانا السلطان الملك الغازي المجاهد المرابط المؤيّد المنصور الملك الناصر صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، منصف المظلوم من الظالمين، رافع العدل في العالمين، قامع الكَفَرة والملحدين، أبي المظفَّر يوسُف بن محمد ناصر أمير المؤمنين، خلّد الله ملكه وأعزّ أنصاره وأعلى رايته، وأنار برهانه، بولاية الفقير إلى رحمة الله تعالى عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن أبي جرادة، غفر الله له ولوالديه سنة ست مئة وثلاثة وأربعين.



(١) انظر صحيفة ٢٦٣ ففيها صورة المحراب المذكور يكتنفه خط ابن العديم (الطباخ).

ومن بقايا خطه: مجلَّد من كتابه «التذكرة».

قال في مجلة «المقتبس» في المجلد الحادي عشر سنة ١٣٣٠، في صحيفة ٨١١، بعد ترجمة المترجم: «ولابن العديم شعر مُسْتَمْلَح ونَثْر عَذْبٌ، ومن كتبه التي أبقتها الأيام: كتاب «التذكرة»، ودخل دار الكتب السلطانيَّة بالقاهرة مجلد منه في بضعة أجزاء أولها: الخامس، وآخرها: الجزء الحادي عشر، وهي ٢٥٠[١] ورقات صغرى أولها: لعلي بن إبراهيم بن عبد المحسن بن قرناص الخزاعي الحموي. وبعد أن ذكر له بيتين من الأبيات الآتية ونقل نموذجات من شعر شعراء عصره قال: هذه نموذجات من هذه «التذكرة» الممتع النافع، ويا حبَّذا لو صَحَّت عزيمة أحد علماء مصر بنشر الموجود منها لأنها أثرُ نفيسٌ خصوصاً وهي مكتوبة بخطِّ صاحبها، وفيها من الأشعار والأخبار ما يلذّ ويفيد[٢].

وكتبتُ إلى مصر فأُخذ لي بالمصوّر الشمسي (الفتوغراف) الصحيفة الأولى فإذا هي مُتوَّجة بما نصُّه[٣]: «الجزء الخامس من تذكرة عمر بن أحمد الشهير بابن العديم كما هو في ورقة ١٩٦ بالهامش، وتحت ذلك: لعليِّ بن إبراهيم بن عبد المحسن بن قرناص الخزاعي الحَمَوي:

جَفْنـي لحبِّـكَ قـد جَفَـاهُ هجوعُـهُ ... والقلـبُ واصَلَـهُ عليـكَ ولوعُـهُ
وسَـقَامُ جسـمي فيـكَ عـزّ ذهابُـهُ ... والنَّـومُ عـزّ عـلى الجُفُـونِ رُجوعُهُ

---

(١) سيأتي الصواب في عدد أجزائه وصحائفه (الطباخ).

(٢) ذكر الأستاذ سامي الدهان في مقدِّمة «زبدة الحلب» أنه انتهى من تحقيق «تذكرة ابن العديم» وأعدها للطبع، ولكن لم تصدر، ولعل النسخة المحققة عند ورثته، وتأخر صدور هذا الكتاب النفيس حتى قام الأستاذ إبراهيم صالح ـ جزاه الله خير الجزاء ـ بتحقيقه، وطبع في هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية سنة ٢٠١٠ في ٤٢٩ صفحة مع الفهارس.

(٣) راجع الصحيفة ٢٦٤ ففيها صورة أبيات ابن قرناص وغيره بخطِّ ابن العديم (الطباخ).

يا مُخْجِلَ البَدْرِ المنيرِ إذا بَدَا ... في أُفْقِهِ عندَ التَّمامِ طُلوعُهُ
يا مَنْ قَسَا قلباً ولانَ مَعَاطفا ... عَطْفاً لمن حَنِيَتْ عليك ضُلوعُهُ
صَبٌّ يذوبُ أسىً يُعَذَّب في الهوى ... تعذيبُهُ والعَذْلُ ليس يطيعُهُ
ويرى الشَّقاء بكم نعيماً والتَّذ ... لُلَ عِزَّةً ولكم يَلَذُّ خُضوعُهُ
وإذا تألَّق بَارِقٌ من حَيِّكُمْ ... سَحَّت له مثلَ السَّحابِ دُمُوعُهُ

للحاجري من قصيدة. وهنا كتب بين الأبيات المتقدِّمة والآتية: هذا مجلد من تذكرة ابن العديم بخطِّه:

لي بالعقيق ـ سَقَى العقيقَ غمامةٌ ـ ... قلبٌ أسيرٌ ما لهُ من فَادِ
سلبَتْهُ منّي يومَ «رامةَ» مقلةٌ ... مكحولةٌ أجفانُها بسَوادِ
يا سائقَ الوجناءِ غيرَ مُقَصِّرٍ ... يطوي المفاوِزَ من رُباً ووِهادِ

وهنا بالهامش لبعض أهل الأدب:

مالي إليك سوى التحيَّة حاجةٌ ... تَقْري سعادَ بها ودارَ سعادِ
أما الديارُ فإنَّ عندي شاغلاً ... عنها لمعظَمِ لَوْعتي ومُصَابي
ما كنتُ أنظُرُها فأُدرِكُ حُسْنَها ... إلا بأعيُنِ رِفْقتي وصِحَابي
ماتوا وشِبْتُ فما انتفاعي بالبَقا ... بعدَ المشيبِ وفُرقَةِ الأحبابِ

ومكتوب في عرض الصحيفة:

أما الخيامُ فإنها كخيامِهم ... وأرى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها

لابن الوكيل:

يا مُتْهِمِي في السُّقم كُنْ مُنْجِدي ... ولا تُطِل رَفْضي فإني عَلِيّْ
أنتَ خليلي فَبِحَقِّ الهوى ... كُنْ لِشُجوني راحماً يا خَلِيّْ

تحقيق أحمد زكي باشا:

ولما كان في هذه الصحيفة بعض كلمات تعسَّرَ عليَّ قراءتها لأنها لم تخرج بالمصوَّر واضحة، كتبتُ لصديقي العلَّامة المفضال البحَّاثة: أحمد زكي باشا المصري المشهور، أستوضحه عن هذه الكلمات فأرسل لي ـ رحمه الله تعالى ـ الصحيفة الأولى أيضاً والأخيرة، مصحوبتين بكتاب منه أشبع فيه التحقيق والتدقيق عن هذا الكتاب، مع إيضاح ما تَعَسَّر عليَّ قراءته لما قدَّمت.

وها أنا أُثبت نصَّ كتابه المؤرخ في ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٠، قال:

«جاءني كتابك الكريم بشأن الجزء الموجود بدار الكتب المصرية من تذكرة ابن العديم، فبمُجرَّد اطلاعي على الصورة الفوتوغرافية، حكمتُ حكماً بتّاً جزْماً بأنه بخطِّ ابن العديم، فإني أتحقَّقه وأعرفه حقَّ المعرفة بما وَصَل إلى يدي من خطِّه الذي لا شك فيه، عن يد المرحوم الشيخ طاهر الجزائري، فقد أهداني ورقةً من أحد كتبه، وهي لا تزال محفوظةً بخزانتي الزكيَّة.

أولاً:

١ـ لفظة الجزء الخامس هي من خطِّه.

٢ـ الكلام الذي يتلوها من تذكرة عمر بن أحمد الشهير بابن العديم... إلخ. هي بخطٍّ آخر طارئ بعد ذلك.

٣ـ كذلك السبعة التالية وأولها: لعلي.... بن قرناص كلها بذلك الخط الآخر[1].

---

(١) نبَّه الأستاذ إبراهيم صالح في مقدمة تحقيقه لـ«تذكرة ابن العديم» ص ٢٥: أن ابن العديم كان يكتب رقم الجزء «الجزء الخامس» أو «الجزء السادس».. في رأس الورقة من الصفحة اليسرى، ثم يترك باقي الصفحة بيضاء، فأتى بعض العلماء ممَّن تملكوا هذه النسخة، فكتبوا=

٤ـ أما بقية المكتوب على الصفحة ـ وهو ثمانية سطور ـ وعلى الهامش ـ وهو ثلاثة سطور ـ وجملتان لابن الوكيل ولبعض أهل الأدب، فذلك كله من خطِّ ابن العديم، الذي لا شك فيه عند أهل الدراية.

٥ـ ومن الطبيعي أنَّ الجملة المكتوبة على سطرين في الفضاء المتروك بعد السطر الثامن فوقه وتحته، وهي: «هذا مجلد من تذكرة». فذلك التعليق مكتوب فيما بعد للتعريف بالجزء الذي نحن بصدده.

ثانياً: عندي أنَّ الذي أوْجَب تَشَكُّك أخي الأستاذ هو تلك الكتابات الإضافية مع سوء استخراج الفوتوغرافية، وكنت أودُّ أن أبادر لإجابة الأستاذ بذلك، ولكنّني أردتُ زيادة اليقين فاستخرجت نسخة فوتوغرافية جيدة هي المرسلة لك مع هذا: وأنت لا شك حاكم بأن الكتاب كله بخط ابن العديم.

ثالثاً: الصورة الفوتوغرافية تُمثِّل الأصل فيما يتَعلَّق بأوائل الأبيات المطموسة من قصيدة ابن قرناص. وقد تمكَّنت من قراءتها من نفس الصورة الفوتوغرافية المرسلة إليك مع كتابي هذا وهي:

صبٌّ يذوب ـ ويرى الشقاء ـ وإذا تألق (إلى آخر الأبيات المتقدمة).

رابعاً: راجعت الكتاب من أوله إلى آخره فإذا هو ينطبق كله بأنه بخط مؤلف «التذكرة» ابن أبي جرادة المعروف فيما بعد بابن العديم، عدد أوراقه ٢٠٥، عدد أجزائه من الخامس إلى السادس عشر[١].

= فيها قصائد شعريّة وأخباراً أدبيَّة وغير ذلك بخطوط مختلفة، وكلها لا تمتُّ إلى ابن العديم بصلة، فأهملها جملة، لعدم صلتها بالكتاب وبالمؤلف. وأما ما كان من الحواشي التي أثبتها ابن العديم بخطه، فقد وضعها في أماكنها.

(١) قال الأستاذ إبراهيم صالح في مقدمة تحقيقه لـ«تذكرة ابن العديم» ص ٢٤: للتذكرة نسخة=

خامساً: عندي أنه يحسن بـ.....[١] ومؤرِّخها أن تكون لديه نسخة مأخوذة بالفوتوغرافية من هذا الجزء الأصلي ليضيفَها إلى مُقْتَنَياته النفيسة، ويصحُّ لحلب أن تقول معه: هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا[٢].

سادساً: سيرى الأستاذ الصفحة الأولى من الجزء الخامس عشر تلك التعليقة التي هي بخط ابن العديم، وهي السطور المستقيمة الأفقية، أما الكتابة الرأسية في الفراغ الواسع الكائنة بين لفظة «الجزء الخامس عشر» وبين التعليقة: «سمعت ما تضمَّنه... إلخ» فتلك الكتابة مضافة بقلم آخر، والأمر ظاهر، وهي: كان ظهر الكوفة ينبت الشيح والقيصوم والخزامى.... إلخ.

وقد رأيت في آخر التعليقة التي بخط ابن العديم فائدة، أحببت أن ألفت إليها نظر الأستاذ:

= وحيدة، تحتفظ بها دار الكتب المصرية بالقاهرة، تحت رقم (٢٠٤٢) في (٢٠٥) ورقة، وفيها من الجزء الخامس إلى الجزء السادس عشر. ومع غياب صفحة العنوان، فإن اسم الكتاب كان موضع حدس وتخمين، إلى أن تعرَّف عليه بعض العلماء، فكتب بعد عبارة «الجزء الخامس» من تذكرة عمر بن أحمد، الشهير بابن العديم. وكتب آخر في منتصف الصفحة: هذا مجلد من تذكرة ابن العديم بخطه. وليست الأجزاء كلها كاملة، بل بها عدد من الخروم التي أضرّت ببعض الأخبار والقصائد، فأمكن ترميم بعضها، وبقيت هَنات لا يمكن تداركها إلا بظهور نسخة كاملة من «التذكرة» أو من «بغية الطلب». ثم بيَّن ما بقي من أوراق الأجزاء، وما فُقد منها، وكل جزء يتكون من عشرين ورقة، وأن مجموع ما ينقص من الأجزاء ٥-١٦: ثلاث وعشرون ورقة غابت فوائدها بضياعها.

(١) هنا كلمات طمسها الطباخ تواضعاً. ولعلها: بمُحدِّث حلب...

(٢) أقول: نعم يحسن بي ذلك ولكني كما قال الشاعر:

أرى نفسي تَتوقُ إلى أمورٍ ... ويَقصُرُ دونَ مَبْلَغِهِنَّ مالي

فلا نفسي تُطاوعُني ببُخْلٍ ... ولا مالي يُبلِّغُني أمالي

كلامه يدلُّ على أنه اختار في هذا الجزء أشعاراً من نظم معاصره، وقد رأى - كما هي عادتهم - أن يُسند روايته إلى نفس الشاعر، وأنه سمعها من لفظه في التاريخ الفلاني ومعه فلان بالمحل الفلاني، ثم أمضى حامداً مصلياً، كما هي عادتهم، وبعد أن انتهى من ذلك بدا له فعاد وسأل الشاعر عن مولده فكتب في آخر التعليقة ما نصُّه: «سألته عن مولده؟ فقال: في سنة اثنتين وثمانين بمكة».

ثم بحث الأستاذ الباشا بحثاً دقيقاً يتعلَّق بمولد البهاء زهير[1] مما لا علاقة له بموضوعنا فتركته.

أقول: أما السماع فهذا نصُّه:

«سمعت ما تضمَّنه هذا الجزء من شعر بهاء الدين زهير بن محمد بن علي، من لفظه في يوم الخميس، سادس شهر رجب من سنة سبع وثلاثين وست مئة.

وسمع ابناي أحمد، وعبد الرحمن، وافتخار الدين، أبو المفاخر محمد بن يحيى بن محمد بن أبي جرادة، وشرف الدين عبد الله بن محمد بن يوسف بن الخضر، ونجم الدين عمر بن عمر بن علي بن قشام الحلبيون، وذلك بمدينة نابلس.

وكتب عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة حامداً لله ومصلياً على محمد نبيِّه وآله. سألته عن مولده؟ فقال: في سنة اثنتين وثمانين [وخمس مئة] بمكة».

---

(١) زهير بن محمد بن علي بن يحيى، أبو الفضل الأزدي، الكاتب المهلبي المكي، بهاء الدين: فقيه، مقرئ، شاعر مجيد،، ولد بمكة ٥٨١، ونشأ بقوص في صعيد مصر، واتصل بخدمة الملك الصالح أيوب بمصر فقرَّبه وجعله من خَوَاصِّ كُتَّابه، وظل حظياً عنده إلى أن مات الصالح، فانقطع زهير في داره إلى أن توفي بمصر سنة ٦٥٦ عن ٧٥ عاماً رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته في «بغية الطلب» ٩: ٣٨٨٢، و«وفيات الأعيان» ٢: ٣٣٢، و«الوافي بالوفيات» ١٤: ٢٣١.

نموذج من أبحاث هذه التذكرة:

وممَّن نقل عن هذه «التذكرة» صديقنا محب الدين الخطيب، نزيل مصر وصاحب «الفتح» و«الزهراء» في الجزء ٣ من مجموعته الأدبيَّة، التي سمّاها: «الحديقة» في ص ٢٤ قال: نقل كمال الدين بن العديم العُقَيْلي في «تذكرته» النفيسة رسالة كتبها القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم، يُؤَنِّبه فيها على إيذائه الأمير عَلَم الدين[١] بن النحاس، وهذه صورتها، وهي نموذج الإنشاء البليغ والأدب العالي:

«سبب إصدار هذه المكاتبة ـ إلى الأخ أصلحه الله ـ إعلامُه ما صحّ عندي من الأحوال التي أخفاها، والله مُبْديها، في حقِّ الأمير، عَلَم الدين. وبالله أقسم، لئن لم تُدَاو ما جرحتَ، وتستدرك ما فعلتَ، وتمحُ ما أثبتَّ، وتستأنف ضدَّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهت، وتعتذر بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت، ليكونَنَّ الحديث مني بغير الكتاب، وَلَأُزيلنَّ السَّببَ الذي قدرت به على مضرَّة الأصحاب، وما أشدَّ معرفتي بأن الطباع لا تَتَغيَّر، وبأنك ستُحوجُني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر.

وبالجملة، فاستدرك بفعلك، لا بأيْمانك لي، وتَنَصُّلك إليّ.

(فالدم في النَّصْل شَاهِدٌ عَجَبُ).

وَوَيْلٌ لمن كانت غنيمته من الأيام، عقْد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالمذامّ، ولولا أني شريكك في كلِّ ما تستوجبه من الناس، لألقيتُ حبلك على غاربك، وتركتك وما اخْترت لنفسك، ولكن: كيف بمن يُرمى وليس برامٍ.

ولكنَّ سكوت الناس عن قبيحك، مقابلةٌ بجميل كثير مني، فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسي؛ فأشفق على نفسك إن كنت تنظر في غدٍ، وعلى بيتك إن كنتَ تنظر في

---

(١) كذا في الأصل. وفي «التذكرة» ص ٣٠٠ علم المُلْك.

أمس، وعلى مكانك منِّي إن كنت لا تنظرُ إلا في اليوم، ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل الشاكر لك[١]؛ فإنه وإن كان ـ والله ـ ما ذمَّك، فقد ذممتك به عنه، وما أظنُّ أنك[٢] تذكر أنني كتبت إليك كتاباً ولا كنت أوثره، ولولا حافِزُ غيظٍ لَمَا كتبته. ولولا علمي أنَّ الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل، هو القليل ممَّا فعلته، لأضْرَبْتُ عن هذا كما أضْرَبْتُ عن غيره، وسَتُعرِّفك الأيام ما كنت تجهل.

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه، وَيُغْمِدُ سيفَ حيلتك عن مقتلك. والسلام».

عوداً إلى ترجمته ونقداً لابن خلِّكان في إغفالها:

ترجَمَهُ ياقوت بها تقدم سنة ٦١٩ وهو في الحادية والثلاثين من عمره، وقد كانت وفاة ياقوت سنة ٦٢٦ ووفاة المترجم سنة ٦٦٠ فتأخَّرت وفاته عن وفاة مترجمه أربعة وثلاثين سنة، ولا ريب أنَّ تلك المدّة الطويلة زادته علماً وفضْلاً وجاهاً وقدراً.

وقد ترجمه من معاصريه وبعد وفاته كثيرون إلا ابن خلِّكان فإنه أهمل ذكره في «تاريخه» مع نقله عنه فيه كما سيأتيك، والعَجَب منه كيف أهمله على شهرته وإمامته وفَضْله وتقدُّمه!!! ولعله كان بينهما ما لا يخلو بين المتعاصرين، فأدّاه ذلك إلى ترك مثله في «تاريخه».

قال في «كشف الظنون» في الكلام على «وفَيَات الأعيان» لابن خَلّكان: وقد شنّع عليه بعض المؤرِّخين من جهة اختصاره تراجم كبار العلماء في أسطر يسيرة، وتطويله في تراجم الشعراء والأدباء في أوراق وصحائف، وربما يكون منْ طَوَّل ترجمته مطعوناً

---

(١) في «التذكرة» المطبوعة بتحقيق إبراهيم صالح ص ٣٠٠: ولا تجاوبني إلا بإتيانِ الرَّجُلِ شاكراً لك.

(٢) في الطبعة المحققة: وما أظنُّك.

بانحلال العقيدة، وهو يثني عليه ويذكر أشعاره وقصائده، ولعلّ العذر فيه ما أشار إليه من أن اشتهار ذلك العالم كالشمس لا يخفى، وعدم اشتهار ذلك الشاعر. انتهىٰ.

أقول: وهذا العذر لا يُبَرّر صنيعه ولا تردّ عنه سهام النقد.

ولنذكر هنا ما وقفنا عليه من ترجمته في مختلف التواريخ، وفي كلٍّ ترجمة ما ليس في الأخرى، لذا آثرنا ذكر تراجمه كلها، فنقول:

ترجمة ابن شاكر الكُتبي:

قال في «فوات الوفيات»[1]: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، الصاحب العلّامة رئيس الشام، كمال الدين العُقَيْلي[2] الحلبي المعروف بابن العديم، ولد سنة ثمان وثمانين وخمس مئة، وتوفي سنة ستين وست مئة، وسمع من أبيه ومن عمّه أبي غانم، وابن طبرزد، والافتخار[3]، والكندي، والحرستاني، وسمع جماعة كثيرة بدمشق وحلب والقدس والحجاز والعراق، وكان محدّثاً فاضلاً حافظاً مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتياً منشئاً بليغاً كاتباً مجوِّداً، درّس وأفتى وصنّف، وترسّل عن الملوك، وكان رأساً في الخط لاسيما النسخ والحواشي.

أطنب الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي المتوفى سنة ٧٠٥ في وصفه، وقال: وليَ قضاء حلب خمسة من آبائه متتالية، وله الخطُّ البديع والحظُّ الرفيع، والتَّصانيف الرائقة، منها «تاريخ حلب»، أدركته المنية قبل إكمال تبييضه، روى عنه الدراوردي وغيره، ودُفن بسفح المقطّم في القاهرة.

---

(١) وهو ذيل تاريخ ابن خَلّكان (الطباخ).

(٢) بضم العين وفتح القاف بعدها ياء ساكنة (الطباخ).

(٣) أي: افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي الحلبي المتوفى سنة ٦١٦ وترجمته في تاريخي «إعلام النبلاء» (الطباخ).

ثم ذكر سؤال ياقوت له: لِمَ سُمِّيتم ببني العديم؟ ثم ذكر مؤلفاته التي ذكرها ياقوت، لكنه نقص منها: «ضوء الصباح في الحثِّ على السَّماح»، وزاد على ما ذكره ياقوت كتاب: «دفع الظلم والتَّجرّي عن أبي العلاء المعرّي»، وهذا الكتاب ذكرته إلا قليلاً منه من أواخره لنقص النسخة التي عثرتُ عليها في تاريخي: «إعلام النبلاء» في ترجمة أبي العلاء[١]، وكتاب: «تبريد حرارة الأكباد على فقد الأولاد»[٢].

ثم قال: وكان إذا سافر يركب في محفَّة تشيله[٣] بين بغلين ويجلس فيها ويكتب.

ولَعَمْري إنها همّة عالية، تدلك على شغفه بالعلم ومزيد عنايته في نشره، إذ لم يشغله السفر ومشقّته وخصوصاً في ذلك العصر عن الانكباب على المطالعة والتأليف، فحيَّا الله تلك الهمم ورحم الله تلك العظام.

ثم قال في «فوات الوفيات»: وَفد إلى مصر رسولاً وإلى بغداد، وكان إذا قدم إلى مصر يلازمه أبو الحسين الجزار[٤] (أحد مشاهير الأدباء في مصر)، فقال بعض أهل العصر:

---

(١) أخبرني الأستاذ المفضال البحَّاثة السيد عز الدين بك التنوخي أحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق في رحلتي إليها في العام الماضي سنة ١٣٥٨: أنَّ في المكتبة الظاهرية بدمشق نسخة تامَّة من هذا الكتاب. فحبَّذا لو صحّت عزيمة بعض أرباب المطابع فنشر هذا الكتاب على حِدَة لما فيه من الفوائد الجمّة المتعلقة بحياة أبي العلاء المعري (الطباخ). وقد طبع الكتاب ضمن (تعريف القدماء بأبي العلاء) بتحقيق لجنة تحقيق آثار أبي العلاء. وطبعه في جزء مفرد، الدكتور عبد العزيز حرفوش؛ بدمشق ٢٠٠٤م.

(٢) تمام اسمه في «الفوات» ٣: ١٢٧: «تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد».

(٣) هكذا. وفي المطبوع بتحقيق إحسان عباس: تشدُّ له.

(٤) يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد، أبو الحسين الجزار، جمال الدين: شاعر مصري ظريف. كان جزاراً بالفسطاط، وكذلك أبوه وبعض أقاربه. وأقبل على الأدب، وأرصله شعره إلى السلاطين والملوك، فمدحهم وعاش بما كان يتلقى من جوائزهم. له: «العقود الدرية في الأمراء المصرية ـ خ» منظومة انتهى بها إلى أيام الظاهر بيبرس، و«ديوان شعر ـ خ» صغير، =

يا ابنَ العديم عدمتَ كلَّ فضيلةٍ وغـدَوتَ تحمـلُ رايـةَ الإدبـارِ
ما إن رأيتُ ولا سـمعتُ بمثلِها نفـسٌ تلَـذُّ[١] بصُحبـةِ الجـزّارِ

ترجمة ابن معصوم في «سلافة العصر»:

قال ابن معصوم[٢] في كتابه «سلافة العصر» (ص٥٧٢): ومن بديع التَّورية بالنَّوى قول أبي الحسين الجزار، وقد أتى مُودِّعاً كمال الدين ابن أبي جرادة عند قصده الرحيل من مصر، فاتَّفق أن صاحب مصر أرسل إلى ابن أبي جرادة شيئاً من التمر الذي يُؤتى به من أعلى صعيد مصر في المركب المبشِّر بزيادة النيل على وجه البركة، فأمر ابن أبي جرادة أن يقدّم ذلك التمر للحاضرين، فأكلوا، فقال الجزار ارتجالاً:

أطـعـمـتَـنـا الـتَّـمـرَ الـذي لـلـبَـرَكـاتِ قـد حـوى
لله مـا أطْـيـبَـهُ لـو لم تَـشُـبْـهُ بـالـنَّـوى

وقال الشهاب الخفاجي في «طراز المجالس» (ص١٦١): أهدى أبو الحسين الجزَّار سجَّادة لابن العديم، وكتب معها:

أيُّهـا الصَّاحـبُ الأجـلّ كـمال الـ ـدينِ لا زلـتَ مَلْجـأً للغريـبِ
كُـنْ مُجـيري لأنـني قـد تغرَّبـ ـتُ لكـوني وقَعـتُ عنـدَ الأديبِ
أنـا سـجّادةٌ سئمتُ مـن الطـيِّ فَهَـبْ لي نَشْـراً فنشـرُكَ طِيْبِي
طـالَ شـوقي إلى السُّـجودِ وكم لي مـن شُروقٍ في بيتِـهِ وغُـروبِ

= و«فوائد الموائد ـ خ»، و«الوسيلة إلى الحبيب في وصف الطيِّبات والطِّيب»، و«تقاطيف الجزَّار» شعر. توفي سنة ٦٧٩.

(١) هكذا. وفي المطبوع بتحقيق إحسان عباس: تيس يلوذ.

(٢) علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني، ولد بمكة سنة ١٠٥٢، وأقام مدة في الهند، وتوفي بشيراز سنة ١١١٩ رحمه الله تعالى.

وإذا ما أتاهُ ضَيْفٌ أراني منه عند الصَّلاة وَجْهَ مُريبِ
لم يَرُقْهُ اخضرارُ لَوْني وهَيْها تَ، وما راعَهُ اسودادُ الذُّنوبِ
فأقِلْ عَثْرَتي وَوفِّر بإحسا نكَ من وجهِكَ الكريمِ نصيبي
واجْبُرِ اليومَ كَسْر قلبي فلازِلْـ ـتَ مدى الدّهرِ جابراً للقلوبِ

أنت تعلم أنه لا يُرسل من قِبَل الملوك إلى الملوك إلا الرجل الحصيف الرزين الأصيل الرأي، المتحلِّي بالحشمة والوقار، البليغ في كلامه، القوي في حُجَّته، فإرسال المترجَم رسولاً إلى بغداد ومصر ـ كما ذكره ابن شاكر في: «فوات الوفيات» ـ يدلك على عظيم منزلته ولياقته لأمثال هذه الأمور، وها نحن نذكر سبب رحلتيه هاتين:

توجُّهه رسولاً إلى بغداد ومصر:

قال أبو الفداء في «تاريخه» في حوادث سنة ٦٥٤: «في هذه السنة توجَّه كمال الدين المعروف بابن العديم رسولاً من الملك الناصر يوسف صاحب الشام إلى الخليفة المستعصم، وصحبته تقدمة جليلة وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه، وَوَصل من جهة المعز أيبك التركماني صاحب مصر شمس الدين سنقر الأقرع، وهو من مماليك المظفَّر غازي صاحب ميافارقين إلى بغداد بتقدمة جليلة، وسعى في تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق، فبقي الخليفةُ متحيّراً، ثم إنه أحضر سكيناً من اليسم[1] كبيرة،

---

(١) كذا في الأصل كما في «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء (٣:١٩١). والصواب: اليشم كما جاءت في «تاريخ ابن الوردي» (٢:١٨٧)، وفي «عقود الجمان» للعيني.
واليشم ـ كما في «القاموس» ـ: اليَشْبُ: حَجَرٌ، م، مُعَرَّبُ: اليَشْمِ. وفي «تاج العروس»: اليَشْبُ: أَهمله الجَوْهَرِيُّ، وصاحبُ «اللِّسان». وقال الصاغانيُّ: هو (حَجَرٌ، م)، أي: معروف، وهو (مُعَرَّبُ اليَشْمِ) بإبدال الميم باءً كلازمٍ ولازبٍ. وقال الزبيدي في «التاج» أيضاً: اليَشْمُ: =

وقال الخليفة لوزيره: أعط هذه السكين رسول صاحب الشام علامة منّي في أنَّ له خلعة عندي في وقت آخر، وأما في هذا الوقت فلا يمكنني، فأخذ كمال الدين ابن العديم السكين، وعاد إلى الناصر يوسف بغير خلعة. انتهى[١].

وقال في حوادث سنة ٦٥٧: «كان رسولَ الملك الناصر يوسف صاحب الشام وهو كمال الدين المعروف بابن العديم، قد قَدِمَ إلى مصر في أيام الملك المنصور علي بن إيبك مُسْتَنجِداً على التتر، واتفق خلع المذكور وولاية قطز بحضرة الكمال بن العديم، ولما استقرَّ قطز في السلطنة أعاد جواب الملك الناصر يوسُف أنه ينجده ولا يقعد عن نصرته، وعاد ابن العديم بذلك.

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث هذه السنة: «فيها قَدِم القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر ابن العزيز يستنجد المصريين على قتال التتر بأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وحرَّان وغيرها في هذه السنة، وقد جاز أشموط بن هولاكو الفرات، واقترب من مدينة حلب، فعُقِدَ عند ذلك مجلس بالديار المصرية بين يدي المنصور بن المعز التركماني، وحضر قاضي الديار المصرية بدر الدين السنجاري والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وأفاضوا في الكلام[٢] فيما يتعلَّق

= ويقالُ أيضاً: اليَشَبُ، وهو حَجَرٌ معدِنيٌّ، أجودُهُ: الزَّيتيُّ، فالأبيضُ، فالأصفرُ، وله خواصّ. وفي «المعجم الوسيط»: اليشم: مصطلح عام يشمَل مجموعة من المعادِن الصلدة التي تتدرج ألوانها من الأبيض تقريباً إلى الأخضَر الأدكن وتتكون من سليكات الكلسيوم والمغنسيوم غير المتبلورة (مج).

(١) في «الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية» في ترجمة أحمد بن أبي الكرم نقلًا عن ابن العديم: أنه توفي سنة خمسين وست مئة، قال ابن العديم: بلغني وفاته وأنا ببغداد في هذا التاريخ، فيكون ذلك من جملة رحلاته إليها (الطباخ).

(٢) في المطبوع: وتفاوضوا الكلام.

بأخذ شيء من أموال العامَّة لمساعدة الجند، وكان العمدة على ما يقوله ابن عبد السلام، فكان حاصله: أنه إذا لم يبق في بيت المال شيء وأنفقتم الحوائض الذهب وغيرها من الزينة وتساويتم أنتم والعامة في الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندي سوى فرسه التي يركبها، ساغ[1] أخْذُ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء لأنه إذا دهم العدو واجبٌ[2] على الناس كافَّة أن يدفعوهم بأموالهم وأنفسهم».

وذكره ابن كثير في حوادث سنة ٦٦٠، ومما قاله في حقِّه: «الأمير الوزير الرئيس الكبير صنَّف لحلب تاريخاً مفيداً يقرب من أربعين مجلداً، وكان جيِّد المعرفة بالحديث، حسنَ الظَّنِّ بالفقراء (أي الصوفية)، كثيرَ الإحسان إليهم، وقد أقام بدمشق في الدولة الناصرية المتأخرة، وكانت وفاته بمصر، ودفن بسفح المقطم، بعد الشيخ عز الدين بعشرة أيام، وقد أورد له الشيخ قطب الدين (أي اليونيني) في «الذيل» أشعاراً حسنة.

وفاته:

وقال أبو الفداء في حوادث سنة ٦٦٠: «وفيها في ذي الحجة تُوفي الصاحب كمال الدين عمر بن عبد العزيز (صوابه بن أحمد كما تقدَّم غير مرة) المعروف بابن العديم، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة، وكان فاضلاً كبيرَ القدر، ألَّف تاريخ حلب وغيره من المصنفات، وكان قَدِمَ إلى مصر لما جفل الناسُ من التتر، ثم عاد بعد خراب حلب إليها، فلمّا نظر ما فعله التتر من خراب حلب وقَتْل أهلها بعد تلك العمارة قال في ذلك قصيدة طويلة منها:

هـو الدَّهـرُ مـا تَبْنِيْـهِ كفَّـاكَ يَهـدمُ   وإنْ رُمْـتَ إنْصَافـاً لَدَيْـهِ فَيَظلـمُ

---

(١) في المطبوع: ساغ للحاكم حينئذ.

(٢) في المطبوع: إذا دهم العدو البلاد وجب.

أبـاد مُلـوكَ الفُرْس جمعاً وقيصـراً ... وأصْمَتْ لدى فُرْسانها منهُ أسـهُمُ
وأفنـى بني أيّـوبَ مع كُثْرِ جَمْعِهِم ... ومـا منهُـمُ إلا مليـكٌ مُعظَّـمُ
ومُلْـكُ بنـي العبّـاسِ زالَ ولم يدَعْ ... لهـم أثَـراً مـن بعدِهِـمْ وهُـمُ هُـمُ
وأعتابُهُـمْ أضْحَت تُداسُ وعهدُها ... تُبـاسُ بأفـواه الملـوك وتُـلْثَـمُ
وعن حَلَبٍ مَا شِئْتَ قُلْ مِنْ عَجَائِبٍ ... أَحَـلَّ بِها يـا صـاحِ إن كنـت تَعْلمُ

ومنها:

فَيَالَـك مِـن يَـوْمٍ شَـدِيدٌ لُغَامُـهُ ... وقـد أَصْبَحَتْ فِيْـهِ المَسَـاجِدُ تُهْدَمُ
وقد دُرِستْ تِلْكَ المَدَارِسُ وارْتَمت ... مَصَاحِفُها فوق الثَّرى وَهْيَ ضُخَّم

وهي طويلة وآخرها:

ولـكـنَّـمـــا لله فـــي ذا مشيـئـةٌ ... فيفعـلُ فينـا مـا يشـاءُ ويحكُـمُ

هذا ما ذكره أبو الفداء في «تاريخه» من هذه القصيدة، وقد بحثت عنها كثيراً فلم أقف عليها، ولعلها موجودة في ديوان المترجَم.

وترجمه علاء الدين ابن خطيب الناصرية في تاريخه: «الدر المنتخب»، فقال: «مولده بحلب في العشر الأول من ذي الحجَّة سنة ثمان وثمانين وخمس مئة، سمع بحلب من ابن طبرزد، والافتخار (عبد المطلب الهاشمي)، وعبد الرحمن بن علوان (المعروف بابن الأستاذ)، وبهاء الدين يوسف بن رافع بن شدَّاد قاضي حلب، وثابت ابن مشرف، وابن روزبة، وجماعة كثيرة من أهل البلد والقادمين إليه، وبدمشق: من الكندي، والقاضي ابن الحرستاني، وابن طاووس، وابن البَنَّا، والحسين بن صَصْري، والبهاء عبد الرحمن، وابن المني، وأحمد بن عبد الله العطار، والعماد إبراهيم بن عبد الواحد، وغيرهم، وببغداد: من عبد العزيز بن محمود بن الأخضر، وغيره.

وسمع منه ولده المجد، وابن مَسْدي، وابن الحاجب، وذكراه في معجميهما، والدمياطي وذكره في «معجمه»، وأبو القاسم أحمد بن محمد بن الحسين وغيرهم، وحدَّث بالكثير في بلاد متعدِّدة، ودرس وأفتى وصنف.

قال الذهبي: «وكان عديمَ النظير فَضْلاً ونُبْلاً، وذكاءً ورأياً، ودهاءً ومنظراً، ورواءً وجلالةً وبهاءً، وكان مُحدِّثاً حافظاً، ومؤرِّخاً صادقاً، وفقيهاً مفتياً، ومنشئاً بليغاً وكاتباً مجوِّداً»[1].

وذكره الدمياطي في «معجمه» وأثنى عليه، وكذلك الشيخ شهاب الدين محمود، قال في «تاريخه»: وكان إماماً عالماً فاضلاً متفنِّناً في العلوم جامعاً لها، أحد الرؤساء المشهورين والعلماء المذكورين، وترسَّل إلى الخليفة والملوك مراراً كثيرة، وكانت له الوجاهة العظيمة عند الخلفاء والملوك، وهو مع ذلك كثير التواضع ليّن الجانب، حسن الملتقى والبِشْر لسائر الناس، مع ما هو مفطورٌ عليه من الديانة الوافرة والتَّحرّي في أقواله وأفعاله، وأما خطّه ففي الغاية العُليا من الجودة، ومعرفته بالحديث والتاريخ وأيام الناس على أكمل ما يكون.

وجمع لحلب تاريخاً أبدَعَ فيه ما شاء[2]، ومات وبعضه مُسوَّدة، ولو كَمُل تبييضه كان أربعين مجلّداً، وكان حسنَ الظنّ بالفقراء والصَّالحين، كثيرَ البرِّ لهم والإحسان إليهم، وحضر عند الشيخ عبد الله اليونيني الكبير، وطلب منه أن يلبسه الخرقة، فأعطاه قميصه كأنه تفرّس فيه الخير والصلاح» انتهى ما قاله الذهبي، ثم قال:

---

(١) الذهبي في «تاريخ الإسلام» ٤٨: ٤٢٣.

(٢) قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» ١٤: ٩٣٨: قلت: من نظر في «تاريخه» علم جلالة الرجل وسَعَة اطِّلاعه، وكان قد ناب في السلطنة، وعلَّمَ عن الملك الناصر في غيبته عن دمشق، وذكر في «تاريخه» أنه دخل مع والده على الملك الظاهر غازي، وأنه هو الذي حسَّن له جمع تاريخ لحلب.

«ولما جاء التتر إلى حلب في سنة ثمان وخمسين وست مئة، جَفَل الصاحب كمال الدين إلى مصر مع مَنْ جَفَل، ولما أُزيح التتر عن حلب، عاد إليها فوجدها خراباً بعد تلك العمارة، فقال فيها قصيدة لنفسه ميميَّة، ثم رجع إلى القاهرة واستمرّ بها إلى أن توفي بها في العشرين من جمادى الأولى، وقيل: تاسع عشر سنة ستين وست مئة بظاهر مصر، ودُفِن من يومه بسفح المقطم تغمَّده الله تعالى برحمته». انتهى ما في «الدرّ المنتخب».

ترجمة العُرْضي لابن العديم:

وترجمه العالم الأديب الشيخ محمد العُرْضي في كتابه «النموذج» ـ وهو من المخطوطات ـ ، فقال: «الصاحب كمال الدين عمر بن العديم الحنفي الحلبي، عالمٌ ظهر بدر كماله، وبهر نور جماله، وتزايد مجده، وارتفع عزّه وسعده، وأضاءت بهجةُ نوره الأُفُق، وأصبح بكماله بدر ابن سناء الملك مرمياً على الطرق، إن ذُكر النعمان كان شقيقه؛ لأنه العالم الذي ما لغيره إلى فضائله مجَاز على الحقيقة، فلقد رقى بدقائقها إلى درجات المعالي في كلِّ وقت وساعة؛ لأنه الإمام الجامع للفضائل الذي صلَّت في محاريب الطروس خلفه الجماعة، دبَّر الدولة الناصريَّة بِيُسْر وبِشْر عند إسْداء معروفه، وهو جابرٌ كلَّ صناعة بِحُسْن تدبير أبان عن حُسْن تصرّفه، قال ابن فضْل الله: ضرب عرقه إلى عدنان، ولمع برقه في أسرة قيس غَيْلان، وأشرق نوره في أهل مُضَر، وأغدق نَوْؤه، فلما عدل عن عامر قيل عمر.

وكان بين أهل ذاك الزمان لا يجلس أحد فوقه في مجلس السلطان، وكان الملك الناصر ابن الملك العزيز يخاطبه بالوالد، ويحكم للألف منه بواحد، مع أدب لو هبّ نسيمه على المخمور لأفاق، ولو شُبِّه نَظْمه بالدرّ لما سمح فيه بالإنفاق مع خط ما وشي مثله ديباج الخدود، ولا عطفت بزرده أصداغ الغواني بزرود، خصوصاً قلم النسخ والحواشي فإنه كان فيها غاية. وترجمه الحافظ الذهبي وأثنى عليه، وكذلك الشهاب

محمود، والحافظ عبد المؤمن الدمياطي، مولده بحلب في العشرين من ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وخمس مئة.

ومن مصنفاته: «كتاب الدراري في ذكر الذراري» جمعه للملك الظاهر، وقدَّمه له يوم ولد ولده العزيز، وكتاب: «ضوء الصباح في الحث على السماح» صنّفه للملك الأشرف، وكتاب في الخط وعلومه، و«دفع التَّجرّي عن المعرّي»، و«الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار»[1]، و«مراد المراد ومواد المواد»، و«زبدة الحلب في تاريخ حلب»، وكتاب: «المنتخب[2] في تاريخ حلب»، وهو الكبير، مات وبعضه مسودة، قال الشهاب محمود: ولو كمل تبييضه لكان أربعين مجلداً، و«الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة»[3].

---

(١) نقل عنه العُرْضي الحلبي في «تذكرته» حيث قال: ومن حلم الملك الكامل وفراسته ما حكاه الصاحب كمال الدين في كتابه: «الإشعار بما للملوك من النوادر والأشعار»: أنَّ بعض خواصّه كان قد صار بحيث يبدو من فلتات لسانه كلمات فيها غلط في حق الملك الكامل، ودام على ذلك إلى أن مات ذلك الشخص، فلما مات قال الملك الكامل لبعض ثقاته: امض إليه بسرعة وائتني بما في جرابه، فمضى وأتى بشيء مثل الدرور، فأحضر الطبيب؛ وقال له بمحضر من خواصّه: ما هذا؟ فقال: سمٌّ قاتل، فقال الملك: لَهذا السم مع هذا الشخص ثلاث سنين يترقَّب أن يجعل منه شيئاً في طعامي وأنا أعلم به، وما أحببت أن أفضحه. وكانت وفاة الملك الكامل بمدينة دمشق المحروسة سنة خمس وثلاثين وست مئة، في بيت صغير، ولم يشعر به أحد من هيبته رحمه الله تعالى. انتهى (الطباخ). ومرَّ مثل هذا تماماً ص ٤٦٠ حاشية (٤).

(٢) صوابه: بغية الطلب كما تقدَّم وكما سيأتي (الطباخ).

(٣) ومن مؤلفاته أيضاً: «الملحة في الرد على ابن طلحة» (الشيخ المفتي كمال الدين محمد بن طلحة النَّصيبي الشافعي المولود سنة ٥٨٢ والمتوفى بحلب سنة ٦٥٢)، ردَّ عليه ابن العديم في ولادته ﷺ مختوناً مسروراً، وقد نقل عنه الحافظ العراقي في «المورد الهني في المولد السَّني» ص ٢٢١، فقال: «وقد اسْتفتي عن هذا بحلب في حدود الخمسين والست مئة، فصنف فيها شخص يعرف بابن طلحة تصنيفاً، وحكى فيه عن أبي عبد الله الترمذي الحكيم أنه ولد مختوناً، وتعقبه العلامة كمال الدين ابن العديم، صاحب تاريخ حلب، فصنف فيه تصنيفاً سماه: «الملحة في الرد على ابن طلحة» فأبدع وأجاد، وذكر فيه اختلاف الآثار، في كونه ولد مختوناً، أو ختنه =

ثم قال العُرْضي: وتوفي الصاحب كمال الدين بن العديم تغمَّده الله برحمته في العشرين من جمادى الأولى سنة ستين وست مئة بالقاهرة المحروسة[1] ودُفن بسفح المقطَّم من القرافة بالقرب من المسجد المعروف بالعارض بتربة موسى بن يغمور.

ورثاه العلَّامة الأديب الشهاب محمود بن فهد بقصيدة غرَّاء، ذكر منها العُرْضي في «نموذجه» بيتين في أثناء ترجمة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وهما:

وأحسُـدُ عُجْـمُ الطير فيـه لأنها ... تزيدُ عـلى إعرابِ قـوليَ باللّحْنِ

وتنثُـرُ عينـي أدمُعـاً كان كلَّـما ... تسـاقَطَ مـن فِيـهِ تلقَّفَـهُ أُذْني

لطائفه ومكارم أخلاقه:

من لطائفه الدالة على مكارم أخلاقه وعُلو همّته، ما ذكره ابن أيبك الصفدي في شرحه للامية العجم عند قول الطغرائي: (أريد بسطة كف إلخ) أن إنساناً رفع قصَّة

= جده عبد المطلب، أو ختنه جبريل عليه السلام، وذكرما ورد في ذلك من الآثار، وضعفها كلها، وأنه لا يثبت في هذا شيء من ذلك» انتهى. وقد لخص جميع كتاب ابن العديم ابن القيم في «تحفة المودود» في الفصل الثالث عشر من الباب التاسع.

(١) تنبيه: من الأغلاط الفادحة ما ذكره الأديب محمد أديب آل تقي الدين الحِصْني في الجزء الثاني من تاريخه: «منتخبات التواريخ لدمشق» ج٢ ص٥١٣، حيث قال: وفي تلك السنة (أي سنة ٦٥٩) مات بدمشق ابن العديم الصاحب العلَّامة كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العفيلي (بالفاء والصواب بالقاف) الحلبي من بيت القضاء والحشمة، سمع بدمشق من الكندي، وأجاز له المؤيد، وكان قليل المثال، عديم النظر (هكذا) (والصواب: النظير) فضلاً ونُبلاً، ورأياً وحزماً، وذكاء وبهاءً، وكتابة وبلاغة، وأفتى وصنف، وجمع تاريخاً لحلب في نحو ثلاثين مجلداً، وقد ناب في سلطنة دمشق عن الملك الناصر، وكان خطه في غاية الحسن، وكان له معرفة تامة بالحديث والتاريخ انتهى. وقد غلط في سنة وفاته ومكان وفاته وغير ذلك، والصواب: ما نقلناه عن غير تاريخ (الطباخ).

إلى الصاحب كمال الدين بن العديم، فأعجبه خطها فأمسكها، وقال لرافعها: هذا خطُّك؟ قال: لا، ولكن حضرت إلى باب مولانا فوجدت بعض مماليكه، فكتبها لي، فقال: عليّ به.

فلما حضر، وجده مملوكه الذي يحمل مداسه، وكان عنده في حال غير مرضيَّة، فقال: هذا خطك؟ [قال: نعم. قال: هذه طريقتي؛ من هو الذي أوقفك عليها]؟ فقال: يا مولانا، كنت إذا وقَّعت لأحدٍ على قِصَّةٍ أخذتها منه، وسألته المهلة عليَّ، حتى أكتب عليها سطرين أو ثلاثة، فأمره أن يكتب بين يديه ليراه، فكتب:

وما تنفعُ الآدابُ والعلم والحِجا وصاحبُها عندَ الكمال يَمُوتُ

فكان إعجاب الصَّاحب بالاستشهاد أكثر من الخط، ورفع منزلته عنده حينئذ. انتهى.

شعره:

كما يعدُّ الكمال ابن العديم من كبار الحُفَّاظ والمحدِّثين، والفقهاء والمؤرِّخين؛ يعدّ أيضاً في كبار الأدباء والشعراء الذين كانوا في ذلك العصر، ويغلب على شعره الجودة والحُسْن والسلامة من التكلّف مع الدقَّة في المعاني وحُسْن التخيُّل، ونظمه الشعر كان تأدباً لا تكسُّباً لِسَعَة دنياه وثروته الطائلة، وهو مع ذلك ينبئك عن عُلوِّ همّته وكبر نفسه.

وله ديوان شعر يوجد في مكتبة المجلس البلدي في الإسكندرية في نحو ١٤ كراسة تقريباً لم أطلع على نسخة ثانية له في مكاتب العالم، وقد قدَّمت من شعره قصيدته التي قدَّمها إلى أمين الدين ياقوت، والأبيات التي ذكرها أبو الفداء من قصيدة له نظمها

بعد أن عاد من مصر إلى حلب، ورأى خرابها من قِبَل التتر بعد ذلك العمران الزاهر، وإليك بقية ما عثرت عليه من شعره جامعاً له من عدّة كتب.

قال ياقوت في «معجم الأدباء»: وأنشدني كمال الدين ـ أدام الله عُلاه ـ لنفسه في الغزل فاعتمد فيه معنى غريباً:

وأهيفَ معسولِ المراشِفِ خِلتُهُ ... وفي وجْنتيهِ للمُدامة عاصرُ
يُسيل إلى فيه اللذيذِ مدامةً ... رحيقاً وقد مرَّت عليه الأعاصرُ
فيسكرُ منه عندَ ذاك قَوامُهُ ... فيهتزُّ تِيْهاً والعيونُ فَواترُ
كأنَّ أميرَ النوم يَهوى جفونَهُ ... إذا همَّ رفقاً[1] خالفَتْهُ المحاجِرُ
خلوتُ به من بعد ما نام أهلُهُ ... وقد غارتِ الجوزاءُ والليلُ ساترُ
فَوَسَّدتُه كفِّي وبات مُعانِقي ... إلى أن بَدَا ضوءٌ من الصبح سافِرُ
فقام يجرُّ البُرْدَ منه على تقىً ... وقمتُ ولم تُحلل لإثم مآزرُ
كذلِكَ أحلى الحبِّ ما كان فَرْجُهُ ... عفيفاً وَوَصْلٌ لم تُشِنْهُ الجرائرُ

وأنشدني لنفسه بمنزله بحلب في ذي الحجة سنة ٦١٩ وإملائه:

وَساحِرَةِ الأجفانِ مَعْسُولَةِ اللَّمَى ... مَرَاشِفُها تُهْدِي الشِّفاهَ من الظَّما
حَنَتْ لِيَ قَوْسَي حَاجِبَيْهَا وفَوَّقَتْ ... إلَىْ كَبِدي من مُقْلَة العَيْن أسْهُما
فَوَا عَجباً من رِيقِهَا وَهْوَ طَاهِرٌ ... حَلَالٌ وَقَد أضْحَى عَلَيَّ مُحَرَّما
فَإِن كَان خَمْراً أين للخَمرِ لَوْنُهُ ... وَلَذَّتُهُ مع أنَّني لم أذُقْهُما؟
لها منزلٌ في رَبْع قلبي محلُّهُ ... مَصُونٌ به مذ أُوطنَتْهُ لها حِمى
جَرَى حُبُّها مجْرى حَيَاتي فَخَالَطَتْ ... مَحَبَّتُها رُوْحي وَلَحمِيَ والدَّما

---

(١) في «معجم الأدباء»: رفعاً.

تقولُ إلى كم ترتَضِـي العيشَ أنكَداً ... وتقنَعُ أن تَضْحى صحيحاً مُسلَّما؟
فسِـرْ في بـلادِ الله واطَّلِـب الغِنـى ... تفُزْ مُنْجِداً إن شـئتَ أو شئتَ مُتهِما
فقلـتُ لهـا: إنّ الذي خلَـقَ الورى ... تكفَّـلَ لي بالـرزق مَنّـاً وأنعَـما
ومـا ضرَّني أنْ كنـتُ ربَّ فضائـلٍ ... وعلـمٍ عزيـزَ النفـس حـرّاً مُعظَّـماً
إذا عَدِمَـت كفَّـايَ مـالاً وثـروةً ... وقد صُنْتُ نفسـي أن أُذلَّ وأُحرَما
(ولم أبتـذِلْ في خدمة العلمِ مُهجتي ... لأخـدمَ من لاقيتُ لكِـنْ لأُخدَما)

وهذا البيت أتى به على طريق التضمين، وهو من قصيدة للقاضي علي بن عبد العزيز، ذكر بعضها الإمام أبو الحسن الماوردي في آخر باب أدب العلم، من كتابه: «أدب الدنيا والدين».

قال ياقوت بعد ذكره هذه الأبيات: لا يظن الناظر في هذه الأبيات أن قائلها فقير وقتير، فإن الأمر بعكس ذلك؛ لأنه ـ والله يحوطه ـ ربُّ ضياع واسعة، وأملاك جمَّة، ونعمة كبيرة، وعبيد كثيرة، وإماء وخيل ودواب وملابس فاخرة وثياب.

ومن ذلك: أنه ـ بعد موت أبيه ـ اشترى داراً كانت لأجداده قديماً، بثلاثين ألف درهم، ولكن نفسه واسعةٌ، وهمّته عاليةٌ، والرغبات في الدنيا بالنسبة إلى الراغبين والشهوة لها على قدر الطالبين.

وأنشدني لنفسه في التاريخ:

اِحْذَر مـنِ ابْنِ العَـمّ فَهوَ مُصحَّفُ ... ومـن القَريـب فإنَّـما هُـو أحْـرُفُ
فَالقَافُ مـن (قَبرٍ) غَدَا لـك حَافِراً ... والرَّاء مِنْه (ردىً) لِنَفْسِـك يَخطفُ
واليَـاءُ (يَـأسٌ) دائـمٌ مـن خَـيْرِهِ ... والبـاء (بُغْـضٌ) منـهُ لا يتكَيَّـفُ
فاقْبَـل نَصِيحَتـيَ الَّتـي أَهْدَيْتُهـا ... إنِّي بأبنـاء العُمُومـة أعـرفُ

وأنشدني أيضاً لنفسه بمنزله سالكاً طريق أهله في الافتخار:

سأُلزِمُ نفسي الصَّفحَ عن كلِّ من جَنَى ... عليَّ وأعفُو حُسْبةً وتكرُّما
وأجعلُ مالي دونَ عِرْضي وقايةً ... ولو لم يغادِرْ ذاك عنديَ درهما
وأسْلُكُ آثار الأُلى اكتَسَبُوا العُلا ... وحازوا خِلالَ الخير ممَّن تقدَّما
أولئك قومي المُنْعِمون ذوو النُّهى ... بنو عامرٍ[1] فاسأَلْ بهم كي تَعَلَّما
إذا ما دُعُوا عندَ النوائبِ إنْ دجَتْ ... أناروا بكَشْفِ الخَطْب ما كان أظلَما
وإن جلسوا في مجلسِ الحُكْم خِلْتَهُم ... بدورَ ظلامٍ والخلائقَ أنجُما
وإن هُمْ ترقَّوْا منبراً لخطابةٍ ... فأفصحُ مَنْ يوماً بوَعْظٍ تكلَّما
وإن أخذوا أقلامَهُم لكتابةٍ ... فأحسنُ مَن وشَّى الطُّروسَ ونَمْنما
بأقوالهم قد أُوضِحَ الدرُّ[2] واغتدى ... بأحكامهم عِلْمُ الشريعة مُحكَما
دعاؤهُمُ يجلو الشَّدائدَ إنْ عَرَتْ ... ويُنزِلُ قَطْرَ الماء من أُفُقِ السَّما
وقائلةٍ يا ابنَ العديم إلى متى ... تجودُ بما تحوي؟ ستُصبِحُ مُعْدَما
فقلتُ لها: عنِّي إليكِ فإنّني ... رأيتُ خيارَ النَّاس من كان مُنعِما
أبى اللؤمَ لي أصلٌ كريم وأسرةٌ ... عُقيليَّةٌ سَنُّوا النَّدى والتكرُّما

وأنشدني لنفسه وقد رأى في عارضه شعرة بيضاء وعمره ٣١ سنة:

أليس بياضُ الأُفْقِ بالليل مُؤْذِناً ... بآخِرِ عُمْرِ الليل إذ هو أسفَرا
كذاك سَوادُ النَّبت يَقرُبُ يُبْسُهُ ... إذا ما بدا وسْطَ الرياض مُنَوَّرا

---

(١) يتصل نسب ابن أبي جرادة بعامر بن صَعْصَعة، واسم جدِّ أبي جرادة: عامر بن ربيعة، وهو صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقول ابن العديم: «فاسأل بهم» أي: عنهم.

(٢) في «معجم الأدباء»: الدين.

ودخلت إلى كمال الدين المذكور يوماً، فقال لي: ألا ترى؟ أنا في السنة الحادية والثلاثين من عمري، وقد وجدت في لحيتي شعرات بيضاء، فقلت أنا فيه:

هنيئاً ـ كمالَ الدين ـ فَضْلاً حُبيتَهُ ... ونَعماءَ لم يُخْصَصْ بها أحدٌ قَبْلُ
لِدَاتُكَ في شُغْلٍ بداعِيَةِ الصِّبا ... وأنتَ بتحصيل المعالي لكَ الشُّغْلُ
بلغْتَ لعَشْرٍ من سِنينِك رُتْبةً ... من المجدِ لا يَسْطيعُها الكاملُ الكَهْلُ
ولمَّا أتاكَ الحِلْمُ والفهمُ ناشئاً ... أشابَكَ طفلاً كي يَتِمَّ لك الفضلُ

قال ابن شاكر في «فوات الوفيات»: ومن نظمه وكتب بها إلى نور الدين بن سعيد:

بدا يسحَرُ الألبابَ بالحُسْنِ والحُسْنى ... هلالاً إليه آيةُ[1] المقصِدِ الأَسْنى
وزرَّر أزرار[2] القميص ترائباً ... وضمَّ إليه[3] الدِّعْص والغُصْنَ اللَّدْنا

وله:

يا أحسَنَ الناس نَظْماً غيرَ مفتقرٍ ... إلى شهادَةِ مِثْلي مَعْ توحُّدِهِ
إن كان خطِّي كسا خطّاً كتبتَ بهِ ... إليَّ حُسْناً بدا في لونِ أسودِهِ
فقد أتَتْ منك أبياتٌ تُعلِّمني ... نظْمَ القريضِ الذي يحلو لِمُنشِدِهِ
أرسلتَها تَقْتَضيني ما وُعِدتَ بهِ ... والحرُّ حاشاهُ من إخلافِ موعدِهِ
وما نسيتُ ولكن عاقَني ورَقٌ ... يُجيدُ خطّي فآتيهِ بأجوَدِهِ
وسوفَ أُسرِعُ فيه الآن مُجتهداً ... حتى يُوافيكَ بَدْراً في مُجلَّدِهِ

---

(١) هكذا. وفي المطبوع من «الفوات»: هلمَّ إليه إنه المقصد الأسنى.
(٢) في المطبوع من «الفوات»: وَزُرّ بين أزرار القميص. وفي نسخة: وزر من أزرار.
(٣) في «الفوات»: وضم إليك.

بأحـرُفٍ حسُـنَتْ كالوجـه دارَ بـهِ مثـلُ الحـواشي عِـذارٌ في مُـوَرَّدِهِ

وكتب إلى ولده قاضي القضاة مَجْد الدين:

هـذا كتابي إلى مَـن غاب عن نظَري وشخصُهُ في سُويدا القلب والبصـرِ
ولا يمـنُّ بطيـف منـه يطرقنـي عنـد المنام ويأتينـي عـلى قَـدَرِ
ولا كتـابٌ لـه يـأتي فأسـمعَ مِـن أنبائـه عنـهُ فيـهِ أطيـبَ الخبَرِ
حتى الشمالُ التي تَسْـري إلى حلبٍ ضنَّـت علـيَّ فلـم تخطُـرْ ولم تَسِـرِ
أخُـصُّـهُ بتـحـيَّـاتي وأُخـبـِرهُ أني سئمتُ مـن التَّرْحال والسَّفرِ
أبيـتُ أرعـى نجـومَ الليـل مكتئباً مفكّـراً في الـذي ألقـى إلى السَّـحَرِ
وليـس لي أرَبٌ في غـير رُؤيـتِـهِ وذاك عنديَ أقصـى السُّؤْل والوَطَرِ

انتهى ما في: «فوات الوفيات» لابن شاكر.

مكاتبة الشعراء والأدباء له ومدائحهم فيه:

جاء في «ديوان البهاء زهير» في نسخة مخطوطة، وكتب الصاحب كمال الدين المعروف بابن العديم الكاتب الحلبي:

دَعَوتُـكَ لمّـا أن بَـدَتْ ليَ حاجـةٌ وقلـتُ رئيـسٌ مثلُـهُ مـن تفضَّـلا
لعلّـكَ لِلفضـل الـذي أنـت ربُّـه تغـارُ فـلا تـرضى بـأن تَتَبـذَّلا
إذا لم يكُـنْ إلا تحمُّـلُ مِنَّـةٍ فمنـكَ وأمـا مِن سـواك فـلا، ولا
حَمَلـتُ زمانـاً عنكُـمُ كلَّ كلْفـةٍ وخفَّفـتُ حتـى آن لي أن أُثَقَّـلا
ومنْ خُلُقي المشـهورِ مذْ كنتُ أنّني لغـيرِ حبيـبٍ قـطُّ لـن أتذلَّـلا
وقد عشتُ دهراً ما شكوتُ لحادثٍ بـلى كنـت أشـكو الأغيَـدَ المتدلِّـلا

وما هِمْتُ إلا للصبابة والهوى ولا خِفْتُ إلا سطوةَ الهجْرِ والقِلا
أروحُ وأخلاقي تذوبُ حلاوةً(١) وأغدو وأعطافي تسيل تغزُّلا
أُحِبُّ من الظبي الغرير تلفُّتاً وأهوى من الغُصن النَّضير تفتُّلا
فما فاتني حَظِّي من اللهو والصِّبا ولا فاتني حظِّي من المجد والعُلا
ويا رُبَّ داعٍ قد دعاني لحاجةٍ فعلتُ له فوقَ الذي كان أمَّلا
سبقتُ صداهُ باهتمامي بكلِّ ما أرادَ ولم أُحْوِجْهُ أن يَتَمهَّلا
وأوْسَعْتُهُ لمّا أتاني بشاشَةً ولُطْفاً وترحيباً وخُلْقاً ومَنزِلا
بسطتُ له وجهاً حَيِيّاً ومنطقاً وفيّاً ومعروفاً هَنِيّاً مُعجَّلا
وراح يراني مُنْعِماً متفضِّلا ورُحتُ أراهُ المنْعِمَ المتفضِّلا

قال العُرْضي في «نموذجه»: ولما ورد الصاحب كمال الدين رسولاً إلى مصر، انتمى إليه أبو الحسين الجزار ولاذ به، وسأله أن يجمع له شعره فجمعه وسمّاه: «تقاطيف الجزار» وقدّمه إليه وامتدحه في آخره بقوله:

سرَّ الفؤادَ طيفُهُ لمَّا سرى فمرحباً منهُ بما أهدى الكرى
وافى إليَّ زائراً فَلَيْتَهُ حقَّقَ في اليَقْظَةِ لي ما زوَّرا
ظبيٌ إذا ماس ولاحَ وجهُهُ رأيتَ غُصْناً بالهلال مُثْمِرا
وإن بدَتْ طَلْعَتُهُ في ليلةٍ من شَعْرِهِ رأيتَ ليلاً مُقْمِرا
كم ليلةٍ جَنَيتُ من عِذارِهِ آساً ومِن خدَّيه وَرْداً أحمرا
قُل للذي يعذِلُني في حُبِّهِ حُقَّ لمن أَحبَّهُ أن يُعْذَرا
جرَّدَ من جفنيهِ عَضْباً أبيضاً وهزَّ من عِطْفيهِ لَدْناً أسمَرا

(١) في ديوان البهاء زهير ٢٢٣: صبابة بدل حلاوة.

يـا سـاحرَ الأجفـان رِفقـاً بِفتىً سـلَبْتَ منـه عقْلَـهُ ومـا درى
غريمُهُ الشوقُ وقدأضحى من الـ ـصَّبرِ الجميلِ مذ نأيتَ مُعسِـرا
أجريـتَ مـن أدمُعِهِ مـا قد كفى يكفيـكَ من أدمُعِهِ مـا قد جرى
حُزتَ الجمالَ مثلَما حاز العُلى الـ ـمولى كمالُ الدين مِن دُون الورى
شيَّد مجـداً لـو أرادَ النَّجـمُ أن يُـدرِكَ بعْـضَ شـأْوِهِ لقصَّــرا
ولـو رأى البـدرُ المنـيرُ وجهَـهُ هلَّــل إجــلالاً لــه وكــبَّرا
يـا مَـن أُرجِّـي مالـهُ وجاهَـهُ هـذا أوانُ النَّفْعِ فافعَـلْ ما ترى
لم ألـقَ في ذا الدّهرِ مَن أشـكُو لهُ ريْـبَ الزمانِ إذ تعـدَّى وافتَرى
وطالما حدَّثـتُ نفسـي بالغنى منـكَ ومـا كان حديثـاً يُفْـتَرى
ولسـتُ أختـارُ كريـماً بعدَهـا عنكَ وكلُّ الصَّيد في جوْفِ الفَرا

قال ابن خطيب الناصريَّة في تاريخه «الدر المنتخب»: ومن نظم الكمال ابن العديم ما أنشده له الحافظ أبو محمد الدمياطي قال: أنشدنا الصاحب يعني: كمال الدين ابن العديم لنفسه (بسُرَّ منْ رأى):

نزلنـا سُرَّ مـن را فازدَهَتْنـا محاسـنُها الـدوارسُ إذ نزَلْنـا
وخاطَبَنـا لسـانُ الحـال منهـا حَلَلْنـا قبلَكُـم ثـم ارتَحَلْنـا

قال: وأنشدني ببغداد لنفسه وقد التمس منه بها مقال من خطِّه البديع:

يـا مـن لـه همَّـةٌ تسـمو إلى الرَّتَـبِ ورغبـةٌ في بديـع الخـطِّ والأدبِ
أسـهرتَ ليلَـكَ في تحريـر أحرُفِـهِ وفي نهـارِكَ لا تصبـو إلى تعَـبِ
طلبـتَ منـي مثـالاً تسـتعينُ بـه عـلى إجـادة مـا تُبقيـهِ في الكُتُـبِ
فلـم أجـدْ منـعَ مـا حاولتَهُ حسَـناً إذ كنتَ أهلاً لنيل النُّجح في الطلَبِ

فهاكَ خطّاً كزَهْرِ الروض باكَرَهُ ... طَلُّ النَّدى وسَقَتْهُ أعينُ السُّحُبِ
يُبدي لنا غَرْسَ بغدادٍ له ثمرٌ ... حكاهُ في الحُسْن منسوبٌ إلى حلبِ
أقلامُهُ سبعةٌ تُزْري برَوْنقها ... وحُسْنِ منظَرِها بالسَّبْعةِ الشُّهُبِ

قال الشيخ شهاب الدين محمود[1]: ولما وصل إلى الديار المصرية في بعض سفراته رسولاً إليها حمل إليه (أيدمر)[2] مولى محيي الدين الجزري المسمَّى بعد ذلك إبراهيم الصوفي، شعره؛ ليتصفَّحه فطالعه، وكتب عليه لنفسه:

وكنت أظنُّ التُّرْكَ تختصُّ أعينٌ ... لهم إن رَنَتْ بالسِّحْر فيها وأجفانُ
إلى أن أتاني مِن بديعِ قريضِهِمْ ... قوافٍ هي السِّحر الحلالُ وديوانُ
فأيقنتُ أنّ السِّحْرَ أجمَعَهُ لهُمْ ... يُقِرُّ لهم هاروتُ فيهِ وسَحْبانُ

فكتب إليه (أيدمر) يشكره، ويسأله أن يكتب اسمه تحت الشعر الذي كتبه على الديوان:

لك الفضلُ أَوْلى الناس بالحمد مُنعِمٌ ... تعرَّفَ بالإحسان إذ رثَّ عِرْفانُ
وبارقةٍ من فضل عَلْياكَ خبَّرت ... بأنَّ سحابَ الفضْلِ عندكَ هتّانُ
أتَتْني على الديوان أبياتُكَ التي ... يُفصَّلُ منها للبلاغةِ ديوانُ
فدلَّت ـ وإن قلَّت ـ على ما وراءها ... كما شفَّ عن سرِّ الصحيفة عنوانُ

---

(١) هو شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد الحنبلي الحلبي، كان شيخ صناعة الإنشاء في عصره، من أشهر كتبه: «حسن التوسل إلى صناعة الترسل» توفي في دمشق سنة ٧٢٥هـ رحمه الله تعالى.

(٢) هو أيدمر بن عبد الله، علم الدين المحيوي، تركي الأصل، أعتقه بمصر محيي الدين محمد ابن محمد بن ندى، فنُسب إليه لقب الإمارة، له قصائد وموشحات جيدة السباك، توفي سنة ٦٧٤هـ رحمه الله تعالى.

فلو عايَنَتْ عينا ابن مُقْلَةَ خطَّكم لَغَضَّ أناةً[1] أو رنا وَهْوَ خَزْيانُ
فكيف يكونُ السِّحر فينا وعندَنا وخطُّكَ هاروتٌ ولفظُكَ سحبانُ
فيا مالكاً أبدى ندىً كن مُتمِّماً ليشفَعَ من يُمْناك بالحسن إحسانُ
وتَوِّجْهُ والمأمورُ غيرُك باسمِكَ الـ ـكريمِ، فأسماءُ الأكارمِ تِيْجانُ
يحوكُ به وَشْي الرياضِ ويَنْثني ويبقى شهيداً عندَها منهُ غُدرانُ
وإن امرأً أضحى الكمالُ بعينِهِ فمن أين يعروهُ وحاشاهُ نقصانُ
على أنه الصُّبْحُ المنَوَّرُ شُهرةً وليس بمطلوبٍ على الصبح بُرهانُ

آثاره بحلب:

قال العلَّامة أبو ذر في «كنوز الذهب»: «المدرسة العديمية» هذه المدرسة خارج باب النيرب، أنشأها الصاحب كمال الدين عمر بن العديم، وبنى إلى جوارها تربة وجَوْسقاً[2] وبستاناً، ابتدأ في عمارتها سنة تسع وثلاثين وست مئة، وتمّت في سنة تسع وأربعين، لم يدرس بها أحد لأنَّ الدولة الناصريَّة انقرضت قبل استيفاء غرضه فيها، وهي الآن يقام فيها الجمعة، وكان يخطب بها الشيخ الصالح أحمد الزركشي[3]. انتهى.

ومثل هذه العبارة في: «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة ص١٢٢، فهي منقولة عن «كنوز الذهب»، وصاحب «الدر المنتخب» لم يعلّق عليها شيئاً.

---

(١) هكذا في الأصل، وفي «ذيل مرآة الزمان» ٢: ١٧٩: لغضَّ أتاه، أي: مُقْلته.

(٢) الجوسق: القصر وهو معرَّب.

(٣) الشيخ أحمد الزركشي لم أقف له على ترجمة، ومما يجدر التنبيه عليه أن في محلة الجبيلة بالقرب من مخفر باب الحديد، زاوية أو مسجداً اشتهر بين الناس أنه قبر الزركشي شارح «صحيح البخاري»، وهذا وهم، ويظهر أنه قبر أحد أمراء الجراكسة فحرفت من الجركسي إلى الزركشي، وأما الزركشي شارح «البخاري» فإن اسمه: محمد بن بهادر، وهو مصري، وتوفي في مصر سنة ٧٩٤، كما في «شذرات الذهب» للعماد الحنبلي ج٦ ص٣٣٥ (الطباخ).

الكلام على هذه المدرسة:

هذه المدرسة - كما قال - خارج باب النيرب في المحلة المعروفة بمحلة محمد بيك، وقد تُرِكَ الاسم القديم ولا يعرفها بهذا الاسم أحد من مئات من السنين، وتعرف الآن بالمدرسة الطرنطائية، ومكتوبٌ على بابها كتابة حديثة: وقف هذين الجامع والمدرسة السيد عفيف الدين ابن محمد شمس الدين سنة ٧٨٥، وإلى جانب هذه الكتابة كتب أيضاً: (جامع مدرسة الطرنطائية).

أما عفيف الدين فإني لم أقف له على ترجمة، وأما الطرنطائية فنسبة إلى الأمير طرنطاي الحاجب المترجَم في «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» للحافظ ابن حجر (ج٢ ص٢١٧)، وعبارته في ترجمته: «ومن آثاره بحلب: أنه جدَّد خطبة بالمدرسة التي خارج باب النيرب، وجعل لها وقفاً»، وقال قبل ذلك: «وطرنطاي قتل في وقعة شقحب سنة ٧٩٣هـ». انتهىٰ.

ويظهر أنَّ تجديده للخطبة وجعله لها وَقْفاً كان سنة ٧٨٥ أي: قبل قتله بسبع سنين، وأنَّ عفيف الدين هو لقب لطرنطاي، واسم أبيه محمد، ويلقَّب بشمس الدين، أو أنَّ محمد شمس الدين هو اسم ولقب سيده، فقد جاء في أول ترجمته في: «الدرر الكامنة»: طرنطاي الحاجب؛ كان من مماليك بعض ولد الناصر محمد، ثم ترقَّى إلى أن ولي الحجوبية الكبرى بدمشق... إلخ، وإلى هذا التجديد أشار صاحب: «كنوز الذهب» بقوله: وهي الآن يقام فيها الجمعة.

وجاء في كلام «كنوز الذهب»: إنه بنى لها تربة وجَوْسقاً وبستاناً.

أما التربة فإن في جانبي القبلية مكانين، فالذي من جانب اليمين فيه قبور ظاهرة، والذي في جانب اليسار اتُّخذ متوضأ ومُصلًّى، وقد أخبرني الشيخ عبد الغني البادنجكي، الذي اتَّخذ جده الشيخ سعيد هذه المدرسة زاوية، وصار يقيم الذكر فيها

في مكان التدريس الواقع في شمالي المدرسة أنه كان حُفر هذا المكان فَوُجد فيه عدَّة قبور، فرُدمت، واتُّخذ هناك متوضى ومصلًّى، وفيه باب يدخل منه إلى القبلية.

وأما الجوسق ـ ومعناه كما في «القاموس»: القصر ـ فإنه دارٌ واسعةٌ ملاصقةٌ للمدرسة من شمالها، قسمت إلى دارين هما وقف للمدرسة، يسكنها الآن بنو البادنجكي، ومعظم البناء القديم لم يزل باقياً وبعض بنائهما حادث، ومن أحد الدارين باب يدخله منه إلى مكان الذكر الذي كان محلاً للتدريس وقد سدّ الآن، ومكتوب على الجهة اليسرى خارج باب المدرسة: (حفر علي بن أحمد العديم)، ومكتوب في داخل المدرسة على عضادة الإيوان المتَّجه للشرق: (كاتبه مسكين علي العديم) فهذه الكتابة في الحجر تزيدنا يقيناً أن المدرسة الطرنطائية هي المدرسة العديميَّة.

وأما البستان الذي ذكره في: «كنوز الذهب» فإنه ـ كما أخبرني الشيخ عبد الغني المومأ إليه ـ كان في الشرق الشمالي من المدرسة، واتُّخذ موضعه دوراً، ويُعرف الآن بزقاق الدوالي.

وأخبرني أيضاً أنه كان لهذه المدرسة بابان آخران غير الباب المعروف الذي هو من الجهة الغربية: باب من مكان التدريس في شماله كان يدخل منه لصلاة الجمعة أهل المحلة التي تعرف الآن بالقطانة، ثم سدَّ لما جعل هذه المكان زاوية في سنة ١٢٥٠، وصار يقيم الذكر فيه الشيخ سعيد البادنجكي[١]، ثم ولده الشيخ محيي الدين[٢]،

---

(١) الشيخ سعيد بن عبد الواحد النبهاني المشهور بالبادنجكي، والحقيقة: ميدانجكي؛ نسبة لجامع محلة ميدانجك، كان يقيم الذكر في جامع محلة ميدانجك، ثم انتقل إلى المدرسة الطرنطائية الكائنة في محلة محمد بيك، وتوفي سنة ١٢٥٠، ودفن في تربة باب الملك. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٢٤٣.

(٢) الشيخ محيي الدين بن سعيد البادنجكي، العالم العامل، التقي المرشد، المتوفى سنة ١٣٢٧، عن ٨٥ عاماً رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته في «إعلام النبلاء» ٧: ٥١٥-٥١٦.

وكلاهما مترجمان في المجلد السابع من تاريخنا «إعلام النبلاء».

والباب الثاني كان شرقي المدرسة في الزقاق الذي يعرف الآن بزقاق الدوالي.

وفي المدرسة في الطابق السفلي أربع حجر في شرقيِّها، وأربع في غربها، وفي الطابق العلوي ستُّ حُجَر في شرقيِّها، وست في غربيها، وفوق المكان المعدّ للتدريس قديماً ولإقامة الذكر الآن حجرة، فالمجموع: إحدى وعشرون حجرة، وكلها في حاجة إلى الترميم وفتح منافذ في بعضها لتصلح للانتفاع بها.

وما جاء في تاريخ صديقنا المرحوم الشيخ كامل الغزي في الجزء الثاني منه ص ٣٥٠: أنها تشتمل على أربعين حجرة عليا وسُفْلى ليس بصحيح.

وكذلك قوله: «وأما الذي أنشأها وأنشأ الجامع فهو السيد عفيف الدين بن محمد شمس الدين، وذلك في سنة ٧٨٥» فهو أيضاً ليس بصحيح، وقد تقدَّم مَنْ هو الباني، وأن عفيف الدين يظهر أنه لقب لطرنطاي إلخ ما تقدّم.

وهذه المدرسة ضخمة الحجارة شاهقة البناء كأنها حِصْنٌ منيع، وهي تُعدّ في جملة الآثار القديمة الجليلة، وبناؤها يشبه تماماً بناء مدرسة ضيفة خاتون وحجارتها تضاهي حجارتها، ويظهر أنَّ الباني لهما واحد لأنَّ تاريخ بنائهما متقارب، فقد بُنيتا في وسط القرن السابع، وليس لها الآن من الوقف سوى الدارين المتقدِّمتين اللتين كانتا داراً واحدة عظيمة، وأوقافٍ عشرية مضبوطة يُؤْخذ منها شيء زهيد لا يقوم ببعض نفقاتها.

* * *

الكلام على تاريخه «بغية الطلب في تاريخ حلب»

قال العلَّامة رضي الدين محمد بن الحنبلي المتوفى سنة ٩٧١ في خطبة تاريخه «در الحبب في تاريخ حلب»: «اهتمّ بأمر تاريخ الشهباء جماعة من النبلاء وشرذمة من الفضلاء، فكان ممن أقدم وكتب لها تاريخاً حسناً فيما تقدَّم المولى الصاحب صاحب المآثر والمناقب كمال الدين أبو حفص عمر بن أبي جرادة العُقَيْلي المعروف بابن العديم الحلبي الحنفي، وهو التاريخ الكبير الذي سمّاه: «بغية الطلب في تاريخ حلب»، وانتزع عنه تاريخه المسمّى بـ«زبدة الحلب في تاريخ حلب»[١]، حتى انتزعنا منه وزدنا عليه سوى ما تلَّقيناه عنه سنة إحدى وخمسين وتسع مئة مختصرنا الذي سمَّيناه بـ«الزبد والضَّرَب في تاريخ حلب»[٢]، وكانت وفاته سنة ستين وست مئة.

وقال في أول «الدر المنتخب في تاريخ حلب» المنسوب لابن الشحنة المطبوع في بيروت: وقد رأيت جماعة من العلماء جمعوا تواريخهم لبلادهم على أنحاء شتَّى

---

(١) حققه الدكتور سامي الدهان ونشره في ١٠٥٤ صفحة، ووزَّعها على ثلاثة أجزاء، وقدَّم للكتاب بمقدمة مسهبة عن حياة ابن العديم ومؤلفاته، وقد اعتمد في نشره على عدَّة مخطوطات أهمها: مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس، وهي مكتوبة سنة٦٦٦ أي بعد وفاة ابن العديم بست سنوات، وقد اعتمد ناسخها على نسخة ابن العديم التي كتبها بخطه. وأعاد تحقيقه الدكتور سهيل زكار، وصدرت الطبعة الأولى سنة ١٤١٨ عن دار الكتاب العربي بدمشق في ٨٢٨ صفحة في مجلدين. وتنظر دراسة جيدة عن الكتاب للدكتور إبراهيم عوض السيد شحاتة في موقع (الألوكة) بعنوان: «ابن العديم وكتابه زبدة الحَلَب».

(٢) صدر ضمن منشورات مركز المخطوطات والتراث في الكويت سنة ١٩٨٨ بتحقيق الدكتور محمد التونجي.

بحسب اجتهادهم، ولم أرَ لحلب تاريخاً مختصّاً بذكرها، منطوياً على بثّ محاسنها ونَشْرها، وهي خليقة بذلك لأنها واسطة عِقْد المالك وزمامها الذي من ملكه تصرّف فيها بكل الأمور، التي تريدها نفسه وتشتهيها، إلا من جمعه تاريخاً مستوعباً لها الإمام العلّامة كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن العديم الحلبي الحنفي، فأتقَنَ وأجاد وأطال ولم يبيِّض منه إلا اليسير وأطال فيه من ذكر الروايات والطُّرف، فجاء معنىً قليلاً في لفظ كثير، ولم يسبقه أحد بتاريخ لها على الخصوص وسمّاه: «بغية الطلب بتاريخ حلب» رتّبه على حروف المعجم، كما أخبرني بذلك الأمير النقيب بدر الدين الحسيني نقيب السادة الأشراف في المملكة الحلبية ـ رحمه الله تعالى ـ أن مسودته كانت تبلغ نحو أربعين جزءاً كباراً، والمبيضة تجيء كذلك، لكن اخترمته المنيّة قبل إكمال الأمنية، وتفرّقت أجزاؤه قبل الفتنة التيمورية فلا تجد الآن منها إلا نَزْراً لم أقف منها إلا على جزء واحد بخطّه فيه بعض حرف الميم، وفيه ترجمة الملك العادل نور الدين محمود، وترجمة جدي الأمير حسام الدين محمود شحنة حلب، وبعض تراجم غيرها، وهو عندي، وبلغني أنه ذكر في الجزء الأول من خصائص حلب وفضائلها ومعاملاتها ومضافاتها. انتهى.

وقال علاء الدين ابن خطيب الناصرية في خطبة تاريخه: «الدر المنتخب في تاريخ حلب»[1]: وجمع لها تاريخاً مستوعباً لذلك الإمام العلاَّمة أبو القاسم عمر بن أحمد بن العديم الحلبي الحنفي ـ رحمه الله تعالى ـ فأتقن وأجاد وأطال ولم يسبقه أحد إلى تاريخ لها على الخصوص وسمّاه: «بغية الطلب في تاريخ حلب» رتّبه على حروف المعجم

---

(١) هو في مجلدين ضخمين كانا موجودين في المكتبة الأحمدية بحلب، وفُقدا مدة طويلة، ثم استحصلت من سنين قريبة دائرة الأوقاف الجزء الأول، وهو نصف الكتاب، وردّته إلى المكتبة وهو موجود فيها، وبقي المجلد الثاني مفقوداً إلى الآن (الطباخ).

ومسوّدته نحو الأربعين جزءاً كباراً، والمبيضة كذلك، اخترمته المنية قبل كمال تبييضه، أحببت[١] أن أذيِّل عليه ذيلًا مختصراً.

وقبل الخوض في ذكر الأسماء أصدِّر بفصول: (الأول): في حلب وأسمائها ومن بناها وألقابها، (الثاني): في ذكر حدودها وأعمالها، (الثالث): في عِظَم فضلها وخصائصها، (الرابع): في فتحها، (الخامس): في نهرها وقنيها ومساجدها ومعابدها.

وقد ذكر ذلك الصاحب كمال الدين عمر بن العديم في «تاريخه» مستوفًى لكن تفرَّق شَذَر مَذَر ولا يوجد إلا القليل منه، وكنت وقعت منه على بعض أجزاء من المبيضة قبل الفتنة التيمورية. انتهى[٢].

أقول: وإذا تأملَّت في عبارة «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة، تجد أن معظمها قد أخذه من خطبة «الدر المنتخب» لابن خطيب الناصريَّة.

والصلاح الصفدي حينما سَرَد أسماء التواريخ في مقدَّمة «تاريخه»[٣] ذكر تاريخ ابن العديم ولم يقل أنَّ شيئاً منه لم يزل في المسوَّدة.

وقد عدَّه الجلال السيوطي في أوائل تاريخه «بغية الوعاة في طبقات النحاة» من جملة التواريخ التي طالعها، وقال: إنه في عشرة مجلدات، وقال في آخر تاريخه ما نصُّه:

وأما الشام فوقفنا على تاريخها لابن عساكر، وأعْظِمْ به، وتاريخ حلب لابن العديم ونقل عنه في ترجمة ابن خالويه النحوي، وسيأتيك نصُّها.

---

(١) جواب لأول كلامه لم أذكره اختصاراً إذ لا غرض لنا فيه (الطباخ).

(٢) مجيئ تيمور لنك إلى حلب وتخريبه فيها كان سنة ٨٠٣. انظر: تاريخي «إعلام النبلاء» في حوادث هذه السنة (الطباخ).

(٣) يوجد منه أربع مجلدات في المكتبة الأحمدية بحلب الأول منه مرتب على السنين (الطباخ).

وقال ابن شاكر في «فوات الوفيات» في ترجمة المؤلف: أنه مات قبل إكمال تبييضه.

وقال العلّامة اليونيني في «الذيل»[١] في حوادث سنة ٦٦٠ في ترجمة المؤلف: «وجمع لحلب تاريخاً أحسن فيه ما شاء، ومات وبعضه مسوَّدة لم يبيِّضه ولو تكمل تبييضه كان أكثر من أربعين مجلداً».

وهذه النقول تردُّ على ما ذكره في «الدر المنتخب» المنسوب لابن الشحنة أنه لم يبيض منه إلا اليسير، وسيأتيك ما يؤيِّد ذلك.

وقال الحافظ السخاوي في كتابه: «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» ص١٢٥: (حلب) جمع تاريخها من سنة تسعين وأربع مئة يتضمَّن أخبار الفرنج وأيامهم وخروجهم إلى الشام من السنة المذكورة وما بعدها أبو الفوارس حمدان بن عبد الرحيم ابن حمدان التميمي الأثاربي ثم الحلبي سماه «القوت»[٢].

وقال السخاوي في كتابه المتقدم في ص١١٤: وعدَّة مجلدات من تاريخ حلب للكمال أبي حفص عمر بن أحمد بن العديم، سمّاه: «بغية الطلب»، كانت عند صاحبنا الجمال بن السابق الحموي، بخطِّ مؤلفه ونقلها منه صاحبنا ابن فهد أولها: من أحمد بن جعفر بن محمد ابن عبيد بن المناوي إلى آخر أحمد بن عبد الوارث بن خليفة، وثانيها: وليس تلوه مع الذي يليه وأولهما: أحمد بن محمد بن متويه، وآخرها في أثناء ترجمة أميَّة ابن عبد الله بن عمرو بن عثمان، ورابعهما: من الحجاج بن هشام إلى آخر الحسن بن علي ابن الحسن بن شواس، وخامسها والذي يليه: وهما من الحسين بن عبد الله الخادم إلى

---

(١) هو من مخطوطات الأحمدية أيضاً يوجد منه مجلد واحد (الطباخ).

(٢) هذا يرد على من يقول: إن أول من جمع تاريخها الكمال ابن العديم، وقد أوضحت ذلك في مقدمة تاريخي «إعلام النبلاء» ص١٤ (الطباخ).

أثناء دعلج بن أحمد بن دعلج، وسابعها والذي يليه: وهما من أثناء راجح بن إسماعيل الأسدي إلى سعيد بن سلام، وتاسعها: من مشرق بن عبد الله الحلبي إلى أثناء الوليد ابن عبد العزيز بن أمان، ولكن فيه حرف الهاء وجرياً على عادة كثيرين في تأخيره عن الواو، ووقفت على المسودة التي بخط المؤلف من هذا الجزء بخصوصه، عند ابن فهد وعليها بخط المؤلف تلقيبه بالرابع عشر وعاشرها: الكنى إلى آخر الأنساب. ورأيت مجلداً آخر منه في بعض البلدان، وكان عند المحب بن الشحنة منه بخطّ الـمؤلف بعض الأجزاء مما لم أطالعه[1]، وكذا استوفيت «ذيله» للعلاء بن خطيب الناصرية وهو في أربعة أسفار.

الموجود من هذا التاريخ في مكاتب العالم[2]:

بيان ذلك هو الغاية القصوى من تأليفي هذا الكتاب (ونشره الآن متتابعاً في مجلة الجامعة الإسلامية)، وقد تحمّلت عناءً كثيراً في البحث والتّنقيب وتصفُّح الفهارس حتى توصَّلت إلى ما أمكن الوصول إليه إلى ما يوجد من هذا التاريخ في

---

(١) يظهر أن الأجزاء التي وصلت إلى الجمال ابن السابق هي التي فيها الأسماء ولم يصله شيء من الأجزاء التي فيها الكلام على بلدانها وأنهارها وبحيراتها... (الطباخ).

(٢) كتب العلامة الطباخ مقالة في مجلة «المجمع» في الجزء الثاني من المجلد الثالث والعشرين (١٣٦٧-١٩٤٨) بعنوان: «بغية الطلب في تاريخ حلب»، قال في مقدمتها: «كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم المتوفى سنة ٦٦٠ من بيت عريق في العلم والأدب بحلب، وهو واسطة عِقْدهم وأجلُّهم. وتاريخه المعروف بـ«بغية الطلب في تاريخ حلب» يضارع «تاريخ بغداد»، للخطيب البغدادي، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، ترجم فيه لكلِّ من نزل حلب أو أقام بها مدّة أو مرَّ بها، وروى أخباره بالسند على طريقة المحدِّثين. قال ابن كثير: إنه يقرب من أربعين مجلداً. والكتاب ما زال مخطوطاً في أجزاء مبعثرة في دور الكتب بالشرق والغرب، وفيما يلي أماكن وجوده»، ثم ذكر أماكن وجوده في الأستانة وباريس ولوندرة والأستانة أيضاً ومصر وبطرسبرج، وفي الموصل ثم حلب، مما ذكره في مقالاته المتابعة التي نشرها في مجلة «الجامعة الإسلامية».

مكاتب العالم، لَعَلَّ الله يُقيِّض لهذا الكنز الثمين والتاريخ الجليل رجلاً أو رجالاً، عَلَتْ همَّتهم وقَوِيَت عزيمتهم فيستخرجونه من دفائنه، ويبرزونه لعالم المطبوعات لتعمّ الاستفادة منه، ويقف الخَلَف على آثار السَّلف، ويعلم ما كان وقتئذ في هذه الديار من بلاد عامرة آهلة بالسكان، ومن رجال خدموا العلم والأدب، وكانوا غرّة في جبين تلك العصور، إلى غير ذلك من الفوائد والطُّرف التي لم تصل إلينا لنودعَها تاريخنا فبقيت تحت طيّ الخفاء، وهذا ولا ريب مما يهمّ مُحبِّي الاستطلاع والمعرفة؛ ليزدادوا علماً بأحوال الديار الحلبيَّة، بل البلاد السورية وما كانت عليه من الوجهة العمرانية والعلمية والاجتماعية والأدبية وغير ذلك[1].

---

(١) دأب العلامة الطباخ على تقصيٍّ النسخ الخطية لهذا الكتاب، وقد كتب عدَّة رسائل لرئيس المجمع العلمي، الأستاذ محمد كردعلي لمساعدته في الحصول على النسخ الخطية، ومن ذلك ما جاء في رسالته المؤرخة في ٢٥ من المحرم سنة١٣٥١ الموافق ٣٠ أيار سنة ١٩٣٢ يقول فيها: «كنت رجوت قرَّاء المجلة أن يفيدوني عمَّا يعثرون عليه في المكاتب من تاريخ الكمال عمر ابن أحمد العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ غير الأجزاء التي ذكرتها، فأجابني الوجيه الفاضل السيد محمد نصيف في جدة أنه يوجد تاريخ حلب لابن العديم في الخزانة المصرية، وفي متحف بطرسبرج، فعليه أرجو من المجمع الموقر أن يكتب لعضوه في روسيا السيد كراتشفوفسكي أن يبحث عن هذا الجزء في متحف بطرسبرج، ويصف على صفحات المجمع خطَّه وعدد أوراقه وتاريخ كتابته وعدد سطور الصفحة، ونموذجاً من محتوياته، وما هو أوله وما هو آخره. وأن يكتب لقيم المكتبة المصرية عما يوجد منه فيها ويصفه لنا.
ونظراً لأهمية هذا التاريخ واحتياج مكاتبنا إليه أقترح على المجمع أن يأخذ الموجود من أجزائه بالمصور الشمسي نسخة لمكتبة دمشق، ونسخة لمكتبة فرع المجمع في حلب الفقيرة فلعل المولى أن يوفقني لإحياء هذه الأجزاء بالطبع فتعمَّم الاستفادة منها والأجزاء التي أعلمها في المكاتب هي:
جزء ١ في الأستانة في مكتبة أيا صوفية، رقمه ٣٠٣٦ وأظنه بخط المؤلف.
جزء ١ في باريس في مكتبة الأمة، رقمه ٢١٣٨، عدد أوراقه: ٢٠٨ =

في الأستانة:

يوجد ثمانية أجزاء منه في الأستانة في مكتبة سلطان أحمد الثالث في سراي طوب قبو تحت عنوان: (تاريخ حلب) لابن العديم بخطه، رقمها ٢٩٢٥، اطَّلع على هذه المكتبة بعد جهد صديقنا العلاَّمة الأديب الفاضل السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي أحد أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق وأحد أساتذة جامعة (عليكره) في الهند، فكان في جملة ما رآه فيها هذه الأجزاء الثمانية من التاريخ، ونقل عنده عن كل جزء اسم أول وآخر من ترجم فيه مع عدد أوراق كل جزء، وقد كتب لنا ذلك بخطِّه حين مروره بحلب عائداً من الأستانة في الثاني من شهر صفر سنة ١٣٥٥هـ. ودونك ذلك:

= جزء ١ في لوندره في المتحف البريطاني، رقمه ٢٣٣٥٤، عدد أوراقه ١٧٠.
جزء ١ في مكاتب الموصل، وهذا قد استنسخته وهو في ٤٠٠ صحيفة وأطلعت عليه حضرة رئيس المجمع في زيارته الأخيرة لحلب.
وما أحوج المجمع أيضاً إلى الجزء الموجود في المكتبة المصرية من «تذكرة ابن العديم» بخطه.
وكتب له أيضاً بتاريخ١٥ صفر سنة ١٣٥١ الموافق ١٩ حزيران سنة ١٩٣٢: «حضرة العلامة الأستاذ رئيس المجمع العلمي الموقر.
تبجيلاً واحتراماً، وبعد: فمنذ أيام أرسلت كتاباً متضمناً رسالة في مخطوطات المكتبة العثمانية، وأفدتكم عن الموجود من نسخ «بغية الطلب» للكمال ابن العديم.
وقد أخذت كتاباً آخر من الوجيه السيد محمد نصيف، يفيدني أن نسخة من ابن العديم في ١٤ جزء متتابعة في ثلاثة مجلدات محفوظة في الخزانة المصرية، هي مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة مخطوطة بخط المؤلف في مكتبة أيا صوفيا تحت رقم ٣٠٣٦.
وإنَّ نسخة أخرى منقولة عن نسخة المؤلف هي في متحف بطرسبرج كما ذكرت في مجلة «المعارف» ج٢٤ ص١٤١.
وآمل من المجمع الموقر تحقيق آمالي بإحياء هذا الكتاب جميعه أو بعضه، وأن يوجد منه في دمشق وحلب».

الجزء	المترجمين	عدد الأوراق
١	أحمد بن جعفر - أحمد بن عبد الوارث	٢٥٢
٢	أحمد بن محمد - إسحاق بن منصور	٣٠٠
٣	إسحاق المذكور - أمية بن عبد الله	٣١٣[١]
٤	الحسين بن عبد الله - خالد بن برمك	٣٤٠
٥	خالد بن الحرث - دعبل	٣٤٤
٦	راجح بن إسماعيل - زنكي	٢٢٠
٧	زهدم بن الحرث - سعيد بن سلام	٣٠٤[٢]

جزء أبو إبراهيم إلى آخر الكنى - إلى ثلثي الألقاب، عدد أوراقه ٢٧٠ يعوزه الأخير ومن الوسط ١٢ جزءاً[٣].

وقد كان رأى هذه الأجزاء في سراي طوب قبو صديقنا الفاضل الرحّالة الشيخ خالد الخالدي القدسي، وأنها تامّة، وبخطّ المؤلف، وأنَّ عليها وعلى الأجزاء التي في أياصوفيا الآتي ذكرها أنه سمع منه التاريخ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن الدمياطي الحافظ، وعبد المؤمن هذا كانت وفاته سنة ٧٠٥هـ وقد ذكرت ذلك في مقدمة تاريخي لحلب في ص١٧، لكن تدقيقات صديقنا الميمني الهندي تفيد - كما ترى - أنها ليست جميع التاريخ، ولعل رؤية الفاضل الخالدي لها كانت على عَجَلة واغترّ بالجزء الذي فيه أبو إبراهيم إلى آخر الكنى فظنه آخر التاريخ ولم يدقّق فيه وفيما قبله.

وإذا تأمّلت تجد أن النسخة التي ذكرها الحافظ السخاوي (وقد قدّمنا ذلك) وأنها كانت عند صاحبه الجمال ابن السابق الحَمَوي، ونقل عنها نسخةً صاحبه ابن فهد

(١) سيأتيك أن هذا الجزء يوجد أيضاً في مكتبة الأمة في باريس (الطباخ).

(٢) سيأتيك أن هذا الجزء يوجد أيضاً في إحدى مكاتب الموصل، وأننا قد استنسخناه وهو عندنا (الطباخ).

(٣) سيأتيك أن هذا الجزء يوجد أيضاً في لوندره (الطباخ).

هي النسخة التي صارت إلى خزانة طوب قبو في الأستانة، ويظهر بالتدقيق أن بعض الأجزاء التي ذكرها الحافظ السخاوي ليست موجودة هنا، كالرابع والتاسع الذي أوله مشرق بن عبد الله.

في باريس:

كان السيِّد وجيه أفندي الكيلاني[1]، أحد أدباء دمشق، كتب لي بتاريخ ١١ذو القعدة سنة١٣٢٩، أنه يوجد في مكتبة الأمة في باريس مجلدان من: «بغية الطلب في تاريخ حلب» رقمها ٢١٣٨.

ثم كتب لي الصديق السيد عبد الغفور المسوتي الحلبي المحامي أثناء وجوده في باريس جواباً على كتاب أرسلتُه إليه، وكتابه مؤرّخ في ٨ تشرين الأول سنة ١٩٣١ ما نصُّه:

«لا يوجد في مكتبة الأمة تحت رقم ٢١٣٨ إلا مجلد واحد يبتدئ بترجمة: إسحاق ابن منصور، وينتهي بترجمة: أمية بن عبد الله الأموي.

عدد أوراق الجلد ٢٠٨، طول الورقة ٢٧ سنتمتر، وعرضها ١٨ ستمتر، وفي كل صحيفة ٢٥ سطراً نقل هذا المخطوط في القاهرة عام ٨١٤ وفقاً لمخطوط المؤلف.

الصحيفة الأولى من المجلد:

«بسم الله الرحمن وبه توفيقي (ثم توجد كلمة لم تقرأ به)[2] أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، قال أخبرنا أبو زريق، قال أخبرنا أحمد بن علي، قال أخبرنا محمد بن

---

(١) وجيه فارس الكيلاني، أديب دمشقي، ولد سنة (١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م)، وتوفي سنة (١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م) عن ٥٤ عاماً، أصدر مع الزركلي جريدة «الأصمعي»، وحقّق كتاب «عقلاء المجانين»، وله كتاب: «الدعاة من المتألّهين والمتنبّئين والمتمهّدين».

(٢) أقول هنا إما حدّثنا أو أخبرنا لأن أبا اليمن زيد بن الحسن الكندي هو شيخ المؤلف (الطباخ).

أحمد بن يعقوب، قال أخبرنا محمد بن نعيم العبسي قال: أخبرني عبد الله بن جعفر، عن أبي حاتم السلمي أنه سأل مسلم بن الحجاج عن إسحاق بن منصور... الخ».

الصحيفة الأخيرة ٢٠٧ لأن ورقة ٢٠٨ فارغة لم يكتب عليها شيء وبها ينتهي المجلد، وقتل يومئذ ـ يعني يوم قديد ـ سنة ثلاثين ومئة أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان. تمَّ الجزء المبارك «الكلمة هذه غير مفهومة تماماً» من نسخة المصنف المُكْتَتَبة بخطِّه ـ رحمه الله تعالى ـ في رابع عشر رمضان المعظَّم قدره وشأنه عام أربع عشرة وثمان مئة بالقاهرة المحروسة ـ حرسها الله وحماها ـ الحمد لله وحدَهْ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وحسبنا الله ونعم الوكيل.

في أول صحيفة ورقة نمرة واحد على اليمين يوجد ملاحظات لاتينية من يد[1]..............، وتاريخها ١٧٣٦......... على الشمال، من كتب مسعود بن إبراهيم وتحت الختم يقرأ: ملكه أضعف العباد راجي عفو ربه المنجي الحاج شمس الدين بن الحاج أحمد ابن صبحي الحلبي غفر الله له وإلى والديه، وذلك بمدينة قسطنطينية لا زالت بالخيرات ملية، في شهر شوال المبارك سنة ألف وخمسة وثلاثين من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصَّلاة وأتم السلام.

ويوجد في إحدى مكتبات باريس «لا أدري في مكتبة الأمة أو غيرها» مجلد منه ترجمه إلى الإفرنسية أبلوش، وطبع سنة ١٩٠٠ في مطبعة «ليرو» في (٢٥٥) صحيفة، استحضر منه نسخة اندره ماركوبلي أحد وجهاء الإيطاليين المتوطنين بحلب، وقد أطلعني عليه وترجم لي عبارات منه، وحوى هذا المجلد من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٦٤٠ أعني إلى قبل وفاة المؤلف بعشرين عاماً، وفي أول هذا المجلد ترجمة نور الدين الشهيد وذكر ما له من الآثار، وفي آخره ترجمة جمال الدولة إقبال الخاتوني حينما أتى إلى حلب.

---

(١) تعسرَّ عليَّ قراءة ما تركت له بياضاً (الطباخ).

ومما يجدر ذكره هنا أنَّ الإفرنسيين قد عُنوا بجمع ما كتبه مؤرّخو الإسلام عن الحروب الصليبية في عشر مجلدات ضخمة، مع ترجمة ذلك إلى اللغة الافرنسية، رأيتها في المكتبة اليسوعية في بيروت، ورأيتُ منها سبعة عند الخواجه هانري ماركوبلي أحد وجهاء الإيطاليين المتوطّنين في حلب، ذكروا تحت عنوان: «منتخبات من تاريخ حلب لكمال الدين»: حوادث حلب من سنة ٤٩٠ إلى سنة ٥٤١، وهي السنة التي توفي فيها زنكي والد نور الدين الشهيد وهي في (٥٧) ورقة، ثم ذكروا بعدها تحت عنوان: «منتخبات من بغية الطلب» ترجمة إسماعيل بن بوري المتوفى سنة ٥٢٩، وترجمة إسماعيل بن نور الدين الشهيد المتوفى سنة ٥٧٧، وترجمة آق سنقر بن عبد الله المتوفى سنة ٤٨٧، وترجمة آق سنقر البرسقي المتوفى سنة ٥٢٠، وترجمة آلب أرسلان بن رضوان المتوفى سنة ٥٠٨، وهي في ١٩ ورقة، وقد أتيت على ما في القطعتين في محالها مما له علاقة بحلب وقد وجدت فيهما من التفصيل ما لم أجده في غيرهما.

وكتب لي المستشرق الفاضل كرانكوي الألماني أنَّ في المكتبة العمومية في باريس نسخة من مختصر «البغية» في مجلد واحد قديم العهد فاتني الآن تاريخها، ولكنه قبل السبع مئة. انتهىٰ.

ولعلَّ هذا المختصر هو «زبدة الحلب في تاريخ حلب» للمصنِّف ابن العديم، أو هو المجلد المتقدم الذكر.

في الموصل:

في كتاب «مخطوطات الموصل» تأليف الطبيب داود جلبي الموصلي ص١٢١ تحت رقم ١٥، في ذكر المخطوطات التي في المدرسة الحسنية، ويقال لها: مدرسة حسن باشا، تقع في محلة الرابعية قبالة دار القصادة ملاصقة لقسم النساء من حمام قره علي ما نصّه:

«تاريخ ابن العديم الحلبي قطعة منه تبدأ بقوله: وهدم بن الحارث كان بدابق حين ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وسمع خطبته ورواها عنه محمد بن عثمان.

وينتهي بقوله: سعيد بن سلام، وقيل: سعيد بن سالم أبو عثمان بن سعيد المغربي الصوفي العارف دخل البتان وصحب بها أبا الخير البتاني».

طول المجلد ٢٧، وعرضه ١٧ سنتمتر، عدد أوراقه ٢٠١، في كل صحيفة ٢٥ سطراً.

أقول: وهذا المجلد هو نصف المجلد الذي ذكره الحافظ السخاوي فيما قدَّمناه بقوله: وسابعها والذي يليه وهما من أثناء راجح بن إسماعيل الأسدي إلى سعيد بن سلام.

وقد كتبت للطبيب المومأ إليه في استنساخ هذا المجلد فتفضّل بذلك جزاه الله خيراً، وهو الآن في مكتبتي وهو في ٣٧٩ صحيفة كبيرة، كل صحيفة ٢٢ سطراً، وقد قرأته من أوله إلى آخره في أثناء سنة ١٣٥٠، وصحَّحت فيه كلمات كثيرة حَّرفها الناسخ، واستعنت على تصحيح بعض التراجم بتاريخ ابن عساكر المطبوع في دمشق، وتاريخ الخطيب البغدادي المطبوع في مصر، ولم يزل فيه بقية من الأغلاط فهو في حاجة إلى إعادة النظر فيه، بعد استحضار بعض الكتب التاريخية التي ليست موجودة عندنا الآن.

ومجموع ما في هذا المجلد من التراجم ١٥٣ ترجمة، وفيه من التراجم مالا تجده في غيره[1].

---

(١) أضاف هنا العلامة الطباخ في مقالته عن ابن العديم في مجلة «المجمع» التي تقدَّمت الإشارة إليها: «وفيه من التراجم ما لا يوجد في غيره من معرَّة النعمان وحدها نحو العشرين ما بين عالم وشاعر لم نجد لهم ترجمة في غير هذا الكتاب.
ومن جملة رجال هذا الجزء: ترجمة تاج الدين أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي الذي نشر ترجمته في المجلد الحادي والعشرين في الجزء الخامس ص ٢٤٨ من مجلة «المجمع» صديقنا =

ففي إحياء هذا الكتاب إحياء لكثير من رجال الشهباء وغيرهم الذين لا نعلمهم وإحياء لما لهم من المؤلفات والأدب والآثار الهامة.

وفي «مخطوطات الموصل» للطبيب داود الجلبي ص١٧١ في المدرسة المحمدية في جامع الزيواني في محلة باب البيض «حضرة النديم من تاريخ حلب لابن العديم». انتهىٰ.

في لوندره:

وفي المتحف البريطاني في لوندره الجزء الذي قبل الجزء الأخير رقمه ٢٣٣٤، وهو يشتمل على الكنى والألقاب، كتب إليَّ بذلك المستشرق العلَّامة الفاضل سالم كرانكوي، وليس فيه تاريخ كتابته، وهو في ١٧٠ ورقة بالقطع الوسط، في أوَّله بعد البسملة «وهو صعب القراءة»:

أبو إبراهيم سعد بن إبراهيم بن سعد كان من مصيصة خال كام.

= الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أحمد دهمان إلا أن في ترجمته هنا زيادات كثيرة، وقد أطال فيها وهو شيخه، وقد أكثر من الأخذ عنه، فهو يعرفه حق المعرفة وترجمته في ١١ صفحة، وذكر له من جملة شعره قصيدة طويلة في ٤٩ بيتاً مطلعها:

هل أنت راحم عبرة وتولُّهِ ... ومجير صبّ عند مأمنه دُهي

هيهات يرحم قاتلٌ مقتوله ... وسنانه في القلب غير مُنَهْنَهِ

من بَلَّ من داء الغرام فإنني ... مذْحلَّ بي مرض الهوىٰ لم أنقه

وفيها ما يزيل إشكال الصديق حيث يقول: ولا نعلم في أيِّ سنة من سنيِّ حياته تحوَّل من المذهب الحنبلي إلى المذهب الحنفي.

فقد قال ابن العديم: ولما مات شيخه أبو محمد المقري سبْط أبي منصور، قام مقامه في مسجده، وأمَّ الناس وله نيف وعشرون سنة، ثم إنه سافر عن بغداد في سنة ثلاث وأربعين (وخمس مئة)، ودخل همدان، وأقام بها سنتين يتفقه على مذهب أبي حنيفة رحمة الله عليه على سعد الرازي بمدرسة السلطان طغرل ا.هـ. وليس في ترجمته هنا ما يفيد أنه تفقه على المذهب الحنبلي على شيخه أبي محمد المقري، ولعل الأستاذ رأى ذلك في بعض المصادر التي نقل عنها. ونرى الكمال ابن العديم كثيراً ما يروي في هذا الجزء عن شيخه التاج الكندي بسنده».

في الأستانة أيضاً ومصر وبطرسبرج:

ويوجد ثلاثة مجلدات منه فيها أربعة عشر جزءاً متتابعة بخطِّ المؤلف في مكتبة أياصوفيا في الأستانة رقمها ٣٠٣٦.

وقد نقلت دار الكتب المصرية هذه المجلدات الثلاثة بالتصوير الشمسي، وإليك ما قالته في فهرستها في حرف الباء «صفحة ٥٨» من الجزء الخامس:

«بغية الطلب في تاريخ حلب تأليف العلَّامة المؤرخ كمال الدين أبي حفص عمر بن عبد العزيز[1] بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أبي جرادة العُقيلي الحنفي المعروف بابن العديم الحلبي، المولود سنة ٥٨٦هـ. المتوفى سنة ٦٦٠هـ، وهو كتاب جامع لتاريخ حلب، يتضمن تخطيط مدنها وذكر أنهارها وبحيراتها وبحارها وخلجانها وجزرها وجبالها، وذكر أعيانها وفضلائها، وأخبارها وحوادثها وما ورد فيها من الأشعار.

ويؤخذ ممَّا كتبه صاحب: «كشف الظنون» على ذيل هذا الكتاب المسمّى: «الزبد والضرب» أنه انتهى فيه إلى آخر سنة ٦٥٠هـ الموجود منه أربعة عشر جزءاً متتابعة في ثلاثة مجلدات، وهي **المجلد الأول**: وينتهي إلى أثناء الجزء السادس، ويتضمن الكلام على أنطاكية وثغور الشام في صدر الإسلام، وفيما كانت العرب تؤرِّخ به قبل الإسلام، وفي ذكر بحر الروم واتجاهاته والبلاد الواقعة عليه.

وفي ذكر البحر الهندي والشرقي والبحيرات الموجودة في أعمال حلب، وذكر منتزهاتها وجبالـها وآثارها القديمة، ومزاراتها وقبور الأولياء والصالـحين والمواطن

---

(١) ذِكْر عبد العزيز بعد عمر سَهْوٌ من واضع الفهرس فإنَّ أبا عمر اسمه أحمد كما تقدم غير مرة (الطباخ).

الشريفة، والطلسمات والغرائب، وبيان حالتها الدولية وما وصلت إليه في زمنه.

ثم الكلام على قنِّسرين وأنطاكية، وأول من بناها، وما جاء من الآثار في ذمِّها، ثم تكلم على المدن التالية لحلب وما بقي منها عامراً إلى زمنه، وما عَفَتْ عليه الآثار كمدينة بالس ورصافة هشام ومعرة النعمان.

وفي اللوحة الثانية منه: ترجمة الشريف الإدريسي صاحب كتاب: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ونبذة من سفره، وأخرى من شعر أبي الخطاب محمد بن محمد بن أحمد البطائحي.

وفي اللوحة الثالثة: فصل في فوائد التاريخ، وفي اللوحة الرابعة: ترجمة المؤلف، وفي اللوحة الخامسة[1]: بعد اسم الكتاب مانصه:

يقول كاتب هذه الأحرف فقير عفو ربه تعالى محمد بن محمد بن محمد الحموي الحنفي ـ عامله الله بلطفه الخفي ـ إنه يروي «تاريخ حلب» للصاحب كمال الدين عمر ابن أحمد المعروف بابن أبي جرادة وبابن العديم، عن الشيخ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي مؤرِّخ الديار المصرية، عن ناصر الدين محمد الحدادي، عن الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي، عن مصنِّفه الصاحب كمال الدين بن العديم. انتهىٰ.

والمجلد الثاني: يبتدئ من حيث انتهى السابق، وينتهي إلى أثناء الجزء العاشر في فضائل الشام، ويتضمَّن الكلام على مَعَرتَمُصرين وكَفَر طاب وحماة والمصيصة وآذنة «أطنة» وطرسوس وبزاعة والباب ونهر الذهب وصفِّين، وما بين هذه المدن من الأميال مع ذكر فضائلها وما حدث فيها.

---

(١) واللوحة الرابعة والخامسة هي أول الأوراق التي أرسلت إلينا من الأستانة كما سيأتي وعلى الخامسة رقم المكتبة وهو ٣٠٣٦ (الطباخ).

والمجلد الثالث: يبتدئ من حيث انتهى السابق، وينتهي إلى آخر الجزء الرابع عشر، ويتضمَّن ذكر فتح الصحابة رضي الله عنهم مدينة حلب وحمص وبعلبك وغيرها، مأخوذة بالتصوير الشمسي عن نسخة مخطوطة بخط المؤلف محفوظة بمكتبة أيا صوفيا بالأستانة. انتهى.

وجاء في كتاب: «تذكرة النوادر» من المخطوطات العربية الذي رتبته إدارة مطبعة المعارف النظامية في حيدر آباد الدكن الهند المطبوع عام ١٣٥٠هـ في صحيفة ٨٦: أنَّ هذه المجلدات الثلاثة تحت رقم ٣٠٣٦، كما قدَّمته وفيه بعد ذلك ما نصُّه:

نسخة أخرى منقولة عن نسخة المؤلف في متحف بطرسبرج، وفي الذيل: أن ذلك نقل عن مجلة المعارف ج٢٤ ص١٤١[١]، وقد أرسل لي من الأستانة حضرة الدكتور (ريتربيك) المستشرق الألماني المقيم في المؤسسة الإسلامية الألمانية في الأستانة سبع أوراق مأخوذة بالتصوير الشمسي، أربعة منها من: أول «بغية الطلب» من المجلد الأول، وثلاثة منها من: «زبدة الحلب»، ونحن نثبت لك ما في هذه الأوراق:

«الصحيفة الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم، وبه توفيقي، وقال البلاذري[٢]: حدثني محمد بن سهم الأنطاكي، عن أبي صالح الفرَّاء قال: قال مخلد بن الحسين: سمعت مشايخ الثغر يقولون: كانت أنطاكية عظيمة الذكر والأمر عند عمر وعثمان ـ رحمهما الله ـ فلما فتحت كتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة أن رتِّب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيّات حسنة، واجعلهم بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء، ثم لما

---

(١) الناشر لذلك في مجلة «المعارف» هو صديقنا العلَّامة الأديب السيد عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي العضو في المجمع العلمي العربي الدمشقي كما أخبرني بذلك حين مروره بحلب في ثاني صفر سنة ١٣٥٥ قادماً من الأستانة ذاهباً إلى دمشق فالعراق فالهند (الطباخ).

(٢) قال ذلك في كتابه: «فتوح البلدان»، وهذه العبارة في صحيفة ١٥٤ (الطباخ).

وليَ معاوية كتب إليه بمثل ذلك، ثم إنَّ عثمان كتب إليه يأمره أن يُلزمها قوماً ويقطعهم قطايع ففعل، قال ابن سهم: وكنت واقفاً على جسر أنطاكية على الأرنط[١] فسمعت شيخاً مسناً من أهل أنطاكية وأنا يومئذ غلام، يقول: هذه الأرض قطيعة من عثمان لقوم كانوا في بعث أبي عبيدة، أقطعهم إيَّاها أيام ولاية معاوية بالشام، وقال البلاذري: وبلغ أبا عبيدة أنَّ جمعاً للروم بين معارة مصرين وحلب فلقيهم وقتل عدَّة بطارقة، وفضَّ ذلك الجيش وسَبَى وغنم وفتح معارة مصرين على مثل صلح حلب، وجالت خيوله فبلغت بوقا، وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين، وصالحوا أهل دير طيايا ودير الفسيلة على أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين، وأتاه نصارى خناصرة فصالحهم.

وفتح أبو عبيدة جميع أراضي قنِّسرين وأنطاكية.

أخبرنا[٢] أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي، قال أخبرنا أبو محمد القاسم بن علي ابن الحسن، وأنبأناه عالياً أبو القاسم عبد الصمد بن محمد الأنصاري، قال أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم إذناً، قال أخبرنا أبو القاسم بن أبي العقب، قال أخبرنا أبو عبد الملك القرشي، قال حدثنا محمد بن عايذ، قال: قال الوليد: حدثنا أبو عمرو عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي أنه كان في كتاب أبي عبيدة بن الجراح لأهل دير طيايا: أني آمنتكم على دمائكم وأموالكم وكنائسكم أن تهدم أو تسكن ما لم تحدثوا أو تؤووا محدثاً، فإن فعلتم فقد برئت منكم الذمَّة، وأبو عبيدة ابن الجراح والمسلمون برآء من معرَّة الجيش، شهد على ذلك.

---

(١) صحَّحها الشيخ إلى: إنشاء الأرنط. والصواب ما أثبته كما في «فتوح البلدان» و«بغية الطلب». وقال ياقوت في «معجم البلدان»: الأرنط هو النهر المسمَّى بالعاصي.

(٢) أول الصحيفة الثانية (الطباخ).

قال لي أبو الحسن: قال لي الحافظ أبو محمد القاسم بن علي: دير طيايا من أرض قنِّسرين، وذكره لي مقيداً بيائين، ونقلته من خطٍّ بنوسه فيما نقلته من كتاب البلاذري كذلك بياءين.

وقرأت في تاريخ سعيد ...[1] في سنة سبع عشرة قال: وافتتح أبو عبيدة [في وجهة ذلك ديارات] حول قنِّسرين [بصلح] منها دير طيايا بيا ءين.

وقال لي صديقنا بهاء الدين الحسن بن إبراهيم بن الخشاب: هو دير طباثا (بالباء والثاء)، وهو الموضع المعروف بدير باثبوا، وهو إلى جانب القرية المعروفة ببائبوا في مكان يشرف على الأثارب وما حولها.

وقع إليَّ مجموع بخطٍّ بعض الفضلاء مضمَّن فِقراً وأخباراً وفوائد في نسخة عتيقة، فغلب على ظنِّي أنَّ كاتب النسخة جمع المجموع، فقرأت فيه شرط عمر بن الخطاب على أهل قنِّسرين: على الغني ثمانية وأربعين، وعلى الوسط أربعة وعشرين، وعلى المُدْقع اثني عشر يؤدِّيها بصَغار، وعلى مشاطرة المنازل بينهم وبين المسلمين، وأن لا يحدثوا كنيسة إلا ما كان في أيديهم، ولا يضربوا بالناقوس إلا في جوف البيعة، ولا يرفعوا أصواتهم بالقراءة، ولا يرفعوا صليباً إلا في كنيسة، وأن يُؤْخذ منهم القبلي من الكنائس للمساجد، وأن يُقْروا ضيف المسلمين ثلاثاً، وعلى أن لا تكون الخنازير بين ظهراني المسلمين، وعلى أن يناصحوهم فلا يغشُّوهم ولا يمالئوا عليهم عدواً، وأن يحملوا راجل المسلمين من رستاق إلى رستاق، وأن لا يلبسوا السلاح ولا يحملوه إلى العدو، ولا يدلوا على عورات المسلمين فمن وفَّا وفَّا المسلمون له ومنعوه بما يمنعون به نساءهم وأبناءهم، ومن انتهك شيئاً من ذلك حلّ دمه وماله وسباء أهله وبريت الذمَّة منه، وكتب بذلك كتاباً برئ فيه من معرَّة الجيش، فدخل في هذا الصُّلح أهل الجزيرة

---

(١) تعسرَّ عليَّ قراءة ما تركتُ له بياضاً (الطباخ) وفي المطبوع: سعيد بن كثير بن عفير.

وقبل ذلك ما كان أبو عبيدة فارقهم على أربعة دراهم وعباءة على كل جلجلة على أن يكون عمر الفارض عليهم إذا قدم بلادهم.

وذكر البلاذري فيما حكاه في كتابه[١] قال: وحدثني أبو جعفر[٢] الدمشقي، عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما افتتح أبو عبيدة بن الجراح دمشق استخلف يزيد «بن أبي سفيان» على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين، وشُرَحبيل على الأردن، وأتى حمص فصالح أهلها على نحو صلح بعلبك، ثم خلف بحمص عبادة بن الصامت الأنصاري [فمضى نحو حماة] فتلَّقاه أهلها مُذْعنين فصالحهم على الجزية في رؤوسهم، والخراج في أرضهم، فمضى إلى (شيزر) فخرجوا يكفرون ومعهم المقلسون[٣]، ورضوا بمثل ما رضي به أهل حلب[٤]، ومرَّ أبو عبيدة بمعرة حمص وهي التي تنسب إلى النعمان بن بشير، فخرجوا يقلسون بين يديه. ثم أتى (فامية) ففعل أهلها مثل ذلك، وأذعنوا بالجزية والخراج، واسْتَـتَمَّ أمر حمص. فكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً.

قوله: يكفرون أي: يخضعون بأن يضعوا أيديهم على صدورهم، ويتطامنوا له كما يفعله العلوج بدهاقينهم قال جرير:

وإذا سمعت بحرب قيس بعدها ‏ ‏ ‏ ‏ فضعوا السلاح وكفروا تكفيرا

والمقلسون: الذين يلعبون بين يدي الأمير إذا قدم المصر، قال أبو الجراح: التقليس: استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو، قال الكميت يصف ثوراً طعن الكلاب فتبعته الذباب لما في قرنه من الدم:

---

(١) أي «فتوح البلدان» وهي في صحيفة ١٣٨ (الطباخ).
(٢) في «الفتوح»: أبو حفص ويظهر أن الصواب ما هنا (الطباخ).
(٣) سيأتي معنى يكفرون والمقلسون.
(٤) في «الفتوح»: حماة بدل حلب ويظهر أن الصواب ما في «الفتوح» (الطباخ).

ثم استمر يغنيه الذباب كما غنَّى المقلس بِطريقاً بمزمار

أنبأنا أبو القاسم عبد الصمد بن محمد الدمشقي، قال أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم إجازة، قال أخبرنا أبو القاسم بن أبي العلاء، قال أخبرنا أبو نصر بن الجندي، قال أخبرنا أبو القاسم بن أبي اللقب، قال أخبرنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم القرشي، قال حدثنا محمد بن عائذ قال: قال الوليد بن الهيثم بن حميد عن محمد بن يزيد الرحبي، قال سمعت أبا الأشعث الصنعاني قال: لما[١]... عبد الوهاب[٢] بن الحسن، قال أخبرنا أحمد بن عمر، قال حدثنا أبو عامر موسى بن عامر، قال حدَّثنا الوليد بن مسلم، قال: وحدَّثني عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وغيره: أنَّ الناس كانوا يجتمعون بالجابية لقبض العطاء وإقامة البعوث من أرض دمشق في زمن عمر وعثمان حتى نقلهم إلى معسكر دابق معاوية بن أبي سفيان لقربه من الثغور.

وقد ذكرنا في الباب المتقدِّم أنَّ أولَّ من أدرب من المسلمين خالد بن الوليد من جهة الشام، وعمر بن مالك، وعبد الله بن المعتمر من جهة الجزيرة. فهي أول مدربة كانت في الإسلام سنة ست عشرة فيما رواه سيف بن عمر.

وقيل: أول من أدرب الأشتر مالك بن الحارث في ثلاث مئة فارس، وألحقه أبو عبيدة بميسرة بن مسروق العبسي في ألفي فارس على ما رويناه أيضاً في الباب المتقدِّم عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله البصري ومحمد بن عائذ.

وذكر البلاذري في كتاب «البلدان» قال: وقد اختلفوا في أول من قطع الدرب، وهو درب بغراس، فقال بعضهم: قطعه ميسرة بن مسروق العبسي، وجَّهه أبو عبيدة

---

(١) إلى هنا انتهت الصحيفة التاسعة. والصحيفة العاشرة والحادية عشرة لم تأتياني (الطباخ) والصحيفتان موجودتان في المطبوع.

(٢) أول الصحيفة الثانية عشرة (الطباخ).

ابن الجراح فلقي جمعاً للروم ومعهم مستعربة من غسان وتنوخ وإياد، يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم لحق به مالك الأشتر النخعي مَدَداً من قبل أبي عبيدة وهو بأنطاكية. وقال بعضهم: أول من قطع الدرب عمير بن سعد.

إلى هنا نهاية الصحيفة الثانية عشرة، وأول الصحيفة الثالثة عشرة. **بيد الروم وبعض قد خربت وكانت طرسوس ومدنها خلف هذه الكورة.**

وهذا كلام منقطع عمَّا قبله فالصحائف الفوتوغرافية لم تُؤْخذ إذاً على الاتِّصال.

هذا ما أمكن الوقوف عليه من أجزاء هذا التاريخ العظيم، ومن وقف على شيء منه في مكتبة من المكاتب فإنا نرجو أن يتحفنا به لنلحقه بهذا الكتاب مع ذكر اسم من تفضَّل بذلك، وإنا نغدو له من الشاكرين، ولعله بذلك يمكن جمع نسختين تامَّتين فيؤدي ذلك إلى الاهتمام بنشره متقناً صحيحاً لتعمّ الفائدة منه لأهل هذه البلاد وغيرها[1].

---

(١) للكتاب طبعتان: طبعة فؤاد سزكين بالتصوير بخط المؤلف، وهو خط جميل متقن مقروء، وطبعة أخرى بتحقيق سهيل زكار، صدرت عن دار الفكر ببيروت في اثني عشر مجلداً سنة ١٩٨٨ . والمجلدان الأخيران فهارس عامة. والكتاب ما يزال بحاجة إلى تحقيق متقن، يشترك فيه عدد من المتخصِّصين بالعربية والتاريخ والتفسير والحديث.

وللباحثة مريم بنت محمد خير الدرع كتاب «موارد ابن العديم التاريخية ومنهجه في كتاب بغية الطلب» تحدثت فيه عن الأصول العلمية والمراجع التي اعتمد عليها ابن العديم. ينقسم الكتاب إلى بابين: الأول عن حياة ابن العديم. وقسمته المؤلفة إلى فصلين: تحدثت في الأول عن عصره، بما فيه الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وعن ابن العديم في سيرته الذاتية وثقافته ومكانته العلمية. بينما ذكرت في الفصل الثاني ما يتعلق بكتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب»، فوصفته، وتناولت مادته، وخطته، ومختصراته، وذيوله، ومخطوطاته. وعرجت على موارده بأنواعها، الشفهية والإجازات والمكاتبات والمشاهدات. وأشارت إلى منهجه في الأخذ من موارده. =

ولدينا ـ بعد ما تقدَّم ـ كراسة نقلنا فيها ما وجدناه في متفرق الكتب من التراجم والفوائد المنقولة عن هذا التاريخ، وفي نشر ذلك طول، فاكتفينا بالإشارة إليه، والله ولي التوفيق[1]. انتهى.

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
محمد راغب الطباخ

* * *

= وفي الباب الثاني توقفت عند موارد ابن العديم، وقسمته إلى ثلاثة فصول، اشتمل الأول على كتب التاريخ والأخبار والأنساب. والفصل الثاني: ضمَّ كتب السير، والتراجم، ومعاجم الشيوخ، ورجال الحديث، والوزراء، والمتصوفة، والشعراء، وغيرهم. وتخصَّص الفصل الثالث بكتب الجغرافية التاريخية. توقفت المؤلفة عند كل مرجع من الموارد التي اعتمد عليها ابن العديم، فوصفته وذكرت بعضاً من ترجمة مؤلفه وما أخذ ابن العديم عنه. صدر الكتاب سنة ٢٠٠٥ عن دار الفكر بدمشق في ٨٧٨ صفحة.

(١) للأستاذ إحسان عباس نقول نادرة من كتاب «بغية الطلب»، استخرجها وحققها في كتابه: «شذرات من كتب مفقودة» طبع في دار الغرب الإسلامي عام ١٩٨٨، وقال: وقد عايشت كتاب «بغية الطلب» سنوات طويلة، وكنت في كل مرة أكتشف فيه أشياء جديدة.

الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب[١]

من جملة مخطوطات المكتبة الأحمدية بحلب: «الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب» للعلامة ابن خطيب النَّاصريَّـة[٢] في مجلدين ضخمين الثاني منهما مخروم الآخر.

كان هذا الكتاب معاراً من مدّة طويلة، ومنذ نحو ثمان سنين اسْتُحصل على الجزء الأول، ومنذ شهرين اسْتُحصل على الجزء الثاني، ولما وصل هذا إلى دائرة الأوقاف أرسلته إليَّ لأرتّبه لأنه قد اختلط بعضه ببعض ولا أرقام على صفحاته، فرتَّبته ووضعت له أرقاماً، وحَصَرت نقصه من نصفه إلى الآخر فبلغ عشر ورقات، وقد أحببت أن أكتب كلمة عن هذا السِّفْر النفيس مُعرِّفاً به لعلّ ذلك يؤدِّي إلى إخراجه إلى عالم المطبوعات لتعمَّ الفائدة منه.

هذا التاريخ كما قال مؤلفه القاضي علاء الدين علي بن خطيب الناصريَّة في خطبته هو ذيل على تاريخ الكمال عمر بن أحمد ابن العديم المسمّى «بغية الطلب في تاريخ حلب» الذي تكلَّمت عليه وعلى الأجزاء الموجودة منه في مكاتب العالم، وعلى ترجمة صاحبه في مجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية في تسعة أعداد، وذلك من عهد قريب.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان الرابع والخامس من المجلد السادس عشر: (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م).

(٢) علي بن محمد بن سعد، علاء الدين، ابن خطيب الناصرية الشافعي، قاضي قضاة حلب. توفي سنة ٨٤٣هـ. والناصرية نسبة إلى المدرسة الناصرية ببيت جبرين الفستق ظاهر حلب من شرقيِّها. ينظر: «معجم الشيوخ» لابن فهد ١٧٩، و«الضوء اللامع» ٥: ٣٠٣.

وتاريخ الكمال ابن العديم ينتهي إلى سنة ٦٥٨ إلى السنة التي استولى فيها هولاكو على حلب وخربها، فجاء ابن الخطيب فذيَّله من سنة ٦٥٨ إلى سنة وفاته التي كانت سنة ٨٤٣ قال:

أحببت أنْ أُذيِّل عليه ذيلاً مختصراً وقبل الخوض في ذكر الأسماء أصدّره بفصول:

الفصل الأول: في حلب وأسمائها ومَنْ بناها وألقابها.

الفصل الثاني: في ذكر حدودها وأعمالها.

الفصل الثالث: في عظم فضلها وخصائصها.

الفصل الرابع: في فتحها.

الفصل الخامس: في نهرها وقناتها ومساجدها ومعابدها.

وقد ذكر ذلك الصاحب كمال الدين عمر بن العديم في ذيله مُسْتَوفىً، إلا أنَّ تاريخه تفرَّق شَذَر مَذَر، ولا يوجد إلا القليل منه، وكنت وقفت على بعض أجزاء منه من المبيضة قبل الفتنة التيمرية، ثم أذكر منها أو من بلادها ومن اجتاز بها من الرواة والعلماء والفضلاء والرؤساء، ومن كان بها من الصَّالحين والعُبَّاد، ومَنْ نزلها أو اجْتاز بها أو بمعاملاتها من أهل الشعر والإنشاء، ومن دخلها أو ملكها من السلاطين أو وليها من الأمراء، والنوَّاب والقضاة، ومَنْ وَفَد إليها وإلى معاملاتها من فضلاء غيرها من البلاد، ومن كان له بها مباشرة من الأعيان أو وقعة اشتهرت عنه فعدّته من الفرسان ممن كانت وفاته من سنة ثمان وخمسين وست مئة، وهي السنة التي أخذ بها هولاكو حلب وخربها، ثم أنشئت عمارتها من ذلك الحين وهلمَّ جراً إلى زمني، ورتبَّتهم على حروف المعجم في الاسم واسم الأب والجد وإن علا ليكون أسهل للكشف، ولم أدَّع الاستيعاب، بل ما وقفتُ عليه أو علمت أو غلب على ظني أنه دخل حلب أو معاملتها

أو كان من أهلها أو ولد بها، وكذلك النوازل والنوادر أذكرها في ترجمة من توفي في السنة التي اتفقت فيها.

والمؤلف قد وفَّى ما التزم به كما تبيَّن لي ذلك من تتبُّعه، فعلى هذا لا يكون هذا التاريخ خاصاً بحلب، بل هو تاريخ عامّ للبلاد السورية والمصرية والعراقية والحجازية والمغربية والرومية، فتجد فيه من تراجم أعيان هذه البلاد كلها ممن توفي في سنة ٦٥٨ إلى سنة٨٤٣ التي هي سنة وفاته ما لا تجده في غيره، وترى فيه تراجم السلاطين والأمراء الذين تولوا البلاد المصرية والسورية بصورة مبسوطة بحيث يصلح أن يجمع منها كتاب واسع في أخبار هؤلاء في هذه المدّة وتنقّلاتهم في هذه البلاد من أمارة صغيرة في مصر إلى نيابة حماة فحمص فطرابلس فحلب فدمشق إلى أمارة كبيرة في مصر، فهو على هذا تاريخ لهذه البلاد كلها، وهو مشحونٌ بآثارهم في هذه البلاد، وبالمقارنة مع التاريخين «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» للحافظ ابن حجر المطبوع في الهند، «والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» للحافظ السخاوي في مصر تبيَّن لي أن الكثير من التراجم جاءت فيهما وجيزة وهنا مطوّلة، كما أنه في بعض الأحيان نرى بعض التراجم مطوّلة في ذينك التاريخين، وهي عند ابن الخطيب مختصرة فلا يستغنى إذاً بهذين التاريخين عن هذا.

وقد تكلّمت على هذا التاريخ في مقدِّمة تاريخي (إعلام النبلاء ص٢١) ومما قلته نقلاً عن الرضيِّ الحنبلي مؤلف «دَرّ الحَبَب في تاريخ حلب»: أنه لما وصل إلى حلب حافظ العصر الشهاب ابن حجر العسقلاني المصري سنة ست وثلاثين وثمان مئة طالع هذا التاريخ من المبيضة، ثم من المسوَّدة وألحق فيه أشياء كثيرة كما تعرَّض لهذا في ديباجة تاريخه المشهور بـ«إنباء الغَمْر بأبناء العمر» وأثنى على صاحبه وأفاد أنَّ كلاً منهما سمع من صاحبه.

ما وقفت عليه من نسخ هذا التاريخ:

١ـ نسخة حلب في المكتبة الأحمدية.

٢ـ نسخة في برلين رقمها ٩٧٩١.

٣ـ نسخة في مدينة غوطا ٩٧٩٢.

٤ـ نسخة في لوندرة ٤٣٦.

٥ـ الجزء الثالث منه في مكتبة الأمة بباريس رقمها ٢١٣٩ هذا الجزء من نسخة في أربعة أجزاء ابتدئ فيه بترجمة عبد الكريم بن أحمد المصري، واختتم بترجمة محمد بن تمام الحميدي وهو في ١٥٠ ورقة.

٦ـ نسخة في مكتبة لاله لي في إستانبول في مجلدين رقمها ٢٠٣٦ و٢٠٣٧.

٧ـ نسخة في مكتبة خالص بك مستشار الخاصَّة في الأستانة وهي مكتبة خصوصية.

هذا ما وقفتُ عليه من نسخ هذا التاريخ في مكاتب العالم.

ومنذ سنتين زار حلب المستشرق الفاضل (رايخ) فأخبر أن العلَّامة المستشرق بروكلمن الألماني مؤلف آداب اللغة العربية وقف على ٢٢ نسخة من هذا التاريخ.

وأستبعد أن تكون هذه الثنتان والعشرون نسخة هي: «الدرّ المنتخب» لابن خطيب الناصرية، ويغلب على ظنِّي أنَّ بعض هذه النسخ هي «الدر المنتخب» الصغير المنسوب لابن الشحنة[1]، وهو على التحقيق للشيخ محمد بن أحمد الشهير بالملا الحلبي،

---

(١) المتوفى سنة ٨٩٠. وقد ترجمه إلى الفرنسية المستشرق سوفاحية (١٣١٨-١٣٦٩هـ = ١٩٠١-١٩٥٠).

وقد تخلّله زيادات من الشيخ أبي اليمن البتروني[١]، وهذا طبع في المطبعة اليسوعية في بيروت سنة ١٩٠٩، والفرق بينهما: أن ذاك في مجلدين ضخمين وبعض النسخ في أربعة أجزاء، وهذا في جزء صغير تكلّم فيه على حلب خاصة في ٢٥ باباً.

ونحن ندع تحقيق هذه الناحية إلى العلاَّمة بروكلمن المومأ إليه.

والجزءان الموجودان في مكتبة الأحمدية الأول منهما: تام وهو ٦٧١ صفحة بخطّ مقروء، لكن فيه تحريفٌ كثير، وذلك يفيد أنَّ الناسخ من العوامّ، وكل صفحة ٢٥ سطراً، ولا تاريخ في آخره.

والثاني: أحسن خطاً وضبطاً، لكن فيه النقص الذي قدَّمناه وبعض أسطر من بعض الصفحات ممحوة وهو في ٤٦٠ صفحة كل صفحة ٢٩ سطراً ولا تاريخ في آخره بل سقط من آخره ثلاث أو أربع أوراق، وذلك عدا عما سقط منه قبل ذلك بما يكمل عشر أوراق، وهو أقدم خطاً من ذلك، وحاله يدلّ أنه قد كتب في القرن العاشر الهجري[٢].

محمد راغب الطباخ

* * *

---

(١) محمد أبو اليمن بن عبد الرحمن مفتي الحنفية بحلب المتوفى ١٠٤٦ رحمه الله تعالى.

(٢) حققَّ الكتاب في جامعة أم القرى بمكة المكرمة ثلاثة من الباحثين: سعد الحارثي، وصالح السلمي، وفهد الحارثي.

إنباء الغَمْر بأبناء العمر[1]

من نفائس مخطوطات المدرسة العثمانية بحلب: «إنباء الغَمْر بأبناء العمر» للحافظ الإمام الشيخ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. وهو في مجلدين ضخمين الأول في ٤٤٤ صفحة كل صفحة ٢٩ سطراً، يبتدئ من سنة ٧٧٣ وهي تاريخ ولادة الحافظ ابن حجر، وينتهي في سنة ٨١١.

والمجلد الثاني في ٤٠٤ صفحة كل صفحة ٢٩ سطراً، يبتدئ فيه من سنة ٨١٢ إلى سنة ٨٥٢، إلى السنة التي توفي فيها المؤلف. والنسخة مقروءة مع شيء من الصعوبة وعلى حواشيها هوامش كثيرة منقولة من تاريخ البدر العيني، إلا أن كاتب الحواشي هو غير كاتب الأصل، وكتب على ظهر المجلد الثاني ما نصه: هذه النسخة بخط سبط المؤلف.

والمؤلف يذكر حوادث كل سنة في مصر وغيرها، ويعقب ذلك بذكر من توفي فيها من الأعيان، إلا أنَّ معظم الحوادث التي فيه هي مما كان في مصر. وآخر ترجمة فيه ترجمة إبراهيم بن رضوان الشيخ برهان الدين الحلبي، وبعدها ما نصّه:

هذا آخر ما وُجد من تاريخ الشيخ الإمام الحافظ القاضي شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر الشافعي.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان الرابع والخامس من المجلد السادس عشر: (١٣٦٠هـ = ١٩٤١م). باب: مخطوطات ومطبوعات.

قال في «كشف الظنون»: أول هذا الكتاب: الحمد لله الباقي وكل شيء يفنى الخ. ذكر فيه أنه جمع الحوادث التي أدركها منذ ولد سنة ٧٧٣، وأورد في كل سنة أحوال الدول ووَفَيَات الأعيان مستوفياً لرواة الحديث. وغالب ما نقله من تاريخ ناصر الدين ابن الفرات، وصارم الدين بن دقماق، والمقريزي، والتقي الفاسي، والصلاح خليل الأقفهسي، والبدر العيني وأورد ما شاهده أيضاً.

قال: وهذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على تاريخ الحافظ ابن كثير(١) فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة(٢)، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على وفيات تقي الدين بن رافع، وانتهى فيه إلى سنة ٨٥٠.

وأذكر أني رأيت مسوَّدة المؤلف في المكتبة الظاهريَّة بدمشق وفيها تشطيبٌ وحواشٍ وتكاد لا تقرأ لرداءة خطِّ المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ.

ويوجد من هذا التاريخ نسختان في مكتبة كوبريلي زاده محمد باشا في الأستانة، الأولى: في مجلدين رقمهما ١٠٠٥-١٠٠٦، والثانية: في مجلدين أيضاً رقمهما ١٠٠٧-١٠٠٨.

ولا ريب أنَّ الكتاب جدير بالطبع؛ لأنَّ به تتَّصل سلسلة الحوادث التي وقعت في هذه السنين، ونقف على مَنْ توفي فيها بصورة متسلسلة(٣).

---

(١) هذا التاريخ طبع في مصر ومنه نسخة خطية في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب في عشر مجلدات وقد نقل منها بواسطتنا لناشره خمس مجلدات، ويظهر أنه وجد بعد ذلك نسخة أخرى في مصر فاستغنى عن استنساخ الباقي (الطباخ).

(٢) سنة ٧٧٣ وهي سنة مولد الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى.

(٣) طبع الكتاب لأول مرة في حيدر آباد الدكن في الهند، بعناية السيد عبد الله بن أحمد مديحج الحسيني الحضرمي، ومساعدة محمد صادق الدين الأنصاري العمري، في تسعة مجلدات، صدر الأول منها سنة (١٩٦٨م). والأخير عام (١٩٧٦م)، واعتمدت في هذه النشرة أربع=

ولا ريب أنَّ بالبحث يوجد منه نسخ غير التي ذكرناها، وإنا نرجو ممن يقف على نسخ منه أن يكتب لمجلة المجمع، لعلَّ ذلك يكون سبباً لنشر هذا السِّفْر النفيس فتعمّ الاستفادة منه عُشَّاق الأدب والتاريخ والعلم[1].

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

= مخطوطات، أهمها نسخة المكتبة السعيدية بحيدر أباد الدكن، وهي التي اعتمدت أساساً للكتاب، ثم نسخة دار الكتب المصرية، ونسختان تحتفظ بهما دار الكتب القومية بباريس.

(١) يعدُّ كتاب «إنباء الغمر» من أهم كتب الحوليات في العصر المملوكي. وهو سجل ضخم، تقع مطبوعته في تسعة مجلدات، في (٣٢٨٣) صفحة. أرَّخ فيه الحافظ ابن حجر للحوادث الواقعة منذ مولده سنة ٧٧٣هـ حتى عام ٨٥٠هـ، واشتملت بعض حولياته على يوميات مفصَّلة، ويُرجَّح أنَّه شَرَع في تأليفه في شعبان ٨٣٦هـ. وعلى «إنباء الغمر» ذيل لتلميذه البقاعي (ت٨٨٥هـ) سماه: «إظهار العصر لأسرار أهل العصر» من سنة ٨٥٠ حتى سنة ٨٧٠هـ، وعلى «إنباء الغمر» أيضا ذيَّل شهاب الدين ابن الحمصي الدمشقي أحمد بن محمد الأنصاري (٨٤١-٩٣٤هـ) بتاريخه «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران»، وقال في مقدمته: «وهذا تعليق مفيد، جامع فريد، جمعت فيه ما يسَّره الله لي من حوادث الزمان، ووفيات الأعيان من الشيوخ والأقران منذ مولدي وهلمَّ جراً، مفصِّلاً في كل سنة على ما وقع لي، وحرَّرته وشاهدته واعتمدته، وهذا الكتاب يحسن أن يكون ذيلاً على تاريخ العلامة والبحر الفهامة قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر الشافعي المسمَّى بـ«إنباء الغمر بأنباء العمر» فإنه وصل فيه إلى تاريخ خمسين وثمان مئة وابتدأه من مولده سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة ووفاته رحمه الله سنة اثنتين وخمسين وثمان مئة، وجعل كتابه المذكور ذيلاً على تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير، وسميته: «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران».

حول كتاب: «الإمتاع والمؤانسة»[١]

جواب رسالة أحمد زكي باشا في استشكال تاريخ نسخ الكتاب سنة ٨١٥ باسم السلطان سليمان بن غازي

جاء فيما كتبه رئيس مجمعنا العلمي عن هذا الكتاب (في الجزء الثامن من المجلد السادس عشر ص٣٦٧) قوله:

وأخرجه الناشران الفاضلان **أحمد أمين بك، وأحمد الزين** من نسخة وحيدة مخطوطة محفوظة، والناسخ أعجمي جميل الخط لا يعرف ما كان ينسخ.

فعجبتُ لذلك لعلمي بوجود ثلاث نسخ منه: ثنتان في مصر في الخزانة الزكيَّة، كان العلَّامة البحَّاثة **أحمد زكي باشا** ـ رحمه الله تعالى ـ نقلهما بالمصوّر الشمسي، وكان قد عزم على طبعه، ولمَّا لم يكتفِ بهاتين النسختين واستشكل بما كُتب على إحداهما، أرسل لي كتاباً ذكر فيه عن أيِّ مكتبة نقل هاتين النسختين، ويسألني: إن كان في مكاتب حلب نسخة أو بعض نسخة، وهل عندي ما يزيل إشكاله فأجبته بالسَّلب في الأمرين.

والثالثة عند الشيخ **حمدي السَّفرجلاني** الدمشقي، نُسخت له أو استنسخ صورة عن كتاب العلَّامة **أحمد زكي** لمكانته وبيان ما قام به من جهود في الاستحصال على النسختين المتقدِّمتين وبحثٍ وتدقيقٍ فيهما كما هو شأنه.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان السابع والثامن، من المجلد السابع عشر: (١٣٦١هـ = ١٩٤٢م).

ولا أدري على أيٍّ نسخة من هذه النّسخ الثلاث طُبع هذا الكتاب ولعلَّه على هذه الأخيرة إذ لم يقل الأستاذ الرئيس إنها مأخوذة بالمصوّر الشمسي.

رسالة العلامة أحمد زكي باشا للشيخ راغب الطباخ:

واسْتَنْسَبْتُ أن أكتب كتاب العلَّامة زكي باشا بنصّه ليُعلم ما كان له فيه من جهود في الاستحصال على النسختين، وما كان له من بحث وتحقيق، وأرى أن ينشر هذا الكتاب، أو أن يُشار إليه على الأقلّ في الجزء الأخير. قال: «دار العروبة في ١٢ محرم سنة ١٣٤٩و٩ يونيو سنة ١٩٣٠»:

تـحيةً مباركةً وسلاماً طيباً، وبعـد: فإنني أحيط علـم الأستاذ بأنني كنت نقلت بالفوتوغرافية من القسطنطينية كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان، وهي كاملة تقع في ٨٥٤ صفحة، وطالما بحثتُ عن نسخة أخرى حتى علمت بوجود جزء في بغداد، ولكن الاستعلام أفاد أنَّ صاحبه مات، وأنَّ الكتاب (الجزء الأول) اندثر، ثم علمت بوجود نسخة في مكتبة ميلانو بإيطاليا، واستحضرتُ صورتها الفوتوغرافية وهي في ٢٣٧ ورقة، ولكنها مدشوشة دشتاً كله خلط من أوَّلها لآخرها والذي زاد في خلطها أن بعض الأوراق قد انفصل نصفها الأول عن الثاني إلى آخر ما هنالك.

والمطلوب الآن:

١ـ هل عندكم في حلب نسخة أو بعض نسخة؟ أم هل وصل إلى علمك شيء عند شخص آخر؟

٢ـ الجزء الثاني من نسختي مكتوب على طُرَّته أنه برسم خزانة السلطان الأعظم مالك رقاب الأمم مولى ملوك العرب والعجم مستخدم أرباب السيف والقلم باسط الأمن والأمان، ناشر العدل والإحسان، أبي المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازي ابن محمد الأيوبي ـ خلَّد الله تعالى مملكته وسلطانه، وأعلى في الخافقين عزّه وبرهانه ـ.

ثم كتب نفس الناسخ للكتاب من أوّله إلى آخره في الختام ما هذا نَصُّه بالحرف الواحد: «تمَّت الجزء الثاني من الكتاب «المؤانسة والإمتاع» بحَوْل الله وحُسْن توفيقه، في شوال سنة خمس عشر وثمان مئة».

ثم كتب هو أيضاً وبخطّه أيضاً على هامش الصفحة الأخيرة ما نصّه: من عواري الزمان دخل في نوبة العبد الفقير حسن المكنَّى بأبي الفضل المنشئ الشيرازي.

وهنا محلّ للعجب والاستغراب.

أولاً: إنه في سنة ٨١٥ لم يكن في الوجود أثر لسلطنة رجل من بني أيوب.

ثانياً: يصحّ لنا أن نتصوّر أن الكاتب أراد أن يكتب ست مئة فخانه قلمه وكتب ثمان مئة، وقد راجعت التاريخ فوجدت موسوعات الإسلام تقول: إنَّ غازي الأيوبي سلطان حلب توفي سنة ٦١٥، ولكنك أنت تقول في تاريخك الممتع أنَّ ذلك كان سنة ٦١٣[١]، (فربما أنَّ المستشرق الإفرنجي كتب ٣ فجمعها صفّاف الحروف ٥).

فيكون سليمان هذا تولَّى الملك سنة وفاة أبيه غازي سنة ٦١٥، أو كان على العرش بعد تلك الوفاة بعامين سنة ٦١٣، وقد رأيت صاحب «كشف الظنون» ذكره هو وابنه عند كلامه على «الدر الثمين في شعر الثلاثة السلاطين»، وهو مجموعة أشعاره وأشعار ابنه (السلطان أحمد)، وابن ابنه (السلطان خليل)، وحينئذ يصحُّ لنا أن نقول بأنه عند جلوسه على العرش أراد عملاً بسنَّة آبائه وأجداده أن يزيد خزانة كتبه استنساخ هذا الكتاب أو أن الناسخ (وهو شرف بن أميرة) أراد أن يتقرّب إليه بهذه النسخة المكتوبة بخط جميل جداً والمزوّقة في أولها بإطار بديع من الذهب واللازورد (باسم الخزانة)، ولا غرابة فالرجل شاعر وسليل بيت الملوك الصِّيد الذين كانت لهم اليد الكبرى في مناصرة

---

(١) الصواب ما ذكرناه في تاريخنا كما في أبي الفداء وغيره (الطباخ).

العلم والفنّ والأدب، وإلى هنا يصحُّ لنا أن نحكم بأن الكاتب أراد أن يكتب سنة خمس عشرة وست مئة، فكتب (وثمان مئة) وكتب اسم المالك القديم وهو أبو الفضل الشيرازي نقلاً لما وجده في النسخة المنقول عنها نقل مسطرة، وكان حقّه أن يقول: هذه النسخة منقولة عن نسخة كانت في ملك الشيرازي أو شيئاً آخر من هذا القبيل.

وهنالك وجه آخر للتخريج، أن هذا السلطان يكون جلس ومات أو انقلب عن العرش في ذلك الزمان المشحون بالقلاقل والاضطرابات، ولذلك لم أرَ له ذكراً في تاريخك أو لم يساعدني وقتي على زيادة البحث والتحرّي، ويكون الناسخ قد باع نسخته للشيرازي، وكتب بخطّه أيضاً عبارة الملك طبقاً للنصِّ الذي أعطي له ليحصل تناسق في الكتابة من الأول إلى الآخر.

والذي أرجوك الجواب عليه هو أن تبحث وتفيدني عن هذا السلطان مع الإشارة إلى المراجع والمصادر، فإنَّ النسخة تقول: إنَّ أباه غازي هو ابن محمد؟ وهل هنالك ذكر لولديه. ولابن الفضل الشيرازي (حسن) المنشئ ولذلك الناسخ شرف بن أمين.

كل ذلك لإتمام المباحث التي أباشرها لعلِّي أتمكَّن من طبع هذا الكتاب النادر النفيس. وسلامي عليك ولكلِّ الإخوان فرداً فرداً. والسلام. «أحمد زكي».

ثم إني عثرت منذ عهد قريب على ما يزيل عَجَب العلَّامة المرحوم واستغرابه، وذلك فيما كتبه صديقنا الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان في الجزء السابع من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع (ص٣١٢) تحت عنوان: «حلقة مفقودة من سلسلة التاريخ»، وذكر فيها ما أهمله التاريخ بصورة متسلسلة من ملوك بني أيوب في حصن كيفا.

قال: الملك العادل فخر الدين سليمان، وهو السادس من ملوك الحصن، وهو ابن المجاهد غازي بن الملك الكامل محمد بن الملك أبي بكر بن شادي.

ثم قال في التعليقات نقلاً عن «الشذرات»، و«الضوء»: هو الملك العادل فخر الدين سليمان بن الملك الكامل غازي صاحب هذه الترجمة توفي سنة [٨٢٧]، وجاء في ترجمته أنه بقي ملكاً نحو خمسين سنة.

فغازي والد سليمان هو من ملوك الحصن كما ذكره الأستاذ دهمان، وهو غير غازي ملك حلب الذي توفي سنة ٦١٣ وظنَّهما العلَّامة المرحوم واحداً حتى استشكل بما كتب على النسخة وهو سنة ٨١٥، فما كتب عليها هو صحيح والمراد بغازي ملك حصن كيفا المتوفى سنة ٨٢٧، لا غازي ملك حلب المتوفى سنة ٦١٣ ولا إشكال.

ومما يجدر ذكره هنا أن من جملة من اقتنى نسخة من كتاب «الإمتاع والمؤانسة» الشيخ محيي الدين بن العربي، وقد ذكره في خطبة كتابه «محاضرات الأبرار»، وأنه من جملة مصادره في هذا الكتاب وعبارته:

«وكل ما سطرته في كتابي هذا فمنه ما شاهدته أو حدَّثني من شاهده، ومنه ما نقلته من كتب مشهورة رويتها سماعاً أو قراءةً أو مداولةً أو كتابةً مثل كتاب «الإمتاع والمؤانسة» للفاضل الأديب النِّحرير أبي حيَّان التوحيدي ـ رحمه الله تعالى ـ».

وقال في ص٢٥٦ من الطبعة المطبوعة سنة ١٣٢٥ في مطبعة السعادة بمصر: «ذكر أبو حيان التوحيدي في كتاب الإمتاع والمؤانسة أن الفرس...» إلخ.

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

حول تاريخ الحافظ ابن كثير(١)

وصلني من عهد قريب الجزء الثالث عشر والجزء الرابع عشر من تاريخ «البداية والنهاية» للحافظ العلَّامة إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ، فرأيته ذكر في آخر الجزء الرابع عشر حوادث (سنة ٧٦٨) إلى شهر ربيع الآخر منها ولم يُعنون لها.

فعجبتُ لهذا لأني أعلم أنَّ النسخة المخطوطة من هذا التاريخ المحفوظة في مكتبة المدرسة الأحمدية بحلب، والتي هي في عشر مجلدات كبار تحت رقم ١٢١٧ قد انتهى التاسع منها الذي فيه الوَفَيَات والحوادث إلى سنة ٧٣٨هـ. وآخر العبارة فيه:

«وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وسبع مئة أحسن الله خاتمتها آمين. إلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام إلى زماننا هذا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وتابعيهما بإحسان إلى يوم الدين».

ثم هناك بخط آخر: «يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر وهو النهاية في أمور الآخرة آخر البداية في البعث والنشور». انتهىٰ.

والجزء العاشر يبتدئ بالملاحم والفتن في آخر الزمان.

---

(١) مجلة «المجمع العلمي العربي»، الجزءان السابع والثامن، من المجلد الثامن عشر: (١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م).

وبعد التأمُّل في أواخر الجزء الرابع عشر، وجدته قال في نهاية حوادث سنة ٧٣٨: كتبه إسماعيل بن كثير القرشي الشافعي عفا الله تعالى عنه آمين.

وهنا كتب المصحِّح في الذيل: كذا بسائر الأصول.

فهذا وذاك يفيدنا أن المؤلف قد انتهى تاريخه إلى هذه السنة، ثم قال في الأصل المطبوع: ثم دخلَتْ سنة تسع وثلاثين وسبع مئة، وأخذ في سرْد حوادثها ووَفَيَاتها إلى أن ذكر بعض حوادث سنة ٧٣٦ كما تقدَّم، وبها ختم الكتاب.

فهذه السنين أي من سنة ٧٣٦ إلى سنة ٧٦٨هـ هي بلا ريب لغير الحافظ ابن كثير.

ويؤيِّد ذلك أنه قال في ص٣٢١ في حوادث سنة ٧٦٧: أنه في شوال منها حضر الشيخ العلَّامة الشيخ عماد الدين بن كثير درس التفسير إلى آخره.

وهنا قال المصحِّح: كذا بنسخة الأستانة، وفي المصريَّة بياض نصف صحيفة من الأصل.

وهذا صريح في أنَّ الكلام لغير الحافظ ابن كثير وسقط كلام فيه أول السنة، وعند ذلك أحببت أن أقف على مؤلف الذيل، فأخذتُ في البحث فرأيتُ مكتوباً بخطي على هامش «كشف الظنون» في الكلام على هذا التاريخ: «أُنْظُر ما كتب في «ذيل ذيول تذكرة الحفاظ» الذي طبعه السيد حسام الدين القدسي الدمشقي في ص٢٥٠».

فرجعت إليه، فإذا هناك من تعليقات العلَّامة الفاضل الشيخ محمد زاهد الكوثري، على ترجمة العلَّامة أحمد بن حجي المتوفى سنة ٨١٦ ما نصُّه: وكتب ذيلاً على تاريخ ابن كثير، ذكر فيه حوادث الشهر، ثم من توفي فيه، وهو مفيدٌ جداً.

قال الحافظ السخاوي في «ضوئه» (ج١ ص٢٧٠): يبتدئُ من سنة ٧٤١، وينتهي سنة ٨١٥هـ.

قال ابن قاضي شهبة: كتب من سنة ٧٤١ ست سنين، ثم بدأ من سنة ٧٦٩ فكتب إلى قبيل وفاته بيسير، وكان قد أوصاني بتكميل الخرم المذكور فأكملته... الخ.

ثم رجعت إلى «ضوء» السخاوي (ج١ ص٢٧٠)، وإلى «الشذرات» (ج٧ ص١١٧) فوجدت الأمر كما قال.

فهنا تبيَّن أنَّ هذا الذيل من سنة ٧٣٩ إلى الآخر لا (٧٤١) بعضه لأحمد بن حجي، وبعضه لابن قاضي شهبة، وأنَّ ابن حجِّي ذيَّله من سنة ٧٦٩ إلى سنة ٨١٥، وأن ابن قاضي شهبة ذيَّله بعد ذلك إلى سنة ٨٤٠ في سبع مجلدات كبار، ثم اختصره في نحو نصفه، هذا ما ظهر لنا، والله الموفق للصواب.

محمد راغب الطباخ



حول مقالة الحسبة للفاضل كوركيس عوَّاد[1]

مخطوطات كتاب «نصاب الاحتساب» للسنامي وترجمته

قال في الكلام على «نصاب الاحتساب»[2]، لعمر بن محمد بن عوض السنامي: إنَّه قد أحصى منه عشرين نسخة متفرقةً في كثير من خزائن الكتب، وإنا نزيده خمس نسخ أخرى:

١ ـ في المكتبة الأحمديَّة بحلب، رقمها ٦١٠، محرَّرة سنة ١١٠٣هـ كتب في آخرها: أنَّه بلغ مقابلة من أوله وآخره، والحمد لله.

٢ ـ في مكتبة التكية المولوية بحلب، وهذه لم أنظرها لعدم تنظيم هذه المكتبة، وعدم فتحها.

٣ ـ في مكتبة جامع السلطان أويس في الموصل، محرَّرة سنة ١٠٩٥هـ.

٤ ـ في المكتبة الحسينية، محرَّرة سنة ١٠٩٥هـ أيضاً.

٥ ـ في المدرسة المحمدية، محرَّرة سنة ١٠٥١هـ.

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية» في دمشق، في الجزئين ٩، و ١٠، من المجلد ١٨، (رجب وشعبان ١٣٦٣هـ = ١٩٤٤م).

(٢) كتاب «نصاب الاحتساب» لعمر بن عوض السنامي المتوفىّ في الربع الأول من القرن الثامن الهجري، حقَّقه الدكتور: مريزن سعيد مريزن عسيري، وصدرت الطبعة الأولى في مكتبة الطالب الجامعي بمكة المكرمة سنة ١٤٠٦هـ، ويعدُّ الكتاب من أبرز الكتب التي تناولت نظام الحسبة وتطورها.

وهـذه النسخ الثلاث ذكرهـا الدكتور داود جلبي، في كتابـه «مخطوطات الموصل».

وإني أيضاً بحثتُ كثيراً على ترجمة المؤلف في مظانّها، فلم أقف لها على أثر[1]، ولعله مُتَرْجَمٌ في «الطبقات السنيَّة في تراجم الحنفيَّة» للمولى تقي الدين بن عبد القادر

---

(١) عرَّف المحقِّق بصاحب الكتاب عمر بن محمد بن عوض السنامي، وقال: «كان أحد علماء المسلمين الذين عاشوا بالمشـرق الإسلامي خلال القرن السابع، ولذا فمن الصعب الحصول على معلومات وافرة عن حياته»، وقد ولد في الهند، وينتسب إلى مدينة سنام في إقليم البنجاب، وقد نشأ الشيخ منذ نعومة أظفاره في بيت علم ومعرفة ممَّا كان له الأثر في إكسابه تلك الشخصية العلمية».

ويقول المحقق الدكتور مريزن عسيري: «إنَّ كتاب نظام الاحتساب للشيخ ضياء الدين عمر ابن محمد بن عوض السنامي هو واحد من كتب الحسبة المهمة، ويمثل مرحلة من مراحل تطور الحسبة في المشرق العربي، وتزداد أهمية هذا الكتاب أن مؤلفه مارس الاحتساب، وهو بذلك نتاج خبرة عملية تطبيقية، وهو عاش في الهند و عرف معلومات لم يسبق أن تطرق إليها أحد ممن سبقه من مؤلفي كتب الحسبة».

ويقول الدكتور حسام الدين السامرائي في تقديمه للكتاب: «إنَّ هذا السِّفر الجليل ـ إضافة إلى الأهمية القصوى كمصنف تعليمي للمحتسبين ـ فإنه يعكس وبشكل واسع أوضاع المجتمع الإسلامي في بلاد الهند خلال عصر المؤلف، ويكشف عما تعرض له ذلك المجتمع من أمراض اجتماعية واقتصادية وفكرية خطيرة، وما يتضمَّن من اعترافات علقت بالسواد الأعظم من سكان هذه البلاد في هذا العصر».

وأهمية كتاب «نصاب الاحتساب» ـ كما يقول المحقق ـ : «لا تقتصر على أنه من كتب الحسبة فحسب؛ بل إن المؤلف ضمَّنه كثيراً من الأحكام الفقهية المهمة، واعتمد في ذلك على أمهات الكتب التي ألفها علماء الحنفية.. وأن الكتاب تعرَّض لمعالجة المنكر في جوانب المجتمع المختلفة خلال تلك الحقبة».

التميمي الحنفي، المتوفى سنة ١٠٠٥هـ[١]، ونسخة من هذه «الطبقات» في الخالديَّة بالقدس، وهو جدير بالنشر[٢].

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

(١) الصواب أن وفاته كانت بمصر يوم السبت خامس جمادى الآخرة سنة عشر وألف وهو في سنِّ الكهولة رحمه الله، كما في «خلاصة الأثر» للمُحبِّي، و«الأعلام» للزركلي.

(٢) حققه الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه الله تعالى، ونشر أربعةَ مجلداتٍ منه في دار الرفاعي بالرياض سنة ١٩٨٣م.

حول كتاب «لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحب والمحبوب»[(١)]

الذي كَتَبَ عنه وعن مؤلفه العلَّامة الشيخ محسن الأمين الحسيني[(٢)]

قال في مطلع كلامه عن النسخة الموجودة لديه: إنه ذهب أوَّلها وآخرها.

هذا الكتاب منه نسخة نفيسة جداً في مكتبة الأوقاف العامّة الموضوعة في المدرسة الشرفية بحلب، وهي تامّة محرّرة سنة ٥٦٥، وهي أقدم كتاب في هذه المكتبة، وهي من وقف الشيخ أحمد القاري الحلبي المتوفى سنة ١٠٤١هـ على تكيّة الشيخ أبي بكر، وكانت أُحضرت مع البقيّة الباقية من كتب هذه التكيّة إلى مكتبة الأوقاف. كُتب على ظهر الورقة الأولى بالحبر الأحمر بخط قديم: «كتاب لوامع أنوار القلوب في جوامع أسرار المحبّ والمحبوب» للقاضي الإمام أبو (هكذا) المعالي عزيزي بن عبد الملك شيدلة ـ عفى الله ورضي عنه ـ.

أوله بعد البسملة: قال القاضي الإمام أبو المعالي عزيزي بن عبد الملك شيدلة ـ

---

(١) مجلة «المجمع العلمي»، الجزءان ٥ و٦ من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

(٢) هو السيد محسن بن عبد الكريم الأمين العاملي، ولد بقرية شقراء في جنوب لبنان عام ١٢٦٤، وسافر إلى العراق عام ١٣٠٨، ونزل في مدينة النجف، ودرس على عدد من شيوخها. ثم عاد إلى سوريا، واستقرَّ في دمشق سنة ١٣١٩، وفتح عدداً من المدارس وترك الكثير من المؤلفات، منها: «أعيان الشيعة»، «تاريخ جبل عامل». وتوفي في الرابع من رجب ببيروت عام ١٣٧١هـ ودفن في دمشق رحمه الله تعالى.

غفر الله له ورضي عنه ـ: الحمد لله الذي خلق فاخترع، وبدأ فابتدع، واختار من خلقه أوليا وأنقيا، ثم اصطفى منهم أحِبّا وأصْفِيا، وزيّن في قلوبهم حدائق حقائق معرفته، وزرع فيها حياض رياض الجنة الخ.

عدد صفحاته (٥٣٦) في كلّ صفحة (١٧) سطراً، وفي كل سطر (٩) أو عشر كلمات، ورقمه في المكتبة (٢١٦٢).

قال في آخره: وكان الفراغ من نسخه يوم السبت الثاني عشر من شهر رمضان سنة خمس وستين وخمس مئة، رحم الله من نظر فيه ودعا لكاتبه آمين يا رب العالمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

التَّصحيف والتَّحريف(١)

قال الأستاذ الرّئيس في مقالة التّصحيف والتّحريف (الجزء ١١ و١٢ من المجلّد ١٩): ومن الأئمة الذين ردّوا كلَّ كلام إلى نصابه الصّحيح في المتقَّدمين أبو أحمد العسكري المتوفى بعد ٣٩٥ وأنّ كتابه «التّصحيف والتّحريف» طبع الثّلث الأول منه، ولا يزال الأصل محفوظاً في دار الكتب المصريَّة... إلخ.

وجدت أنّ لهذا الموضوع المهمّ بقيّة لا ينبغي أن تهمل يعرف بها عناية المتقدِّمين بأمر التّصحيف والتّحريف وردّ الخطأ من الكلمات إلى الصّواب لما يترتّب على بقائه على الخطأ من تحريف الكلم عن مواضعه، ويبنى على ذلك تبدّل في الأحكام وغير ذلك.

وجُلُّ من عُني في هذا الباب هم علماء الحديث، وقسموا كتبهم في ذلك إلى قسمين: كتب في الخطأ الذي وقع في لفظ الحديث، وقسم في الخطأ الذي وقع في رجاله.

وأمامنا من القسم الأول كتيب مطبوع حديثاً في مصر وهو «إصلاح خطأ المحدّثين» للإمام المحدّث اللغوي أبي سليمان حَمد بن محمد الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨هـ، شارح سنن أبي داود المسمَّى «معالم السنن» الذي طبعته في مطبعتي في ٤ أجزاء. والكتيب في ٣٥ صفحة قال في أوله: هذه ألفاظ من الحديث ترويها أكثر النّاس ملحونة أصلحناها وأخبرنا بصوابها، وفيها حروف تحتمل وجوهاً اخترنا منها أبينها وأوضحها.

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزءان التّاسع والعاشر من المجلد العشرين: (١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م).

قال أبو سليمان: قوله ﷺ في البحر: «الطّهور ماؤه الحلّ مَيتته» عوام الرّواة يولعون بكسر الميم من الميتة يقولون «مِيتته» وإنّما هي «مَيتة» مفتوحة، يريدون حيوان البحر إذا مات فيه. والكتاب على هذا النَّسق.

قال معلّق حواشيه: إنّ المؤلف ذكر فيه نحو مئة وخمسين حديثاً أي ١٥٠ كلمة محرّفة.

وعقد علماء أصول الحديث المسمى بـ«المصطلح» باباً لهذا.

قال النووي والسيوطي في «التّـقريب»، وشرحـه «التدريب» في النوع الخامس والعشرين في بحث كتابة الحديث وضبطه:

نقل عن أهل العلم كراهية الإعجام أي: النقط والإعراب، أي الشّكل إلا في الملتبس. وقيل: يشكل الجميع. قال القاضي عياض: وهو الصواب لاسيما للمبتدئ غير المتبحر في العلم فإنّه لا يميز ما يشكل مما لا يشكل ولا صواب الكلمة من خطئه.

قال العراقي: وربّما ظنّ أنّ الشيء غير مشكل لوضوحه وهو في الحقيقة محلّ نظر محتاج إلى الضبط. وقد وقع خلاف في مسائل مرتبة على إعراب الحديث كحديث: «ذكاة الجنين ذكاة أمّه» فاستدل الجمهور على أنّه لا يجب ذكاة الجنين بناءً على رفع: «ذكاةُ أمه». ورجّح الحنيفيَّة الفتح على التّشبيه أي: يُذكَّى مثل ذكاة أمه. انتهىٰ.

وعقد علمـاء المصطلح باباً آخر لبحث **التّصحيف**، قال في «التّقريب وشرحه التدريب»: النوع الخامس والثلاثون معرفة المصحّف، وهو فنٌّ جليل مهمّ وإنّما يحفظه الحذّاق من الحفاظ، والدارقطني منهم وله فيه تصنيف مفيد، وكذلك أبو أحمد العسكري.

وقسّم الحافظ ابن حجر هذا النّوع إلى قسمين: أحدهما: ما غيّر فيه اللفظ

فهو **المصحّف**، والآخر: ما غيّر فيه الشّكل مع بقاء الحروف فهو **المحرّف**. ويكون في الإسناد والمتن. ويكون تصحيف لفظ ويقابله تصحيف المعنى، وبصر ومقابله تصحيف السّمع.

فمن التصحيف في الإسناد: «العوام بن مراجم» بالراء والجيم، صحّفه ابن معين فقال: «مزاحم» بالزّاي والحاء.

ومن الثاني: حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ احتجر في المسجد. وهو بالراء، أي: اتّخذ حجرة من حصير أو نحوه يصلّي عليها. صحّفه ابن لهيعة فقال: احتجم بالميم.

وحديث: «من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوّال» صحّفه الصُّولي فقال: شيئاً. وهناك ذكر أمثلة لتصحيف اللفظ وتصحيف البصر وفي سَرْد ذلك طول.

وقال في النّوع السابق: وينبغي أن يكون اعتناؤه بضبط الملتبس من الأسماء أكثر فإنّها لا تستدرك بالمعنى ولا يستدلّ عليها بما قبل ولا بعد.

قال أبو إسْحَاق النَّجِيْرِمِيّ: أولى الأشياء بالضّبط أسماء النّاس، لأنّه لا يدخله القياس ولاَ قبْلَه ولاَ بعْدَهُ شيءٌ يدلّ عليه.

وذكر أبو علي الغسَّاني أنّ عبد الله بن إدريس قال: لما حدّثني شعبة بحديث أبي الحوراء، عن الحسن بن علي كتبت تحته حور عين لئلا أغلط فأقرأه أبو الجوزاء بالجيم والزّاي.

وهذا النّوع يسمّيه علماء أصول الحديث **المؤتلف والمختلف** من الأسماء والألقاب والأنساب ونحوها. قالا: وهو فنٌّ جليل يقبح جهله بأهل العلم لاسيما أهل الحديث ومن لم يعرفه يكثر خطؤه.

وهو ما يتَّفق في الخط دون اللفظ، وفيه مصنّفات لجماعة من الحفّاظ. وأوّل من صنّف فيه: عبد الغني بن سعيد «حافظ مصر» المتوفَّى سنة (٤٠٩)، ثمّ شيخه الدارقطني وتلاهما النّاس.

ومن أحسنها وأكملها: «الإكمال» لابن ماكولا على أعوانه فيه. وأتـمّه الحافظ أبو بكر بن نقطة بذيل مفيد. ثمّ ذيَّل على ابن نقطة الحافظ جمال الدين ابن الصّابوني والحافظ منصور بن سليم، ثم ذيل عليهما الحافظ علاء الدين مغلطاي بذيل كبير، وجمع فيه الحافظ أبو عبد الله الذّهبي مجلّداً سمّاه «مشتبه النّسبة» فأجْحَف في الاختصار، واعتمد على ضبط القلم، فجاء أبو الفضل بن حجر فألّف: «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» فضمَّنه وحررَّه وضبطه بالحرف واستدرك ما فاته في مجلد ضخم، وهو أجلُّ كتب هذا النّوع وأتمّها. انتهىٰ.

وقال الحافظ ابن حجر في «النخبة» وشارحها العلاَّمة علي القاري في هذا البحث: وقد صنّف فيه أبو أحمد العسكري، لكن أضافه إلى كتابه التصحيف الموضوع بالمعنى الأعمّ، ولم يجعل تصنيفه مختصّاً بتصحيف الأسماء، ولهذا صار سبباً لإفراد غيره إيّاه بالتّصنيف. ثمّ أفرده بالتّأليف عبد الغني بن سعيد فجمع فيه كتابين: كتاباً في «مشتبه الأسماء»، وكتاباً في «مشتبه النّسبة»، وجمع شيخه الدارقطني (بعده) كتاباً حافلاً، ثم جمع الخطيب (البغدادي) ذيلاً، ثم جمع الجميع أبو نصر ابن ماكولا، (المتوفى سنة ٤٨٧) في كتابه «الإكمال» واستدرك عليهم في كتاب آخر جمع فيه أوهامهم وبيّنها، وكتابُه من أجمع ما جُمع في ذلك وهو عمدة كل محدّث. وقد استدرك عليه أبو بكر بن نقطة إلى آخر ما تقدّم.

أقول: أمّا كتابا الحافظ عبد الغني بن سعيد فهما مطبوعان معاً في الهند سنة ١٣٢٧هـ. قال في الأول: باب الألف آسيد وأُسيْد وأُسيّد. ثمّ ذكر من سُمَّي بها. ثمّ

قال: باب أفْلح بالفاء وأقلح بالقاف. ثمّ باب أحمد وأجمد وأحيد. وهكذا والكتاب في ١٣٥ صفحة.

وقال في الثّاني الذي سمّاه كتاب «مشتبه النسبة»: باب الأُبُلي والأَيْلي. وهكذا، وهو في ٨٠ صفحة. وأمّا كتاب «الإكمال» لابن ماكولا فقد تكلّم عليه العلَّامة السيّد هاشم الندوي الهندي في كتابه «تذكرة النّوادر من المخطوطات» في (ص٩٧) وقال: إنّ منه نسخة في الخزانة المصريّة، ونسخة في جامع القرويين بفاس، ونسخة في غاية الصّحة والنّدرة في خزانة أيا صوفيا، ونسخة في مكتبة تونك، ونسخة في المكتبة السّنديّة بخط جديد، ونسخة في المكتبة الحبيبية بخط جديد، ونسخة في المكتبة الآصفية بخط جديد.

وأمّا كتاب «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» الذي قال جلال الدين السّيوطي: إنّه أجلّ كتب هذا النّوع وأتمّها، فمنه نسخة في الأحمدية بحلب رقمها ٣٤١ محرّرة سنة ٨٥٩ أي بعد وفاة المؤلف بسبع سنين، وأخرى في المتحف البريطاني منقولة عن نسخة المؤلف، وأُخرى في المكتبة الرامفورية بالهند، وأُخرى في المكتبة الآصفيَّة بحيدر آباد الدكن.

ومن الضروري أن يُطبع كتاب أبي أحمد العسكري كما اقترح الأستاذ الرئيس، وكتاب «الإكمال» لابن ماكولا، وكتاب «تبصير المنتبه» للحافظ ابن حجر فإنّ فيها الكفاية في هذا الباب.

وصاحب «كشف الظنون» عدّ التّصحيف علماً وقال: إنّه نوع من أنواع علم البديع حقيقة، لكن بعض الأدباء أفردوه بالتّصنيف وجعلوه من فروعه. وموضوعه: الكلمات المُصَحّفة التي وَرَدَت عن البلغاء، وبهذا الاعتبار يكون من فروع المحاضرات. وفائدته وغرضه ومنفعته ظاهرة.

قال عبد الرحمن البسطامي[١]: أول من تكلّم في التّصحيف الإمام علي ـ كرّم الله وجهه ـ ومن كلماته في ذلك: خراب البصرة بالرّيح (بالراء والحاء المهملتين). قال الحافظ الذّهبي: ما علم تصحيف هذه الكلمة إلّا بعد المئتين من الهجرة، يعني خراب البصرة بالزنج (بالزاي والنون والجيم)، ثمّ ذكر كتاب أبي أحمد العسكري، وكتاب «التّصحيف والتّحريف» لأبي الفتح عثمان بن عيسى البلطي[٢] (هكذا) المتوفى سنة ٦٠٠هـ.

وناظمو البديعيّات أدخلوا التّصحيف في بديعياتهم، وعدّوه نوعاً من أنواع البديع، كما قال صاحب «الكشف» وهو غير التّصحيف الذي نحن في صدده، ويعلم الفرق بينهما من شروح البديعيَّات، وخصوصاً «خزانة الأدب» لابن حُجَّة[٣] فإنّ فيها الكفاية.

حلب

محمد راغب الطباخ

* * *

---

(١) عبد الرحمن بن محمد البسطامي الحنفي، ولد بأنطاكية وتعلم بالقاهرة، وسكن بروسة، وتوفي فيها سنة ٨٥٨. له عدة كتب منها: «مناهج التوسل في مباهج الترسل».

(٢) الإمام النحوي من بلط قرب الموصل، انتقل إلى الشام، وتوفي في القاهرة سنة ٥٩٩، كما في «معجم الأدباء». أما الطباخ فقيد وفاته سنة ٦٠٠.

(٣) الحَمَوي المتوفَّى سنة ٨٣٧، وطبع كتابه في بولاق سنة ١٨٥٧.

استدراك على ترجمة الأمير شكيب أرسلان[(١)]
حول كتاب «محاسن المساعي في تاريخ الإمام الأوزاعي»

قرأت في آخر الجزء الثاني من المجلد (٢٢) تلك الترجمة الحافلة للمرحوم العلَّامة الكبير الأمير: «شكيب» بقلم الأستاذ عارف النكدي، وأعتقد أنَّ هناك أعمالاً جليلة قام بها المرحوم هي مخبوءة في الزوايا.

من جملتها: كتابه الذي كان أرسله للسيد أسعد العينتابي أحد وجوه حلب من طبرق حينما أتى إليها ليشاهد عن كَثَب جهاد أهل طرابلس الغرب ومن حولها مع الإيطاليين بقيادة المرحوم أدهم باشا قولي، والكتاب أُعطي لمجلة «الجامعة الإسلامية» الحلبية، وسينشر فيها عما قريب.

ورأيت في الترجمة أنَّ من جملة مؤلفاته: «حُسن المساعي في تاريخ الإمام الأوزاعي» والحال ليس كذلك، فالكتاب مؤلَّف من قديم، ولكن المرحوم نشره وعلّق عليه تعليقات جليلة مفيدة جداً، وقد قال في مقدمة النشر:

وبعد، فإنني منذ سنتين اطَّلعت في برلين إذ أنا أنقِّب في خزانة الكتب الملوكيَّة على كُتيب اسمه: «محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي» لم يذكر فيه اسم مؤلفه وإنما ذكر في آخره اسم ناسخه الخ.

لما تلوتُ هذه العبارة عزمت على البحث عن المؤلف، وأخذت في التنقيب إلى

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزءان ٥، و٦ من المجلد الثاني والعشرين: (١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م).

أن ظفرت به في «الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع» (ج٢ ص٧٢)، فإذا هو: أحمد ابن محمد الموصلي الدمشقي، المتوفى سنة ٨٧٠ وقد قال في ترجمته ما نصّه:

وأفرد مناقب كلٍّ من تميم والأوزاعي في جزء، سمَّى الأول: «تحفة الساري إلى زيارة تميم الداري»، والثاني: «محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي».

وعلى أثر ذلك كتبت للمرحوم الأمير بعثوري على المؤلف، وأرسلت له جميع ترجمته وذلك بتاريخ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧ و٣١ أيار سنة ١٩٣٨.

وجاءني الجواب منه من برلين، وقد كان وقتئذ هناك، ونصّ كتابه:

«أشكر لك جداً الهدية التي أهديتني وإليها هديتني، وهي ترجمة أحمد بن محمد الموصلي الحنبلي الذي ظهر أنه هو صاحب: محاسن المساعي في ترجمة الإمام الأوزاعي».

ولقد صحّ حَدْس السيِّد علَّال الفاسي الذي قرأ في فهرس خزانة الكتب المصريَّة أن صاحب هذا الكتاب هو ابن حجر العسقلاني، فاستبعد أن يكون هو وكتب إليَّ برأيه، ثم إنَّ عندي من الأخ كرد علي كتابة ضمَّنها كتابه للمستشرق كرنكوي عن هذا الكتاب متى رجعت إلى جنيف إن شاء الله أنسخها لك.

على كلٍّ حال سنعيد طبع الكتاب، ونضمّ إليه ما جدّ عنه لدينا من المعلومات».

انتهى.

* * *

كتب ضبط الأسماء والألقاب

حَول ما كتبه الفاضل حمد الجاسر على المقدّمة التي وضعها

الأستاذ صلاح الدّين المنجّد[(١)]

لكتاب «طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب»[(٢)]

قال بعد أن ذكر الكتب التي سَرَدَها الأستاذ المنجّد ولم يبيّن مؤلفيها: ومن الكتب المؤلفة في الأنساب مما لم يذكره الأستاذ المنجّد:

كتاب «مشتبه النّسبة» لعبد الغني بن سعيد الأزدي (٤٠٩) في الظّاهريّة تحت رقم ٥٤٧ (حديث).

أقول: الذي نعرفه ويعرفه الكثير أنّ علم الأنساب علمٌ يعرف به نسب الشّخص إلى آبائه وأجداده، وتعرف بها القبائل ومن أين تنحدر وتتسلسل وتتشعّب.

وكتاب «مشتبه النّسبة» لا يمتّ إلى كتب الأنساب بصلة. فلا يحسن أن يعدّ منها بل هو كتاب لغة؛ يقصد منه ضَبط أسماء وألقاب وكُنى المحدّثين؛ لترتفع الشّبهة في رسمها وشكلها. ويترتّب على ذلك أمور عند علماء الحديث.

ولذا وضعته المكتبة الظّاهرية في قسم الحديث كما ترى، بل حقّها أن تضعه في

---

(١) مجلة «مجمع اللغة العربية»، الجزء الثّاني من المجلد السّابع والعشرين: (١٣٧١هـ = ١٩٥٢م).

(٢) للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول المتوفى سنة ٦٩٦ رحمه الله تعالى. وينظر مجلة «المجمع» ٢٦: ٢٢٣.

قسم المصطلح لأنّ معرفة ذلك نوع من أنواع المصطلح وتراه في كلّ كتاب منه.

وكتاب «مشتبه النّسبة» المتقدم لم يبقَ في عداد المخطوطات. بل هو مطبوع في الهند سنة ١٣٣٧ طبعة حجرية. ومعه كتاب «المؤتلف والمختلف في أسماء نقلة الحديث» للحافظ عبد الغني بن سعيد نفسه. والكتابان عندي ـ ولله الحمد ـ ومعهما «التّاريخ الصغير» للإمام البخاري، وكتاب «الضّعفاء» له، وكتاب «الضّعفاء» للنسائي.

ما المقصود بالمؤتلف والمختلف في هذا الفنّ؟

قال الحافظ ابن حجر في «شرح نُخبته»: وإن اتَّفقت الأسماء خطاً واختلفت لفظاً سواء كان مرجع الاختلاف النّقط أم الشّكل فهو المؤتلف والمختلف، ومعرفته من مهمّات هذا الفنّ، حتى قال علي بن المديني: أشدّ التّصحيف ما يقع في الأسماء. ووجَّهه بعضهم أنّه شيء لا يدخله القياس، ولا قَبْله شيء يدلّ عليه ولا بعده.

المصنفات في هذا الفن:

وقد صنّف فيه أبو أحمد العسكري، لكنّه أضافه إلى كتاب «التّصحيف» له. ثمّ أفرده بالتأليف عبد الغني بن سعيد، فجمع فيه كتابين: كتاباً في «مشتبه الأسماء»، وكتاباً في «مشتبه النسبة»، وجمع شيخه الدارقطني في ذلك كتاباً حافلاً.

ثمّ جمع الخطيب (البغدادي) ذيلاً، ثم جمع الجميع أبو نصر ابن ماكولا في كتابه: «الإكمال» واستدرك عليهم في كتاب آخر جمع فيه أوهامهم وبيّنها، وكتابه من أجمع ما جُمع في ذلك، وهو عمدة كل محدّث.

وقد استدرك عليه أبو بكر بْن نقطة ما فاته، أو تجدَّد بعده في مجلد ضخم.

ثمّ ذيَّل عليه منصور بن سَليم ـ بفتح السين ـ في مجلّدٍ لطيف، وكذلك أبو حامد الصّابوني.

وجمع الذّهبي في ذلك كتاباً مختصراً جداً، اعتمد فيه على الضّبط بالقلم، فكثُرَ فيه الغلط والتّصحيف المباين لموضوع الكتاب[١].

وقد يسّر الله تعالى لي بتوضيحه في كتاب سمّيتُه: «المنتبه بتحرير المشتبه»، وهو مجلّد واحد فضبطّته بالحروف على الطريقة المرضيَّة، وزدت عليه شيئاً كثيراً مما أهمله أو لم يقف عليه. انتهى[٢].

والحافظ ابن حجر لم يستقصِ بما ذكره كتب هذا النّوع.

والذي استقصى كتبه أو كاد هو شيخنا ومجيزنا العلَّامة الإمام السيّد محمد بن جعفر الكتاني ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: «الرسالة المستطرفة في كتب السنة المشرفة» فقد عدّد في كتب هذا النّوع من ص٨٦ إلى ص٩١.

نماذج من كتاب «المؤتلف والمختلف» لعبد الغني بن سعيد الأزدي:

وها نحن نذكر نماذج من كتابي الحافظ عبد الغني بن سعيد يتجلَّى أنَّ المقصود ضبط أسماء النّاس وألقابهم وكناهم وضبط نسبتهم إلى بلادهم أو حرفتهم.

قال في كتاب «المؤتلف والمختلف»:

---

(١) اسمه «مشتبه النسبة» طبع في ليدن سنة ١٨٦٧ منه نسخة في دار الكتب الوطنية بحلب (الطباخ).

(٢) منه نسخة نفيسة في الأحمدية بحلب محررة سنة ٨٥٩ أي بعد وفاة المؤلف بسبع سنين، ونسخة في المتحف البريطاني، وأخرى في المكتبة الرامفورية في الهند، وأخرى في المكتبة الآصفية بحيدر آباد الدكن. ذكر الفاضل الجاسر نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم (٢) (مصطلح) ورأيت في ذيل «دليل الفالحين شرح رياض الصّالحين» لابن علّان ما يفيد التعويل على طبعه من قبل لجنة، وأظنّ أنّه لم يطبع بعد (الطباخ). والكتاب طبع بالقاهرة بتحقيق علي البجاوي ومحمد علي النجار.

باب الألف:

أَسِيد. وأُسَيْد. وأُسيّد

فأما أَسِيد (بفتح الألف وكسر السّين) أَسِيد بن رافع وعدد كثيرين.

وأمّا أُسَيد (بالضّم) أسيد بن حضير وذكر غيره.

وأمّا أُسيّد (بالتّشديد وضمّ الألف) فهو أُسيّد بن عمرو الخ.

باب أفلح وأقلح:

أفلح (بالفاء) جماعة، وأقلح (بالقاف) واحد، وهو عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح. وهكذا إلى حرف الياء. والكتاب في ١٣٠ صفحة.

نماذج من كتاب «مشتبه النسبة» لعبد الغني بن سعيد:

وقال في خطبة كتاب «مشتبه النّسبة»: أمّا بعد فإنّي لما صنعت كتابي في مؤتلف أسماء المحدّثين ومختلفها، نظرتُ فإذا من ينسب منهم إلى قبيلة أو بلدة أو صنعة، قد يقع فيها من التّصحيف والتّحريف مثل ما يقع في الأسماء والكنى التي حواها كتاب «المؤتلف والمختلف» الذي تقدّم تصنيفي إيّاه قبل هذا الكتاب وغيره، فاسْتَخَرْتُ اللهَ تعالى وألّفت كتاباً في المنسوب منهم إلى قبيلة أو بلدة أو صنعة يشتبه انتسابه ـ في الخطّ ويفترق في اللفظ والمعنى ـ على من ليس له بذلك علم، ولا له به دربة. ثمّ قال:

باب الأُبُـلِّي والأُيـلِي:

فأما من يقال له: الأُبلي (بالباء المعجمة) بواحدة من أهل الأُبُلّة، فشيبان بن فروخ الأبلي، وعمرو بن يحيى الأبلي، وذكر غيرهما.

وأمّا الأيلي (بالياء المعجمة باثنتين من تحتها) من أهل أيلة، فحسين بن رستم الأيلي ويونس بن يزيد الأيلي،... إلخ.

باب الأزدي والأردني.

باب الأَسَدي والأسْدي.

باب البصري، والنصْري، والنَّضَري، والنَّضْري.

وهنا يذكر من هو الأزدي والأردني، وهكذا.

وهذا الكتاب في ٨٠ صفحة.

وذيول هذين الكتابين التي ذكرناها وغيرها من الكتب المؤلفة في هذا الفنّ كلها على هذا النّمط.

ثمّ ذكر الأستاذ الجاسر كتاب «المؤتلف والمختلف» لمحمد بن طاهر المقدسي، وقال: إنّه موضوع في الظّاهرية في كتب التّصوّف. فوضعه فيها لا أراه صواباً إلّا إذا كان معه عدّة كتب هي في فنّ التّصوّف.

ثمّ ذكر كتاب «التّوضيح لكتاب المشتبه»، و«توضيح المشتبه» لإبراهيم بن محمد الحنبلي، و«ذيل الإكمال» للحافظ محمد بن عبد الغني. فهذه كلّها داخلة في فنّ المصطلح فوضعها في المكاتب بينها، وعدّها من هذا الفنّ هو الصّواب، ولا يحسن أن تعدّ في جملة كتب الأنساب.

ورأيت للأستاذ غلطة هي من نوع ما نحن فيه. وهي: «النّور الجليّ في النّسب الشّريف النّبويّ» لحسن عبد الله النّجش، (هكذا بالنون والجيم).

والصواب: البَخْشِي (بالباء الموحدة المفتوحة والخاء المعجمة السّاكنة والشّين المكسورة)، وهو من علماء حلب وترجمته الحافلة في تاريخي «أعلام النّبلاء» منقولة عن «سلك الدّرر في أعيان القرن الثّاني عشر» للعلّامة المرادي.

محمد راغب الطباخ

«غاية الاختصار في أخبار البيوتات العَلَويَّة المحفوظة من الغبار»
ليس لتاج الدين محمد بن حمزة ابن زهرة الحُسَيني نقيب حلب(١)

كتب العلامة الطباخ في رسالته إلى يوسف إليان سركيس مؤلف «معجم المطبوعات العربية والمعربة»:

«أعلمكم أني بعد البحث والتحقيق، تبيَّن لي أن هذا الكتاب «غاية الاختصار في أخبار البيوتات العَلَويَّة» ليس لتاج الدين بن محمد بن حمزة ابن زهرة الحُسَيني نقيب حلب، بل هو من وضع الشيخ محمد أبي الهدى الصيادي، وقد نسبه إلى تاج الدين المذكور، وسبب وضعه له ما كان من المنافرة بينه وبين السيّد سليمان الكَيْلاني نقيب الأشراف في بغداد، وقد أثبت في هذا الكتاب نسبة الشيخ أحمد الرِّفَاعِي إلى البيوتات العَلَويَّة، وطعن في الكتاب الثاني الذي وضعه أيضا المطبوع مع هذا الكتاب وهو

---

(١) ترجمته في: «درر الحبب في تاريخ أعيان حلب» ١: ٤٠٩-٤١٠، و«إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» ٥: ٤٠١، و«أعيان الشيعة» ٣: ٦٢٨-٦٣٠، و«الأعلام» ٦: ١١٠. وقد نسب له كتاب «غاية الاختصار في أخبار البيوتات العَلَوية المحفوظة من الغبار» المطبوع ببولاق سنة ١٣١٠هـ، ثم طبع بالنجف سنة ١٣٨٢هـ، بتحقيق السيّد محمد صادق بحر العلوم. وقد شكك الشيخ محمد راغب الطباخ في نسبة هذا الكتاب إلى المترجم، وكتب رسالة إلى يوسف إليان سركيس مؤلف «معجم المطبوعات العربية والمعربة» وقال: «كتب لي العلامة الفاضل السيّد محمد راغب الطباخ صاحب كتاب «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» مايأتي...»، وأوردها سركيس في خاتمة كتابه المتقدم.

«مختصر أخبار الخلفاء» لابن السَّاعي بنسب الشيخ عبد القادر الكَيْلاني، وأن أكابره أصلهم من الفرس»[١].

* * *

(١) قال يوسف إليان سركيس: وأتى ـ أي: الطباخ ـ بأسباب أخرى تؤكد أن هذين الكتابين موضوعان أو ملفّقان. ينظر: «معجم النسَّابين» للأخ الكريم محمد بن عبد الله الرشيد في ترجمة ابن زهرة.